الحلل السندسية

في الأخبار والآثار الأندلسية

وهي معلمة أندلسية تحيط بكل ما جاء عن ذلك الفردوس المفقود

بقلم

الأمير شكيب أرسلان

من أعضاء المجمع العلمي العربي

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الحلل السندسية

في الأخبار والآثار الأندلسية

وهي معلمة أندلسية تحيط بكل ما جاء عن ذلك الفردوس المفقود

بقلم

الأمير شكيب أرسلان

من أعضاء المجمع العلمي العربي

الجزء الأول

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

دار الكتب العلمية

بيروت _ لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت

تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠

صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.

Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98

P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

الإهـداء

هدية روحية من المؤلف إلى روح أبي المطرف الخليفة أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الأموي الذي يعجب به المؤلف أكثر من كل خليفة حاشا الخلفاء الراشدين

المؤلـف

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً

الحمد لله قبلة الكلام، والصلاة على رسول الله باب السلام، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تشفي الأوام، وتقشع الظلام، وتكون لنا العدة الواقية في حشرجة الأنفس وسكرات الحمام؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله، النبي العربي الأمي الذي كرّم بني آدم بنعمة الإسلام، وجَنّبهم عبادة الأصنام، وسنَّمهم من التوحيد نعمة دائمة لا تَريمُ، وذروة عالية لا ترام، والذي نثر بدعوته يافوخ الشرك نثراً ليس له من بعده نظام، النبي الذي تمخَّض لظهوره الكون قبل أن تلج الأيام في الليالي والليالي في الأيام، والرسول الذي بلغت به الرسالة أمدها الأقصى فانطوت من بعده الصحف السماوية وجفّت الأقلام، إذ ليس وراء توحيد الله تعالى مذهب ولا بغير حبه تعالى هيام، ﷺ لباسها الدوام وشعارها اللزام، وسلم سلاماً نفحه الرَّند ونشره الخزام. ورضي الله عز وجل عن آله وأصحابه نجوم الهدى وبدور التمام، وأنصاره الذين ألزمهم كلمة التقوى وكانوا بها أحق الأنام، الذين أقبلوا على الأمم بالعقيدة الحق والأخلاق العظام، وطلعوا بخيل الله على المشرق والمغرب بسهام غير خطإ وسيوف غير كهام، ونشروا علم الفرقان الذي فرقت له قلوب الطواغيت وخفقت من الخوف سائر الأعلام، ففتحوا عذارى الممالك وأدركوا غرر الأماني بشدة الحزم لا بشدة الحزام.

وبعد، فإن من غرائز الجبلّة البشرية التي لا جدال فيها، تذكُّر الحوادث الماضية، والتحدث بالوقائع الخالية، والوقوف على الرسوم العافية، والاعتناء بحفظ الغابر إلى الحد الذي جعل الناس ينقشون الأخبار على الأحجار، ويزبرون القصص على الجماد، فضلاً عن أن يكتبوها في الأوراق ويحفظوها ضمن الأجلاد، خشية عليها من الضياع بتقادم العهد، وذهاباً بها عن النسيان بتطاول الدهر، وذلك بما فطر الله عليه هذا النوع من حب الاشراف والاطلاع، والغرام بالرواية والسماع؛ وبأن الإنسان يجتهد أبداً أن يحفظ الماضي، كما يجتهد أن يستدرك الآتي، فحياته عبارة عن وصل آخر بأول، وربط ماضٍ مع

مستقبل، وتعليل حديث بقديم، فلهذا لا يبرح بين أثر دارس يقف عنده، ورسم طامس يتعرّف خطبه، وكتابةٍ مطلوسة يفك حروفها، وحكاية مأثورة يتندّس نصوصها، تارة يعرضها على أصولها، وطوراً يقيسها بشكولها؛ وهو لا يزال يجمع بين قرائنها، حتى يدرك مباديها ويفقه مغازيـها، وكم للإنسان من سهر ليال، وبذل غوال، وأعمال حَلٍّ وترحال، وراء قصة مغلقة يستوحي حديثها، وقضية مُرْتَجَةٍ يستوخي نَجيثها؟ وكم من واقعة مبهمة ينشد عند الهيروغليف سرها، ولدى القلم المسماري بحيثها؟ سنة الله الذي أقام الناس عليها بإزاء أي علم وأمام أي سر، لا يتقيّدون فيها بقريب دون بعيد، ولا يقصرونه على حاضر دون غابر، ولا يختصون به موضعاً دون موضع؛ بل استشراف الأسرار، واستشفاف الأستار، همـا من لوازم الإنسان أياً كان متعلق العلم ومتسلق الفكر. إلاّ أنه إذا تعلق بالآباء والأجداد كانت النفوس به أولع، وإليه أنزع؛ وإذا اتصل بالقرابات والكلالات، أو انتسب إلى الديارات والمباءات، كان الحنين إليه أعظم، والتهافت عليه أسرع؛ فإن المرء ليحرص على مآثر آبائه، ما لا يحرص على مآثر سواهم، ويُعنَى بالقصص وراء أصوله ما لا يُعْنَى وراء من تعداهم؛ بل إن قسط همه من هذا الأمر هو على نسبة القرب والبعد، وبمقدار الفصل والوصل.

وكل أمة من الأمم تدرس تواريخ البشر أجمع، إلاّ أنها تجعل تاريخ سلفها هو العلم المقدّم، والدرس المقدّس، والبغية التي يجب أن تتوجه إليها خواطر ناشئتها، والغاية التي يتعين أن تُستحَثَّ نحوها ركاب نابهتها؛ لما في ذلك من وصل حديث بقديم، وربط آخر بأول، وإعادة فرع إلى أصل، ورد عجز على صدر. فإن كان الحاضر مماثلاً للماضي، والطريف غير مختلف عن التليد، فمغزى التاريخ هو حفظ التسلسل ومنع التخلّف، وحثّ الأخلاف على متابعة الأسلاف، وبناء المجد سافاً من فوق ساف، فإن الأمم هي في تنازع بقاء لا يفتر، وتزاحم ورد لا يسكن، وكل منها يبغي أن يحفظ كيانه، ويوطد بنيانه، ويحمي حقيقته، ويخلّد سجيته. بل يحاول أن يتقدم عما كان، وأن يطاول كل درجة إمكان. وإن كان الحالي مقصّراً عن الخالي، وقد عادت البدور أهلة، وذهب المجد إلاّ أقله، وصارت الأوساط أطرافاً، واستحالت الأثواب أطماراً، ولم يبق من تلك المعالي السوالف إلاّ أخبار وسِيَر ومَثُلات، وذِكَر وحكايات، يعتبر بها من اعتبر، كان درس تاريخ السلف أحسن وسائل النشاط من العقال، وأفضل حوافز الاستباق إلى الكمال، ليقال للناشىء: هكذا كان آباؤك، فأين أباؤك؟ وهذا ما فعله أجدادك، فأين جهادك؟ وإذا كان هذا فَرِيّ آبائك، فكيف ترضى أن تقصر عنهم، وإذا رضيت بأن تقصر عنهم، فقد يستبعد العقل أن تكون منهم. أيرضى أصحاب النفوس الأبيّة أن يقعدوا مع الخوالف، وقد كان

أوائلهم من السابقين الأول؟ أو أن يكونوا تابعين، بعد أن كانوا متبوعين، وأن يسودهم من كان لهم من جملة الخوَل؟

فإذا كان علم التاريخ ضرورة من ضرورات البقاء، فضلاً عن الارتقاء؛ وشرطاً من شروط اللحاق، فضلاً عن السباق؛ فأية أمة أجدر بمدارسته من هذه الأمة العربية ذات التاريخ الأمجد، والسنام الأقعس، والعرق الأنجب، واللسان الأذرب، والجهاد الذي شرّق وغرّب. أيام ملأت من الدهر مسمعَيْه، وضربت كل جبّار في أَخدعيه، وفرضت الذِلّة على جماجم الأكاسرة، وأطارت النُّعَرة من معاطس القياصرة.

قوم ابتسلوا للموت نفوسهم، فرفعوا في الحياة رؤوسهم؛ يركبون من البر والبحر كل غارب، ويلتمسون بالجيش دار المحارب؛ أحمت أنوفهم حياة القفر، وأعزّت نفوسهم الرمال العُفر؛ فكانت بلادهم عذارى تُخلف ظن كل فاتح، وعقائل لا ينتهى إليها الطيف فضلاً عن الطائف.

ثم لما جاءهم الإسلام بعزائم القرآن، وعزّز ما فيهم من خيمٍ كريم، وطبع سليم، بصلابة الإيمان؛ اندفقت سيولهم من منابعها، وخرجت سنابلهم من قنابعها؛ وملكوا ما بين الصين وبحر الظلمات في أقل من مائة عام، وأتوا من الأعمال ما لو حدثوا أنفسهم به من قبل لقيل إنه من الأحلام. على أنهم لم يلبثوا بعد ذلك العز الأمنع، والسناء الأسنع، أن انصاعوا انصياع الكواكب عند انكدارها، وأسرعوا إلى الهبوط سرعة المياه عند انحدارها. وذلك بتجردهم عما كان قد كساهم الإسلام من فضائل، وأهبّ فيهم القرآن من عزائم، وبسقوطهم في مثل ما كان قد سقط فيه أعداؤهم من الأعاجم؛ وبانغماسهم في الشهوات البدنية، وانصرافهم إلى السَّفْسَافَات الزمنية؛ وولوعهم بالانتقاض على أمرائهم، واشتغال الأمراء بأغراضهم وأهوائهم، وتخلّف العلماء عن تقويم مُنَآدهم، وردعهم عن فسادهم. فمشى الفساد في جَنَبَاتهم، وطار الطيش بعَذَباتهم، وتنازعوا ففشلت ريحهم، وجاءت تباريحهم؛ وتنكروا؛ حتى لو عُرضوا على السلف في أجداثهم لجهلوهم، وتغيروا، حتى لو نُشِر الآباءُ وتلاقوا بأبنائهم لأهملوهم؛ فجنوا من انقلاب أخلاقهم فقد خَلاقِهم، ونالوا من اعوجاج مسالكهم، ضياع ممالكهم؛ وبعد أن كانت أَنفتهم ملء العرانين، وحميتهم ملء الحيازيم، صاروا يرضون بكل حطة، ويسلكون من الهوان كل خطة، وهووا عن صهوات ذلك المجد العظيم، وأُخرجوا من جنّات وعيون وكنوز ومقامٍ كريم.

وكان من أنفس ما سدّدهم الله إلى فتحه، وقيّض لهم بالجهاد الطويل وسائل ربحه، هذه الجزيرة الأندلسية الخضراء، الخطة العذراء، والدرة الدهماء، والبقعة الجامعة بين الشموس والأفياء، الرافلة في حلل موشية من حوك الأرض وطراز السماء، فأتوها من كل

فج، بين محتسب ومكتسب، وراغب في الدنيا وماهد للآخرة، وساموا ولايتها بالنفقات الوجيعة، والبطشات الذريعة؛ والنفوس السائلة أنهاراً، والجماجم الطائرة أسراباً، والجيش يتلو الجيش، والبعث يردف البعث، وما زالوا يغاورونها بخيلٍ لا تنحط لبُودها، وفوارس لا تفارقها زرودها، ويُريغونها من بين أيديها ومن خلفها، وعن أيمانها وشمائلها، إلى أن ذلّلوا أعرافها، وألانوا أعطافها؛ فخيّم الإسلام بعُقْرتها تخييم من أجمع الاعتمار، وسكن إليها سكنى من ألقى عصا التسيار، وأمدتهم جزيرة العرب بأفلاذ أكبادها، ورمت أعداءهم بأنجاد أجنادها؛ وكانوا لولا العصبية بين القيسية واليمنية، والخلاف على الخلافة بين الأموية والعباسية، وما أُضيف إلى ذلك من ملاحم بين القبائل العربية والبربرية؛ قد ألحقوا بالأندلس جميع الأرض الكبيرة، وصارت لهم جوفيَّ جبال البرانس أندلسات كثيرة؛ ولكن اشتغالهم بفتنهم الداخلية، وإنهماكهم بمشاجراتهم العائلية، وبقاء ما بقي في طباعهم من حمية الجاهلية، واستبدالهم ملوك الطوائف، بجيوش الصوائف، وحركات الفساد، بحركات الجهاد، ورضاهم عن تحمل الهزائم، بدلاً من تجريد العزائم؛ كل ذلك أعاد تقدمهم تأخراً، وردّ تجمعهم تبعثراً، حتى صار عدوهم في الجزيرة قسيما لهم مشاركاً، وخليطاً معهم مشابكاً؛ وكان هو لم يبقَ له من البلاد إلاّ الجبال والصخور، ولم يملك إلاّ ما تركه له العرب من مسارح الغزلان وأوكار النسور؛ وكانوا هم رتعوا في كل روض نضير، وملك كبير، ومالوا إلى طعامٍ أنيق وفراش وثير، وجرّروا من التيه مطارف سندس وحرير، وأغْرَتهم السعة بالدعة، وأفضى بهم الرخاء إلى الارتخاء، وأورثتهم رفاهية العيش قلّة الانتخاء. وشتان بين من ألف الترف ومال إلى الهوى، وبين من لزم الشظف وطوى على الطوى. ولله در من قال عن وقعة بطرنة بقرب بلنسية، وقد مُحِّص فيها المسلمون:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستمُ حُللَ الحرير عليكُم ألوانا
ما كان أقبحَهم وأحسنَكم بها لو لم يكن ببطرْنةٍ ما كانا

وهكذا لم يزل المخشوشن يفتك بالمتنعّم، حتى دوّخه؛ والمحروم يوقع بالمترف، إلى أن ريّخه؛ والشقاق مع ذلك بين المسلمين لا تنطفىء ناره، ولا تنقطع أخباره، والإصلاح بينهم تُخفق مساعيه، والشر أبداً تَجَادَعُ أفاعيه؛ لا ينجع في عقولهم بليغ نصح، ولا يعوج بأسماعهم نذير خطب؛ ولا يعوّلون على شاهد نقل، ولا دليل عقل، ولا يعتبرون بحلول بَثْق واقع على بثق. تنزل بهم كل هذه القوارع وهم في سكرتهم يعمهون، ويقرأ عليهم الدهر كل يوم سورة الغاشية فلا يتدبرون، ولا يسمعون، و ﴿يُفتنون في كلِّ عامٍ مرةً أو مرَّتَيْن ثم لا يَتوبون، ولا هم يذّكّرون﴾ وأخيراً تناثروا بِدداً، وتطايروا قِدداً، فلكلِّ بلدة

دولة وأمير، ومنبر وسرير؛ وكل جار لجاره مناظر لا نظير، يجور عليه ولا يُجير، ولا يغار عليه بل يُغير!

وتفـرقـوا شيعـاً فكـلُّ مـدينـةٍ　　　فيهـا أميـر المـؤمنيـن ومنبـرُ

وهم في أثناء هذا يتسابقون في ميدان الاستعانة، بعضهم على بعض، بالطاغية الذي يساومهم على المناصرة بتسليم الحصون، وتعطيل الثغور، والانهزام بلا سيف، والرضى بكل حيف، ويواطئون على حوزة الإسلام علنًا (ويأخذون عَرَضَ هذا الأدنى ويقولون سيُغفر لنا) والعدو كل يوم يتقدم، وحوض الإسلام كل يوم يتهدم؛ والخلاصة؛ ما زال يطغى وهم يحسِرون، ويمد وهم يجزرون، ويطول وهم يقصرون، إلى أن عادوا إلى علَم ناكس، وصوت خافت، وباتوا ـ كما يقال ـ طوع كل شامت؛ وتوقع كل عاقل الفاقرة الكبرى، وأن من هو باق بسيف البحر ليس بثابت؛ وما كانت إلا شفافة في إناء الأندلس أراد العدو أن يستصفى سُؤرها، وبقية فيما وراء البحر صمم أن يقتلع جِذرها، وجاءهم ذلك حينما لم يبق مرابطون ولا موحدون، ولا أبطال يجاهدون في سبيل الله فيقتُلون ويُقتَلون، بل حينما كل ملك بالعُدوة مشغول بسد فتوقه، وحفظ حقوقه؛ سعيد بأن يثبت في مكانه، راضٍ بأن يخلص من عادية جيرانه، بل من غائلة إخوانه. فكيف يستطيع أن يركب البحر لينازل الطواغيت، ويجمع من الإسلام ذلك الشمل الشتيت؟ فأراد الله أن يتركهم وشأنهم، وهو تعالى المحيى المميت. واستأسد بذلك العدوّ، فلم يزل يواثبهم ويكافحهم، ويغاديهم القتال ويراوحهم، حتى أجهضهم عن أماكنهم، وجفلهم عن مساكنهم، وأركبهم طبقاً عن طبق، واستأصلهم بالقتل والأسر كيفما اتفق؛ ورُدوا في الحافرة، وصاروا رهن هوى الأمة الظافرة. ومن اختار منهم الدجن انتقلوا تدريجاً إلى دين الطاغية ولسانه، فخسروا الدنيا والآخرة، وصاروا عبرة في العالمين ﴿وتلك الأيامُ نُداوِلُها بين الناس، وليعلَم الله الذين آمنوا ويتخذَ منكم شهداء، واللَّهُ لا يحبُّ الظالمين﴾.

نعم؛ حواضر كالبحار الزاخرة، كانت تموج بالبشر؛ وحصون كالجبال الشامخة، تحصى بالألوف وتكبو فيها جياد الفِكَر، وجيوش كانت حصى الدهناء، ورمال البطحاء، ومساجد كانت في الجمع المشهورة تغصُّ بألوف الألوف من المصلين، ومدارس كانت مكتظَّة بالألوف من القراء والطالبين، وما شئت من إسلام وإيمان، وحديث وفرقان، وأذان يملأ الآذان، وما أردت من نحو ولغة وطب، وحكمة ومعان وبيان، بلغة عربية عربآء، يحرسها علماء كنجوم السماء[1]؛ وما أردت من عيشٍ خضل وزمن نضر، وحَزَرات أنفس،

(١) قال العلامة دوزي المستشرق الكبير الهولاندي، أوثق أوروبي كتب عن الأندلس، وذلك في كتابه «مباحث عن تاريخ اسبانية وآدابها في القرون الوسطى» Recherches sur l'histoire et la litérature=

وضَحِكات قلوب. كل هذا عاد كهشيم المحتظِر، كأن لم يغْنَ بالأمس، ولم يبقَ منه إلاّ آثار صوامت، وأخبار تتناقلها الكتب، كأنه لم يعمر الأندلس من هذه الأمة عامر، ولا سمر فيها سامر. قال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾.

وبقيت الأمة العربية تنوح على هذا الفردوس المفقود الذي هبط منه أهله بأعمالهم، نحواً من أربعمائة عام، نواح الثاكل لولده لا يريد أن ينسى مصابه، ولا يفتأ يذكر فصاله؛ ولما كنت من جملة هذه الأمة الباكية على ذلك الفردوس الضائع، أولعت من أوائل صباي بقراءة تاريخ الأندلس، والتنقيب عن كل ما يتعلق بالعرب في تلك الجزيرة، حتى إني لما اطلعت على رواية «آخر بني سراج» للكاتب الافرنسي الكبير «رينه شاتو بريان» بادرت بنقلها إلى العربية وذيلتها بتاريخ للأندلس نشرته من أربعين سنة؛ ثم نفدت نُسَخُهُ بأجمعها، فأعدت طبعه منذ إحدى عشرة سنة، وقد قلت في خاتمة كتابي ذاك ما يناسب أن أعيده هنا، رَعياً لكون الغرض الذي حداني يومئذ إلى نشر ذلك الملخّص، وهو نفس الغرض الذي يحدوني اليوم إلى نشر هذا المطوّل؛ فالروح التي أملت ذاك هي التي قد أملت هذا، وكلامي الأول هو كلامي الآخر، ولو كَرّت الأيام وتعددت الأعوام، قلت:

«ولا أكتم القارىء الذي هو خليق بأن لا يخفى عليه ذلك بشفوف بصره ولطف حسّه، أن الأمر غير خال في هذا الإملاء، من نزعة جنسية، وحنوة عصبية، وهفوة للفؤاد وراء آثار الجلدة، مما تُستشعر فيه مرضاة هذه النفس، العظيمة السر، البعيدة مهوى الغرض، الغريبة شكل الهم، وتُوفَّر به اللذة والراحة لهذا الوجدان الداخلي، السائح في إثر ما يتعلق بالنفس من جميع جهاتها، على ترجيح الأقرب فالأقرب؛ وقد طبع الخالق الحكيم هذا المرء على حب جنسه، والميل للاتصال بأبناء أبيه، فكأنما يتمثل بذلك صورة نفسه التي هي جزء من هذا المجموع، لما يُحِسُّ من أن أقرب أنواع الدم إلى دمه، هو الجار في عروق قومه؛ فهو يحنّ إليهم ويحنو عليهم، ويتألم لألمهم، ويعتزّ بعزهم؛ وتراه إذا غابت أشخاصهم استأنس بآثارهم بعد الأعيان، وارتاح إلى مواطنهم ورغب في الدوس على

= de l'Espagne pendant le moyen âge ما يلي: «إنهم كتبوا (يعني الاسبانيول) تاريخ وطنهم الذي منه عدة مقاطعات تولاها العرب مدة ثمانية قرون، وذلك بدون أن يعرفوا لغة العرب. ولما لم يكونوا قادرين على مراجعة الكتب العربية كان لا مناص لهم من الخبط عند كل خطوة كلما أرادوا الكلام عن الدول العربية أو عن الحرب والسلم بين المسيحيين، ولهذا تجد كثيراً من الحقائق التي هي في الدرجة القصوى من البال مجهولة عندهم مع أنها متعلقة بأخبار ممالك النصارى، وذلك لأن هذه المعلومات لا توجد في الكتب اللاتينية ولا الاسبانيولية بل في كتب مؤرخي العرب وأدبائهم وشعرائهم، لأن اسبانية المسلمة هي البلاد الأوروبية التي في القرون الوسطى كتب فيها أكثر من الجميع، والتي كان فيها المذهب التاريخي أكمل وأدق منه في أي مكان».

مواطىء أقدامهم ولو بعد أزمان. وقد عهدنا الذي يصاب بعزيز أو بذي قرابة يختلف إلى قبره، ويشفي بالبكاء عنده حرارة صدره؛ وإذا ظفر بقطعة من ملبوسه، أو مفروشه أو برقعة من خطه، احتفظ بها، وغالى في قيمتها، وجعلها مدار أنسه، في خلوات نفسه، وروْحَ حياته في منتبذ مناجاته. وبناءً على هذا الشعور أولع الخلق بحفظ آثار الغابرين، وتطلعوا بغريزةٍ فيهم إلى معرفة سِيَر السالفين، ووقفوا على الأطلال الدوارس، وبكوا على الدمن البوالي، كأنما يجدّدون عندها عهودهم مع آبائهم، ويشدّون لديها معهم عروة وفائهم».

إلى أن أقول: «فياليتنا نتبع الآن سنن من قبلنا، ونقتدي بسلفنا، ونبني بناء أوائلنا، ونعتبر بحمراء غرناطتنا، وخضراء دمننا، ونتأمل في سالف عزها، وسابق أمرها، ونتجنَّب الفرقة التي آلت إلى فقدها، ونسأل رسومها عما مضى من نَعيمها، فهي رسوم إن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً؛ فلا يكونَنَّ دائماً من شأننا أن نتباهى بمجد الأوائل ونفاخر بالعظم الرميم، دون أن نقتص أثر الآباء ونحيي ذكر القديم، ولا يبقى من نصيبنا في المجد إلاَّ حديث سمر، ومجرّد ذِكَر. وما أحسن ما قال شوقي شاعر العصر:

وذاتِ دلالٍ من بني الروم حولها	إذا ما تبدَّت إخوة سبعة مُرُدُ
عُنيت بها حتى التقينا فهزَّها	فتىً عربيٌّ ملءُ بردته مجدُ
فقالت: أطِيبٌ بعد عسر وشدةٍ؟	فقلت: نعم مسكٌ الأحاديث والندُّ
عطَلنا من النعمى وطُوِّق غيرنا	تداولت الأيام وانتقل العقدُ
وما ضاعت الدنيا علينا وحسنها	ولكنَّ عن أغصانه رحل الوردُ

هذا، وكان الفراغ من كتابة هذا التاريخ، ليلة السبت الواقع في السادس والعشرين من المحرم سنة خمس عشرة وثلثمائة بعد الألف»اهـ.

فأنت ترى أن الكتاب الأول قد مضى عليه أربعون سنة، وهي مدة تسمى عمراً، ولقد سمعت من كثير من أعيان الأمة العربية أنهم قرؤوا كتابي ذاك في وقته، وتتبعوا حوادث سقوط مملكة غرناطة وجلاء المسلمين الأخير من الأندلس باهتمام عظيم، ودمع سجيم. وقال لي بعضهم إنهم قرؤوه مرتين، وإن منهم من كان يبكي، ومنهم من كان يتلهَّب وجداً، ومنهم من كانت مهجته تذوب حسرة عند قراءته. وقد تضاعفت الآن هذه الذكرى، وبعد مضي هذه السنين الأربعين ازداد الولوع بتاريخ الأندلس، بازدياد الناشئة المقبلة على العلم، وبنموّ الشعور العربي في جميع طبقات هذا الشعب، سواء منهم من في الشرق ومن في الغرب، ولا يزال هذا الشعور في نموّ، وما برحت هذه الهمم في سموّ؛ ولا عجب فإن قوة الأمة على قدر ما مجَّت من مشارب العلم، وارتقت من درجات الثقافة الجم، والأمة العربية في هذه المدة قد اجتازت عقبات جياداً، وقطعت أشواطاً طوالا، وسارت السير

النّجاء، وشمَّرت التشمير الباعث على الرجاء؛ فأخذت تُحفِي سؤال التاريخ عن ماضي أحوالها؛ كما صرفت معظم بالها، في توطيد استقبالها.

ولهذا رأيت أنه من أمثل ما يمكنني أن أخدم به هذه الأمة، قبل انصرافي من هذه الدنيا، هو أن أهدي ناشئتها عن هذه القطعة النفيسة من تاريخها، كتاباً شافياً للغليل، جامعاً لأقطار هذا البحث، ناظماً بين القديم والحادث، مقابلاً بين ما قاله العرب وما قاله الافرنج

وكنت قدَّمتُ بين يدي هذا التأليف رحلة قمت بها من ست سنوات في أكثر أنحاء أسبانية، لأقرن الرواية بالرؤية، وأجعل القَدَم رِدْاء للقلم، ونويت أن أجعل الرحلة أساس الكلام وواسطة النظام، وأن أضم التاريخ إليها، وأفرِّع التخطيط عليها.

ومن أجل ذلك كنت نويت أن أسمي هذا الكتاب بـ «الحلة السندسية في الرحلة الأندلسية» وأشرت إلى هذا الاسم في كتابي المنشور من سنتين، الموسوم بـ «غزوات العرب في جنوبي فرنسة وشمالي إيطالية وفي سويسرة وجزائر البحر المتوسط» الذي عددته جزءاً من كتابي الأندلسي. إلا أني رأيت فيما بعد أنَّ ما نحن بسبيله قد اتسع جداً عن الرحلة، وأن الاسم قد ابتعد عن المسمَّى، وأن الكتاب قد يقع في عدة مجلدات كبار، وقد يكون أوسع كتاب عربي كتب عن الأندلس؛ هذا إذا فسح الله في الأجل، ووفق للعمل، فعدلت إلى اسم آخر يشعر ما أنا متوخيه من الإحاطة بقدر الطاقة، وهو «الحلل السندسية، في الأخبار والآثار الأندلسية» وآليت لأبلغنَّ فيه جُهَيْداي، وأعقل به ما شرد عن سواي. ولم أقصد في ذلك تنبُّلاً على الخلق، ولا تزيداً فيما ليس بحق، وإنما أردت النصح ما استطعت، والتمحيص ما قدرت. والعلم أمانة، من حملها فقد حمل إدّاً وتجشم بُهْراً. والتاريخ من عالجه فقد رقَى حَزْناً وركب خشناً. فإن كنت قرطست أو قاربت، فقد بلغت من عملي المراد أو بعض المراد؛ وإن كان سهمي قد طاش، فكم فتى حامَ وما ورد، وغنَّى وما أطرب، ولكن شفع له الاجتهاد.

ولقد سهرت في هذا التأليف ليالي متمطيات بأصلابها، تحقيقاً عن لفظ، أو تنقيباً عن اسم، أو ضبطاً لرواية مختلف فيها، أو لعدد أقلّ فيه الواحد وأكثر الآخر، أو تعيناً ليوم واقعة من أيِّ شهر أو من أية سنة، أو مقابلة بين ما قاله عربي وما قاله أوربي عن الحادثة الواحدة، أو تعريباً لعَلَم اسبانيولي على الوجه الذي كان يقوله العرب، أو تبيناً لعَلَم عربي كيف كان يتلفظ به الاسبانيول، وما أشبه ذلك مما أذبت له سواد العيون. وأحييت كثيراً من الليالي الجون. ولا أزعم مع ذلك أني بلغت به الأمد الذي ينجيه من تعنت الحساد، أو يعليه على تصفّح النقَّاد، ولكني بلغت فيه الجهد، وأبليت العذر، ولم أُبق في القوس منزع ظفر.

ومما لا بد لي من الإشارة إليه في هذه المقدمة أني اخترت النقل عن المؤلفين ما استطعت، لتكون هذه الموسوعة في هذا الموضوع معرضاً للآراء، ومجمعاً للأفكار التي يطلع منها القارىء على الصور المختلفة التي كانت عن مملكة العرب في الأندلس، في أذهان الذين عاشوا في ذلك العصر وكتبوا عنه، أو في أذهان من كانوا على مقربة منه. ولم أشأ أن أصنع ما يصنعه الكثيرون من أخذ الشيء عن الآخرين وإبرازه للناس كأنه من ورى زنادهم، وفيض قرائحهم؛ فليس هذا مذهبي في الكتابة، ولا أراه الطريقة المثلى في التأليف؛ وإنما ينقل الإنسان ما يستطيع الاتصال به من آراء الناس ورواياتهم، ثم يشفعها برأيه الخاص، وبالرواية التي يكون قد جزم هو بها، أو رجحها على غيرها بحسب اجتهاده؛ وله أن يستدل على صحة رأيه أو ثبوت روايته بما وجد من قرائن، وآنس من شواهد، وللقارىء بعد ذلك أن يذهب في الترجيح والتجريح كيفما شاء بحسب ما يؤديه إليه نظره.

ولهذا نقلت ما قدرت أن أعثر عليه من الفصول المتعلقة بالأندلس، عن المسعودي، وابن حوقل، والمقدسي، والشريف الادريسي، وابن الأثير، وياقوت الحموي، وابن عذارى، وابن بشكوال، وابن عميرة، وابن الأبّار، وابن خلدون ، ولسان الدين بن الخطيب، وصاعد الطليطلي، والهمداني والقلقشندي، والمقرّي صاحب نفح الطيب، وغيرهم من مؤلفي العرب؛ ونقلت أيضاً عن دوزي المستشرق الهولندي، وعن رينو المستشرق الأفرنسي، وعن أيزيدور الباجي، وغيره من مؤلفي القرون الوسطى، وعن أصحاب الانسيكلوبيدية الإسلامية، وعن لاوي بروفنسال من المعاصرين، وعن المسيوجوسه P. Gousset صاحب جغرافية اسبانية والبرتغال، وعن بديكر، وعن بعض علماء الاسبانيول مثل سيمونه Simonet وكوندي Conde وعن دومارليس De marlês وعن كتب أخرى اسبانيولية استعنت على ترجمتها ببعض أصحابي من الأسبان، ومن غيرهم. وعزوت الروايات إلى أصحابها، ونقلت كثيراً من الفصول بنصوصها، أو تلخيصاً مع التعليق عليها في الحواشي بما عن لي مخالفاً أو موافقاً.

وهناك اصطلاح آخر، جرى عليه بعض مؤلفي الافرنجة، وتابعهم فيه الشرقيون وهو إرسال الكلام من عندهم في الموضوع، ثم الاستشهاد بأقوال الآخرين بادماج بعض الجمل المأخوذة عنهم، وذلك في صلب الكلام مع الإشارة في الحاشية إلى مأخذ تلك الجمل؛ ولست أرى في ذلك بأساً، وإنما ألاحظ هنا أن المؤلف قد يكون له رأي خاص في مسألة من المسائل، فيهمه تأييد رأيه، فينقّب في الكتب عن كل ما يعزّز وجهة نظره، وكلما وقع على جملة لمؤلف رأى فيها تقوية لنظريته نقلها دون سواها، وأدمجها في كلامه، فربما

جاءت بتراء لا يعرف ما تقدمها ولا ما تأخر عنها، وربما جاء نقل تلك الجملة من قبيل «ولا تقربوا الصلاة» وحذف «وأنتم سكارى» فمن المعلوم أن الحكم لا يصح باعتبار جملة واحدة لمؤلف، وإنما يصح باعتبار مجموع كلامه بعد تصفحه بحذافيره. وهذا الذي حداني إلى نقل فصول بأصبارها، أخذ العِذْق بشماريخه، ولو كان في خلالها ما ليس عندي بثبت، وما اضطررت أحياناً إلى رده.

وإتماماً للفائدة رأينا تزيين هذا الكتاب باطالس جغرافية، محررة فيها أسماء البقاع والمدن، باللغة العربية؛ ورصّعناه بتصاوير لم يسبق أن اطلع عليها العرب، وذلك لأن التصوير بالريشة قد يفعل ما لا يفعله لتصوير بالقلم، ولأن الصورة المحسوسة في العين هي أوقع من الصورة المجردة في الذهن، فما ظنُّك إذا كانت الواحدة رديفاً للأخرى؟

ولما كان المقصود بهذا الكتاب التوسع في الموضوع بقدر الطاقة، قسمناه إلى قسمين: جغرافية وتاريخ. وبدأنا بالجغرافية لأنها سابقة للتاريخ، ولم نقتصر في الجغرافية على ما كانت عليه اسبانية في أيام العرب أو في القرون الوسطى، غير ناظرين إلى أحوالها الجغرافية الحاضرة، بل جمعنا القديم إلى الحديث ونظمنا بين الخالي والحالي وقرنّا ما كتبه العرب بما كتبه الافرنج، وإن كنا لم نحب أن نملأ الكتاب بالأرقام والإحصائيات، في الكليات والجزئيات، مما قد تمل الأنفس مطالعته.

وقد أدخلنا في القسم الجغرافي ذكر من نبغ من أهل العلم في كل بلد من البلدان التي ذكرناها؛ ولم نحصر ذلك في العرب، بل تجاوزناه إلى الأسبان، ولكننا استقصينا في أسماء العرب بالبديهة ما لم نستقص في أسماء أولئك، واكتفينا من الأسبان بالمشاهير، لأن قراءناهم من العرب وغرضنا إنما هو تعريف ناشئة العرب بالأندلس العربية، ولن يقرأ كتابنا من غير العرب إلاّ من شاء من المتخصصين. وقد كان مرادنا بادىء ذي بدء أن نسرد أسماء العلماء والأدباء المنسوبين إلى كل بلدة سرداً مجرداً من دون ترجمة، ثم نرد تراجم أحوالهم إلى جزأين في الآخر، مخصصين بذلك الموضوع؛ ولكننا رأينا في ما بعد أن السرد المجرد لا يفيد شيئاً ولا يبلغ في صدور القراء حاجة، وأنه لا بد من شدو شيء من ترجمة كل واحد منهم، ومن تبيين العلم الذي كان متخصصاً به، وذلك في الأجزاء الأولى. وإن كنا عوّلنا على هذا الأسلوب فهو لا يمنعنا من أن ننتخب من هؤلاء المترجمين طبقة عبقرية وفئة ممتازة نكتب لهم في الآخر سيراً إضافية، إن شاء الله، نأتي فيها بمختارات من أقوالهم وأنموذجات من نظمهم ونثرهم.

هذا ولقد أحببت أن أتوّج هذا الكتاب الذي تعبت فيه هذا التعب كله، باسم أحد أمراء الإسلام وأقطاب الشرق، الذين يتفق في شأنهم الكلام ممن يملأ العيون والصدور،

ولا يكون الثناء عليه تنميق جمل وتشقيق ألفاظ، بل يكون نفس فعله هو هو الهاتف بمدحه بدون منةٍ لقائل، ولا فضلٍ لمنوّه، وتكون سيرته الشخصية ومآثره المستمرة هي المخلِّدة له في الأعقاب وعلى طول الأحقاب، وإذا رآني الناس اخترته لتتويج هذا الكتاب باسمه قالوا بأجمعهم: تالله لقد أحسن الاختيار وأتى الأمر من بابه، وما أطرى ولا بالغ، ولا تملّق ولا داهن، وإنما هو الحق الذي لا يجهله أحد. ولا يأتي على هذا الشرط عظيم من عظماء الإسلام قبل الأمير الكبير العلامة الخطير صاحب السمو الأمير عمر طوسون حفظ الله مهجته للإسلام والمسلمين وأمتع بطول حياته الشرق والشرقيين فقد أصبح هو في هذا العصر أمين هذه الأمَّة في كل ملمَّة، ومفزعها في كل مهمَّة. وإليه ارتاحت جميع الضمائر، وعليه حامت جميع الخواطر، وما من بَزْلاَء إلاَّ وقد نهض بها يشار إليه بالبنان في جميع أنحاء العالم الإسلامي لا يعمل مما يعمله رئاء ولا سمعة ولا ابتغاء شهرة ولا إمارة، هو الذي يزينها وليس بالذي يتزين بها، وإنما يعمل ما يعمله ابتغاء وجه الله تعالى، وخدمة لهذه الأمة التي أبى أن يكون من أعظم أمرائها نسباً وجلاء، بدون أن يكون من أجل أمرائها علماً وعملاً وَجَدَاء، فكان قدوة لكل أمير لا يعرف العبث، ولا يريد أن يضيع من عمره لحظة واحدة بدون فائدة للبشر. وما أقول هذا عن متابعة للناس في شأن هذا الأمير المنقطع النظير، ولا عن روايات معنعنة ولا عن شهرة طائرة وإن كان التواتر يفيد اليقين وإن كان الناس أكيس من أن يجمعوا على مدح رجل إن لم يكن لذلك أهلا، وإنما أقول ما أقوله عما خبرته بنفسي وشاهدته بعيني، وتبادلت معه فيه الكتب المتصلة والرسائل المتواترة، مدة تزيد على خمس وعشرين سنة، من أيام الحرب الطرابلسية إلى الحرب البلقانية، إلى الحرب الكبرى إلى جميع الخطوب والنوازل التي حلت بالإسلام من بعدها مما قيدت خلاصته في ترجمة حياتي التي أوصيت بأن تنشر من بعدي، واستودعتها مكتب المؤتمر الإسلامي في بيت المقدس، وكذلك مما سجلته في تاريخ العلامة ابن خلدون رحمه الله إجابة لطلب المتصدي لتجديد طبعه الحاج محمد المهدي الحبابي الفاسي وفقه الله، ولست والله يعلم في شيء مما قيدته من أعمال الأمير الأوحد عمر طوسون مد الله، في حياته بالذي وفاه إلا النزر الأقل مما يجب من حقه على هذه الأمة التي تعرف له من فضله عليها بقدر ما ينكر هو من ذاته، ولست في جعلي هذا الكتاب باسمه الكريم إلاَّ الكتاب الذي عرف أن يسد ما نقصه من العلم ويتلافى ما فاته من براعة الانشاء بما وُفق إليه من معرفة الفضل وأُلهمه من براعة الاهداء.

ولأبدأ الآن بالموضوع مستمداً من الله الصواب والسداد ﴿وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد﴾.

جنيف في ٧ صفر الخير ١٣٥٥ شكيب أرسلان

لمحة عامة

من الأمثال المضروبة في أوروبة أن جبال البرانس ـ كما يقول العرب[1] ـ أو البيرانة Pyrénees كما يقول الأفرنج ـ هي الحد الفاصل بين أوروبة وأفريقية. ويقولون: إذا تجاوزت معابر البيرانة فاعلم أنك قد دخلت في أفريقية. وربما يستغرب القارىء هذا القول بعد علمه أن في غرب البرانس (أو البيرانة) بلاداً طويلة عريضة هي من أكبر أقسام أوروبة، تتألف منها مملكتان أوروبيتان هما أسبانية والبرتغال فكيف يمكن أن تكون هذه البلاد من أفريقية؟ وما الموجب، يا ليت شعري! لضرب هذا المثل الذي قد يكون من باب المبالغة في تشبيه أسبانية والبرتغال الضاربتين في مناطق الجنوب بجاراتها سواحل أفريقية الشمالية؟ والحقيقة أنه ليس في هذا المثل شيء من المبالغة. أما من جهة الشجر والحجر والتراب والماء فإن الجزيرة الأيبيرية المنفصلة عن أوروبة بجبال البرانس أشبه بشمالي أفريقية وبغربي آسية. ولقد جرّبت هذا الشعور بنفسي فور دخولي إلى أسبانية، إذ كان ذهابي إليها من طريق فرنسة أي من الشمال، فما عبرت الحدود الواقعة بين فرنسة وإسبانية حتى خلت نفسي سائراً في سواحل الشام بلادي. فكيفما نظرت وقع نظري على التين والزيتون والخرّوب والصنوبر والصبير وجميع الأشجار والنباتات الحرجية التي أعرفها في بلادي، مع وجوه الشبه الكثيرة في منظر الأرضين ولون التراب وتحدُّر الغدران يحف بها القصب والحلفاء، ومع حنين النواعير في البقاع التي لا يصح لها الشرب من الغدران، وغير ذلك مما يخيّل لك أنك فعلاً في سواحل سورية. ولا شك في أن هذا التشابه بين البلادين هو الذي حدا عرب سورية على انتجاع الأندلس أكثر من أي بلاد سواها، لأن الإنسان يحب إذا تغرّب أن يقع في أرض تشبه مسقط رأسه.

وكان الجغرافيون القدماء يقسمون الكرة الأرضية إلى مناطق سبع، وبحسب هذه المناطق تكون أسبانية وجزائر البحر المتوسط مثل سردانية وصقلية وكريت وقبرص، وكذلك البلاد الشامية والعراقية، منطقة واحدة. وقد شاهدت شمالي المغرب فرأيته لا يفترق عن جنوبي أسبانية. وكيف يختلف عنه وكل الفاصل بينهما مضيق لا يتجاوز في بعض الأماكن أكثر من مسافة ١٥ كيلو متراً؛ وهذا الفاصل قد جرى الماء فيه حديثاً بالنسبة

(١) وقد يقول لها العرب جبال البرتات.

إلى الأدوار الجيولوجية. وأنت إذا نظرت إلى شكل الأرض في الجزيرة الخضراء وجبل طارق، من جهة، وإلى شكلها في طنجة وجبل موسى وسبتة تجده واحداً، فهي بقعة خرقها الماء من الأوقيانوس الاطلانطيقي إلى البحر المتوسط فجعلها شطرين، ولكن لم ينزع من كل من الشطرين وحدتَهُ الطبيعية مع الآخر. وقد قيل لي: إنَّ في برية جبل طارق نوعاً من القِرَدَة قديم الوجود فيها، وهذا النوع نفسه يسكن في جبل موسى المقابل لجبل طارق وذلك من جهة افريقية.

هذا من جهة الجغرافية الطبيعية. أما من جهة الجغرافية السياسية التي تتعلق بالسكان والممالك، أو من الجهة الاتنوغرافية كما يقال، فلا شك أن الأسبانيين والبرتغاليين وإن كانوا أوروبيين في سلالتهم فإنهم لاختلاطهم بالعرب والبربر والأمم السامية مدة قرون متطاولة أصبحوا أمة وسطاً بين الغرب والشرق(١). وإذا صح الافتراض الذي يذهب إليه

(١) يذهب كثير من المؤرخين إلى أن الايبيريين الذين هم سكان اسبانية الأولون هم والبربر من أصل واحد. ويستدلون على ذلك بالتشابه بين عادات الفريقين. من ذلك ما رواه سترابون من أن المرأة كان لها المقام الأول عندهم إلى زمن الرومانيين وهذه العادة معروفة الآن عند الطوارق في صحراء إفريقية. ثم إن السليتين جاءوا من أوروبة الوسطى فاختلطوا بالايبيريين، كما أن قرطاجنة أرسلت إلى اسبانية مهاجرين كثيرين من إفريقية، وقبل قرطجنة كان الفينيقيون قد عمروها. فأنت ترى أن اسبانية ملتقى للعناصر الشرقية والغربية، فمنها العناصر الغربية التي تأتيها من شمالي البرانس ومنها العناصر الشرقية التي تأتيها من جنوبي بحر الزقاق. ثم إنه طرأ على اسبانية جاليات يونانية نزلت في أقسامها الشرقية، وتلاها جاليات رومانية غلبت على جميعها، وفي أثناء ذلك دخلها العنصر السامي أيضاً بمجيء عدد كبير من اليهود. وبعد أن تلاقى فيها الايبيريون والسليتون واللاتينيون واليونانيون من السلائل الأوروبية، والقرطاجنيون والفينيقيون واليهود من السلائل الآسيوية، طرأت على اسبانية أمم جرمانية مثل السويف والالانيين والفندالس والقوط الذين ملكوها وكانوا الطبقة السائدة فيها عندما فتحها العرب. ولما جاء العرب دخلها ملايين منهم ومن البربر، فاختلطت آسية وأفريقية بأوروبة اختلاطاً شديداً، وصار الغالب على اسبانية هو المدنية الشرقية، ولا عبرة بما جرى من إجلاء العرب والبربر فيما بعد، فإن هؤلاء قد بقي منهم في الجزيرة عدد كبير اندمجوا في الأهالي في جميع المقاطعات ودانوا بالنصرانية ولا يوجد في اسبانية مكان يخلو منهم حتى أن القشتاليين الذين هم أقل أهل اسبانية اختلاطاً بالعناصر الشرقية والذين يمثلون السلالة الايبيرية القديمة لا يخلون من عنصر دخيل من العرب والبربر. وعلى وجه الإجمال السلالة الآرية هي الغالبة على القسم الشمالي الغربي من اسبانية ولذلك أجسامهم أقوى وعضلاتهم أصلب. ومنهم القشتاليون الذين يعدون أنفسهم محرري البلاد، ففي أنوفهم نعرة شديدة. ومثل القشتاليين في حمية الأنوف أهل أراغون وأهل مقاطعة مرسية. أما الكتلونيون فهم أهل صناعة وعمل، ولا يفترقون كثيراً عن أهل اللنفدوق في جنوبي فرنسة لأنهم جيرانهم. وأما سكان الأندلس أي المقاطعات الجنوبية فيغلب على أهلها الذكاء والجمال والسرور وحب الترف، وذلك لأنهم من بقايا العرب وممن كان اندمج في العرب. اهـ تلخيصاً عن جوسه صاحب جغرافية اسبانية والبرتغال.

بعضهم من أن السلالة البيضاء هي التي انتقلت من على عُنُق الدهر من المغرب إلى أوروبة لم يكن العرب هم أول من أجاز من إفريقية إلى الأندلس.

إن شبه الجزيرة الأيبيرية لا يتصل بأوروبة إلاّ ببرزخ، هو جبال البرانس، وهي جبال شهيرة متوسط ارتفاعها سبعمائة متر عن سطح البحر تتكسر على أذيالها أمواج البحر المتوسط من الشرق والاطلانطيقي من الغرب، وقد حفرت المياه على منحدريها سواءً من جهة الشرق أو من جهة الغرب مُسْلاناً لا تحصى وأنهاراً تتدفق وجرَّدت صخورها من التراب الذي لا يزال يجحف به السيل من عشرات الآلاف من السنين.

والجيولوجيون يقولون: إنه لو حصل خلل في توازن قشرة الأرض الصلبة أدَّى إلى اضطراب أعماق البحار لما أمكن أن تكون الجزيرة الأيبيرية بمنجاة من هجوم البحر من جهة الوادي الكبير في الجنوب وجون نهر «إبرُه Ebre» في الشرق حيث أن طرطوشة ليست إلاّ على ارتفاع مترين فقط من مصب نهر «إبره» كما أن إشبيلية لا تعلو إلاّ عشرة أمتار عن الوادي الكبير. ولو قُدّر أن البحر ارتفع مائة متر عما هو الآن لضربت أمواجه حيطان قرطبة. ولو أن البحر انبسط على سهل إشبيلية لغمر أكثر سهول الأندلس، ولم يقف إلاّ في سفوح جبال مورينة، Sierra- Morena بحيث يعود إلى التشكل ذلك البوغاز القديم الذي يسميه العلماء بالبوغاز البيتيّ D'éroit Bétique الذي كان يصل البحر المتوسط بالأوقيانوس فاصلاً بين جبال إسبانية الوسطى وبين جبال شلير الثلج[١] Sierra Nevada التي يعدها العلماء من جبال أفريقية والتي ذروتها المسماة بقمَّة مولاي الحسن تعلو عن البحر ٣٤٨١ متراً. وهذا قبل أن حصلت الهزّات الجيولوجية الكبرى التي نشأ عنها الخرق البحري المسمى ببوغاز جبل طارق.

كذلك ضفاف نهر «ابره» كضفاف الوادي الكبير الذي كان القدماء يقولون له نهر «بتيس» هي تحت تهديد البحر الدائم، وذلك بحسب درجة ما يمكن أن يرتفع. فإذا ارتفع بضع مئات من الأمتار فإن بنبلونة من نبارة[٢] Panpelune لا تعلو أكثر من أربعمائة متر، ووشقه Huesca لا تعلو أكثر من ٤٤٦ متراً. وكذلك لاردة هـي من هذه الأماكن التي قد تغمرها المياه، وأهم من الجميع سرقسطة التي لا تعلو أكثر من مائتي متر ونطيلة التي علوها ٢٥٧ متراً.

---

(١) Nevada معناها بالاسبانيولي المثلجة فالاسبانيون يعنون بقولهم Sierra nevada سلسلة جبال الثلج وأما العرب فكانوا يسمون سلسلة هذه الجبال شلير الثلج وكان يطلقون على مجموعها اسم الشارات أو الشرايا وهي تعريب للفظة Sierra مع الجمع.

(٢) Navarre.

ولقد ثبت وجود مواد مالحة في أعماق هذه الأودية تدل على أن البحر لم يتقلص عنها إلا من عهد قريب بالنسبة للأعمار الجيولوجية. فقلعة الجزيرة الأيبيرية في وجه البحار هي في الجنوب جبال مورينه وجبال البشرات وفي الشرق جبال البرانس. وأما في الشمال فهناك جبال قنطبرية[١] Cantabrique التي تعلو نحواً من الفين وخمسمائة متر ثم تنقطع دفعة واحدة فوق سواحل الاطلانطيك، حيث تصادم البحر سلسلة صخور لا تنتهى إلا عند الوادي الكبير في الجنوب. وإلى الاطلانتيك تنحدر الأنهر الأربع «مينو Minho» و «دورو Duero»[٢] و «تاجه Tage» «ووادي يانه Guadiana» ومنها «دورو» و «تاجه» قد حفرا أخاديد ضيقة في الأرض هي من العمق بحيث صارت فواصل طبيعية أبدية. ولا شك أنها لم تخل من تأثير في السياسة وأن لها يداً في فصل البرتغال عن أسبانية، على حين أنه لا يوجد من جهة السكان فاصل بين الفريقين.

ثم أن القسم الأعلى من جبال أسبانية يقسم البلاد إلى قسمين: قشتالة القديمة، وقشتالة الجديدة؛ ويقال لهما ولبلاد ليون Léon والاشتراما دور Estramadure «الميزيتا» Meseta وهي أعالى أسبانية التي لولاها لدخل البحر الجزيرة الأيبيرية من جهات متعددة بارتفاع قليل، ولجعل عاليها سافلها.

ثم إن الفاصل بين القشتالتين Les deux Castilles سلسلة أهاضيب يقال لها شارات وادي الرمل، لكثرة رملها، والأسبانيول حرفوا «الرمل» فجعلوها «الرامه» فهم يقولون «وادي الرامه» وهو التوجيه الأرجح Guadarrama وسلسلة أخرى يقال لها هضاب «غريدوس» Sierra de Gredos وهي متصلة بسلسلة مثلها من جهة الغرب يقال لها شارات «غاتا» والشارات البرتغالية التي يقال لها «استريلاَّ» Estrella كما أنها متصلة من جهة الشرق بنشوز «شوريه» Seoria ومرتفعات «ديمنده» Demanda على نهر «ابره».

ولما كانت هضاب وادي الرمل عارية من الشجر الذي من طبيعته أنه يمسك الأرضين، فقد تفككت أجزاؤها بحرارة شمس القيظ وبرودة جلد الشتاء، وتكوَّن منها كُتَل كثيرة لا سيما في الجنوب حيث هي البلاد التي يعبر عنها بقشتالة الجديدة. وأن هذه الشارات التي في وسط أسبانية هي التي تنحدر منها مياه وادي «الدوره» Duero الذي يجري

---

(١) الغالب على مؤلفي العرب أنهم كانوا يسمون هذه الجبال في شمالي اسبانية بجبال استورياس Asturias أو جبال جليقيه. وأما قنطبرية الأصلية فهي تمتد إلى الشمال الغربي حتى تلتقي بالبرانس. والطرف الشمالي الممتد من بلدة الفارو le Ferrol إلى بيونة Bayonne على الساحل يقال له جبال شيبة.

(٢) يسميه العرب «بالوادي الجوفي».

في قشتالة القديمة ومياه النهرين الشقيقين «تاجه» Tage ووادي «يانه» Guadiana[1] اللذين يتحيفان في جريهما جبال طليطلة Toléde وهضاب «وادي لبّ» Guadalupe ويخترقان البلاد إلى البرتغال، إلا أن أحدهما «تاجه» ينصب في خليج «أشبونة» Lisbonne والآخر يلتوي عن مجراه المستقيم قاصداً إلى الجنوب، بدلاً من الغرب، فينصبّ بحذاء «بطليوس» Badajoz بقرب خليج قادس Cadix.

وغير بعيد عن مصب وادي يانه، ينصبُّ الوادي الكبير Guadilquivir الذي ينبع من الجبال الوسطى في أسبانية. ولكن انصباب الأنهار من جهة البحر المتوسط في القسم الجنوبي من اسبانية هو قليل، نظراً لاشراف شلير الثلج على البحر يتدلّى إليه بدون فاصل، فلا تكاد تجد الجداول مجالاً للجري. وذلك مثل وادي مالقة Guadalhorce ونهر المرية ونهر شنقورينه المشتق من نهر شقر Seegur والنهر المسمى بوادي الأبيار وادي بلنسية Guadalaviar وغيرها.

ويندر في الدنيا وجود ساحل مضرّس مشقّق تشقَّق هذا الساحل الذي هو شاطيء البحر المتوسط من أسبانية وهو معهد زلازل وموقد حركات بركانية لم تنطفيء وآثار ذلك بارزة في الشقوق الهائلة التي تتخلّله من جبل طارق جنوباً، إلى كتلونية شمالاً، وأعظمها الشق الذي ينحدر منه نهر «ابره» إلى البحر. ويرجح العلماء أن الهزاهز البركانية هي التي فصلت جزيرة ميورقة عن رأس «ناو» Nao وأن ميورقة نفسها. إن هي وأخواتها ميورقة ويابسة إلاّ حلقات من سلسلة كان من جملتها قورسيكا وسردانية.

ويظهر أن الزلازل البركانية التي شقَّت بوغاز جبل طارق، وفصلت هذا الجبل عن أُمّه افريقية، وجعلته من أوروبة، وأقامت وأقعدت أركان شلير الثلج، وفتحت في ساحل أسبانية الشرقي فجاجاً، وأحدثت فوق كثير من أقسام ذلك الساحل لجحاً وأمواجاً، لم تنقطع حركتها بالمرة ولا سكن توهجها؛ فإنه لا يزال هذا الشاطيء في قلق إلى يومنا هذا. وكل يعلم أنه في ٢ دسمبر سنة ١٨٨٤ وقعت زلزلة عظيمة كان معظم شدتها في مالقة وغرناطة ونواحيهما، وذهبت طائفة من العلماء حينئذ إلى هناك وحققوا منطقة الزلزال فوجدوا أنها لم تتجاوز أسبانية السفلى، وأنها وقفت في حذاء شارات مورنيا فكان الحاجز الذي صدَّ الزلازل عن شمول أسبانية العليا هو شفير «الميزيتا» Meseta الأيبيرية. وهكذا رجعت من أمام هذا الحاجز إلى الوراء تصديقاً لقوله تعالى ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾.

---

(١) في اسبانية نهران بهذا الاسم أحدهما يسير من شلير الثلج Nevada ويمر ببلدة وادي آش Guadis في الجنوب والثانى الذي نذكره الآن يمر ببلاد البرتغال ويتصبب في البحر المحيط.

ولا تشتد الزلازل في أشبيلية وقرطبة شدتها في هذا الساحل من جبل طارق إلى برشلونة، بل إن شارات الثلج أو الجبال التي يقول لها العرب جبال شلير Solair بالرغم من غلظ أعناقها وثبوت أركانها، ليست بمنجاة تماماً من تأثير هذه الهزَّات الأرضية، يظهر لك ذلك من أودية غرناطة ووادي آش ولورقة والوادي المسمَّى شانغورينة عند مُرسية. وتستمر آثار عمل الزلازل إلى بلنسية فبرشلونة فجيرونده من كتلونية.

وكثيراً ما تتجاور الشقوة مع السعادة ويسكن الخير مع الشر في بيت واحد، فإن هذه المنطقة هي مع زلازلها أخصب بقاع أسبانية، ناهيك بمرج غرناطة وبساتين مالقة وجنان مرسية ولورقة وغيضة نخيل ألش وحقول القنت، وأخيراً غوطة بلنسية التي تضارع غوطة دمشق. وبالاختصار هذا الخط البديع الذي فوقه الماء وتحته النار والذي هو بين الشمس والأمطار قد بسقت فيه عظام الأشجار وتهدلت فوقها أصناف الثمار، وهو لجيد الجزيرة الأيبيرية كالعقد لجيد الحسناء بلا إنكار.

اسم الجزيرة الأيبيرية

توخينا أن نطلق على أسبانية والبرتغال اسم «الجزيرة الأيبيرية» لا لأنها فعلاً جزيرة، قد جزر البحر عنها من الجهات الأربع، بل فراراً من تكرار جملة «شبه الجزيرة الأيبيرية» ولقد كان العرب يسمون هذه البلاد بالجزيرة الأندلسية مع معرفتهم أيضاً بأنها شبه جزيرة وأنها متصلة بالأرض الكبيرة من ناحية جبال «البرتات» أو البرانس. وقد قالوا كذلك «جزيرة العرب» مع أنها محاطة بالبحر من جهات ثلاث لا غير مثل جزيرة الأندلس. هذا ولو ارتفع البحر المتوسط قليلاً من جهة «أربونة» Narbone لغمر تلك البسائط إلى خليج «بردیل» Bordeaux وصارت أسبانية والبرتغال جزيرة حقيقية.

أما هذه النسبة وهي الأيبيرية فهي نسبة إلى أمة قديمة يقال لها «الأيبير» Ibére كانت أقدم أمة عمرت تلك البلاد، ولم يعرف قبلها هناك أمة أخرى. وجميع الذين أوطنوا هذه الجزيرة إنما جاؤوا بعد أمة الأيبير هذه.

اسم الجزيرة الأندلسية

أما الجزيرة الأندلسية التي كان العرب يسمون بها هذه البلاد فهي منسوبة إلى «الأندلس» وقد كثر الكلام في أصل هذه اللفظة، ولكن أرجح الأقوال أنها مشتقة من اسم «الڤاندالس» وهم جيل من الناس كانوا يسكنون بين نهر «الأودر» Oder ونهر «الڤيستول» Vistule في شرقي المانية. ويقال إنهم من أصل جرماني، ويقال إن بعضهم من أصل سلافي أو صقلي كما تقول العرب. وهؤلاء الڤاندالس زحفوا من الشمال إلى الجنوب حتى

بلغوا بوغاز جبل طارق، وذلك سنة ٤١١ قبل المسيح. ومن هناك أجازوا إلى أفريقية. فلما عرفهم أهل أفريقية أطلقوا اسمهم على البلاد التي جاؤوهم منها وسموا هذه البلاد بالأندلس. وقالوا إن عبورهم إلى المغرب كان من جهة «طريف» Tarifa وقالوا بل من الجزيرة الخضراء.

وجاء في الانسيكلوبيديا الإسلامية في الجزء الأول صفحة ٣٥٤ بقلم سيبولد Seybold أن القاندالس لم يقيموا في جنوبي أسبانية إلا ثماني عشرة سنة لا غير، وأن بلاد جنوبي أسبانية كان يقال لها إلى ذلك الوقت «باتيكه» Betique فصار يقال لها «ڤاندالسيا» ومنها جاءت لفظة الأندلس، ولما جاء العرب وفتحوا أسبانية أطلقوا عليها هذا الاسم وصاروا يقولون أندلس، لا للبقعة الجنوبية المقابلة للمغرب فحسب، بل لجميع الجزيرة الأيبيرية ولجميع ما فتحوه من البلدان بعد أن عبروا بوغاز جبل طارق. فالأندلس عند العرب هي من بحر الزقاق أو بوغاز جبل طارق. إلى جبال البرانس. وربما أطلقوا لفظة الأندلس على ما وراء البرانس من أرض الأفرنجة فأما الأسبان أنفسهم فكانوا لا يعرفون هذا الاسم قبل العرب وكانوا يسمون البقاع الجنوبية من الجزيرة الأيبيرية بأسبانية القديمة، كما كانوا يسمون شمالي أسبانية بأسمائها المختلفة مثل استورية التي كان العرب يقولون لها اشتورية أو اشتورياس ومثل ليون وقشتالة وأراغون إلخ. ولكن بعد أن غلب العرب على تلك الأقطار واشتهر اسم الأندلس عند الأسبانيول أنفسهم صاروا يطلقونه على جنوبي أسبانية، لا سيما بعد أن بدأ العرب يتراجعون إلى الجنوب، إلى أن انحصر هذا الاسم في مملكة غرناطة الصغيرة. انتهى كلام الأنسيكلوبيدية الإسلامية ملخصاً وقد نقل ذلك عنها المستشرق ليڤي أو لاوي بروڤنسال E. Levi- Provençal في كتابه (أسبانية المسلمة في القرن العاشر[1] المطبوع في باريز سنة ١٩٣٢).

قلنا إن هذا الاسم لا يزال يطلق إلى الآن على ولايات أسبانية الجنوبية، مثل قرطبة واشبيلية وغرناطة ورنُده ومالقه وما جاورها. ولننظر الآن إلى ما قاله مؤرخو العرب في أصل اشتقاق لفظة الأندلس:

قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: الأندلس يقال بضم الدال وفتحها وضم الدال ليس إلا، وهي كلمة عجمية لم يستعملها العرب في القديم وإنما عرفتها العرب في الإسلام وقد جرى على الألسن أن تلزم الألف واللام. وقد استعمل حذفها في شعر ينسب إلى بعض العرب فقال عند ذلك:

سألت القوم عن أَنسٍ فقالوا ... بأندَلس وأندُلسٌ بعيد

(١) L'Espagne musulmane au xéme siécle.

ثم أخذ ياقوت يبحث في بناء لفظة أندلس ومكانها من الأوزان العربية وكيف أنه لا يوجد لها وزن في هذه اللغة، بحثاً ليس له طائل، لأن هذه اللفظة هي أعجمية من أصلها كما قال هو فلا حاجة لعرضها على وزن عربي. ولم يقل ياقوت مصدر هذه اللفظة كما ذكر غيره، ولكن نقل المقري في نفح الطيب عن ابن سعيد أنها إنما سمّيت بالأندلس لأن هذا الاسم هو اسم طوبال بن يافث بن نوح الذي نزلها كما أن أخاه سبت بن يافث نزل العدوة المقابلة لها وإليه تنسب مدينة سبتة (؟) قال: وقال ابن غالب: إنه أندلس بن يافث والله تعالى أعلم.

وقال القلقشندي في صبح الأعشى الجزء الخامس: وقد اختلف في سبب تسمية الأندلس بهذا الاسم، فقيل ملكته أمة بعد الطوفان يقال لها الأندلش بالشين المعجمة فسمي بهم، ثم عرب بالسين المهملة. وقيل خرج من رومة ثلاثة طوالع في زمن الروم يقال لأحدهم القندلش بالقاف في أوله وبالشين المعجمة في آخره، فنزل القندلش هذه الأرض فعرفت به ثم عربت بإبدال القاف همزة والشين المعجمة سيناً مهملة. ويقال إن اسمها في القديم «آفارية»(١) ثم سميت «باطقه» ثم أشبانية(٢) ثم الأندلس باسم الأمة المذكورة. قال في تقويم البلدان: وسميت جزيرة لاحاطة البحر بها من الشرق والغرب والجنوب وإن كان جانبه الشمالي متصلاً بالبر.

---

(١) لا نعرف ماذا أراد القلقشندي بهذه اللفظة «آفاريه» وإن لم تكن محرفة أو مصحفة فيكون الأشبه بها أن تكون «آڤاريه» والحال أن بلاد الآڤاريين هي في شمال القوقاس. ثم إن الشعب الآڤاري هو من أصل تركي زحف من الشرق إلى الغرب في القرون الوسطى لكنه لم يتجاوز بوهيميا غرباً ووقع بين السلاف من جهة والفرنج من جهة أخرى ثم اندمج في الشعوب الأخرى لا سيما في المجر.

(٢) الايبيريون السليتون هم أقدم أمة في غربي أوروبة انتجعت شبه الجزيرة الايبرية أي اسبانية والبرتغال الحاضرتين وقسماً من بلاد الغال أي جنوبي فرنسة وبعض شمالي ايطالية. وقيل لاسبانية الحالية «ايبرية» نسبة إليهم ثم تحولت هذه اللفظة إلى «هيسبرية» بقلب الألف هاء Hespérie وهو اسم كان اليونانيون يسمون به شبه جزيرة ايطالية كما كان الرومانيون يسمون به شبه جزيرة ايبرية وبعد ذلك تحولت «هيسبرية» إلى «هيسبانية» Hispanie ومنها صارت «اسبانية» Espagne والعرب كانوا يعرفون هذا الاسم إلا أنهم كانوا يجعلون السين شيناً. وهناك توجيه آخر لاسم اسبانية، وهو أن اشبيلية كانت في القدم مستعمرة ايبرية، وكان يقال لها «هيسباليس» Hispalis ولم تلبث أن صارت عاصمة «باتيكا» أي اسبانية الجنوبية، فلا عجب أن اشتق اسم اسبانية من هيسباليس لأن اللام والنون كثيراً ما يحصل التبادل بينهما ولا تنس أن أصل البلاد التي يقال لها اسبانية هو الجنوب من اسبانية الحالية وأن اسم اسبانية لم يشمل شمالي الجزيرة الايبرية إلا حديثاً فلا يبعد أن يكون أشبيلية القديم شمل البلاد التابعة لها، وكثيراً ما تسمت المملكة باسم العاصمة. وهذا التوجيه هو الذي ظهر لمحرر هذه السطور ولم أجده في كتاب وقد كاشفت به الأستاذ المدقق السيد محمد علال الفاسي من آل الجد وهو من ثقوب=

ما قاله دوزي عن اشتقاق اسم الأندلس

لم يأت دوزي في هذه المسألة بشيء جديد، ففي كتابه المسمى بـ «مباحث عن تاريخ أسبانية وآدابها في القرون الوسطى» المحرر بالأفرنسية، يقول: إن هذا الاسم كان يطلق على مقاطعة بتيكه وقد جعله العرب عاماً لجميع أسبانية، فترجح أن لفظة أندلس مشتقة من الفندالس الذين قبل أن أجازوا إلى أفريقية احتلوا جنوبي أسبانية. وهذا الرأي في هذا الاشتقاق هو قديم، لأنه قد رواه الرازي ورد عليه بأن مقام الفندالس في جنوب أسبانية كان قصيراً جداً، ولكن الذي لا شك فيه هو أن أول من أطلق لفظ أندلس على مقاطعة بتيكة وعلى أسبانية كلها هم المسلمون، فإن مؤرخي شمالي أسبانية لا يعرفون هذا الاسم بل يسمون بأسبانية Spania جميع البلاد التي كانت في حوزة العرب. فأما مؤلفو العرب فيسمون البلاد بالأندلس ويذكرون وجه التسمية. وفي «أخبار مجموعة» يقول إن أندلس كان اسم الجزيرة التي نزل بها طريف، ويقال لها جزيرة طريف من ذلك الوقت. وقال المؤرخ عريب: إن طريفاً نزل قبالة طنجة في الأندلس التي يقال لها اليوم جزيرة طريف. إذاً أصل الاسم كان لذلك المحل لا للبلاد كلها، وقد ذكر غريغوار التوري Grégore de Tours ما يدل على أن اسم المكان الذي نزل فيه طريف كان طرادوكته Traducta وهو المكان الذي أجاز منه الڤاندالس إلى أفريقية فلما جاء البربر ونزلوا في هذا المكان سموا باندلس كل البلاد وجاء طارق من بعده فكان هذا الاسم أصبح مستعملاً.

تخطيط الجزيرة الأندلسية

قال سيبولد في الأنسيكلوبيدية الإسلامية: إن العرب لم يكونوا ليتخلصوا من المصور الجغرافي المعكوس المنحرف الذي وضعه بطليوس من قديم الزمان، فكانوا يصورون أسبانية بشكل مثلّث غير منتظم، أطرافه هي: من الجنوب طريف ورأس مراكش، ومن

= الذهن وأصالة الرأي وسعة الاطلاع بالمكان الذي يعرفه له كل من عرفه فأجابني بما يلي: إن المحدثين تكلموا عن مصدر اشتقاق هذا الاسم «اسبانية» فذهب بعضهم إلى أنه مأخوذ من لفظة «شافان» السامية ومعناها الأرنب وهو الحيوان المعروف قيل لأن الفينيقيين وجدوه بكثرة هناك. ويظن الآخرون أنها سميت «اسبانية» من لفظة «أزبانيا» وهي لفظة باسكية معناها «شاطىء» ونفسي تطمئن لهذا التعليل لأنه منطبق تماماً على حال الجزيرة وليس فيه تغير كبير. أما كونها سميت اسبانية باسم أشبيلية التي كانت تدعى «هيسباليس» فغير متعين لأني أظن أن هذه اللفظة كانت من قبل، أي بعد سقوط مملكة القرطاجنيين، علماً على شبه الجزيرة كلها وأن أشبيلية كانت معروفة عند الفينيقيين باسم «سيفيلا» والرومان هم الذين أبقوا اسم المملكة على خصوص هذه المدينة اهـ فرأي السيد علال هو إذاً اشتقاقها من ازبانيا بمعنى شاطىء والله أعلم.

الشمال الشرقي رأس كريوس Gréus ومرسى ڤاندر Fort- Vendres وفي الشمال الغربي بلاد فينستير Finistére وكذلك كانوا يصورون جميع الشواطيء الممتدة من طريف إلى كريوس أو بالأقل إلى طركونة وبرشلونة كأنها ثغور جنوبية كما تعلم ذلك من كتاب المراكشي. فأما جبال البرانس فهي في تصورهم ثغور شرقية للأندلس! ثم إنهم فيما بعد فهموا أن شرق الأندلس إنما هو سواحل بلنسية ومرسية وفهموا أن الحد الغربي هو الأقيانوس الأطلانتيكي الذي كانوا يقولون له بحر الظلمات أو البحر المظلم أو البحر المحيط الأعظم أو الأقيانوس أو القاموس أو البحر الغربي في مقابلة الشرقي الذي كانوا يقولون له البحر الرومي أو البحر الشامي أو المتوسط. وكان الحد الغربي للأندلس عندهم ممتداً من طريف إلى رأس «سان ڤنسان» Cap Saint- Vincent أو رأس «روكه» Roca عند أشبونة Lisbonne ومن هناك يصير عندهم الحد الشمالي الذي يمتد وراء غاليسية Galice إلى جبال البرانس في بلاد «فونترابية» Fontarabie. وكانوا يقولون لجبال البرانس جبل البرتات أو الجبل الحاجز أو الفاصل، ويسمون جبال قشتالة بجبل الشارات وجبال نيفاده Névada بجبل الثلج أو جبل شلير Chulair (واصل هذه اللفظة هو سولوريوس Solorius).

ولهذا جميع الأطالس الجغرافية المتعلقة بأسبانية العربية المنشورة إلى اليوم هي غير صحيحة، سواء أطالس «سبرونر» و «منكه» Spruner et Menka المطبوعة سنة ١٨٨٠ وأطالس درايزن Draysen المطبوعة سنة ١٨٩٤ في كتاب أوغست مولر المسمّى بـ «الإسلام في الشرق والغرب» أو أطالس ستانلي لانبول Sane- Poole في كتابه «العرب في أسبانية» وكلها قد تناقلت الأغلاط الجغرافية من أيام «كازيري» و «كوندي» و «سوزَة» و «جوبرت» و «غاينغوس» و «هامر» و «ملرن» وغيرهم، حتى أن دوزي Dozy نفسه برغم مجهوداته الكثيرة لم يترك أثراً يذكر في تصحيح جغرافية أسبانية، وهو في ترجمته لكتاب الأدريسي عن الأندلس والمغرب وتعليقه عليه لم يأت أيضاً بشيء من تصحيح الأغلاط التي وردت في نفس الأصل[1] نعم إنه في تضاعيف كتبه عن الأندلس حقق بعض أماكن لا سيما في مبحثه المسمّى بـ «ملاحظات جغرافية على بعض مقاطعات الأندلس القديمة» وذلك في

(١) علق دوزي بعض ملاحظات على الادريسي، إلا أن جل همه كان تحقيق الأعلام التي ذكرها الادريسي وذكر ما يقال لها بالاسبانيولية، وقد رمى فقرطس في جميع ما قاله إلا في مواضع معدودة توقف فيها أو كان في قوله نظر. وعلى كل حال فترجمته لكتاب الادريسي هي أحسن ترجمة، وكفاها حسناً تصحيحه للأغلاط الفظيعة التي وقعت في ترجمة «جوبر» Joubert وذهبت بالمعاني إلى أبعد ما يصل إليه التصور ومن أمثلة هذه الأغلاط أن الادريسي ذكر الروس فقال: إنهم يحلقون لحاهم ومنهم من يجمعها ويضفرها كاعراف الدواب. فوقع تصحيف في «اعراف» جعلها «اعراب» فترجم جوبر=

كتابه المسمى بـ «التنقيبات عن تاريخ أسبانية وآدابها» Recherereches sur L'histoire et la Litterature de L'Espagne ولم تتقدم جغرافية أسبانية العلمية في كتابات «ساڤيدرا» Soavedra ولا «سيمونه» Simoner ولا «اغيلاز» Egilaz ولا «قديره» Codera ولا «باسه» Basser.

وقد كان يجب جمع جميع ما تقدم من المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع، ونخلها نخلاً دقيقاً، مع طرح جميع المجازفات والأخطاء التي تراكمت من أيام كزيري Caisri وكوندي Conde إلى أيام هامر Hamner وميرن Mehren فكما أن دوزي الكبير عندما كتب التاريخ المسمّى بتاريخ مسلمي أسبانية ترك جميع ما كان تقدم عنها من الكتابات، وعدَّها لغواً، ورجع إلى المنابع العربية نفسها؛ كذلك يجب العمل نفسه في جغرافية هذه البلاد. وهذا العمل يحتاج إلى مراجعة الكتب اللاتينية والأسبانية والعربية نفسها. وذلك أنه وإن كان التعصب الأعمى، بعد سقوط مملكة غرناطة، قد أخنى على كنوز أدبية هي فوق كل تقدير، ومحا كتباً ذهبت وأصبح لا يمكن إحياؤها، فإنه لا بد أن يكون في الشرق وفي شمالي أفريقية كتب عربية متعلقة بالأندلس يمكن الاستفادة، جدُّ الاستفادة منها؛ بل يجب جمع التآليف الجغرافية والتاريخية التي كتبها العرب، من زمن ابن خورداذبه، إلى اليعقوبي، إلى المسعودي، إلى ياقوت، إلى المقري الذي أخذ عن مائة مصنّف، هذا مع مراجعة كتب التراجم التي فيها نسبة العلماء الأندلسيين إلى بلدانهم مما تؤخذ منه معلومات

= ذلك بما يلي: la réunissent et la tressent à la maniére des Arabes de Douab أي يجمعونها ويضفرونها على نسق اعراب بلاد دواب! وجاء في كلام الادريسي عن أحد الظالمين أنه «مسخ» وهو فعل مبني للمجهول فلم يفهم جوبر لفظة «مسخ» وظنها اسم علم وترجمها هكذا on dit que c'est masth بدلاً من أن يقول il fut métamorphosé ووقع جوبر في أغلاط كثيرة من هذا النمط، أتينا بأمثلة منها استدلالاً على خبط بعض المستشرقين، ولكن بعض هؤلاء تعقبوا جوبر هذا في ترجمته السقيمة هذه، ومن هؤلاء «كاترمار» Quatremére ومنهم دوزي. إلا أن كاترمار وإن أصاب في أكثر ما تعقب به جوبر فقد أخطأ في بعضه مثل أن أكثر خشب مسجد قرطبة هو من الصنوبر الطرطوشي. فذهب كاترمار إلى آن الطرطوشي هنا لا محل له وأنه قد يكون محرفاً عن لفظة «مرصوص» والحال أنه هو الصنوبر الطرطوشي المنسوب إلى طرطوشة Tortose الموصوفة بجودة الصنوبر والتي فيها دار صنعة للسفن بسبب متانة خشب صنوبرها. وقد كانت ترجمة دوزي لـ «نـزهـة المشتاق في اختراق الآفاق» عن نسخة مخطوطة في مكتبة باريز، وأخرى في مكتبة اكسفورد، وفي كلتيهما أغلاط نسخ تحير دوزي وغير دوزي في ردها إلى الأصل. وأما على وجه الإجمال فقد كان اجتهاد دوزي برغم بعض آراء تعسف فيها مما أزاح الستار عن أكثر حقائق العلم بالأندلس سواء من جهة تاريخها أم من جهة جغرافيتها، وذلك في نظر الأوروبيين الذين لم يكونوا يعلمون عنها من قبله إلا معلومات ناقصة وأخباراً مشوهة ولم تكن لهم عنها إلا آراء مشوبة بأهواء رجال الكنيسة.

جغرافية كثيرة أيضاً، ومما يدل على انتشار العلم في أسبانية العربية بصورة مدهشة. ومما لا شك فيه أنه قبل كل شيء تلزم مراجعة المكتبة العربية الأسبانية Beblioteca Arabico- Hispana لقُديرة[1] التي هي عشرة مجلدات وفيها تراجم علماء الأندلس، وإن كان مع الأسف فيها تحريف أسماء كثيرة من أسماء البلاد التي ينسب إليها أولئك العلماء. انتهى ملخصاً.

وقال لاوي بروڤنسال في كتابه «أسبانية الإسلامية في القرن العاشر»: إن جغرافيات العرب لم ترد فيها تفاصيل كافية شافية عن الأندلس، ونحن مضطرون أن نقتنع بالموجود بين أيدينا منها، مثل كتاب الهمداني الذي كتب نواحي سنة ٩١٠ مسيحية، وكتاب الأصطخري الذي تاريخه ٩٢١ مسيحية، أي أوائل عهد عبد الرحمن الناصر، وابن حوقل الذي أكمل جغرافيته سنة ٩٧٦ والمقدسي الذي كتب كتابه في أحسن التقاسيم بعد ابن حوقل، فالاصطخري ذكر أن أهم مدن الأندلس في أيامه كانت شنترين، وجبل طارق وطليطلة، ووادي الحجارة، ورية، وفحص البلوط، وقورية، وماردة. وقال: إن أهم الثغور لذلك العهد كانت ماردة ونفزة ووادي الحجارة وطليطلة. وأما المقدسي فأحصى ثماني عشرة كورة للأندلس (سيأتي كلام المقدسي بحروفه نقلاً عن الأصل).

أما محمد بن أحمد الرازي الأندلسي فله تاريخ وجغرافية للأندلس، لا يوجد لها سوى ترجمة باللغة الأسبانية القشتالية، عن ترجمة برتغالية، عن الأصل العربي الذي كتب في أوائل القرن الرابع عشر، وقد أمر بهذه الترجمة إلى البرتغالية دنيس ملك البرتغال. وكتاب الرازي هذا كان عمدة ياقوت الحموي عن الأندلس. وبحسب كلام الرازي كانت الأندلس إحدى وأربعين كورة: قرطبة، وقبرة، والبيرة، وجيان، وتدمير، وبلنسية، وطرطوشة، وطرّاكونة، ولاردة، وبرباطانية، ووشقة، وتطيلة، وسرقسطة، وباروشه، ومدينة سالم، وشنتبرية، وراقوبيل، وزوريتهُ، ووادي الحجارة، وطليطلة، واوبيط، وفحص البلوط، وفرّيش، وماردة وبطليوس، وبيجه، واقشنوبه، وشنترين، وقويمره، واكشيتانية، وأشبونة، وأشبيلية، وقرمونة، ومورون، وشذونة، والجزيرة، وريّة، واسجه، وناكرونه. وأما الأدريسي الذي كتب جغرافيته في القرن الثاني عشر فالأندلس عنده ستة وعشرون أقليماً - وهو تقسيم جغرافي ليس بسياسي ولا إداري - وهذه الأقاليم هي: البحيرة، وشذونة، وجوف، وقنبانية، وأشونه، وريّة، والبشرات، وبجّانه، والبيرة، وفرّيرة، وتدمير، وقونسه، وأرجيرة، ومربيطر، والقواطم، والفَلَجَه، والبلالطة، والفخر،

(١) Franciscus codera هو مستشرق اسباني يقال إنه من سلالة عربية واسمه قديرة دليل على ذلك. وقد علمنا من الأستاذ القسيس آسين بالاسيوس Acin palacius المستشرق الاسبانيولي المعاصر الذي أثبت أن دانتي في المهزلة الإلهية سرق رسالة الغفران للمعري أن قديرة هو أستاذه.

وقصر أبي دنيس، والبلاط، وبلاطة، والشارات، وأرنيده، والزيتون، والبرتات، ومرمرية. قال: وقد رأينا أن الشاميين نزلوا في البيرة، وأن أهل الأردن نزلوا في مالقة، وأن أهل فلسطين نزلوا في شذونة، وأن أهل حمص نزلوا في أشبيلية، وأن أهل قنّسرين سكنوا جيّان، وأن أهل مصر كانوا في بيجة ومرسية؛ فكانت هذه المدن في زمن الخلافة الأموية أمصاراً. وأما سائر الكور فتشكلت فيما بعد، مثل كور الجنوب العربي وهي: مورون، ولبلة، وماردة، وشنترين، وتاكرونه، وريّة، وبجّانه، أي رُندة، ومالقة، واطريّة وسنة ٣٥٠ عندما تولى الحكم المستنصر كانت الثغور خطاً منحنياً ماراً بالقسم الشمالي من الأندلس من شرقيّه إلى الغرب، يبتدىء من جنوبي برشلونة ويمتد شمالاً بغرب، وذلك من عند بربشتر ووشقة، ثم يتصل بوادي إبرُه شمالي تطيلة، ثم يصعد من هذا الوادي إلى هارو، ثم يعود فينحني صوب الجنوب تابعاً مجرى الوادي الجوفي أي دويرُه، إلى المحيط الاطلانتيكي بعد أن يمر بالمدن التالية: أُشمه، وسيمنكاس، وزمّوره، ولاميغو، وبورتُه. وأما المسعودي فيقول في مروج الذهب الذي تاريخه سنة ٣٢٧ للهجرة: إن الثغر الشمالي يمتد من طرطوشة إلى أفراغة إلى لاردة. انتهى وسيأتي كلام المسعودي بحروفه.

عدد سكان أسبانية

لا شك أن العصر الذي بلغت فيه أسبانية ذروة نموها هو العصر الروماني، فقد قيل إنه كان فيها أيام الرومان من ثلاثين إلى أربعين مليون نسمة. ولكن لم يوجد وثائق تاريخية تؤيد بلوغ أهالي الجزيرة الأيبيرية هذا العدد. ثم إنها كانت في نمو عظيم أيام العرب، يستدل على ذلك بكثرة مدنها الحافلة لعهد العرب، فقد كان فيها نحو من أربعين مدينة عربية، ومنها قرطبة التي أحرز عدد سكانها بنحو من مليوني نسمة، كما سيأتي الكلام في هذا المبحث. إلا أنه مع الأسف لا يوجد عندنا وثائق يعرف منها بالضبط عدد المسلمين الذين كانوا في أسبانية لعهد الناصر مثلاً ولا عدد مجموع السكان من مسلمين ومسيحيين في ذلك العصر.

ومن باب الحزر والتخمين أقول إنه لا يمكن أن يكون عدد مسلمي الأندلس لعهد الناصر والمستنصر أقل من خمسة عشر مليوناً. ولما أجلى الأسبانيول المسلمين واليهود هبط عدد سكان أسبانيا، لهذا السبب ولسبب آخر هو كشف أميركة التي هاجروا إليها، هبوطاً عظيماً. ففي سنة ١٥٩٤ كان عدد سكان أسبانية نيفاً وثمانية ملايين، ومضى على ذلك قرنان ولم يزدد عدد الأهالي أكثر من مليون واحد، ففي سنة ١٧٦٨ كان في أسبانية تسعة ملايين ومائة وستون ألفاً من السكان، ثم ازداد هذه العدد في زمن آل بربون إلى عشرة ملايين، وذلك في أوائل القرن الثامن عشر. وسنة ١٨٣٢ كانوا أحد عشر مليوناً،

وسنة ١٨٤٩ كانوا ١٤ مليوناً، وفي أوائل هذا القرن العشرين صاروا ٢١ مليوناً، والآن هم ٢٢ مليوناً و ٣٣٨ ألفاً.

ومعدل كثافة السكان بالنسبة إلى مساحة الأرض هو ٤٠ نسمة في الكيلومتر الواحد، هذا بالتعديل المتوسط. وأسباب عدم تزايد السكان كما في الممالك الأخرى، لا تنحصر في المهاجرة، بل هناك أسباب أخرى، مثل عدم التناسب في توزيع الأراضي، ومثل فدح الضرائب، ومثل التعامل بالربا. ومن جملة هذه الأسباب تدور الحراج والغابات، فالناس يرحلون إلى أميركة من الفقر ولا سيما من بلاد البشكونس ولاردة ووشقة وجيرونة. وأكثر الذين يرحلون من الجنوب هم أهالي المرية والقنت، ففي السنة يرحل زهاء مائتي ألف، وهم يرحلون إلى المكسيك والأرجنتين وسائر أمريكا. ومنهم من يرحل إلى المغرب وإلى الجزائر. وفي عمالة وهران ١٧٥ ألف أسبانيولي.

أقوال العرب عن جغرافية الأندلس

قول ابن حوقل

قال ابن حوقل الذي خرج راحلاً من مدينة السلام سنة ٣٣١، ووصف جميع ما شاهده: وأما الأندلس فجزيرة كبيرة فيها عامر وغامر، وطولها دون الشهر في عرض نيف وعشرين مرحلة، وتغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والرخص والسعة في الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر، إلى أسباب التملك الفاشية في أكثرهم، ولما هم بها من رغد العيش وسعته وكثرته. يملك ذلك أهل مهنهم وأرباب صنائعهم لقلة مؤنهم وصلاح بلادهم. ويساوي ملكهم بقلة شغله وسقوط تكلفه بشيء يحذره وحال يخافه، إذ لا خوف عليه ولا رقبة لأحد من أهل جزيرته مع عظم مرافقه وجباياته ووفور خزائنه وأمواله. ومما يدل بالقليل منه على كثيره أن سكة دار ضربه على الدنانير والدراهم ضريبتها في كل سنة مائتا ألف دينار، يكون، عن صرف سبعة عشر بدينار، ثلاثة آلاف ألف درهم وأربعمائة ألف درهم، هذا إلى صدقات البلد وجباياته وخراجاته وأعشاره وضماناته ومراصده والأموال المرسومة الواردة والصادرة والجوالي والرسوم على بيوع الأسواق. ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يدهم مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنجاد والأبطال، وعلم موالينا[1] عليهم السلام بمحلها في نفسها ومقدار جباياتها

(١) في النسخة التي عندنا من «المسالك والممالك» لابن حوقل وهي المطبوعة في ليدن سنة ١٨٧٣ يقول: «وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها في نفسها إلخ» وأما في نفح الطيب نقلاً عن ابن حوقل فيقول: «مع علم أمير المؤمنين بمحلها في نفسها إلخ».

ومواقع نعمها ولذاتها[١].

فأما مغرب هذه الجزيرة، فمن مدخل هذا الخليج المذكور[٢] ومصب مائه عند البحر المحيط من نواحي «لبلة» (Niebla) «جبل العيون» (Gibraleon) آخذاً على «ألب» (Hielba) و «شلب» (Silves) إلى أن يتصل «بشنترة» (Cintre) ذاهباً على «سموُرة»

---

(١) كلام ابن حوقل هنا لا يقره عليه أحد من أهل العلم الذين أجمعوا على وصف أهل الأندلس بخلاف هذه الأوصاف التي ينبزهم ابن حوقل بها، وأقروا بمكان أهل الأندلس من سعة العقول وعلو الهمم وشدة البأس وسائر المناقب التي بلغوا بها ذرى أحسن مدنية وجدت في القرون الوسطى، إلا خصلتين كانتا بدون شك سبب بوارهم إحداهما كثرة الانتقاض على ملوكهم وحب الشقاق فيما بينهما، والثانية شدة الانغماس في الترف الذي أدى إلى رجحان عدوهم عليهم في الحروب بما كان عليه من الخشونة والصبر على الشدائد، والذي يظهر لنا أن ابن حوقل إنما أراد تصغير شأن أهل الأندلس يومئذ إغراء لبني العباس، وهو من أتباعهم بشن الغارة عليها وإعادتها إلى حضن الخلافة العباسية، فقال ما قال على سبيل الدعاية لا غير، وإلا فإن كثيراً مما قاله مخالف للمحسوس ومنقوض بالإجماع، وقد نقل المقري في نفح الطيب عن ابن سعيد مكمل هذا الكتاب ما يلي: لم أر بداً من إثبات هذا الفصل وإن كان على أهل بلدي فيه من الظلم والتعصب ما لا يخفى، ولسان الحال في الرد أنطق من لسان البلاغة، وليت شعري إذ سلب أهل هذه الجزيرة العقول والآراء والهمم والشجاعة، فمن الذين دبروها بآرائهم وعقولهم مع مراصدة أعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيف؟، ومن الذين حموها ببسالتهم من الأمم المتصلة بهم في داخلها وخارجها نحو ثلاثة أشهر على كلمة واحدة في نصرة الصليب؟، وإني لأعجب منه إذ كان في زمن قد دلفت فيه عباد الصليب إلى الشام والجزيرة، وعاثوا كل العيث في بلاد الإسلام، حيث الجمهور والقبة العظمى، حتى أنهم دخلوا مدينة حلب. وما أدراك، وفعلوا فيها ما فعلوا وبلاد الإسلام متصلة بها من كل جهة، إلى غير ذلك مما هو مسطور في كتب التواريخ. ومن أعظم ذلك وأشده أنهم كانوا يتغلبون على الحصن من حصون الإسلام التي يتمكنون بها من بسائط بلادهم فيسبون ويأسرون فلا تجتمع همم الملوك المجاورة على حسم الداء في ذلك، وقد يستعين به بعضهم على بعض فيتمكن من ذلك الداء الذي لا يطب، وقد كانت جزيرة الأندلس في ذلك الزمان بالضد من البلاد التي ترك وراء ظهره. وذلك موجود في تاريخ ابن حيان وغيره اهـ. قلت: لم يقصد ابن سعيد بما قاله عن تخاذل مسلمي الشام، الحروب الصليبية المعهودة التي تجلت فيها هذه الحالة بعينها لأن ابن حوقل عاش قبل الحروب الصليبية بمائة وخمسين سنة، وإنما قصد حروب الروم البيزنطيين التي كانت سجالاً بينهم وبين المسلمين. وحادثة حلب هذه كانت سنة ٣٥١ أي في عصر ابن حوقل، وسبي الدمشق من حلب بضعة عشر ألف صبي وصبية وفعل الأفاعيل، ولكن المسلمين في أمر التخاذل سواسية لا شرق منهم يقدر أن يندد بغرب ولا غرب يقدر أن يندد بشرق إلا من رحم ربك.

(٢) قوله المذكور يشير به إلى ما ورد له من كلام سابق عند ذكره لبلاد المغرب وذلك في الصفحة ٧٣ من كتابه المسالك والممالك طبعة ليدن، فإن ابن حوقل يقول في تلك الصفحة ما يلي: فأما ناحية البربر الذين بنواحي طنجة وأزيلة والبصرة وظاهر فاس فأكثرهم في ضمن ولد ادريس بن عبد الله وهو =

(Zamora) وليون (Léon) وأربونة (Narbonne) من بلاد جلّيقية[1] إلى أقاصى (بياض بالأصل) ومشرقها. فمن مشرق جلّيقية إلى الخليج الرومي على نواحي «سرقصّة» وضواحي «وسكة»[2] وطرطوشة وجميع بلاد الأفرنجية من جهة البر، وجنوبها الخليج المذكور من تجاه جزيرة صقيلية إلى بلاد بلنسية ومرسية والمرية ومالقة والجزيرة إلى ركن البحر المحيط وأول أرضها المعمورة على الخليج الرومي، فمن أشبيلية إلى طرطوشة وهي آخر المدن التي على البحر المتصلة ببلاد الأفرنجة، ومن جهة البر ببلاد (علجسكس) وهي بلاد حرب من النصارى، ثم تتصل ببلد (بسكونَس) وهي أيضاً نصارى، ثم ببلاد الجلالقة، فتنتهي الأندلس إلى حدين: حد إلى دار الكفر، وحد إلى البحر. وما ذكرته من المدن على البحر وغيره فمدن كبار عامرة ولم تزل الأندلس في أيدي بني مروان إلى هذه الغاية. ومن مشاهير مدنها القديمة جيان (Jian) والأسبانيول يلفظونها الآن خيان (بالخاء على عادتهم في قلب الجيم خاء) وطليطلة (Toledo) ووادي الحجارة (والأسبانيون يكتبونها هكذا Guadalajara وكان العرب يسمونها أيضاً مدينة الفرج) وجميعها قديمة ولم يحدثوا بها بالإسلام غير مدينة بجانة (Pechina) وهي المرية (نقل القلقشندي في صبح الأعشى عن تقويم البلدان أن مدينة مرسية هي إسلامية محدثة بنيت في أيام الأمويين) وهب على حدود رستاق البيرة وشنترين على ظهر البحر المحيط. وبالأندلس سلاع كثيرة ترد إلى مصر

= ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وهم في غاية من طيب العيش ورفاهيته وخصبه ورخص الأسعار وطيب الأهوية والأغذية، وكانت حالهم فيما تقدم أزيد من هذه الحال صلاحاً، وفي وقتنا هذا فقد تدانت أحوالهم وصلحت أمورهم وعمر طريقهم. ولم يزل أهل هذا النسب منظوراً إليهم مرعية حقوقهم عند بني أمية على سالف الدهر. وأدركت عبد الرحمن أبا المطرف بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان يحافظ عليهم مرة ويسوقهم بالعصا مرة لما كان تظاهر به أبو العيش من قبح السيرة وخبث المعاملة لبني السبيل وكثرة الغيلة، وذلك أن عبد الرحمن هذا (يعني به الخليفة عبد الرحمن الثالث الأموي الملقب بالناصر وكان ابن حوقل من أبناء عصره) وأهله يملكون الأندلس ويحاذون هذه الناحية وبينهم أصل الخليج الخارج إلى بلد الروم عن قرب مسافة ما بين العدوتين، حتى أنهم ليرى بعضهم ماشية بعض وصور أشجارهم وزروعهم ويتبينون الأرض المفلوحة من الأرض البور وعرض الماء في ذلك يكون ١٢ ميلاً.

(١) المعهود أن العرب كانوا يقولون جليقية لشمالي الأندلس، وقد يقولون لها غاليسية كما يقول الاسبانيول، وإذا كان كذلك فاربونه (Narbonne) ليست من بلاد جليقية المذكورة. والذي يظهر أن ابن حوقل أراد بجليقية هنا البلاد المسماة بلاد الغال من الافرنجة وهي بلاد تقع أربونة فيها.

(٢) الغالب أن أهل الأندلس يقولون سرقسطة ووشقة ولكن ابن حوقل كثيراً ما يتابع اللفظ الاسبانيولي فتجد بينه وبين جغرافيي العرب بعض الاختلاف في الأسماء.

والمغرب وأكثر جهازهم الرقيق من الجواري والغلمان، من سبي أفرنجة وجلّيقية والخدم الصقالبة.

وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان من جلب[١] الأندلس، لأنهم بها يخصون، ويفعل ذلك بهم تجّار اليهود عن قرب البلد. وجميع ما يسبى إلى خراسان من الصقالبة فباقٍ على حالته، ومقدود على صورته؛ وذلك أن بلد الصقالبة طويل فسيح، والخليج الآخذ من بحر الروم ممتداً على القسطنطينية واطرابَزندة يشق بلدهم بالعرض، فنصف بلدهم بالطول يسبيه الخراسانيون، والنصف الشمالي يسبيه الأندلسيون، من جهة جيليقية وأفرنجة وأنكبردة Lombardia وقلورية Calabra وبهذه الديار من سبيهم الكثير باق على حاله.

وريو[٢] Rio كورة عظيمة خصيبة، ومدينتها «أرجدونة» ومنها كان عمر بن حفصون الخارج على بني أميّة، وفحص البلوط متصل بديار ابن حفصون كورة واسعة خصيبة. وأسقفة رستاق حسن ومدينتهُ غافق[٣]. وبالأندلس غير ضيعة فيها الألوف من الناس لم تمدّن. وهم على دين النصرانية روم، وربما عصوا في بعض الأوقات ولجأ قوم منهم إلى حصن، فطال جهادهم لأنهم في غاية العتو والتمرد، وإذا خلعوا ربقة الطاعة صعب ردهم

(١) ذكر لافي بروفنسال في كتابه «اسبانية المسلمة في القرن العاشر» ان لفظة صقالبة كان يطلقها العرب على الأرقاء الذين كانوا يشترونهم من أوروبة. وأصل ذلك أن الجيوش الجرمانية عندما كانت تغزو بلاد السلاف كانت تكثر من السبي منهم وإذا رجعت من غزواتها بالأسرى باعتهم من عرب اسبانية. ولما كان هؤلاء الأرقاء من جنس السلاف سماهم العرب صقالبة، وصارت لفظة الصقالبة تطلق على جميع هؤلاء المماليك. قال: وفي زمان الرحالة ابن حوقل في أواسط القرن العاشر كانوا يسمون في اسبانية صقالبة جميع المماليك الذين من أصل أوروبي والذين كانوا يخدمون في الشرطة أو في الجند أو في قصر الخلافة. وقد ذكر أنه لما كان يجول في الأندلس، لعهد الحكم المستنصر بن الناصر، لم يكن الصقالبة أي المماليك كلهم من الجنس السلافي بل كان منهم جم غفير من سبي «كلابره» و«لومباردية» و«كتلونية» و«غاليسية» وكان أكثر وصولهم إلى الأندلس بواسطة غزاة البحر من المغاربة والأندلسيين، وأما الذين منهم كانوا يرشحون لخدمة الحرم في القصور فقد كانوا يخصونهم وكان تجار اليهود عندهم كما قال دوزي معامل للخصي أهمها معمل فردون Verdun في فرنسة فكانوا بعد خصيهم يبيعونهم في الأندلس، ونظراً لأنهم كانوا يأتون بهم صغاراً فكانوا يتعلمون العربية بسرعة وينشأون في الإسلام انتهى. وأقول إن ترجمة لفظة سلاف بصقالبة آتية من كون أحد أصناف الأمة السلافية ومنهم من يسكن الآن في يوغسلافية، يقال لها الاسكلافون Escklavon أو الاسكلابون فعربها العرب اسقلابون، ثم جمعوها على صقالبة أو صقالب. قال المتنبي:

يجمع الروم والصقالبة والبلـ ـغار فيها وتجمع الآجالا

(٢) الغالب على العرب أنهم يقولون «ريه» لا «ريو» فابن حوقل تابع فيها لفظ الاسبانيول.

(٣) سيأتي ذكرها كلها.

إلا باستئصالهم، وذلك شيء يطول. وماردة وطليطلة من أعظم مدن الأندلس وأشدها منعة[1] وثغور الجلالقة «ماردة» و «نَفْزَة»[2] و «وادي الحجارة» و «طليطلة» ومدينة الجلالقة مما يلي ثغور الأندلس يقال لها «سمُّور» (Zamora) وعظيم الجلالقة بمدينة يقال لها «ليون» (Léon) فيها سلطانهم وعدتهم بعد سمُّورة، ومدينة يقال لها «أُوبيت» (Ovido) وهي بعيدة عن بلد الإسلام، وليس في أصناف الكفر الذين يلون الأندلس (يريد أن يقول أنهم يجاورون الأندلس) أكثر عدداً من الأفرنج، غير أن الذين يلون المسلمين منهم فئة ضعيفة شوكتهم، قليلة عدتهم، وفيهم إذا مُلكوا طاعة، وحسن نصيحة، ومحاسن كثيرة، وإليهم يرغب أهل الأندلس عن الجلالقة بأولادهم، والجلالقة أصدق محاسن، وأقل طاعة، وأشد قوة، وأكثر بأساً وبسالة، وفيهم غدر، وهم في عرض طريق الأفرنجة.

وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة، وليس بجميع المغرب عندي لها شبيه في كثرة أهل وسعة رقعة، وفسحة أسواق، ونظافة محال، وعمارة مساجد، وكثرة حمامات وفنادق. ويزعم قوم من أهلها أنها كأحد جانبي بغداد: وذلك أن عبد الرحمن بن محمد[3] ابتنى في غربها مدينة تعرف بالزهراء في سفح جبل يعرف بجبل «بطلش»[4] وخط فيها الأسواق، وابتنى الحمامات والخانات والقصور والمنتزهات واجتلب إلى ذلك بناء العامة، وأمر مناديه بالنداء: ألا من أراد أن يبني داراً أو يتخذ مسكناً بجوار السلطان فله أربعمائة درهم؛ فتسارع الناس إلى العمارة، فتكاثفت وتزايدوا فيها، فكادت أن تتصل الأبنية بين قرطبة والزهراء، وانتقلوا ببيت مالهم وديوانهم وخزائنهم. وقد نقل جميع ذلك وأعيد إلى قرطبة تطيراً منهم بها، وتشاؤماً بموت رجالهم فيها، ونهب سائر ذخائرهم.

وسمعت من غير ثقة ممن يستنبط حالهم أن لعبد الرحمن بن محمد، مما اتجه له

(١) سيأتي إن شاء الله في القسم التاريخي من «الحلل السندسية» أخبار ثورات هاتين البلدتين على بني أمية وهم في عنفوان أمرهم وريعان قوتهم.

(٢) نفزة بفتح فسكون فزاي بلدة بالأندلس جاء في معجم البلدان ما يلي: قال السلفي: نفزة بكسر النون قبيلة كبييرة منها بنو عميرة وبنو ملحان المقيمون بشاطبة. ينسب إليها أبو محمد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن الفقيه النفزي أحد الأئمة على مذهب مالك وله تصانيف. وأبو العباس أحمد بن علي بن عبد الرحمن النفزي الأندلسي سمع مشايخنا ودخل نيسابور واصبهان، وخرج من بغداد سنة ٦١٣ ودخل شيراز. وأبو عبد الله محمد بن سليمان الميالسي النفزي، وهو ابن أخت غانم بن الوليد بن عمرو بن عبد الرحمن المخزومي أبي محمد من الأندلس، روى عن خالد. مات في شوال سنة ٥٢٥ ومولده سنة ٤٣٤ قال أبو الحسن المقدسي: وأبو محمد عبد الغفور بن عبدالله بن محمد بن عبدالله النفزي، وله تصانيف مات في ربيع الآخر سنة ٥٣٩ وأبوه من أهل الرواية مات في سنة ٣٧. اهـ.

(٣) يريد به عبد الرحمن الثالث الاموي الملقب بالناصر أعظم ملوك ذلك القطر بل أعظم ملوك عصره.

(٤) العرب يسمونه جبل العروس والمعروف أن قرطبة هي مبنية في سفوح شارات مورينا.

جمعه من مال الأندلس وجباياتها، من حقوقها وغير واجبها إلى سنة ٣٤٠ نحو عشرين ألف ألف دينار، ولست أشك على ما يوجبه النظر، وتواطأ به الخبر، في ما جمعه الحكم بعد هلاك أبيه، ومن خدمه والمصادرين الذين كانوا في جملته، وإلى وقتنا هذا عن أسباب الأندلس ولوازمها وجباياتها وخراجها وأعشارها وصدقاتها وجواليها(١) تمام أربعين ألف ألف دينار. وليس لهذا المال في وقتنا هذا بموضع من مواضع الأرض نظير، غير ما في يد أبي تغلب الغضنفر بن الحسن بن عبدالله بن حمدان، فإنه مما يعلمه الخاص والعام وبالعراق وديار بيعة، جمع من تركة أبيه ما يضاهيه ويزيد عليه زيادة بيّنة.

وقرطبة وإن لم تكن كأحد جانبي بغداد فهي قريبة من ذلك ولاحقة به إن شاء الله، وهي مدينة حصينة ذات سور من حجارة ومحال حسنة، وفيها كان مسكن سلطانهم قديماً، وداره داخل سورها، وأكثر أبواب هذه الدار مشرعة في البلد من غير جهة. ولها بابان يشرعان في نفس السور إلى الطريق الآخذ على الوادي من الرصافة، والرصافة مساكن أعالي البلد متصلة بأسفلها من ربضها، مشتبكة أبنيتها، محيطة بها، مستديرة عليها من شرقها وشمالها وغربها. فأما الجنوبية منها فهو إلى واديها، وعليها الطريق المعروف بالرصيف، والأسواق والبيوع والخانات والحمامات ومساكن العامة بربضها(٢)، ومسجد جامعها جليل في نفس المدينة، والحبس منه قريب، وقرطبة هذه بائنة بنفسها عن مساكن أرباضها ظاهرة، ودُرْتُ بها في غير يوم في قدر ساعة، وقد قطعت الشمس خمس عشر دقيقة ماشياً.

وللزهراء أيضاً مسجد جامع دون جامع البلد في المحل والقدر والكبر، وعلى سورها سبعة أبواب حديد، وليس لها نظير بالمغرب فخامة حال، وسعة تملك وابتذالا لجيد الثياب والكسى، وفراهة كراع، وكثرة حلي، وإن لم يكن لها في عيون كثير من الناس حسن بارع، فليس لجيوشهم حلاوة في العين، ولا علم بأفانين الفروسية وقوانينها، ولا بالشجاعة وطرقها. وأكثر ظفر جيوشهم في القتال بالكيد، ومما يدل على ذلك أني لم أر قط أحداً أجرى فرس فارهاً أو برذون هجيناً، ورجلاه في الركب، ولا يستطيعون ذلك، ولا بلغني عن أحدهم، وكل ذلك لخوفهم من السقوط إلى فشل فيهم عند لقائهم وتواطؤهم على نزع أرجلهم من ركبهم، ولم تطبق قط جريدة عبد الرحمن، ولا من سبقه من آله، خمسة آلاف فارس، ممن يقبض رزقه ويختم عليه ديوانه لأنه مكفي المؤونة بأهل الثغور، مما ينوبه من كيد العدو الذي يجاوره من الروم، ولا عدو عليه سواهم، وقلما يكترث

(١) الجوالي جمع جلية وهي ما يؤخذ من أهل الذمة المقيمين في دار الإسلام.
(٢) سيأتي الكلام مفصلاً عن خطط قرطبة ومعه أطلس خاص بها على ما كانت عليه أيام العرب.

لهم، وربما طرقه في الأحايين مراكب الروس والترك والصقالبة والبجناكية، وهم جيل من أجيال الترك المجاورين لأرض الخزر والبلغار، فأنكوا في أعمال الأندلس وربما انصرفوا خاسرين.

وبالأندلس غير مجلب من التجارة كالزيبق والرقيق والحديد والرصاص، وضروب من الفرش، كقطع الأرمني الحسن. وعندهم تُعمل اللبود المشهورة في جميع الأرض بالجودة والصبغ الحسن، ولهم من الألوان والأصباغ والحشائش التي يلوّن بها الحرير وأنواع الصوف والثياب ما ليس في بلد من بلدان الأرض له نظير حسناً وكثرة. فأما أسعارهم فتضاهي النواحي الموصوفة في الرخص، وكثرة فواكههم مع طيبة فيها فكالمباحة التي لا ثمن لها. وملابسهم نظيفة، إلى طيب عيش يناله عوامهم وقل من يصير إليه أهله من أهلها إلاّ على الفاره من المركوب، ولا يعرف فيهم المهنة والمشى إلاّ أهل الصنائع والأرذال، وأكثر ركوبهم البغال وفيها يتفاخرون وبها يتكاثرون. ولهم منها نتاج في جزائرهم[١] لم أر مثله في معادن البغال المذكورة، ومواضعها المشهورة، كارمينية والران، ونتاج برزعة، وباب[٢] الأبواب، وشروان شاه، لأنها توضع عندهم، وتنجب في بلدهم ويجلب إليهم أيضاً منها شيء حسن الشِيَة، عظيم الخلق، كثير الثمن والطالب من ميورقة، وهي جزيرة في بحرهم منقطعة تلي ناحية الفرنجة، واسعة الخير، كثيرة الثمار، رخيصة الماشية، لكثرة المراعي، غزيرة النتائج والمواشي، معدومة الجوائح، قليلة الآفة، فليس بها عاهة ولا وحش يؤذيهم في سائمتهم، ورأيت منها غير بغل بيع بخمسمائة دينار، وإليها ترغب ملوكهم وإياها يستوطؤن، ويؤثرون فيما يركبون. فأما ما تبلغ قيمته منها المائة والمائتي دينار فأكثر من أن يحصى وليس ذلك لأنها أزيد على البغال الموصوفة في حسن السير وسرعة المشى، بل لعظم خلقها، وحسن شياتها، واختلاف ألوانها، وجمال مناظرها وعلو ظهورها، وصحة قوائمها.

ذكر المسافات بها من قرطبة إلى «مراد»[٣] مرحلة، ومن مراد إلى «غرغيره»[٤] يوم، ثم إلى إشبيلية يوم، وهي مدينة كثيرة الخير والفواكه والكروم، والتين خاصة، وهي على وادي قرطبة (أي الوادي الكبير). ومن إشبيلية إلى «لبلة»[٥] يومان. وهي مدينة صالحة

---

(١) لا سيما جزيرة ميورقة.

(٢) يقال باب الأبوبَ للبلاد المسماة اليوم بطاغستان.

(٣) هو عند الاسبان Moratalla.

(٤) الادريسي يقول عن هذا المحل الغيران.

(٥) هى التي يقول لها الاسبان Niebla وهي وطن بنى الجد الفهريين الذين هم اليوم بفاس وما زال يظهر منهم النوابغ سواء في الأندلس أو في المغرب. وكان نزوحهم من لبلة إلى مالقة أولاً ثم إلى إشبيلية ثم إلى فاس.

القدر، عليها سور. ومنها إلى «جبل[١] العيون» يومان، وهي مدينة قديمة أزلية كثيرة الخير، ومن جبل العيون إلى «أُلب»[٢] ثلاثة أيام، وهي أيضاً مدينة قديمة ذات سور، ومن ألب إلى «أُخشُنَبة»[٣] وهي مدينة مشهورة عظيمة كثيرة الخير، أربعة أيام، ومن أخشنبه إلى مدينة «شلب»[٤] ستة أيام، ومن شلب إلى «قصر أبي[٥] دانس» خمسة أيام، وهي مدينة صالحة خصيبة، ومنها إلى المعدن، وهو فم النهر، إلى مدينة «الشبونة»[٦] يوم، ومن لشبونة إلى شنترين[٧] يومان، ومن شنترين إلى «يابُرة»[٨] أربعة أيام، ومن يابرة إلى «جلبانة» يومان، ومن جلبانة إلى «ألبش» يوم، ومن ألبش إلى «بطليوس»[٩] عدوة النهر، يوم، ومن بطليوس إلى «قنطرة[١٠] السيف» أربعة أيام، ومن قنطرة السيف إلى «ماردة»[١١] يومان، ومن ماردة إلى «مدِلِّين»[١٢] يومان، ومن مدِلِّين إلى «ترجيلة»[١٣]يومان، ومن ترجيلة إلى «قصراش»[١٤]يومان. ومن قصراش إلى «مكناسة» يومان. ومن مكناسة إلى «مخاضة البلاط» يوم، ومن مخاضة البلاط إلى «طلبيرة»[١٥]خمسة أيام، ومن طلبيرة إلى طليطلة ثلاثة أيام. ومن قرطبة إلى بطليوس في جهة المغرب على الجادة ست مراحل. ومن قرطبة إلى بلنسية اثنتا عشرة مرحلة. ومن قرطبة إلى المرية، فرضة بجانة، سبعة أيام، ومن المرية إلى مرسية خمسة أيام.

وجميع هذه المدن المذكورة مشهورة بالغلات والتجارات والكروم والعمارة والأسواق والعيون والحمامات والخانات والمساجد الحسنة، وفيها ما يزيد على بعضها في

---

(١) Gebraleon عند الاسبانيول.

(٢) هي Huelva عند الاسبانيول وأكثر ما يقول لها العرب «أونبه».

(٣) عند الاسبان Osconba.

(٤) عندهم Selves.

(٥) Abidanis.

(٦) Lisboa و Lisbonne.

(٧) Santarem.

(٨) عند الاسبانيول Evora وهي بلدة سكانها اليوم ١٦ ألفاً ولكنها كانت ذات بال في أيام العرب ولا تزال عليها المسحة العربية إلى اليوم وهي من أعمال البرتغال وسنذكرها فيما بعد.

(٩) Badajoz كانت من حواضر الأندلس وسيأتي خبرها الوافي بقدرها.

(١٠) عند الاسبانيول Alcantara.

(١١) ماردة هي Merida وسي أيضاً من أمهات الأندلس وسيأتي ذكرها.

(١٢) مدلين هي Medellin وكان الرومان يقولون لها Metellinum.

(١٣) ترجيله هي Trajillo.

(١٤) قصارش هي Caseres.

(١٥) Talavera de la Reina.

المحال والجباية والارتفاع والولاة والقضاة والمحلفين على رفع الأخبار، وتأمُّل الأحوال، وليس بها مدينة غير معمورة، ذات رستاق فسيح إلى كور، إلا ولها ضياع كثيرة، وأكارة واسعة، وماشية وسائمة، وعدة وكراع وعبيد. ومن قرطبة إلى كركويه[1]، مدينة فيها منبر ولها أسواق وبها حمامات وفنادق، أربعة أيام، وفي كل ليلة ينزل بقرية آهلة، ومن كركويه إلى «قلعة رباح»[2] يوم، وهي مدينة كبيرة ذات سور من حجارة، ولها واد كبير هي عليه، منه شربهم، ويزرعون عليه، وبها أسواق وحمامات ومتاجر، والطريق على قرى ذات عمارة.

ومن قلعة رباح إلى «مَلَقُون» مرحلة، وهي مدينة على نهر، لها سور من تراب، وهي دون قلعة رباح في الكبر، ونهرها يعرف باسمها، ومنه شرب أهلها. ومنها إلى «أبلش» مرحلة، وهي قرية فيها فندق وعين منها شربهم آهلة، ومن أبلش إلى طليطلة مرحلة، وطليطلة مدينة كبيرة جليلة مشهورة، أكبر من بجانة، ذات سور منيع، وهي على وادي تاجه، وعليه قنطرة عظيمة، ويقال إن طولها خمسون عاماً، ويصير واديها إلى الوادي المنصب إلى شنترة.

ومن طليطلة إلى «مغام»[3] مرحلة، وهي قرية كبيرة بها معدن الطَفَل الأندلسي، ومن مغام إلى «الغرا» مرحلة، وهي مدينة كبيرة ذات سوق ومحال، وتكون نحو وادي آش. ومن الغرا إلى وادي الحجارة، وهي مدينة كبيرة، وثغر مشهور الحال مسوّر بحجارة، وهي ذات أسواق وفنادق وحمامات وحاكم ومحلّف وبها تسكن ولاة الثغور كأحمد بن يعلى وغالب، وعليها أكثر جهاد جليقية، ومنها إلى «شعراء القوارير» مرحلة، وبها منهل تنزله الرفاق، ومن شعراء القوارير إلى «مدينة سالم» مرحلة، ومن مدينة سالم إلى مدينة غالب ابن عبد الرحمن، ولها سور عظيم ورساتيق وأقليم واحد وماشية، رفهة في جميع أسبابها، وهي أكثر الأندلس حرباً وغزواً. انتهى كلام ابن حوقل.

قول ياقوت الحموي

وقال ياقوت الحموي في معجم البلدان:

قال ابن حوقل التاجر الموصلي، وكان قد طوف البلاد، وكتب ما شاهده: أما الأندلس فجزيرة كبيرة، فيها عامر وغامر، طولها نحو الشهر، في نيف وعشرين مرحلة،

---

(١) Caracuel وقال بيلاج الأوبيطي Pélage D'oviedo هي ـ caraqui أي كما يلفظها العرب.

(٢) Calatrava.

(٣) مغام Magham.

تغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والرخص والسعة في الأحوال. وعرض فم الخليج الخارج من البحر المحيط قدر اثني عشر ميلاً، بحيث يرى أهل الجانبين بعضهم بعضاً ويتبينون زروعهم وبيادرهم. قال: وأرض الأندلس من على البحر تواجه من أرض المغرب تونس. وإلى «طبرقة» إلى «جزائر مزغنّاي» ثم إلى «أنكور» ثم إلى «سبتة» ثم إلى «أريلي» ثم إلى البحر المحيط. وتتصل الأندلس في البر الأصغر من جهة جليقية، وهو جهة الشمال، ويحيط بها الخليج المذكور من بعض مغربها وجنوبها، والبحر المحيط من بعض شمالها وشرقها من حد الجلالقة على كورة «شنترين»(١) إلى «أشبونة»(٢) ثم إلى جبل الغور، ثم إلى ما لديه من المدن إلى جزيرة جبل طارق، المحاذي لسبته، ثم إلى «مالقة» ثم إلى «المرية» فرضة «بجانة»(٣) ثم إلى بلاد «مرسية»(٤) ثم إلى «طرطوشة»(٥) ثم تتصل ببلاد الكفر مما يلي البحر الشرقي في ناحية أفرنجة، ومما يلي المغرب ببلاد «عَلْجَسكس»(٦) وهم جيل من الانكبرد(٧) ثم إلى بلاد «بسكونس»(٨) ورومية الكبرى في وسطها، ثم ببلاد الجلالقة حتى تنتهي إلى البحر المحيط.

ووصفها بعض الأندلسيين بأتم من هذا وأحسن. وأنا أذكر كلامه على وجهه قال: هي جزيرة ذات ثلاثة أركان مثل شكل المثلث، قد أحاط بها البحران المحيط والمتوسط، وهو خليج خارج من البحر المحيط، قرب سَلاَ من بر البربر. فالركن الأول هو في هذا الموضع الذي فيه صنم قادس(٩)، وعنده مخرج البحر المتوسط الذي يمتد إلى الشام، وذلك من قبلي الأندلس. والركن الثاني شرقي الأندلس بين مدينة «أربونة»(١٠) ومدينة

---

(١) Santarem. (٢) Lisbonne. (٣) Béchina. (٤) Marcie. (٥) Tortose.

(٦) نظن أنه يعني بهذا الاسم الجيل الذي يقال له عندهم Cuskaldonac والاسبان يقولون vascongados.

(٧) يريدون بهم اللومبارديين وقد جاء تعريفه الانكبرده في معجم البلدان قال: الانكبرده بالفتح ثم السكون وفتح الكاف وضم الباء الموحدة وسكون الراء ودال مهملة وهاء بلاد واسعة من بلاد الافرنج بين القسطنطينية والأندلس تأخذ على طرف بحر الخليج من محاذاة جبل القلال وتمر على محاذاة ساحل المغرب مشرقاً إلى أن تتصل ببلاد قلوريه انتهى. قلت: هذا الوصف لا ينطبق إلا على مملكة ايطالية الحاضرة الممتدة من جبل القلال غرباً وهو الجبل المشرف على مدينة نيس إلى بلاد كالبرة شرقاً وهي التي يعنيها بقوله قلورية. عليك لمعرفة جبل القلال بمراجعة كتابنا «غزوات العرب في أوروبة».

(٨) هم الباسك في شمالي اسبانية وجنوبي فرنسة والعرب يقولون لهم الباشكنس أو الباسكنس ولغتهم يقال لها vascuence ومن هذه اللفظة قال لهم العرب ذلك لأن الفاء (v) هي دائماً باء عند العرب.

(٩) على ربوة من الأرض كان هذا الصنم إلى جنوبي المكان المسمى الآن سان فرناندو وهو من بناء الفينيقيين وكان خبر بنائه محفوراً على أعمدة الفولاذ بأحرف فينيقية. وقد عمر فينيقيو صور قادس منذ ١١٠٠ قبل المسيح ثم في سنة ٥٠١ قبل المسيح فتحها فينيقيو قرطاجنة.

(١٠) Narbonne في جنوبي فرنسة.

«بُرديل»[1] وهي اليوم بيد الأفرنج بإزاء جزيرتي «ميورقة» و «منورقة» مجاورة من البحرين المحيط والمتوسط ومدينة أربونة تقابل البحر المتوسط، ومدينة برديل تقابل البحر المحيط. والركن الثالث هو ما بين الجنوب والغربي من حيز جليقية، حيث الجبل الموفي على البحر، وفيه الصنم العالي المشبه بصنم قادس، وهو البلد الطالع على بريطانية [2] فالضلع الأول منها أوله حيث مخرج البحر المتوسط الشامي من البحر المحيط، وهو أول الزقاق في موضع يعرف بجزيرة طريف من بر الأندلس يقابل قصر مصمودة بَإزاء سَلاَ في الغرب الأقصى من البر المتصل بأفريقية وديار مصر، وعرض الزقاق ههنا اثنا عشر ميلاً، ثم تمر في القبلة إلى الجزيرة الخضراء من بر الأندلس المقابلة لمدينة سبتة. وعرض الزقاق ههنا ثمانية عشر ميلاً. وطوله في هذه المسافة إلى ما بين جزيرة طريف وقصر مصمودة إلى المسافة التي ما بين الجزيرة الخضراء وسبتة نحو العشرين ميلاً. ومن ههنا يتسع البحر الشامي إلى جهة المشرق، ثم يمر من الجزيرة الخضراء إلى مدينة «مالقة»[3] إلى حصن «المنكب»[4] إلى مدينة «المرية»[5] إلى قرطاجة [6] الخلفاء، حتى تنتهى إلى جبل «قاعون»[7] الموفي على مدينة «دانية» [8] ثم ينعطف من دانية إلى شرقي الأندلس، إلى حصن «قليره» [9] إلى بلنسية. ويمتد كذلك شرقاً إلى «طَرَكونة»[10] إلى «برشلونة»[11] إلى «أربونة» إلى البحر الرومي، وهو الشامي، وهو المتوسط.

والضلع الثاني مبدؤه كما تقدم من جزيرة «طريف»[12] آخذاً إلى الغرب في الحوز المتسع الداخل في البحر المحيط، فيمر من جزيرة طريف إلى «طرف الأغرّ»[13] إلى جزيرة «قادس»[14] وههنا أحد أركانها. ثم يمر من قادس إلى بر المائدة[15]، حيث يقع نهر إشبيلية في البحر، ثم إلى جزيرة «شلطيش»[16] إلى وادي «يانة»[17] إلى «طبيرة»[18]، ثم إلى «شنترية» [19] إلى «شِلب» [20]، وهنا عطف إلى أشبونة وشنترين، وترجع إلى طرف العرف، مقابل شِلب. وقد يُقطع البحر من شِلب إلى طرف العُرف مسيرة خمسين ميلاً، وتكون أشبونة وشنترة وشنترين على يمين من حَوْز طرف العُرف، وهو جبل منيف داخل في البحر نحو أربعين ميلاً، وعليه كنيسة الغراب[21] المشهورة، ثم يدور من طرف العرف

---

(1) Beaurdeaux. (2) جزيرة انكلترة. (3) Malaga. (4) Amonacar.
(5) Almeria. (6) Cartagéne. (7) Caoun. (8) Dénia.
(9) Cullera. (10) Tarracone. (11) Barcelonne. (12) Tarifa.
(13) Trafalgar (14) Cadix. (15) Almeida. (16) Saltés.
(17) Guadıana. (18) Tavira. (19) Cintra. (20) Silves.
(21) يتكرر ذكر كنيسة الغراب في جغرافيات العرب وتحرير خبرها وجود أسطورة مالها أن الرومان في صدر النصرانية قتلوا قديساً مسيحياً اسمه صان فنسان في بلنسية وطرحوا تجاليده في البرية لتأكلها=

مع البحر المحيط فيمر على حوز «الريحانة» وحوز «المَدْرَة» وسائر تلك البلاد مائلاً إلى الجوف [1]، وفي هذا الحيز هو الركن الثاني.

والضلع الثالث ينعطف في هذه الجهات من الجنوب إلى الشرق، فيمر على بلاد جليقية وغيرها حتى ينتهي إلى مدينة برديل (Bordeaux) على البحر المحيط المقابل لأربونة على البحر المتوسط، وهنا هو الركن الثالث، وبين أربونة وبرديل الجبل الذي فيه هيكل الزهرة، الحاجز بين الأندلس وبين بلاد أفرنجة العظمي، ومسافته من البحر نحو

= بوحوش فجاء غراب وحفظه من أكل الضواري له ولا نعلم لأي سبب أريد نقل جثة هذا القديس من شرق الأندلس إلى غربها؟ وإنما أنه في أيام عبد الرحمن الداخل صدر الإذن للنصارى بنقلها إلى كنيسة في طرف مقاطعة الغرب على البحر المحيط.

(١) الجوف في اصطلاح إخواننا المغاربة والأندلسيين هو الشمال وقد فكرت كثيراً في وجه هذا الاصطلاح فلم يظهر لي شيء يصح التعويل عليه ولا عثرت على نص يفيد سبب تسميتهم الشمال بالجوف وقد سألت أهل الذكر ممن أعتقد بعلمهم فأبدى كل واحد ما عنده: فالسيد علال الفاسي يظن أنه لما كان الجوف واقعاً شمالي مكة فقد غلب على أهل الحجاز أن يقولوا لكل شمال جوفاً ثم سرى هذا الاستعمال من الحجاز إلى المغرب والأندلس. وهو وجه وجيه لأن مدينة الجوف هي في وسط البرية إلى الشمال من الحجاز وإلى الغرب من العراق وإلى الشرق من الشام، وكما غلب على الناس جميعاً في الشام أن يقولوا للجنوب قبلة نظراً لكون الكعبة هي إلى الجنوب من الشام يجوز أن يكون الحجازيون سموا الشمال جوفاً لكون الجوف ونواحيها هي في شماليهم وأنت ترى أنهم يقولون للشمال شاماً بغلبة الاصطلاح المبني على كون الشام هي إلى الشمال من الحجاز وفي كثير من الصكوك تجدهم يكتبون: يحده من القبلة كذا ومن الشام كذا وقد أجابني الأستاذ عبد القادر المغربي رئيس المجمع العلمي العربي بأنه يستحسن رأي الأستاذ علال الفاسي في هذه اللفظة ويقول إنهم في الحجاز يعبرون عن الشمال بالشام وإنه وجدت في أوراق الطابو التركية القديمة ما ورد فيه لفظة «يمني» بمعنى الجنوب فإنهم في الحجاز نفسه كما عبروا عن الشمال بالشام فقد عبروا عن الجنوب باليمن وهو شيء طبيعي بالنسبة لهم ثم قال الشيخ المغربي: إلا أنه يوجد في الأندلس بلدان باسم الجوف كما يظهر من معجم البلدان أحدهما في غربي الأندلس على البحر المحيط والآخر في إقليم أكشونية فإلى أي جوف انتسب هذا الاصطلاح؟ هل هو الجوف الذي في الشرق أم الجوف الذي في الأندلس؟ وأما الأستاذ الأب انسطاس الكرملي فقد أجابني بما يلي: الجوف: الشمال وهو من اصطلاح المغاربة جاء في كتاب الإدريسي وفي اللمحة البدرية: وسبب هذه التسمية هو أن الذين سموا بهذا الاسم ريح الشمال أو الشمال نفسه هم سكان البلاد الواقعة في جنوبي بحر الروم فإذا هبت الشمال عندهم جاءتهم من «جوف» ذيالك البحر فلذلك عرفوها بهذا الاسم كأنهم أشاروا إلى أصل مهبها فحذفوا واكتفوا باللفظ الظاهر الإشارة إليه انتهى. أما دوزي ففي كتابه «متمم المعاجم العربية» ذكر في صفحة ٥٣٥ ما يلي: جوفي: شمالي. هذا المعنى كثير الاستعمال لدى المؤلفين المغاربة ريح جوفي: ريح الشمال انتهى. قلت: أما في الأندلس فلا يكادون يعبرون عن الشمال إلا بالجوف.

يومين للقاصد. ولولا هذا الجبل لالتقى البحران، ولكانت الأندلس جزيرة منقطعة عن البر، فاعرف ذلك! فإن بعض من لا علم له يعتقد أن الأندلس يحيط بها البحر في جميع أقطارها لكونها تسمى جزيرة، وليس الأمر كذلك، وإنما سميت جزيرة بالغلَبَة، كما سميت جزيرة العرب وجزيرة «أقور»[1] وغير ذلك وتكون مسيرة دورها أكثر من ثلاثة أشهر، ليس فيها ما يتصل بالبر إلاّ مقدار يومين كما ذكرنا وفي هذا الجبل المدخل المعروف بالأبواب[2] الذي يدخل منه من بلاد الأفرنج إلى الأندلس، وكان لا يرام ولا يمكن أحداً أن يدخل منه لصعوبة مسلكه فذكر بطليموس أن قَلَوْ بَطْرَة، وهي امرأة كانت آخر ملوك اليونان، أول من فتح هذه الطريق وسهّلها بالحديد والخل.

قلت: ولولا خوف الاضجار والاملال لبسطت القول في هذه الجزيرة، فوصفها كثير، وفضائلها جمة، وفي أهلها أئمة وعلماء وزهّاد، ولهم خصائص كثيرة، ومحاسن لا تحصى، وإتقان لجميع ما يصنعونه، مع غلبة سوء الخلق على أهلها، وصعوبة الانقياد[3]. وفيها مدن كثيرة، وقرى كبار، يجيء ذكرها في أماكنها من هذا الكتاب حسب ما يقتضيه الترتيب إن شاء الله تعالى، وبه العون والعصمة انتهى كلام ياقوت في المعجم.

قول الشريف الإدريسي

وقال الشريف الإدريسي في كتابه «نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق» وهو أشهر جغرافية عربية ـ الكلام الآتي:

الجزء الأول من الإقليم الرابع مبدأوه من المغرب الأقصى حيث البحر المظلم، ومنه يخرج خليج البحر الشامي ماراً إلى المشرق، وفي هذا البحر المرسوم بلاد الأندلس المسماة باليونانية «أشبانية» وسميت جزيرة الأندلس بجزيرة لأنها شكل مثلث، وتضيق من ناحية المشرق حتى يكون بين البحر الشامي والبحر المظلم المحيط بجزيرة الأندلس ٥ أيام. ورأسها العريض نحو من ١٧ يوماً. وهذا الرأس هو في أقصى المغرب في نهاية انتهاء المعمور من الأرض، محصور في البحر المظلم، ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم[4] ولا وقف بشر منه على خبر صحيح، لصعوبة عبوره، وظلام أنواره وتعاظم

(١) هي إقليم الموصل وآمد وديار بكر وديار ربيعة وما إليها.

(٢) ولذلك عرف حتى عند العرب بلفظة «البرتات» أي الأبواب بلغات الأفرنج.

(٣) وهذا هو الأمر الذي كان سبب ضياع هذا الفردوس على العرب فما حصله عرب أندلس بحزمهم وحسن ترتيبهم أضاعوه بشدة انشقاقهم واستمرار تشغيبهم ولله أمر هو بالغه.

(٤) خلفه بر اسمه أمريكا حاول العرب العبور إليه من قبل وقيل وصلوا إليه.

أمواجه، وكثرة أهواله، وتسلط دوابه، وهيجان رياحه، وبه جزائر كثيرة، ومنها معمورة ومغمورة. وليس أحد من الربانين يركبه عرضاً ولا ملججاً، وإنما يمرّ منه بطول الساحل، ولا يفارقه. وأمواج هذا البحر تندفع منفلقة كالجبال، لا ينكسر ماؤها، وإلا فلو تكسَّر موجه لما قدر أحد على سلوكه. والبحر الشامي(١) فيما يحكى كان بركة منحازة مثل ما هو عليه الآن بحر طبرستان (٢) لا تتصل مياهه بشيء من مياه البحر.

وكان أهل المغرب الأقصى من الأمم السالفة يغيرون على أهل الأندلس فيضرون بهم كل الاضرار. وأهل الأندلس أيضاً يكابدونهم ويحاربونهم جهد الطاقة، إلى أن كان زمان الاسكندر(٣) ووصل إلى أهل الأندلس، فاعلموه بما هم عليه من التناكر مع أهل السوس، فأحضر الفعلة والمهندسين، وقصد مكان الزقاق، وكان أرضاً جافة، فأمر المهندسين بوزن الأرض، ووزن سطوح ماء البحرين، ففعلوا ذلك فوجدوا البحر الكبير يشف علوّه على البحر الشامي بشيء يسير، فرفعوا البلاد التي على الساحل من بحر الشام، ونقلها من أخفض إلى أرفع. ثم أمر أن تحفر الأرض التي بين طنجة وبلاد الأندلس، فحفرت حتى وصل الحفر إلى الجبال التي في أسفل الأرض، وبنى عليها رصيفاً بالحجر والجيّار افراغاً، وكان طول البناء ١٣ ميلاً، وهو الذي كان بين البحرين من المسافة والبعد، وبنى رصيفاً آخر يقابله مما يلي أرض طنجة. وكان بين الرصيفين سعة ستة أميال فقط. فلما أكمل الرصيفين حفر للماء من جهة البحر الأعظم، فمرّ ماؤه بسيله وقوته بين الرصيفين، ودخل البحر الشامي، ففاض ماؤه، وهلكت مدن كثيرة كانت على الشطين معاً، وغرق أهلها، وطغى الماء على الرصيفين نحو ١١ قامة، فأما الرصيف الذي يلي بلاد الأندلس فإنه يظهر في أوقات صفاء البحر، في جهة الموضع المسمّى بالصفيحة ظهوراً بيّناً، طوله على خط مستقيم (هنا لم نتبين الكتابة) وقد رأيناه عياناً، وجرينا على طوله مع هذا البناء. وأهل الجزيرتين يسمونه القنطرة، ووسط هذا البناء يوافق الموضع الذي فيه حجر الأيّل على البحر.

وأما الرصيف الآخر الذي بناه الإسكندر في جهة بلاد طنجة، فإن الماء حمله في صدره، واحتفر ما خلفه من الأرض(٤)، وما استقر ذلك منه حتى وصل إلى الجبال من

(١) أي المتوسط.

(٢) أي بحر الخزر أو قزوين Caspienne.

(٣) من عادة مؤرخينا نقل روايات العامة ومن عادة العامة أنهم كلما رأوا أثراً متوغلاً في القدم أو خبراً أحاطت به الظلم نسبوه إلى الاسكندر أو إلى هرقل أو إلى العمالقة أو إلى الجن وهلم جرا.

(٤) علماء الجيولوجية يذهبون إلى أن اتصال البحر المحيط بالبحر المتوسط كان نتيجة زلازل ونوازل طبيعية بها قال الله تعالى ﴿مرج البحرين يلتقيان﴾ وإن ذلك لم يكن من عهد شديد التوغل في القدم =

كلتي الناحيتين. طول هذا المجاز المسمّى بالزقاق ١٣ ميلاً، وعلى طرفه من جهة المشرق المدينة المسماة بالجزيرة الخضراء، وعلى طرفه من ناحية المغرب المدينة المسماة بجزيرة طريف. ويقابل جزيرة طريف في الضفة الثانية من البحر مرسى القصر المنسوب لمصمودة، ويقابل الجزيرة الخضراء في تلك العدوة مدينة سبتة. وعرض البحر بين سبتة والجزيرة الخضراء ١٨ ميلاً، وعرض البحر بين جزيرة طريف وقصر مصمودة ١٣ ميلاً وهذا البحر في كل يوم وليلة يجزر مرتين، ويمتلىء مرتين، فعلاً دائماً، ذلك تقدير العزيز الحكيم.

وأما على ضفة البحر الكبير من المدن الواقعة في هذا البحر المرسوم فهي «طنجة» و «سبتة» و «نكور» و «بادس» و «المزمة» و «مليلة» و «هُنَين» و «بنووزّار» و «وهران» و «مستفانم» فأما مدينة سبتة فهي تقابل الجزيرة الخضراء، وهي سبعة أجبل صغار متصلة بعضها ببعض معمورة، طولها من المغرب إلى المشرق نحو ميل، ويتصل بها من جهة المغرب، وعلى ميلين منها، جبل موسى وهذا الجبل منسوب لموسى بن نصير، وهو الذي كان على يديه افتتاح الأندلس في صدر الإسلام، وتجاوره جنات وبساتين وأشجار وفواكه كثيرة، وقصب سكر، وأترجّ يتجهز به إلى ما جاور سبتة من البلاد، لكثرة الفواكه بها. ويسمّى هذا المكان الذي جمع هذا كله (بليونُش)[1]. وبهذا الموضع مياه جارية، وعيون مطردة، وخصب زائد، ويلي المدينة من جهة المشرق جبل عال يسمى «جبل المُنية»[2]

= بالنسبة إلى الأدوار الجيولوجية وعليه فتكون حكاية الاسكندر وفتحه بحر الزقاق ليمنع الغارات بين أهل السوس وأهل الأندلس هي من جملة الخرافات التي يروى مثلها في كل مكان عن الاسكندر ولو كان منع الغارات والحروب بين الشعوب يقتضي أن يحال بين الفريقين المتغاورين ببحر لامتلأت كرة الأرض ترعاً وخلجاً وما الناس بعد ذلك ببالغي مرادهم من السلام لأنه قد يغير بعضهم على بعض بالسفن وكم من أمة أغارت على أمة أخرى وبينهما أبحر محيطة وأبعاد لا يكاد يتصورها العقل فالحادث الذي رووه عن الاسكندر هو غريب، وأغرب منه ذلك التعليل الذي جعلوا وصل ما بين البحرين من أجله.

(١) مما أرويه عن بليونش هذه أنها جنة غناء ولكن طريقها في غاية الوعورة ولهذا قال أحدهم:

بليـــــونــــــش جنـــــة ولكـــــن   طـــــريقهـــــا يقطـــــع النيـــــاطـــــا
كجنـــــة الخلـــــد لا يـــــراهـــــا   إلا الـــــذي جـــــاوز الصـــــراطـــــا

(٢) دوزي يقرأ هذه الجملة «جبل المينا» لا جبل المنية ونحن نقول لا مانع من ذلك ولكن يكثر تسمية المصايف والمرتبعات عند العرب باسم «منية» بالكسر وفي مصر من هذه المنيات ما لا يحصى منها ما هو بالمفرد ومنها ما هو بالتثنية ومنها ما هو بالجمع. وقد عد الزبيدي في التاج نحواً من مائة وتسعين منية بالمفرد. وزيادة على ثلاثين بالتثنية هكذا: منيتا طاهر وأمامه. منيتا فاتك ومزاح، منيتا السويد والطبل إلخ وعد عدة منيات أو منيات بالجمع هكذا: مني مرزوق، مني جعفر، مني مغنوج، مني غصين إلخ وكل هذا في بر مصر. وفي الشام بعض «منيات» أيضاً منها «المنى» بقرب طرابلس =

وأعلاه بسيط، وعلى أعلاه سور بناه محمد بن أبي عامر عندما جاز إليها من الأندلس وأراد أن ينقل المدينة إلى أعلى هذا الجبل فمات عند فراغه من بنيان أسوارها، وعجز أهل سبتة عن الانتقال إلى هذه المدينة المسماة بالمُنية، فمكثوا في مدينتهم، وبقيت المنية خالية، وأسوارها قائمة، وقد نبت حطب الشَّعْراء فيها. وفي وسط المدينة بأعلى الجبل عين ماء لطيفة لكنها لا تجفّ ألبتة، وهذه الأسوار التي تحيط بمدينة المنية تظهر من عُدوة الأندلس لشدة بياضها. ومدينة سبتة سميت بهذا الاسم لأنها جزيرة منقطعة، والبحر يطيف بها من جميع جهاتها، إلا من ناحية المغرب، فإن البحر يكاد يلتقي بعضه ببعض هناك، ولا يبقى بينهما إلا أقل من رمية سهم، واسم البحر الذي يليها شمالاً بحر الزقاق، والبحر الآخر الذي يليها في جهة الجنوب يقال له بحر بسول، وهو مرسى حسن يُرسَى فيه فيُكِنّ من كل ريح.

وبمدينة سبتة مصايد للحوت ولا يعدلها بلد في إصابة الحوت وجلبه، ويصاد بها من السمك نحو من مائة نوع، ويصاد بها السمك المسمى بالتنّين الكبير، وصيدهم له يكون زرقاً بالرماح وهذه الرماح لها في أسنتها أجنحة بارزة تنشب في الحوت ولا تخرج، وفي أطراف عصيها شرائط القنّب الطوال، ولهم في ذلك دربة وحكمة سبقوا فيها جميع الصيادين.

ويصاد بمدينة سبتة شجر المرجان الذي لا يعدله صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار. وبمدينة سبتة سوق لتفصيله وحكّه وصنعه خرزاً وثقبه وتنظيمه، ومنها يتجهز به إلى سائر البلاد، واكثر ما يحمل إلى ««غانة» وجميع بلاد السودان، لأنه في تلك البلاد يستعمل كثيراً. ومن مدينة سبتة إلى قصر مصمودة في الغرب ١٣ ميلاً وهو حصن كبير على ضفة البحر، تنشأ به المراكب والحراريق التي يسافر فيها إلى بلاد الأندلس، وهي على رأس المجاز الأقرب إلى ديار الأندلس ومن قصر مصمودة إلى مدينة طنجة غرباً ٢٠ ميلاً. ومدينة طنجة قديمة أزلية، وأرضها منسوبة إليها، وهي على جبل عال مطل على البحر، وسكنى أهلها منه في سند الجبل إلى ضفة[1] البحر، وهي

= الشام وهي تلفظ بالإماله على عادة الشام. وفي الأندلس عدة منى ذكر منها الزبيدي منية عجب، منها خلف ابن سعيد المتوفى سنة ٣٠٥ ولم يذكر غيرها. ولكن لافى بروفنسال في كتابه «اسبانية المسلمة في القرن العاشرة» قال إن بالأندلس عدة أماكن اسم الواحد منها «منية» وإنما يلفظها الأندلسيون بالضم ويظن أن أصل اللفظة يوناني ثم دخلت في لغة القبط بمعنى ميناء أو محط أو دير. وكان في قرطبة «منية الناعورة» للخليفة الناصر وهو متنزه معروف و «منية عبدالله» و «منية المغيرة» و «منية عجب» ولم يذكر ياقوت من منى بالأندلس سوى منية عجب ولم يذكر من منى مصر إلا منية أبي الخصيب وبضع عشرة أخرى.

(١) سنَد الجبل ما قابلك منه وعلا عن السفح فأما الآن فقد ارتفعت طنجة إلى أعلى الجبل وهي مدينة حسنة كما قال، عمرها الله بأهلها.

مدينة حسنة لها أسواق وصناع، وفعلة وبها انشاء المراكب، وبها اقلاع وحط، وهي على أرض متصلة بالبر فيها مزارع وغلات وسكانها برابر ينسبون إلى صنهاجة. ومن مدينة طنجة ينعطف البحر المحيط الأعظم آخذاً في جهة الجنوب إلى أرض «تشمِّسْ» وتشمّس كانت مدينة كبيرة ذات سور من حجارة يشرف على نهر «سفْدر» وبينها وبين البحر نحو ميل، ولها قرى عامرة بأصناف من البربر، وقد أفنتهم الفِتنة وأبادتهم الحروب المتوالية عليهم. ومن تشمّس إلى قصر عبد الكريم، وهو على مقربة من البحر، وبينه وبين طنجة، يومان، وقصر عبد الكريم مدينة صغيرة على ضفاف نهر «الكس» وبها أسواق على قدرها يباع بها ويشترى، والأرزاق بها كثيرة والرخاء بها شامل. ومن مدينة طنجة إلى مدينة «أزيلا» مرحلة خفيفة جداً، وهي مدينة صغيره جداً، وما بقي منها الآن إلا نزر يسير، وفي أرضها أسواق قريبة. وأزيلا هذه، ويقال أصيلا، عليها سور وهي متعلقة على رأس الخليج المسمى بالزقاق، وشرب أهلها من مياه الآبار وعلى مقربة منها في طريق القصر مصب نهر سفدر، وهو نهر كبير عذب تدخله المراكب، ومنه يشرب أهل تشمس التي تقدم ذكرها. وهذا الوادي أصله من مائين يخرج أحدهما من بلد «دنهاجة» من جَبَل «البصرة» والماء الثاني من بلد كتامة، ثم يلتقيان، فيكون منهما نهر كبير. وفي هذا النهر يركب أهل البصرة في مراكبهم بأمتعتهم حتى يصلوا البحر فيسيروا فيه حيث شاؤوا. وبين تشمس والبصرة دون المرحلة على الظهر. والبصرة[1] كانت مدينة مقتصدة عليها سور ليس بالحصين، ولها قرى وعمارات وغلات، وأكثر غلاتها القطن والقمح، وسائر الحبوب بها كثيرة، وهي عامرة الجهات، وهواؤها معتدل، وأهلها أعفاء، ولهم جمال وحسن أدب. وعلى نحو ١٨ ميلاً

---

(١) بعد أن ذكر ياقوت البصرة المشرقية في معجم البلدان عاد فذكر البصرة المغربية فقال: بلد في المغرب في أقصاه قرب السوس خربت. قال ابن حوقل وهو يذكر مدن المغرب من بلاد البربر: والبصرة مدينة مقتصدة عليها سور ليس بالمنيع ولها عيون خارجها عليها بساتين يسيرة وأهلها ينسبون إلى السلامة والخير والجمال وطول القامة واعتدال الخلق وبينها وبين المدينة المعروفة بالأقلام أقل من مرحلة وبينها وبين مدينة يقال لها تشمس أقل من مرحلة أيضاً. ولما ذكر المدن التي على البحر قال: ثم تعطف على البحر المحيط يساراً وعليه من المدن قريبة منه وبعيدة «جرماية» و «ساوران» و «الحجى» على نحو البحر ودونها في البر مشرقاً «الأقلام» ثم البصرة وقال البشاري: البصرة مدينة بالمغرب كبيرة كانت عامرة وقد خربت وكانت جليلة. وكان قول البشاري هذا في سنة ٣٧٨. وقرأت في كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري الأندلسي: بين فاس والبصرة أربعة أيام قال: والبصرة مدينة كبيرة وتعرف ببصرة الكتان كانوا يتبايعون في بدء أمرها في جميع تجاراتهم بالكتان وتعرف أيضاً بالحمراء لأنها حمراء التربة وسورها مبني بالحجارة والطوب وهي بين شرفين ولها عشرة أبواب وماؤها زعاق وشرب أهلها من بئر عذبة على باب المدينة وفي بساتينها آبار عذبة ونساء هذه البصرة مخصوصات بالجمال الفائق والحسن الرائق ليس بأرض المغرب أجمل منهن. قال أحمد =

مدينة «باب أقلام»[1] وهي من بناء عبدالله بن إدريس، بين جبال وشعار متصلة، والمدخل إليها من مكان واحد. وبالجملة فإنها خصيبة كثيرة المياه والفواكه، وعلى مقربة منها مدينة «قرت» وهي على سفح جبل منيع، لا سور عليها، ولها مياه كثيرة وعمارات متصلة. وأكثر زراعاتهم القمح والشعير وأصناف الحبوب. وكل هذه البلاد منسوبة إلى بلاد طنجة ومحسوبة منها. وفي جنوب البصرة على نهر «سبو» الآتي من ناحية فاس قرية كبيرة كالمدينة الصغيرة يقال لها «ماسنة» وكانت قبل هذا مدينة لها سور وأسواق وهي الآن خراب. وعلى مقربة منها مدينة «الحجر» وكانت مدينة محدثة لآل إدريس، وهي على جبل شامخ الذرى، حصينة منيعة، لا يصل أحد إليها إلا من طريق واحد، والطريق صعب المجاز، يسلكه الرجل بعد الرجل، وهي خصيبة رفهة كثيرة الخيرات، وماؤها فيها، ولها بساتين وعمارات، ومن مدينة سبتة السابق ذكرها بين جنوب وشرق إلى حصن «تطاون» مرحلة صغيرة، وهو حصن في بسيط الأرض، وبينه وبين البحر الشامي خمسة أميال. وتسكنه قبيلة من البربر تسمى مَجَكْسَة[2]. ومنه إلى «أنزلان» وهو مرسى فيه غمارة، نحو من ١٥ ميلاً وأنزلان مرسى عامر، وهو أول بلاد غمارة. وبلاد غمارة جبال متصلة بعضها ببعض كثيرة الشجر والغياض وطولها نحو من ثلاثة أيام. ويتصل بها من ناحية الجنوب جبال «الكواكب» وهي أيضاً جبال عامرة كثيرة الخصب، وتمتد في البرية مسيرة ثلاثة أيام حتى تنتهي قرب مدينة فاس. وكان يسكنها غمارة إلى أن طهر الله منهم الأرض، وأفنى جمعهم، وخرب ديارهم، لكثرة نوبهم، وضعف إسلامهم وكثرة جرأتهم، وإصرارهم على الزنا المباح، والمواربة الدائمة، وقتل النفس التي حرم الله بغير الحق، وذلك من الله جزاء الظالمين. وبين سبتة وفاس على طريق «زجَّان» ثمانية أيام. وعلى مقربة من أنزلان حصن «تقساس» على البحر، وبينهما نصف يوم، وهو حصن معمور في غمارة، لكن أهله بينهم

= ابن فتح المعروف بابن الحزاز التيهرتي يمدح أبا العيش عيسى بن إبراهيم بن القاسم:

قبح الاله الدهر إلا قينة	بصرية في حمرة وبياض
الخمر في لحظاتها والورد في	وجناتها والكشح غير مفاض
في شكل مرجى ونسك مهاجر	وعفاف سني وسمت إباض
تيهرت، أنت خلية وبرقة	عوضت منك ببصرة فاعتاضي
لا عذر للحمراء في كلفي بها	أو تستفيض بأبحر وحياض

قال: ومدينة البصرة مستحدثة أسست في الوقت الذي أسست فيه أصيلة أو قريباً منه.

(١) ورد ذكرها في نقلنا عن ياقوت هنا.

(٢) كان هذا في القرن السادس للهجرة وهو القرن الذي عاش فيه الشريف الإدريسي ولكن في القرن العاشر للهجرة عمرت تطاون بالأندلسيين بعد جلائهم الأخير وصارت من المدن الكبار المعدودة من القواعد زادها الله من فضله.

وبين غمارة حرب دائمة، ومن تقساس إلى قصر «تاركّا» وله مرسى. ومنه إلى حصن «مِسيكاسه» نصف يـوم وهـو لغمارة. ومن مسيكاسة إلى حصن «كركال» ١٥ ميلاً وهو أيضاً لغمارة. ومن حصن كركال إلى مدينة «بادس» مقدار نصف يوم، وبادس مدينة متحضّرة فيها أسواق وصناعات قلائل، وغمارة يلجأون إليها في حوائجهم، وهي آخر بلاد غمارة، ويتصل بها هناك طرق الجبل، وينتهي طرفه الآخر في جهة الجنوب، إلى أن يكون بينه وبين بلد بني «تاوده» أربعة أميال، وكان بهذا الجبل قوم من أهل «مزكلدة» أهل جرأة وسفاهة وتجاسر على من جاورهم، فأبادهم سيف الفتنة، وأراح الله منهم. ومن مدينة بادس إلى مرسى «بوزكور» ٢٠ ميلاً، وكانت مدينة فيما سلف لكنها خرجت ولم يبق لها رسم، وتسمى في كتب التواريخ «نكور» وبين بوزكور وبادس جبل متصل يُعرف بالأجراف، ليس فيه مرسى. ومن بوزكور إلى المزمّة ٢٠ ميلاً، وكانت به قرية عامرة ومرسى توسق المراكب منه. ومن المزمّة إلى واد بقربها، ومنه إلى طرق «ثغلال» ١٢ ميلاً. وهذا الطرف يدخل في البحر كثيراً، ومنه إلى مرسى «كرط» ٢٠ ميلاً وبشرقي كرط واد يأتي من جهة «صاع» ومن كرط إلى طرف جون داخل في البحر ٢٠ ميلاً، ومن كرط إلى مدينة «مليلة» في البحر ١٢ ميلاً، وفي البر ٢٠ ميلاً.

ومدينة مليلة مدينة حسنة متوسطة ذات سور منيع وحال حسنة على البحر، وكان لها قبل هذا عمارات متصلة وزراعات كثيرة، ولها بئر فيها عين أزلية كثيرة الماء ومنها شربهم، ويحيط بها من قبائل البربر بطون بطوية.

ومن مليلة إلى مصب الوادي الذي يأتي من «آقرسيف» ٢٠ ميلاً وأمام مصب هذا النهر جزيرة صغيرة. ويقابل هذا الموضع من البرية مدينة «جراو» ومن مصب وادي آقرسيف إلى مرسى «تافركنيت» على البحر، وعليه حصن منيع صغير ٤٠ ميلاً. ومن تافركنيت إلى حصن تابحريت ثمانية أميال، وهو حصن حصين، حسن عامر آهل وله مرسى مقصود. ومن تابحريت إلى «هُنين» على البحر ١١ ميلاً ومنها إلى «تلمسان» في البر ٤٠ ميلاً. وفيما بينهما مدينة «ندرومة» وهي مدينة كبيرة عامرة آهلة، ذات سور وسوق، موضعها في سند، ولها مزارع ولها واد يجري في شرقيها، وعليه بساتين وجنات وعمارة وسقي كثير.

وهنين مدينة حسنة صغيرة في نحر البحر، وهي عامرة، عليها سور متقن وأسواق وبيع وشراء، وخارجها زراعات كثيرة، وعمارات متصلة. ومن هنين على الساحل إلى مرسى «الوردانية» ستة أميال، ومنها إلى جزيرة «القشقار» ثمانية أميال، ومنها إلى جزيرة «إرشقول» ويروى «ارجكون» وكانت فيما سلف حصناً عامراً له مرسى وبادية واسعة في

الماشية والأموال السائمة، ومرساها في جزيرة فيها مياه ومواجل كثيرة للمراكب، وهي جزيرة مسكونة، ويصب بحذائها نهر مَلَوية ومن مصب الوادي إلى حصن «أسلان» ستة أميال على البحر، ومنه إلى طرف خارج في البحر ٢٠ ميلاً، ويقابل الطرف في البحر جزيرة الغنم، وبين جزائر الغنم وأسَلان ١٢ ميلاً. ومن جزائر الغنم إلى بني وزّار ١٧ ميلاً، وبنو وزّار حصن منيع في جبل على البحر، ومنه إلى «الدفالي» وهو طرف خارج في البحر ١٢ ميلاً، ومن طرف الدفالي إلى طرف «الحرشة» ١٢ ميلاً ومنه إلى «وهران» ١٢ ميلاً. وقد ذكرنا وهران وأحوالها فيما صدر من ذكر الإقليم الثالث، والله المستعان.

فلنرجع الآن إلى ذكر الأندلس ووصف بلادها، ونذكر طرقاتها، وموضوع جهاتها، ومقتضى حالاتها، ومبادىء أوديتها، ومواقعها من البحر، ومشهور جبالها وعجائب بقعها، ونأتي من ذلك بما يجب بعون الله تعالى فنقول:

أما الأندلس في ذاتها فشكل مثلث يحيط بها البحر من جميع جهاتها الثلاث، فجنوبها يحيط به البحر الشامي، وغربها يحيط به البحر المظلم، وشمالها يحيط به بحر الانقليشيين(١) من الروم. والأندلس طولها من كنيسة الغراب التي على البحر المظلم إلى الجبل المسمى بهيكل الزهرة ألف ميل ومائة ميل، وعرضها من كنيسة «شنت ياقوب»(٢) التي على أنف بحر الأنقليشيين إلى مدينة المرية التي على بحر الشام ستمائة ميل.

وجزيرة الأندلس مقسومة من وسطها في الطول بجبل طويل يسمى الشارات(٣) وفي جنوب هذا الجبل تأتي مدينة طليطلة. ومدينة طليطلة مركز لجميع بلاد الأندلس وذلك أن منها إلى مدينة قرطبة، بين غرب وجنوب، تسع مراحل، ومنها إلى لشبونة غرباً تسع مراحل، ومن طليطلة إلى شنت ياقوب على بحر الأنقليشيين تسع مراحل، ومنها إلى «جاقة»(٤) شرقاً تسع مراحل، ومنها إلى مدينة بلنسية، بين شرق وجنوب، تسع مراحل، ومنها أيضاً إلى مدينة المرية على البحر الشامي تسع مراحل.

---

(١) يريد بالانقليش أو بالأنقليشيين الانكليز وكان من عادة العرب أن يقلبوا السين والزاي شيناً في أكثر الأحيان.

(٢) العرب يقولون شنت ياقوب أو شنت ياقب والأسبان يقولون «سانتياغو دو كومبستله» Santiago De Compostela وهي أقدس كنيسة عند الاسبانيول وفيها قبر يعقوب أحد الحواريين.

(٣) Sierra وقد صارت الشارات تفيد معنى سلسلة جبال.

(٤) جاقة من بلاد سرقسطة بلدة فيها اليوم ٥٠٠٠ نسمة من السكان وهي مركز ناحية «سوبراربي» ولها سور يرجع تاريخ بنائه إلى القرن العاشر وقد أنشىء خط حديدي بين جاقة Jaca واولورون Oloron يختصر بنحو مائة كيلو متر المسافة بين باريز ومجريط.

ومدينة طليطلة كانت في أيام الروم مدينة الملك ومداراً لولاتها، وبها وجدت مائدة سليمان بن داود، مع جملة ذخائر يطول ذكرها. وما خلف الجبل المسمى بالشارات في جهة الجنوب يسمى إشبانية، وما خلف الجبل في جهة الشمال يسمى قشتالة. ومدينة طليطلة في وقتنا هذا يسكنها سلطان الروم القشتاليين.

والأندلس المسماة إشبانية أقاليم عدة، ورساتيق جملة، وفي كل إقليم منها عدة مدن نريد أن نأتي بذكرها مدينة مدينة بحول الله تعالى. ولنبدأ الآن منها بإقليم البحيرة [١] وهو إقليم مبدأه من البحر المظلم، ويمرّ مع البحر الشاميّ، وفيه من البلاد جزيرة طريف، والجزيرة الخضراء، وجزيرة قادس، وحصن «اركش»[٢]، و «بكة»[٣] و «شريش»[٤]، و «طشّانة»[٥]، و «مدينة ابن السليم»[٦]، وحصون كثيرة كالمدن عامرة، سنأتي بها في موضوعها.

ويتلوه إقليم «شذونة»[٧]، وهو من إقليم البحيرة شمالاً، وفيه من المدن مدينة «إشبيلية»[٨]، ومدينة «قرمونة»[٩]، و «غلسانة»[١٠] وحصون كثيرة. ويتلوه إقليم الشرف، وهو ما بين إشبيلية و «لبلة»[١١] والبحر المظلم، وفيه من المعاقل «حصن القصر»[١٢] ومدينة لبلة و «ولبة»[١٣] وجزيرة «شلطيش»[١٤] وجبل العيون. ثم يليه إقليم «الكنبانية»[١٥] وفيه من المدن قرطبة و «الزهراء»[١٦] و «استجة»[١٧] و «بيانة»[١٨] و «وقبرة»[١٩] و «اليسانة»[٢٠] وبه جملة حصون كبار سنذكرها بعد هذا. ويلي إقليم الكنبانية إقليم «اشونة»[٢١] وفيه حصون عامرة كالمدن، منها لورقة واشونة وهو إقليم صغير. ويليه مع الجنوب إقليم «رية»[٢٢]

(١) Le Lago de la janda. (٢) Arcos. (٣) Becca. (٤) Jeres.

(٥) Tocina.

(٦) Grazalema وأظن اسمها محرفاً عن «قرية سالم» وهي الآن قرية كبيرة في برية تبعد عن رندة ٢٥ كيلو متراً إلى الجنوب وقد زرتها بالسيارة لما كنت في رندة.

(٧) Sidonia. (٨) Sevilla.

(٩) Carmona بلدة ذات موقع نادر في الدنيا مبنية على جبل مشرف على بسائط لا ينتهي البصر إلى مداها وقد زرتها بالسيارة من أشبيلية.

(١٠) غلسانة هي اليوم عند الاسانيول Médina Sidonia. (١١) Nienla.

(١٢) Hisnalcasar. (١٣) Hulba. (١٤) Saltes. (١٥) La campina.

(١٦) Medina Az- zahra. (١٧) Ecija. (١٨) Baena. (١٩) Cabra.

(٢٠) Lucina. (٢١) Usona.

(٢٢) Rio وليعلم القارىء أننا التزمنا ترجمة الأعلام العربية بما يقابلها من الأسماء الاسبانيولية وترجمة الأعلام الاسبانية بما كان يقوله لها العرب وتحرينا في ذلك جهد الطاقة ولم نبق في قوس البحث منزع ظفر حتى حققنا كل هذه الأسماء إلا ما ندر فإن معرفتها بلساني العرب والافرنج شرط في فهم =

وفيه من المدن مدينة مالقة و «ارشذونة» [١] و «مربلّة» [٢] و «بُبَشطر» [٣] و «ليسكنصاد» [٤] وغير هذه من الحصون. ويتلو هذا الإقليم «البشارات» [٥] وفيه من المدن «جيّان» [٦] وجملة حصون وقرى كثيرة تشفّ على ستمائة قرية، يتخذ بها الحرير. ثم إقليم «بجانة» [٧] وفيه من المدن «المرية» [٨] و «برجة» [٩] وحصون كثيرة منها «مرشانة» [١٠] و «برشانة» [١١] و «طرجالة» [١٢] و «بالش» [١٣] ويتلوه في جهة الجنوب إقليم «البيرة» [١٤] وفيه من المدن «اغرناطة» [١٥] و «وادي آش» [١٦] و «المنكّب» [١٧] وحصون وقرى كثيرة. ومنها إقليم «فرّيرة» [١٨] وهو يتصل بإقليم البشارات، وفيه مدينة «بسطة» [١٩] وحصن «تشكر» [٢٠] الموصوف بالمنعة وفيه حصون كثيرة وسنأتي بها بعد. ثم كورة «تدمير» [٢١] وفيها من المدن «مرسيه» [٢٢] و «اوريوله» [٢٣] و «قرطاجنة» [٢٤] و «لورقه» [٢٥] و «مولة» [٢٦] و «جنجالة» [٢٧] ويتصل بكورة «كونكة» [٢٨] وفيها «الش» [٢٩] و «القنت» [٣٠] و «شقورة» [٣١] ويليه إقليم «ارغيرة» وفيه من البلاد «شاطبة» [٣٢] و «شقر» [٣٣] و «دانية» [٣٤] وفيه حصون كثيرة. ويليه إقليم مرباطر وفيه من البلاد «بلنسية» [٣٥] و «مرباطر» [٣٦] و «بُريانة» [٣٧] وحصون كثيرة.

= جغرافية الأندلس وتاريخها وبدون ذلك لا تتحصل للقارىء صورة تامة عنها في ذهنه ولم نكتف بترجمة الأعلام من العربي إلى الاسبانيولي ومن الاسبانيولي إلى العربي مرة واحدة بل ربما كتبنا اسم المكان الواحد باللغتين مرتين وثلاثاً لا نمل من ذلك حتى يرسخ في ذهن القارىء بالتكرار وإلا فإنه لا يحفظ هذه الأعلام المتبادلة من قرأها مرة واحدة.

(١) Archidona وقد يكتبها العرب بالجيم.
(٢) Marbella.
(٣) Bobachtero.
(٤) هذه اللفظة لم ندر حقيقتها.
(٥) Sierra.
(٦) Jaen واصل اسمها في زمن الرومان Usiense وكان القشتاليون يقولون لها Gien.
(٧) Béchina.
(٨) Almeria.
(٩) Berja.
(١٠) Merchana هي من مقاطعة بجانة وقد درست ولا تزال منها بقايا في دسكرة يقال لها «ترك» Terque.
(١١) برشانة Purchina هي أيضاً من مقاطعة بجانة.
(١٢) Targela.
(١٣) Velez.
(١٤) Vera.
(١٥) Grenade.
(١٦) Guadix.
(١٧) Almonacar.
(١٨) Ferreira.
(١٩) Baza.
(٢٠) Tixar.
(٢١) Todmir.
(٢٢) Murcie.
(٢٣) Orihuela.
(٢٤) Gartagéne.
(٢٥) Lorca.
(٢٦) Mola.
(٢٧) Chinchilla.
(٢٨) Cuenca.
(٢٩) Elche.
(٣٠) Alicante.
(٣١) Segura.
(٣٢) Chativa أو Jatiba.
(٣٣) Se gur.
(٣٤) Denia.
(٣٥) Valence.
(٣٦) Murviedro.
(٣٧) Brienne.

ويليه مع الجوف إقليم «القواطم»[١] وفيه من البلاد «الفُنت»[٢] و «شنت[٣] ماريه» المنسوبة لابن رزين ويتصل به إقليم «الولجة»[٤] وفيه من البلاد «سرتة»[٥] و «قلعة رباح»[٦] و «فتة»[٧] ويلي هذا الإقليم إقليم «البلالطة»[٨]. وفيه حصون كثيرة منها ومن أكبرها «بطروش»[٩] و «غافق»[١٠] وحصن ابن هارون وغيرها دونها في الكبر. ويلي هذا الإقليم غرباً إقليم «الفِقر» وفيه من البلاد «شنت[١١] ماريه» و «مارتلة»[١٢] و «شلب»[١٣] وحصون كثيرة وقرى. ويلي هذا الإقليم إقليم «القصر»[١٤]وفيه القصر المنسوب لـ «أبي دانس» وفيه «يابرة»[١٥] و «بطليوس»[١٦] و «شريشة»[١٧] و «ماردة»[١٨] و «قنطرة[١٩]السيف» و «قورية»[٢٠] ويليه إقليم البلاط وفيه مدينة «البلاط»[٢١]ومدلين[٢٢]. ويلي هذا الإقليم بلاطة [٢٣] وفيه «شنترين» و «لشبونة» و «شنترة» ويليه إقليم الشارات وفيه «طلبيرة»[٢٤] و «طليطلة»[٢٥] و «ومجريط»[٢٦]و «الفهمين»[٢٧]و «وادي الحجارة»[٢٨]«اقليش»[٢٩]و «وبذة»[٣٠]ويليه أيضاً إقليم «أرنيط»[٣١]وفيه من البلاد «قلعة أيوب»[٣٢]وقلعة «دروقة»[٣٣]ومدينة «سرقسطة»[٣٤]

---

(١) دوزي يظن أن الاسم محرف بالنسخ وأن أصله «القواسم» ونحن نرجح أنه محرف عن «القواطن» وسيأتي الكلام على ذلك.

(٢) Puente.

(٣) Albarracine.

(٤) لم ندر أهو عربي أو معرب؟ وهي Walaja.

(٥) Zarruta.

(٦) Calatrava.

(٧) Puenta.

(٨) البلالطة أي البلوطيين نسبة إلى فحص البلوط.

(٩) Pedroche.

(١٠) Gafic.

(١١) Santa Maria.

(١٢) Martela.

(١٣) Silves.

(١٤) Cacer.

(١٥) Evora.

(١٦) Badjoz.

(١٧) Xerex de Estramador وهي عند العرب شريشة إلا أنها غير شريش التي منها أبو العباس الشريشي شارح المقامات الحريرية.

(١٨) Merida.

(١٩) Alcantara.

(٢٠) Coria.

(٢١) Albalat.

(٢٢) Medellin.

(٢٣) كورة البلاطة في أيام العرب كانت تشتمل على شترين Santarem واشبونة Lisbonne أو Lisboa وشنترة Cintra ويقال لها في هذه الأيام «استرمادوره» البرتغالية.

(٢٤) Talavera.

(٢٥) Toledo.

(٢٦) Madrid.

(٢٧) بلدة من أعمال طليطلة اسمها عربي منسوبة إلى بني فهم على ما ورد في معجم البلدان لياقوت وقد ذكرنا ما قال في موضع آخر.

(٢٨) Guadalajara وقد يقول لها العرب مدينة الفرج محركة.

(٢٩) Aclés.

(٣٠) Huete.

(٣١) أظن أن أرنيط هي التي يقال لها Arenedo.

(٣٢) Calatayud.

(٣٣) Daroca.

(٣٤) Saragosse.

و «وشقة»[1] و «تطيلة»[2] ثم يليه إقليم الزيتون وفيه «جاقة»[3] و «لاردة»[4] و «مكناسة»[5] و «افراغه»[6] ويليه إقليم «البرتات»[7] وفيه «طرطوشة»[8] و «طركونة»[9] و «برشلونة»[10] ويلي هذا الإقليم غرباً إقليم «مرمرية»[11] وفيه حصون خالية، ومما يلي البحر حصن «طشكره»[12] و «كشتالى»[13] و «كتندة»[14] فهذه كلها أقاليم إشبانية المسمى جملتها بالأندلس. فأما جزيرة «طريف»[15] فهي على البحر الشامي، في أول المجاز المسمى، بالزقاق، ويتصل غربيها ببحر الظلمة. وهي مدينة صغيرة، عليها سور تراب، ويشقها نهر صغير، وبها أسواق وفنادق وحمامات، وأمامها جزيرتان صغيرتان تسمى إحداهما «القنتير»[16] وهما على مقربة من البر. ومن جزيرة طريف إلى الجزيرة الخضراء ثمانية عشر ميلاً، تخرج من الجزيرة إلى «وادي[17] النساء» وهو نهر جار، ومنه إلى الجزيرة[18] الخضراء وهي مدينة متحضرة لها سور حجارة مفرَّغ بالجيَّار، ولها ثلاثة أبواب ودار صناعة داخل المدينة، ويشقها نهر يسمى نهر العسل، وهو حلو عذب، ومنه شرب أهل المدينة، ولهم على هذا النهر بساتين وجنَّات بكلتي ضفتيه معاً. وبالجزيرة الخضراء إنشاء وإقلاع وحط، وبينها وبين مدينة سبتة مجاز البحر، وعرضه هنالك ثمانية عشر ميلاً. وأمام المدينة جزيرة تعرف بجزيرة «أم حكيم» وبها أمر عجيب، وهو أن فيها بئراً عميقة كثيرة الماء حلوة، والجزيرة في ذاتها صغيرة مستوية السطح، يكاد البحر يركبها[19] والجزيرة الخضراء أول مدينة افتتحت من الأندلس في صدر الإسلام، وذلك في

(١) Huesca. (٢) Tudela. (٣) Jaca. (٤) Lerida.
(٥) Méquinensa. (٦) Fraguas. (٧) جبال البرتات هي جبال البرانس أو جبال البيرانه.
(٨) Tortosa. (٩) Tarracona. (١٠) Barcelone. (١١) Marmaria.
(١٢) Tixar. (١٣) Castello. (١٤) Cutenda. (١٥) Tariffa.
(١٦) لم نعرف اسمها بالاسباني.
(١٧) الاسبانيول يقولون Guadannasi وذلك أنهم حكوا في لفظها العرب وهؤلاء في الأندلس كانوا يميلون الألف كثيراً.
(١٨) الاسبانيول بحسب عادتهم من قلب الجيم خاء والسين والزاي ثاء يقولون «الخثيرة» وقد ذكرت في إحدى مقالاتي عن رحلتي إلى الأندلس أن للقوم رغبة شديدة في حرف «الخاء» ثم طالعت بعد ذلك كتاب «السفر إلى المؤتمر» لصديقي العلامة أحمد زكي باشا المصري رحمه الله وفيه فصل عن رحلته إلى الأندلس سنة ١٨٩٣ فوجدته يقول في صفحة ٣٨٧ ما يلي: «لاحظت دوران حرف الخاء في غالب كلماتهم التي يكون فيها شين أو جيم أو سين بحيث لو سمعهم رجل من أهل المزاح لأستمنح السماح وقال إن لغة القوم تدور على حرف الخاء» قال: «وقد سمعتهم يقولون «الخثيرا» فسألت فاعلموني بأنها الجزيرة الخضراء» فقد توارد الخاطر مع الخاطر.
(١٩) قد يوجد الماء الحلو أحياناً في وسط البحر إذا انقشعت عنه موجة الماء الملح شرب منه ركاب السفن.

سنة ٩٠ من الهجرة، وافتتحها موسى بن نصير من قبل المروانيين، ومعه طارق بن عبدالله ابن ونموا الزناتي، ومعه قبائل البربر. فكانت هذه الجزيرة أول مدينة افتتحت في ذلك الوقت، وبها على باب البحر مسجد يسمى بمسجد الرايات، ويقال إن هناك اجتمعت رايات القوم للرأي، وكان وصولهم إليها من جبل طارق وإنما سمي جبل طارق لأن طارق[١] بن عبدالله بن ونموا الزناتي لما جاز بمن معه من البرابر وتحصنوا بهذا الجبل، أحس في نفسه أن العرب لا تثق به، فأراد أن يزيح ذلك عنه، فأمر بإحراق المراكب التي جاز فيها، فتبرأ بذلك عما اتهم به.

وبين هذا الجبل والجزيرة الخضراء ستة أميال، وهو جبل منقطع عن الجبال مستدير، في أسفله من جهة البحر كهوف، وفيها مياه قاطرة جارية، وبمقربة منه مرسى يعرف بمرسى الشجرة. ومن الجزيرة الخضراء إلى مدينة إشبيلية خمسة أيام. وكذلك من الجزيرة الخضراء إلى مدينة مالقة خمس مراحل خفاف، وهي مائة ميل ومن الجزيرة الخضراء إلى مدينة إشبيلية طريقان طريق في الماء، وطريق في البر، فأما طريق الماء فمن الجزيرة الخضراء إلى الرمال في البحر، إلى موقع نهر «برباط»[٢] ٢٨ ميلاً، ثم إلى موقع نهر «بكة»[٣] ستة أميال، ثم إلى الحلق المسمى «شنت[٤] بيطر» ١٢ ميلاً، ثم إلى «القناطر»[٥] وهي تقابل جزيرة قادس ١٢ ميلاً، وبينهما مجاز سعته ستة أميال. ومن القناطر تصعد في النهر إلى رابطة «روطة»[٦] ٨ أميال، ثم إلى «المساجد»[٧] ٦ أميال ثم إلى مرسى «طبرشانة»[٨] إلى «العطوف»[٩] إلى «قبطور»[١٠] إلى «قبطال»[١١]. وقبطور وقبطال قريتان في وسط النهر، ثم إلى جزيرة ينشتالة[١٢] ثم إلى الحصن الزهر [١٣] إلى

---

(١) لا نعلم لماذا ينسب الشريف الإدريسي طارق المنسوب إليه جبل الفتح بخلاف ما هو شائع، فإنه يجعله طارق بن عبدالله بن ونموا الزناتي والمشهور أن اسم أبيه زياد وأن عبدالله هو جده جاء في «البيان المغرب في أخبار المغرب» لابن عذاري المراكشي الجزء الأول المطبوع في «ليدن» بتصحيح المستشرق الشهير الهولاندي دوزي Dozy وذلك سنة ١٨٤٨ أن طارق هو ابن زياد بن عبدالله بن ولفو ابن ودفحوم بن نبرغاسن بن ولهاص بن يطومت بن نفزاوة. وأجمع مؤرخو العرب على أنه ابن زياد.

(٢) يقول دوزي في ترجمة كلام الإدريسي أن نهر برباط يمر بقرب الموضع المسمى اليوم Alola de los Gazules.

(٣) Becca وهي بقرب طرف الأغر.

(٤) Sancti petri.

(٥) هي الجزائر التي يقال لها عند الاسبانيول Iles des lions.

(٦) بلدة محصنة على جون قادس والاسبانيول يكتبونها هكذا: Rota.

(٧) يقول الاسبان للمساجد San Locar ويقال إن أصلها Solucar وإنها محرفة عن Solis Lucos.

(٨) Tebugena.

(٩) لم نعلمه.

(١٠) Captor.

(١١) Cabtal.

(١٢) Jenechtelà.

(١٣) لم نعرف هل يسميه الاسبان باسمه العربي أم له عندهم اسم آخر؟

مدينة إشبيلية فذلك من اشبيلية إلى البحر ٦٠ ميلاً. وأما طريق البر فالطريق من الجزيرة إلى «الرتبة» ثم إلى نهر «برباط»[١] إلى قرية «قيسانة»[٢] وبها المنزل وهي قرية كبيرة، ذات سوق عامرة، وخلق كثير. ومنها إلى مدينة «ابن السليم»[٣] إلى جبل «مُنت»[٤] ثم إلى قرية «عسلوكة»[٥]، وبها المنزل. ثم منها إلى «المدائن»[٦] إلى «زيرد[٧] الحبالة» وبها المنزل، ثم إلى إشبيلية مرحلة.

ومدينة إشبيلية مدينة كبيرة عامرة ذات أسوار حصينة، وأسواق كثيرة، وبيع وشراء، وأهلها مياسير، وجل تجارتها بالزيت، يتجهز به منها إلى أقصى المشارق والمغارب، براً وبحراً، وهذا الزيت عندهم يجثم من «الشرف[٨]» وهذا الشرف هو مسافة أربعين ميلاً، وهذه الأربعون ميلاً كلها تمشي في ظل شجر الزيتون والتين. أوله بمدينة إشبيلية وآخره بمدينة «لبلة»[٩] وكله شجر الزيتون وسعته ١٢ ميلاً وأكثر، وفيه فيما يذكر ثمانية الآف قرية عامرة آهلة بالحمامات والديار الحسنة. وبين الشرف واشبيلية ثلاثة أميال. والشرف سمي بذلك لأنه مشرف من ناحية أشبيلية ممتد من الجنوب إلى الشمال. وهو تل تراب أحمر، وشجر الزيتون مغروسة به من هذا المكان إلى قنطرة لبلة. واشبيلية على النهر الكبير، وهو نهر قرطبة.

ومدينة لبلة مدينة حسنة أزلية، وهي متوسطة القدر، ولها سور منيع. وبشرقيها نهر يأتيها من ناحية الجبل، ويجاز عليه في قنطرة إلى مدينة لبلة. وبها أسواق وتجارات ومنافع جمة. وشرب أهلها من عيون في مرج من ناحية غربيها. وبين مدينة لبلة والبحر المحيط ستة أميال.

وهناك على ذراع من البحر تطل مدينة «ولبة»[١٠]وهي مدينة صغيرة متحضرة، عليها سور من حجارة، وبها أسواق وصناعات، وهي مطلة على جزيرة «شلطيش»[١١]وجزيرة شلطيش يحيط بها البحر من كل ناحية، ولها من ناحية الغرب اتصال بأحد طرفيها إلى

---

(١) مر ذكره.

(٢) Faisana .

(٣) هذه التي يقال لها عند الاسبان «غرازاليما» Grasalema.

(٤) Mont.

(٥) لم نعرف هذه القرية ولا عرفنا هل هذا هو اسمها الحقيقي أم هو محرف؟

(٦) ما اطلعنا على هذه المدائن.

(٧) ولا على حقيقة هذا الاسم الآخر.

(٨) لا يزال يقال له الشرف إلى اليوم.

(٩) Niebla وكان اسمها عند الرومان «ايليبوله» فتلفظ العرب بها أقرب إلى الاسم الروماني القديم.

(١٠) Hueloa واسمها الروماني القديم «أونبة» Onba وهكذا كان يقول لها العرب وربما قالوا «ولبة».

(١١) Saltés.

مقربة من البر، وذلك يكون مقدار نصف رمية حجر. ومن هناك يجوزون لاستقاء الماء لشربهم، وهي جزيرة طولها نحو من ميل وزائد، والمدينة منها في جهة الجنوب، وهناك ذراع من البحر يتصل به موقع نهر لبلة، ويتسع حتى يكون أزيد من ميل، ثم لا يزال الصعود فيه في المراكب إلى أن يضيق ذلك الذراع حتى يكون سعة النهر وحده مقدار نصف رمية حجر، ويخرج النهر من أسفل جبل عليه مدينة ولبة، ومن هناك تتصل الطريق إلى مدينة لبلة، ومدينة شلطيش ليس لها سور ولا حظيرة، وإنما هي بنيان يتصل بعضه ببعض، ولها سوق وبها صناعة الحديد الذي يعجز عنه صنعه أهل البلاد لجفائه، وهي صنعة المراسي التي ترسي بها السفن والمراكب الحمالة الجافية، وقد تغلب عليها المجوس[١] مرات، وأهلها إذا سمعوا بخطور[٢] المجوس فروا عنها واخلوها. ومن مدينة شلطيش إلى جزيرة قادس ١٠٠ ميل، ومن جزيرة قادس المتقدم ذكرها إلى جزيرة طريف ٦٣ ميلاً. ومن جزيرة شلطيش مع البحر ماراً في جهة الشمال إلى حصن «قسطّلة»[٣] على البحر ١٨ ميلاً وبينهما موقع نهر يانة، وهو نهر ماردة وبطليوس، وعليه حصن «مارتلة»[٤] المشهور بالمنعة والحصانة. وحصن قسطلة على نحر البحر، وهو عامر آهل، وله بساتين وغلات شجر التين كثيرة، ومنه إلى قرية «طبيرة»[٥] على مقربة من البحر ١٤ ميلاً، ومن القرية إلى مدينة «شنت ماريه»[٦] الغرب ١٢ ميلاً.

ومدينة شنت ماريه على معظم البحر الأعظم، وسورها يصعد ماء البحر فيه إذا كان المد، وهي مدينة متوسطة القدر، حسنة الترتيب، لها مسجد جامع ومنبر وجماعة وبها المراكب واردة وصادرة، وهي كثيرة الأعناب والتين.

ومن مدينة شنت ماريه إلى مدينة شلب ٢٨ ميلاً، ومدينة شلب حسنة، في بسيط من الأرض، وعليها سور حصين، ولها غلات وجنات، وشرب أهلها من واديها الجاري بجنوبها، وعليه ارجاء البلد، والبحر منها غرباً على ثلاثة أميال، ولها مرسى في الوادي، وبها الإنشاء، والعود بجبالها كثير، يُحمل منها إلى كل الجهات. والمدينة في ذاتها حسنة الهيئة، بديعة المباني. مرتبة الأسواق، وأهلها وسكان قراها عرب من اليمن وغيرها، وهم

(١) يريد بالمجوس النورمانديين الذين كانوا يطرقون سواحل فرنسة وأسبانية وغيرهما وكانوا في الماضي مجوساً ثم بعد طول ترددهم إلى البلدان الجنوبية استقروا في غربي فرنسة وتركوا العبث ولصوصية البحر ودخلوا في النصرانية.

(٢) استعمل الإدريسي «الخطور» بالمعنى الذي تستعمله فيه العامة وهو الحضور أو السفر وأما في الفصيح فهو مصدر خطر الشيء بالبال.

(٣) Castella أو Casella. (٤) Martola. (٥) Tavira.

(٦) Santa Maria ويقال لها Santa Maria de Algaroe ويقال لها أيضاً «فارو» وهي من البرتغال.

يتكلمون بالكلام العربي الصريح، ويقولون الشعر وهم فصحاء نبلاء، خاصتهم وعامتهم. وأهل بوادي هذا البلد في غاية من الكرم، لا يجاريهم فيه أحد. ومدينة شلب على إقليم الشنشين[(١)]، وهو إقليم به غلات التين الذي يحمل إلى أقطار الغرب كلها، وهو تين طيب علك لذيذ شهي. ومن مدينة شلب إلى بطليوس ثلاث مراحل. وكذلك من شلب إلى حصن «مارتلة» ثلاثة أيام. ومن مارتلة إلى حصن ولبة مرحلتان خفيفتان. ومن مدينة شلب إلى حلق «الزاوية»[(٢)] ٢٠ ميلاً وهو مرسى وقرية ومنه إلى قرية «شقرش»[(٣)] ٢٢ على مقربة من البحر ١٨ ميلاً ومنه إلى طرف الغرب، وهو طرف خارج في البحر الأعظم ١٢ ميلاً، ومنه إلى «كنيسة الغراب»[(٤)] ٧ أميال.

وهذه الكنيسه من عهد الروم إلى اليوم لم تتغير عن حالها، ولها أموال يتصدق بها عليهـا وكـرامات يحملها الروم الواردون عليها، وهي في طرف خارج في البحر وعلى رأس الكنيسة عشرة أغربة لا يعرف أحد فقدها وعهد زوالها، وقسيسو الكنيسة يخبرون عن تلك الأغربة بغرائب يتهم المخبر بها ولا سبيل لأحد من المجتازين بها أن يخرج منها حتى يأكل من ضيافة الكنيسة، ضريبة لازمة وسيرة دائمة، لا ينتقلون عنها ولا يتحولون منها، وورثها الخلف عن السلف، أمر معتاد متعارف دائم، والكنيسة في ذاتها كنيسة عامرة بالقسيسين والرهبان، وبها أموال مدخرة، وأحوال واسعة وأكثر هذه الأموال محبسة عليها في أقطار الغرب وبلاده وينفق منها على الكنيسة وخدامها وجميع من يلوذ بها، مما يكرم به الأضياف الواردون على الكنيسة المذكورة، قلوا أو كثروا.

ومن كنيسة الغراب إلى القصر مرحلتان. وكذلك من شلب إلى القصر أربع مراحل. و «القصر»[(٥)] مدينة حسنة متوسطة على ضفة النهر المسمى «شطوبر»[(٦)] وهو نهر كبير تصعد فيه السفن والمراكب السفرية كثيراً. وفي ما استدار بها من الأرض كلها أشجار الصنوبر، ولها الإنشاء الكثير، وهي في ذاتها رطبة العيش خصيبة كثيرة الألبان والسمن والعسل واللحوم. وبين القصر والبحر ٢٠ ميلاً. ومن القصر إلى «يبورة»[(٧)] مرحلتان.

---

(١) Chinchin.

(٢) يقول دوزي إن حلق الزاوية مقاطعة هناك.

(٣) Sagres.

(٤) تقدم ذكرها.

(٥) وهي الآن بلدة صغيرة ليس فيها أكثر من ٢٥٠٠ نسمة وفيها آثار قديمة ويقول لها الاسبانيول Alcacer do jal.

(٦) Chetvubar وهذا الاسم هو اسم بلدة اليوم على هذا النهر.

(٧) ويقال لها أيضاً «يابره» بضم الباء وبالاسبانيولي Evora وهي الآن بلدة ليس فيها أكثر من ١٦ ألف نسمة وكانت هذه البلدة شهيرة في زمان الرومانيين واستولى عليها العرب سنة ٧١٥ مسيحية ثم استردها الاسبان سنة ١١٦٦ وكان يجلس فيها ملوك البرتغال أحياناً وإذا دخل إليها الإنسان إلى هذه الساعة يظنها مدينة عربية لكثرة مباني العرب فيها وغلبة طرز الإنشاء العربي على مبانيها.

ومدينة يبورة كبيرة عامرة بالناس، ولها سور وقصبة ومسجد جامع، وبها الخصب الكثير الذي لا يوجد بغيرها من كثرة الحنطة واللحم وسائر البقول والفواكه، وهي أحسن البلاد بقعة، وأكثرها فائدة، والتجارات إليها داخلة وخارجة، ومن مدينة يبورة إلى مدينة بطليوس مرحلتان في شرق. ومدينة بطليوس مدينة جليلة في بسيط الأرض، وعليها سور منيع، وكان لها ربض كبير، أكبر من المدينة في شرقيها فخلا بالفتن. وهي على ضفة نهر «يانة»[1] وهو نهر كبير ويسمى النهر الغؤر، لأنه يكون في موضع يحمل السفن، ثم يغور تحت الأرض حتى لا يوجد منه قطرة فسمي الغؤر لذلك، وينتهي جريه إلى حصن مارتلة، ويصب في قريب من جزيرة شلطيش. ومن مدينة بطليوس إلى مدينة إشبيلية ٦ أيام على طريق حجر بن أبي خالد، إلى جبل العيون[2]، إلى اشبيلية. ومن مدينة بطليوس إلى مدينة قرطبة على الجادة ٦ مراحل. ومن بطليوس إلى مدينة ماردة على نهر يانة شرقاً ٣٠ ميلاً، وبينهما حصن على يمين المارّ إلى ماردة.

ومدينة ماردة كانت دار مملكة لـ «ماردة»[3] بنت هرسوس الملك، وبها من البناء آثار ظاهرة، تنطق عن ملك وقدرة، وتعرب عن نخوة وعزّة، وتفصح عن غبطة. فمن هذه البناآت ان في غربي المدينة قنطرة كبيرة ذات قسيّ، عالية الذورة، كثيرة العدد، عريضة المجاز. وقد بني على ظهر القسيّ أقباء تتصل من داخل المدينة إلى آخر القنطرة، ولا يُرى الماشي بها. وفي داخل هذا «الداموس»[4] قناة ماء تصل المدينة. ومشي الناس والدواب على تلك الدواميس. وهي متقنة البناء، وثيقة التأليف، حسنة الصنعة. والمدينة عليها سور حجارة منجورة من أحسن صنعة وأوثق بناء. ولها في قصبتها قصور خربة. وفيها دار يقال لها دار الطبيخ، وذلك أنها في ظهر مجلس القصر، وكان الماء يأتي دار الطبيخ في ساقية، هي الآن بها باقية الأثر، لا ماء بها، فتوضع صحاف الذهب والفضة بأنواع الطعام في تلك الساقية على الماء حتى تخرج بين يدي الملكة، فترفع على الموائد. ثم إذا فرع من أكل ما فيها وضعت في الساقية، فتستدير إلى أن تصل إلى يد الطباخ بدار الطبخ، فيرفعها بعد غسلها. ثم تمر بقية ذلك الماء في سروب القصر ومن أغرب الغريب جلب الماء الذي كان

---

(١) Guadiana.

(٢) Jibralion.

(٣) المعروف أن مدينة ماردة بنيت سنة ٢٣ قبل المسيح بناها بوبليوس كاريزيوس ونمت نمواً عظيماً حتى صار يقال لها رومة الاسبانية وفي زمان القوط صارت قاعدة ولاية لوزيطانية وقيل إنه كان لها ٨٤ باباً وخمسة حصون و ٣٧٠٠ برج واستولى عليها العرب بقيادة موسى بن نصير سنة ٧١٣ مسيحية واستردها الاسبانيول سنة ١٢٢٨ مسيحية ومنذ استردها الاسبانيول سقطت أهميتها وسنذكرها في الكلام على قواعد الأندلس.

(٤) الداموس هو القترة أو ما يستتر الإنسان به.

يأتي إلى القصر على عمد مبنية تسمّى «الأرجالات»[1]، وهي أعداد كثيرة باقية إلى الآن قائمة على قوام، لم تخل بها الأزمان ولا غيرتها الدهور، ومنها قصار ومنها طوال، بحسب الأماكن التي وجب فيها البناء، وأطولها يكون غلوة سهم، وهي على خط مستقيم. وكان الماء يأتي عليها في قنىّ مصنوعة، خربت وفنيت، وبقيت تلك الأرجالات قائمة يخيّل إلى الناظر إليها أنها من حجر واحد، لحكمة إتقانها، وتجويد صنعتها. وفي وسط هذه المدينة احناء قوس، يدخل عليه الفارس بيده علم قائم، عدة أحجاره ١١ حجراً فقط، في كل عضادة منها ثلاثة أحجار، وفي القوس أربعة أحجار حنيّات، وواحد قُفْل، فكانت الجملة ١١ حجراً. وفي الجنوب من سور هذه المدينة قصر آخر صغير، وفي برج منه كان مكان مرآة، كانت الملكة ماردة تنظر إلى وجهها فيها. ومحيط دوره ٢٠ شبراً، وكان يدور على حرفه، وكان دورانه قائماً. ومكانه إلى الآن باق. ويقال إنما صنعته ماردة لتحاكي به مرآة ذي القرنين التي صنَعَها في منار الإسكندرية.

ومن مدينة ماردة إلى قنطرة السيف يومان. وقنطرة السيف[2] من عجائب الأرض. وهو حصن منيع على نفس القنطرة. وأهلها متحصنون فيه، ولا يقدر لهم أحد على شيء. والقنطرة لا يأخذها القتال إلاّ من بابها فقط. ومن مدينة قنطرة السيف إلى مدينة «قورية»[3] مرحلتان خفيفتان، وقورية الآن مدينة في ملك الروم، ولها سور منيع، وهي في ذاتها أزليّة البناء واسعة الفناء من أحصن المعاقل، وأحسن المنازل. ولها بوادٍ شريفة خصيبة، وضياع طيِّبة عجيبة، وأصناف من الفواكه كثيرة، وأكثرها الكروم وشجر التين.

---

(١) هذه اللفظة لم تمر بنا أصلاً مع اتساع اللغة والذي يظهر لنا أن عامة الأندلس استعملوها بمعنى «الأرجل» جمع «رجل» بكسر فسكون وقد يأتي جمعه أيضاً على «أرجال» فتكون الأرجالات جمع الجمع وذلك كما جمعوا «الرجل» بفتح فضم على رجال ثم جمعوا رجالاً على رجالات. ومعنى تسمية هذه الأعمدة التي يجري فوقها الماء «أرجالات» هو أن قنى الماء قائمة عليها وهي لهذه الأقنية أشبه بالأرجل.

(٢) هذه البلدة هي الآن صغيرة وموقعها على الضفة الجنوبية من نهر تاجه وشهرتها بالجسر الذي فيها وكان العرب لذلك يسمونها القنطرة والاسبان يقولون لها الآن Alcantara وكان ينسب إليها نظام فرسان القنطرة وكان هذا النظام تأسس سنة ١٢٧٦ مسيحية في قلعة سان يوليان دوبيرال لأجل حماية ثغور المسيحيين في وجه العرب فلما بدأ العرب يتراجعون بسبب فتنهم وتفرق كلمتهم تقدم هذا النظام إلى القنطرة وجعل مركزه فيها وصار رئيس فرسان القنطرة يجب أن يكون من بيت الملك وأما الجسر فهو روماني واقع إلى الشمال الغربي من البلد كان بناؤه سنة ١٠٥ بعد المسيح وهو من الحجر المحبب طوله ١٨٨ متراً وعرضه ٨ أمتار وهو على ستة أقواس اثنان منها في الوسط فوهة كل منها ١٥ متراً وعلوه ٥٨ متراً وله برج علوه ١٣ متراً. وفي بلدة القنطرة كنيسة اسمها سانتا مارية المكبر Almocober بنيت في القرن الثالث عشر في محل جامع.

(٣) Coria قال ياقوت في معجمه هي من عمل ماردة وهي النصف بينها وبين زمّوره مدينة الأفرنج.

ومن قورية إلى «قلمرية»[1] ٤ أيام. ومدينة قلمرية مدينة على جبل مستدير، وعليهما سور حصين، ولها ٣ أبواب، وهي في نهاية من الحصانة، وهي على نهر «منديق»[2] وجريه على غربيها، ويتصل جري هذا النهر إلى البحر، وعلى مصبه هناك حصن «منت ميور»[3] ولها على النهر أرحاء. وعليه كروم كثيرة وجنات ولها حروث كثيرة متصلة بالغربي منها إلى ناحية البحر، ولها أغنام ومواش، وأهلها أهل شوكة في الروم، ومن القصر المتقدم ذكره إلى مدينة «لشبونة»[4] مرحلتان، ومدينة لشبونة على شمالي النهر المسمى تاجة وهو نهر طليطلة، وسعته أمامها ستة أميال ويدخله المد والجزر كثيراً، وهي مدينة حسنة ممتدة مع النهر، ولها سور، وقصبة منيعة، وفي وسط المدينة حمامات حارة في الشتاء والصيف، ولشبونة على نحر البحر المظلم وعلى ضفة النهر من جنوبه، قبالة مدينة لشبونة، حصن المعدن، وسمي بذلك لأنه عند هيجان البحر يقذف هناك بالذهب والتبر، فإذا كان زمن الشتاء قصد إلى هذا الحصن أهل تلك البلاد فيخدمون المعدن الذي به إلى انقضاء الشتاء، وهو من عجائب الأرض، وقد رأيناه عياناً. ومن مدينة لشبونة كان خروج المغرّرين[5] في ركوب بحر الظلمات، ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه، كما تقدم

(١) Coimbre يقول لها العرب «قلمرية» قاعدة مقاطعة من مقاطعات البرتغال وعدد سكانها اليوم يناهز ٢٠ ألفاً وفيها مدرسة جامعة ومرصد فلكي وهي قسمان المدينة العليا والمدينة السفلى وهذه متصلة بنهر «منديق» Mondego وكان اسم قلمرية عند الرومان هو «آمينيوم» Aeminium ثم في القرن التاسع أطلقوا عليها اسم «كونمبريكا» Conimbrica وهي مدينة قديمة خرجت وانتقل أهلها إلى هذه. وقد استولى عليها العرب فيما استولوا عليه من الجزيرة الأندلسية ثم استرجعها النصارى منهم سنة ٨٧٢ أي بعد فتح المسلمين لها بقليل ثم استردها المسلمون سنة ٩٧٨ مسيحية في زمن الحكم المستنصر الأموي رحمه الله على يد غالب مولاه وجاء في النفح أن الحكم عمرها واعتنى بها. ثم عاد النصارى فاستولوا عليها سنة ١٠٦٤ بعد سقوط الدولة الأموية في قرطبة وذلك على يد فرديناند الأول القشتالي الذي بقي يحاصرها ستة أشهر إلى أن ملكها. ثم آلت إلى البرتغال وصارت عاصمة ملكهم ولذلك العهد زحف إليها أبو يعقوب يوسف سلطان الموحدين ليسترجعها للإسلام فامتنعت عليه. وبقيت عاصمة للبرتغال إلى سنة ١٢٦٠ حينما جعلوا العاصمة في اشبونة ولكن الملك دنيس عوض قلمرية بنقل المدرسة الجامعة من اشبونة إليها. وفي زمن ياقوت الحموي (المتوفى سنة ٦٢٦) كان المسلمون قد فقدوها لأنه قال: وهي اليوم بيد الأفرنج خذلهم الله.

(٢) Mondego.

(٣) Montemayor.

(٤) لشبونة أو إشبونة Lisbonne أو Lisboa وسيأتي الكلام عليها مفصلاً.

(٥) قصة الأخوة المغرورين هذه قصة شهيرة صارت الان معلومة عند أهل هذا العصر بعد أن بقيت مدة طويلة مدفونة في كتاب الإدريسي، هذا الذي لم تتداوله الأيدي، وإنما كان يطلع عليه بعض المستشرقين من علماء الأفرنج، وبعض المطلعين من العرب على خزائن الكتب. وقليلاً ما هم. وبقي الأمر كذلك إلى سنة ١٨٩٢، وكنت في باريز، وكان عمري ٢٢ سنة، فقرأت في جريدة النشرة الأسبوعية التي كان ينشرها الأستاذ العلامة إبراهيم الحوراني باسم جمعية الأميركيين في بيروت، =

ذكرهم، ولهم بمدينة لشبونة بموضع من قرب الحمّة، درب منسوب إليهم يعرف بدرب

= وذلك مقالة مترجمة، عن مجلة أميركية، لا أتذكر الآن اسمها، يقول فيها بمناسبة كشف قارة أميركة: إنه شائع من جملة الأخبار كون العرب وصلوا إلى أميركة قبل كولمبوس وذلك بركوبهم البحر قاصدين الغرب من جهة الأندلس. ويقول: ليس عندنا نحن معلومات عن هذا الشأن تستند إلى وثائق خطية، وإنما هو كلام متواتر بين الناس، فكنا نود لو عرفنا ما عند العرب من هذا الموضوع، وأردف الأستاذ الحوراني ذلك بنداء إلى علماء العرب أن افتونا بما عندكم عن هذه المسألة. ففي الحال فكرت في هذه المسألة، وقلت أنا في باريز وأمامي المكتبة العمومية العظيمة، فيمكنني أن أبحث فيها ما شئت وذهبت إلى خزانة الكتب الكبرى Bibliothèque National وبمجرد وصولي أمام ذلك البحر الخضم من الكتب فكرت أن حادثاً كهذا لا يمكن أن ينشد إلا في كتب العرب المؤلفة عن الأندلس ورجحت أن أبدأ البحث في كتب الجغرافية على كتب التاريخ، وقلت في نفسي إن أشهر جغرافية عربية في القرون الوسطى هي جغرافية الشريف الإدريسي، فطلبت فهرس الكتب العربية، ووجهت نظري إلى كتب الجغرافية، فعثرت على كتاب «نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق» للسيد الإدريسي، وبدأت بتصفحه، ولم أكن طالعته من قبل، فما مضى ربع ساعة حتى عثرت على هذه الواقعة، وهي التي يسردها الإدريسي حسبما هو مكتوب في المتن. فكان ذلك عجباً، لأن ما كنت أقدر له حتى أصل إليه أياماً طوالاً، من بحث وتنقيب في مختلف الكتب، قد وصلت إليه في ربع ساعة. فنسخت ما ورد عن الأخوة المغرورين أو المغررين بتمامه، وذهبت فكتبت مقالة بعثت بها إلى جريدة ثمرات الفنون في بيروت أوردت فيها في عرض الجواب على سؤال النشرة الأسبوعية وسؤال علماء أميركة ما جاء في كتاب الشريف الإدريسي بالحرف. ثم علقت على ذلك توجيها للكلام يساعد على استخلاص المعنى، وهو أن الأخوة المغرورين خرجوا من اشبونة أولاً، إلى ناحية الغرب، في نحر البحر، وساروا ١٢ يوماً. فلم يجدوا شيئاً، فانعطفوا إلى ناحية الجنوب، فساروا ١٢ يوماً أخرى، فوصلوا إلى جزيرة لم يجدوا فيها إلا غنماً لحومها مرة لا تؤكل، فانعطفوا أيضاً إلى الجنوب، وجروا ١٢ يوماً، إلى أن وصلوا إلى جزيرة وجدوا فيها بشراً، وأخذوا إلى أمير الجزيرة، وجرى معهم ما جرى، كما هو وارد في الكتاب. وأزيد الآن هذا بياناً فأقول: الذي يلوح لي أنهم وصلوا أولاً إلى جزيرة من جزائر الأنطيل، التي هي بين أميركة الشمالية، وأميركة الجنوبية، ومجموع هذه الجزائر هو بين ١٠ و ٢٧ درجة من العرض الشمالي، وبين ٦٢ و ٨٧ درجة من الطول، في غربي خط نصف النهار، المار بباريز. وكان أول وصول كريستوف كولومبوس إلى جزيرة من أميركا كهذه في ١٢ اكطوبر سنة ١٤٩٢، وجزر الأنطيل تنقسم إلى الأنطيل الكبرى، وهي إلى الشمال الغربي، والأنطيل الصغرى، وهي إلى الجنوب الشرقي، وهذه الجزر صغيرة لا تحصى، والذي يظهر أن الأخوة المغرورين بعد أن ساروا ١٢ يوماً خطاً مستقيماً إلى الغرب، ولم يجدوا شيئاً، خافوا من التلف، فرجعوا إلى الجنوب، وكانوا لو صبروا وتابعوا جريهم خطاً مستقيماً، وصلوا إلى ساحل القارة المسماة الآن بأميركا الشمالية، ولكنهم يئسوا من الوصول إلى البر من جهة السير نحرا إلى الغرب، فساروا إلى الجنوب، لعلهم يجدون البر هناك، فوصلوا الجزيرة التي وجدوا فيها الغنم، ولم يجدوا البشر، فحينئذ يئسوا، وعادوا جنوباً إلى الشرق، فوصلوا إلى إحدى جزائر الخالدات أو جزائر أسور Acores وهذه الجزائر كما هو معلوم، مسكونة من قديم الزمان، وهي واقعة بين ٢٧ و ٣٣ و ٤٠ درجة من الطول الغربي، و ٣٦ و ٥٠ و ٣٩ و ٤٥ من العرض الشمالي. وهي=

المغرّرين إلى آخر الأبد. وذلك أنه اجتمع ثمانية رجال، كلهم أبناء عم، فأنشأوا مركباً

= أقرب قليلاً إلى أوروبة منها إلى أفريقية. وقد جاء في الأنسيكلوبيدية الافرنسية الكبرى أن جزر آسور كان وصل إليها القرطاجنيون، ثم النورمنديون، ثم العرب. تجد هذا في الجزء الأول صفحة ٤٣١. ثم يقول إنهم لم يكشفوا هذه الجزائر إلا في القرن الخامس عشر، حينما وصل إليها البرتغاليون، وإن هؤلاء بدأوا باستعمارها سنة ١٤٤٤، ولم تنكشف جميع هذه الجزائر دفعة واحدة، بل الواحدة بعد الأخرى. قال وإنه كان قد قصدها بعد البرتغال قوم من الفلمنك، ثم قال ولما طرد العرب من أسبانية التجأ منهم أناس إلى هذه الجزر؛ ونشروا فيها المدنية. أما الخالدات ويقال لها كناري Canaries فهي أقرب إلى أفريقية منها إلى أوروبة، وهي ممتدة من الشمال إلى الجنوب بين ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٢٥ من العرض الشمالي، وممتدة من الشرق إلى الغرب بين الدرجة ١٥ و ٤٠ و ٢٠ و ٣٠ من العرض الغربي عن باريز، وليس بين إحدى الخالدات المسماة فورت افنطوره Fortaventura وبين رأس جوبي من مراكش غير مائة كيلو متر لا غير وربما كان وصولهم إلى إحدى جزائر الخالدات أرجح، لأنهم من هناك ذهبوا بهم إلى مرسى أسفى ما بين الخالدات ومراكش. وبالاختصار الأخوة المغرورون كانوا قد وطأوا البر الأميركي بأرجلهم، ولكنهم بقلة عددهم، وقلة الوسائل التي كانت في أيديهم، لم يتقدموا إلى الإمام. ويغلب على الظن أن كريستوف كولومبوس لم يكن يجهل قصة المغرورين هذه، وأنه سمع بنزولهم في إحدى الجزر بعد مسيرة ٢٤ يوماً في الأوقيانوس الاطلانطيكي، ناخرين الغرب ثم منعطفين إلى الجنوب، فاستنتج من ذلك أن وجود البر وراء بحر الظلمات أمر لا بد منه ولكن لا بد أيضاً من أن يكون الملججون في هذا البحر العظيم عدداً كبيراً. وتكون معهم جميع الأقوات والأدوات والأسباب اللازمة، وأن يكونوا سائرين في عدة سفن، بعضها في أثر بعض. ولذلك بقي كولومبوس مدة طويلة، يراجع الملك فرديناند والملكة ايزابلة حتى أقنعهما بتزويده بكل ما طلبه، لعلمه أن السفر شاق وطويل، وأن أمامه أهوالاً. ولذلك كلفت رحلته هذه حتى كشف أميركا مبلغاً قدروه بثلاثمائة وستة وثلاثين ألفاً وخمسمائة فرنك افرنسي. وهو مبلغ جسيم بالنسبة إلى ذلك الوقت، وسار بثلاث سفن كبيرة وكان سفره من جزيرة «شاليش» قبالة «أونبة» في غربي أسبانية، إلى جزر الخالدات، ومنها بقي يخوض بحر الظلمات ٣٢ يوماً، إلى أن وصل إلى إحدى الجزر وهي التي سماها سان سالفادور. ومن المحقق أن قضية وجود بر وراء بحر الظلمات، لم تكن تولدت في مخيلة كولومبس بل هي فكرة قديمة معروفة وكان كولومبس قد اطلع على كتاب «صورة الأرض» تأليف الكردينال بطرس دالي Pierra D'Ailly مطران كمبراي Combray، وهو تأليف كتبه هذا المطران سنة ١٤١٠، وحشر فيه معلومات كثيرة تتعلق بصورة الأرض، منها ما نقله عن التوراة، ومنها ما نقله عن اليونان، ومنها ما أخذه عن العرب، كما جاء في الأنسيكلوبيدية الكبرى الافرنسية، في ترجمة كولومبس، وقد ورد في هذا الكتاب أن أرسطو وشارحه ابن رشد لم يكونا يعتقدان أنه يوجد بين ساحل أفريقية الغربي وساحل الهند الشرقي مسافة شاسعة البعد، فمطالعة كولومبس هذا الكتاب بنوع خاص كانت تحمله على الاعتقاد بالوصول إلى الهند من طريق بحر الظلمات ولا تعبأ برواية الإدريسي عن عدة أيام السفر التي رواها عن المغرورين، فإنه إنما روى عن أفواه الناس، ولم يجتمع بالأخوة المذكورين. والأرجح أن سفرهم استمر أكثر مما قال، لأن كولومبس بقي يلجج في الجزر الخالدات إلى أول جزيرة وطئها من أميركا مدة ٣٢ يوماً، وهذا ثابت تاريخاً، وغاية ما يستفاد من العبرة في قصة المغرورين، أن العرب حاولوا اختراق بحر المحيط، =

حمّالاً، وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر، ثم دخلوا البحر في أول طاروس الريح[١] الشرقية فجروا بها نحواً من ١١ يوماً، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج، كدر الروائح كثير التروش[٢] قليل الضوء، فأيقنوا بالتلف، فردوا قلاعهم في اليد الأخرى، وجروا في البحر في ناحية الجنوب ١٢ يوماً، فخرجوا إلى جزيرة الغنم، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عدّ ولا تحصيل، وهي سارحة لا راعي لها، ولا ناظر إليها، فقصدوا الجزيرة فنزلوا بها، فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين بري، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها، فوجدوا لحومها مرّة لا يقدر أحد على أكلها فأخذوا من جلودها وساروا مع الجنوب ١٢ يوماً إلى أن لاحت لهم جزيرة، فنظروا فيها إلى عمارة وحرث فقصدوا إليها ليروا ما فيها، فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم في زوارق هناك، فأخذوا وحملوا في مركبهم إلى مدينة على ضفة البحر، فأنزلوا بها في دار، فرأوا رجالاً شقراً زعراً شعور رؤوسهم شعورهم سبطة، وهم طوال القدود، ولنسائهم جمال عجيب، فاعتقلوا منها في بيت ثلاثة أيام، ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربي، فسألهم عن حالهم وفي ما جاؤوا، وأين بلدهم، فأخبروه بكل خبرهم، فوعدهم خيراً، وأعلمهم أنه ترجمان الملك، فلما كان في اليوم الثاني من ذلك اليوم أحضروا بين يدي الملك، فسألهم عما سألهم الترجمان عنه، فأخبروه بما أخبروه به للترجمان بالأمس: من أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار

= والوصول إلى البر الذي يقال له اليوم أميركا. هذا وجاء في صبح الأعشى للقلقشندي عند ذكر ملوك مملكة «مالي» في السودان الغربي ما يلي: أنه تولى منهم الملك منسى موسى بن أبي بكر، قال في «العبر»: وكان رجلاً صالحاً، وملكاً عظيماً له أخبار في العدل تؤثر عنه، وعظمت المملكة في أيامه إلى الغاية، وافتتح الكثير من البلاد، قال في «مسالك الأبصار»: حكى ابن أمير حاجب والي مصر عنه أنه فتح بسيفه وحده أربعاً وعشرين مدينة من مدن السودان ذوات أعمال، وقرى وضياع. قال في «مسالك الأبصار» قال ابن أمير حاجب: سألته عن سبب انتقال الملك إليه فقال: إن الذي قبلي كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك فجهز مئتين من السفن وشحنها بالرجال والأزواد التي تكفيهم سنين، وأمر من فيها أن لا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته، أو تنفد أزوادهم، فغابوا مدة طويلة، ثم عاد منها سفينة واحدة، وحضر مقدمها، فسأله عن أمرهم فقال: سارت السفن زماناً طويلاً حتى عرض لها في البحر في وسط اللجة واد له جرية عظيمة، فابتلع تلك المراكب وكنت آخر القوم، فرجعت بسفينتي، فلم يصدقه. فجهز ألفي سفينة ألفاً للأولاد، وألفاً للأزواد واستخلفني، وسار بنفسه ليعلم حقيقة ذلك، وكان آخر العهد به وبمن معه. قال في «العبر»: وكان حجه في سنة أربع وعشرين وسبعمائة في الأيام الناصرية محمد بن قلاوون. اهـ ومعناه أن هذا الحادث إن كان وقع فيكون في أول القرن الثامن من الهجرة وقد ورد هذا الخبر في الجزء الخامس من صبح الأعشى فليراجع هناك.

(١) هذه اللفظة غير عربية ومعناها هبوب الريح.

(٢) هكذا في الأصل وربما كان المعنى مناسباً لسياق الكلام الذي تقدمه فإن فعل ترش في العربي معناه ساء خلقه.

والعجائب، ويقفوا على نهايته. فلما علم الملك ذلك ضحك، وقال للترجمان خبّر القوم أن أبي أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر، وأنهم جروا في عرضه شهراً، إلى أن انقطع عنهم الضوء، وانصرفوا من غير حاجة، ولا فائدة تجدى. ثم أمر الملك الترجمان أن يعدهم خيراً، وأن يحسن ظنهم بالملك، ففعل. ثم صرفوا إلى موضع حبسهم، إلى أن بدأ جري الريح الغربية، فعمّر بهم زورق، وعُصبت أعينهم. وجُرى بهم في البحر برهة من الدهر. قال القوم: قدّرنا أنه جُرى بنا ثلاثة أيام بلياليها، حتى جيء بنا إلى البر، فأُخرجنا وكتفنا إلى خلف وتُركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار، وطلعت الشمس ونحن في ضنك وسوء حال، من شدة الأكتاف، حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس فصحنا بأجمعنا فأقبل القوم إلينا، فوجدونا بتلك الحالة السيئة فحلونا من وثاقنا، وسألونا فأخبرناهم بخبرنا، وكانوا برابر، فقال لنا أحدهم: أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم؟ فقلنا: لا فقال: إن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين. فقال زعيم القوم: وأسفي! فسمى المكان إلى اليوم «أسفي»، وهو المرسى الذي في أقصى المغرب، وقد ذكرناه قبل هذا. ومن مدينة لشبونة Lisbonne[1] مع النهر إلى مدينة شنترين Santaren[2] شرقاً ثمانون ميلاً والطريق بينهما لمن شاء في النهر أو في البر، وبينهما فحص «بلاطة»، ويخبر أهل لشبونة وأكثر أهل الغرب أن الحنطة تزرع بهذا الفحص، فتقيم بالأرض أربعين يوماً فتحصد، وأن الكيل الواحد منها يعطي مائة كيل، وربما زاد ونقص.

---

(١) Lisbonne.

(٢) Santaren مستعمرة رومانية كان يقال لها في زمن قيصر سكالابيس Scallabis فأطلق عليها اسم «بريزيديوم يوليوم» وقد تحول اسمها بعد النصرانية إلى سنتا ايرين أي القديسة ايرينة وهي قديسة شهيدة عند الأسبانيول. والبلدة تعد مفتاح وادي تاجه وكان لها شأن عظيم في تاريخ البرتغال وقد استولى عليها العرب فيما استولوا عليه من البلدان ثم استرجعها منهم الأذفونش السادس ملك قشتالة سنة ١٠٩٣ وفي زمن أبي يعقوب يوسف سلطان الموحدين حاول المسلمون استردادها فردهم عنها الدون شانجه Don Sancho وفي هذه البلدة غرق في النهر البرنس الفونس بن يوحنا الثاني ملك البرتغال وكان الابن الوحيد لأبيه وكان عروساً وعمره لم يتجاوز السادسة عشرة فذهب لاستقبال أبيه ممتطيا جواده فرحاً فحملته غرارة الشباب على الخوض في النهر فأخذه النهر وكانت فاجعة عظيمة لا تزال مراثيها عند البرتغال محفوظة إلى اليوم. وقد وقعت هذه الفاجعة في ١٣ يوليو سنة ١٤٩١ هذا وقد سقطت مكانة شنترين اليوم فالآن جميع سكانها عشرة آلاف نسمة وفيها بعض آثار من زمن العرب وأسوار وقصر عربي يقولون له «الكازار» Alcaazr كما يقولون لكل قصر عربي وفيها برج يقال له برج «كباساس» Cabaças كان في أصله منارة مسجد. قال ياقوت الحموي عن شنترين: كلمتان مركبتان من شنت كلمة ورين بكسر الراء وياء مثناة من تحت ونون مدينة متصلة الأعمال بأعمال باجه في غربي الأندلس ثم غربي قرطبة وعلى نهر تاجه قريب من انصبابه في البحر المحيط =

ومدينة شنترين على جبل عال كثير العلو جداً، ولها من جهة القبلة حافة عظيمة ولا سور لها، وبأسفلها ربض على طول النهر، وشرب أهلها من مياه عيون، ومن ماء النهر أيضاً، ولها بساتين كثيرة وفواكه عامة، ومباقل، وخير شامل. ومن مدينة شنترين إلى مدينة بطليوس[١] أربع مراحل، وعلى يمين طريقها مدينة يلبش[٢]، وهي في سفح جبل، ولها سور منيع، ورقعة فرحة، وبها عمارة وأسواق وديار كثيرة، ولنسائها جمال فائق، ومنها إلى بطليوس ١٢ ميلاً. ومن ماردة[٣] إلى حصن «كركوي»[٤] ثلاث مراحل، ومن كركوي إلى مدينة «قلعة رباح»[٥] على ضفة نهر يانة. وهذا النهر يأتي من مروج فوقها، فيمر بقرية يانة[٦] إلى قلعة رباح، ثم يسير منها إلى حصن «أرندة»[٧] ومنه إلى ماردة، ثم يمر بمدينة بطليوس فيصير منها إلى مقربة من «شريشة»[٨]، ثم يصير إلى حصن «مارتلة»[٩] فيصب في البحر المظلم.

ومن قلعة رباح[١٠] إلى قلعة «ارلية»[١١] يومان، وهو حصن منيع، ومنه إلى طليطلة مرحلة. ومن قلعة رباح في جهة الشمال إلى حصن البلاط[١٢]مرحلتان ومن حصن البلاط إلى مدينة «طلبيرة»[١٣]يومان. وكذلك من مدينة «قنطرة السيف»[١٤]إلى المخاضة أربعة أيام، ومن المخاضة إلى طلبيرة يومان وكذلك من مدينة ماردة إلى حصن مدّلين[١٥] مرحلتان خفيفتان، وهو حصن عامر آهل، وفيه خيول ورجال لهم سرايا وطرقات في بلاد الروم. ومن حصن إلى مدلين إلى «ترجالة»[١٦]مرحلتان وهما خفيفتان، ومدينة ترجالة

وهي حصينة بينها وبين قرطبة خمسة عشر يوماً وبينها وبين باجة أربعة أيام وهي الآن للأفرنج ملكت في سنة ٥٤٣.

(١) Badajoz عاصمة بني الأفطس وسيأتي الكلام عليها تفصيلاً.

(٢) بالاسبانيولي Elvas استرجعها ملك ليون من العرب سنة ١١٦٦.

(٣) بالاسبانيولي Merida وهي من قواعد الأندلس مر ذكرها وسيأتي أيضاً.

(٤) Karacuel أو Caraqui.

(٥) Calatrava.

(٦) Ana.

(٧) Aranda.

(٨) شريشة الوارد ذكرها هنا يقال لها عند الأسبونيول Xeres de Estramadura وهي غير شريش البلدة المشهورة بقرب أشبيلية التي ينسب إليها الشريشي شارح مقامات الحريري وسيأتي ذكرها.

(٩) يقول الاسبانيول لهذا الحصن Martola.

(١٠) حرف الاسبانيول قلعة رباح إلى كالاترابة وسيأتي الكلام عليها.

(١١) عند الاسبانيول Aralia.

(١٢) Balat.

(١٣) Talavera وسيأتي الكلام عليها وهي من المدن المذكورة وقد خرج منها رهط من العلماء.

(١٤) Alcantra وسيأتي الكلام عليها.

(١٥) Medellin.

(١٦) ترجالة يقول لها الاسبانيول Trugillo قال في دليل بديكر إنها اليوم قرية فيها ١٢٥٠ نسمة وفيها حصن من أيام العرب رممه الفرنسيس في زمن بونابرت لما كانوا في أسبانية.

كبيرة كالحصن المنيع، ولها أسوار منيعة وبها أسواق عامرة وخيل ورجل يقطعون أعمارهم في الغارات على بلاد الروم. والأغلب عليهم اللصوصية والخداع. ومنها إلى حصن «قاصرس»[1] مرحلتان خفيفتان، وهو حصن منيع ومحرس رفيع، فيه خيل ورجل يغاورون في بلاد الروم. ومن مكناسة إلى مخاضة البلاط يومان. ومن البلاط إلى «طلبيرة»[2] يومان، ومدينة طلبيرة على ضفة نهر تاجة، وهي مدينة كبيرة، وقلعتها أرفع القلاع حصناً، ومدينتها أشرف البلاد حسناً، وهي بلد واسع المساحة، شريف المنافع، وبه أسواق جميلة الترتيب، وديار حسنة التركيب، ولها على نهر تاجة أرحاء كثيرة، ولها عمل واسع المجال، وإقليم شريف الحال، ومزارعها زاكية، وجهاتها حسنة مرضية، أزلية العمارة، قديمة الآثار، وهي من مدينة طليطلة على سبعين ميلاً.

ومدينة طليطلة من طلبيرة شرقاً وهي مدينة عظيمة القطر، كثيرة البشر حصينة الذات، لها أسوار حسنة، فيها حصانة ومنعة وهي أزلية، من بناء «العمالقة»[3] وقليلاً ما رؤي مثلها اتقاناً، وشماخة[4] بنيان، وهي عالية الذرى، حسنة البقعة، زاكية الرقعة، وهي

---

(١) يقول الاسبانيول لهذه البلدة Ceçares جاء في دليل بديكر أن سكانها ١٦٩٠٠ وأن القسم القديم منها مبني على رابية تحيط به أسوار وأبراج وأبواب وأن القسم الجديد هو في الجانب الأدنى منها ثم أن في القسم الأعلى كنيسة يقال لها «سان ماتيو» مبنية مكان المسجد الجامع وفيه أيضاً مكان القصر الذي كان في أيام العرب ويوجد في هذه البلدة في شارع الدانه Aldana رقم ١٠ بيت عربي لا يزال محفوظاً على حاله.

(٢) يوجد في الأندلس ثلاث بلاد باسم طلبيرة هذه وقرية إلى الجنوب منها يقال لها طلبيرة البقعة Talavera La Vega ويوجد على ضفة وادي يانة بقرب بطليوس قرية يقال لها طلبيرة. وأما المقصود هنا فهي الكبرى ويقال لها طلبيرة رينه De La Reina وهي الآن بلدة صغيرة سكانها عشرة آلاف لكنها واقعة في بقعة جميلة على نهر تاجه ولها جسر مركب من ٣٥ قوساً وفيها باب روماني قديم وفيها أبراج يقال لها «البرّاناس» من بناء العرب يعود تاريخها إلى سنة ٩٣٧ مسيحية ولعل اللفظة محرفة عن «البرانية» أي الأبراج البرانية. ومن طلبيرة هذه يذهبون إلى النزهة في شارات «غريدوس» وإلى وادي اللب Guadalupe وبالقرب من طلبيرة بلدة قلصادة Colzada,وهي بلدة ينسب إليها بعض أهل العلم من العرب.

(٣) يقول دوزي عند شرح هذه اللفظة إن العرب كانوا يعنون بالعملاق كل عظيم الجثة. فكأنه يريد أن يقول إنه لا يجب أن يفهم أن العمالقة الساميين الذين هم من بلاد العرب والذين كانت الحروب بينهم وبين اليهود هم الذين بنوا طليطلة وإنما قصدوا بذلك شعباً عظام الجثث وقد جرت العادة عند الناس أنهم كلما رأوا بناء عظيماً شامخاً نسبوه إلى العمالقة أو إلى الجن أو الاسكندر وما أشبه ذلك مما يهولهم من منظره.

(٤) المعروف في اللغة شمخ يشمخ شمخاً ولم نجد شماخة وربما كانت هذه اللفظة من جملة خطأ النسخ.

على ضفة النهر الكبير المسمى «تاجة» لها قنطرة من عجيب البنيان، وهي قوس واحدة والماء يدخل تحت تلك القوس كله بعنف وشدة جري، ومع آخر القنطرة ناعورة ارتفاعها في الجو ٩٠ ذراعاً، وهي تصعد الماء إلى أعلى القنطرة، والماء يجري على ظهرها فيدخل المدينة، ومدينة طيطلة كانت في أيام الروم دار مملكتهم، وموضع قصدهم، ووجد أهل الإسلام فيها عند افتتاح الأندلس ذخائر كادت تفوق الوصف كثرة، فمنها أنه وجد بها ١٧٠ تاجاً من الذهب مرصعة بالدر، وبأصناف الحجارة الثمينة، ووجد بها ألف سيف مجوهر، ملكي، ووجد بها من الدر والياقوت أكيال وأوساق. ووجد بها من أنواع آنية الذهب والفضة ما لا يحيط به تحصيل، ووجد بها مائدة سليمان بن داود، وكانت في ما يذكر من زمردة وهذه المائدة اليوم في مدينة رومة.

ولمدينة طليطلة بساتين محدقة بها وأنهار جارية مخترقة، ودواليب دائرة، وجنات يانعة، وفواكه عديمة المثال، لا يحيط بها تكييف ولا تحصيل، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة، وقلاع منيعة، تكنفها. وعلى بعد منها في جهة الشمال الجبل العظيم المتصل المعروف بالشارات، وهو يأخذ من ظهر مدينة سالم إلى أن يأتي قرب مدينة قلمرية. في آخر المغرب. وفي هذا الجبل من الغنم والبقر الشيء الكثير الذي يتجهز به الجلابون إلى سائر البلاد، ولا يوجد شيء من أغنامه وأبقاره مهزولاً، بل هي في نهاية السمن، ويضرب بها في ذلك المثل، في جميع أقطار الأندلس. وعلى مقربة من طليطلة قرية تسمى بمغام[1]، وجبالها وترابها الطين المأكول، الذي ليس على قرارة الأرض مثله، يتجهز به منها إلى أرض مصر وجميع بلاد الشام والعراقات وبلاد الترك، وهو نهاية في لذاذة الأكل، وفي تنظيف غسل الشعر[2]. ولطليطلة في جبالها معادن الحديد والنحاس، ولها من المنابر في سفح هذا الجبل مجريط[3]، وهي مدينة صغيرة، وقلعة منيعة معمورة، وكان لها في

(١) عند الاسبانيول Magham وقد ذكر ياقوت هذه البلدة وقال إنه يقال لها أيضاً «مغامه» بالفتح فيهما وقال إنه ينسب إليها أبو عمران يوسف بن يحيى المغامي ومحمد بن عتيق بن فرج بن أبي العباس بن إسحاق التجيبي المغامي المقرىء الطليطلي أبو عبدالله لقي أبا عمرو الداني وعليه اعتمد وروى عن أبي الربيع سليمان بن إبراهيم وأبي محمد بن أبي طالب المقرىء وغيرهم وكان عالماً بالقراءة بوجوهها إماماً فيها ذا دين متين وكان مولده لتسع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ٤٢٢ ومات بأشبيلية في منتصف ذي القعدة سنة ٤٨٥ وحبس كتبه على طلبة العلم الذين بالعدوة وغيرها. قال: وفيها معدن الطين الذي تغسل به الرؤوس ومنها ينقل إلى سائر بلاد المغرب.

(٢) الغسل بالكسر ما يغسل به الرأس من خطمي وطين واشنان ونحوه. عن لسان العرب.

(٣) هي التي يقول لها الاسبان مدريد وهي اليوم عاصمة أسبانية ومن أهم مدن أوروبة وقد كانت مجريط في زمن الإدريسي خرجت من يد الإسلام ومثلها طليطلة فلذلك قال إنه كان لمجريط في زمن الإسلام مسجد جامع وخطبة قائمة وسنذكر طليطلة تفصيلاً ونؤيد ما يجب تأييده من كلام الإدريسي عنها ونرد ما هو من قبيل الأساطير مثل قوله: إن طليطلة هي من بناء العمالقة.

زمن الإسلام مسجد جامع، وخطبة قائمة، ولها أيضاً مدينة الفهمين[١]، وكانت مدينة متحضرة، حسنة الأسواق والمباني، وبها مسجد جامع، ومنبر وخطبة، وهي كلها اليوم مع طليطلة في أيدي الروم، وملكها من القشتالين، وينتسب إلى الأذفونش الملك.

وفي الشرق من مدينة طليطلة إلى مدينة وادي الحجارة ٥٠ ميلاً وهي مرحلتان ومدينة وادي الحجارة حصينة حسنة كثيرة الأرزاق والخيرات، جامعة لأشتات المنافع والغلات، وهي مدينة ذات أسوار حصينة، ومياه معينة، ويجري منها بجهة غربيها نهر صغير، لها عليه بساتين وكروم، وجنات وزراعات، وبها من غلات الزعفران الشيء الكثير، يتجهز به منها، ويحمل على سائر العمالات والجهات. وهذا النهر يجري إلى جهة الجنوب، فيقع في نهر تاجة الأكبر فيمده. ونهر تاجة المذكور يخرج من ناحية المذكور يخرج من ناحية الجبال المتصلة بالقلعة[٢] والفنت[٣] فينزل ماراً مع المغرب إلى مدينة طليطلة[٤]، ثم إلى طلبيرة[٥]، ثم إلى المخاضة[٦]، ثم إلى القنطرة[٧] ثم إلى قنيطرة محمود[٨] ثم إلى مدينة شنترين[٩]، ثم إلى لشبونة[١٠]، فيصب هناك في البحر. ومن مدينة وادي الحجارة إلى مدينة سالم[١١] شرقاً ٥٠ ميلاً. ومدينة سالم هذه مدينة جليلة في وطاء من الأرض، كبيرة القطر كثيرة العمارات والبساتين والجنات، ومنها إلى مدينة شنت مارية ابن رزين[١٢] أربع مراحل خفاف، ومنها إلى الفنت أربع مراحل. وبين شنت مارية والفنت مرحلتان، وشنت مارية والفنت مدينتان عامرتان، بهما أسواق قائمة، وعمارات متصلة

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان: الفهميين كأنه جمع فهمي اسم قبيلة الفهميين بالأندلس من أعمال طليطلة انتهى ولم يذكر زيادة على ذلك ونحن نعلم أنه يقال الفهميون لفهم الجمرات بطن من لخم وأنه يوجد أيضاً في الازد بطن اسمهم فهم بن غنم بن دوس بن عدنان منهم جذيمة بن مالك بن فهم الملك الأبرص راجع تاج العروس.

(٢) يقول دوزي في ترجمته لكلام الإدريسي هنا إن المقصود بهذه القلعة هي قلعة كبريال وهي إلى الشمال الغربي من «الفنت».

(٣) الفنت هذه هي التي يقول لها الاسبانيول «البونت» Alpuente.

(٤) Toledo.

(٥) Talevera De La Reina.

(٦) لا نعلم ماذا يقول الاسبانيول لهذا المكان.

(٧) هي قنطرة السيف بلدة معروفة ينسب إليها في زمن العرب جماعة من أهل العلم والاسبان يقولون Alcantra.

(٨) لم نعلم ماذا يقول الاسبانيول لهذه البلدة.

(٩) Santaren وهي مدينة مشهورة سيأتي ذكرها.

(١٠) Lisboa عند البرتغال أو Lisbonne وسيأتي ذكرها.

(١١) Medinaceli عند الاسبانيول بحذف الميم.

(١٢) عند الاسبانيول Albarrazin.

دائمة، وفواكه عامة وكانا في الإسلام منازل القواطم [١]. ومن مدينة سالم إلى مدينة قلعة أيوب[٢] ٥٠ ميلاً شرقاً، وهي مدينة رائقة البقعة، حصينة شديدة المنعة، بهية الأقطار كثيرة الأشجار والأثمار. وعيونها مخترقة، وينابيعها مغدودقة، كثيرة الخصب، رخيصة الأسعار، وبها يصنع الغفار المذهب، ويتجهز به إلى كل الجهات. ومن مدينة قلعة أيوب إلى قلعة دَرْوقه[٣] ١٨ ميلاً. ودروقة مدينة صغيرة متحضرة، كثيرة العامر غزيرة البساتين والكروم، وكل شيء بها كثير رخيص. ومن دروقة إلى مدينة سرقسطة[٤] ٥٠ ميلاً. وكذلك من مدينة قلعة أيوب إلى مدينة سرقسطة ٥٠ ميلاً.

---

(١) غريب جداً ذكر الإدريسي هؤلاء «القواطم» بدون التعريف عنهم بشيء ولذلك لم يفهم هذه اللفظة أحد من مترجمي كلام الإدريسي ومفسريه ونحن أشكل علينا أيضاً فهمها ولم يذهب فكرنا إلى أنها «الفواطم» بالفاء الموحدة لأنه لم يسمع أن قوماً من الفاطميين سكنوا بتلك الأرض واشتهروا بها واشتهرت بهم وكذلك من العادة أن يقال لهم «الفاطميون» أو «الطالبيون» أو «الهاشميون» ولم نسمع بقوم اسمهم الفواطم يسكنون في شمالي الأندلس فبقي علينا أن نعلم ما المراد بالقواطم بالقاف المثناة، فالعلامة دوزي يظن أنها محرفة عن «القواسم» لأنه كان في الفنت فخذ يقال لهم «بنو قاسم» ولا يزال هذا الاسم Beni Cassim يطلق على مكان بشرقي الفنت إلى اليوم. قال دوزي: فيجوز أن يكون قيل لهم فيما بعد القواسم ثم تحرفت القواسم هذه بطول الزمن إلى قواطم. قلنا: إن وجود أناس في تلك البقعة كان يقال لهم بنو قاسم لا شك فيه وقد رأيت في معجم البلدان ذكر مكان في تلك الناحية قال ياقوت عنه إنه من عمل بني قاسم. ثم إن دوزي نفسه يقول إن بني فاسم هؤلاء من ذرية عبد الملك بن قطن الفهري أمير الأندلس المشهور الذي كان قبل بني أمية فأنا أظن أن القواطم غير محرفة عن القواسم بل محرفة عن القواطن وذلك نسبة إلى عبد الملك بن قطن المذكور فإن ذرية هذا الرجل ينبغي أن يقال لهم «القطنيون» فالناس استثقلوا جمع ذرية ابن قطن على القطنيين كما جمعوا بني فهم على الفهميين لثقل الأولى وخفة الثانية فاختاروا للأولى جمع التكسير وقالوا قواطن يريدون به بني قطن. ومثل هذا الجمع كثير عند العرب. وأما انقلاب نون قواطن إلى ميم بحيث صارت قواطم فإن بين النون والميم تبادلا كثيراً كما لا يخفى فهذا وجه خطر ببالنا عن هذه اللفظة والله أعلم.

(٢) الاسبانيول يقولون لها «كالاتايود» Calatayud وهي بلدة على وادي شلون جاء في دليل بديكر أنه يشرف على هذه البلدة حصن اسمه قلعة أيوب بناه العرب في القرن الثامن للمسيح وأن أذفونش الأول ملك أراغون انتزع قلعة أيوب سنة ١١١٩ من أيدي العرب. والمشهور أن باني قلعة أيوب هو أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير. وسنأتي على ذكرها تفصيلاً.

(٣) هذه البلدة هي على ٣٥ كيلو متراً من قلعة أيوب، والاسبان يقولون لها «داروكة» Daroca جاء في دليل بديكر أن هذه البلدة ازدهرت في زمان العرب وكان لها سور طوله ثلاثة كيلومترات وعليه ١١٤ برجاً وكان لدروقة قلعة مبنية على صخر عظيم من بناء العرب وسيأتي ذكرها بأوسع من هذا.

(٤) Saragosse وهي من قواعد الأندلس الكبار كان العرب يسمونها بالثغر الأعلى وسنذكر عنها كل ما يلزم عند الوصول إلى مكانها من جغرافية الأندلس.

ومدينة سرقسطة قاعدة من قواعد مدن الأندلس، كبيرة القطر، آهلة ممتدة الأطناب، واسعة الشوارع والطرقات، حسنة الديار والمساكن، متصلة الجنات والبساتين، ولها سور مبني من الحجارة حصين، وهي على ضفة النهر الكبير المسمى إبره[1]، وهو نهر كبير، يأتي بعضه من بلاد الروم، وبعضه من جهة جبال قلعة أيوب، وبعضه من نواحي قلهرّة[2]، فتجتمع مواد هذه الأنهار كلها فوق مدينة تطيله[3] ثم تنصب إلى مدينة سرقسطة، إلى أن تنتهي إلى حصن جَبْرَه[4]، إلى موقع نهر الزيتون، ثم إلى طرطوشة فيجتاز بغربيها إلى البحر.

ومدينة سرقسطة هي المدينة البيضاء، وسميت بذلك لكثرة جصها وجيّارها، ومن خواصها أنها لا تدخلها حية البتة، وإن جلبت إليها وأدخلت المدينة ماتت وحياً بلا تأخير. ولمدينة سرقسطة جسر عظيم يجتاز عليه إلى المدينه، ولها أسوار منيعة، ومبان رفيعة، ومنها إلى وشقة[5] ٤٠ ميلاً. ومن وشقة إلى لاردة[6] ٧٠ ميلاً. ومدينة لاردة مدينة صغيرة متحضرة. ولها أسوار منيعة، وهي على نهر كبير ومن مكناسة[7] إلى طرطوشة[8] مرحلتان وهما ٥٠ ميلاً، ومدينة طرطوشة مدينة على سفح جبل، ولها سور حصين، وبها أسواق وعمارات، وصناع وفعلة، وإنشاء المراكب الكبار من خشب جبالها، وبجبالها يكون خشب الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول والغلظ، ومنه تتخذ السواري والقرى[9]

---

(١) Ebro وسيأتي الكلام على هذا النهر ومنبعه ومجراه.

(٢) Calahorra وهي بلدة قديمة على ضفة نهر سيداكوس Cidacos اشتهرت بشدة أهلها في مقاومة الرومانيين ومنها إلى «شورية» ٩٩ كيلومتر.

(٣) Tudela.

(٤) Chibrana.

(٥) الاسبانيول يقولون لها Huescs وهي مدينة قديمة جداً وكان الرومانيون يسمونها أوسكه Osca وعمرت في زمان العرب وبقيت في أيديهم إلى سنة ١٠٩٦ ثم صارت قاعدة لمملكة أراغون وهي على مسافة ٢٢ كيلومتراً من سرقطة وسكانها اليوم ١٣٠٠٠ نسمة وسيأتي ذكرها.

(٦) هذه البلدة هي من عمل كتلونية فيها اليوم ٢٣٠٠٠ نسمة والاسبان يقولون لها ليريده Lerida وكان الرومانيون يسمونها ايلرده Ilerda وهي مدينة قديمة جداً أيضاً وجدت فيها مسكوكات من زمان الايبيريين وعليها رأس ذئب. وفي السنة ٤٩ قبل المسيح هزمت فيها جيوش قيصر جيوش أعدائه المنتسبين إلى بومبى. وكان استيلاء العرب عليها سنة ٧١٣ مسيحية واسترجعها الاسبان سنة ١١١٧ وسيأتي ذكرها.

(٧) الاسبان يلفظونها مكيننسة Mequinenza وهي من شارات ساحل كتلونية.

(٨) عند الاسبان تورتوزه Tortosa وكان الرومان يقولون لها درتوزه Dertosa وقال لها العرب طرطوشة وسيأتي ذكرها بما يليق من التفصيل.

(٩) السواري جمع ساري وهو الخشبة المعترضة في وسط السفينة ويكون عليه الشراع وهو معروف. وأما=

وهذا الخشب الصنوبر الذي بجبال هذه المدينة أحمر صافي البشرة، دسم لا يتغير سريعاً، ولا يفعل فيه السوس ما يفعله في غيره، وهو خشب معروف منسوب. ومن طرطوشة إلى موقع النهر في البحر ١٢ ميلاً، ومن مدينة طرطوشة إلى مدينة طركونة[١] ٥٠ ميلاً.

ومدينة طركونة على البحر، وهي مدينة اليهود، ولها سور رخام، وبها أبنية حصينة وأبراج منيعة، ويسكنها قوم قلائل من الروم، وهي حصينة منيعة، ومنها إلى برشلونة[٢] في الشرق ٦٠ ميلاً، ومن مدينة طرّكونة غرباً إلى موضع نهر إبرُه ٤٠ ميلاً، وهذا الوادي ههنا يتسع سعة كثيرة، ومن موقع النهر إلى رابطة «كشطالي»[٣] غرباً على البحر ١٦ ميلاً، وهي رابطة حسنة، حصينة منيعة، على نحر البحر الشامي، يمسكها قوم أخيار، وبالقرب منها قرية كبيرة ويتصل بها عمارات ومزارع، ومن رابطة كشطالي غرباً إلى قرية «يانة» Ianna قرب البحر ٦ أميال، ومنها إلى حصن «بنشكله»[٤] ٦ أميال، وهو حصن منيع على ضفة البحر، وهو عامر آهل، وله قرى وعمارات ومياه كثيرة. ومن حصن بنشكله إلى عقبة «ابيشة»[٥] ٧ أميال، وهو جبل معترض عال على البحر والطريق عليه لا بد من السلوك على

= القرى فليس في اللغة بهذا المعنى بل القرى جمع قرية وهي البلدة. ولكن يوجد في اللغة «القرية» بتشديد الياء وهي عود الشراع الذي يجعل في عرضه من أعلاه والمعروف أنه يجمع على قرايا. ورد ذلك في تاج العروس وقال الزبيدي: والعامة تقول القرية بالتخفيف أي أن الإدريسي جرى في جمعه القرية على القرى مجرى العامة لأنه من بعد تخفيفها صار جمعها على قرى هو الأولى وقد لحظنا أن الإدريسي يستعمل كثيراً من الألفاظ العامية ولحظ ذلك دوزي من قبل.

(١) Tarragona والاسبانيول يقولون لها طركونة كالعرب وهي مدينة بحرية سكانها ٢٤ ألفاً، مشرفة على البحر تعلوه إلى حد ١٦٠ متراً وهي مدينة قديمة إيبيرية ولا يزال فيها مسكوكات من ذلك العهد. استولى عليها الرومانيون وحصنوها وجعلوها مرسى شهيراً وصارت مركزاً لهم في اسبانية وأقام بها أغسطس الروماني سنة ٢٦ قبل المسيح وجعلها قاعدة للمقاطعة المسماة «اسبانية الطركونية» وفيها أبنية رومانية ومشهد للتمثيل وبعد النصرانية صارت مركز أسقفية ولما جاء القوط سنة ٤٧٥ للمسيح جعلوا عاليها سافلها واستولى عليها العرب سنة ٧١٣ واسترجعها الاسبانيول بعد ذلك بأربعمائة سنة وصارت تابعة لبرشلونة.

(٢) Barcelona وهي قاعدة كتلونية وأكبر مدن أسبانية وأوسعها تجارة وأكثرها صناعة وسيأتي ذكرها تفصيلاً.

(٣) دوزي يعتقد أن هذه الرابطة هي التي يقول لها الاسبانيول Castillo De Chiver وهي بقرب قلعة شيفر أو شيبر.

(٤) ويقول لها الاسبانيول «بنيسكولا» Penuscola وتسمى جبل طارق بلنسية لأنها في جزيرة متصلة بالبر بلسان من الرمل وكان هذا الحصن في يد العرب إلى سنة ١٢٣٣ إذ أخذه منهم جاك الأول ملك أراغون.

(٥) هي بالاسبانيول Abicha.

رأسه، وهو صعب جداً. ومنه إلى مدينة «بوريانه»[1] غرباً ٢٥ ميلاً ومدينة بوريانه مدينة جليلة عامرة كثيرة الخصب والأشجار والكروم، وهي في مستو من الأرض، وبينها وبين البحر نحو من ثلاثة أميال. ومن بوريانه إلى «مرباطر»[2] وهي قرى عامرة وأشجار ومستغلات، ومياه متدفقة، ٦٠ ميلاً، وكل هذه الضياع والأشجار على مقربة من البحر. ومنها إلى «بلنسية» غرباً ١٢ ميلاً.

ومدينة بلنسية قاعدة من قواعد الأندلس، وهي في مستو من الأرض، عامرة القطر، كثيرة التجار والعمار، وبها أسواق وتجارات، وحط واقلاع، وبينها وبين البحر ٣ آميال مع النهر، وهي على نهر جار ينتفع به، ويسقى المزارع، ولها عليه بساتين وجنات، وعمارات متصلة. ومن مدينة بلنسية إلى مدينة سرقسطة ٩ مراحل على «كتندة»[3] وبين بلنسية وكتندة ٣ أيام، ومن كتندة إلى «حصن الرياحين» مرحلتان، وهو حصن كثير الخلق عامر بذاته. ومن حصن الرياحين «القنت»[4] يومان، ومن مدينة بلنسية إلى جزيرة «شقر»[5] ١٨ ميلاً، وهي على نهر شقر وجزيرة شقر المذكورة حسنة البقاع، كثيرة الأشجار والأثمار والأنهار، وبها ناس وجلّة، وهي على قارعة الطريق الشارع إلى مرسية. ومن جزيرة شقر إلى «شاطبة»[6] ١٢ ميلاً. ومدينة شاطبة مدينة حسنة، ولها قصاب، يضرب بها المثل في الحسن والمنعة ويعمل بها من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض، ويعم المشارق والمغارب ومن شاطبة إلى «دانية»[7] ٢٥ ميلاً، وكذلك من شاطبة إلى بلنسية ٣٢ ميلاً،

---

(١) الاسبانيول يقولون لبوريانة Burriano أي بوريانة بالتشديد. وتأمل في ما ورد في دليل بديكر في كلامه على البلاد التي بين طرطوشة وبلنسية قال: إن قسطلون البلانة Castellon De La Plana هي مدينة زاهرة سكانها ٢٨ ألف نسمة وهي مركز تجارة للبرتقال ولها فرضة على البحر اسمها «غراو» والقطار الحديدي يمر منها في مكان اسمه المجرّ Migares على جسر ثلاثة عشر قوساً راكب فوق قناة قسطلون المشتقة من النهر. وهذه التحفة البديعة من بدائع هندسة العرب تسقي تلك الأراضي منذ ستمائة سنة ثم تفيض من هناك إلى مدينة فيلاريال Villarreal وهي مدينة سكانها ١٦ ألفاً ويوجد فيها بساتين البرتقال وبينها بعض أشجار النخل والنساء تحمل هناك أباريق غريبة ترجع إلى عهد قديم، ثم إن مياه المجر هذا لا تزال تتوزع على الأراضي إلى بوريانة التي هي أيضاً من الأماكن المشهورة بالبرتقال.

(٢) Murbiter أو Merviedero.

(٣) الاسبانيول يقولون Ceutenda.

(٤) الاسبانيول يقولون Alicante.

(٥) الاسبانيول يقولون Rio Jucar أي نهر شقر وعليه بلدة اسمها الصيرة والعرب يسمونها جزيرة شقر والصيرة وهي تحريف الجزيرة.

(٦) الاسبانيول يقولون لها Jatiba ويقلبون الجيم خاء على عادتهم.

(٧) Denia ولا بد من لفظ الألف بالإمالة حتى يفهم الاسبانيولي أن المراد هو هذه البلدة. ومن المعلوم =

وكذلك من بلنسية إلى مدينة دانية، على البحر مع الجون ٦٥ ميلاً ومن بلنسية إلى حصن « قلييرة»[١] ٢٥ ميلاً، وحصن قلييرة قد أحدق البحر به، وهو حصن منيع، على موقع نهر شقر، ومنه إلى مدينة دانية ٤٠ ميلاً ومدينة دانية على البحر عامرة حسنة، لها ربض عامر، وعليها سور حصين، وسورها من ناحية المشرق في داخل البحر، قد بني بهندسة وحكمة، ولها قصبة منيعة جداً، وهي على عمارة متصلة وشجرات تين كثيرة وكروم، وهي مدينة تسافر إليها السفن، وبها ينشأ أكثرها، لأنها دار إنشاء السفن، ومنها تخرج السفن إلى أقصى المشرق، ومنها يخرج الأسطول للغزو، وفي الجنوب منها جبل عظيم مستدير يظهر من أعلاه جبال «يابسة»[٢] في البحر، ويسمى هذا الجبل جبل قاعون[٣].

ومن مدينة شاطبة إلى بكيران غرباً ٤٠ ميلاً، وحصن «بكيران»[٤] حصن منيع عامر كالمدينة، وله سوق مشهودة، وحوله عمارات متصلة، تصنع به ثياب بيض تباع بالأثمان الغالية، ويعمر الثوب منها سنين كثيرة، وهي من أبدع الثياب عتاقة ورقة، حتى لا يفرق بينها وبين الكاغد في الرقة والبياض. ومن بكيران إلى دانية ٤٠ ميلاً. ومن حصين بكيران إلى مدينة «الش» ٤٠ ميلاً. ومدينة الش [٥] مدينة في مستو من الأرض، ويشقها خليج يأتي إليها من نهرها، يدخل المدينة من تحت السور، فيتصرفون فيه، ويجري في حمامها، ويشق أسواقها وطرقاتها، وهو نهر مليح سبخي، وشرب أهل المدينة من الخوابي، يجلب إليها من خارجها، ومياهها المشروبة من مياه السماء. ومن مدينة الش إلى مدينة «أريوالة»[٦] ٢٨ ميلاً، ومدينة أوريولة على ضفة النهر الأبيض هو نهرها ونهر مرسية، وسورها من ناحية الغرب على جريته، ولها قنطرة على قوارب، يدخل إليها منها، ولها قصبة في نهاية من الامتناع، على قنة جبل، ولها بساتين وجنات، ورياضات دانية، وبها من الفواكه ما لا تحصيل له، وبها رخاء شامل، وبها أسواق وضياع. وبين أوريولة والبحر

= أن عرب الأندلس كان أكثر لفظهم بالإمالة. ولما كنت في الأندلس أردت الذهاب من القنت إلى دانية فلفظت هذه بغير إمالة لأجل قطع تذكرة السفر فلم يفهموا مني في بادىء الأمر.

(١) دوزي يقول إنه «كوليره» Cullera.

(٢) يابسة هي جزيرة Ibiza أعلى قمة فيها تعلو ٤٧٥ متراً.

(٣) Càoun.

(٤) حصن بكيران هو في جنوبي شاطبة والاسبانيول يكتبونه Bocayrant.

(٥) Elche وهي ذات النخل وسيأتي الكلام عنها. وأظن بني الألشي في دمشق أصلهم منها.

(٦) هي بالاسبانيولي أوريواله Orihuela والعرب يقولون لها أريوله وربما يضعون الواو بعد الألف ولكن وردت في جغرافية الإدريسي وغيره بزيادة ألف بعد الواو أي أريوالة وتكررت على هذا الشكل ويقال لهذه البلدة تدمير باسم الأمير الذي كان فيها يوم أخذها منه العرب صلحاً.

٢٠ ميلاً. وبين أوريولة ومدينة مرسية ١٢٠ ميلاً، ومن مدينة أوريولة إلى «قرطاجنة» ٤٥ ميلاً.

ومن مدينة دانية المتقدم ذكرها على الساحل إلى مدينة «لَقَنت»[١] غرباً على البحر ٧٠ ميلاً. ولقنت مدينة صغيرة عامرة، وبها سوق ومسجد جامع ومنبر ويتجهز منها بالحلفاء إلى جميع بلاد البحر. وبها فواكه وبقل كثير وتين وأعناب ولها قصبة منيعة عالية جداً في أعلى جبل[٢]، يصعد إليه بمشقة وتعب، وهي أيضاً مع صغرها تنشأ بها المراكب السفرية والحراريق. وبالقرب من هذه المدينة، وبالقرب منها، جزيرة تسمى «ابلناصة»[٣] وهي على ميل من البر، وهي مرسى حسن، وهى مكمن لمراكب العدو، وهي تقابل «طرف الناظور»[٤]، ومن طرف الناظور إلى مدينة القنت ١٠ أميال، ومن مدينة القنت في البر إلى مدينة الش مرحلة خفيفة، ومن مدينة القنت إلى «حلوق بالش»[٥] ٥٧ ميلاً وبالش مع مراسي افواه أودية تدخلها المراكب ومن بالش إلى جزيرة الفيران[٦] ميل. وبين هذه الجزيرة والبر ميل ونصف، ومنها إلى طرف «القيطال»[٧] ١٢ ميلاً، ومنه إلى «برتمان»[٨] الكبير، وهو مرسى، ٣٠ ميلاً، ومنه إلى مدينة «قرطاجنة»[٩] ١٢ ميلاً. ومدينة قرطاجنة، وهي فرضة مدينة مرسية. وهي مدينة قديمة أزلية، لها مرسى ترسي بها المراكب الكبار والصغار، وهي كثيرة الخصب والرخاء المتتابع، ولها إقليم يسمى «الفندون»[١٠]وقليل ما يوجد مثاله في طيب الأرض، وجودة نمو الزرع فيه، ويحكى أن الزرع فيه يثمر بسقي مرة واحدة، وإليه المنتهى في الجودة.

ومن مدينة قرطاجنة على الساحل إلى «شجانة»[١١] ٢٤ ميلاً، وهو مرسى حسن وعليه بقربه قرية، ومنه إلى حصن «آقلة»[١٢] ١٢ ميلاً، وهو حصن صغير على البحر، وهو فرضة

(١) الاسبانيول يقولون آليكنت Alicante والعرب يقولون القنت والـلام وأحياناً لقنت بلام دون ألف وجميع هذه المدن سيأتي الكلام عليها في مواضعها.
(٢) الاسبانيول يقولون لهذه القصبة التي بأعلى الجبل حصن «سانتا بربارة» Castillo De Santa Barbara.
(٣) هنا خطأ في النسخ ولا يوجد ابلناصه وإنما الجزيرة اسمها بلانة وهي في جنوبي القنت.
(٤) طرف الناظور هو سانتا بولو Santa Polo.
(٥) بالش هي Bélich ومرساها يقول له الاسبانيول Mar Menor.
(٦) اسم هذه الجزيرة عند الاسبان Isla Grosa.
(٧) القيطال Cap De Palos.
(٨) برتمان الكبير هو عند الأسبان Puerto Pormann وكان يقال له أيام الرومان Pertus Magnus.
(٩) أحسن مرسى في اسبانية وسيأتي ذكرها.
(١٠) يظن دوزي أنه واقع تحريف لم يظهر معه أصل الكلمة.
(١١) Chadjena.
(١٢) جاء في دليل بديكر عند ذكر مدينة لورقة قال إن سكانها ٣٠ ألف نسمة وكانت تسمى إلوكرو Ilucro=

«لورقة»، وبينهما في البر ٢٥ ميلاً. ومن حصن آقلة إلى وادي «بيرَة»[1] في قعر الجون ٤٢ ميلاً. وعلى مصب النهر جبل كبير وعليه حصن بيرة المطلّ على البحر، ومن الوادي إلى الجزيرة المسماة «قربُنيرة»[2] ١٢ ميلاً، ثم إلى «الرصيف» ستة أميال، ثم إلى «الشامة البيضاء» ثمانية أيام، ثم إلى طرف «قابطة[3] ابن أسود» ستة أميال. ومن طرف القابضة إلى المرية ١٢ ميلاً. ومن مدينة قرطاجنة إلى مرسية في البر ٤٠ ميلاً.

ومدينة مرسية قاعدة أرض تدمير. وهي في مستو من الأرض، على النهر الأبيض، ولها ربض عامر آهل، وعليها وعلى ربضها أسوار حصينة، وحظائر متقنة والماء يشق ربضها، وهي على ضفة النهر المعروف، ويجاز إليها على قنطرة مصنوعة من المراكب. ولها أرحاء طاحنة في المراكب، مثل طواحن سرقسطة. التي هي تركب في مراكب تنتقل من موضع إلى موضع، وبها من البساتين والأشجار والعمارات ما لا يوجد بتحصيل، ولها كروم، وبها شجر التين كثير، ولها حصون وقلاع وقواعد وأقاليم معدومة المثال ومن مدينة مرسية إلى مدينة بلنسية خمس مراحل، ومن مرسية إلى المرية على الساحل ٥ مراحل، ومن مرسية إلى قرطبة عشر مراحل، ومن مرسية إلى حصن شقورة[4] ، ٤ مراحل، ومن

= في زمن الرومانيين فقال العرب لها لورقة وهي مبنية إلى الشمال الغربي من شارات كانو، ويشقها وادي، «الأنطين» والبلدة القديمة لا تزال شوارعها ضيقة وهي تذهب صعدا فوق الصخور إلى أن تتصل بحصن عربي لا يزال ماثلاً وفيها كنيسة اسمها سنتامارية مبنية في المكان الذي خيم فيه الأذفونش الملقب بالحكيم قبل أن أخرج هذه البلدة من أيدي العرب سنة ١٢٣٤ وإلى الشمال شارات كانو والخط الحديدي يمر في مكان يقال له «نوغلت Nogalte» كان ميداناً للوقائع الشداد بين عرب غرناطة والمسيحيين وهناك على البحر مرسى آكيلاس اهـ فهذه هي آقلة التي يشير إليها الإدريسي.

(١) Véra جاء في كتاب «صفة مملكة غرناطة» المنقول عن «معيار الاختبار» لابن الخطيب ما يلي عن بيره هذه وضبطها بفتح فسكون: «بلدة صافية الجو رحيبة الدوح يسرح فيها البعير ويجم بها الشعير ويقصدها من مرسية واحوازها العير فساكنها بين تجر وابتغاء أجر، وواديها نيلي الفيوض والمدود، مصري التخوم والحدود، إن بلغ إلى الحد المحدود، فليس رزقه بالمحصور ولا بالمعدود، إلا أنها قليلة المطر، مقيمة على الخطر، مثلومة الأعراض والأسوار، مهطعة لداعي البوار، خليفة الحسن المغلوب، معللة بالماء المجلوب، آخذة بكظام القلوب، خاملة الدور، قليلة الوجوه والصدور، كثيرة المشاجرة والشرور، وذهل أهلها في الصلاة شائع في الجمهور، وسوء ملكة الأسرى من الذائع بها والمشهور».

(٢) Carbonéra.

(٣) Cap De Gata.

(٤) النهر الذي تشرب منه مرسية كان يقال له في القديم تادر Tader والاسبانيول يقولون له سيغوره Segura والعرب يقولون له شقورة وسيأتي الكلام على شقورة وغيرها تفصيلاً والإدريسي يسميه بالنهر الأبيض ودوزي يقول إن Guadalaviar الذي يمر ببلنسية هو النهر الأبيض وكذلك جاء في دليل بديكر ولكن تعريب Guadalaviar هو وادي الأبيار.

مرسية إلى «جنجالة»[1] ٥٠ ميلاً. ومدينة جنجالة متوسطة القدر، حصينة القلعة، منيعة الرقعة، ولها بساتين وأشجار وعليها حصن حسن، ويعمل بها من وطاء الصوف ما لا يمكن صنعه في غيرها باتفاق الماء والهواء، ولنسائها جمال فائق وحصافة.

ومن جنجاله إلى «كونكة» يومان، وهي مدينة أزلية صغيرة، على منقع ماء مصنوع قصداً، ولها سور، وليس لها ربض، ويصنع بها من الأوطية المتخذة من الصوف كل غريبة. ومن قونكة إلى قلصة[2] ثلاث مراحل شرقاً، وقلصة حصن منيع يتصل به أجبل كثيرة، بها شجر الصنوبر الكثير ويقطع بها الخشب ويلقى في الماء، ويحمل على دانية وإلى بلنسية في البحر، وذلك أنها تسير في النهر من قلصة إلى جزيرة شقر، ومن جزيرة شقر إلى حصن «قالبيره» وتفرّغ هناك على البحر، فتملأ منها المراكب، وتحمل إلى دانية، فتنشأ منها السفن الكبار، والمراكب الصغار، ويحمل إلى بلنسية منه ما كان عريضاً، فيصرف في الأبنية والديار. (ولا تزال عادة ارسال الخشب في النهر إلى جزيرة شقر إلى قلبيرة إلخ إلى يومنا هذا). ومن قلصة إلى شنت مارية ثلاث مراحل، وكذلك من قلصة إلى «الفنت» أيضاً مثل ذلك، ومن «قونكة»[3] إلى «وبذي»[4] ثلاث مراحل و «وبذي»

---

(١) يقول الاسبانيول لهذه البلدة شنشيلة Chinchilla وهي على ٢٩٨ كيلومتراً من مجريط وفيها يتلاقى خطان حديديان خط مرسية وخط قرطاجنة وهي مبنية على رابية عليها حصن وفي جوانبها كهوف يسكن فيها الناس ومنها يمتد الخط الحديدي إلى بلدة يقال لها «ألبره» على نحو ٤٠ كيلومتراً من جنجالة ثم إلى محل يقال له عند الأسبانيول ألمنصا Almansa ولا شك أنه محرف عن المصنع جاء في دليل بديكر أن هناك خزانا بناه العرب طوله ألفا متر وعرضه ألفا متر وعمقه ثمانون متراً وهو مبني على واد بين جانبيه سد وهناك حصن عربي مبني على حجر أبيض مشرف على السهل. قلت ولقد مررت على جنجالة والمصنع في طريقي إلى مرسية وأنا بالقطار وشاهدت هذا الخزان في أثناء المسير. وقد ضبط ياقوت الحموي اسم شنشالة بالتاء فقال شنتجالة وبخط الأشتوي شنتجيل بالياء. وسيأتي ذكرها في موضعه.

(٢) الخط الحديدي من مرسية يمر على قرية اسمها «غرنجة» ثم على «قلصة» ويقول لها الاسبانيول كاللوزه Callosa وهي بلدة صغيرة منظرها لا يزال عربياً مبنية بحذاء جندل كبير وفيها بيوت كثيرة منحوتة في الجندل وحولها برتقال ونخل. ولم يعرف دوزي قلصة هذه فوضع عليها علامة وقال إن أحرفها غير بينة وكتبها هكذا: Calaca.

(٣) يأتي المسافر من مجريط قاصداً إلى ساحل البحر عن طريق جنجالة فيمر ببلدة يقال لها «غيتاف» Getafe على ١٤ كيلومتراً من مجريط وبعد ذلك يمر ببلدة يقال لها «بنتو» Pinto ثم ببلدة يقال لها بلد مورو Valdemoro ـ ومن المعلوم أن المورو عند الأسبان هو المسلم ـ ثم إن الخط الحديدي يمر ببقعة مربعة مسقية يقال لها بقعة جرامة Jarama ومن هذا البقعة يصل المسافر إلى نهر تاجه وهناك بلدة يقال لها «أرنجويس» Arenjuez على مسافة ٥٠ كيلومتراً من مجريط ومنها يصل إلى مدينة قونكه وهي بلدة قديمة جداً كانت من مراكز العرب استرجعها من أيديهم الأذفونش الثامن سنة ١١٧٧ بعد حصار طويل وهي الآن قسمان المدينة القديمة والمدينة الجديدة وعدد سكانها ١٢ ألفاً والقديمة مبنية على صخور شامخة.

(٤) هي Huete.

و «اقليش»[١] مدينتان متوسطتان، ولها أقاليم ومزارع عامرة، وبين وبذي واقليش ١٨ ميلاً، ومن اقليش إلى شقورة ٣ مراحل وشقورة حصن كالمدينة، عامر بأهله، وهو في رأس جبل عظيم متصل، منيع الجهة، حسن البنية، ويخرج من أسفله نهران، أحدهما نهر قرطبه، المسمى بالنهر الكبير، والثاني هو النهر الأبيض الذي يمر بمرسية، وذلك أن النهر الذي يمر بقرطية يخرج من هذا الجبل من مجتمع مياه كالغدير، ظاهر في نفس الجبل، ثم يغوص تحت الجبل، ويخرج من مكان في أسفل الجبل، فيتصل جريه غرباً إلى جبل «نجدة»[٢]، إلى «غادرة»[٣]، إلى قرب مدينة «أُبذة»[٤]، إلى أسفل مدينة «بيّاسة»[٥]، إلى حصن «اندوجر»[٦]، إلى «القصير»[٧]، إلى «قنطرة اشتشان»[٨] ، إلى قرطبة إلى حصن «المدور»[٩] إلى حصن «الجُرف»[١٠]إلى حصن «لورة»[١١]إلى حصن «القليعة»[١٢]إلى حصن «قطنيانة»[١٣]إلى «الزّرّادة»[١٤]إلى اشبيلية، إلى «قبطال»[١٥]إلى «قبتور»[١٦]، إلى «طبرشانة»[١٧]، إلى «المساجد»[١٨]، إلى قادس، ثم إلى بحر الظلمات.

وأما النهر الأبيض الذي هو نهر مرسية فإنه يخرج من أصل الجبل، ويحكى أن أصلهما واحد، أعني نهر قرطبة ونهر مرسية. ثم يمر نهر مرسية في عين الجنوب إلى حصن «افرد»[١٩]، ثم إلى حصن «موله»[٢٠]، ثم إلى مرسية، ثم إلى أوريوالة إلى المدوّر، إلى البحر، ومن شقورة إلى مدينة «سرتة»[٢١] مرحلتان كبيرتان، وهي مدينة متوسطة القدر، حسنة البقعة، كثيرة الخصب، وبالمقربة منها حصن. . .[٢٢]، ومن حصن. . . إلى طليطلة مرحلتان. ومن أراد من مرسية إلى المرية سار من مرسية إلى قنطرة «اشكابة»[٢٣]

---

(١) أقليش هي Ucles. (٢) Nadjda.

(٣) Gadira. (٤) Ubeda. (٥) Baeza.

(٦) Andojar. (٧) Al- Kosair. (٨) Pont D'échtechàn. (٩) Almodovar.

(١٠) Aljorf. (١١) Lora. (١٢) Alcoléa. (١٣) Cantillana.

(١٤) Az- Zarrada. (١٥) Cabtal. (١٦) Cabtor. (١٧) Trébugena.

(١٨) يقول الأسبانيول للمساجد صان لوكار San- Locar ويقال إن أصلها Solus Lucos.

(١٩) Ferez. (٢٠) Mula.

(٢١) يقول لها الاسبانيول Almonacid De Zorita.

(٢٢) موضوع في الأصل بعد لفظة حصن ثلاث نقط. ثم موضوع جملة «ومن حصن» وبعدها أيضاً ثلاث نقط. وبعدها جملة «إلى طليطلة» وهذا في النسخة المطبوعة في ليدن المترجمة إلى الافرنسية بقلم دوزي وفي الحاشية مذكور أنه «حصن فتة» أو «فنة» أو «قيه» إشارة إلى أن اللفظة غير محققة. ثم إن دوزي يقول بعد هذا إن هذا البلدة هو الذي يقال له Hita Calatrava.

(٢٣) قنطرة اشكابة هي Cantarilla.

إلى حصن «لبرالة» [١] إلى حصن «الحمّة» [٢] إلى مدينة «لورقة» [٣] ، وهي مدينة غراء حصينة، على ظهر جبل ولها أسواق وربض في أسفل المدينة، وعلى الربض سور، وفي الربض السوق، والرهادرة [٤]، وسوق العِطر، وبها معادن صفراء، ومعادن مغرة، تحمل إلى كثير من الأقطار. ومن حصن لورقة إلى مرسية ٤٠ ميلاً، ثم من لورقة إلى «آبار الرتبة» [٥] إلى «حصن بَيْرة» [٦] مرحلة، وهذا الحصن حصن منيع، على حافة مطلّة على البحر. ومن هذا الحصن إلى «عقبة شَقَر» [٧]، وهي عقبة صعبة المرقى، لا يقدر أحد على جوازها راكباً، وإنما يأخذها الركبان رجالة، ومن العقبة إلى «الرابطة» [٨] مرحلة، وليس هناك حصن ولا قرية، وإنما بها قصر به قوم حراس للطريق، ومن هذه الرابطة إلى المرية مرحلة خفيفة.

ومدينة المرية كانت في أيام الملثّم [٩] مدينة الإسلام، وكان بها من كل الصناعات كل غريبة، وذلك أنه كان بها من طرز الحرير ٨٠٠ طراز، يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والأصبهاني والجرجاني، والستور المكللة والثياب المعيّنة، والخُمُر والعتّابي، والمعاجر، وصنوف أنواع الحرير، وكانت المرية قبل الآن يصنع بها من صنوف الآلات النحاس والحديد، إلى سائر الصناعات، ما لا يحدّ ولا يُكيّف، وكان بها من فواكه واديها الشيء الكثير الرخيص، وهذا الوادي المنسوب إلى بجانة Bichêna بينه وبين المرية ٤ أميال، وحوله جنات وبساتين وأرحاء، وجميع نِعَمها وفواكهها تجلب إلى المرية، وكانت المرية إليها تقصد مراكب البحر من الاسكندرية والشام كله، ولم يكن بالأندلس كلها أيسر من أهلها مالاً. ولا أتجر منهم في الصناعات وأصناف التجارات تصريفاً وادخاراً.

والمرية في ذاتها جبلان وبينهما خندق معمور، وعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة، والجبل الثاني منهما فيه رَبَضها ويسمى جبل «لاهم» Lahem والسور يحيط بالمدينة وبالربض. ولها أبواب عدة ولها من الجانب الغربي ربض كبير عامر يسمى

(١) Lebrilla.

(٢) الحمة يقول لها الأسبانيول Alhama وفي الأندلس حمات متعددة.

(٣) تقدم ذكرها وسيأتي مرة أخرى.

(٤) لم يظهر لنا معنى هذه اللفظة ونظنها من تحريف النساخ.

(٥) Ar- Rataba ومن يقرأ «الرتبة» يظنها لأول وهلة بالضم فالسكون أي المنزلة والحال أنها محركة بفتح الأول والثاني والثالث فالرتبة هي الخلل الذي بين الأصابع.

(٦) هي التي تقدم ذكرها وتلفظ بفتح أولها وهي غير البيرة المشهورة التي منها مدينة غرناطة.

(٧) Mujacar.

(٨) Arrabita.

(٩) أي أيام دولة المرابطين يوسف بن تاشفين ورهطه.

ربض الحوض، وهو ربض له سور عامر بالأسواق والديار والفنادق والحمامات. والمدينة في ذاتها مدينة كبيرة كثيرة التجارات، والمسافرون إليها كثيرون وكان أهلها مياسير، ولم يكن في بلاد أهل الأندلس أحضر من أهلها نقداً، ولا أوسع منهم أحوالاً. وعدد فنادقها التي أخذها عد الديوان في التعيين الف فندق، إلا ثلاثين فندقاً، وكان بها من الطرز أعداد كثيرة، قدمنا ذكرها. وموضع المرية من كل جهة استدارت به صخور مكدَّسة، وأحجار صلبة مضرَّسة، لا تراب بها، كأنما غُربلت أرضها من التراب وقصد موضعها بالحجر، والمرية في هذا الوقت الذي ألَّفنا كتابنا فيه، صارت ملكاً بأيدي الروم، وقد غيروا محاسنها وسبوا أهلها. وخرَّبوا ديارها، وهدموا مشيّد بنيانها، ولم يبقوا على شيء[1] منها. وللمرية منابر منها مدينة برجة[2] ودلاية[3]. وبين المرية وبرجة مرحلة كبيرة. وبين برجة ودلاية

(١) إن الشريف آبا عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس الحمودي الحسني المعروف بالشريف الإدريسي ولد سنة ٤٩٣ للهجرة وفق ١١٠٠ للميلاد وكانت ولادته في سبتة وقد توفي سنة ٥٦٠ للهجرة وفق ١١٦٦ للميلاد وقد حصل العلم في قرطبة ولذلك قيل له القرطبي ولما اتصل بخدمة رجار الثاني ملك صقيلية قيل له الصقيلي وقد صنع للملك المذكور قبل وفاته بقليل صورة للأرض كانت أكمل ما عرف لذلك العهد وكرة أرضية من فضة وألف كتابه هذا «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وقد أكمل تأليفه قبل سنة ٥٤٨. وأما استيلاء العدو على مدينة المرية فقد كان يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٥٤٢ أي قبل تأليف كتاب الإدريسي هذا بست سنوات واستشهد في وقعة الاستيلاء عليها الإمام الرشاطي المحدث الكبير صاحب كتاب «اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في نسب الصحابة ورواة الآثار» وهو أبو محمد عبدالله بن علي بن عبدالله بن علي بن خلف ابن أحمد بن عمر اللخمي الرشاطي المري جاء في نفح الطيب أنه بعد أخذ النصارى مدينة المرية هذه المرة رجعت إلى ملك المسلمين واستنقذها الله تعالى على يد الموحدين وبقيت في أيدي الإسلام سنين. وكان أول الولاة عليها حين استولى عليها أمير المسلمين عبد المؤمن بن علي رجلاً يقال له يوسف بن مخلوف فثار عليه أهل المرية وقتلوه وقدموا على أنفسهم الرميمي فأخذها النصارى منه عنوة وأحصى عدد من سبي من أبكارها فكان ١٤ ألفاً. قال في النفح: ولما أخذت المرية أقبل إليها السيدان أبو حفص وأبو سعيد ابنا أمير المؤمنين عبد المؤمن فحصرا النصارى بها وزحف إليها أبو عبدالله بن مردنيش ملك شرق الأندلس محارباً لهما فكانا يقاتلان النصارى والمسلمين داخلاً وخارجاً. ثم رأى ابن مردنيش العار على نفسه في قتالهما مع كونهما يقاتلان النصارى فارتحل فقال النصارى: ما ارتحل ابن مردنيش إلا وقد جاءهم مدد فاصطلحوا ودخل الموحدون المدينة وقد خربت وضعفت إلى أن أحيى رمقها الرئيس أبو العباس أحمد بن كمال واشتهر من ولاتها في مدة بني عبد المؤمن في المائة السابعة الأمير أبو عمران بن أبي حفص عم ملك أفريقية أبي زكريا ثم استبد بأمر المرية أحد بنى الرميمي الذين أخذ النصارى البلدة من جدهم ثم آلت إلى بني الأحمر أصحاب غرناطة. ثم ذهبت فيما ذهب من ملكهم عندما انطوى بساط الأندلس والله غالب على أمره انتهى ملخصاً وسنأتي على هذه الوقائع بتفصيل عندما نصل إلى التاريخ إن شاء الله.

(٢) Berja.

(٣) Dalias عند الاسبانيول. وسيأتي ذكر برجة ودلاية.

نحو من ٨ أميال. وبرجة أكبر من دلاية، ولها أسواق وصناعات وحروث ومزارع. ومن المرية لمن أراد مالقة طريقان، طريق في البرّ وهو تحليق[١] وهو ٧ أيام والطريق الآخر في البحر وهو ١٨٠ ميلاً. وذلك أنك تخرج من المرية إلى قرية البجانس[٢] على البحر ستة أميال، ومن قرية البجانس يمر الطريق في البر إلى برجة ودلاية. ومن قرية البجانس إلى آخر الجون، وعليه برج مبني بالحجارة، مصنوع لوقيد النار فيه عند ظهور العدو في البحر[٣]، ستة أميال، ومن هذا الطرف إلى مرسى البيرة ٣٢ ميلاً، ومنه إلى قرية «عذرة»[٤] على البحر ١٢ ميلاً. وقرية عذرة مدينة صغيرة لا سوق لها، وبها الحمام والفندق، وبها بشر كثيرة، وبغربيها ينزل نهر كبير، منبعه من جبل شلير، ويجتمع بمياه برجع وغيرها فيصب عند عذرة في البحر، ومن عذرة إلى قرية «بليسانة»[٥] ٢٠ ميلاً، وهي قرية آهلة على شاطىء البحر، ومنها إلى «مرسى الفروج»[٦]، ١٢ ميلاً، وهو مرسى كالحوط صغير. ومنه إلى قرية «بطرنه»[٧] ٦ أميال، وبها معدن التوتية التي فاقت جميع معادن التوتية طيباً، ومنها إلى قرية «شلبونة»[٨] ١٢ ميلاً، ومن شلبونة إلى مدينة المنكّب في البحر ٨ أميال.

(١) لعله يريد الارتفاع والدوران لأنه طريق في الجبال.

(٢) لم نهتد إلى معرفة هذه القرية ولا اهتدى دوزي.

(٣) عندما ذهبنا من مالقة إلى الجزيرة الخضراء بالسيارة الكهربائية على شاطىء البحر لم نكن نجتاز أكثر من خمسمائة متر حتى نرى برجا مخروطي الشكل على أكمة مشرفة على البحر أشبه بمنارة مسجد. فهذه الأبراج كانت في القديم توقد في رؤوسها النيران إذا طرق العدو البلاد وكانت تقابلها أبراج في الداخل فمتى شاهد الناس النيران خفوا إلى محل الواقعة. وأما البرج الذي يذكره الإدريسي هنا فيقول له الاسبانيول Puenta Elema.

(٤) هذه القرية هي المرسى الذي ركب منه أبو عبدالله محمد بن الأحمر آخر ملوك المسلمين في الأندلس قاصداً إلى المغرب فرسى به السفين بمرسى مليلة وهذا حسبما جاء في كتاب «أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر» الذي لم يذكر اسم مؤلفه وقد عثرنا على نسخة منه مطبوعة بمدينة منيخ الألمانية سنة ١٨٦٣ مع ترجمة ألمانية وحواش للمستشرق الألماني «مارك يوس موللر» وطبعناه مضافاً إلى الطبعة الثانية من كتابنا مختصر تاريخ الأندلس تذييلاً على ترجمتنا لـ «آخر بني سراج» وقد طبع كتابنا هذا أول مرة سنة ١٣١٥ وثاني مرة سنة ١٣٤٣ وسنأثر عنه وعن «أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر» عند الوصول إلى القسم التاريخي من «الحلل السندسية» لا سيما أن مؤلف هذا الكتاب قد ألفه سنة ٩٤٧ أي قبل تأليف نفح الطيب بنحو من ٩٣ سنة وكان حياً في أثناء الكائنة الأندلسية على أثر سقوط غرناطة واحتضار حشاشة الإسلام في الأندلس كما يظهر من تاريخ كتابه. والاسبانيول يقولون لهذه القرية Adra.

(٥) هي عند الاسبانيول Torre De Mélicena.

(٦) هو المسمى Castillo De Ferro.

(٧) هي Paterna عند الاسبان.

(٨) هي عند الاسبان Salobréna والعرب تقول لها في الغالب «شلوبانية» ونظراً للإمالة في لهجة الأندلس =

و «المنكّب»[1] مدينة حسنة متوسطة كثيرة مصايد السمك، وبها فواكه جمّة، وفي وسطها بناء مربّع قائم كالصنم أسفله واسع، وأعلاه ضيّق، وبه حفيران من جانبيه متصلان من أسفله إلى أعلاه وبإزائه من الناحية الواحدة في الأرض حوض كبير يأتي إليه الماء من نهر ميل، على ظهر قناطر كثيرة معقودة من الحجر الصلد فيصب ماؤه في ذلك الحوض، ويذكر أهل المعرفة من أهل المنكّب أن ذلك الماء كان يصعد إلى أعلى النار، وينزل من الناحية الأخرى، فيجري هناك إلى رحى صغيرة كانت، وبقي موضعه الآن على جبل مطل على البحر، ولا يعلم أحد ما المراد بذلك؟

ومن مدينة المنكب في البر إلى مدينة أغرناطة ٤٠ ميلاً، ومن المنكّب على البحر إلى قرية «شاط»[2] ١٢ ميلاً، وبقرية شاط زبيب حسن الصفة، كبير المقدار أحمر اللون، يصحب طعمه مرارة، ويتجّهز به إلى كل البلاد الأندلسية. وهو منسوب إلى هذه القرية. ومن قرية شاط إلى قرية «طرُش»[3] على ضفة البحر ١٢ ميلاً. ومنها إلى قصبة «مرّية بِلِّيش»[4] ١٢ ميلاً، وهو حصن على ضفة البحر صغير المقدار ويصب بمقربة منه في جهة المغرب نهر الملاحة، وهو نهر يأتي من ناحية الشمال، فيمّر بالحمّة، ويتصل باحواز حصن صالحة[5]، فيقع فيه هناك جميع مياه صالحة، وتنزل إلى قرية «الفشاط»[6] وتصب هناك في غربي حصن مرّية بلش في البحر، ومن مرّية بلش إلى قرية «الصيرة» ولها طرف

= فقد يقولون «شلوبينية» وهكذا ضبطها ياقوت في معجم البلدان. وأما لسان الدين بن الخطيب فكتبها بالألف لا بالياء وسنذكر وصفه لها وقال ياقوت: هي من أعمال كورة البيرة على شاطىء البحر كثيرة الموز وقصب السكر والشاه بلوط. قال: ينسب إليها أبو علي عمر بن محمد بن محمد بن عمر الأزدي النحوي إمام عظيم مقيم بأشبيلية وهو حي أو مات عن قريب أخبرني خيره أبو عبدالله محمد ابن عبدالله المرسي يعرف بأبي الفضل وكان من تلاميذه. اهـ. قلت: هو أبو علي الشلوبيني النحوي المشهور وكان يقال له أبو علي الشلوبين وقد مات ياقوت الحموي وهو حي بل أبو علي الشلوبين عاش بعد ياقوت ١٩ سنة لأن ياقوت مات سنة ٦٢٦ والشلوبين مات سنة ٦٤٥ بين يدي حصار الاسبانيول لأشبيلية قبل أخذهم أياها بقليل.

(١) يقول لها الاسبانيول Almunécar.

(٢) شاط يقول لها الاسبانيول Jete.

(٣) يقول لها الاسبان Turrox.

(٤) إن دوزي يرى في لفظة «مرية» عند عرب الأندلس معنى البرج الذي «يرى» منه أو الذي توقد فيه النار إذا طرق العدو. فقول الإدريسي «مرية بلش» معناه البرج الخاص بهذا الأمر من أبراج بلش البحرية ويستشهد على صحة رأيه بقول البكري «مرية بجانة» وأما بلش هذه فهي بلش مالقة ويقال لها عند الاسبان Velez ويقال لهذه المرية Torre Del Marre.

(٥) الاسبان يسمونه Saliha أو Zalia وقد خرب من بعد جلاء العرب عن غرناطة.

(٦) Al- Fachat.

يدخل في البحر، ٧ أميال. ومن طرف قرية الصيرة إلى قرية «بزليانة»[١] ٧ أميال.

وهي قرية كالمدينة في مستو من الأرض، وأرضها رمل، وبها الحمام والفنادق وشباك يصاد بها الحوت الكثير، ويحمل منها إلى تلك الجهات المجاورة لها، ومن بزليانه إلى مدينة مالقة[٢] ٨ أميال، ومدينة مالقة مدينة حسنة عامرة آهلة، كثيرة الديار، متسعة الأقطار، بهيّة كاملة سنيّة، أسواقها عامرة، ومتاجرها دائرة، ونعمها كثيرة، ولها فيما استدار بها من جميع جهاتها شجر التين المنسوب إلى ريّة وتينها يحمل إلى بلاد مصر والشام والعراق، وربما وصل إلى الهند، وهو من أحسن التين طيباً، وعذوباً، ولمدينة مالقة ربضان كبيران. ربض «فنتنالة»[٣] وربض «التّبانين»[٤] وشرب أهلها من مياه الآبار، وماؤها قريب الغور، كثير عذب، ولها واد يجري في أيام الشتاء والربيع، وليس بدائم الجري. وسنذكرها بعد هذا بحول الله تعالى وقوته.

ولنرجع الآن إلى ذكر مدينة المرّية فنقول: ان الطريق من مدينة المرية إلى اغرناطة البيرة، فمن أراد ذلك خرج من المرية إلى «بجّانة»[٥] ستة أميال، ومدينة بجّانة كانت المدينة المشهورة قبل المرية، فانتقل أهلها إلى المرية، فعمرت وخربت بجّانة، فلم يبق منها الآن إلا آثار بنيانها، ومسجد جامعها قائم بذاته، وحول بجّانة Pechina جنّات وبساتين، ومنتزّهات وكروم، وأموال كثيرة لأهل المرية وعلى يمين بجانة، وعلى ستة أميال منها «حصن الحمّة»[٦] والحمة في رأس جبل ويذكر المتجولون في أقطار الأرض أن ما مثل هذه الحمة في المعمور من الأرض وأتقن منها بناء ولا أسخن منها ماء، والمرضى والمُعَلّون يقصدون إليها من كل الجهات فيلزمون المقام بها إلى أن تستقلّ عللهم، ويشفوا من أمراضهم وكان أهل المدينة في أيام الربيع يدخلون إليها مع نسائهم وأولادهم باحتفال من المطاعم والمشارب والتوسع في الانفاق وربما بلغ المسكن بها في الشهر ثلاثة دنانير مرابطية، وأكثر وأقلّ. وجبال هذه الجهة كلها جِصٌّ يحتفر ويحرق، وينقل إلى المرية، وبه

---

(١) بزليانة عند الاسبانيول Les Ventas De Mesmiliana.

(٢) قال عنها ابن الخطيب في «معيار الاختبار» ما أقول في الدرة الوسيطة وفردوس هذه البسيطة أشهد لو كانت يوماً لكانت عيداً في الأيام تبعث لها بالسلام مدينة السلام وتلقي لها يد الاستسلام محاسن بلاد الإسلام أي دار وقطب مدار وهالة أبدار وكنز تحت جدار الخ، ويكتبها الاسبان Malaga وسيأتي وصفها مشبعاً.

(٣) ربض فنتانة في مالقة يقول له الاسبانيول Fontanella.

(٤) ربض التبانين أي أصحاب التبن.

(٥) Bachana أو Bechina.

(٦) الحمة التي هي هنا هي Al Hamma.

جميع عقد بنيانهم وتجصيصهم، وهو بها وعندهم كثير، رخيص لكثرته. ومن مدينة بجانة إلى قرية «بني عبدوس»[1] ٦ أميال، ومنها إلى حصن «مندوجر»[2] ٦ أميال، وبه المنزل لمن خرج من المرية، وهي مرحلة خفيفة. وحصن مندوجر على جبل تراب أحمر، والجبل على ضفة نهر، والمنزل في القرية منها، ويباع بها للمسافرين الخبز والسمك، وجميع الفواكه، كل شيء منها في إبَّانه. ثم إلى حمّة «غشّر»[3] ثم إلى الحمة المنسوبة إلى «وشتن»[4]، ومنها إلى «مرشانة»[5]، وهو على مجتمع النهرين، وهو من أمنع الحصون مكاناً، وأوثقها بنياناً، وأكثرها عمارة، ومنها إلى قرية «بلذوذ»[6]، ثم «حصن القصير»[7]، وهو حصن منيع جداً، على فم مضيق في الوادي، وليس لأحد جواز إلا بأسفل هذا الحصن، ومنه إلى خندق «فبير»[8]، ثم إلى «الرتبة»[9]، ثم إلى قرية «عبلة»[10]، وبها المنزل. ومن قرية عبلة إلى حصن «فنيانة»[11]، ثم إلى قرية «حنصل»[12]، ثم إلى أول فحص عبلة، وطول هذا الفحص ١٢ ميلاً، وليس به عوج ولا أمت، وعن شمال المارّ جبل شلير الثلج، وفي حضيض هذا الجبل حصون كثيرة، منها حصن «فرّيرة»[13] ينسب إليها الجوز، وذلك أن بها من الجوز شيئاً ينفرط في غير رض ولا يعدله في طعمه شيء من الجوز من غيرها من الأقطار.

ومن حصن هذا الجبل حصن «دِلر»[14]، وبه من الكمثري كل عجيبة، وذلك أن الكمثري به يكون منها في وزن الحبّة الواحدة رطل أندلسي، وأما الأعمّ منها فكمثرتان في رطل واحد، ولها مذاق عجيب. ومن آخر فحص عبلة إلى خندق آش، ثم إلى مدينة وادي آش[15] وهي مدينة متوسطة المقدار، ولها أسوار محدقة، ومكاسب مؤنقة، ومياه متدفقة،

---

(١) بني عبدوس يكتبها الاسبانيول Benabdoux.

(٢) Monto-jar.

(٣) هذه الحمة عرفها دوزي بأنها حمة أوجيجر Hamma Ujijar.

(٤) أما حمة «وشتن» فلم يعرفها ورجح تصحيف الاسم.

(٥) Merchena قال في دليل بديكر: مرشانة مدينة قديمة جداً أهلها اليوم ١٢ ألف نسمة مبنية في مكان مرتفع حولها أسوار مشعثة فيها قصور أدواق أركوس «اركش» وهي ملتقى خطي الحديد بين غرناطة وأشبيلية.

(٦) هي بالاسباني Bolud.

(٧) Al-Kosaïr.

(٨) خندق فبير هو Fabair.

(٩) Arrataba.

(١٠) Abla.

(١١) Finana.

(١٢) Conçol.

(١٣) Ferreira.

(١٤) Dilar.

(١٥) Guadix وهي من مشهورات مدن الأندلس قال عنها لسان الدين: هي مدينة الوطن ومناخ من عبر أو قطن للناس ما ظهر ولله ما بطن وضع سديد وبأس شديد ومعدن حديد ومحل عدة وعديد وبلد لا يعتل فيه إلا النسيم ومرأى يخجل منه الصباح الوسيم كثيرة الجداول والمذانب مخضرة الجوانب إلى الفواكه الكثيرة والكروم الأثيرة والسقي الذي يسد الخلة ويضاعف الغلة وسندها (مكان من جبلها =

ولها نهر صغير دائم الجري، ومنها إلى قرية «دشمة»[1] وبها المنزل. ومنها إلى «الرتبة» ثم إلى قرية «أفرافيدة»[2] ثم إلى قرية «ود»[3] وهي قرى متصلة. ومنها إلى مدينة أغرناطة ٨ أميال. ومدينة وادي آش رصيف يجتمع به طرق كثيرة، فمن أراد منها مدينة بسطة خرج منها إلى جبل عاصم[4] ثم إلى قرية. . .[5] إلى مدينة بسطة[6] وبينهما ٣٠ ميلاً. ومدينة بسطة متوسطة المقدار، حسنة الموضع، عامرة آهلة، لها أسوار حصينة، وسوق نظيفة وديار حسنة البناء، رائقة المغنى، وبها تجارات وفَعَلَة لضروب من الصناعات، وعلى مقربة منها حصن «طشكر»[7] الذي فاق جميع حصون الأندلس منعة، وعلواً ورفعة، وطيب تربة وهواء. وليس لأحد موضع يصعد منه إلى هذا الحصن إلا موضعان، وبين الموضع

= وسند الجبل هو ما دنا منه) معدن الحديد والحرير ومعقلها أهل للتاج والسرير وهي دار حساب وارث واكتساب وماؤها مجاج الجليد وهواؤها يذكي طبع البليد إلا أن ضعيفها يضيق عليه المعاش وناقهها يتعذر عليه الانتعاش وشيخها يخطو على قصبة الارتعاش فهي ذات برد وعكس وطرد إلخ وسنفي إن شاء الله بوصفها.

(١) هي دجمة أو دشمة لا فرق كما يقال أرجدونة وارشدونة والاسبان يكتبونها Déchima.

(٢) Afraferida.

(٣) هي بالأسبانيولي Wod.

(٤) لم يعرفه دوزي ولا نحن عرفنا عنه إلا أنه جبل عاصم.

(٥) يورا: بروا: فروا: بروه غير محقق هذا الاسم.

(٦) الاسبانيول يقولون بازه Baza وهي مدينة قديمة وقد ازدهرت كثيراً في أيام العرب وسكانها الآن ١٤ ألف نسمة قال لسان الدين عن هذه البلدة: «بسطة بلد خصيب ومدينة لها من اسمها نصيب (أي بسطة) دوحها متدلدل وطيب هوائها غير متبدل وناهيك من بلد اختص أهله بالمران في معالجة الزعفران وامتازوا به عن غيرهم من الجيران يتخلل مدينتها الجدول المتدافع الناقع للغلل النافع، ثياب أهلها بالعبير تتأرج وحورها تتجلى وتتبرج وولدانها في شط أنهارها المتعددة تتفرج ولها الفحص الذي يسافر فيه الطرف سعياً ولا تعدم السائمة به رياً ولا رعياً ولله در القائل:

في بلـدة عـودت نفسـي بهـا ... إذ فـي اسمهـا طـه ويـاسيـن
الجـأنـي الـدهـر إلـى عـالـم ... يـؤخـذ منـه العلـم والـديـن

إلا أن تربتها تفضح البناء، وإن صحبه الاعتناء، فأسوارها تسجد عند الإقامة، وخندقها لاكسارها تلقامة، ورياحها عاصفة، ورعودها قاصفة، والعدو فيها شديد الفتكات، معمل الحركات، وساكنها دائم الشكاة، وحدها فليل، وعزيزها لتوقع المكروه ذليل اهـ. قال هذه الجمل الأخيرة لأنها يوم وصفها ابن الخطيب كانت ثغراً من ثغور غرناطة. وفتحها فرديناند وايزابلا سنة ١٤٨٩ قبل فتحهما غرناطة بأربع سنوات ولا تزال المدافع التي فتحها بها معروضة وكنيستها صان مكسيمو هي في مكان المسجد الجامع ولا تزال آثار القصر العربي دار الحكومة ماثلة والخط الحديدي يمر منها إلى وادي آش بين شارات بسطة وجبلكون ويدور حتى لا ينزل إلى الوادي العميق المسمى بالغور Gor.

(٧) يقول له الاسبانيول Tixcar.

والموضع ١٢ ميلاً، على طرق مثل شراك النعل، ومدارج النمل، وبأعلاه الزرع والضرع والحصاد والمياه، وإليه الانتهاء في الخصب وجودة الحصانة. وكذلك من وادي آش إلى جيَّان ثلاث مراحل خفاف.

ومدينة جيان[(١)] حسنة كثيرة الخصب، رخيصة الأسعار، كثيرة اللحوم والعسل، ولها زائد على ثلاث آلاف قرية كلها يربَّى بها دود الحرير، وهي مدينة كثيرة العيون الجارية تحت سورها، ولها قصبة من أمنع القصاب وأحصنها يرتقى إليها على طريق مثل مدرج النمل، ويتصل بها جبل «كور»[(٢)]. وبمدينة جيّان بساتين وجنات، ومزارع وغلات القمح والشعير والباقلّاء وسائر الحبوب، وعلى ميل منها نهر «بلون»[(٣)] وهو نهر كبير، وعليه أرحاء كثيرة جداً، وبها مسجد جامع وجِلّة وعلماء. ومن مدينة جيّان إلى مدينة «بياسة»[(٤)] ٢٠ ميلاً، وبياسة تظهر من جيان، وجيّان تظهر من بياسة، وبياسة على كدية[(٥)] تراب مطلة على النهر الكبير المنحدر إلى قرطبة، وهي مدينة ذات أسوار وأسواق ومتاجر، وحولها زراعات، ومستغلات الزعفران بها كثيرة. ومنها إلى «أبذة»[(٦)] في جهة الشرق ٧ أميال وهي مدينة صغيرة، وعلى مقربة من النهر الكبير، لها مزارع وغلات قمح وشعير كثيرة جداً، وفيما بين جيان وبسطة ووادي آش حصون كثيرة، عامرة ممدّنة آهلة، لها خصب وغلال نافعة كثيرة، فمن ذلك أن بشرقي جيان وقبالة بياسة حصناً عظيماً يسمى شوذر (Joder) وإليه ينسب الخلاط الشوذري[(٧)] ومنه في الشرق إلى حصن «طوية»[(٨)] ١٢ ميلاً، ومنه إلى حصن «قيشاطة»[(٩)] وهو حصن كالمدينة له أسواق وربض عامر، وحمام وفنادق، وعليه جبل يقطع به من الخشب التي تخرط منه القصاع والمخابي والأطباق وغير ذلك، مما يعم بلاد الأندلس وأكثر بلاد المغرب أيضاً. وهذا الجبل يتصل ببسطة، وبين جيان وهذا الحصن مرحلتان، ومنه إلى وادي آش مرحلتان، ومنه إلى أغرناطة مرحلتان ومن وادي آش المتقدم ذكرها إلى أغرناطة ٤٠ ميلاً.

---

(١) سيرد ذكرها والاسبانيول يقولون لجيان خيان على عادتهم في قلب الجيم خاء.

(٢) Cour.

(٣) Guadabellon.

(٤) والاسبانيول يكتبونها Baeza وسيأتي ذكر هذه المدن كلها.

(٥) العرب يقولون كدية للتراب الغليظ الصلب.

(٦) Ubeda بلدة قديمة من زمن الايبيريين لكنها الآن ساقطة.

(٧) لم يعرف دوزي ما هو الخلاط الشوذري. ولا نحن عرفناه إلا أن يكون محرفاً عن الخليط وهو شراب من تمر وزبيب ويكون أهل هذا البلد يتقنونه فاشتهر بهم.

(٨) Toyo.

(٩) بالاسبانيولي «كيساده» Quesada والخط الحديدي يمتد من بياسة إلى ابدة إلى شوذر إلى قيشاطة.

ومدينة أغرناطة محدثة من أيام الثوار بالأندلس، وإنما كانت المدينة المقصودة البيرة (Vera)، فخلت وانتقل أهلها إلى أغرناطة، ومدّنها وحصّن أسوارها وبنى قصبتها حيّوس الصنهاجي[1]، ثم خلفه ابنه بادس بن حيوس، فكملت في أيامه وعمرت إلى الآن. وهي مدينة يشقها نهر يسمّى «حدرّو»[2] وعلى جنوبها نهر الثلج المسمى «شنيل»[3] ومبدأُه من جبل شلير، وهو جبل الثلج، وذلك أن هذا الجبل طوله يومان وعلوه في غاية الارتفاع، والثلج به دائماً في الشتاء والصيف: ووادي آش وأغرناطة في شمالي الجبل، ووجه الجبل الجنوبي مطل على البحر، يرى من البحر على مجرى (. . . بياض بالأصل) ونحوه وفي أسفله من ناحية البحر برجة ودلاّية، وقد ذكرناهما في ما سبق. ومن أغرناطة إلى مدينة المنكّب على البحر ٤٠ ميلاً، ومن أغرناطة إلى مدينة «لوشة»[4] مع جرية النهر ٢٥ ميلاً. ومن المنكّب إلى مدينة المرية ١٠٠ ميل في البحر، ومن المنكّب إلى مدينة مالقة ٨٠ ميلاً.

ومدينة مالقة مدينة حسنة حصينة ويعلوها جبل يسمّى جبل «فأره»[5]، ولها قصبة منيعة وربضان، لا أسوارلها، وبها فنادق وحمامات، وبها من شجر التين ما ليس بأرض[6]، وهو التين المنسوب إلى ريّة. ومالقة قاعدة ريّة، ومن مالقة إلى قرطبة في جهة الشمال أربعة أيام، ومن مالقة أيضاً إلى غرناطة ٨٠ ميلاً. ومن مالقة إلى الجزيرة الخضراء مائة ميل، ومن مالقة إلى اشبيلية خمسة مراحل، ومن مالقة إلى «مُرْبَلّة»[7] في طريق الجزيرة الخضراء ٤٠ ميلاً، ومُربَلّة مدينة صغيرة متحضّرة، ولها عمارات وأشجار تين

---

(١) سيأتي خبره في باب التاريخ.

(٢) الاسبانيول يقولون له «درّو» Darro.

(٣) Xenil.

(٤) الاسبانيول يقولون: لوجه ويسمونها بسان فرنسيسكو وموقعها جميل في سفح جبل على الضفة الجنوبية من نهر شنيل وكانت أعمر مما هي الآن في أيام العرب وكان يقال إن لوشة والحمة هما مفتاحا غرناطة. وقد استولى فرديناند وايزابلة على لوشة بمساعدة جيش من الانكليز وذلك سنة ١٤٨٨ ولا تزال في لوشة بقايا آثار العرب.

(٥) الاسبانيول يقولون للأكمة التي عليها حصن مالقة Gibral- Faro وليس بينه وبين البحر إلا مسافة أمتار معدودة وقد صعدت إلى هذا الحصن ورأيته لا يزال على ما كان أيام العرب.

(٦) قال الشاعر:

مالقة حييت يا تينها ... السفن من أجلك ياتينها

نهى طبيبي عنه في علتي ... ما لطبيبي عن حياتي نهى!

(٧) هي Marbella على الطريق بين مالقة والجزيرة الخضراء وقد قطعنا هذه الطريق بالسيارة الكهربائية والذي أتذكره أننا بقينا ست ساعات من مالقة إلى الجزيرة.

كثيرة، وفي الشمال منها قلعة «بُبَشتر»[1]، وهي قلعة في نهاية الامتناع والتحصين، والصعود إليها على طريق صعب.

وأما ما بين مالقة وقرطبة من الحصون المانعة التي هي حواضر في تلك النواحي فمنها مدينة «ارشذونه»[2] و «انتقيرة»[3]، وبينها وبين مالقه ٣٥ ميلاً. وكانت ارشذونة هذه وانتقيرة مدينتين أخلتهما الفتن في زمان الثوار بالأندلس. بعد دولة ابن أبي عامر القائم لدولة بني أمية. ومن ارشذونة إلى حصن «اشِر»[4] ٢٠ ميلاً وهو حصن حسن حصين، كثير العمارة آهل، وله سوق مشهورة، ومنه إلى باغُه[5] ١٨ ميلاً، وباغُه مدينة صغيرة القدر، لكنها في غاية الحسن، لكثرة مياهها، والماء يشق بلدها، وعليه الارحاء داخل المدينة، ولها من الكروم والأشجار ما لا مزيد عليه، وهي في نهاية الخصب والرخاء. ويليها في جهة المشرق والحصن المسمى بـ «القبذاق»[6] وبينهما مرحلة خفيفة، وحصن القبذاق كبير عامر، وهو في سفح جبل ينظر إلى جهة الغرب، وبه سوق مشهورة، ومنه إلى حصن «بيّانة»[7] مرحلة صغيرة، وبيّانة حصن كبير في أعلى كدية تراب، قد حفّت بها أشجار الزيتون الكثيرة، ولها مزارع الحنطة والشعير. ومن حصن بيانة إلى «قبرة»[8] مرحلة

(١) يقول لها الاسبانيول Barbxter أو Bobastro.

(٢) وقد يكتبها العرب بالجيم أي أرجدونة وهكذا جاءت في «معيار الاختبار» لابن الخطيب الذي هجاها هجواً مراً فقال: شر دار، وطلل لم يبق منه إلا جدار، وقومها ذوو بطر وأشر، وشيوخها تيوس في مسالخ البشر. . . إلخ.

(٣) Ontequera بلدة في سفح شارات توركالس بديعة الموقع وهي بلدة زراعية فيها من السكان ٢٣ ألفاً وفي رأسها حصن عربي قديم وفيها برج يسمى اليوم بلوطة وبقرب هذه البلدة كانت الواقعة التي هزم فيها أبو عبدالله الزغل سلطان غرناطة جيشا اسبانيولياً بقيادة سيفونتس وأغيلار وذلك سنة ١٤٨٣.

(٤) الاسبانيول يكتبون هذا الاسم هكذا: Isnajar.

(٥) اسم هذه البلدة في القديم اباغنوم Epagnumm والعرب كانوا يقولون لها باغه والأسبانيول اليوم يقولون لها Priego.

(٦) بالاسبانيولي Alcabdzac ويقولون أيضاً Alkaudette.

(٧) إذا جاء المسافر من جيان إلى غرناطة بالسيارة مر بوادي «غواردية» الذي هو إلى الجنوب الشرقي ثم إنه يمر بشارات «اليسيانة» ثم بشارات الأنوار حيث هناك منظر جميل من جهة جبل الثلج شلير ثم يمر بشارات البيرة حتى ينتهي إلى مرج غرناطة وأما الخط الحديدي فيمر بغياض الزيتون الخاصة بجيان وينتهى إلى بلدة يقال لها الدون جيمينو ثم يصل إلى «مرتوس» ثم إلى بلدة يقال لها «الكوديت» (ويقال لها القبذاق) ثم يمر بالناحية التي يسقيها وادي الحوز Guadajoz ثم يصل إلى «لك» و «بيانة» Luque- Baena. فـ «لك» هي Luque قرية إلى الشمال وأما بيانة Baena فهي إلى الجنوب وهي بلدة سكانها ١٥ ألفاً. ومن هناك يمر الخط ببلدة «قبرة» Cabra وأصل اسمها في القديم «ايغابروم» Igabrum وسكانها ١١ ألف نسمة وشاراتها فيصل إلى اليسانة Lucena وهي اليوم بلدة سكانها ٢١ ألفاً.

(٨) تقدم ذكر «قبره» مع بيانه واليسانة.

خفيفة. وحصن قبرة كبير كالمدينة حصين المكان، وثيق البنيان، وهو على متصل أرض وطيئة وعمارات ومزارع. ومنه إلى مدينة قرطبة ٤٠ ميلاً، ويتصل به بين جنوب وغرب مدينة «اليسانة»[١] وهي مدينة اليهود، ولها ربض يسكنه المسلمون وبعض اليهود، وبه المسجد الجامع، وليس على الربض سور، والمدينة مدينة متحصّنة بسور حصين، ويطوف بها من كل ناحية حفير عميق القعر والسروب، وفائض مياهها قد ملأ الحفير، واليهود يسكنون بجوف المدينة، ولا يداخلهم فيها مسلم ألبتة وأهلها أغنياء مياسير، أكثر غنى من اليهود الذين بسائر بلاد المسلمين، ولليهود بها تحذّر وتحصن من مضدّهم. ومن اليسانة إلى مدينة قرطبة ٤٠ ميلاً، ويلي هذه الحصون حصن «بُلاي»[٢] Aguilar De La Frontra وحصن «مُنْتُرك»[٣] وهي في ذاتها حصون يسكنها البربر من أيام الأمويين، ومن حصن بُلاي إلى مدينة قرطبة ٢٠ ميلاً، وبالقرب من بُلاي حصن «شنت[٤] ياله» وهو حصن على مَدَرَة، والماء منه بعيد. ومنه إلى استجة[٥] في الغرب ١٥ ميلاً. ومن حصن شنت ياله إلى قرطبة ٢٣ ميلاً. ومدينة استجة على نهر أغرناطة المسمى شنيل وهي مدينة حسنة ولها

(١) تقدم ذكرها في هذه الصفحة نفسها.

(٢) وهو Aguilar De La Frontera.

(٣) يقول الاسبانيول لهذا الحصن Monturque.

(٤) Santa Ella.

(٥) الاسبانيول يقولون اسيجه Eciga والخط الحديدي يخرج من قرطبة إلى وادي الجوز Guadajoz ثم إلى «وادي القصر» ثم إلى «كرلوطه» ثم إلى استجة التي هي على ٥٦ كيلومتراً من قرطبة وكان الرومان يقولون لها استيجي Astigi وكان لها عظمة في زمان الرومانيين وأما الآن فهي بلدة صناعية سكانها ٢٢ ألف نسمة وشوارعها لا تزال ضيقة كشوارع المدن العربية وحرها شديد في الصيف وهذا هو السبب في ضيق شوارعها. وأما ضواحيها فعلى خصب عظيم وعلى مقربة منها بلدة يقال لها «لويزيانة» ثم إن الخط الحديدي على مائة كيلومتر من قرطبة يصل إلى مدينة «مرشانة» Marchena وهي بلدة قديمة جداً مبنية على محال عال وحولها أسوار وعلى ١٠٨ كيلومترات بلدة يقال لها «بردى» Paradas وبعدها بلدة يقال لها الرحل Arahal وعلى مسافة ١٢٨ كيلومتراً يصل الخط إلى «مورور» وهي على «وادي ياره» ويوجد بقرب شارات مورو حصن عربي ومقاطع للمرمر. ثم يصل الخط إلى أتريرة Utrera ثم إنه من أشبيلية إلى أتريرة يقطع وادي ياره Guadaira بازاء الوادي الكبير فيمر بمكان يقال له حصن الفرح Aznalfarache ثم ببلدة «كورية» وأما أتريرة فبلدة فيها ١٥ ألف نسمة أهلها زراع ورعاة أغنام. ومن أتريرة يذهب الخط في سهول الوادي الكبير فيمر ببلدة يقال لها «قنطرلة» ثم ببلدة يقال لها عند الاسبانيول «لبريجة» وكان العرب يقولون لها «نريشة» وأهلها ١١ ألف نسمة ولها كنيسة أصلها جامع. ومنها يمر المسافر بمكان يقال له الكرڤو Elcurvo فيرى آثار حصن عربي قديم يقول له الاسبانيول «ملغاريجو» Melgarejo ومن هناك يصل إلى «شريش» والاسبانيول يسمونها خريس Jerez وذلك لأنهم يقلبون الجيم والشين خاءاً وسيأتي الكلام على شريش في مكانه.

قنطرة عجيبة البناء من الصخر والمنجور، وبها أسواق عامرة، ومتاجر قائمة، ولها بساتين وجنات ملتفّة، وحدائق زاهية. ومن استجة إلى قرطبة ٣٥ ميلاً ومن استجة في جهة الجنوب إلى حصن اشونة[١] نصف يوم. وحصن أشونة حصن ممدّن كثير الساكن ومنه إلى «بَلشانة» Belicena ومدينة بلشانة Belicena حصن كبير عامر، له حصانة ووثاقة. يحيط به شجر الزيتون. ومن استجة إلى مدينة قَرْمُونه Garmona ٤٥ ميلاً، وهي مدينة كبيرة يضاهي سورها سور أشبيلية وكانت فيما سلف بأيدي البرابر، ولم يزل أهلها أبداً أهل نفاق، وهي حصينة على رأس جبل حصين منيع، وهى على فحص ممتد، جيد الزراعات، كثير الإصابة في الحنطة والشعير ومنه في الغرب إلى اشبيليه ١٨ ميلاً، وقد ذكرنا اشبيلية فيما سبق. ومن مدينة قَرْمونة إلى شريش Jerej من كورة شذونه Sidonia ٣ مراحل. وكذلك من مدينة اشبيلية إلى شريش مرحلتان كبيرتان جداً.

مدينة شريش متوسطة حصينة مسوَّرة الجنات، حسنة الجهات، وقد أطافت بها الكروم الكثيرة، وشجر الزيتون والتين، والحنطة بها ممكنة، وأسعارها موافقة. ومن شريش إلى جزيرة قادس Cadix ١٢ ميلاً فمن شريش إلى القناطر ٦ أميال، ومن القناطر إلى جزيرة قادس ٦ أميال، ومن اشبيلية المتقدم ذكرها إلى قرطبة ٣ مراحل ولها ٣ طرق طريق «الزنبجيار» Az- Zanbadjar وطريق «لورة» Lora وطريق الوادي، فأما طريق الزَّنْبجيار فقد ذكرناها، وهي من أشبيلية إلى قرمونة مرحلة. ومن قرمونة إلى استجة مرحلة. ومن استجة إلى قرطبه مرحلة. وأما طريق لورة فمن أشبيلية إلى منزل «أبان» Aban ثم إلى «مرلش» Marlich ثم إلى حصن «القليعة» Coléa وبه المنزل، وعند مسيرك من مرلش إلى القليعة تبصر حصن قطنيانه Cantillanna على الشمال والمنزل القليعة وهي ضفة النهر الكبير، يجاز إليها في المركب، ومن حصن القليعة إلى الغيران[٢] إلى حصن لورة، وهو يبعد عن الطريق نحو رمية سهم، وعلى يمين المار حصن كبير عامر، على ضفة النهر الكبير، ومن

---

(١) عند الاسبانيول أوسينا Ossuna يخرج المسافر من قرطبة بالقطار الحديدي القاصد إلى مالقة فيمر على جسر فوق الوادي الكبير طوله ٢٠٠ متر ويخترق ناحية «كامبينا» Campina التي يسقيها وادي الجوز وبعد مسافة ٥٠ كيلومتراً يمر ببلدة «ممتيلة» Momtilla ثم ببلدة «منت ميور» Montemayor ثم يتقدم إلى مدينة «اغيلار» Agiler وفيها حصن عربي هو حصن بلاي ثم يمر على بحيرتين اسم إحداهما «زونار» والأخرى «رينكون» وبالقرب منهما حصن عربي قديم وعلى مسافة ٧٦ كيلومتراً بلدة «بنت شنيل» وعلى مسافة ١٠٠ كيلومتر بلدة الروضة Roda وفيها ملتقى الخطين الحديديين خط غرناطة ـ مالقة وخط أشبيلية ـ قادس. وكل هذه النواحي ملآى بشجر الزيتون ومن الروضة يذهب الخط الحديدي إلى مرشانة ثم إلى أشونة وهي بلدة رومانية قديمة أعطاها قيصر حقوق المدن الرومانية.

(٢) هذه التي يقول لها ابن حوقل «غرغيرة».

لورة إلى قرية «صدف»[١] ويقابلها على يسار السالك على جبل عال حصن منيع، وقلعة متحصنة تسمى «شنت فِيلَة»[٢] وهي معقل للبربر من قديم الزمان.

ومن صدف إلى قلعة «ملبال»[٣] وهي على نهر ملبال وهو نهر مدينة «فرنجُلوش»[٤] ومن هذه القنطرة إلى مدينة فرنجُلوش ١٢ ميلاً. ومن القنطرة إلى قرية «شُوشِبيل»[٥] وهي قرية كبيرة على نهر قرطبة المسمّى بالنهر الكبير، ومنها إلى «حصن مُراد»[٦] وبه المنزل، ومن حصن مراد إلى الخنادق إلى حصن المُدَوَّر، ثم إلى السواني[٧] تم إلى قرطبة، وهي المنزل وبين أشبيلية وقرطبة ٨٠ ميلاً على هذا الطريق، ومن حصن المدور الذي ذكرناه إلى فرنجولش ١٢ ميلاً، وهي مدينة حصينة منيعة، كثيرة الكروم والأشجار، ولها على مقربة منها معادن الفضة، بموضع يعرف بالمرج، ومنها إلى حصن «قسنطينة»[٨] الحديد ١٦ ميلاً، وهذا الحصن حصن جليل، عامر آهل، وبجباله معادن الحديد الطيب المتفق على طيبه وكثرته، ومنه يتجهز إلى جميع أقطار الأندلس، وبقرب منه حصن «فِرِّيش»[٧] وبه مقطع للرخام الرفيع الجليل الخطير، المنسوب إليه، والرخام الفِرِّيشي أجل الرخام بياضاً وأحسنه ديباجاً، وأشده صلابة، ومن هذا الحصن إلى «جبل العيون»[١٠] ٣ مراحل خفاف، ومن شاء المسير إلى قرطبة أيضاً من إشبيلية ركب المراكب، وسار صاعداً في النهر إلى أرحاء «الذرّادة»، إلى عطف منزل «ابان»، إلى «قطنيانة»، إلى «لورة»، إلى حصن

---

(١) الصدف ككتف بطن من كندة قال الزبيدي في تاج العروس في شرح القاموس: ينسبون اليوم إلى حضرموت وإذا نسبت إليهم قلت هو صدفي محركة كراهة الكسرة قبل ياء النسب قاله ابن دريد وأنشد:

يـوم لهمـدان ويـوم للصـدف ولتميـم مثلـه أو تعتـرف

وقال غيره: هو صدف بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حيدان بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير بـن سبأ. وينسب إليه خلق من الصحابة وغيرهم وقد نزلوا بمصر واختطوا بها ومنهم يونس بن عبد الأعلى الصدفي وغيره اهـ. وهذه القرية في الأندلس نزلها أناس من الصدف وعمرت بهم فقيل لها الصدف.

(٢) الاسبانيول يقولون لها: Siete Filla.

(٣) لم يعرفها دوزي ولا عرفناها نحن.

(٤) الاسبانيول يقولون لفرنجلوش Hornachuelos.

(٥) Chouchabil.

(٦) هذا الحصن اسمه عند الاسبان Mratalla.

(٧) الاسبانيول أخذوا لفظة السانية فيما أخذوه من لغة العرب وهي الآلة الرافعة للماء وأصلها الغرب مع أدواته والسانية أيضاً الناقة يستقى عليها من البئر من فعل سنا ارتفع ويقال أيضاً سنوت الباب فتحته. والاسبانيول يكتبون السانية: Acéna.

(٨) قسنطينة الحديد Constantine De Fer.

(٩) Firriche.

(١٠) Gibraléone.

«الجرف»، إلى «شوشبيل»، إلى موقع نهر «ملبال»، إلى حصن «المدور» إلى «وادي الرمان»، إلى أرحاء «ناصح»(١) إلى قرطبة، ومدينة قرطبة قاعدة بلاد الأندلس، وأم مدنها، ودار الخلافة الإسلامية.

وفضائل أهل قرطبة أكثر وأشهر من أن تذكر، ومناقبهم أظهر من أن تستر، وإليهم الانتهاء، في السناء والبهاء، بل هم أعلام البلاد، وأعيان العباد، ذُكروا بصحة المذهب، وطيب المكسب، وحسن الزي في الملابس والمراكب، وعلو الهمة في المجالس والمراتب، وجميل التخصص في المطاعم والمشارب، مع جميل الخلائق، وحميد الطرائق، ولم تخلُ قرطبة قط من أعلام العلماء، وسادات الفضلاء، وتجَّارها مياسير، لهم أموال كثيرة، وأحوال واسعة، ولهم مراكب سنية، وهم عليّة، وهي في ذاتها مدن خمس، يتلو بعضها بعضاً، بين المدينة والمدينة، سور حاجز، وفي كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات، وفي طولها من غربيها إلى شرقيّها ٣ أميال، وكذلك عرضها من باب القنطرة إلى باب اليهود بشمالها ميل واحد. وهي في سفح جبل مطلّ عليها يسمّى جبل العروس، ومدنيتها الوسطى هي التي فيها باب القنطرة.

وفيها المسجد الجامع، الذي ليس بمساجد المسلمين مثله، بنية وتنميقاً، وطولاً وعرضاً، وطول هذا الجامع مائة باع مرسلة، وعرضه ٨٠ باعاً(٢)، ونصفه مُسَقَّف ونصفه صحن للهواء، وعدد قِسِيّ مُسَقَّفِهِ ١٩ قوساً، وفيه من السواري، أعني سواري مُسَقَّفه، بين أعمدته، وسواري قِبلَته، صغاراً وكباراً، مع سواري القبة الكبرى وما فيها: ألف سارية. وفيه ١١٣ ثُرَياً للوقيد، أكبرها واحدة منها تحمل ألف مصباح، وأقلّها تحمل ١٢ مصباحاً. وسقفه كله سماوات خشب مسمّرة في جوائز سقفه، وجميع خشب هذا المسجد الجامع من عيدان الصنوبر الطرطوشي(٣) ارتفاع حد الجائزة منه شبر وافر، في عرض شبر إلا ثلاثة

(١) Nacih.

(٢) يقول دوزي نقلاً عن لابورد Laborde في كتابه «وصف اسبانية» Description de L'Espagne: إن طول مسجد قرطبة في حالته الحاضرة هو ٦٢٠ قدماً وعرضه ٤٤٠ قدماً وهكذا قرر ماندوس Mandoz في كلامه عن هذا المسجد. وكان فيه أيام العرب ١٤٠٠ سارية أما الآن فهي ٨٥٠ سارية لا غير كما قال البارون شاك Schack قلت: أخبرني المهندس هرناندز الذي كان دليلي في قرطبة وهو من الموكلين بالجامع الأعظم أن طول المسجد هو ١٧٥ متراً وأن عرضه ١٢٥ متراً وأخذ القلم وحسب ذلك بالتربيع فوجد أن المسقف والصحن يتسعان لثمانين ألف مصل أما لافي بروفنسال المستشرق الافرنسي صاحب «اسبانية المسلمة في القرن العاشر» فقال: إن طول المسجد هو ١٨٠ متراً وعرضه ١٣٠ وسنذكر فيما سيأتي أثناء الكلام على قرطبة كل ما يتعلق بهذا المسجد.

(٣) الصنوبر الطرطوشي مضرب الأمثال في الصلابة والثبات هذا وقد نقل المقري في النفح كلام الإدريسي هنا ملخصاً فقال: وقال بعض المؤرخين حين ذكر قرطبة ما ملخصه: هي قاعدة بلاد =

أصابع، في طول كل جائزة منها ٣٧ شبراً، وبين الجائزة والجائزة غِلَظ جائزة. والسماوات التي ذكرناها هي كلها مسطّحة، فيها ضروب الصنائع المنشاة من الضروب المسدّسة

= الأندلس ودار الخلافة الإسلامية، وهي مدينة عظيمة وأهلها أعيان البلاد وسراة البلاد في حسن المآكل والمشارب والملابس والمراكب وعلو الهمم وبها أعلام العلماء، وسادات الفضلاء، وأجلاد الغزاة وأنجاد الحروب، وهي في تقسيمها خمس مدن يتلو بعضها بعضاً، وبين المدينة والمدينة سور عظيم حاجز، وكل مدينة مستقلة بنفسها، وفيها ما يكفي لأهلها من الحمامات والأسواق والصناعات وطول قرطبة ثلاثة أميال في عرض ميل واحد، وهي سفح جبل مطل عليها، وفي مدينتها الثالثة وهي الوسطى القنطرة والجامع الذي ليس في معمور الأرض مثله، وطوله مائة ذراع في عرض ثمانين، وفيه من السواري الكبار ألف سارية، وفيه مائة وثلاثة عشر ثريا للوقود، أكبرها تحمل ألف مصباح. وفيه من النقوش والرقوم ما لا يقدر أحد على وصفه، وبقبلته صناعات تدهش العقول، وعلى فرجة المحراب سبع قسيّ قائمة على عمد، طول كل قوس فوق القامة، قد تحير الروم والمسلمون في حسن وضعها. وفي عضادتي المحراب أربعة أعمدة اثنان أخضران، واثنان لازورديان. ليس لهما قيمة، لنفاستهما، وبه منبر ليس على معمور الأرض أنفس منه ولا مثله في حسن صنعته، وخشبه ساج وآبنوس وبقم وعود قاقلي، ويذكر في تاريخ بني أمية أنه أحكم عمله ونقشه في سبع سنين، وكان يعمل فيه ثمانية صناع، لكل صانع في كل يوم نصف مثقال محمدي، فكان جملة ما صرف على المنبر لا غير عشرة آلاف مثقال وخمسون مثقالاً. وفي الجامع حاصل كبير ملآن من آنية الذهب والفضة لأجل وقوده، وبهذا الجامع مصحف يقال إنه عثماني، وللجامع عشرون باباً مصفحات بالنحاس الأندلسي، مخرمة تخريماً عجيباً بديعاً، يعجز البشر ويبهرهم، وفي كل باب حلقة في نهاية الصنعة والحكمة، وبه الصومعة العجيبة التي ارتفاعها مائة ذراع بالمكي المعروف بالرشاشي، وفيها من أنواع الصنائع الدقيقة ما يعجز الواصف عن وصفه ونعته. وبهذا الجامع ثلاثة أعمدة حمر مكتوب على الواحد اسم محمد، وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف، وعلى الثالث صورة غراب نوح، والجميع خلقة ربانية. وأما القنطرة التي بقرطبة فهي بديعة الصنعة، عجيبة المرأى، فاقت قناطر الدنيا حسناً. وعدة قسيها سبعة عشر قوساً سعة كل قوس منها خمسون شبراً، وبين كل قوسين خمسون شبراً. وبالجملة فمحاسن قرطبة أفضل المحاسن، وأعظم من أن نحيط بها وصفاً. انتهى ملخصاً. وهو وإن تكرر بعضه مع ما قدمته فلا يخلو من فائدة زائدة والله الموفق. وما ذكره في طول المسجد وعرضه مخالف لما مر، ويمكن الجواب بأن هذا الذراع أكبر من ذلك، كما أشار إليه هو في أمر الصومعة، وكذلك ذكره في عدد السواري، إلا أن يقال: ما تقدم باعتبار الصغار والكبار، وهذا العدد الذي ذكره هنا إنما هو للكبار فقط كما صرح به والله تعالى أعلم. وأما الثريات فقد خالف في عدها ما تقدم، مع أن المتقدم هو قول ثقات مؤرخي الأندلس، ونحن جلبنا النقل من مواضعه وإن اختلفت طرقه ومضموناته انتهى. قلت: أي من قرأ هذا التلخيص، وكان طالع جغرافية الشريف الإدريسي، يعلم أن هذا النقل الذي نقله المقري، إنما نقله عنه ولكن ملخصاً كما صرح هو بذلك. ولم نعلم سبب تحامي المقري نسبة هذا النقل والتصريح باسم الكتاب الذي نقل عنه. وعلى كل حال فظاهر للعيان أن الكلام ملخص عن «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» غير أنه لا بد هنا من بعض ملاحظات: الأول أن هناك غلطاً في النسخ، إما في كتاب الإدريسي أو في كتاب نفح الطيب نفسه، مثل أن الجامع الأعظم طوله مائة ذراع في عرض ثمانين، والحال أن الإدريسي كما في نسخة باريز=

والمورَّبى! وهي صنع الفصّ وصنع الدوائر والمداهن، لا يشبه بعضها بعضاً، بل كل سماء منها مُكتَفٍ بما فيه من صنائع قد أحكم ترتيبها، وأبدع تلوينها بأنواع الحمرة الزنجفرية، والبياض الاسفيذاجي، والزرقة اللازوردية، والزرقون الباروقي، والخضرة الزنجارية،

= ونسخة أوكسفورد لم يقل مائة ذراع، وإنما قال مائة باع مرسلة في ثمانين باعاً. والفرق بين الباع والذراع غير خاف على أحد. وأنه يستحيل قول الإدريسي إن الجامع هو مائة ذراع في ثمانين، لأن الإدريسي عرف قرطبة بنفسه، ووصف المسجد الأعظم وصف من رأى لا من سمع، فلا يمكن أن يقع في خطأ فظيع كهذا. ولقد أشار المقري بأنه يمكن أن يكون هذا الذراع الذي ذكره الإدريسي أكبر من الذراع الذي حسب بموجبه غيره من المؤرخين، ممن ذكروا أن طول الجامع من القبلة إلى الجوف ثلاثمائة وثلاثون ذراعاً وعرضه من الغرب إلى الشرق مائتان وخمسون ذراعاً، فمهما كان هذا الذراع يزيد على ذلك الذراع فيبقى البون شاسعاً، والصحيح أن الإدريسي إنما قال مائة باع في ثمانين، لا مائة ذراع في ثمانين. والملاحظة الثانية هي في اختلاف عدد الثريات، فالإدريسي يقول مائة وثلاث عشرة ثريا، وهو مخالف لما قاله غيره، مثل ابن الفرضي مثلاً الذي قال إنها مائتان وثمانون ثريا، ومثل ابن سعيد الذي نقل عن ابن بشكوال فقال إنها مائتان وأربع وعشرون ثريا. وليس الاختلاف هنا بشيء فإن الثريات هي مما يزيد وينقص بحسب الوقت، لأنها آنية منقولة وليست من قبيل المساحة التي هي شيء ثابت محسوس. وتأويل هذا الفرق هو أنه يوم عرف الإدريسي مدينة قرطبة لم يكن في الجامع الأعظم أكثر من ١١٣ ثرياً، فإن الإدريسي نفسه ذكر كون قرطبة لعهده قد انتقصت منها الحوادث بتوالي الفتن، ونزح أهلها إلا اليسير، فلا جرم أن النقص الذي لحق بأهلها وبكل شيء يخصها قد وصل إلى ثريات جامعها، فسقط عددها إلى النصف مما كانت كما سقط عدد الخدمة في الجامع فقد ورد في كلام ابن الفرضي أنه كان يتصرف في المسجد بين أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسدنة وموقدين مائة وتسعة وخمسون شخصاً. وروى غيره أنهم كانوا ثلاثمائة، والحال أن الإدريسي لا يذكر غير ستين شخصاً فيظهر أن هذا العدد هو الذي كان في زمانه، أي بعد تقلص العمران في قرطبة. والملاحظة الثالثة هي من جهة سقوط كلمات في النسخ أو اختلافها، ففي نسخة نفح الطيب يقول نقلاً عن الإدريسي إنه كان يعمل في المنبر ثمانية صناع، وفي نسختي باريز وأكسفورد يقول ستة، وفي نسخة نفح الطيب يقول: وفي الجامع حاصل كبير ملآن من آنية الذهب والفضة لأجل وقوده. وفي نسختي باريز وأوكسفورد يزيد على الذهب والفضة لفظة المسك. وفي نسخة نفح الطيب يذكر أن الصومعة ارتفاعها مائة ذراع بالمكي المعروف بالرشاشي. والحال أنه في النسختين المذكورتين يذكر الرشاشي بدون المكي. والملاحظة الرابعة هي أنه في نسخة نفح الطيب يقول إن في الجامع ثلاثة أعمدة حمر، على الواحد اسم محمد وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف، وعلى الثالث صورة غراب نوح. وهذا لا يوجد في النسخة التي نقلنا عنها المطبوعة في ليدن وفقاً لنسختي باريز وأوكسفورد، والخبر كله غريب، لأن التصوير مكروه، ولا سيما في المساجد. وقد أوردنا هذه الملاحظات لأجل الاستدلال على ما بين النسخ من الاختلافات فليكن الراوي من النسخ على حذر، ولا يجوز له أن يجزم بخبر إلا بعد أن ينخل رواياته نخلاً دقيقاً، ويقابل بينها بأجمعها فيعتمد على المتواتر الذي أجمع عليه الرواة أو الذي ترجح بالأقل لدى الجمهور وبالأخص على ما طابق المحسوس.

والتكحيل النقسي، تروق العيون، وتستميل النفوس، باتقان ترسيمها، ومختلفات ألوانها وتقسيمها. وسعة كل بلاطة منها، اعني من بلاطات مسقّفه ٣٣ شبراً، وبين العمود والعمود ١٥ شبراً، ولكل عمود منها رأس رخام وقاعدة رخام. وقد عقد بين العمود والعمود على أعلى الرأس قسيّ غريبة، فوقها قسيّ أُخر، على عمد من الحجر المنجور متقنة. وقد جصّص الكل منها بالجصّ والجيّار، وركبت عليها نحور مستديرة نائتة، بينها ضروب صناعات الفسفس بالمغرة. وتحت كل سماء منها إزار خشب فيه مكتوب آيات القرآن.

ولهذا المسجد الجامع قبلة يعجز الواصفين وصفُها، وفيها إتقان يبهر العقول تنميقُها وكل ذلك من الفسيفساء المذهب والملوّن، مما بعث صاحب القسطنطينية العظمى إلى عبد الرحمن المعروف بالناصر لدين الله الأموي. وعلى هذا الوجه، أعني وجه المحراب، سبع قسي قائمة على عمد، وطول كل قوس منها أشف من قامة، وكل هذه القسي مزجّجة صنعة القرط وقد أعيت المسلمين والروم بغريب أعمالها، ودقيق تكوينها ووضعها. وعلى أعلى الكل كتابان مسجونان بين بحرين من الفسيفساء المذهب، في أرض اللازوردي وتحت هذه القسي التي ذكرناها كتابان مثل الأولين مسجونان بالفسيفساء المذهب في أرض اللازورد، وعلى وجه المحراب أنواع كثيرة من التزيين والنقش، وفي عضادتي المحراب ٤ أعمدة اثنان أخضران، واثنان لازورديان لا تقومّ بمال. وعلى رأس المحراب خصةٌ رخام قطعة واحدة مشبوكة محفورة منمقة بأبدع التنميق من الذهب واللازود وسائر الألوان وعلى وجه المحراب مما استدار به حظيرة خشب بها من أنواع النقش كل غريبة.

ومع يمين المحراب المنبر الذي ليس بمعمور الأرض مثله صنعة خشب آبنوس وبقس وعود المجمر، ويحكى في كتب تواريخ بني أمية أنه صنع في نجارته ونقشه ٧ سنين، وكان عدد صناعه ستة رجال، غير من يخدمهم تصرفاً، ولكل صانع منهم في اليوم نصف مثقال محمدي. وعن شمال المحراب بيت فيه عُدد وطشوت ذهب وفضة ومسك لوقيد الشمع في ليلة ٢٧ من شهر رمضان المعظم. ومع ذلك ففي هذا المخزن مصحف يرفعه رجلان لثقله، فيه أربع أوراق من مصحف عثمان بن عفان، وهو المصحف الذي خطه بيمينه رضي الله عنه، وفيه نقط من دمه، وهذا المصحف يخرج في صبيحة كل يوم جمعة، ويتولى إخراجه رجلان من قَوَمَة المسجد. وأمامهم رجل ثالث بشمعة، وللمصحف غشاء بديع الصنعة، منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقه وأعجبه، وله بموضع المصلى كرسي يوضع عليه ويتولى الإمام قراءة نصف حزب منه ثم يرد إلى موضعه.

وعن يمين المحراب والمنبر باب يفضي إلى قصر بين حائطي الجامع في ساباط متصل، وفي هذا الساباط ٨ أبواب منها ٤ تنغلق من جهة القصر، و ٤ تنغلق من جهة

الجامع. ولهذا الجامع عشرون باباً مصفحة بصفائح النحاس وكواكب النحاس، وفي كل باب منها حلْقتان في نهاية من الاتقان، وعلى وجه كل باب منها في الحائط ضروب من الفص المتخذ من الآجر الأحمر المحكوك، ، أنواعاً شتى، وأجناساً مختلفة من الصناعات والتربيش وصدور البُزاة. وفيما استدار بالجامع في أعلاه لتمدد الضوء ودخوله إلى المسقّف متكآت رخام، طول كل متكأ منها قدر قامة، في سعة ٤ أشبار في غلظ ٤ أصابع. وكلها صُنُع مسدّسة ومثمّنة، مخرّمة منفوذة لا يشبه بعضها بعضاً.

وللجامع في الجهة الشمالية الصومعة الغريبة الصنعة الجليلة الأعمال الرائقة الأشكال التي ارتفاعها في الهواء مائة ذراع بالذراع الرشاشي[(١)] منها ٨٠ ذراعاً إلى الموضع الذي يقف عليه المؤذن بقدميه، ومن هناك إلى أعلاها ٢٠ ذراعاً ويصعد إلى أعلى هذه المنارة بدرجين أحدهما من الجانب الغربي والثاني من الجانب الشرقي إذا افترق الصاعدان أسفل الصومعة لا يجتمعان إلا إذا وصلا أعلاها. ووجه هذه الصومعة كله مبطّن بالكذّان اللّكّي، منقوش من وجه الأرض إلى أعلى الصومعة صنع مثمّنَة تحتوى على أنواع من الصنع والتزويق والكتابة والملون، وبالأوجة الأربعة الدائرة من الصومعة صفان من قسي دائرة على عمد الرخام الحسن. والذي في الصومعّة من العمد بين داخلها وخارجها ٣٠٠ عمود بين صغير وكبير. وفي أعلى الصومعة بيت له أربعة أبواب مغلقة، يبيت فيه كل ليلة مؤذنان. وللصومعة ١٦ مؤذناً، ويؤذنون فيها بالدولة لكل يوم مؤذنان على توال. وفي أعلى الصومعة على القبة التي على البيت ثلاث تفاحات ذهب، وتفاحتان من فضة، وأوراق سوسنية، تسع الكبيرة من التفاحات ٦٠ رطلاً من الزيت. ويخدم الجامع كله ٦٠ رجلاً وعليهم قائم ينظر في أمورهم، وهذا الجامع متى سها إمامه لا يسجد لسهوه قبل السلام، بل يسجد بعد السلام.

ومدينة قرطبة في حين تأليفنا هذا الكتاب طحنتها رحى الفتنة، وغيّرها حلول المصائب والأحداث، مع اتصال الشدائد على أهلها، فلم يبق بها منهم الآن إلا الخلق اليسير، ولا بلد أكبر اسماً منها في بلاد الأندلس.

ولقرطبة القنطرة التي علت القناطر فخراً في بنائها واتقانها، وعدد قسيّها ١٧ قوساً بين القوس والقوس ٥٠ شبراً، وسعة القوس مثل ذلك ٥٠ شبراً، وسعة ظهرها المعبور عليه ٣٠ شبراً. ولها ستائر من كل جهة تستر القامة. وارتفاع القنطرة من موضع المشي إلى وجه الماء في أيام جفوف الماء ٣٠ ذراعاً، وإذا كان السيل يصل الماء منها إلى نحو

---

(١) الذراع الرشاشي يقال إنه الذراع المكي وهو ثلاثة أشبار.

حلوقها. وتحت القنطرة يعترض الوادي رصيف سد مصنوع من الأحجار القبطية والعمد الجاشية[١] من الرخام. وعلى هذا السد ثلاثة بيوت أرحاء، في كل بيت منها أربع مطاحن[٢].

ومحاسن هذه المدينة وشماختها أكثر من أن يحاط بها خُبْراً.

ومن مدينة قرطبة إلى مدينة الزهراء ٥ أميال، وهي قائمة الذات بأسوارها ورسوم قصورها، وفيها قوم سكان بأهليهم وذراريهم، وهم قليلون، وهي في ذاتها مدينة عظيمة مدرجة البنية، مدينة فوق مدينة، سطح الثلث الأعلى يوازي على الجزء الأوسط وسطح الثلث الأوسط يوازي على الجزء الأسفل، وكل ثلث منها له سور. فكان الجزء الأعلى منها قصوراً يقصر الوصف عن صفاتها. والجزء الأوسط بساتين وروضات والجزء الثالث فيه الديار والجامع. وهي الآن خراب في حال الذهاب.

ومن مدينة قرطبة إلى المرّية ٨ أيام. ومن قرطبة إلى إشبيلية ٨٠ ميلاً. ومن قرطبة إلى مالقة ١٠٠ ميل. ومن قرطبة إلى طليطلة ٩ مراحل، فمن أرادها سار من قرطبة في جهة الشمال إلى عقبة «أرلش»[٣] ١١ ميلاً. ومنها إلى دار البقر[٤] ٦ أميال ثم إلى «بطروش»[٥] ٤٠ ميلاً وحصن «بطروش» حسن كثير العمارة، شامخ الحصانة، لأهله جلادة

(١) قد ترجم دوزي «الأحجار القبطية» بالأحجار المصرية وقال عن «العمد الجاشية» لعلها مصحفة وأصلها «الخاشنة» ونحن نقول: لم يرد استعمال «الخاشنة» وإنما يقولون «الخشنة» ونرى الأقرب أن تكون هذه اللفظة بالسين المهملة لا بالشين المعجمة وأنها «الجاسية» أي الصلبة.

(٢) لا تزال جدران المطاحن قائمة إلى الآن وإليها أشرت بقولي في القصيدة التي نظمتها يوم زرت قرطبة

وتلك الطواحين الشهيرة لم تزل ... كأن تركوها أمس لم تتغير

ومنها:

ولما رأيت المسجد الجامع الذي ... بقرطبة من فوق التصور

فلو كنت بواباً على با جنة ... لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وسنذكرها كلها في محلها.

(٣) Arlech.

(٤) يقول الاسبان لدار البقر Castillo Del Bacar.

(٥) Bedroches جاء في دليل بديكر أن الخط الحديدي من مجريط إلى بطليوس يمر بقرية «غيتاف» Getafe وتكون وراءه جبال وادي الرمل Guadarrama ثم يصل الخط إلى بلدة «القدور» Algodor ومنها ينشعب خط كستيليجو ـ طليطلة. ثم يجتاز الخط شعاب جبال طليطلة الفاصلة بين وادي تاجة ووادي يانة ثم يمر ببلدة «الموناسيد» Almonacid وفيها حصن عربي ثم ببلدة «ماسكاراك» Mascaraque ثم ببلدة «مورة» Mara وفيها بقايا حصن وهي على ٩١ كيلومتراً من مجريط ثم ببلدة «أورغاز» Orgaz وفيها أيضاً حصن كبير ثم ببلدة «منسنيق» Manzanéque ثم «ايبانش» Ybenes وعن يمينه «وادي الأرزة» =

وحزم على مكافحة أعدائهم، ويحيط بجبالهم وسهولهم شجر البلوط الذي فاق طعمه طعم كل بلوط على وجه الأرض، وذلك أن أهل هذا الحصن لهم اهتمام بحفظه وخدمته، لأنه لهم غلة وغياث في سني الشدة والمجاعة. ومن حصن بطروش إلى حصن «غافق»(١) ٧ أميال، وحصن غافق حصن حصين، ومعقل جليل، وفي أهله نجدة وحزم، وجلادة وعزم، وكثيراً ما تسرى إليهم سرايا الروم فيكتفون بهم في إخراجهم عن أرضهم، وانقاذ غنائمهم منهم، والروم يعلمون بأسهم وبسالتهم فيناحرون(٢) أرضهم ويتحامون عنهم. ومن قلعة غافق إلى جبل «عافور»(٣) مرحلة، ثم إلى دار البقر مرحلة، ثم إلى قلعة «رباح»(٤)، وهي قلعة حسنة، وقد سبق ذكرها. وكذلك الطريق من قرطبة إلى بطليوس.. من قرطبة إلى دار البقر المتقدم ذكرها مرحلة، ومنها إلى حصن «بِنذر»(٥) مرحلة، ثم إلى «زواغة» مرحلة، وزواغة حصن عليه سور تراب، وهو على كدية تراب، ومنه إلى نهر «اثنه»(٦) مرحلة، ومنه إلى حصن «الحنش»(٧) مرحلة، وحصن الحنش منيع شامخ الذروة، مطلّ الغلوة شاهق البنيّة، حامي الأفنية. ومنه إلى مدينة ماردة مرحلة لطيفة، ثم إلى بطليوس

= Guadalerza ثم ببلدة «أورده» Urda ثم يصل إلى بلدة ريال Ciudad Real التي بقربها بلدة «الأرك» Alarcos وهذه الشهيرة بالوقعة التي انتصر فيها الموحدون على الأذفنش الثامن صاحب قشتالة سنة ١١٩٥ ثم يمر بأرض قلعة رباح ثم ببلدة «برتلانو» Puertellano ثم ببلدة اسمها «المدور» (غير حصن المدور الذي هو من عمل قرطبة) ثم ببلدة «صان كنتين» San Quintin ثم بـ«بلد نبياش» Valdepénas بقرب مشتى يقال له وادي الكدية ثم يصل بعد ٢٧١ كيلومتراً من مجريط إلى «المعدن» Almaden وفيها حصن عربي وفيها معدن من أغنى معادن الزئبق في العالم ومن هناك يمر الخط بين «شيليون» Chillon و «بطروس» Pedroches بواد اسمه «وادي الميس» Guadalmez ويدخل في عمل قرطبة فيمر ببلدة «بلال قصر» Belalcasar ثم ببلدة «المورشون» Almorchon حيث ينشعب من الخط شعبة إلى قرطبة. وعلى مسافة ٤٠٨ كيلومترات يصل إلى «مدلين» Medellin وعلى ٤٥١ كيلومتراً يصل إلى ماردة اهـ محصلاً. ثم قال دوزي: إن البلوط الذي نسبه الإدريسي إلى بطروس يترجح أنه الكستنا لا البلوط المعهود واستدل على ذلك بأن بطره القلعي يسمى الكستنا بطروش.

(١) يقول الاسبان لغافق Ghafic.

(٢) في النسخة التي ترجم عنها دوزي يقول: «ينافرون أرضهم ويتحامون عنهم» ولا معنى هنا لجملة «ينافرون أرضهم» والأقرب أن تكون «يناحرون أرضهم» أي هم ساكنون في نحر أرضهم ولكنهم لشدة بأسهم تراهم يتجنبون التعرض لهم.

(٣) جبل عافور لم يعرفه دوزي ولا نحن اهتدينا له وإنما نعلم أن العرب تقول: وقع في عافور أي في شر وعفار ومثله وقع في عاثور.

(٤) Catatrava.

(٥) يظن دوزي أن «بنذر» مصحف عن «بنبذر» إذهناك نهر بهذا الاسم Benbezar.

(٦) لم نعلمه ولا عرفنا حقيقة الاسم.

(٧) هو الذي يقول له الاسبان Alenje.

مرحلة خفيفة. فذلك من قرطبة إلى بطليوس، ٧ مراحل. وبشمال قرطبة إلى حصن «ابال» مرحلة، وهو الحصن الذي به معدن الزيبق، ومنه يتجهّز بالزيبق والزنجفر إلى جميع أقطار الأرض، وذلك أن هذا المعدن يخدمه أزيد من ألف رجل، فقوم للنزول فيه وقطع الحجر، وقوم لقطع الحطب لحرق المعدن، وقوم لعمل أواني لسبك الزيبق وتصعيده، وقوم لشأن الأفران والحرق قال المؤلف: وقد رأيت هذا المعدن فأُخبرت أن من وجه الأرض إلى أسفله نحواً من مائتي وخمسين قامة[1]. ومن قرطبة إلى اغرناطة ٤ مراحل وهي مائة ميل. وبين اغرناطة وجيّان ٥٠ ميلاً وهي مرحلتان.

وأما بحر الشام الذي عليه جنوب بلاد الأندلس، فمبدأه من الغرب، وآخره حيث انطاكية، ومسافة ما بينهما ٣٦ مجرى. فأما عروضه فمختلفة، وذلك أن مدينة مالقة من الضفة الأخرى «المزمّة» و «قادس» وبينهما عرض البحر مجرى يوم واحد بالريح الطيّبة المعتدلة. وكذلك «المريّة» يوازيها في الضفة الأخرى «هُنين» وعرض البحر بينهما مجريان. وكذلك أيضاً مدينة «دانية» يقابلها من الضفة الأخرى «تَنَس» وبينهما ٣ مجارٍ. وكذلك مدينة برشلونة تقابلها من عدوة الغرب الأوسط «بجّانة» وبينهما ٤ مجار في عرض البحر، والمجرى مائة ميل.

وأما جزيرة «يابسة» فإنها جزيرة حسنة كثيرة الكروم والأعناب، وبها مدينة حسنة صغيرة متحضّرة، وأقرب برّ إليها مدينة دانية، وبينهما مجرى. وفي شرقي جزيرة يابسة جزيرة ميّورقة[2] وبينهما مجرى، وبها مدينة كبيرة، لها مالك وحارس ذو رجال وعدد وأسلحة وأموال، وبالشرقي منها أيضاً جزيرة مينورقة تقابل مدينة برشلونة، وبينهما مجرى، ومن مينورقة إلى جزيرة سردانية ٤ مجار. فهذا ما أردنا ذكره.

ما قاله عن إقليم الأندلس

أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني

في كتابه «صفة جزيرة العرب»

ذكر الأقاليم السبعة التي كان الجغرافيون الأولون يقولون بها، فذكر الأندلس في الإقليم الثالث فقال: الإقليم الثالث حده منتهى أرض الحبشة، مما يلي أرض الحجاز، إلى نصيبين، إلى أقصى الشام، إلى البحر الذي بين أرض مصر وبين الشام إلى وسط البحر الذي يلي الأندلس مما يلي المغرب.

---

(١) نقل لافي بروفنسال كلام الإدريسي هذا إلى كتابه عن اسبانية.

(٢) أقمت بجزيرة ميورقة عشرين يوماً وجولت فيها، ولشدة ما استلطفتها أخذت عنها معلومات كثيرة، =

ثم ذكر معرفة قسمة الأقاليم لبطلميوس فقال: فأما بطلميوس وقدماء اليونانيين فإنهم رأوا أن طباع الأقاليم وجبلّتها لا تكون إلا طرائق من المشرق إلى المغرب، متجاورة بعضها إلى بعض، من خط الاستواء إلى حيث يقع القطب الشمالي، خمسين درجة، وهو ضعف الميل وزيادة جزءين وكسر، وقد حد في قانونه عرض كل إقليم منها وساعات نهاره الأطول، على وسطه دون طرفيه، بقول من نقل عنه، فجعل وسط الإقليم الأول مدينة سبأ بمآرب من أرض اليمن، وجعل العرض ستة عشر جزءاً وربعاً وخمساً، وساعات نهاره الأطول ثلاثة عشر سواء، وعرض الأقليم الثاني منتهى الميل، وهو ثلاثة وعشرون جزءاً وخمسة أسداس، وساعات نهاره الأطول ثلاث عشرة ونصف، والثالث إقليم اسكندرية، وعرضه ثلاثون جزءاً وسدس وخمس جزء، وساعاته أربع عشرة، والرابع إقليم بابل، وعرضه ستة وثلاثون جزءاً وعشر، وساعات نهاره الأطول أربع عشرة ونصف. والإقليم الخامس عرضه أربعون جزءاً، وتسعة أعشار، وثلث عشر ساعة، وساعاته خمس عشرة ساعة والإقليم السادس عرضه خمسة وأربعون جزءاً ونصف وسدس عشر، وساعات نهاره الأطول خمس عشرة ساعة ونصف، والإقليم السابع عرضه ثمانية وأربعون جزءاً ونصف وثلث عشر، ونهاره الأطول ست عشر ساعة. وقد حدّ أقاصيها وأدانيها وبعض ما تشتمل عليه من البلاد المشهورة فقال: إن الإقليم الأول يمر على وسطه من المشرق إلى المغرب على المواضع التي يكون نهارها الأطول وعرضها ما ذكرناه وابتداؤه حيث يكون نهاره الأطول اثنتي عشرة ساعة وثلاثة أرباع ساعة، وعرضه اثنا عشر جزءاً ونصف. وانتهاؤه حيث يكون نهاره الأطول ثلاث عشرة ساعة وربعاً وعرضه عشرين جزءاً وربعاً، ووسط هذا الإقليم مدينة سبأ، وما كان في مثل عرضها من مواضع الأرض، وابتداؤه من المشرق من أقاصي بلاد الصين إلخ.

ولما وصل إلى الأقليم الرابع قال: ويمر الاقليم الرابع على وسطه من المشرق إلى المغرب على المواضع التي يكون نهارها الأطول وعرضها ما قد ذكرناه، وابتداؤه من الموضع الذي انتهت إليه ساعات الإقليم الثالث، وعرضه إلى حين يكون نهاره الأطول أربع عشرة ساعة وثلاثة أرباع ساعة، وعرضه ثمانياً وثلاثين درجة. ووسط هذا الاقليم بالتقريب مدينة أصبهان من مواضع، وابتداؤه من المشرق آخر أرض الصين وتبَّت وبلخ وخراسان والجبال وأرض الموصل وشمال الشام، وبعض الثغور، وبحر الشام وجزيرة قبرص، وبلاد طنجة، إلى أن ينتهي إلى حد المغرب من دون البحر المظلم. ويمر الإقليم

= واقتنيت كتباً من تاريخها بالاسبانيولي، وجمعت أسماء العلماء والأدباء الذين نبغوا من أهلها من عرب واسبانيول، وعزمت أن أفردها بتاريخ هي وشقيقتيها مينورقة ويابسة واسميه «الأصول المعرقة والغصون المورقة في محاسن جزيرة ميورقة» ولعله يكون جزءاً من هذه الموسوعة إن شاء الله.

الخامس على وسطه من المشرق إلى المغرب على المواضع التي يكون نهارها الأطول وعرضها ما قدمنا ذكره وابتداؤه من الموضع الذي انتهى إليه عرض الإقليم الرابع، ساعاته إلى حيث يكون نهاره الأطول خمس عشرة ساعة وربعاً وعرضه ثلاث وأربعون درجة، ووسط هذا الاقليم بالتقريب مدينة مَرْو، وما كان في مثل عرضها من مواضع الأرض. فابتداؤه من المشرق داخل بلاد الترك وشمال خراسان وأذربيجان وكور أرمينية وبلاد الروم وسواحل بحر الشام الشمالية والأندلس إلى أن ينتهي إلى حد المغرب من دون البحر المظلم.

ثم نقل عن بطليموس قوله: لما انقسمت دائرة البروج بأربعة أقسام، وهي المثلثات، لأن كل قسم منها ثلاثة أبراج، على طبيعة من الطبائع الأربع، التي هي النار والأرض والهواء والماء، انقسم عامر الأرض بأربعة أقسام، كل قسم منها منسوب إلى قسم من المثلثات في الطباع، لأن كل محيط بطبع ما أحاط به على قدر طبيعته (إلى أن يقول) فلما كانت هذه الأشياء كذلك، كان موضع سكناها ينقسم ألى أربعة أرباع متساوية في العدد للمثلثات، ثم أتى على ذكر الربع المنسوب إلى «أوروفة» - يريد بها أوربة - فقال: إن الأمم الكلية التي تسكن في هذه الأجزاء هي أهل بلاد الصقالبة وبلاد برطانية وغالاطية وجرمانية وباسترانية وإيطالية وغالية وأبولية وطورينية وقلطيقة وسبانية (إلى أن قال) عن طبائع أهل هذه البلدان: يجب أن يكون أهل هذه البلدان، في أكثر الأمر، بسبب رئاسة هذا المثلث، وبسبب الكواكب التي تشترك في تدبيره، غير خاضعين، محبين للحرية والسلاح والتعب، محاربين، أصحاب سياسة ونظافة، كبار الهمم، ولما كان المشتري والمريخ مشتركين فيهم، إذا كانا في الحال المنسوبة إلى العشيّات، وكانت الأجزاء المتقدمة من هذا المثلث مذكرة، والمتأخرة مؤنثة، عرض لهذه الأمم ألا يكون لهم غيرة في أمر النساء (إلى أن يقول): وأما بلاد إيطالية منها وبلاد أبولية - يريد نابولي - وبلاد غالية - جنوبي فرنسة ووسطها - وبلاد صقيلية، فإنها تشاكل الأسد والشمس ولذلك صار سكانها أصحاب سياسة، وأصحاب اصطناع المعروف، وأصحاب مؤاساة. وأما بلاد طورينية منها وبلاد قالتقى - يريد بها بلاد السلتيين Celtes وهو أمة كانت تجاور الغاليين والأيبيريين - وبلاد سبانية، فإنها تشاكل الرامي والمشتري ولذلك صار سكانها سليمي القلوب محبي النظافة انتهى.

هذا ما جاء في كتاب الهمداني من جغرافيي العرب وحكمائهم عن اسبانية، وأما قضية تأثير الكواكب في طباع سكان الأرض، وما نقله الهمداني عن بطلميوس القلودي من هذا الباب فهو معدود اليوم من النظريات البالية، التي عدل الناس عنها، لا سيما أننا لا نراها مطردة ولا غالبة حتى نحكم بصحتها.

ما ذكره أبو العباس أحمد المقري
صاحب كتاب نفح الطيب عن بلاد الأندلس
من الجهة الجغرافية

اعلم أعزّك الله أنه لا يزال نفح الطيب من أعظم المراجع التي يعول عليها المحققون في أخبار الأندلس، برغم كل ما عليه من مآخذ ومغامز، وما فاته من مباحث ومسائل، وذلك لأن صاحبه اتصل بكتب كثيرة لم يتيسر لغيره الاطلاع عليها، وشافه في الشرق والغرب عدداً كبيراً من الجِلّة وحاضَرَهم، وكان المقري نفسه مولِعاً بأخبار الأندلس، متخصصاً فيها حافظاً من أنبائها، وكلام علمائها، ونظم شعرائها، ولا سيما من أقوال لسان الدين بن الخطيب، وزير بني الأحمر الشهير بما يكاد يكون من المعجزات، ولما كان قد رحل إلى المشرق، كأكثر علماء المغرب، وحج البيت الحرام خمس مرات، وزار المدينة المنورة، والبيت المقدس، انتهى في طوافه إلى دمشق الشام التي أخذت بمجامع فؤاده، فألقى بها عصا التسيار، وتعرف بكثير من علماء الشام وأدبائها وسراتها، فكان ذكر الأندلس أمامهم ملهج لسانه الدائم، وغرام قلبه الملازم، فأرادوه أولاً على تأليف كتاب يتضمن مرويّاته عن لسان الدين بن الخطيب، فصحت عزيمته على ذلك، وبدأ بكتابة هذا الكتاب سنة تسع وثلاثين وألف للهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية. إلاّ أنه بعدما بدأ به بدا له أن يتوسع في الموضوع، ولا يقتصر على أخبار لسان الدين وحده فكان عندما شرع بهذا التأليف سماه «عَرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب» ثم لما أجمع التوسع في الموضوع عاد فسمى كتابه بـ«نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب» وهو لعمري اسم لائق بمسماه، ولفظ موافق لمعناه، ولا أظنه يوجد اسم ألذّ للقارىء من اسم «نفح الطيب» كما أن الملابسة ظاهرة بين قوله «غصن الأندلس الرطيب» ومزايا الأندلس الطبيعية في كثرة جنانها وبساتينها ووفرة فواكهها ورياحينها، وما اتصفت به من الخصب والنماء، وجمعته من زكاء الأرض إلى خير السماء، ولما كان للسان الدين بن الخطيب في هذا الكتاب الحصة الكبرى في الآثار المروية، والأصوات المحكية، لم يكن من العجب أن يجعل اسمه فيه وقد كان في الأصل هو المقصود بالتأليف. هذا وقد كان تأليف المقري للنفح حينما كان مقيماً بالشام، ولذلك قال عنه في المقدمة ما يلي:

«وله بالشام تعلق من وجوه عديدة، هادية لمتأمله إلى الطريق السديدة، أولها أن الداعي لتأليفه أهل الشام، أبقى الله مآثرهم، وجعلها على مرّ الزمان مديدة، ثانيها أن

الفاتحين للأندلس هم أهل الشام، ذوو الشوكة والنجدة الحديدة، ثالثها أن غالب أهل الأندلس من عرب الشام الذين اتخذوا بالأندلس وطناً مستأنفاً وحضرة جديدة. ورابعها أن غرناطة نزل بها أهل دمشق، وسموها باسمها، لشبهها بها في القصر والنهر، والدوح والزهر، والغوطة الفيحاء، وهذه مناسبة قوية العرى شديدة».

قد يكون كلام المقري هذا مما لا يعجب بعض الثائرين على السجع في أخريات هذه الأيام ولكنه ذو معنى كبير، وفيه تصريح خطير، ولذلك فإن ثورة هذه الفئة على السجع، والفاصلة، ليس من شأنها أن تفل من حد رغبتنا في نقل كلام يعود على وطننا الشامي بشقص كهذا من الفخر لم يوفره لغيره ثقة كبير، كأبي العباس أحمد المقري المغربي، إن لم يكن هو حجة في أخبار الأندلس فيا ليت شعري من يكون هو الحجة؟! فنحن رواة عنه، ونقلة من نصوصه بأسجاعها وفواصلها وحروفها وحركاتها.

نعم إن «نفح الطيب» هو كتاب أدب، أكثر منه كتاب تاريخ، وقد قيل فيه، وكاد يلحق بالأمثال السائرة: إنه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، الذي من لم يقرأه فليس بأديب» ولكنه إلى هذا الوقت لا يزال عمدة المنقبين عن آثار الأندلس سواء في التاريخ أو في الجغرافية أو في الأدب أو في المحاضرة برغم كل ما فاته منها، ولا أزال أنا أستقي من منابعه برغم ما نقمت عليه في كتابي «مختصر تاريخ الأندلس» الذي حررته ذيلاً على «آخر بني سراج» Dernier Des Abencerrage الرواية التي من قلم شاتوبريان الكاتب الافرنسي الشهير، وقد ترجمتها إلى العربية واردفتها بتاريخ للأندلس ونشرتهما سنة ١٣١٥.

فيناسب أن أعيد هنا ما كنت قلته من ٤٠ سنة، وهو منقول بالحرف عن صفحة ٦٠ و ٦١ و ٦٢ و ٦٣ من ذلك الكتاب، طبعته الثانية بمطبعة المنار وهو هذا (تحت عنوان) «تمهيد».

إنما حداني إلى تذييل هذه الرواية أمران: الأول إعانة القارىء على فهم الحوادث ومعرفة المواقع، بما تُفقَد بدونه لذة المطالعة. والثاني ما رأيته من اختصار جرم الرواية، فآثرت إردافها بذيل يطيل من قدها، ويزيد في حجمها، ويكون فيه من حقائق الوقائع التاريخية ما لا يقصّر فكاهة عن موهوم الرواية الغرامية، فجاءت روايتنا ذيّالاً، وإن لم نرج أن تكون طاووساً، وليست هذه أول مرة جرّت فيها الروايات أذيالاً، واتخذت القصص أذناباً طوالا.

وما أقصد بهذا الذيل استقصاء تاريخ الأندلس الإجمالي إلا ما اضطر إليه مساق الكلام. فقد كنت منذ نشأتي ممن لا يحبون التأليف فيما كثر فيه التأليف، وطال فيه المقال

كأنما أعده تكراراً لسابق، أو إعادة لصدى، وأراه خلواً من كل براعة. وأخبار الأندلس مستفيضة في التواريخ شرقاً وغرباً، ومعروفة عند الأدباء بما لا يكون التأليف فيه سوى زيادة في عدد الكتب. وإنما يستحب الإنشاء في ما ندر فيه الكلام وعز البحث، وطمست الأعلام، فإذا قرأته العامة، بل الخاصة، سقطت منه على جديد ذي طلاوة، ولم تسأمة النفوس، لعدم تداولها مطالعته المرة بعد الأخرى مدارسة كتب القواعد التي لا تتغير.

فأشد الأقسام عوزاً إلى البحث من تاريخ هذه البلاد ـ التي لا نزال نحسبها عربية لكون أحسن أيامها ما كان من أيام العرب فيها ـ إنما هو القسم الأخير، وأحوج طائفة من أخبارها إلى التدوين ما تعلق بدور الجلاء، وعصر الخروج من بلاد كانت مدة الضيافة فيها ثمانمائة سنة، وذلك لأن هذا الحادث الكبير الذي هو من أضخم الحوادث في الإسلام وقع على حين خمول من القرائح العربية، وبعد مرور زمن العلم والفلسفة عند معشر الناطقين بالضاد، ولدى إقحاط البلاد بالأدمغة المتوقدة، وعقم الأمة عن الرؤوس المولدة، بحيث فاته من التأليف والكتابة فيه ما لم يكن ليفوته لو وقع قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة، فإنه لا عطر بعد عروس.

نعم لا أنكر أن (كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) للعلامة المقري هو من أوفى الكتب بأخبار الأندلس وآدابها: حقيبة أنباء، وقِمَطر حوادث وخزانة آداب، وكشكول لطائف، وديوان أشعار، وقد كان عهد تصنيفه على أثر النازلة الكبرى بباقي الأندلس، وامتصاص سؤر الكاس، وعفاء الأثر الأخير من سلطان المسلمين فيها، بحيث أمكن صاحبه ذكر سقوط مملكة غرناطة، واستيلاء الأسبانيول على الجميع، وختم الدولة الإسلامية في تلك الديار، ولكنه ككثير من مؤرخينا أو مؤلفينا الذين لا يرعون النسبة بين الأشياء ولا ينتبهون إلى قاعدة أن الحسن إنما هو تناسب الأعضاء، فقد بحث في هذا الخطب الجلل، والحادث العمم، بحثاً هو دون حقه بدركات، وأتى عليه كما يأتي على واقعة متوسطة البال، من الوقائع التي أشار إليها في بطن كتابه واستوعبه في أوراق يسيرة، كانت لطافتها تكون في كثافتها، فإن التناسب يقضي باعطاء كل مقام من المقال ما يكافيه، ويقوم بحقه ويجيء على قدره. ولو فسح الفاضل المقري رحمه الله لواقعة سقوط مملكة غرناطة، وحادث انقراض أمر الإسلام بالأندلس، ما فسحه في تاريخه للنثر الكثير، الذي يغني عن كله بعضه من المخاطبات التي صدرت عن لسان الدين بن الخطيب، أو وجهت إليه، أو إلى غيره، أو الشعر الغزير الذي كثير منه حقيق بالإسقاط من ذلك المجموع، والقصص التي يرويها عن بعض المشايخ مع طول أناة غريب في الاستقصاء، مع أنه ليس فيها ما يرفع أقدارهم إلى السماء، لكان ذلك أجزل فائدة وأسنى موقعاً، وكانت الناس قد

شفت غليلها من خبر هذه الطامة التي لكل الحوادث سلوان يسهّلها، وليس لها سلوان، كما قال أبو البقاء الرندي، ولكفينا مؤونة النقل عن كتب الأفرنج فيما يختص بالعرب، وحسبك أنه ذكر جميع وقائع السلطان أبي عبدالله بن الأحمر، وعمه الزغل، وذهاب تلك المملكة، وما جرى في ضمنه من الحروب وما حصر من المدن، في مسافة من التاريخ، استوعبت أطول منها رسالة، واحدة صادرة عن ذلك السلطان إلى الشيخ الوطّاسي صاحب فاس في موضوع أبرد ما فيه، مع طوله، أنه اعتذار عن سقوط آخر ممالك المسلمين بالأندلس على يده، بأن الخطب غير نادر المثال، وأن بغداد، دار خلافة بني العباس، قد أصابها ما أصاب غرناطة! فانظروا هل هذا مما يؤثر على طوله، أو مما ترتاح الأنفس إلى قبوله، على فرض صحة تمثيله؟ وإن كان العذر في ذلك ما يقال من أن صاحب النفح قد ألّفه وهو نِضو أسفار، خال من الأسفار، ليس لديه من العدة ما يستعين به على الإطالة، والأخذ بالأطراف، فسبحان الله! كم يتلهى بعض علمائنا بحفظ ما لا ينفع عن تعليق ما ينفع؟! وهذا الفاضل المقري قد أملى عن ظهر قلبه أربعة مجلدات كبار، أودعها من التاريخ والجغرافية والقصص والنكات، وحشاها من الشعر والنثر والتراجم والتصوف. غثاً وسميناً، ما لا أظن حافظة تتمكن من اختزانه بين صدغين، وتركنا في التاريخ المهم من تفصيل الوقائع الشداد، والمعارك التي سالت فيها أنهر الدماء، في دور النزع الأخير، عيالاً على الأفرنج، مضطرين إلى الأخذ من مصنفاتهم، فكنا وإياهم في أخذ تاريخنا عنهم كما كنا في أخذ لغتنا عن صحاح الجوهري[١].

ولا نشك أن في ديار المغرب من التواريخ عن كارثة الأندلس الأخيرة ما يستوفي شرحها[٢] ولكنه لم يشتهر عندنا في المشرق غير نفح الطيب من متأخر التآليف، وهذه هي

---

(١) إن الجوهري كان فارسياً فلما ألف كتابه الصحاح في لغة العرب قيل إنه قال لهم: خذوا لغتكم عن هذا الرجل الأعجمي. فجعلت أنا هذه الجملة من قبيل المثال. ولما طبعت كتابي هذا طبعته الثانية بمطبعة المنار وكان الأستاذ الأكبر فقيد الإسلام في هذا العام السيد محمد رشيد رضا رحمه الله هو المتولي تصحيح الطبع أخذته الغيرة من جملتي هذه فعلق عليها في الحاشية ما يلي: يعني أخذ العرب لغتهم عن الجوهري وهو أعجمي النسب. ولكنه صار من العرب لغة وأدباً وديناً وكتابه الصحاح أحد معاجم اللغة وقد ألف العرب قبله وبعده معاجم تغني عنه وليس فيه شيء لا يوجد في غيره اهـ. قلت وهذا لا يمنع أن تكون تلك الجملة قد قيلت وأن يكون المثال مطابقاً للحال.

(٢) كنت يومئذ أظن ذلك ولكني لم أجد هذه الضالة بعد البحث والاستقراء إلا ما كان من وجداني «أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر» وكتاب محمد بن عبد الرفيع الأندلسي المتوفى عام اثنين وخمسين وألف أي بعد الجلاء الأخير بخمس وثلاثين سنة اطلعت منه على فصل نقله عنه الشيخ أبو عبدالله محمد أبو جندار في كتابه «تاريخ رباط الفتح» وشيئاً من «أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض».
وعلى كل حال فقول المستشرق «لافي بروفنسال» Lévi-Provençal في الأنسيكلوبيدية الإسلامية=

الحال معه، فلا عجب أن ساقنا حب الاستقصاء، واقتفاء أثر أبناء الجلدة، إلى أخذ أخبارنا عن الأجانب وتلونا: (هذه بضاعتنا ردت إلينا) اهـ.

هذا ما كتبته عن نفح الطيب يوم كنت في السابعة والعشرين من العمر، ولست من بعد مضي تسع وثلاثين سنة على ذلك القول براجع عنه اليوم من حيث الجوهر، وإن كنت أراني الآن أقل قسوة، وأكثر عطفاً على المقري وأعظم تقديراً لما أملاه في كتابه، ولا عجب فالذي عند الشيخ من سعة الطبع، وقبول العذر، ليس عند الشاب.

ولنبدأ الآن وقد أردنا أن ننقل ما جاء في النفح من المعلومات الجغرافية عن الأندلس لنقارن بينها وبين معلومات سائر مؤلفي العرب كابن حوقل والإدريسي وياقوت وغيرهم. قال في الجزء الأول في صفحة ٦٣ من الطبعة الأولى المنسوبة إلى المطبعة الأزهرية المصرية ما يلي:

الباب الأول

في وصف جزيرة الأندلس، وحسن هوائها، واعتدال مزاجها، ووفور خيراتها واستوائها واشتمالها على كثير من المحاسن واحتوائها، وكرم بقعتها التي سقتها سماء البركات بأنوائها، وذكر بعض مآثرنا المجلوة الصور، وتعداد كثير مما لها من البلدان والكور، المستمدة من أضوائها، فأقول:

محاسن الأندلس لا تستوفى بعبارة، ومجاري فضلها لا يشق غباره، وأنّى تجارى وهي حائزة قصب السبق، في أقطار الغرب والشرق؟! قال ابن سعيد: إنما سميت بالأندلس ابن طوبال بن يافث بن نوح لأنه نزلها كما أن أخاه سبت بن يافث نزل العدوة المقابلة لها وإليه تنسب سبته(١). قال: وأهل الأندلس يحافظون على قوام اللسان العربي لأنهم إما عرب أو متعربون(٢) انتهى. وقال الوزير لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى في بعض كلام له أجرى فيه ذكر البلاد الأندلسية، أعادها الله تعالى للإسلام، ببركة المصطفى عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام ما نصه: خص الله تعالى بلاد الأندلس من الربيع وغدق السقيا، ولذاذة الأقوات وفراهة الحيوان، ودرور الفواكه، وكثرة المياه، وتبحر العمران،

= L'Encyclopédie De L'islam إن نفح الطيب هو الوثيقة الوحيدة التي في أيدينا عن حادثة خروج العرب النهائي من اسبانية ليس بصحيح.

(١) هذه من الروايات التي هي أشبه بالأساطير.

(٢) هذا القول ليس كالذي قبله بل هو في غاية الصحة.

وجودة اللباس، وشرف الآنية، وكثرة السلاح، وصحة الهواء، وابيضاض[1] ألوان الإنسان، ونبل الأذهان، وفنون الصنائع، وشهامة الطباع، ونفوذ الإدراك، وأحكام التمدن، والاعتمار بما حرمه الكثير من الأقطار، مما سواها. انتهى.

وقال أبو عامر السلمي في كتابه المسمى «درر القلائد وغرر الفوائد»: الأندلس من الإقليم الشامي[2] وهو خير الأقاليم وأعدلها هواء وتراباً، وأعذبها ماء، وأحسنها حيواناً ونباتاً، وهو أوسط الأقاليم، وخير الأمور أوساطها.

قال أبو عبيد البكري: الأندلس شامية في طيبها وهوائها، يمنية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جباياتها، صينية في معادن جواهرها، عدنية في منافع سواحلها، فيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملي الفلسفة[3]، وكان ملوكهم الذين أثروا الآثار بالأندلس هرقلُس، وله الأثر في الصنم بجزيرة قادس وصنم جيليقية، والأثر في مدينة طرّكونة[4] الذي لا نظير له.

(١) عندما كنت في غرناطة نازلاً في فندق الحمراء أحسن فنادقها كنت أسال عن الأماكن والبقاع دليل ذلك الفندق وكان من الأدباء فقلت له ذات يوم: جئت إلى أسبانية من جهة فرنسة فكنت أظن أن سكان الصقع الشمالي منها أوضأ وجوهاً وأشرق جمالاً من سكان الجنوب فرأيت الأمر بالعكس إذ أني كنت كلما تقدمت إلى الجنوب أرى الوجوه أحسن والقدود أرشق والنعمة أظهر. فأجابني فوراً: هذا صحيح يعلمه كل واحد وذلك لأننا نحن في الجنوب عرب.

(٢) يريد أنها موازية للشام وأنهما على خط واحد ومن المعلوم أن القطر الشامي هو في الجغرافية مثال الاعتدال.

(٣) لليونانيين في أسبانية آثار لا تنكر، لكنها لا تذكر بالقياس إلى آثار الفينيقيين والقرطاجنيين والرومان والذي يلوح لنا أن أبا عبيد البكري حمل أكثر ما في أسبانية القديمة من الآثار على تأثير اليونانيين، وهذا خطأ، أو أنه خلط بينهم وبين الفينيقيين والقرطاجنيين والرومان. والحقيقة أن اليونانيين جاؤوا إلى السواحل الاسبانية من جهة البحر المتوسط، ويظن أن انتجاعهم لهذه السواحل وقع بين سنة ٦٣٠ وسنة ٥٧٠ قبل ميلاد المسيح، ولم ينحصر تبسطهم في سواحل البحر المتوسط، بل اخترقوا بحر الزقاق، وامتدوا على سواحل غاليسية وقنتبرية، ومع هذا فأكثر ما كانت لهم مستعمرات مو في السواحل الشرقية التي هي اليوم سواحل كتلونية إلى بلنسية ودانية. وكانوا يسمون مستعمراتهم هذه أمبورياس Ampurias وتوابعها، ومنها كانوا يتقدمون إلى الداخل لأجل التجارة مع الايبيريين، وأكثر ما بقي عنهم من الآثار إنما وجد في خرابات أمبورياس وروزاس، وهي من آنية الزجاج، ومن الفخار الملون، ومن الحلي، ومن بعض التماثيل، مثل تمثال اسكولاب المحفوظ في متحف برشلونة، ووجدت أيضاً بعض قطع من الفسيفساء، ووجدت مسكوكات مضروبة في أمبورياس وروزاس اللتين يظهر أنهما أول المدن الأسبانية التي وقع فيها ضرب السكة، وكان لليونانيين في أمبورياس وروزاس ودانية معابد للالهة ديانة Diane التي هي من معبودات آسية في الأصل.

(٤) إن الذي أثر الآثار العظيمة في طركونة الباقية إلى يومنا هذا تدهش الناظر وتذهل الخاطر، إنما هو أغسطوس الروماني الذي أقام بها سنة ٢٦ قبل المسيح، فبنى فيها الهيكل العظيم لعبادة الآلهة رومة، =

قال المسعودي: بلاد الأندلس تكون مسيرة عمائرها ومدنها نحو شهرين، ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة. انتهى باختصار. ونحوه لابن اليسع إذ قال: طولها من أربونة إلى أشبونة، وهو قطع ستين يوماً للفارس المجد. وانتقد بأمرين: أحدهما أنه يقتضي أن أربونة داخلة في جزيرة الأندلس، والصحيح أنها خارجة عنها، والثاني أن قوله ستين يوماً للفارس المجد اعياء وافراط، وقد قال جماعة إنها شهر ونصف. قال ابن سعيد: وهذا يقرب إذا لم يكن للفارس المجد. والصحيح ما نص عليه الشريف من أنها مسيرة شهر. وكذا قال الحجاوي. وقد سألت المسافرين المحققين عن ذلك فعملوا حساباً بالمراحل الجيدة أفضى إلى نحو شهر بنيف قليل. قال الحجاري في موضع من كتابه إن طول الأندلس من الحاجز إلى أشبونة ألف ميل ونيف اهـ. وبالجملة فالمراد القريب من غير مشاححة، كما قاله ابن سعيد وأطال في ذلك، ثم قال بعد كلام: ومسافة الحاجز الذي بين بحر الزقاق والبحر المحيط أربعون ميلاً، وهذا عرض الأندلس عند رأسها من جهة الشرق، ولقلّته، سميت جزيرة، وإلاّ فليست بجزيرة على الحقيقة، لاتصال هذا القدر بالأرض الكبيرة، وعرض جزيرة الأندلس في موسطها عند طليطلة ستة عشر يوماً.

واتفقوا على أن جزيرة الأندلس مثلثة الشكل، واختلفوا في الركن الذي في الشرق والجنوب في حيز أربونة، فممن قال إنه في أربونة. وإن هذه المدينة تقابلها مدينة برديل التي في الركن الشرقي الشمالي أحمد بن محمد الرازي، وابن حيان. وفي كلام غيرهما أنه في جهة أربونة، وحقق الأمر الشريف، وهو أعرف بتلك الجهة لتردده في الأسفار براً وبحراً إليها، وتفرّغه لهذا الفن. قال ابن سعيد: وسألت جماعة من علماء هذا الشأن فأخبروني أن الصحيح ما ذهب إليه الشريف، وأن أربونة وبرشلونة(١) غير داخلتين في أرض الأندلس، وأن الركن الموفي على بحر الزقاق بالمشرق بين برشلونة وطرّكونة(٢) في موضع يعرف بوادي «زنلقطو»، وهنالك الحاجز الذي يفصل بين الأندلس والأرض الكبيرة، ذات الألسن الكثيرة، وفي هذا المكان جبل البرت، الفاصل في الحاجز المذكور، وفيه الأبواب التي فتحها ملك اليونان بالحديد والنار والخل، ولم يكن للأندلس من الأرض

= وكانت فيها هياكل أخرى وأبنية يقصر عنها الوصف. وأما قادس فقد كان استولى عليها الفينيقيون، ثم آلت إلى الرومانيين، وسكن بها أناس من اليونانيين، وترك الجميع فيها أثاراً مذكورة. وهيكل قادس المشهور عند العرب بصنم قادس هو من آثار الفينيقيين.

(١) أما اربونة Narbonne فغير داخلة في الجزيرة الايبرية وأما برشلونة فهي داخلة فيها لأن كل ما هو جنوبي جبال البرانس هو داخل في الجزيرة.

(٢) كلا فجبال البرتات ليست بين طركونة وبرشلونة بل هي إلى الشمال منهما وهي الحاجز بين الأندلس والأرض الكبيرة.

الكبيرة قبل ذلك في البر. وذكر الشريف أن هذه الأبواب في مقابلتها في بحر الزقاق البحر الذي بين جزيرتي ميورقة ومنورقة، وقد أخبر بذلك جمهور المسافرين لتلك الناحية. ومسافة هذا الجبل الحاجز بين الركن الجنوبي والركن الشمالي أربعون ميلاً قال: وشمال الركن المذكور عند مدينة برديل، وهي من مدن الأفرنجة، مطلة على البحر المحيط، في شمال الأندلس. قال: ويتقهقر البر بعد تميز هذا الركن إلى الشمال في بلاد الفرنجة، ولهم به جزائر كثيرة، وذكروا من الركن الشمالي عند «شنت[1] ياقوه» من ساحل الجلالقة في شمال الأندلس، حيث تبتدىء جزيرة «برطانية[2] الكبيرة» فيصوّر هنالك بحر داخل بين أرضين، من الناس من يجعله بحراً منفرداً خارجاً من البحر المحيط، لطوله إلى الركن المتقدم الذكر عند مدينة برديل[3]. وذكر الشريف: أن عند شنت ياقوه في هذا الركن المذكور، على جبل بمجمع البحرين، صنماً مطلاً مشبهاً بصنم قادس.

(١) Santiago.

(٢) Grande- Bretagne.

(٣) إن سكان أسبانيا الأصليين لم يتركوا كتابات تاريخية ولا جغرافية عن بلادهم، كما يصرح به الاستاذ رافائيل بالستر Ballester أحد علماء التاريخ في أسبانية الذي ألف أحسن تاريخ لتلك المملكة، ونشر كتابه سنة ١٩١٧، ثم أعيد طبعه مراراً، لاقبال الناس عليه، بما فيه من تحقيق وتمحيص، واختصار لا يفوت معه معنى مهم، واجتناب للخوض في ما لم يثبت بطريقة علمية. فهو الذي يقول: إن جميع ما ورد من المعلومات القديمة عن أسبانية إنما جاء في كتب الرومان واليونان، وهي أيضاً معلومات ناقصة، ومنها ما ليس مستنداً إلى وثائق يركن إليها. ثم قال: إن أقدم كتاب ورد فيه ذكر أسبانية هو كتاب الأوديسة Odyssée المنسوب إلى هوميروس، وهو ديوان شعر شهير، وقد جاء فيه ذكر أسبانية تحت اسم «سيكانية» Sicania وأنها بقعة خصيبة في أقصى المغرب. وفي المائة الخامسة قبل المسيح كان اليونان يعرفون جنوبي أسبانية، ويسمون ذلك القطر ببلاد تارتسيد Tarteside ويعرفون أيضاً القسم الشرقي من أسبانية، ويقولون له «ايبيرية» نسبة إلى نهر إبره، وقد شمل هذا الاسم فيما بعد سائر شبه الجزيرة الايبيرية. أما اسم «اسبيرية» Hespéria فيظهر أنه كان اسماً شعرياً أطلقه اليونان على جميع الأقاليم الغربية. ولم يكن جغرافيو اليونان بادىء ذي بدء يعرفون خليج غشقونية Gascogne، وكانوا يظنون أن أسبانية إنما هي على مساواة غالية، أي جنوبي فرنسة. وبقي الأمر كذلك إلى القرن الرابع قبل المسيح، فجاء سائح اسمه بيتياس Pythéas فاطلع على أن في شمال أسبانية إلى الغرب بحراً يجعل أسبانية عبارة عن شبه جزيرة. ومن ذلك الوقت صار يقال لأسبانية شبه الجزيرة الايبيرية. وأول ما عرف الأقدمون من أسبانية هو السواحل الجنوبية والشرقية، أي من جبال البيرانس إلى أعمدة هرقل التي هي بوغاز جبل طارق، وأما السواحل الجنوبية فكانت عندهم تنتهي برأس سان فنسان Saint- Vincent كما أن الساحل الشمالي كان ينتهي برأس اورتغال Ortegal فكان الأولون يتصورون سواحل أسبانية من جهة الجنوب تصوراً صحيحاً، أما من جهة الغرب فكانت في تخيلهم أقصر مما هي الواقع. فأما أواسط أسبانية فلم تعرف إلا في المائة الثانية قبل المسيح. قال المؤرخ رافائيل بالستر: إن بين أسبانية وأفريقية تشابهاً عظيماً من الجهة الجغرافية، وقال أيضاً: إن أحسن وصف لأسبانية مما تركه الأقدمون هو ما جاء في كتاب سترابون الجغرافي اليوناني الذي وجد قبل المسيح بقرن واحد.

والركن الثالث بمقربة من جبل الأغن حيث صنم قادس. والجبل المذكور يدخل من غربه مع جنوبه بحر الزقاق من البحر المحيط، ماراً مع ساحل البحر الجنوبي إلى جبل البرت المذكور. انتهى.

والكلام في مثل هذا طويل الذيل. قال الشيخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي: بلد الأندلس هو آخر الإقليم الرابع إلى المغرب، وهو عند الحكماء بلد كريم البقعة، طيّب التربة، خصب الجنات، منبجس الأنهار الغزار، والعيون العذاب، قليل الهوام ذوات السموم، معتدل الهواء والجوّ والنسيم، ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال، وسِطَة من الحال، لا يتولد في أحدها فصل يتولد منه فيما يتلوه انتقاص، تتصل فواكهه أكثر الأزمنة، وتدوم متلاحقة غير مفقودة. أما الساحل منه ونواحيه فيبادر بباكوره. وأما الثغر وجهاته، والجبال المخصوصة ببرد الهواء، فيتأخر بالكثير من ثمره، فمادة الخيرات بالبلد متمادية في كل الأحيان، وفواكهه على الجملة غير معدومة في كل أوان. وله خواص في كرم النبات توافق في بعضها أرض الهند المخصوصة بكرم النبات وجواهره، منها أن المحلب وهو المقدّم في الأفاوية، والمفضّل في أنواع الأُشْنان[١] لا ينبت بشيء من الأرض إلاّ بالهند والأندلس، وللأندلس المدن الحصينة، والمعاقل المنيعة، والقلاع الحريزة، والمصانع الجليلة، ولها البرّ والبحر، والسهل والوعر، وشكلها مثلث، وهي معتمدة على ثلاثة أركان، الأول هو الموضع الذي فيه صنم قادس المشهور بالأندلس، ومنه مخرج البحر المتوسط الشامي، الآخذ بقبلي الأندلس. والركن الثاني هو بشرقي الأندلس، بين مدينة نربونة، ومدينة برديل، مما بأيدي الفرنجة اليوم، بإزاء جزيرتي ميورقه ومنورقة، بمجاورة من البحرين، البحر المحيط والبحر المتوسط، وبينهما البر الذي يعرف بالأبواب، مسيرة يومين. ومدينة نربونة تقابل البحر المحيط[٢]. والركن الثالث منها هو ما بين الجوف[٣] والغرب من حيز جلّيقية، حيث الجبل الموفي على البحر، وفيها الصنم العالي المشبه بصنم قادس، وهو الطالع على بلد برطانية. قال: والأندلس اندلسان في اختلاف هبوب رياحها، ومواقع أمطارها، وجريان أنهارها: اندلس غربي، واندلس شرقي. فالغربي منها ما جرت أوديته إلى البحر المحيط الغربي، وتمطر بالرياح الغربية، ومبتدأ هذا الحوز من ناحية المشرق مع المَفازَة الخارجة مع الجوف، إلى بلد شنتمرية، طالعاً إلى حوز «اغريطة»[٤] المجاورة لطليطلة، مائلاً إلى الغرب، ومجاوراً للبحر

(١) بضم أوله هو الحمض الذي يغسل به الأيدي وقد يكسر أوله.

(٢) سهو من الناسخ فإن نربونة تقابل البحر المتوسط.

(٣) المغاربة والأندلسيون يقولون للشمال الجوف كما تقدم الكلام عليه وسنعود إليه.

(٤) أظن أنه المكان الذي يقول له الاسبانيول Agredas.

المتوسط، الموازي لقرطاجنة الخلفاء، التي من بلد لورقة، وللحوز الشرقي المعروف بالأندلس الأقصى. وتجري أوديته إلى الشرق، وأمطاره بالريح الشرقية، وهو من حدّ جبل البشكنس، هابطاً مع وادي «إبره»[(١)] إلى بلد «شنت[(٢)] مرية»، ومن جوف هذا البحر وغربه المحيط، وفي القبلة منه البحر الغربي، الذي منه يجري البحر المتوسط، الخارج إلى بلد الشام، وهو البحر المسمّى ببحر «تيران»[(٣)] ومعناه الذي يشق دائرة الأرض، ويسمّى البحر الكبير. انتهى.

قال أبو بكر عبدالله بن عبد الحكم المعروف بابن النظّام: بلد الأندلس عند علماء أهله اندلسان: فالأندلس الشرقي منه ما صبّت أوديته إلى البحر الرومي المتوسط المتصاعد من أسفل أرض الأندلس إلى المشرق، وذلك ما بين مدينة تدمير إلى سرقسطة. والأندلس الغربي ما صبّت أوديته إلى البحر الكبير المعروف بالمحيط، أسفل من ذلك الحدّ، إلى ساحل المغرب. فالشرقي منهما يمطر بالريح الشرقية، ويصلح عليها؛ والغربي يمطر بالريح الغربية، وبها صلاحه، وجباله هابطة إلى الغرب، جبلاً بعد جبل. وإنما قسمته الأوائل جزئين لاختلافهما في حال امطارهما، وذلك أنه مهما استحكمت الريح الغربية، كثر مطر الأندلس الغربي، وقحط الأندلس الشرقي، ومتى استحكمت الريح الشرقية كثر مطر الأندلس الشرقي، وقحط الغربي. وأودية هذا القسم تجري من الشرق إلى الغرب، بين هذه الجبال. وجبال الأندلس الغربي تمتدّ إلى الشرق، جبلاً بعد جبل، تقطع من الجوف إلى القبلة، والأودية التي تخرج من تلك الجبال يقطع بعضها إلى القبلة، وبعضها إلى الشرق، وتنصبّ كلها إلى البحر المحيط، بالأندلس القاطع إلى الشام، وهو البحر الرومي. وما كان من بلاد جوفي الأندلس من بلاد جليقية وما يليها، فإن أوديَتَه تنصب إلى البحر الكبير المحيط بناحية الجوف [(٤)] (وصفة الأندلس) شكل مركن على مثال الشكل

(١) Ebro.

(٢) Santa Maria.

(٣) يكتب بالأفرنسية هكذا Tyrrhenienne وهو البحر الذي يفصل بين ايطالية وقورسقة وسردانية وصقلية.

(٤) تقدم لنا أن أخواننا المغاربة اصطلحوا على تسمية الشمال بالجوف، وأننا بحثنا كثيراً حتى نعلم وجه هذه التسمية، لأنه ليس في كتب اللغة ما يدل على أن الجوف يعني به الشمال، بل الجوف في اللغة هو المطمئن من الأرض، وهو داخل الشيء: فمن الإنسان بطنه، ومن البيت داخله. ولا مناسبة بين الشمال والجوف في شيء. ومع هذا فلا تكاد في جميع كتب الأندلس تجد معنى الشمال معبراً عنه بغير الجوف، مما حدانا أن نسأل إخواننا المعروفين بسعة الاطلاع في اللغة، وأصالة الرأي في توجيه معاني الألفاظ، عما يرونه من وجه هذا الاصطلاح، فالسيد علال الفاسي من رؤوس أدباء المغرب، رأى كما تقدم الكلام عليه، أن الجوف بلاد واقعة في شمالي مكة فكما أن الجنوب يسمى بالقبلة في بلاد الشام، أصبح الجوف علماً على الشمال بالنسبة إلى أهل الحجاز، ومن هنا غلب هذا الاستعمال =

المثلث، ركنها الواحد فيما بين الجنوب والمغرب، حيث اجتماع البحرين عند صنم قادس. وركنها الثاني في بلد جلّيقية، حيث الصنم المشبه صنم قادس، مقابل جزيرة بريطانية، وركنها الثالث بين مدينة نربونة، ومدينة برديل من بلد الفرنجة، بحيث يقرب البحر المحيط من البحر الشامي المتوسط فيكادان يجتمعان في ذلك الموضع فيصير بلد

= في المغرب والأندلس. وقد استحسن هذا الرأي الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق. وأما الأستاذ الأب انسطاس الكرملي فمال إلى القول بأن الذين أطلقوا الجوف على الشمال لا بد أن يكونوا أهالي شمالي أفريقية لأن الريح الشمالية تهب عليهم من جوف البحر المتوسط فصار كل شمالي عندهم جوفاً. ثم إنه جاءني جواب في هذا الموضوع من الأستاذ الشيخ خضر حسين التونسي يقول فيه: إن أهل تونس كما يسمون الجنوب بالقبلة، يسمون الشمال بالجوف. وتجد هذا الاستعمال فاشياً في تحديد الأرضين، ويظهر أنه جاء إلى تونس من الأندلس، وكنت أخبرت الأستاذ الخضر عما ظهر للأستاذ علال الفاسي من جهة هذا الاستعمال ففي جوابه قال لي: إنه قد خطر ذلك على باله، ولكن لم يطمئن إليه لأن هذه الكلمة بهذا المعنى لم تستعمل إلا بالمغرب والأندلس. ويظهر أن أصل استعمالها هو في الأندلس، فربما كان السبب فيه أن العرب دخلوا الأندلس من جهة الجنوب، فكان الجوف عندهم هو داخل البلاد، وهو في الشمال كما لا يخفى، فصار الشمال عندهم مرادفاً للجوف. وأما كاتب هذه السطور فقد كنت من أول الأمر أظن أن العرب لما كانوا قد دخلوا الأندلس من الجنوب، وتوغلوا فيها إلى الشمال، وصلوا إلى ما يسمونه بالأرض الكبيرة، شمالي البرانس، وهي وسط القارة الأوربية، لاطرفها كما هي أسبانية فصاروا يقولون للأرض الكبيرة جوفاً، ولما كانت الأرض الكبيرة هي في الشمال نحراً، صار الشمال والجوف عندهم مترادفين. وقد جاءني من السيد علال الفاسي مؤخراً كتاب يقول فيه: «وأما رأيكم فقد وجدت ما يستأنس له به في كلام ابن خلدون فقد جاء عنده في صفحة ٣٠٣ ما لفظه: «وقال هوروشيوش أن نيرون قيصر انتقض عليه أهل مملكته، فخرج عن طاعته أهل بريطانية من أهل الجوف، ورجع أهل أرمينية والشام إلى طاعة الفرس» اهـ. وخلاصة القول إن الأستاذين عبد القادر المغربي وعلال الفاسي يميلان إلى القول بأن الجوف استعمل للشمال لوقوع بلاد الجوف في شمالي مكة، كما استعملت القبلة لمعنى الجنوب لوقوعها في شمالي الشام، وأن العلامة الكرملي يرى التسمية المذكورة بدأت عند أهل شمالي أفريقية، لكون الرياح الشمالية تهب على بلادهم من «جوف» البحر المتوسط، وأن العلامة خضر حسين التونسي يذهب إلى رأي قريب من رأي هذا العاجز، وهو أن العرب جاؤوا الأندلس من الجنوب، فكان داخلها أو جوفها هو الشمال في نظرهم، وفي الواقع، فأطلقوا كلمة الجوف على كل ما هو شمالي. وإنما الفرق هو في أني أنا أظن أن الجوف عند العرب لم يكن جوف الأندلس نفسها، ولكن جوف القارة الأوروبية كلها، لأن الأندلس في ذاتها هي طرف بالنسبة إلى القارة المذكورة، فالأندلس وجزر البحر المتوسط وايطالية هي بالنسبة إلى أوروبة معدودة من الأطراف، والجوف هو وسط القارة. ولما كان هذا الوسط هو في الشمال بالنسبة إلى أهل المغرب وعرب الأندلس، فقد أطلق هؤلاء اسم الجوف على الشمال وكلام ابن خلدون فيه ما يدل على هذا، لأنه يذكر انتقاض أهل بريطانية، وهم أهل شمالي فرنسة وجزيرة انكلترة، ويعدهم أهل وسط أوروبة فهذه هي الآراء المختلفة في هذا التوجيه وللقارىء أن يختار منها ما يشاء.

الأندلس جزيرة بينهما في الحقيقة، لولا أنه يبقى بينهما برزخ برية صحراء وعمارة مسافة مسيرة يوم للراكب منه المدخل إلى الأرض الكبيرة. التي يقال لها الأبواب، ومن قِبَلِهِ يتصل بلد الأندلس بتلك البلاد المعروفة بالأرض الكبيرة، ذات الألسن المختلفة.

قال: وأول من سكن بالأندلس على قديم الأيام، فيما نقلته الأخباريون، من بعد عهد الطوفان، على ما يذكره علماء عجمها، قوم يعرفون بالأندلش، معجمة الشين بهم سمِّي المكان، فعرّب فيما بعد بالسين غير المعجمة، كانوا الذين عمروها، وتناسلوا فيها وتداولوا ملكها دهراً، على دين التمجّس والإهمال والإفساد في الأرض، ثم أخذهم الله بذنوبهم، فحبس المطر عنهم، ووالى القحط عليهم، وأعطش بلادهم حتى نضبت مياهها، وغارت عيونها، ويبست أنهارها، وبادت أشجارها، فهلك كثرهم، وفرّ من قدر على الفرار منهم، فاقفرت الأندلس منهم وبقيت خالية، فيما يزعمون، مائة سنة وبضع عشر سنة، وذلك من حد بلد الفرنجة إلى حد بحر الغرب الأخضر وكان عدّة ما عمرتها هذه الأمة البائدة مائة عام وبضع عشرة سنة. ثم ابتعث الله لعمارتها الأفارقة(1)، فدخل إليها بعد

---

(١) أي أهل أفريقية. وهذا الرأي الذي قاله ابن النظام معروف في أوروبة قال رافائيل بالاستر في تاريخ أسبانية ما خلاصته: إن الذين عمروا أسبانية قبل الجميع هم الليقوريون Ligures والايبيريون Ibères والسلتيون Celtes فأما أصل الليقوريين فمجهول، ولا يعرف وجودهم إلا من بعض أسماء البقاع، وكل ما يقال عن أصلهم فهو رجم بالغيب: وأما الايبريون فقد ذهب قوم إلى أن أصلهم هو من آسية، وقيل إنهم من أصل سامي أفريقي، وذلك لشدة التشابه بين الايبريين وبين قبائل الأطلس، والبرابر والطوارق، سواء في الملامح، أو في المنازع والأخلاق ومن المؤرخين من يرى أن الايبيريين هم أجداد الباشكنس الحاليين، ويستدلون على هذا ببعض أدلة لغوية. أما السلتيون فهم شعب طرأ من آسية على غربي أوروبة والوسط منها وقد انتجعوا أسبانية في القرن السادس قبل المسيح، وأقاموا بغربيها وموسطتها، وتلاقوا مع الايبيريين، ولم يطرد أحد الفريقين الآخر. وكانت نتيجة تساكن هذين العنصرين تولد اسم «السلتيبير» Celtibères أي السلتي الايبيري وهو اسم أطلق على الأيبيريين الذين في أواسط أسبانية وقد عرف هذا الاسم منذ سنة ٢١٨ قبل المسيح وبالاختصار كانت أسبانية لذلك العهد منقسمة إلى ما يلي: القسم الشمالي الشرقي الذي يقطنه الباشكسنس، مثل بيسقاية ونبارة، ووشقة، والفاردول Vardules في «قيبوسقوا» Guipuzcoa. والايلرجيت Illergetes في لاردة. والكوزيتان Cosétanes في طركونة واللاسيتان Lacétanes في برشلونة والاوسيتان Ausétanes، والانديجيت Indigétes في جرنده Géronne، والايديتان Edetans في بلنسية، والباستيتان Bastitans في لقنت ومرسية، والترديتان Turdetans والتردول Turdules والتارتيز Tarteses في الجنوب من بوغاز المانش. والكاربيتان Carpétans في طليطلة. والاريتاك Arévaques في شوريه Soria وومانسيه Numancia مع المقاطعات السلتيبرية الممتدة من الوادي الجوفي Dourv إلى أرض بلنسية Palencia (هي غير بلنسية Valencia) حيث يسكن الفاسيون Vacéens ثم القسم الثالث الذي يقطنه القنتبريون Cantabres أهل سنت اندر (أوشنت ادرم) والاستوريون Astures (أو الاشتوريون) والغاليسيون =

اقفارها تلك المدة الطويلة، قوم منهم، أجلاهم ملك أفريقية تخفيفاً منهم، لإمحال توالى على أهل مملكته، وتردد عليهم، حتى كاد يفنيهم، فحمل منهم خلقاً في السفن مع قائد من قِبَله يدعى أبطريقس، فأرسوا بريف الأندلس الغربي، واحتلوا بجزيرة قادس، فاصابوا الأندلس قد أُمِطرت وأخصبت فجرت أنهارها، وانفجرت عيونها، وحييت أشجارها، فنزلوا الأندلس مغتبطين وسكنوها معتمرين وتوالدوا فيها، فكثروا، واستوسعوا في عمارة الأرض، ما بين الساحل الذي أرسوا فيه بغربيها، إلى بلد الأفرنجة من شرقيها، ونصبوا من أنفسهم ملوكاً عليهم، ضبطوا أمرهم، وتوالوا على إقامة دولتهم، وهم مع ذلك على ديانة من قبلهم من الجاهلية، وكانت دار مملكتهم «طالقة» الخراب اليوم، من أرض أشبيلية، اخترعها ملوكهم وسكنوها، فاتسق ملكهم بالأندلس مائة وسبعة وخمسين عاماً، إلى أن أهلكهم الله تعالى ونسخهم بعجم رومة، بعد أن ملك من هؤلاء الأفارقة في مدتهم تلك أحد عشر ملكاً.

ثم صار ملك الأندلس إلى عجم رومة، وملكهم أشبان بن طيطش؟. وباسمه سميت الأندلس اشبانية. وذكر بعضهم أن اسمه أصبهان، فاحيل بلسان العجم، وقيل بل كان مولده باصبهان، فغلب اسمها عليه[1]؟ وهو الذي بنى اشبيلية، وكان اشبانية اسماً خالصاً لبلد اشبيلية، الذي كان ينزله اشبان هذا ثم غلب الاسم بعده على الأندلس كله. فالعجم الآن يسمونه اشبانية، لآثار اشبان هذا فيه، وكان أحد الملوك الذين ملكوا أقطار الدنيا، فيما زعموا، وكان غزا الأفارقة، عند ما سلطه الله عليهم في جموعه ففض عساكرهم، واثخن فيهم، ونزل عليهم بقاعدتهم «طالقة»[2] وقد تحصنوا فيها منه، فابتنى عليهم مدينة اشبيلية اليوم واتصل حصره وقتاله لهم، حتى فتحها الله عليه وغلبهم، واستوت له مملكة الأندلس باسرها، ودان له من فيها، فهدم مدينة طالقة ونقل رخامها وآلاتها إلى مدينة أشبيلية، فاستتم بناءها. واتخذها دار مملكته واستغلظ سلطانه في الأرض، وكثرت جموعه، فعلاً، وعظم عتوّه. ثم غزا إيليا، وهي القدس الشريف، من أشبيلية، بعد سنتين

= Gallaiques أهل غاليسيا Galicia وقبائل سلتية ساكنة بين البحر المحيط والوادي الجوفي والأمة التي يقال لها اللوزيتانيون Lusitains وهم أقوى أمة ايبرية بين الوادي الجوفي ووادي يانة أي البرتغال وشمالي الاسترامادور. وإلى الشرق من لوزيتانية كان يسكن الفتونيون Vettons وكان في جزيرتي ميورقة ومينورقة قوم يقال لهم «الجيمناز» Gimnèses وفي جزيرة يابسة قوم يقال لهم «البيتيوز» Pytieuses.

(١) لم نعثر على شيء من هذا في كلام المحققين.

(٢) جاء ذكر طالقة هذه في معجم البلدان لياقوت قال: طالقة ناحية من أعمال اشبيلية بالأندلس. وقرأت أسماء علماء من العرب منسوبين إلى طالقة.

من ملكه، خرج إليها في السفن فغنمها وهدمها وقتل فيها من اليهود مائة ألف واسترق مائة ألف، ونقل رخام إيليا وآلاتها إلى الأندلس وقهر الأعداء، واشتد سلطانه. إنتهى.

وذكر بعض المؤرخين: أن الغرائب التي أصيبت في مغانم الأندلس أيام فتحها كمائدة سليمان عليه الصلاة والسلام، التي أَلْفاها طارق بن زياد بكنيسة طليطلة، وقُلَيْلة[١] الدر التي أَلفاها موسى بن نصير بكنيسة ماردة، وغيرهما من ظرائف الذخائر، إنما كانت مما صار لصاحب الأندلس من غنيمة بيت المقدس إذ حضر فتحها مع بختنصّر[٢]، وكان اسم ذلك الملك بريان؛ وفي سهمه وقع ذلك ومثله، مما كانت الجن تأتي به نبي الله سليمان[٣]، على نبينا وعليه وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام، انتهى.

وقال غير واحد من المؤرخين، كان أهل المغرب الأقصى يضرون بأهل الأندلس لاتصال الأرض، ويلقون منهم الجهد الجهيد في كل وقت، إلى أن اجتاز بهم الاسكندر[٤]، فشكوا حالهم إليه، فأحضر المهندسين، وحضر إلى الزقاق، فأمر المهندسين بوزن سطح الماء من المحيط والبحر الشامي، فوجدوا المحيط يعلو البحر الشامي بشيء يسير فأمر برفع البلاد التي على ساحل البحر الشامي ونقلها من الحضيض إلى الأعلى، ثم أمر بحفر ما بين طنجة وبلاد الأندلس من الأرض، فحفرت حتى ظهرت الجبال السفلية، وبنى عليها رصيفاً بالحجر والجيار بناء محكماً، وجعل طوله اثني عشر ميلاً، وهي المسافة التي كانت بين البحرين، وبنى رصيفاً آخر يقابله من ناحية طنجة، وجعل بين الرصيفين سعة ستة أميال، فلما كمل الرصيفان حفر من جهة البحر الأعظم وأطلق فم الماء بين الرصيفين، فدخل في البحر الشامي، ثم فاض ماؤه فأغرق مدناً كثيرة، وأهلك أمماً عظيمة، كانت على الشطين[٥]، وطفا الماء على الرصيفين إحدى عشر قامة. فأما الرصيف الذي يلي بلاد الأندلس فإنه يظهر في بعض الأوقات إذا نقص الماء، ظهوراً بيّناً مستقيماً، على خط واحد، وأهل الجزيرتين يسمونه القنطرة وأما الرصيف الذي من جهة العدوة، فإن الماء حمله في صدره، واحتفر ما خلفه من الأرض اثني عشر ميلاً. وعلى طرفه من جهة المغرب قصر الجواز، وسبتة، وطنجة. وعلى طرفه من الناحية

---

(١) تصغير قلة بمعنى جرة.

(٢) المعروف أن الذي فتح بيت المقدس من ملوك بابل هو نبوكد نصر الثاني ابن نابوبولصر وكان قد خلف أباه سنة ٦٠٤ قبل المسيح وهو الذي حصر بيت المقدس مرتين سنة ٥٩٧ ثم سنة ٥٨٦ وسبى بني إسرائيل السبي الشهير المعروف بسبي بابل.

(٣) هذه كلها من أساطير الأولين.

(٤) ومتى اجتاز بهم الاسكندر؟

(٥) بمقتضى هذه الأساطير يكون الاسكندر اتقى الضرر الأخف بالضرر الأشد.

الأخرى جبل طارق بن زياد، وجزيرة طريف، وغيرهما والجزيرة الخضراء، وبين سبتة والجزيرة الخضراء، عرض البحر. انتهى ملخصاً. وقد تكرر بعضه مع ما جلبناه، والعذر بيّن، لارتباط الكلام بعضه ببعض.

وقال ابن سعيد: ذكر الشريف(١) أن لاحظ لأرض الأندلس في الإقليم الثالث قال: ويمر بجزيرة الأندلس الإقليم الرابع على ساحلها الجنوبي، وما قاربه من قرطبة واشبيلية ومرسية وبلنسية، ثم يمر على جزيرة صقلية، وعلى ما في سمتها من الجزائر، والشمس مدبّرة له. والإقليم الخامس يمر على طليطلة، وسرقسطة، وما في سمتها إلى بلاد أرغون التي في جنوبها برشلونة، ثم يمر على رومية وبلادها، ويشق بحر البنادقة، ثم يمر على القسطنطينية، ومدبّرته الزهرة. والسادس على ساحل الأندلس الشمالي الذي على البحر المحيط وما قاربه، وبعض البلاد الداخلة في قشتالة وبرتقال وما في سمتها. وعلى بلاد برجان والصقالبة والروس، ومدبره عطارد، ويمر الإقليم السابع في البحر المحيط، الذي في شمال الأندلس، إلى جزيرة انقلطرة، وغيرها من الجزائر، وما في سمتها من بلاد الصقالبة وبرجان(٢). قال البيهقي: وفيه تقع جزيرة تولى، وجزيرتا أجبال والنساء. وبعض بلاد الروس الداخلة في الشمال والبلغار ومدبّره القمر. اهـ.

وقال بعض العلماء ما معناه إن النصارى أعطوا عن الآخرة بستاناً متصلاً من البحر المحيط بالأندلس إلى خليج القسطنطينية وعندهم عموم الشاه بلوط، والبندق، والجوز، والفستق، وغير ذلك مما يكون أكثر وأمكن في الأقاليم الباردة، والتمر عندهم معدوم، وكذا الموز وقصب السكر، وربما يكون شيء من ذلك في الساحل، لأن هواء البحر يدفىء. اهـ.

قال ابن حيان في المقتبس: ذكر رواة العجم أن الخضر عليه السلام وقف على أشبان المذكور وهو يحرث الأرض بفدن له أيام حراثته فقال له: يا أشبان إنك لذو شأن، وسوف يحظيك زمان، ويعليك سلطان. فإذا أنت غلبت على إيليا، فارفق بذرية الأنبياء. فقال له أشبان: أساخر بي رحمك الله؟ أنّى يكون هذا مني وأنا ضعيف ممتهن حقير فقير؟ ليس مثلي ينال السلطان! فقال له: قد قدَّر ذلك فيك من قدّر في عصاك اليابسة ما تراه فنظر

(١) يعنون بالشريف الشريف الإدريسي.

(٢) برجان بالجيم بلد من نواحي الخزر، قاله ياقوت في معجم البلدان، قال المنجمون: هو في الاقليم السادس، وطوله أربعون درجة، وعرضه خمس وأربعون درجة، وكان المسلمون غزوه في أيام عثمان رضي الله عنه، فقال أبو نجيد التميمي:

بدأنا بجيلان فزلزل عرشهم ... كتائب تزجى في الملاحم فرسانا
وعدنا لاشيان بمثل عداتهم ... فعادوا جوالى بين روم وبرجانا

أشبان إلى عصاه فإذا بها قد أورقت فريع لما رأى من الآية، وذهب الخضر عنه، وقد وقع الكلام بخلده، ووفرت في نفسه الثقة بكونه، فترك الامتهان من وقته، وداخل الناس، وصحب أهل البأس منهم، وسما به جَدّه، فارتقى في طلب السلطان حتى أدرك منه عظيماً، وكان منه ما كان، ثم أتى عليه ما أتى على القرون قبله. وكان ملكه كله عشرين سنة.

وتمادى ملك الاشبانيين بعده إلى أن ملك منهم الأندلس خمسة وخمسون ملكاً.

ثم دخل على هؤلاء الاشبانيين من عجم رومة أمة يدعون البشتولقات وملكهم طلويش بن بيطه، وذلك زمن بعث المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، أتوا الأندلس من قبل رومة، وكانوا يملكون أفرنجة معها، ويبعثون عمالهم إليها، فاتخذوا دار مملكتهم بالأندلس مدينة ماردة(1)، واستولوا على مملكة الأندلس، واتصل ملكهم بها مدة، إلى أن

---

(1) المعروف أن الذين بنوا ماردة هم الرومانيون، وذلك قبل المسيح بخمس وعشرين سنة لا غير، وسموها «أوغستا أميريتا» Augusta Emérita وكانت قاعدة ولاية «لوزيتانيا» ثم عظمت ونمت حتى صار يقال لها «رومة الاسبانيولية» ودخل عليها القوط وهي بهذه الحالة، وأما «الشتولقات» فلم نعرف من يعني بهم مؤرخونا؟ وهم معذورون في عدم تمحيص التاريخ في القرون الوسطى التي كان التاريخ القديم فيها لا يزال في مهد الطفولية سواء في الشرق أو في الغرب والمظنون أنهم يريدون بهم الفيزيقوط Visigots أما «أشبان» هذا فلم نعرفه، ولا عرفنا عنه شيئاً، ولا سمعنا بغزوه بيت المقدس ولا بإخضرار العصا في يده. وجل ما عرفنا عن الذين كانوا يلون أسبانية قبل القوط أنهم من أمة «السويف» Suèves وهي أمة جرمانية زحفت من الشمال إلى الجنوب نظير القوط. ويقال إنها من نفس الجنس الجرماني الذي يقال له اليوم «سڤاب» Swab وأن القوط نزعوا من أيديهم القسم الشمالي الغربي من أسبانية سنة ٥٨٥ قبل المسيح ومن ذلك الوقت كانت الدولة للقوط الملقبين «بالفيزيقوط» وربما كان العرب رأوا فيهم جنساً آخر غير الجنس القوطي، على حين أنهم هم قوط الغرب، كما أن «الأوستروقوط» هم قوط الشرق. وكلا الفريقين استولى على ايطالية وتقدم إلى جنوبي فرنسة، ثم فتح القوط الغربيون أسبانية، كما ذكرنا، وتولى أول ملك منهم عليها سنة ٥٣١ ب م واسمه «طوديش» Theudis ثم «طيوديجيزل» Théodigisèle سنة ٥٤٨ ثم «اجيلا» Agila سنة ٥٤٩ ثم «أتناجيلد» Atanagild سنة ٥٥٤ ثم «ليوبا» الأول Libua سنة ٥٦٧ ثم «ليوڤيجيلد» Léowigild سنة ٥٧٢ ثم «هرمينيجلد» Herménigild سنة ٥٨٥ ثم «ريكاريد» Récarède سنة ٥٨٦ ثم «ليوبا» الثاني سنة ٦٠١ ثم «فيتريك» Vitceic سنة ٦٠٣ ثم «غندمار» Gondemar سنة ٦١٠ ثم «سيزبوط» Sisebut سنة ٦١٢ ثم «ريكاريد» الثاني سنة ٦٢١ ثم «سونتيلا» Suintila سنة ٦٢١ ثم «ريسيمر» Ricimer سنة ٦٢٥ ثم سيزيناند Sisenand سنة ٦٣١ ثم «شنتيلا» Chintila سنة ٦٣٦ ثم «طولغا» Tulga سنة ٦٤٠ ثم «شنداسنت» Chindasuinte سنة ٦٤٢ ثم «ريسيزوينت» سنة ٦٥٢ ثم «فامبا» Vamba سنة ٦٧٢ ثم «أرفيج» Ervige سنة ٦٨٠ ثم «أجيزا» Egiza سنة ٦٨٧ ثم «فيتيزا» Witiza سنة ٧٠٠ ثم «رودريك» أو «لذريق» Rodrique سنة ٧١٠. والذي يلوح لنا من المقابلة بين هذه الروايات التي في بعض كتب العرب وبين تواريخ الافرنج المعول عليها أن الذين يعنيهم ابن حيان بقولهم «البشتولقات» هم=

ملك منهم سبعة وعشرون ملكاً، ثم دخل على هؤلاء البشتولقات أمة القوط، مع ملك

= «الفيزيقوت» أو «الفيزيقوط» أنفسهم والمشابهة بين اللفظتين ظاهرة فالفاء هي الباء والزاي هي الشين لأن من عادة العرب قلب السين والزاي شيناً بل يقال إن أوائل الأسبان أيضاً كانوا يقلبونهما شيناً فتصير اللفظة هي «البيشيقيوت» وأما اللام فطالما أدخلوها على الأعلام التي فيها «واو» مثل «بودوين» Baudwin جعلوها «بلدوين» ومثل «بـوغراد» Beaugrade التي صارت «بلغراد» وعليه فتصير اللفظة «البشيقولت» ثم جمعوها على «بيشقولتات» تم تعاورها التصحيف الذي لا يوجد أكثر منه في نسخ العرب للألفاظ الافرنجية فإن الاسم الافرنجي يجتاز عند العرب عقبتين الأولى هي اللفظ لأن العرب لا تقدر أن تتلفظ ببعض الحروف الأفرنجية ولو قطعت رؤوسها والثانية هي التحريف والتصحيف في النسخ فبعد أن يمر الاسم الافرنجي بهاتين العقبتين يبعد جداً عن أصله حتى يصعب رده إلى الأصل.

وأنا أرى أن «طوليش بن بيطه» الذي ذكره ابن حيان أنه أول من ملك من «البشتولتات» إنما هو «طوديش» Theudis الذي ذكر مؤرخو الافرنجة أنه أول من ملك، من «الفيزيقوط» أو «البيزيقوط» في أسبانية. وكذلك «خنشدش» الذي قال ابن حيان إنه هو أول من تنصر من ملوك القوط إنما هو «شنداسنت» الذي ملك عام ٦٤٢ وإن الاسم تحرف أولاً إلى «خنداشنت» ثم تصحف وتحرف فصار «خشندش» على أن مؤرخي الأفرنج يذكرون أن أول ملك تنصر من ملوك القوط هو ريكاريد الأول أي قبل عهد الذي سموه «خشندش» أو تصحف اسمه إلى خشندش» بخمسين سنة وشيء. وأما «فيتيزا» الذي يسميه العرب في كتبهم «غيطشه» فإني معتقد ان الغين هنا هي تصحيف الفاء وأن العرب من البداية قالوا «فيطشه» لا «غيطشه» وذلك لأنهم لفظوا الزاي شيناً على عادتهم فصار «فيتيزه» هو «فيتيشه» ثم فخموا التاء فصار «فيطشه». وأما عدد ملوك «الفيزيقوط» فهو بحسب ما ذكر الافرنج ٢٥ ملكاً كما ترى ورواية ابن حيان عن عدد ملوك «البشقولتات» الذين أعتقد أنهم هم هم هي أنهم ٢٧ ملكاً فالروايتان متقاربتان. وهناك ملاحظة، وهي أن المقري يروي فيما بعد قائلاً: وقال جماعة: إن القوط غير البشقولتات إلخ وهذا دليل على وجود روايات أخرى بأن البشقولتات هم من القوط أنفسهم لا سيما أنه يروي عن هؤلاء أن عددهم ٢٧ ملكاً. وفي كتابنا «غزوات العرب في أوروبة» نذكر مدينة طلوزة Toulouse ونقول إنها كانت قاعدة مملكة التكتوزاجيين Valces Tectosages وقلت في الحاشية إن هؤلاء هم جيل من الغولوا ولا نعلم هل هم الذين أرادهم صاحب نفح الطيب عند ذكر الأمم التي عمرت الأندلس وسماهم البشتلقات أم لا؟ وقد تكون اللفظة مصحفة عن تشتلقات وفي صبح الأعشى يذكر الشبنقات ويقول إنهم ملكوا الأندلس وبلاد الأندلس معاً وأن القوط خرجوا عليهم. انتهى. إلا أن العلامات كثيرة على كون المراد بالبشتلقات أو البشتقات هم أمة الفيزيقوط.

هذا ويظهر أن المؤرخين من أسبانيين وغيرهم مختلفون في عدد ملوك القوط وفي أسمائهم وفي سني ملكهم وذلك كما ترى من سلسلة ملوك القوط التي ننشرها هنا مع صورة كل واحد منهم فإنك تراها مختلفة عن السلسلة الأولى التي نقلناها عن تواريخ ممحصة افرنجية إلا أن السلسلة المصورة مبدوء فيها بملوك القوط وهم لا يزالون في غالية وهي منقولة عن مجموعة عظيمة مطبوعة في برشلونة بمطبعة «يوناڤيستا» Buenavista كانت قد أهديت إلى الوطني الكبير فقيد المغرب الحاج عبد السلام بنونه من عيون أعيان تطاون رحمه الله وقد أهدانا إياها أخوه الفاضل الحاج محمد العربي بنونه حفظه الله وما نشرناه في هذا الكتاب من التصاوير والرسوم منه ما أخذناه عن هذه المجموعة ومنه ما اقتنيناه في أثناء سياحتنا إلى الأندلس ومنه ما أرسلنا واستجلبناه منها فيما بعد.

لهم، فغلبوا على الأندلس، واقتطعوها من يومئذ من صاحب رومة، وتفردوا بسلطانهم، واتخذوا مدينة طليطلة دار مملكتهم وأقروا بها سرير ملكهم، فبقى باشبيلية علم الاشبانيين، ورياسة أوليتهم (وقد كان عيسى المسيح عليه السلام) بعث الحواريين في الأرض يدعون الخلق إلى ديانته، فاختلف الناس عليهم، وقتلوا بعضهم واستجاب لهم كثير منهم. وكان من أسرعهم إجابة لمن جاءه من هؤلاء الحواريين خشندش ملك القوط، فتنصر، ودعا قومه إلى النصرانية وكان من صميم أعاظمهم، وخير من تنصر من ملوكهم، وأجمعوا على أنه لم يكن فيهم أعدل منه حكماً، ولا أرشد رأياً، ولا أحسن سيرة، ولا أجود تدبيراً، فكان الذي أصل النصرانية في مملكته، ومضى أهلها على سنته إلى اليوم، وحكموا بها، والإنجيلات في المصاحف الأربعة التي يختلفون فيها من انتساخه، وجمعه، وتثقيفه. فتناسقت ملوك القوط بالأندلس بعده، إلى أن غلبتهم العرب عليها، وأظهر الله تعالى دين الإسلام على جميع الأديان.

فوقع في تواريخ العجم القديمة أن عدة ملوك هؤلاء القوط بالأندلس، من عهد «اثانا وينوس»(١) الذي ملك في السنة الخامسة من مملكة «فلبش(٢) القيصري» لمضي أربعمائة وسبع من تاريخ الصفر(٣) المشهور عند العجم إلى عهد لذريق آخرهم، الذي ملك في السنة

---

(١) أظن هذا الاسم محرفاً وأصله «أتاناجيلدوس» وهو من ملوك القوط، وقد مر بك.

(٢) فيلبس القيصر الروماني ملك من سنة ٢٤٤ للمسيح إلى سنة ٢٤٩ وكان عربي الأصل.

(٣) كان أشهر تاريخ هو تاريخ المسمى باليلياني Julien وذلك أنهم قسموا السنة إلى ١٢ شهراً تبلغ عدة أيامها جميعاً ٣٥٥ يوماً فلزم حينئذ إضافة شهر جديد تكون أيامه ٢٢ أو ٢٣ يوماً، حتى تتم المطابقة مع السنة الشمسية، فكان هذا الشهر المضاف يأتي كل سنتين، ويكون دوره في آخر السنة بين ٢٣ و ٢٤ فبراير وكانوا يسمونه «مرسدونيوس» Mercedonius فكان دور أربع سنوات يزيد باثني عشر يوماً على عدد الأيام التي في السنوات الأربع الشمسية وأخيراً صار يأتي ١ يناير في ١٥ اكتوبر، فاضطر يوليوس قيصر إلى اصلاح الحساب، وأضاف إلى السنة شهرين، أحدهما ٣٣ يوماً، والآخر ٣٤ يوماً. ثم جاء الفلكي الاسكندري سوزستان Sosisthène فقرر للسنة ٣٦٥ يوماً، وبقيت ست ساعات لأجل تتمة الوقت الذي يقتضيه دوران الشمس حول الأرض، فتألف من هذه الساعات يوم واحد كل أربع سنوات، فوضعوا هذا اليوم بعد ٢٣ فبراير. وهكذا جرى اصلاح الحساب الأول، إلا أن سنة سوزستان نفسها بقيت ناقصة بإحدى عشرة دقيقة واثنتي عشرة ثانية عن السنة الشمسية، وبقيت الحال هكذا من سنة ٤٧ للمسيح إلى سنة ١٥٨٢ فتنبه لاصلاح هذا الخلل البابا غريغوريوس الثالث عشر، فأصلح الحساب اليولياني، وسُمي الحساب الجديد بالحساب الغريغوري، ولكنه لم يسلم من الخلل أيضاً، بحيث لا يزال علماء الفلك والتقويم يفكرون في حساب آخر ينتهي إليه الضبط، ولكن صعوبة ترك التقليد تحول دون هذا المشروع في أوروبة، وسنة ١٩١٧ إذ كنت من أعضاء مجلس النواب العثماني في استانبول، تقرر عندنا في المجلس العمل بالتاريخ الغريغوري بكونه أصح من التاريخ العربي، فتم هذا القرار في مجلس النواب أو المبعوثين، وتقدم إلى مجلس الأعيان، فجاء الفلكي الشهير أحمد مختار باشا الغازي، واعترض على هذا التغيير، وقال: إن الحساب الغريغوري هو=

التاسعة والأربعين وسبعمائة من تاريخ الصفر، وهو الذي دخلت عليه العرب فأزالت دولة القوط، ستة وثلاثون ملكاً، وأن مدة أيام ملكهم بالأندلس ثلثمائة واثنتان وأربعون سنة اهـ.

وقال جماعة: إن القوط غير البشتولقات، وإن البشتولقات من عجم رومة، وإنهم جعلوا دار ملكهم ماردة، واتصل ملكهم إلى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملكاً، ثم دخل عليهم القوط، واتخذوا طليطلة دار مملكة، ثم ذكر تنصر ملكهم خشندش مثل ما تقدم، ثم ذكر أن عدّة ملوك القوط ستة وثلاثون ملكاً.

وذكر الرازي أن القوط من ولد ياجوج بن يافث بن نوح، وقيل غير ذلك اهـ.

وذكر الرازي في موضع آخر نحو ما تقدم وزيادة ونصه:

إن الأندلس في آخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة التي تقدم ذكرها التي هي ربع معمور الدنيا، فهي موسطة من البلدان، كريمة البقعة، بطبع الخلقة، طيبة التربة، مخصبة القاع، منبجسة العيون الثرّارة، منفجرة الأنهار الغزار، قليلة الهوام ذوات السموم، معتدلة الهواء أكثر الأزمان، لا يزيد قيظها زيادة منكرة تضر بالأبدان، وكذا فصولها في أعم سنيها تأتي على قدر من الاعتدال، وتوسط من الحال، وفواكهها تتصل طول الزمان، فلا تكاد تعدم، لأن الساحل ونواحيه، يبادر بباكوره، كما أن الثغر وجهاته، والجبال التي يخصها برد الهواء، وكثافة الجو، تستأخر بما فيها من ذلك، حتى يكاد طرفا فاكهتها يلتقيان، فمادة الخيرات فيها متصلة كل أوان.

ومن بحرها بجهة الغرب يخرج العنبر الجيد، المقدّم على أجناسه في الطيب، والصبر على النار، وبها شجر المحلب، المعدود في الأفاوية، المقدّم في أنواع الأُشْنان كثير واسع. وقد زعموا أنه لا يكون إلا بالهند، وبها فقط. وبها خواص نباتية يكثر تعدادها. انتهى[1].

= أيضاً غير سالم من الخطأ، فما الفائدة في العدول عن خطأ إلى خطأ آخر؟ وبيّن ببراهين علمية صحة نظره. وبذلك عدلت الدولة العثمانية يومئذ عن اتخاذ الحساب الغريغوري، وبقيت على الحساب الذي يقال له المارتي، وهو حساب عربي قد رفع منه الفرق بين الشمسي والقمري، ولكن تركيا بعد الحرب العامة عادت فاتخذت الحساب الغريغوري. أما في زمن أغسطس قيصر فقد وضع الرومان حسابين لمواسم الزراعة أحدهما يسمى كولوتيانوم Colotianum، والآخر فالنس Vallense ووجدا مكتوبين على الحجارة وأما تاريخ الصفر فيقال إنه اصطلاح أسباني كان مبدأه أول يناير سنة ٣٨ قبل الميلاد، أي في زمن فتح أغسطس الروماني لأسبانية، وبقي مستعملاً فيها إلى أواخر القرن الخامس عشر.

(١) هذه الجملة من كلام الرازي قد تقدمت، لكن باختلاف قليل عما هي في هذا الموضع، ونحن أحببنا أن نحافظ بقدر الإمكان على نصوص المؤلفين الذين نقلنا عنهم.

وقد ذكر غيره تفصيل بعض ذلك فقال: يوجد في ناحية «دلاية»[١] من إقليم «البشرة»[٢] عود الالنجوج، لا يفوقه العود الهندي ذكاء وعطر رائحة وقد سيق منه إلى خيران[٣] الصقلبي صاحب المرية، وأن أصل منبته كان بين أحجار هناك وبـ «وأكشونية»[٤] جبل كثيراً ما يتضوّع ريحه ريح العود الذكي، إذا أرسلت فيه النار، وببحر «شدونة»[٥] وجد العنبر الطيب الغربي، وفي جبل «منت ليون» المحلب[٦]، ويوجد بالأندلس القُسط[٧] الطيب، والسنبل[٨] الطيب، والجنطيانة[٩] تحمل من الأندلس إلى جميع الآفاق وهو عَقَّار[١٠] رفيع والمرّ الطيب بقلعة أيوب، وأطيب كهرباء الأرض بشدونة، درهم منها يعدل دراهم من المجلوبة. وأطيب القرمز قرمز الأندلس، وأكثر ما يكون بنواحى أشبيلية، ولبلة[١١]، وشدونة، وبلنسية، ومن الأندلس يحمل إلى الآفاق.

وبناحية لورقة من عمل تدمير يكون حجر اللازورد الجيد، وقد يوجد في غيرها وعلى مقربة من حضرة لورقة من عمل قرطبة معدن البلور، وقد يوجد بجبل «شحيران» وهو شرقي «بيرة» وحجر النجادى؟ يوجد بناحية مدينة الأشبـونة، في جبل هنالك يتلألأ فيه ليلاً كالسراج، والياقوت الأحمر يوجد بناحية حصن «منت ميور»[١٢] من كورة مالقة، إلاّ أنه دقيق جداً لا يصلح للاستعمال لصغره، ويوجد حجر يشبه الياقوت الأحمر بناحية «بجانة»[١٣] في خندق يعرف بقرية «ناشرة» أشكالاً مختلفة كأنه مصبوغ، حسن اللون،

---

(١) برجة ودلاية هما من عمل المرية.

(٢) الأسبان يقولون للبشرة أو البشرات Albuxara وهي جبال عالية مشرفة على البحر المتوسط.

(٣) سيأتي خبره.

(٤) قال ياقوت: أكشونية بفتح الهمزة وسكون الكاف وضم الشين المعجمة وسكون الواو وكسر النون وياء خفيفة مدينة بالأندلس يتصل عملها بعمل أشبونة. وهي غربي قرطبة، وهي مدينة كثيرة الخيرات، برية بحرية، قد يلقي بحرها على ساحلها العنبر الفائق الذي لا يقصر عن الهندي.

(٥) Sidonia.

(٦) ضبطه بفتح أوله وهو شجر له حب يجعل في الطيب.

(٧) بضم أوله فسكون وهو عود يتداوى به.

(٨) السنبل هنا هو نبات طيب الرائحة يتداوى به ويسمى سنبل العصافير.

(٩) الجنطيانة هو من العقاقير المعروفة في المغرب وأطباء المغرب يطلقونه على جذر النبات المعروف عند الصيادلة بـ «أوضمي» هكذا كتب إلينا من فاس.

(١٠) بفتح أوله وتشديد ثانيه والجمع عقاقير.

(١١) Niebla قد كررنا تعريف هذه الأسماء بالعربي وبالاسبانيولي لأن القارىء لا يقدر أن يحفظها إلا بالتكرار، وإن لم ترسخ في ذهنه فلا يستطيع أن يفهم تاريخ الأندلس وجغرافيتها على وجهها. فالتكرار لازم إلا في التعريف بالأسماء المشهورة.

(١٢) Montmayor.

(١٣) Bechina.

صبور على النار، وحجر المغناطيس الجاذب للحديد يوجد في كورة تدمير. وحجر «الشادنة» يوجد بجبال قرطبة، كثير، ويستعمل ذلك في التذاهيب. وحجر اليهودي في ناحية حصن «البونت»[١] أنفع شيء للحصاة وحجر المرقشينا الذهبية في جبال «ابده»[٢] لا نظير لها في الدنيا، ومن الأندلس تحمل إلى جميع الآفاق بفضلها. والمغنيسيا بالأندلس كثير. وكذلك حجر «الطَّلْق»[٣] ويوجد حجر اللؤلؤ بمدينة برشلونة، إلاّ أنه جامد اللون. ويوجد المرجان بساحل يبرة، من عمل المرية، مالقط منه في أقل من شهر نحو ثمانين ربعاً.

ومعدن الذهب بنهر لاردة، يجمع منه كثير، ويجمع أيضاً في ساحل الأشبونة ومعادن الفضة في الأندلس كثيرة، في كورة تدمير، وجبال «جمة»[٤] بيجانة، وبإقليم «كرتش» من عمل قرطبة معدن فضة جليل. و «باشكونيه»[٥] معدن القصدير لا نظير له، يشبه الفضة، وله معادن بناحية أفرنجة وليون. ومعدن الزئبق في جبل البرانس، ومن هنالك يتجهّز به إلى الآفاق. ومعادن الكبريت الأحمر والأصفر بالأندلس كثيرة ومعدن التوتية الطيبة بساحل «البيرة»[٦] بقرية تسمّى «بطرنة»[٧] وهي أزكى توتيا وأقواها في صبغ النحاس. وبجبال قرطبة توتيا وليست كالبطرنية، ومعدن الكحل أشبه بالأصفهاني بناحية مدينة طرطوشة، يحمل منها إلى جميع البلاد. ومعادن الشبوب والحديد والنحاس بالأندلس أكثر من أن تحصى.

وما ذكرت هنا، وإن تكرر بعضه مع ما سبق أو يأتي، فهو لجمع النظائر وما لم نذكره أكثر، والله تعالى أعلم.

---

(١) قال ياقوت: حصن «البونت» بالضم والواو والنون ساكنان والتاء فوقها نقطتان حصن بالأندلس، وربما قالوا البنت، وقد ذكر. ينسب إليه أبو طاهر إسماعيل بن عمران بن إسماعيل الفهري البنتي، قدم الأسكندرية حاجاً، ذكره السلفي، وكان أديباً أريباً قارئاً، وعبدالله بن فتوح بن موسى بن أبي الفتح بن عبدالله الفهري البنتي أبو محمد، كان من أهل العلم والمعرفة، وله كتاب في الوثائق والأحكام، وله أيضاً رواية توفي في جمادى الآخرة سنة ٤٦٢.

(٢) Ubeda من أعمال جيان.

(٣) بكسر فسكون وزان مثل هو حجر براق يتشظى إذا دق صحائف وشظايا يتخذ منه مضاوي للحمامات بدلاً عن الزجاج وأجوده اليماني ثم الهندي ثم الأندلسي.

(٤) لا أعلم هل هذه اللفظة هي دجمة أم جمة فإن كانت دجمة وقد سقطت الدال منها في النسخ فهي عند الاسبانيول هكذا Diegma وإن كانت جمة كما هي مكتوبة في النفح فلا يبعد أن تكون اسماً عربياً من أصله لا سيما أنه يوجد جبال كثيرة عند العرب باسم جمآء بالمد والهمز مؤنث اجم الذي لا قرن له ويقال بيت أجم أي لا شرفة له.

(٥) في غربي الأندلس كانت مقاطعة يقال لها أشكونية قاعدتها مدينة شلب.

(٦) Vera.

(٧) Baterna.

ومن خواص طليطلة أن حنطتها لا تتغير ولا تسوس على طول السنين، يتوارثها الخلف عن السلف. وزعفران طليطلة هو الذي يعم البلاد، ويتجهّز به الرفاق إلى الآفاق. وكذلك الصبغ السماوي. اهـ.

وقال المسعودي في مروج الذهب بعد كلام ما نصه: والعنبر كثير ببحر الأندلس، يجهّز إلى مصر وغيرها، ويحمل إلى قرطبة من ساحل لها يقال له «شنترين»[١] و «شدونة»[٢] تبلغ الأوقية منه بالأندلس ثلاثة مثاقيل ذهباً، والأوقية بالبغدادي، وتباع بمصر أوقيته بعشرين ديناراً، وهو عنبر جيد، ويمكن أن يكون هذا العنبر الواقع إلى بحر الروم، ضربته الأمواج من بحر الأندلس إلى هذا البحر لاتصال الماء وبالأندلس معدن عظيم للفضة ومعدن للزئبق[٣] ليس بالجيد يجهّز إلى سائر بلاد الإسلام والكفر، وكذلك

---

(١) Santarem في البرتغال.

(٢) Sidonia.

(٣) جاء في كتاب «اسبانية المسلمة في القرن العاشر» لـلافـي بـروفنسال ما محصله: كانت المعادن من قديم الزمان معروفة في اسبانية، وكان الرومان يستخرجون منها جانباً كبيراً، وذلك كالحديد والذهب والفضة والرصاص والنحاس، وكان الحديد مبذولاً. ولما دخل المسلمون إلى الأندلس لم يهملوا المعادن، بل وفروا لها أعظم جانب من العناية وكانوا يستخرجون الذهب من رمال نهر لاردة ونهر شقر ونهر التاجه. وكانت الفضة في نواحي مرسية والحمة وقرطبة بمكان يقال له المرج حسبما روى الإدريسي وفي «تطالقة» من عمل باجة كما قال ياقوت في المعجم ويوجد الحديد في شمالي الوادي الكبير بين قرطبة وأشبيلية، وروى الإدريسي أنه كان منه في قسطنطانية. وروى ياقوت أنه كان منه في فرّيش وكان على مسافة ١٢٥ كيلومتراً إلى الشمال من قرطبة معدن زئبق مشهور، وكان هذا المعدن معروفاً عند الرومانيين، وتنبه له المسلمون واستغلوه، وجغرافيو العرب يقولون إنه في جبل البرانس ومنه في المحل الذي يقال له اليوم سيودادريال Ciudadreal فقد كان يوجد زئبق أيضاً هناك، وأيضاً في أبال بقرب قرطبة. وقال الإدريسي إنه رأى في هذا المعدن الأخير ألف عامل، منهم من كان مشغولاً باستخراج المادة من آبارها، ومنهم من كان ينقل الحطب لأجل التحمية، ومنهم من كان يصنع الآنية التي يستودع فيها المعدن بعد ذوبه، ومنهم من كانوا يبنون المواقد. وكان عمق الآبار نحواً من مائة ذراع وكان يوجد زئبق وتوتية بقرب شَلَوُبين على ساحل البحر المتوسط، وكذلك ذكر المقري وجودهما في بطرنه. ويظهر أن المسلمين لم يعتنوا بمعادن التنك التي في «ريوتنتو» إلى الشمال الشرقي من «أنبه» ولكن كانوا يأخذون النحاس من «أشكونية» في الغرب وهي تابعة البرتغال اليوم. وكان عندهم الرصاص في «قبره» وعندهم الملح في سرقسطة، وكان عندهم الطفال بقرب طليطلة والكحل في نواحي طرطوشة وبسطة وكانت الأندلس موصوفة بالحجارة الثمينة، فكان الياسنت من مالقه وحجر الكهرباء في مرسية. وأما المرمر فلم يكن يكفي البلاد بل كانوا يستوردون من الخارج وكان معدن المرمر في جبال مورينا وفي مكايل ومن هذه قطعت أعمدة المرمر التي كانت في المرية وقد نقلت الآن إلى مجريط. وكان يوجد من الحديد في جزيرة شلطش بإزاء أنبه وهناك دار صناعة حسبما قال الإدريسي. وفي شلطش أيضاً مصايد للأسماك كان يحمل منها إلى أشبيلية، ويقول =

يحمل من بلاد الأندلس الزعفران وعروق الزنجبيل. وأصول الطيب خمسة أصناف المسك، والكافور، والعود، والعنبر، والزعفران، وكلها تحمل من أرض الهند وما اتصل بها إلا الزعفران والعنبر. اهـ.

وهو وإن تكرر مع ما ذكرته عن غيره فلا يخلو من فائدة والله تعالى أعلم.

وذكر البعض أن في بلاد الأندلس جميع المعادن الكائنات عن النيرات السبعة الرصاص من زحل، والقصدير الأبيض من المشتري، والحديد من قسم المريخ، والذهب من قسم الشمس، والنحاس من الزهرة، والزئبق من عطارد، والفضة من القمر.

وذكر الكاتب إبراهيم بن القاسم القروي المعروف بالرقيق بلد الأندلس فقال: أهله أصحاب جهاد متصل، يحاربون من أهل الشرك المحيطين بهم أمة يدعون الجلالقة، يتاخمون حوزهم، ما بين غرب إلى شرق، قوم لهم شدة، ولهم جمال وحسن وجوه، فأكثر رقيقهم الموصوفين بالجمال منهم، ليس بينهم وبينهم درب[1] فالحرب متصلة بينهم ما لم تقع هدنة. ويحاربون بالأفق الشرقي أمة يقال لهم الفرنجة، هم أشدّ عليهم من جميع من يحاربونه من عدوّهم، إذ كانوا خلقاً عظيماً في بلاد كثيرة واسعة جليلة، متصلة العمارة، آهلة، تدعى الأرض الكبيرة، هم أكثر عدداً من الجليقيين، وأشدّ بأساً، وأحدّ شوكة، وأعظم امداداً. وهذه الأمة يحاربون أمة الصقالبة المتصلين بأرضهم، لمخالفتهم إياهم في الديانة، فيسبونهم ويبيعون رقيقهم بأرض الأندلس، فلهم هنالك كثرة، وتخصيهم للفرنجة يهود[2] ذمتهم الذين بأرضهم، وفي ثغر المسلمين المتصل بهم، فيحمل خصيانهم من هنالك إلى سائر البلاد، وقد تعلم الخصاء قوم من المسلمين هناك فصاروا يخصون ويستحلون المثلة.

قال ابن سعيد: ومخرج بحر الروم المتصاعد إلى الشام، هو بساحل الأندلس الغربي بمكان يقال لها الخضراء، ما بين طنجة من أرض المغرب، وبين الأندلس فيكون مقدار عرضه هناك كما زعموا، ثمانية عشر ميلاً. وهذا عرض جزيرة طريف إلى قصر مصمودة

= الإدريسي إنه كان سن هذه المصايد في بزليانه بقرب مالقة وكان صيادو السمك في سواحل الاتلانتيك كما روى ياقوت في المعجم يبحثون عن العنبر الرمادي ولا سيما في سيتوبال وكان يقال لها الجون العنبري عند العرب وكان أيضاً يوجد في شذونة وكانوا يجدون المرجان بقرب المرية.

(١) الدرب كل مدخل إلى بلاد الروم قال امرؤ القيس:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه　　وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

(٢) تقدم الكلام في إحدى الحواشي أن تجار اليهود كانوا يخصون سبي الصقالبة، وأنه كان بحسب تعبير دوزي معمل للخصاء في فردون Verdun وقد نقل ذلك عنه لافي بروفنسال في كتابه «اسبانية المسلمة في القرن العاشر» L'Espagnie Musulmane Au xem Siècle.

بالقرب من سبتة. وهناك كانت القنطرة التي يزعم الناس أن الاسكندر بناها ليعبر عليها من بر الأندلس إلى بر العدوة، ويعرف هذا الموضع الزقاق، وهو صعب المجاز، لأنه مجمع البحرين، لا تزال الأمواج تتطاول فيه، والماء يدور، وطول هذا الزقاق الذي عرضه ثمانية عشر ميلاً، مضاعف ذلك إلى ميناء سبتة، ومن هناك يأخذ البحر في الاتساع إلى ثمانمائة ميل وأزيد، ومنتهاه مدينة صور من الشام، وفيه عدد عظيم من الجزائر، قال بعضهم: إنها ثمانٍ وعشرون جزيرة منها صقلية ومالطة وغيرهما اهـ. وبعضه بالمعنى. وقال بعضهم عند وصفه ضيق بحر الزقاق قرب سبتة ما صورته: ثم يتسع كما امتدّ حتى يصير إلى ما لا ذرع له ولا نهاية.

وقال بعضهم: وكان مبلغ خراج الأندلس الذي كان يؤدي إلى ملوك بني أمية، قديماً ثلاثمائة ألف دينار، دراهم أندلسية كل سنة قوانين. وعلى كل مدينة من مدائنهم مال معلوم فكانوا يعطون جندهم ورجالهم الثلث من ذلك مائة ألف دينار، وينفقون في أمورهم ونوائبهم ومؤن أهليها مائة ألف دينار ويدخرون لحادث أيامهم مائة ألف دينار اهـ.

وذكر غيره: أن الجباية كانت بالأندلس أيام عبد الرحمن الأوسط، ألف ألف دينار في السنة، وكانت قبل ذلك لا تزيد على ستمائة ألف[١]. حكاه ابن سعيد وقال: إن الأندلس مسيرة شهر مدن وعمائر[٢].

---

(١) سيأتي ذكر دخل الدولة الأندلسية في أيام الناصر والمستنصر، وذلك تفصيلاً عندما نصل إن شاء الله إلى قرطبة.

(٢) قال المؤرخ الاسبانيولي رافائيل بالستر في تاريخه المترجم إلى الأفرنسية المطبوع سنة ١٩٢٨، وذلك في الصفحة ٥٢ ما يلي: «كانت اسبانية الإسلامية من أغنى البلاد الأوروبية وأحصاها سكاناً في عصر الخلفاء، وكان فيها ست حواضر كبرى، وثمانون مدينة معمورة جد العمران، وثلاثمائة مدينة من الدرجة الثانية، هذا عدا القرى التي لا تحصى والمزارع. وكان الذهب والمرمر مبذولين في القصور والجوامع، وكذلك العاج والحجارة الكريمة. وكانت مراسم الاحتفالات في قصور الخلفاء على غاية من الأبهة الشرقية، وقد كانت هذه الثروة، وهذه الأبهة هما ثمرة النمو الاقتصادي وتلك للسعة التي كانت أسبانية تتمتع بها أوانئذ هي بفضل رقي الزراعة والصناعة والتجارة» اهـ. قلنا: إن الحواضر الست الكبرى لا بد من أن يعني بها قرطبة، وأشبيلية، وغرناطة، وبلنسية، وطليطلة، وسرقسطة. وأما الثمانون مدينة المعمورة جداً فيعني بها المدن التي من درجة مالقة، والمرية، ومرسية، وجيان، وشاطبة، ودانية، وميورقة، وطرطوشة، وماردة، وبطليوس، وشنترين، وبرشلونة، واشبونة وما في ضربها. وأما الثلاثمائة مدينة من الدرجة الثانية فهي من قبيل قبرة، وبيانة، وبياسة، والمدور، وقرمونة، وشلب ولبلة، وشريش، ورندة، والجزيرة الخضراء، وبسطة، وبرجة، ودلاية، والش، وأوريوالة، والقنت، وقرطاجنة، وشقورة، وشنشالة، وأقليش، وطلبيرة، وقلعة رباح، ومجريط، ووادي الحجارة، ومدينة سالم، وشنتمرية ابن رزين، وقلعة أيوب، ودروقة، وبطيلة، ولاردة، وطركونة، ووشقة، وبربشتر، وفحص البلوط، ويابره، وشنترة، وقنطرة السيف، وجزيرة شقر، =

وقال قاضي القضاة ابن خلدون الحضرمي في تاريخه الكبير ما صورته: كان هذا القطر الأندلسي من العدوة الشمالية من عدوتي البحر الرومي، وبالجانب الغربي منها، يسمى عند العجم الأندلوش، وتسكنه أمم من أفرنجة المغرب، أشدهم وأكثرهم الجلالقة وكان القوط قد تملكوه، وغلبوا على أهله لمئين من السنين قبل الإسلام، بعد حروب كانت لهم مع اللطينيين، حاصروا فيها رومة، ثم عقدوا معهم السلم، على أن ينصرف القوط إلى الأندلس، فصاروا إليها، وملكوها[1]، ولما أخذ الروم واللطينيون بملة

= وقونكة، ومربيطر ولوشة، ووادي آش، وقرية سلامة، وقادس، ويلبش، وابذة، وبجانة، وطشانة، وشنتمرية الغرب، وأشونة، وقلعة يحصب، وأسيجة. واسترقة، وبلش، وقلعة حماد، ومورور، واندوجر، والمنكب، واندرش، واندة، ولورقة، واونبة، ومرتلة، ومدينة الزهراء، وما في ضربها. وكيفما اقتصد المخمن في تخمين عدد سكان الأندلس الإسلامية لعهد بني أمية، فلا يقدر أن ينزل ذلك عن ١٥ مليون نسمة، وقد يكون مناهزاً العشرين.

(١) ما قاله ابن خلدون هنا هو الصحيح فإن أمة اسمها «الفيزيقوط» هي أحد أقسام القوط، ويقال إنها من أصل جرماني، هاجمت الرومان واقتتلت معهم في القرن الثالث للمسيح، فقهرهم الروم أولاً، ثم أذنوا لهم في الإقامة على ضفاف الدانوب ومن ذلك الوقت صاروا أشبه بجيش روماني، وفي أوائل القرن الخامس ثار زعيم الفيزيقوط «ألاريك» Alaric طالباً من رومة أن توليه القيادة العليا لجيوشها، فلما أبوا إجابة طلبه هذا نهب رومة وعاث، ومات سنة ٤١٠ فخلفه «آتولف» Ataulf ودخل إلى بلاد الغال، وانتصر فيها لهونوريوس الروماني على نظرائه، فكافأه باقطاعه البلاد التي تغلب عليها، وكان السويفيون والفاندالس والألانيون خارجين في أسبانية عن طاعة رومة، فزحف إليهم «فاليا» زعيم القوط، وأدخلهم في الطاعة، ولكن بعد أن استتب الأمر للقوط في أسبانية خرجوا هم أنفسهم عن طاعة رومه في أيام زعيمهم المسمّى أوريك سنة ٤٦٧، ولم يكن القوط في أسبانية أمة ذات عرق واحد، وإنما كانوا جيشاً من أصول شتى يخضعون لرئيس، وفي سنة ٤٧٦ انحلت السلطنة الرومانية فبسط القوط سلطانهم على أكثر أسبانية، ولكنهم فقدوا مقاطعاتهم في غالية، لأن الفرنج Les Francs غلبوهم عليها، وكان الفرنج كاثوليكيين، وكان القوط قد تنصروا لكن على مذهب آريوس، أي كانوا لا يقولون بألوهية عيسى عليه السلام، فوقعت العداوة بين الفريقين من أجل اختلاف الدين، وانهزم القوط في واقعة عند بواتية، Poitiers وقتل فيها أميرهم الأريك الثاني، ولم يبق لهم في بلاد الغال سوى مقاطعة سبتيمانيا Septimanie التي قاعدتها أربونة. وفي القرن السادس للمسيح اشتدت الفتنة في أسبانية بين القوط بعضهم مع بعض، وقتل كثير من ملوكهم غيلة، فجاء تيودوريك ملك الأوستروقوط، أي القوط الشرقيين، من ايطالية، ووضع على عرش أسبانية أحد أولاده، ثم في سنة ٥٥٤ ثار رجل اسمه أتاناجيلد، وتغلب على المملكة، وجاءت عساكر أمبراطور الروم من القسطنطينية فأنجدته، ولما كانت سنة ٥٦٨ ثار الملك ليوڤجيلد، وتغلب على السويفيين، وجعل أسبانية كلها في حكم القوط، إلا أنه كان آريوسي المذهب، وكان أكثر أهل أسبانية كاثوليكيين، فثارت الأكثرية عليه؛ وأثاروا عليه ابنه هرمينيجيلد، فساق عسكراً وتغلب على ابنه وقتله، ولكن بعد موت ليوفيجيلد خلفه ابنه ريكاريد فترك هذا الآريوسية، مذهب أبيه، وتحول كاثوليكياً في سنة ٥٨٧ وصارت في ذلك الوقت الكثلكة هي دين الدولة الأسبانية.

النصرانية، حملوا من وراءهم بالمغرب من أمم الفرنجة والقوط عليها، فدانوا بها. وكان ملوك القوط ينزلون طليطلة، وكانت دار ملكهم، وربما تنقلوا ما بينها وبين قرطبة، وأشبيلية، وماردة، وأقاموا كذلك نحواً من أربعمائة سنة إلى أن جاء الله بالإسلام والفتح، وكان ملكهم لذلك العهد يسمى لذريق، وهو سمة لملوكهم، كما أن جرجير سمة لملوك صقلية. اهـ.

ومن أشهر بلاد الأندلس غرناطة[1] وقيل إن الصواب أغرناطة بالهمز، ومعناه بلغتهم الرمانة، وكفاها شرفاً ولادة لسان الدين بها وقال «الشقندي»: أما غرناطة فإنها دمشق بلاد الأندلس، ومسرح الأبصار، ومطمح الأنفس، ولم تخل من أشراف أماثل، وعلماء أكابر، وشعراء أفاضل، ولو لم يكن لها إلا ما خصه الله تعالى به من المرج الطويل العريض، ونهر شنيل، لكفاها.

وفي بعض كلام لسان الدين ما صورته: وما لمصر تفخر بنيلها، وألف منه في شنيلها؟! يعني أن الشين عند أهل المغرب عددها ألف، فقولنا شنيل إذا اعتبرنا عدد شينه كان ألف نيل[2]. وفيها قيل:

غـرنـاطـةُ مـا لهـا نظيـر ... ما مصر، ما الشام، ما العراق
مـا هـي إلا العـروس تُجْلَـى ... وتلـك مـن جملـة الصـداق

وتسمى كورة «البيرة» التي منها غرناطة دمشق، لأن جند دمشق نزلوها عند الفتح، وقيل إنها سميت بذلك لشبهها بدمشق في غزارة الأنهار، وكثرة الأشجار، حكاه صاحب «منهاج الفكر» قال: ولما استولى الفرنج على معظم بلاد الأندلس انتقل أهلها إليها فصارت المصر المقصود، والمعقل الذي تنضوي إليه العساكر والجنود[3]، ويشقها نهر عليه قناطر

---

(١) سنذكرها في مكانها إن شاء الله مطولاً.

(٢) إن المبالغة لو جازت في الشعر فلا يجوز أن تصل إلى هذا الحد ولا سيما أن لسان الدين قال ذلك في النثر لا في النظم.

(٣) كنت ذكرت في كتابي تاريخ الأندلس الذي جعلته ذيلاً على رواية «آخر بني سراج» في صفحة ٢٣٧ من الطبعة الثانية ما يلي: «قال بعض المؤرخين إن مملكة غرناطة لعهد السلطان أبي الحسن علي (والد أبي عبدالله آخر السلاطين المسلمين في الأندلس) كانت مشتملة على أربع عشرة مدينة عظيمة وسبع وتسعين قلعة عدا الأبراج والحصون والقرى العامرة». وورد في التاريخ العام للعلامة كنتو الشهير أن سلطنة غرناطة في تلك الأيام كانت تحتوي ثلاثين مصراً، وثمانين مدينة صغيرة، وعدداً لا يحصى من الأبراج والحصون والدساكر. وقد قدر بعض المؤرخين عدد بقية المسلمين في الأندلس بأربعة ملايين نسمة.

يجاز عليها. وفي قبليها جبل شلير، وهو جبل لا يفارقه الثلج، صيفاً وشتاء، وفيه سائر النبات الهندي، لكن ليس فيه خصائصه اهـ.

ومن أعمال غرناطة قطر «لوشة»(١) وبها معدن للفضة جيد، ومنها، أعني لوشة، أصل لسان الدين بن الخطيب. وهذا القطر ضخم، ينضاف إليه من الحصون والقرى كثير، وقاعدته لوشة بينها وبين غرناطة مرحلة، وهي ذات أنهار وأشجار وهي على نهر غرناطة الشهير بشنيل.

ومن أعمال غرناطة الكبار عمل «باغة»(٢) والعامة يقولون «بيغة» وإذا نسبوا إليه قالوا يبغى، وقاعدته باغة، طيبة الزرع، كثيرة الثمار، عزيزة المياه، ويجود فيها الزعفران.

ومن أعمال غرناطة «وادي آش»(٣) ويقال وادي الأشات، وهي مدينة جليلة، قد أحدقت بها البساتين والأنهار، وقد خص الله أهلها بالأدب وحب الشعر وفيها يقول أبو الحسن بن نزار:

وادي الأشات يَهيجُ وَجْدي كُلَّما ... أذكرت ما أفضت بك النعماء
لله ظلُّك والهجيرُ مسلّطٌ ... قد بَرَّدَتْ لَفَحَاتِه الانْدَاءُ
والشمس ترغب أن تفوز بلحظة ... منه فتَطْرِفُ طَرْفَهَا الأفياء
والنهر يبسم بالحباب كأنه ... سلخ نَضَتْهُ حَيَّةٌ رقشاء
فلذاك تحذَرُه الغصون فميلُها ... أبداً على جَنَباته إيماء

(ومن أعمال وادي آش) حصن «جليانة»(٤) وهو كبير يضاهي المدن، وبه التفاح الجلياني الذي خص الله به ذلك الموضع، يجمع عظم الحجم، وكرم الجوهر، وحلاوة الطعم، وذكاء الرائحة، والنقاء، وبين الحصن المذكور ووادي آش اثنا عشر ميلاً.

ومن غرائب الأندلس أن به شجرتين من شجر القسطل، وهما عظيمتان جداً،

(١) Loja وسماها الاسبانيول صان فرانسيكو لوشة.

(٢) أصلها «باغو» ثم سماها الاسبانيول «بريغو» Priego.

(٣) تقدم عنها كلام والاسبانيول يقولون Guadis وسيرد ذكرها أيضاً.

(٤) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: جليانة بالكسر ثم السكون ياء وألف ونون حصن بالأندلس من أعمال وادي آش حصين كثير الفواكه ويقال لها جليانة التفاح لجلالة تفاحها وطيبه وريحه، قيل إذا أكل وجد فيه طعم السكر والمسك، منها عبد المنعم بن عمر بن حسان الشاعر الأديب الطبيب، كان عجيباً في عمل الأشعار التي تقرأ القطعة الواحدة بعدة قواف، ويستخرج منها الرسائل والكلام الحكمي مكتوباً في خلال الشعر، وكان يعمل من ذلك دوائر وأشجاراً، وصوراً. سكن دمشق، وكانت معيشته الطب، يجلس باللبادين، على دكان بعض العطارين، كذلك لقيته، ووقفني على أشياء مما ذكرته، وأنشدني لنفسه ما لم أضبطه عنه. ومات بدمشق سنة ٦٠٣.

إحداهما بسند[١] وادي آش، والأخرى ببشرة[٢] غرناطة، في جوف كل واحدة منهما حائك ينسج الثياب، وهذا أمر مشهور، قاله أبو عبدالله بن جزي وغيره.

وكانت إلبيرة[٣] هي المدينة قبل غرناطة، فلما بنى الصنهاجي مدينة غرناطة وقصبتها وأسوارها، انتقل الناس إليها، ثم زاد في عمارتها ابنه باديس بعده.

وذكر غير واحد أن في كورة سرقسطة الملح الأندراني الأبيض الصافي الأملس الخالص، وليس في الأندلس موضع فيه مثل هذا الملح. قال: وسرقسطة[٤] بناها قيصر ملك رومة التي تؤرخ في مدته مدة الصفر قبل مولد المسيح على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام، وتفسير اسمها: قصر السيد. لأنه اختار ذلك المكان بالأندلس وقيل إن موسى بن نصير شرب من ماء نهر «جلق»[٥] بسرقسطة فاستعذبه، وحكم أنه لم يشرب بالأندلس أعذب منه، وسأل عن اسمه فقيل جلق ونظر إلى ما عليه من البساتين فشبهها بغوطة خلق الشام، وقيل إنها من بناء الاسكندر والله أعلم. وبمدينة برجة، وهي من أعمال المرية، معدن الرصاص وهي على واد مبهج، يعرف بوادي «عذراء»[٦] وهو محدق بالأزهار والأشجار، وتسمى برجة[٧] بهجة، لبهجة منظرها، وفيها يقول أبو الفضل

---

(١) السند محركة: ما قابلك من الجبل، وعلا عن الفسح، وفي وطني من جبل لبنان مكان بين عين عنوب وعيناب يقال له السند، يعلو عن الأولى وينخفض عن الثانية.

(٢) تقدم لنا أن الجبال التي في مملكة غرناطة كانوا يقولون لها البشرات.

(٣) قال ياقوت في المعجم: الألف فيه ألف قطع، وليس بألف وصل، فهو بوزن إخريطة، وإن شئت بوزن كبريته، وبعضهم يقول ايلبيرة، وربما قالوا لبيرة، وهي كورة كبيرة من الأندلس، ومدينة متصلة بأراضي كورة قبرة، بين القبلة والشرق من قرطبة، بينها وبين قرطبة تسعون ميلاً، وأرضها كثيرة الأنهار والأشجار، وفيها عدة مدن منها: قسطيلية، وغرناطة، وغيرهما تذكر في مواضعها. وفي أرضها معادن ذهب وفضة وحديد ونحاس، ومعدن حجر التوتيا في حصن منها يقال له شلوبينية، وفي جميع نواحيها يعمل الكتان والحرير الفائق. انتهى. ثم ذكر ياقوت بعض العلماء الذين نبغوا من أهل إلبيرة، وسنذكر أسماءهم في متن هذا الكتاب، عندما نصل نحن إلى ذكر إلبيرة وسننقل هناك ما ذكره لسان الدين بن الخطيب عن إلبيرة نقلاً عن الإحاطة في أخبار غرناطة، وكذلك سنذكر ما قاله غيره.

(٤) بناها أوغسطس قيصر، ومنها اشتق اسمه، وكان يقال لها قبل أن مصرها أوغسطس قيصر سلدوبة Salduba ويظهر أن العرب قالوا «السيدلابة».

(٢) سرقسطة واقعة على نهر «إبره» يشتق منه نهر جلق Gallégo جارياً إلى الشمال، بينما نهرا شالون Jalon وهرفا Huerva يسيلان إلى الجنوب.

(٦) سبق ذكرها وفي مرج دمشق قرية يقال لها عذرا.

(٧) وفي جبل لبنان قرية يقال لها برجة من اقليم الخروب. وفي إقليم سرقسطة قصبة اسمها برجة بضم أولها، وينسب إليها أناس من أهل العلم.

ابن شرف القيرواني رحمه الله تعالى:

رِيــاض تعَشقهــا سُنْــدُسٌ تَــوَشَّــتْ معــاطفُهــا بــالــزهَــرْ
مــدامعُهــا فــوق خــدَّيْ رُبــاً لهــا نظــرةٌ فتنــت مَــن نظَــرْ
وكــلُّ مكــان بهــا جنــةٌ وكــلُّ طــريــق إليهــا سَقَــرْ

وفيها أيضاً قوله:

حُــطَّ الــرحــال بِبَــرْجــهْ وارتــد لنفســك بَهْجَــة
فــي قلعــة كســلاح ودَوْحــة مثــل لُجّــة
فحصْنُهــا لــك أَمْــن وَرَوْضُهــا لــك فُــرْجــه
كــل البــلاد ســواهــا كعُمْــرة وهــي حَجَّــة

وبمالقة التين الذي يضرب المثل بحسنه، ويجلب حتى للهند والصين، وقيل إنه ليس في الدنيا مثله، وفيه يقول أبو الحجاج يوسف ابن الشيخ البلوى المالقي حسبما أنشده غير واحد، منهم ابن سعيد:

مــالقــة حُيِّــتَ يــاتِينَهــا الفُلْــكُ مِــنْ أجلــك يــاتِينَهــا[(١)]
نَهَــى طبيبــي عنــه فــي عِلَّتــي مــا لطبيبــي عــن حيــاتــي نهَــى

وذيّل عليه الإمام الخطيب أبو محمد عبد الوهاب المنشى بقوله:

وحِمْــص لا تنــس لهــا تينَهــا واذكــر مــع التيــن زيــاتينَهــا

وفي بعض النسخ:

لا تنــس لاشبيليّــة تينهــا واذكــر مــع التيــن زيــاتينَهــا

وهو نحو الأول لأن حمص هي اشبيلية لنزول أهل حمص من المشرق بها حسبما سنذكره. ونسب ابن جزي في ترتيبه لرحلة ابن بطوطة البيتين الأولين للخطيب أبي محمد عبد الوهاب المالقي، والتذييل لقاضي الجماعة أبي عبدالله بن عبد الملك فالله أعلم.

وقال ابن بطوطة: وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب، ويجلب منها إلى أقاصي البلاد، ومسجدها[(٢)] كبير الساحة، كثير البركة، شهيرها، وصحنه لا نظير له في الحسن،

(١) الفلك: السفينة، تذكر وتؤنث وتقال للمفرد وللجمع، فمن المفرد المذكر قوله تعالى ﴿في الفلك المشحون﴾ ومن المفرد المؤنث قوله تعالى ﴿والفلك التي تجري في البحر﴾ ومن الجمع قوله تعالى ﴿وترى الفلك فيه مواخر﴾ وقوله تعالى ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾ وكان سيبويه يقول: الفلك هي جمع تكسير للفلك التي هي واحد.

(٢) وهو الكنيسة الكاتدرائية الآن.

وفيه أشجار النارنج البديعة. انتهى. وقال قبله: إن مالقة إحدى قواعد الأندلس، وبلادها الحسان جامعة بين مرافق البر والبحر، كثيرة الخيرات والفواكه، رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير، ورمانها المرسي الياقوتي لا نظير له في الدنيا. وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب. اهـ.

وبكورة أشبونة المتصلة بشنترين معدن التبر، وفيها عسل يجعل في كيس كتان. فلا يكون له رطوبة كأنه سكر. ويوجد في ريفها العنبر الذي لا يشبه إلا الشِّحْري.

ومن أشهر مدن الأندلس مدينة قرطبة، أعادها الله تعالى للإسلام، وبها الجامع المشهور، والقنطرة المعروفة بالجسر، وقد ذكر ابن حيان أنه بني على أمر عمر بن عبد العزيز(١) رضي الله عنه، ونصه: وقام بأمره على النهر الأعظم بدار مملكتها قرطبة الجسر الأكبر الذي ما يعرف في الدنيا مثله. انتهى. وفيها يقول بعض علماء الأندلس:

بأربَعٍ فاقَت الأمصَارَ قُرْطُبَةٌ ... منهن قنطرةُ الوادي وجامِعُها
هـاتَـان ثنتـان والـزهـراءُ ثـالثـة ... والعِلمُ أعظمُ شيءٍ وهو رابعُها

وقال الحجاريّ في المسهب: كانت قرطبة في الدولة المروانية قبة الإسلام، ومجتمع أعلام الأنام، بها استقرّ سرير الخلافة المروانية، وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدّية واليمانية، وإليها كانت الرحلة في الرواية، إذ كانت مركز الكرماء، ومعدن العلماء وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد، ونهرها من أحسن الأنهار، مكتنف بديباج المروج، مطرز بالأزهار، تصدع في جنباته الأطيار، وتنعر النواعير، ويبسم النوّار، وقرطاها الزاهرة والزهراء، حاضرتا الملك، وأُفقاهُ النعماء والسراء، وإن كان قد أخنى عليها الزمان، وغير بهجة أوجهها الحسان، فتلك عادته! وسل الخورنق والسدير وغُمدان، وقد أعذر بانذاره، إذ لم يزل ينادي بصروفه: لا أمان! لا أمان! وقد قال الشاعر:

ومـا زلـتُ أسمـع أنّ الملـو ... ك تبنـى علـى قَـدْر أخطـارِهـا

انتهى.

---

(١) جاء في كتاب «أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بها بينهم». وهو أقدم تاريخ لعرب الأندلس ـ ولم يعرف اسم مؤلفه ـ أن عمر بن عبد العزيز لما تولى الخلافة ولّى الأندلس السمح بن مالك، فكتب إلى عمر يعلمه أن مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها، وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض فيه الشتاء عامة (قال) فإن أمرني أمير المؤمنين ببنيان سور المدينة فعلت فإن قبلي قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند، ونفقات الجهاد وإن أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم. فيقال والله أعلم إن عمر رحمه الله أمر ببناء القنطرة بصخر السور، وأن يبني السور باللبن، إذ لا يجد له صخراً فوضع يداً فبنى القنطرة في سنة إحدى ومائة.

وقال السلطان يعقوب المنصور ابن السلطان يوسف ابن السلطان عبد المؤمن بن علي لأحد رؤساء أجنادها: ما تقول في قرطبة؟ فخاطبه على ما يقتضيه كلام عامّة الأندلس بقوله: جوفها[١] شمام[٢]، وغربيها قمام[٣]، وقبلتها مدام، والجنة هي السلام. يعني بالشمام جبال الورد، ويعني بالقمام ما يؤكل، إشارة إلى محرث «الكنبانية»[٤]. ويعني بالمدام النهر.

ولما قال والده السلطان يوسف بن عبد المؤمن لأبي عمران موسى بن سعيد العنسي: ما عندك في قرطبة؟ قال له: ما كان لي أن أتكلم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها. فقال السلطان: إن ملوك بني أمية حين اتخذوها حضرة مملكتهم لعلى بصيرة: الديار المنفسحة الكبيرة، والشوارع المتسعة، والمباني الضخمة المشيدة، والنهر الجاري، والهواء المعتدل، والخارج الناضر، والمحرث العظيم، والشعراء الكافية والتوسط بين شرق الأندلس وغربها. قال: فقلت: ما أبقى لي أمير المؤمنين ما أقول!

قال ابن سعيد: ولأهلها رياسة ووقار، لا تزال سمة العلم والملك متوارثة فيهم، إلاّ أن عامتها أكثر الناس فضولاً، وأشدهم تشغيباً، ويضرب بهم المثل، ما بين أهل الأندلس، في القيام على الملوك، والتشنيع على الولاة، وقلة الرضا بأمورهم، حتى أنّ السيد أبا يحيى أخا السلطان يعقوب المنصور قيل له لما انفصل عن ولايتها: كيف وجدت أهل قرطبة؟ فقال: مثل الجمل، إن خفّفت عنه الحمل صاح، وإن أثقلته صاح، ما ندري أين رضاهم فنقصده، ولا أين سخطهم فنجتنبه، وما سلط الله عليهم حجّاج الفتنة، حتى كان عامتها شراً من عامّة العراق[٥] وإن العزل عنها لما قاسيته من أهلها عندي ولاية، وإني، إن كلفت العود إليها، لقائل: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين! انتهى.

---

(١) أي شماليها.

(٢) لم يرد شمام مصدراً لفعل شم، وإنما هو الشميم والشم والشميمي وعليه لا يصح شمام إلا إن كان مصدراً لفعل شام، من باب المفاعلة، أو كان بالتشديد وأما كلام العامة فلا حاجة لتطبيقه على قواعد العربية.

(٣) قم الرجل: أكل ما على الخوان، ومثله اقتم، والمصدر هو القم والاقتمام، فأما القمام فلم يرد بمعنى الأكل بل بمعنى الكناسة. فلهذا أصاب صاحب النفح بقوله إن هذا من كلام عامة الأندلس.

(٤) Campaina قال ياقوت: ناحية الأندلس قرب قرطبة ينسب إليها محمد بن قاسم بن محمد الأموي الجالطي الكنباني، ذكر في جالطة بأتم من هذا.

(٥) وهم كانوا السبب في سقوط الأندلس لأن الفتنة التي أثاروها هي التي آلت إلى سقوط هيبة الخلافة وسقوط هيبة الخلافة آل إلى ظهور ملوك الطوائف وهؤلاء هم كانوا مبدأ اضمحلال الإسلام في الأندلس.

وقال أبو الفضل التيفاشي: جرت مناظرة بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوب بين الفقيه أبي الوليد بن رشد، والرئيس أبي بكر بن زهر. فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة: ما أدري ما تقول؟ غير أنه إذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مُطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية. قال: وقرطبة أكثر بلاد الله كتباً(١) انتهى.

وحكى الإمام ابن بشكوال عن الشيخ أبي بكر بن سعادة أنه دخل مدينة طليطلة مع أخيه على الشيخ الأستاذ أبي بكر المخزومي. قال: فسألَنا: من أين؟ فقلنا: من قرطبة. فقال: متى عهدكما بها؟ فقلنا: الآن وصلنا منها. فقال: أقربا إليَّ أشَمّ نسيم قرطبة فقربنا منه فشم رأسي وقبّلهُ وقال لي أكتب:

أقرطبة الغراء هل لِيَ أَوبةٌ ... إليكِ وهل يدنو لنا ذلك العهدُ
سقى الجانب الغربيَّ منك غمامةٌ ... وقعقع في ساحات دَوْحاتك الرعْدُ
لياليك أسحارٌ وأرضُكِ روضة ... وتُرْبُكِ في استنشاقها عنبر ورْدُ

وكتب الرئيس الكاتب أبو بكر بن القبطرنة للعالم أبي الحسين بن سراج بقوله:

يا سيدي وأبي، هوى وجلالةً ... ورسولَ وُدِّي إن طلبتُ رسولا
عرِّجْ بقرطبةٍ إذا بُلِّغتَها ... بأبي الحُسَين ونادِهِ تأمِيلا
وإذا سعدت بنظرةٍ من وجههِ ... اهدِ السلامَ لكَفِّه تقبيلا
واذكر له شوقي وشكري مُجْمِلا ... ولو استطعت شَرَحته تفصيلا
بتحيةٍ تُهدَى إليه كأنما ... جرّتْ على زهر الرياض ذيولا

وفي باب اليهود بقرطبة يقول أبو عامر بن شهيد:

لقد أطْلَعوا عند باب اليهو ... د بَدْراً أَبَى الحُسنُ أنّ يُكْسَفا
تراه اليهودُ على بابها ... أميراً فتحسبَهُ يوسُفا

واستقبحوا قولهم باب اليهود فقالوا: باب الهدى. وسنذكر قرطبة والزهراء والزاهرة ومسجدها في الباب المنفرد بها، إن شاء الله تعالى، وكذلك القنطرة(٢).

---

(١) نقل صاحب نفح الطيب عن أبي محمد بن حزم ما يلي: أخبرني تليد الخصي وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير اهـ قلنا وكان عدد خزانة كتب دار الخلافة خزائن لا تحصى في قرطبة.

(٢) وسنذكرها نحن أيضاً عند الوصول إلى مبحث قرطبة.

ومن أعظم مدن الأندلس اشبيلية، قال الشقندي: من محاسنها اعتدال الهواء، وحسن المباني، ونهرها الأعظم الذي يصعد المد فيه اثنين وسبعين ميلاً ثم يحسر، وفيه يقول ابن سفر:

شقَّ النسيمُ عَلَيْه جَيْبَ قميصِهِ فانساب مِنْ شَطَّيْه ثارَهُ
فتضاحكت وُرْقُ الحمَام بدَوْحها هُزْءاً فضَمَّ من الحيَاء إزارَهُ

وقيل لأحد من رأى مصر والشام: أيهما رأيت أحسن، أهذان أم اشبيلية؟ فقال بعد تفضيل اشبيلية: شرفها[1] غابة بلا أسد، ونهرها نيل بلا تمساح اهـ ويقال إن الذي بنى اشبيلية اسمه «يوليس»[2] وأنه أول من سُمِّيَ «قيصر» وإنه لما دخل الأندلس أُعجب بساحاتها، وطيب أرضها، وجبلها المعروف بالشرف، فردم على النهر الأعظم مكاناً، وأقام فيه المدينة، وأحدق عليها بأسوار من صخر صلد وبنى في وسط المدينة قصبتين بديعتي الشأن، تعرفان بأخوين، وجعلها أم قواعد الأندلس، واشتق لها اسمها من «رومية يوليس»[3] انتهى. وقد تقدم شيء من هذا.

وكان الأولون من ملوك الأعاجم يتداولون بسكناهم أربعة بلاد من بلاد الأندلس: اشبيلية، وقرطبة، وقرمونة، وطليطلة، ويقسمون أزمانهم على الكينونة بها. وأما شرف اشبيلية فهو شريف البقعة، كريم التربة، دائم الخضرة فرسخ في فرسخ، طولاً وعرضاً، لا تكاد تشمس فيه بقعة، لالتفاف زيتونه.

واعلم أن اشبيلية لها كور جليلية، ومدن كثيرة، وحصون شريفة، وهي من الكور المجندة، نزلها جند حمص، ولواؤهم في الميمنة، بعد لواء جند دمشق وانتهت جباية اشبيلية أيام الحكم بن هشام إلى خمسة وثلاثين ألف دينار ومائة دينار. وفي إقليم «طالقة»[4] من أقاليم اشبيلية وجدت صورة جارية من مرمر، معها صبي، وكأن حية تريده،

---

(١) يعني غابة الزيتون العظيمة المسماة بالشرف.

(٢) هو يوليوس قيصر وكان قد فتح أشبيلية سنة ٤٥ ق م واتخذها حاضرة لاسبانية كما كان «بومبي» اتخذ قرطبة. وليس يوليوس قيصر هو الذي بناها، بل هي بلدة عظيمة من قبل، واقعة على طريق التجارة الأعظم، من قادس إلى ماردة إلى طلمنكة، وإنما ازداد قيصر اعتناءاً بها، ثم صارت سنة ٤١١ ب م عاصمة للوندال، وفي سنة ٤٤١ عاصمة للقوط، وفي سنة ٥٥٧ انتقل «اتانا جيلد ملك القوط» منها إلى طليطلة، نظراً لتوسطها في المملكة، ولكن بقي يقيم بها في الأحايين نائب الملك. واستولى العرب على أشبيلية تحت قيادة موسى بن نصير سنة ٧١٢ ب م وسلموا قيادها في بداية الأمر إلى غيطشة أو فيطشة Vitiza وأعقابه لأنهم ذكروا لغيطشة ولاءه لهم عند الفتح.

(٣) سماها قيصر Colonia Julia Romula.

(٤) قال ياقوت: طالقة من أعمال اشبيلية بالأندلس.

لم يسمع في الأخبار، ولا رؤي من الآثار، صورة أبدع منها، جعلت في بعض الحمامات، وتعشقها جماعة من العوام. وفي كورة ماردة حصن «شنت أفرج»[1] في غاية الارتفاع، لا يعلوه طائر ألبتة، لا نسر ولا غيره.

ومن عجائب الأندلس البلاط الأوسط من مسجد جامع «اقليش»[2] فإن طول كل جائزة منه مائة شبر واحد عشر شبراً، وهي مربعة منحوتة، مستوية الأطراف.

وقال بعض من وصف اشبيلية إنها مدينة عامرة، على ضفة النهر الكبير المعروف بنهر قرطبة، وعليه جسر مربوط بالسفن، وبها أسواق قائمة، وتجارات رابحة، وأهلها ذوو أموال عظيمة، وأكثر متاجرهم الزيت، وهو يشتمل على كثير من إقليم الشرف. وإقليم الشرف على تل عال، من تراب أحمر، مسافته أربعون ميلاً في مثلها، يمشي به السائر في ظل الزيتون والتين. ولها فيما ذكر بعض الناس قرى كثيرة، وكل قرية عامرة بالأسواق، والديار الحسنة والحمامات وغيرها من المرافق.

وقال صاحب «منهاج الفكر» عند ذكر اشبيلية: وهذه المدينة من أحسن مدن الدنيا، وبأهلها يضرب المثل في الخلاعة، وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة. ويعينهم على ذلك واديها الفرج، وناديها البهج، وهذا الوادي يأتيها من قرطبة، ويجزر في كل يوم. ولها جبل الشرف[3]، وهو تراب أحمر، طوله من الشمال إلى الجنوب أربعون ميلاً، وعرضه من المشرق إلى المغرب اثنا عشر ميلاً، يشتمل على مائتين وعشرين قرية، قد التحفت بأشجار الزيتون واشتملت. انتهى.

---

(١) الاسبانيول يقولون لشنت افرج Santa Cruz أي الصليب المقدس.

(٢) عند الاسبانيول Uclès وأكثر سينات الاسبانيول يقلبها العرب شيناً مثل برسلونة التي هي عندهم برشلونة، وسيفيله التي يقولون لها اشبيلية، وسنتره التي يقولون لها شنترة، وواديس التي هي عندهم وادي آش. إلى ما لا يحصى من الأعلام إلا أن ذلك غير مطرد، فبعض الأعلام لا تزال سينها عندهم سيناً، وذلك مثل بلنسية ومرسية وسرقسطة وقادس وغيرها. لقد أخبرني ولدنا الفاضل البحاثة المدقق السيد محمد الفاسي من آل الجد الفهريين أن الأسبان القدماء كانوا أيضاً ينطقون بالسين شيناً في ألفاظ كثيرة مثل Burgos برغش و Varggas بركاش اسم آل بركاش الوجهاء في رباط الفتح. ولذلك كان الأسبان في الماضي يكتبون السين المنطوق بها شينا بحرف X فكانوا يكتبون مثلاً اشبيلية هكذا Xévilla وارشيدونة Arxidona وشلير Xolair وهلم جرا. قلت: وربما كان القوط أتوا بهذا النطق من الشمال لأنهم هم جرمانيون في الأصل، وكل حرف S في اللغة الجرمانية ينطق به شيناً، وهو عندهم اصطلاح قديم إلا في مقاطعة هنوفر، فهناك حرف S ينطق بها سيناً.

(٣) لا يصح أن يسمى الشرف جبلاً، ولقد مررت به في ذهابي من اشبيلية إلى رندة، فهو نشز ناهض قليلاً عن الأرض.

ولكورة «باجة»[1] من الكور الغربية التي كانت من أعمال اشبيلية أيام بني عباد خاصّية في دباغة الأديم وصناعة الكتان. وفيها معدن فضة. وبها ولد المعتمد بن عباد، وهي متصلة بكورة ماردة.

ولجبل طارق حوز قصب السبق بنسبته إلى طارق مولى موسى بن نصير إذ كان أول ما حل به مع المسلمين من بلاد الأندلس عند الفتح، ولذا شهر بجبل الفتح، وهو مقابل الجزيرة الخضراء، وقد تجون البحر هنالك مستديراً، حتى صار مكان هذا الجبل كالناظر للجزيرة الخضراء. وفيه يقول مطرّف شاعر غرناطة:

وَأَقْوَدَ قد أَلْقى على البحر مَتْنهُ   فاصبح عن قُود الجبال بِمَعْزِلِ
يُعَرِّضُ نحو الأُفْقِ وَجْهاً كأنما   تـراقـبُ عينـاه كـواكـبَ مَنْـزِلِ

وإذا أقبل عليه المسافرون من جهة سبتة في البحر، بان كأنه سرج. قال أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد: أقبلت عليه مرة مع والدي فنظرنا إليه على تلك الصفة فقال والدي: أجِزْ:

انظـــر إلـــى جبـل الفَتْـــح راكبـــاً مَتْـــن لُـــج
وقـــد تفتَّـــح مثـــل الأفنـــان فـــي شكـــل سَـــرْج

فقلت:

وأما جزيرة طريف فليست بجزيرة، وإنما سميت بذلك الجزيرة التي أمامها في البحر مثل الجزيرة الخضراء، وطريف المنسوبة إليه بـربري من موالي موسى بن نصير. ويقال إن موسى بعثه قبل طارق في أربعمائة رجل، فنزل بهذه الجزيرة في رمضان سنة إحدى وتسعين، وبعده دخل طارق. والله أعلم.

ومن أعظم كور الأندلس كورة طليطلة، وهي من متوسط الأندلس، وكانت دار مملكة بني ذي النون، من ملوك الطوائف، وكان ابتداء ملكهم صدر المائة الخامسة. وسماها قيصر بلسانه «بزليطلة» وتأويل ذلك: أنت فارح. فعربتها العرب، وقالت «طليطلة»[2]. وكانوا يسمونها وجهاتها في دولة بني أمية بالثغر الأدنى، ويسمون سرقسطة وجهاتها بالثغر الأعلى. وتسمّى طليطلة مدينة الأملاك لأنه فيما يقال ملكها اثنان وسبعون إنساناً، ودخلها سليمان بن داود عليهما السلام، وعيسى ابن مريم، وذو القرنين[3]، وفيها

(١) Beja.

(٢) قال المؤرخ الروماني «تيت ليف»: طوليتوم Toletum مدينة صغيرة لكنها ذات موقع حصين.

(٣) هذا من أساطير الأولين.

وجد طارق مائدة سليمان، وكانت من ذخائر أشبان ملك الروم الذي بنى اشبيلية، أخذها من بيت المقدس، كما مر[1]. وقومت هذه المائدة عند الوليد بن عبد الملك بمائة ألف دينار. وقيل إنها كانت من زمرد أخضر، ويقال إنها الآن برومة. والله أعلم بذلك. ووجد طارق بطليطلة ذخائر عظيمة[2] منها مائة وسبعون تاجاً من الدر والياقوت والأحجار النفيسة، وإيوان ممتلىء من أواني الذهب والفضة، وهو كبير، حتى قيل إن الخيل تلعب فيه فرسانها برماحهم لوسعه. وقدِ قيل إن أواني المائدة من الذهب، وصحافها من اليشم والجزع. وذكروا فيها غير هذا، مما لا يكاد يصدقه الناظر فيه. وبطليطلة بساتين محدقة، وأنهار مخترقة، ورياض وجنان، وفواكه حسان، مختلفة الطعوم والألوان ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة، ورساتيق مريعة، وضياع بديعة، وقلاع منيعة، وبالجملة فمحاسنها كثيرة، ولعلنا نلم ببعض متنزهاتها فيما يأتي من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وطليطلة قاعدة ملك القوطيين، وهي مطلة على نهر تاجة، وعليه كانت القنطرة التي يعجز الواصفون عن وصفها، وكانت على قوس واحد، تكنفه فرجتان من كل جانب، وطول القنطرة ثلاثمائة باع، وعرضها ثمانون باعاً، وخربت أيام الأمير محمد، لما عصى عليه أهلها، فغزاهم واحتال في هدمها. وفي ذلك يقول الحكيم عباس بن فرناس:

أضْحــــت طُليطلــــةٌ معطلــــةً ... مــن أهلهــا فــي قَبْضـة الصقَّـرْ
تُــركَــت بــلا أهــلٍ تــؤّهلُهــا ... مهجــورةَ الأكنــافِ كــالقَبْــر
مــا كــانِ يُبقــى اللّــهُ قَنطــرةً ... نُصِبَـت لحَمْـلِ كتـائـب الكُفْـر

وسيأتي بعض أخبار طليطلة[3].

ومن مشهور مدن الأندلس المرّية وهي على ساحل البحر، ولها القلعة المنيعة المعروفة بقلعة خيران، بناها عبد الرحمن الناصر، وعظمت في دولة المنصور بن أبي عامر، وولى عليها خيران، فنسبت القلعة إليه. وبها من صنعة الديباج ما تفوق به سائر البلاد. وفيها دار الصناعة[4]. وتشتمل كورتها على معدن الحديد والرخام. ومن أبوابها باب العقاب عليه صورة عقاب من حجر، قديم عجيب المنظر.

---

(١) لم نقرأ هذا في تاريخ يوثق به.
(٢) أما هذا فصحيح وإن تطرقت إليه المبالغة؛ كما هو المعتاد في مثل هذه الحوادث.
(٣) سيأتيك خبر طليطلة في الجزء الأول هذا.
(٤) المرية كانت مرسى الأسطول الإسلامي الأندلسي الذي بلغ أوج عظمته في أيام عبد الرحمن الناصر، وبقيت كذلك مدة من الزمن بعد ذهاب الناصر رحمه الله، وفي أيام مجاهد العامري وولده علي كانت دانية مرفأ عظيماً للأسطول الإسلامي وكانت فيها دار صناعة وكانت دور صناعة في مدن بحرية أخرى مثل الجزيرة الخضراء وشلب والقنت وقستلون في كتلونية والمنكب ومالقة وقصر أبي دانيس في=

وقال بعضهم: كان بالمرية لنسج طرز الحرير ثمانمائة نول، وللحلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نول، وللأسقلاطون كذلك، وللثياب الجرجانية كذلك، وللأصفهانية مثل ذلك، وللعنابي والمعاجر المدهشة، والستور المكللة. ويصنع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج ما لا يوصف(١). وفاكهة المرّية يقصر عنها الوصف حسناً، وساحلها أفضل السواحل(٢)، وبها قصور الملوك القديمة الغريبة العجيبة. وقد ألف فيها أبو جعفر بن خاتمة تاريخاً حافلاً، سماه بـ «مزية المرّية على غيرها من البلاد الأندلسية» في مجلد ضخم، تركته من جملة كتبي بالمغرب. والله سبحانه المسؤول في جمع الشمل، فله الأمر من بعد ومن قبل.

ووادي المرية طوله أربعون ميلاً في مثلها، كلها بساتين بهجة، وجنات نضرة وأنهار مطردة، وطيور مغردة. قال بعضهم: ولم يكن في بلاد الأندلس أكثر مالاً من أهل المرية، ولا أعظم متاجر وذخائر، وكان بها من الحمامات والفنادق نحو الألف، وهي بين الجبلين، بينهما خندق معمور، وعلى الجبل الواحد، قصبتها المشهورة بالحصانة، وعلى الآخر ربضها. والسور محيط بالمدينة والربض. وغربيها ربض لها آخر يسمى ربض الحوض، ذو فنادق وحمامات، وخنادق وصناعات، وقد استدار بها من كل جهة حصون مرتفعة، وأحجار أوليّة. وكأنما غربلت أرضها من التراب. ولها مدن وضياع عامرة متصلة الأنهار. انتهى.

وقال ابن اليسع عند ذكر مدينة «شنترة»(٣): إن من خواصها أن القمح والشعير يزرعان فيها ويحصدان عند مضي أربعين يوماً من زراعته، وأن التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة أشبار وأكثر. قال لي أبو عبدالله الباكوري، وكان ثقة: أبصرت عند المعتمد بن عباد رجلاً من أهل شنترة، أُهدي إليه أربعاً من التفاح، ما يُقِلُّ الحامل على رأسه غيرها، دور كل واحدة خمسة أشبار. وذكر الرجل بحضرة ابن عباد أن المعتاد عندهم أقل من هذا، فإذا

= الجهة الغربية وجزيرة يابسة، وفي زمن الناصر أنشئت دار صناعة عظيمة في طرطوشة، وذلك لأن الصنوبر الطرطوشي مشهور بالصلابة.

(١) نقل لاوي بروفنسال عن مؤلفي العرب ما ذكروه عن عظمة تجارة المرية، وأنها كانت أعظم ميناء في الأندلس، كما قال الشقندي، وذكر أنه كان فيها ألف إلا ثلاثين فندقاً مقيدة في ديوان الخراج، وأنها كانت مدينة صناعية من الدرجة الأولى، وفيها المناسج الحريرية وغيرها، ومعامل الحديد والنحاس والزجاج.

(٢) إلى يومنا هذا فواكه المرية مشهورة، ومنها يجلب إلى أوروبة أفضل العنب.

(٣) Cintra من مدن البرتغال.

أرادوا أن يجيء بهذا العِظَم وهذا القدر قطعوا أصلها وأبقوا منه عشراً أو أقل، وجعلوا تحتها دعامات من الخشب. انتهى.

وبحصن «شنش»(١) على مرحلة من المرّية التوت الكثير، وفيها الحرير والقرمز، ويعرف واديها بوادي «طبرنش»(٢) وبغربي مالقة عمل «سهيل»(٣) وهو عمل عظيم كثير الضياع، وفيه جبل سهيل، لا يرى نجم سهيل بالأندلس إلا منه.

ومن كور الأندلس الشرقية تدمير(٤) وتسمى مصر أيضاً، لكثرة شبهها بها، لأن لها أرضاً يسيح عليها نهر في وقت مخصوص من السنة، ثم ينضب عنها، فتزرع كما تزرع أرض مصر، وصارت القصبة بعد تدمير مرسية، وتسمى البستان لكثرة جناتها المحيطة بها، ولها نهر يصب في قبليها.

واعلم أن جزيرة الأندلس، أعادها الله للإسلام، مشتملة على موسطة وشرق وغرب. فالموسطة فيها من القواعد الممصَّرة التي كل مدينة منها مملكة مستقلة، لها أعمال ضخام، وأقطار متسعة: قرطبة، وطليطلة، وجيان، وغرناطة، والمرية، ومالقة: فمن أعمال قرطبة «استجة» و «بلكونة» و «قبرة» و «رندة» و «غافق» و «المدوّر» و «اسطبة» و «بيانة» و «اليسانة» و «القصير»(٥) وغيرها. ومن أعمال طليطلة «وادي الحجارة»، و «قلعة رباح»، و «طلمنكة»(٦) وغيرها. ومن أعمال جيان، «ابذة»، و «بياسة»، و «قسطلة»(٧) وغيرها،

---

(١) لا نعلم أهي في الأصل شنشين Chinchin وقد حرفها النساخ إلى شنش، أم هي من الأصل شنش.

(٢) يقول لها الاسبانيول Tabarnax قال عنها لسان الدين بن الخطيب في «معيار الاختبار» حاضرة البلاد المشرقية، وثنية البارقة الأفقية، ما شئت من تنجيد بيت، وعصر زيت، واحياء أنس ميت، وحمام طيب، وشعر تنثر فيه دنانير أبي الطيب، إلا أنها محيلة الغيوث، عادية الليوث، ولو شكر الغيث شعيرها، أخصبت البلاد وعيرها.

(٣) هو اسم عربي من أصله والاسبانيول يقولون لهذا المكان «فوانجيرولا» Fuengirola قال لسان الدين في «معيار الاختبار»: حصن حصين، يضيق عن مثله هند وصين، ويقضي بفضله كل ذي عقل رصين، سبب عزه متين، ومادة قوته شعير وتين، قد علم أهله مشربهم، وأمنوا مهربهم، وأسهلت بين يديه قراه، ماثلة بحيث تراه، وجاد بالسمك واديه، وبالحب ثراه، وعرف شأنه بأرض النوب، ومنه يظهر سهيل من كواكب الجنوب. إلا أن سواحله بِلٌّ الغارة البحرية، ومهبط السرية غير السرية، ومسرح السائمة الأميرية، وخدامها كما علمت أولئك هم شر البرية. اهـ. قلت: قوله البل بكسر أوله معناه مباح يقال هو «حل وبل» أي سواحل سهيل مباحة للغارات البحرية لكثرتها عليها.

(٤) هي البلدة التي يقال لها أوريولة وهي من عمل مرسية.

(٥) الاسبانيول يقولون لاستجة Eciga ولبلكونه Balcona ولقبره Cabra ولرندة Ronda ولغافق Gafic وللمدور Almodovar ولأسطبة Estepa ولبيانه Baena ولأليسانة Lucana وللقصير Alkosair.

(٦) الاسبانيول يقولون لوادي الحجارة Guadalajara ولقلعة رباح Calatrava ولطلمنكة Salamanqua.

(٧) الاسبانيول يقولون لجيان خيان بالخاء وبدون تشديد، ويقول دوزي إن القشتاليين كانوا يقولون في=

ومن أعمال غرناطة «وادي آش»، و «المنكّب» و «لوشة»[1] وغيرها. ومن أعمال المرية «اندرش»[2] وغيرها. ومن أعمال مالقة «بلش» و «الحامه»[3]، وغيرهما. وببلش من الفواكه ما بمالقة، وبالحامة العين الحارة على ضفة واديها.

وأما شرق الأندلس ففيه من القواعد «مرسية» و «بلنسية» و «دانية» و «السهلة» و «الثغر الأعلى»[4]. فمن أعمال مرسية «أوريولة» و «القنت» و «لورقة»[5] وغير ذلك ومن أعمال بلنسية «شاطبة» التي يضرب بحسنها المثل، ويعمل بها الورق الذي لا نظير له، و «جزيرة شقر» وغير ذلك وأما «دانية» فهي شهيرة، ولها أعمال، وأما «السهلة» فإنها متوسطة بين بلنسية وسرقسطة، ولذا عدها بعضهم من كور الثغر الأعلى، ولها مدن وحصون. ومن أعمال الثغر الأعلى سرقسطة. وهي أم ذلك الثغر. وكورة «لاردة» والقلعة. وتسمى بالبيضاء[6] وكورة «تطيلة» ومدينتها «طرسونة»[7] وكورة «وشقة» ومدينتها

= القرون الوسطى جيان مخففة، وأن أصل هذا الاسم روماني، وهو أوسيانس Uciense فالعرب حذفوا آخر الاسم، فبقي أوسيان، فقلبوا السين شيناً، ثم غلبت الجيم الشين، وحذفوا الأول، فانتهى الأمر بأن صارت جيان، والله أعلم. ويقول الاسبانيول لأبذه Ubeda ولبياسه Baeza ولقسطة Castella وكل هذه الأسماء قد تقدم ذكرنا لها بالعربي وبالاسبانيولي وإنما نكررها لترسخ في ذهن القارىء.

(١) لا يخفى أن غرناطة هي عند الاسبانيول Granada ووادي آش Geiadix والمنكب Almunécar، ولا نعلم لماذا الاسبانيول قلبوا الباء راء، ولوشة هي عندهم Loja.

(٢) لا يخفى أن المرية هي من فعل رأى بحسب رأي دوزي، فقد قال إن هذا الاسم في أصله لم يكن علماً وأنه صفة لبرج يكون مشرفاً على البحر، ترى منه مراكب البحر، وتراه المراكب من البحر. وهذا الرأي ليس ببعيد عن الصواب، لأنه في العربي يوجد فعل أراه إياه يريه إراءة وإيراء، أي جعله ينظر فيه فهو مر وهي مرية. فهذا في الأرجح أصل هذه اللفظة، وفيما بعد أدخلوا عليها التشديد بتحريف العوام. ومع هذا فالاسبانيول لا يلفظونها بالتشديد بل يلفظونها بفتح الأول وكسر الثاني فسكون فياء فألف هكذا Almeria وأما اندرش فيكتبونها Andarax وهي البلدة التي عينها فرديناند لأبي عبدالله بن الأحمر بعد أن أخرجه من غرناطة، حتى يقيم بها قبل أن تحيل عليه وأخرجه إلى المغرب، وقد ذكرها لسان الدين في «معيار الاختبار» فقال عنها: عنصر جباية، وكمن به أولو إباية، حريرها ذهب، وتربها تبر ملتهب، وماؤها سلسل، وهواؤها لا يلفى معه كسل إلا أنها ضيقة الأحواز والجهات، كثيرة المقابر والفوهات، عديمة الفرج والمتنزهات، ثقيلة المغارم، مستباحة المحارم، أعرابها أولو استطالة، فلا يعدم الزرع عدواناً، ولا يفقد غير الشر نزوانا، وطريقها غير سوي وساكنها ضعيف يشكو من قوي اهـ.

(٣) الاسبانيول يقولون لبلش مالقة Velez Malaga ويقولون للحامة Alahama.

(٤) مرسية هي Murcia وبلنسية Valencia ودانية Denia والسهلة Azaila والثغر الأعلى هي سرقسطة Zaragoza.

(٥) كلها قد تقدم ذكرها وبعض وصفها.

(٦) أي سرقسطة.

(٧) قد تقدم ذكر هذه المدن وسيأتي الخبر عنها كلها.

تمريط[١]، وكورة مدينة سالم، وكورة قلعة أيوب، ومدينتها بليانة، وكورة «برطانية»[٢] وكورة «باروشة»[٣].

وأما غرب الأندلس ففيه «اشبيلية» و «ماردة» و «اشبونة» و «شلب»[٤] فمن أعمال اشبيلية «شريش» و «الخضراء» و «لبلة»[٥] وغيرها. ومن أعمال ماردة، «بطليوس» و «يابرة»[٦] وغيرها. ومن أعمال اشبونة «شنترين»[٧] وغيرها. ومن أعمال شلب «شنت ريه»[٨] وغيرها.

وأما الجزر البحرية بالأندلس فمنها جزيرة «قادس»[٩] وهي من أعمال اشبيلية. وقال ابن سعيد: إنها من كورة شريش ولا منافاة، لأن شريش من أعمال اشبيلية كما مر. قال: وبيد صنم قادس مفتاح. ولما ثار بقادس ابن أخت القائد أبي عبدالله بن ميمون، وهو علي بن عيسى قائد البحر بها، ظن أن تحت الصنم مالاً فهدمه فلم يجد شيئاً اهـ.

وهي أعني جزيرة قادس في البحر المحيط. وفي المحيط الجزائر الخالدات[١٠] السبع، وهي غربي مدينة سلا، تلوح للناظر في اليوم الصاحي الصافي الجو من الأبخرة الغليظة، وفيها سبعة أصنام على أمثال الآدميين، تشير أن لا عبور ولا مسلك وراءها. وفيه بجهة الشمال جزائر السعادات[١١]، وفيها من المدن والقرى ما لا يحصى ومنها يخرج قوم يقال لهم المجوس، على دين النصارى، أولها جزيرة برطانية[١٢] وهي بوسط البحر المحيط، بأقصى شمال الأندلس، ولا جبال فيها ولا عيون، وإنما يشربون من ماء المطر، ويزرعون عليه، وقال ابن سعيد: وفيه جزيرة «شلطيش»[١٣] وهي آهلة، وفيها مدينة،

---

(١) Tamarite- Altorricon.

(٢) إن هذه الكورة هي المسماة بلطانية عند الأسبان وهي شمالي وشقة.

(٣) قال ياقوت: باروشة مدينة من غربي سرقسطة بقرب من أرض الفرنج.

(٤) هذه الأسماء هي Sévilla و Merida و Lisboa و Silves.

(٥) هذه الأسماء هي Xeres و Algezira و Niebla.

(٦) هذه الأسماء هي Badajoz و Evora.

(٧) Santarem.

(٨) Santamaria.

(٩) Cadix وليست بجزيرة تامة، وذلك لأنها ترتبط بالبر بخيط دقيق من التراب قليل العرض لا يزيد على أمتار معدودات، وهو أيضاً غير مستطيل.

(١٠) Canaries.

(١١) Açores.

(١٢) بريطانية العظمى.

(١٣) Saltes وهي جزيرة في غربي الأندلس ينسب إليها أبو محمد الشلطيشي وغيره من أهل العلم وسيأتي ذكرها.

وبحرها كثير السمك، ومنها يحمل مملحاً إلى اشبيلية، وهي من كورة «البلة» مضافة إلى عمل «أونبة»[1] اهـ.

وقال بعضهم لما جرى ذكر قرطاجنة من بلاد الأندلس: إن الزرع في بعض أقطارها يكتفي بمطرة واحدة، وبها أقواس من الحجارة المقربصة، وفيها من التصاوير والتماثيل وأشكال الناس وصور الحيوانات ما يحير البصر والبصيرة. ومن أعجب بنائها «الدواميس»[2] وهي أربعة وعشرون، على صف واحد، من حجارة مقربصة، طول كل داموس مائة وثلاثون خطوة، في عرض ستين خطوة، وارتفاع كل واحد أكثر من مائتي ذراع، بين كل داموسين انقاب محكمة، تتصل فيها المياه من بعضها إلى بعض، في العلو الشاهق، بهندسة عجيبة، وإحكام بديع. انتهى.

قلت: أظن هذا غلطاً فإن قرطاجنة التي بهذه الصفة قرطاجنة أفريقية لا قرطاجنة الأندلس. والله أعلم.

وقال صاحب «مناهج الفكر» عندما ذكر قرطاجنة: وهي على البحر الرومي، مدينة قديمة بقي منها آثار، ولها فحص طوله ستة أيام، وعرضه يومان، معمور بالقرى. انتهى. وذكر قبل ذلك في «لورقة»[3] أنه بناحيتها يوجد حجر اللازورد، وفي البحر الشامي الخارج من المحيط جزيرتا ميورقة ومنورقة، وبينهما خمسون ميلاً وجزيرة ميورقة مسافة يوم بها مدينة حسنة[4] وتدخلها ساقية جارية على الدوام، وفيها يقول ابن اللبانة:

بلدٌ أعارته الحمامةُ طوقَها ... وكساه حُلَّةَ ريشِهِ الطاوُوسُ
فكأنما الأنهارُ فيه مُدامةٌ ... وكأنَّ ساحاتِ الديارِ كُؤسُ

وقال يخاطب ملكها ذلك الوقت:

وَغَمَرْت بالإحسان أَرْض مُيورقةٍ ... وبنيت ما لم يَبْنِهِ الاسْكَنْدَرُ

وجزيرة يابسة[5]. واستقصاء ما يتعلق بهذا الفصل يطول، ولو تُتبع لكان تأليفاً

(١) Huelva.
(٢) الداموس هو القترة أو ما يستتر به.
(٣) Lorca.
(٤) الاسبانيول يقولون لهذه المدينة «پالما» Palma وأما العرب فكانوا يقولون للجزيرة ميورقة وللمدينة أيضاً ميورقة. وقد أقمت بهذه البلدة عشرين يوماً في أثناء سياحتي إلى الأندلس سنة ١٩٣٠ فرأيتها من أجمل بلاد الله وأخصبها.
(٥) Ibiza.

مستقلاً، وما أحسن قول ابن خفاجة:

إن للجنـــة بـــالأنـــدلُـــسِ مُجْتَلَـى حُسْـنٍ وريَـا نفَـس
فسَنـا صبحتهـا مــن شنَـب ودُحَـى ليلتهـا مــن لَعَــس
وإذا مـا هبَّـت الـريـح صَبـاً صِحْتُ: واشوقي إلى الأندلس!

وقال بعضهم في طليطلة:

زادت طُليطُلةٌ على ما حدَّثوا بلــد عليــه نضــرةٌ ونعيـــمُ
الله زيَّنَـــهُ فـــوشَّـــح خضْـــرَهُ نهـر المجرّة والغصـونُ نجـومُ

ولا حرج إن أوردنا هنا ما خاطب به أديب الأندلس أبو بحر صفوان بن إدريس الأمير عبد الرحمن ابن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن علي، فإنه مناسب ونصه:

«مولاي أمتع الله ببقائك الزمان وأبناءه، كما ضمَّ على حبك أحناءهم وأحناءه، وأوصل لك ما شئت من المنّ والأمان، كما نظم قلائد فخرك على لبة الدهر نظم الجمان، فإنك الملك الهمام، والقمر التمام، أيامك غرر وحجول، وفرند بهائها في صفحات الدهر يجول، ألبست الرعية برود التأمين، فتناسقت فيك من نفيس ثمين، وتلقت دعوات خلدك لها باليمين، فكم للناس من أمن بك وإيناس، وللأيام من لوعة فيك وهيام وللأقطار من لبانات لديك وأوْطار، وللبلاد من قراع على تمّلكك لها وجلاد!! يتمنون شخصك الكريم على الله ويقترحون، ويغتبقون في رياض ذكرك العاطر بمدام حبك ويصطبحون، كل حزب بما لديهم فرحون، محبة من الله ألقاها لك، حتى على الجماد، ونصراً مؤزرا تنطق به ألسنة السيوف على أفواه الأغماد، ومن أسرّ سريرة ألبسه الله رداءها، ومن طوى حسن نية ختم الله له بالجميل إعادتها وإبداءها، ومن قدّم صالحاً فلا بد من أن يوازيه، ومن يفعل الخير لا يعدم جوازيه ولما تخاصمت فيك من الأندلس الأمصار، وطال بها الوقوف على حبك والاقتصار، كلها يَفسح قولا، ويقول أنا أحق وأولى، ويصيخ إلى إجابة دعوته ويصغى، ويتلو إذا بشر بك: ذلك ما كنا نبغي. تنمَّرت حمص غيظاً، وكادت تفيض فيظاً وقالت: ما لهم يزيدون وينقصون، ويطمعون ويحرصون؟ إن يتبعون إلاَّ الظن وإن هم إلاّ يخرصون! أَلهم السهم الأسدّ، والساعد الأشدّ، والنهر الذي يتعاقب عليه الجزر والمدّ. أنا مصر الأندلس والنيل نهري، وسمائي التأنس والنجوم زهري، إن تجاريتم في ذلك الشرف[1]، فحسبي أن أفيض في ذلك الشرف، وإن تبجحتم بأشرف اللبوس، فأي إزار اشتملتموه «كشنتبوس»[2]؟ إلى ما شئت من أبنية رحاب، وروضي يسْتَغْنى بنضرته عن السحاب، وقد

---

(١) هو غابة الزيتون التي تقدم ذكرها.

(٢) Santiponce من قرى أشبيلية.

ملأت زهراتي وهاداً ونجاداً، وتوشح سيف نهري بحدائقي نجاداً، فأنا أولاكم بسيدنا الهمام وأحق، الآن حصحص الحق!

فنظرتها قرطبة شذراً، وقالت: لقد كثرت نذراً، وبذرت في الصخر الأصم بذراً، كلام العدي ضرب من الهذيان، واني للإيضاح والبيان متى استحال المستقبح مستحسناً، ومن أودع أجفان المهجور وسناً، أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً؟! يا عجباً للمراكز تقدّم على الأسنة، وللأثغار[1] تفضل على الأعنة! إن ادعيتم سبقاً فما عند الله خير وأبقى، لي البيت المطهر الشريف، والاسم الذي ضرب عليه رواقه التعريف، في بقيعي محل الرجال الأفاضل، فليرغم أنف المناضل، وفي جامعي مشاهد ليلة القدر، فحسبي من نباهة القدر، فما لأحد أن يستأثر عليَّ بهذا السيد الأعلى، ولا أرضى له أن يوطىء غير ترابي نعلاً، فأقرّوا لي بالأبوّة، وانقادوا لي على حكم النبوّة، ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوّة، وكفوا عن تباريكم ذلكم خير لكم عند باريكم.

فقالت غرناطة: لي المعقل الذي يمتنع ساكنه من النجوم، ولا تجري إلا تحته جياد الغيث السجوم، فلا يلحقني من معاند ضرر ولا حيف، ولا يهتدي إليَّ خيال طارق ولا طيف، فاستسلموا قولاً وفعلاً، فقد أفلح اليوم من استعلى، لي بطاح تقلدت من جداولها أسلاكاً، وأطلعت كواكب زهرها فعادت أفلاكاً، ومياه تسيل على أعطافي كأدمع العشاق، وبرد نسيم يردد ماء المستجير بالانتشاق، فحسني لا يطمع فيه ولا يحتال، فدعوني فكل ذات ذيل تختال، فأنا أولى بهذا السيد الأعدل، وما لي به من عوض ولا بدل، ولم لا يعطف عليَّ عنان مجده ويثني، وإن أنشد يوماً فإياي يعني:

بلاد بها عَقّ الشباب تمائمي وأول أرض مَسَّ جلدي تُرابها

فما لكم تعتزون لفخري وتنتمون، وتتأخرون في ميداني وتتقدمون؟ تبرأوا إليَّ مما تزعمون، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون.

فقالت مالقة: أتتركوني بينكم هملا، ولم تعطوني في سيدنا أملا؟ ولِمَ ولي البحر العجاج، والسبل الفجاج، والجنات الأثيرة، والفواكه الكثيرة؟! لدي من البهجة ما تستغني به الحمام عن الهديل، ولا تجنح الأنفس الرقاق الحواشي إلى تعويض عنه ولا تبديل، فما لي لا أعطي في ناديكم كلاماً، ولا أنشر في جيش فخاركم أعلاماً؟! فكأنَّ الأمصار نضرتها ازدراء، فلم تر لحديثها في ميدان الذكر إجراء، لأنها موطن لا يحظى منه بطائل، ونظن البلاد تأولت فيها قول القائل:

إذا نَطَقَ السفيهُ فلا تُجبْهُ فخيرٌ من إجابته السكوتُ

---

(١) الثغَر محركة وقد تسكن: السير الذي في مؤخر السرج.

فقالت مرسية: أمامي تتعاطون الفخر، وبحضرة الدر تنفقون الصخر، إن عدّت المفاخر، فلي منها الأول والآخر، أين أوشالكم من بحري، وخرزكم من لؤلؤ نحري؟ وجعجعتكم من نفثات سحري؟ فلي الروض النضير، والمرأى الذي ما له نظير، ورتقاتي التي سار مثلها في الآفاق، وتبرقع وجه جمالها بغرة الاصفاق، فمن دوحات، كم لها من بكور وروحات، ومن أرجاء، إليها تمد أيدي الرجاء. فابنائي في الجنة الدنيوية مودعون، يتنعمون فيما يأخذون ويَدَعُون، ولهم فيها ما تشتهي أنفسهم ولهم فيها ما يَدَّعون، فانقادوا لأمري، وحاذروا اصطلاء جمري، وخلّوا بيني وبين سيدنا أبي زيد، وإلا ضربتكم ضرب زيد، فأنا أولاكم بهذا الملك المستأثر بالتعظيم، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم.

فقالت بلنسية: فيم الجدال والقراع، وعلام الاستهام والاقتراع، وإلام التعريض والتصريح، وتحت الرغوة اللبن الصريح؟! أنا أحوزه من دونكم، فاخمدوا نار تحرككم وهدونكم، فلي المحاسن الشامخة الأعلام. والجنات التي تلقي إليها الآفاق يد الاستسلام، وبرصافتي وجسري أعارض مدينة السلام، فأجمعوا على الانقياد لي والسلام، وإلا فعضوا بناناً، واقرعوا أسناناً، فأنا حيث لا تدركون وأنّى؟ ومولانا لا يهلكنا بما فعل السفهاء منا!

فعند ذلك ارتمت جمرة تدمير بالشرار، واستدّت اسهمها لنحور الشرار، وقالت: عش رجباً، تر عجباً! أبَعدَ العصيان والعقوق، تتهيأن لرتب ذوي الحقوق؟! هذه سماء الفخر، فمن ضمنك أن تعرجي؟ ليس بعشك فادرجي، لك الوصف والخبل. آلآن؟ وقد عصيت قبل أيتها الصانعة الفاعلة، من أدراك أن تضربي وما أنت فاعلة، ما الذي يجديك الروض والزهر؟ أم يفيدك الجدول والنهر؟ وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر؟ هل أنت إلا محط رحل النفاق، ومنزل ما تسوق الخصب فيه من نفَاق، ذراك لا يكتحل الطرف في بهجوع، وقراك لا يسمن ولا يغني من جوع، فإلام تبرز الإماء في منصة العقائل! ولكن اذكري قول القائل:

بلنسية، بيني عن القلب سَلْوَةً　　　فـإنـك روض لا أحِـنُّ لـزَهْـرك
وكيف يُحب المرءُ داراً تقسَّمَتْ　　　على صارِمَيْ جوُعٍ وفتنةِ مشرِكِ؟

بيد أني أسأل الله تعالى أن يوقد من توفيقك ما خمد، ويسيل من تسديدك ما جمد، ولا يطيل عليك في الجهالة الأمد، وإياه سبحانه نسأل أن يرد سيدنا ومولانا إلى أفضل عوائده، ويجعل مصائب أعدائه من فوائده، ويمكن حسامه من رقاب المشغبين، ويبقيه وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين، ويصل له تأييداً وتأبيداً، ويمهد له الأيام حتى

تكون الأحرار لعبيد عبيده عبيداً، ويمد على الدنيا بساط سعده، ويهبه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده.

آمين! آمين! لا أرض بواحدة ... حتى أضيف إليها ألف آميناً

ثم السلام الذي يتعانق عبقاً ونشراً، ويتألق رونقاً وبشراً، على حضرتهم العلية، ومطالع أنوارهم السنية الجلية، ورحمة الله تعالى وبركاته»[1]. (انتهى).

ولما أَلَمّ الرّحالة ابن بطوطة في رحلته بدخوله بلاد الأندلس، أعادها الله تعالى للإسلام قال: فوصلت إلى بلاد الأندلس حرسها الله تعالى حيث الأجر موفور للساكن، والثواب مذخور للمقيم والظاعن... إلى أن قال عند ذكره غرناطة ما نصه: قاعدة بلاد الأندلس، وعروس مدنها، وخارجها لا نظير له في الدنيا، وهو مسيرة أربعين ميلاً، يخترقه نهر شنيل المشهور وسواه من الأنهار الكثيرة، والبساتين الجليلة، والجنات، والرياضات والقصور، والكروم، محدقة بها من كل جهة، ومن عجيب مواضعها «عين الدمع»[2] وهو جبل فيه الرياضات والبساتين، لا مثل له بسواها. انتهى.

وقال الشقندي: غرناطة: دمشق بلاد الأندلس، ومسرح الأبصار، ومطمح الأنفس، ولم تخل من أشراف أماثل، وعلماء أكابر، وشعراء أفاضل، ولو لم يكن بها إلا ما خصها الله تعالى به من كونها قد نبغ فيها النساء الشواعر، كنزهون القَلْبعيَّة، والركونية، وغيرهما، وناهيك بهما في الظرف والأدب. انتهى.

ولبعضهم، يتشوق إلى غرناطة، فيما ذكره بعض المؤرخين، والصواب أن الأبيات قيلت في قرطبه كما مر والله أعلم.

أغرناطة الغراء، هل لِيَ أوبة ... إليك وهل يدنو لنا ذلك العهد
سقى الجانبَ الغربيَّ منك غمامةٌ ... وقعقع في ساحات رَوْضتك الرعد
لياليك أسحارٌ، وأرضك جنة ... وتُرْبُكِ في استنشاقها عنبر وَرْدُ

وقال ابن مالك الرعيني:

رعى الله بالحمراء عيشاً قَطَعْتُهُ ... ذهبت به للأنس والليلُ قَدْ ذَهَبْ
تــرى الأرضَ فِضــةً فــإذا اكْتَسَــتْ ... بشمْسِ الضُّحَى عادت سبيكَتُهَا ذَهَبْ

(١) يرى القارىء أن صاحب النفح يأتي بالجغرافية والتاريخ والمحاضرات والمسامرات والنظم والنثر، كل ذلك في نسق، وأن الترتيب ليس هو الصفة الغالبة على تأليفه، بل هو في هذا سائر على قاعدة: إن الحديث شجون، ولقد رأينا الأولى أن نبقي نسقه على علاته، وأن لا نتصرف إلا ما ندر في ترتيبه وتبويبه.

(٢) الاسبانيول يقولون لهذه العين Fuente del Avellano.

وهو القائل:

لا تظنـوا أن شـوقـي خمـدا بعـدكـم، أو أن دمعـي جمـدا
كيف أسلو عن أُناس مثلهم قَـلَّ أن تُبْصِـرَ عيني أحـدا

وغرناطة من أحسن بلاد الأندلس، وتسمى بدمشق الأندلس، لأنها أشبه شيء بها، ويشقها نهر «حَدَرُّه»[1] ويطل عليها الجبل المسمى بشلير[2]، الذي لا يزول الثلج عنه شتاء ولا صيفاً ويجمد عليه، حتى يصير كالحجر الصلد، وفي أعلاه الأزاهر الكثيرة، وأجناس الأفاوية الرفيعة، ونزل بها أهل دمشق، لمّا جاؤوا إلى الأندلس، لأجل الشبه المذكور وقرى غرناطة فيما ذكر بعض المتأخرين مائتان وسبعون قرية[3] وقال ابن جزي مرتب رحلة ابن بطوطة، بعد ذكر كلامه ما نصه: قال ابن جزي: لولا خشيت أن أُنسب إلى العصبية، لأطلت القول في وصف غرناطة، فقد وجدت مكانه، ولكن ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لإطالة القول فيه. ولله در شيخنا أبي بكر بن محمد بن شيرين السبتي، نزيل غرناطة حيث يقول:

رعى الله من غِرناطةٍ مُتبَوءًا يَسُرّ حزيناً أو يُجيرُ طَريدا
تبرَّمَ منها صاحبي عندما رأى مسارِحَها بالثَّلْجِ عُدْنَ جَليدا
هو الثَّغْرُ، صان الله مَن أَهِلت به وما خيرُ ثغرٍ لا يكون بَرودا؟

وقال ابن سعيد، عندما أجرى ذكر قرية نارجة، وهي قرية كبيرة تضاهي المدن قد أحدقت بها البساتين، ولها نهر يفتن الناظرين، وهي من أعمال مالقة: إنه اجتاز مرة عليها مع والده أبي عمران موسى، وكان ذلك زمان صباغة الحرير عندهم وقد ضربوا في بطن الوادي بين مقطعاته خيماً، وبعضهم يشرب، وبعضهم يغني ويطرب، وسألوا: بِمَ يعرف ذلك الموضع؟ فقالوا: الطراز، فقال والدي: اسم طابق مسماه، ولفظ وافق معناه.

وقد وجدتَ مكان القولِ ذا سَعةٍ فإن وَجَدْتَ لساناً قائلاً فقُلِ

ثم قال أجز:

بنـارجـةٍ حيـثُ الطِّـراز الْمُنَمْنَـمُ
فقلـت: أقِـمْ فـوقَ نهـرٍ ثَغْـرُه يتبسـمُ

---

(١) الاسبانيول يقولون Darro.

(٢) هذا هو الجبل الذي قال فيه القائل وقد حل بإحدى قراه:

يحـل لنـا تـرك الصـلاة بـأرضهـم وشـرب الحميـا وهـو شـيء محـرم
فـراراً إلـى نـار الجحيـم فـإنهـا أخـف علينـا مـن شليـر وأرحـم

(٣) سيأتي ذكر غرناطة وقراها في محله.

فقــال: وسمعــك نحــو الهــاتفــات فــإنهــا
فقلــت: لِمــا أبصــرتْ مِــنْ بهْجَــةٍ تَتَــرَنَّــم
فقــال: أيَــا جنــةَ الفِــردوسِ لســتُ بــآدَم
فقلــت: فــلاَ يــكُ حظِّــى مــن جَنــاك التنَــدُّمُ
فقــال: يعــز علينــا أن نــزورك مثــلَ مــا
فقلــت: يــزورُ خيــالٌ مــن سُلَيْمَــى مسلِّــمُ
فقــال: فلــو أننــي أُعْطَــى الخيــارَ لَمَــا عَــدَتْ
فقلــت: محلَّــك لِــي عَيْــنٌ بمــرآكِ تَنْعَــمُ
فقــال: بحيــثُ الصبــا والطَّــلُّ مــن نفثــاتهــا
فقلــت: وقَــتْ لَسْــعَ روضٍ فيــه للنهــر أرْقَــمُ
فقــال: فــوا أسَفــي! إن لــم تكــن لِــيَ عــودةٌ
فقلــت: فكــنْ مــالِكــاً إنــي عليــك مُتَمِّــمُ(١)
فقــال: فــأحسَــب هــذا آخَــر العَهْــدِ بيننــا
فقلــت: وقــد يَلْحَــظُ الــرحمــنُ شَــوْقــي فيــرحَــمُ
فقــال: ســلام! ســلامٌ لا يــزال مُــرَدّداً
فقلــت: عليــك! ولا زالــت بــك السُّحْــب تَسْجُــم!

انتهى.

وقال ابن سعيد: إن كورة بلنسية، من شرق الأندلس، ينبت بها الزعفران وتعرف بمدينة التراب، وبها كُمَّثْرَى تسمى الأرزة، في قدر حبة العنب، قد جمع مع حلاوة الطعم، ذكاء الرائحة، إذا دخل داراً عرف بريحه، ويقال إن ضوء بلنسية يزيد على ضوء سائر بلاد الأندلس، وبها منارة ومسارح، ومن أبدعها وأشهرها الرصافة، ومُنْية ابن أبي عامر.

وقال الشرف أبو جعفر بن مسعدة الغرناطي من أبيات فيها:

هي الفِردوْس في الدنيا جَمالا لساكِنِها وكارهها البعــوض

وقال بعضهم فيها:

ضــاقَــتْ بَلَنسيــةٌ بــي وذادَ عنــي غُمــوضــي
رقــصُ البــراغيــث فيهــا عَلَــى غِنَــاءِ البَعُــوض

(١) متمم كمعظم هو متمم بن نويرة بن حمزة التميمي اليربوعي الشاعر الصحابي أخو مالك بن نويرة الصحابي أيضاً رضي الله عنهما.

وفيها لابن الزقاق البلنسي:

بلنسيـــةٌ إذا فكّـــرتَ فيهـــا وفـــي آيـــاتهـــا أسنـــى البـــلادِ
وأعظـمُ شـاهِـدي منهـا عليْهَـا وأن جَمــالهـــا للعيـــن بَـــادِي
كَسَـاهـا ربُّهـا دِيبَـاجَ حُسْـن لهـا عَلَمـانِ مِـنْ بَحْـر ووادي

وقال ابن سعيد أيضاً: أنشدني والدي قال: أنشدني مروان بن عبدالله بن عبد العزيز ملك بلنسية لنفسه بمراكش قوله:

كـــأنّ بلنسيـــةً كـــاعِـــبٌ ومَلْبَسهـــا سُنْـــدُسٌ أخضَـــرُ
إذا جئتَهَـــا سَتَـــرَتْ نفسَهـــا بـــأكمـــامِهـــا فهْـــيَ لا تظهَـــرُ

وأما قول أبي عبدالله بن عياش: «بلنسية بيني» البيتين وقد سبقا، فقال ابن سعيد: إن ذلك حيث صارت ثغراً يصابحها العدو ويماسيها[1] اهـ.

وقال أبو الحسن بن حريق يجاوب ابن عياش:

بَلَنْسِيَـــةٌ قَـــرَارَةُ كـــلِّ حُسْـــن حديث صَحَّ في شَرْق وغَرْب
فـإن قـالـوا مَحَـلٌّ غَـلاَءِ سعـر ومَسْقَـطُ ديمتَـيْ طعـن وضَـرْب
فقـل هـيَ جَنَّـةٌ حُفَّـتْ ربـاهـا بمكـروهَيْـنِ مـن جـوع وحَـرْب

وقال الرصافي في رصافتها:

ولا كـالـرُّصـافـة مـن منـزلِ سَقَتْهُ السحائبُ صَوْبَ الوَلِى
أحِـنُّ إليهـا ومَـنْ لـي بهـا وأيـنَ السَـريُّ مِـن المَـوْصِلـي

وقال ابن سعيد: وبرصافة[2] بلنسية مناظر وبساتين ومياه ولا نعلم في الأندلس ما يسمَّى بهذا الاسم إلاَّ هذه، ورصافة قرطبة. انتهى. ومن أعمال بلنسية قرية «المنصف» التي منها الفقيه الزاهد أبو عبدالله المنصفي وقبره كان بسبته يزار رحمه الله. ومن نظمه:

قالت لِيَ النفسُ: أتاكَ الرَّدَى وأنت في بَحْر الخطايا مُقيم
فَمَا ادَّخَرْتَ الزادَ، قلت اقصري! هـل يُحْمَـلُ الـزادُ لـدار الكـريـم؟

ومن عمل بلنسية قرية «بطرنة»[3] وهي التي كانت فيها الوقعة المشهورة للنصارى

(١) هذا كان بعد انصداع الوحدة الأندلسية وانقسام البلاد بين ملوك الطوائف واستئساد طواغيت الاسبانيول.
(٢) الأسبان يقولون Ruzafa وهي إلى الجنوب الشرقي من البلدة.
(٣) هي مقلوبة عن طبرنة Tabernes.

على المسلمين. وفيها يقول أبو إسحاق بن يعلى الطرسوني:[1]

لبسوا الحديدَ إلى الوغَى ولبستُم حُلَـلَ الحـريـرِ عليكُـمُ ألْـوانـاً
ما كَانَ اقبَحَهُمْ وأحسنَكُمْ بها! لـو لـم يكُـنْ بِبَطْـرَنـةٍ مـا كـانـا

ومن عمل بلنسية «مينطة»[2] التي نسب إليها جماعة من العلماء والأدباء. ومن عمل بلنسية مدينة «اندة»[3] التي في جبلها معدن الحديد. وأما «رندة»[4] بالراء فهي في متوسط الأندلس، ولها حصن يعرف باندة أيضاً. وفي اشبيلية، أعادها الله، من المتفرجات والمتنزهات كثير، ومن ذلك مدينة «طريانة»[5] فإنها من مدن اشبيلية ومنتزهاتها، وكذلك «تيطل» فقد ذكر ابن سعيد جزيرة تيطل في المتفرجات. وقال أبو عمران موسى بن سعيد في جوابه لأبي يحيى صاحب سبتة، لما استوزره مستنصر بني عبد المؤمن، وكتب إلى المذكور يرغبه في النقلة عن الأندلس إلى مراكش، ما نص محل الحاجة منه: وأما ما ذكر سيدي من التخيير بين ترك الأندلس، وبين الوصول إلى حضرة مراكش، فكفى الفهم العالي من الإشارة قول القائل:

والعِــزُّ محمــودٌ ومُلْتَمَــسٌ وألَـذُّهُ مـا كـان فـي الـوطـن

فإذا نلت بك السماء في تلك الحضرة، فعلى من أسود فيها؟ ومن ذا أضاهي بها؟

لا رَقَـت بـي همّـةٌ إن لـم أكـن فيـك قـد أمّلـت كـل الأمـل

وبعدها فكيف أفارق الأندلس، وقد علم سيدي أنها جنة الدنيا، بما حباها الله به من

(١) نسبة إلى طرسونة من عمل سرقسطة.

(٢) Mogente وهي بلدة صغيرة قديمة واقعة في بقعة طيبة. جاء في دليل بديكر أنها من بناء العرب.

(٣) Onda قال ياقوت: بالضم فسكون، مدينة من أعمال بلنسية بالأندلس، كثيرة المياه والرساتيق والشجر، وعلى الخصوص التين، فإنه يكثر بها. وقد نسب إليها كثير من أهل العلم اهـ وذكر ياقوت بعضهم وسنذكرهم ونذكر كل من انتسب إلى أندة، وكانت أندة دار القضاعيين.

(٤) إن كانت رندة هي الشهيرة التي نعرفها فليست من متوسط الأندلس، بل هي من الجبال الجنوبية فيها، تارة كانت تعد من عمل قرطبة، وطوراً من عمل اشبيلية، وأخيراً آلت إلى مملكة غرناطة، وهي التي منها أبو البقاء صالح بن شريف الرندي الشاعر الشهير صاحب مرثية الأندلس: لكل شيء إذا ما تم نقصان.

(٥) قال ياقوت: طريانة حاضر من حواضر اشبيلية، ينسب إليها الفقيه عبد العزيز الطرياني، كان نحوياً بارعاً، قرأ على أبي ذر مصعب بن محمد بن مسعود، قرأ عليه صديقنا الفتح بن عيسى القصري مدرس رأس عين اهـ قلت: وهي تكتب بالاسبانيولية هكذا: Triana جاء في دليل بديكر أنها مسكن الطبقة الدنيا من الشعب، وإليها ينسب الفخار الطرياني المشهور، وكان يصنع بها أحسن الزليج الاشبيلي وقد أحييت هذه الصناعة من جديد.

اعتدال الهواء، وعذوبة الماء، وكثافة الأفياء، وأن الإنسان لا يبرح فيها بين قرة عين وقرار نفس؟

هي الأرضُ لا وِردٌ لدَيْها مُكدَّرٌ ولا ظلَّ مقصورٌ ولا رَوْضَ مُجْدبُ

أفُق صقيل، وبساط مدبج، وماء سائح، وطائر مترنم بليل، وكيف يعدل الأديب عن أرض على هذا الصفة؟ فياسموؤل الوفاء، ويا حاتم السماح، ويا جذيمة الصفاء، كمِّلْ لمن أمَّلك النعمة، بتركه في موطنه، غير مكدّر لخاطره بالتحرك من معدنه، متلفتاً إلى قول القائل:

وسـوّلـت لـي نفسـي أن أفـارقَهـا والماءُ في المُزْن أصفَى منه في الغُدُر

فإن أغناه اهتمام مؤمله عن ارتياد المراد، وبلّغه دون أن يشدّ قتباً ولا أن يُنضى عيساً غاية المراد، أنشد ناجح المرغوب، بالغ المطلوب:

وليس الذي يَسْتَتْبِع الوَبْلَ رائداً كمن جاءه في دارِه رائدُ الوَبْل

ورب قائل إذا سمع هذا التبسط على الأماني: ماله تشطَّط، وعدَلَ عن سبيل التأدب وتبسَّط؟! ولا جواب عندي إلاّ قول القائل:

فهـذه خِطَّـة مـا زلـتُ ارقُبُهـا فـاليـومَ أبسـطُ آمـالـي وأحتكِـمُ

وما لي لا أُنشد ما قاله المتنبي في سيف الدولة:

ومَـنْ كنـتَ بحـراً لـه يـا علـيَّ لـــم يقبـــل الـــدرَّ إلاّ كبـــاراً

انتهى المقصود منه.

وقال الحجاري: إن مدينة «شريش»[1] بنت اشبيلية، وواديها ابن واديها، ما أشبه سُعْدَى بسعيد!! وهي مدينة جليلة، ضخمة الأسواق، لأهلها همم وظرف في اللباس

(١) Xeres أو Jerez وقد كانوا يقولون لها Xeres de la Frontera ومعناه شريش الثغر، لأنها بقيت مدة طويلة في أواخر مقام العرب بالأندلس هي الثغر بين المسلمين الذين كانوا في مملكة غرناطة والاسبانيول الذين كانوا غلبوا على أشبيلية وهي اليوم ثالث بلدة في أسبانية من جهة الثروة، ومن أشهر مدن أوروبة في صنعة الخمر. وخمرها هو الذي يقال لها «شري» Sherry عند الأنكليز والبلدة نظيفة خفيفة على الروح، والبيوت فيها لا تزال على طراز البناء العربي. ذهبت إليها صباحاً بسكة الحديد من أشبيلية، ورجعت منها بعد الغداء إلى آشبيلية. وكان استرداد الأسبان لشريش سنة ١٢٥١ على يد الملك فرديناند إلا أن العرب استرجعوها أول مرة. ثم عاد الأسبان فغلبوا عليها. ثم عاد العرب فأخذوها ثاني مرة بعد وقائع شداد. ثم عاد الأذفنش الملقب بالحكيم فاستولى عليها سنة ١٢٦٤ وبقيت في أيدي الاسبانيول من ذلك الحين. وسيأتي ذكرها مفصلاً متى وصلنا إلى كورة أشبيلية.

وإظهار الرفاهية، وتخلّق بالآداب. ولا تكاد ترى بها إلاّ عاشقاً أو معشوقاً. ولها من الفواكه ما يعم ويفضل، ومما اختصت به إحسان الصنعة في المجبَّنات، وطيب جبنها يعين على ذلك. ويقول أهل الأندلس: من دخل شريش ولم يأكل بها المجبَّنات فهو محروم اهـ.

والمجبنات نوع من القطائف يضاف إليها الجبن في عجينها وتقلى بالزيت الطيب.

وفي شلب يقول الفاضل الكاتب أبو عمرو بن مالك بن سيدمر:

أشَجَاك النسيمُ حين يَهُبُّ؟ أمْ سَنَى البَرْق إذ يَخُبُّ ويخبو؟
أمْ هَتوفٌ على الأراكة تشْدُو أمْ هَتونٌ من الغَمامة سكْبُ؟
كُلُّ هذاك للصبَّابة داعٍ أيُّ صَبٍ دُموعُه لا تَصُبُّ؟
أنا لولا النسيمُ والبَرْق والوُرْ قُ وصَوْبُ الغَمام ما كُنت أصبْو
ذكرتَنِيَ شلْباً، وهيهاتَ مِنَّي بَعْدَ ما استحكم التباعُدُ شِلْبُ!

وتسمى أعمال شلب كورة «اشكونية» وهي متصلة بكورة اشبونة، وهي، أعني أشكونية، قاعدة جليلة، لها مدن ومعاقل، ودار ملكها قاعدة «شِلْب»(١) وبينها وبين قرطبة

---

(١) Silves قال ياقوت الحموي في معجمه: شلب بكسر أوله وسكون ثانيه، وآخره باء موحدة، هكذا سمعت جماعة من أهل الاندلس يتلفظون بها، وقد وجدت بخط بعض أدبائها: شلب بفتح الشين. وهي مدينة بغربي الاندلس، بينها وبين باجة ثلاثة أيام، وهي غربي قرطبة، وهي قاعدة ولاية اشكونية، وبينها وبين قرطبة عشرة أيام للفارس المجد. بلغني أنه ليس بالاندلس بعد أشبيلية مثلها، وبينها وبين شنترين خمسة أيام. وسمعت ممن لا أحصي أنه قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعراً، ولا يعاني الأدب، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه، وأي معنى طلبت منه. وينسب إليها جماعة منهم محمد بن إبراهيم بن غالب بن عبد الغافر بن سعيد العامري من عامر بن لؤي الشلبي، وأصله من باجة يكنى أبا بكر روى عن علي بن الحجاج الاعلم كثيراً، وسمع من عبدالله بن منظور صحيح البخاري، وكان واسع الأدب، تولى الخطابة ببلده مدة طويلة، ومات لخمس خلون من جمادى الأولى سنة ٥٣٢ ومولده سنة ٤٤٦ وأمر أن يكتب على قبره:

لئن نفذ القدر السابق بموتي كما حكم الخالق
فقد مات والدنا آدم ومات محمد الصادق
ومات الملوك وأشياعهم ولم يبق من جمعهم ناطق
فقل للذي سره مصرعي تأهب فإنك بي لاحق

انتهى. قلنا: وينسب إلى شلب من العلماء جم غفير سنأتي بتراجمهم عند الوصول إلى ذكر هذه المدينة.

سبعة أيام. ولما صارت لبني عبد المؤمن ملوك مراكش أضافوها إلى كورة اشبيلية. وتفتخر شلب بكون ذي الوزارتين ابن عمار منها، سامحه الله. ومنها القائد أبو مروان عبد الملك ابن بدران، وربما قيل ابن بدرون، الأديب المشهور شارح قصيدة ابن عبدون التي أولها:

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بعد العَين بالأثر ... فما البُكاءُ على الأشْباح والصُّوَر؟!

وهذا الشرح شهير بهذه البلاد المشرقية. ومن نظم ابن بدرون المذكور قوله:

العشقُ لَذَّتُهُ التَّعْنيقُ والقُبَل ... كما مُنَغِّصُهُ التثريبُ والعَذَلُ
يا ليتَ شعري! هل يقضي وِصالكُمُ ... لولا المُنى لم يكُنْ ذا العُمْرُ يتصلُ

ومنها نحويُّ زَمَانِه وعلاّمتهُ، أبو محمد عبدالله ابن السيد البطليوسي، فإن شلبا بَيْضتهُ، ومنها كانت حركته ونهضته، كما في الذخيرة. وهو القائل:

إذا سألونيَ عَن حالتي ... وحاولتُ عُذراً فلم يُمكِنِ
أقول: بخير، ولكنّهُ ... كَلامٌ يَدور على الألسُنِ
وربّك يعلم ما في الصدُّور ... ويعلم خائِنَةَ الأعْيُنِ

وقال الوزير أبو عمرو بن الغلاس يمدح بطليوس بقوله:

بطليوس[1] لا أنساكِ ما اتصلَ البُعْدُ ... فلله غَوْرٌ في جَنابِكِ أونَجْدُ
ولله دَوْحاتٌ تَحُفّكِ يُنّعاً ... تفَجّر واديها كما شقّقَ البَرْدُ

وبنو الغلاس من أعيان حضرة بطليوس، وأبو عمرو المذكور أشهرهم، وهو من رجال الذخيرة والمسهب، رحمه الله تعالى. وفي شاطبة[2] يقول بعضهم:

نِعْمَ ملقَى الرَّحل شاطبة ... لِفَتًى طالتْ به الرُّحَل
بلدةٌ أوقاتُها سَحَرٌ ... وصَباً في ذَيْله بَلَلُ
ونسيمٌ عَرْفُهُ أَرِجٌ ... ورياضٌ غُصْنُها ثِمِلُ
ووُجوهٌ كُلُّها غُرَرٌ ... وكلامٌ كلُّه مُثُلُ

وفي برجة يقول بعضهم:

إذا جئت برجةَ مستوفزاً ... فخُذ في المقام وَخَلّ السَّفَرْ
فكلُّ مكان بها جَنَّةٌ ... وكلُّ طريق إليها سَقَرٌ

واعلم أنه لو لم يكن للأندلس من الفضل سوى كونها ملاعب الجياد للجهاد، لكان

(١) سيأتي ذكرها مفصلاً عند ذكر مدائن الغرب من الأندلس.
(٢) سيأتي ذكرها مفصلاً عند ذكر مدائن الشرق من الأندلس.

كافياً، ويرحم الله لسان الدين بن الخطيب، حيث كتب على لسان سلطانه إلى بعض العلماء العاملين ما فيه إشارة إلى بعض ذلك ما نصه: من أمير المسلمين فلان إلى الشيخ كذا ابن الشيخ كذا وصل الله له سعادة تجذبه، وعناية إليه تقربه وقبولاً منه يدعوه إلى خير ما عند الله ويندبه، سلام كريم عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد حمد الله المرشد المثيب، السميع المجيب، معوّد اللطف الخفي، والصنع العجيب المتكفل بإنجاز وعد النصر العزيز والفتح القريب، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله ذي القدر الرفيع والعز المنيع والجناب الرحيب، الذي به نرجو ظهور عبدة الله على عَبَدَة الصليب، ونستظهر منه على العدو بالحبيب، ونعدّه عدتنا لليوم العصيب، والرضا عن آله وصحبه الذين فازوا بمشاهدته بأوفى النصيب، ورموا إلى هدف مرضاته بالسهم المصيب، فانا كتبناه إليكم، كتب الله تعالى لكم عملاً صالحاً يختم الجهاد صحائف بره، وتتمحض لأن تكون كلمة الله هي العليا جوامع أمره، وجعلكم ممن تهنى في الأرض التي فتح فيها أبواب الجنة مدة عمره، من حمراء غرناطة، حرسها الله تعالى، ولطف الله هامي السحاب، وصنعه رائق الجناب، والله يصل لنا ولكم ما عوده من صلة لطفه، عند انبتات الأسباب، وإلى هذا أيها المولى الذي هو بركة المغرب المشار إليه بالبنان، وواحده في رفعة الشأن المؤثر ما عند الله على الزخرف الفتان. المتقلل من المتاع الفان، المستشرف إلى مقام العرفان، من درج الإسلام والإيمان والإحسان، فإننا لما نؤثره من بركم الذي نعده من الأمر الأكيد ونضمره من ودكم الذي نحله محل الكنز العتيد، ونلتمسه من دعائكم التماس العدة والعديد، لا نزال نسأل عن أحوالكم التي ترقت في أطوار السعادة، ووصلت جناب الحق بهجر العادة، وألقت إلى يد التسليم لله والتوكل عليه بالمقادة، فنسرّ بما هيأ الله تعالى لكم من القبول وبلغكم من المأمول، وألهمكم من الكلف بالقرب إليه والوصول، والفوز بما لديه والحصول، وعندما ردّ الله تعالى علينا الرد الجميل، وأنالنا فضله الجزيل، وكان لعثارنا المقيل، خاطبناكم بذلك لمكانكم من ودادنا، ومحلكم من حسن اعتقادنا، ووجّهنا إلى وجه دعائكم وجه اعتدادنا، والله ينفعنا بجميل الظن في دينكم المتين، وفضلكم المبين، ويجمع الشمل بكم في الجهاد عن الدين، وتعرفنا الآن بمن له بانبائكم اعتناء، وعلى جلالكم حمد وثناء، ولجناب ودكم اعتزاء وانتماء، بتجاول عزمكم بين حج مبرور ترغبون من أجره في ازدياد، وتجدون العهد منه بأليف اعتياد وبين رباط في سبيل الله وجهاد، وتَوْثير مهاد، بين ربا أثيرة عند الله ووهاد، يحشر يوم القيامة شهداؤها مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، فرحين بما آتاهم الله من فضله، والله أصدق القائلين الصادقين، حيث لا غارة لغير عدو الإسلام تُتَّقَى، إلا لابتغاء ما لدى الله يرتقى، حيث رحمة الله قد فتحت أبوابها، وحور الجنان قد زينت أترابها، دار العرب الذين قرعوا باب

الفتح، وفازوا بجزيل المنح، وخلدوا الآثار، وأرغموا الكفار، وأقالوا العثار، وأخذوا الثار، وأمنوا من لفح جهنم، بما علا على وجوههم من ذلك الغبار، فكتبنا إليكم هذا نقوّي بصيرتكم، على جهة الجهاد من العَزْمَين، ونهب بكم إلى إحدى الحسنيين، والصبح غير خاف على ذي عينين والفضل ظاهر لإحدى المنزلتين، فإنكم إن حججتم أعدتم فرضاً أديتموه، وفضلاً ارتديتموه، فائدته عليكم مقصورة، وقضيته فيكم محصورة. وإذا أقمتم الجهاد، جلبتم إلى حسناتكم عملاً غريباً، واستأنفتم سعياً من الله قريباً، وتعدت المنفعة إلى ألوف من النفوس، المستشعرة لبأس البوس، ولو كان الجهاد بحيث يخفى عليكم فضله لأطنبنا، وأعنة الاستدلال أرسلنا. هذا لو قدمتم على هذا الوطن، وفضلكم غُفل من الاشتهار، ومن به لا يوجب لكم ترفيع المقدار، فكيف وفضلكم أشهر من مُحيّا النهار، ولقاؤكم أشهى الآمال وآثر الأوطار؟! فإن قوى عزمكم، والله يقويه، ويعيننا من بركم على ما ننويه، فالبلاد بلادكم، وما فيها طريفكم وتلادكم وكهولها إخوانكم، وأحداثها أولادكم، ونرجو أن تجدوا لذكركم الله في رباها حلاوة زائدة، ولا تعدموا من روح الله فائدة، وتتكيف نفسكم فيها بكيفيات تقصر عنها خلوات السلوك إلى ملك الملوك، حتى تغتبطوا بفضل الله الذي يوليكم، وتروا أثر رحمته فيكم، وتخلّفوا فخر هذا الانقطاع إلى الله في قبيلكم وبنيكم، وتختموا العمل الطيب بالجهاد الذي يعليكم، ومن الله تعالى يدنيكم، فنبيّكم العربي، صلوات الله عليه وسلامه، نبيّ الرحمة والملاحم، ومُعِمل الصوارم، وبجهاد الفرنج ختم عمل جهاده، والأعمال بالخواتم، هذا على بعد بلادهم من بلاده، وأنتم أحق الناس باقتفاء جهاده، والاستباق إلى آماده.

هذا ما عندنا حثثناكم عليه، ونَدَبْنَاكم إليه، وأنتم في إيثار هذا الجوار، ومقارضة ما عندنا بقدومكم على بلادنا من الاستبشار، بحسب ما يخلق عنكم من بيده مقادة الاختيار، وتصريف الليل والنهار، وتقليب القلوب وإجالة الأفكار، وإذ تعارضت الحظوظ فما عند الله خير للأبرار، والدار الآخرة دار القرار، وخير الأعمال عمل أوصل إلى الجنة وباعد من النار، ولتعلموا أن نفوس أهل الكشف والاطلاع، بهذه الأرجاء والاصقاع، قد اتفقت أخبارها، واتحدت أسرارها، على البشارة بفتحٍ قرُب أَوانهُ، وأظلَّ زمانه، فنرجو الله أن تكونوا ممن يحضر مدَّعاه، ويكرم فيه مسعاه، ويسلف فيه العمل الذي يشكره الله ويرعاه، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته. انتهى.

ولما دخل الأندلس أمير المسلمين عليَّ ابن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني، ملك المغرب والأندلس، وامعن النظر فيها، وتأمّل وصفها وحالها، قال: إنها تشبه عُقاباً مخالبهُ طليطلة، وصدره قلعة رباح، ورأسه جيّان، ومنقاره غرناطة وجناحه

الأيمن باسط إلى المغرب، وجناحه الأيسر باسط إلى المشرق... في خبر طويل لم يحضرني الآن، إذ تركته مع كتبي بالمغرب، جمعني الله بها على أحسن الأحوال.

ومع كون أهل الأندلس سُبَّاق حَلْبة الجهاد، مهطعين إلى داعيه من الجبال والوهاد، فكان لهم في الترف والنعيم والمجون، ومداراة الشعراء، خوف الهجاء، محل وثير المهاد. وسيأتي في الباب السابع من هذا القسم من ذلك وغيره ما يشفي ويكفي، ولكن سنح لي أن أذكر هنا حكاية أبي بكر المخزوميّ الهجَّاء المشهور، الذي قال فيه لسان الدين ابن الخطيب في الإحاطة: إنه كان أعمى شديد الشر، معروفاً بالهجاء، مسلّطاً على الأعراض، سريع الجواب، ذكي الذهن، فطناً للمعاريض سابقاً في ميدان الهجاء، فإذا مدح ضعف شعره.

والحكاية هي ما حكاه أبو الحسن بن سعيد في الطالع السعيد إذ قال، حكاية عن أبيه فيما أظن: قدم المذكور، يعني المخزومي، على غرناطة أيام ولاية أبي بكر بن سعيد، ونزل قريباً مني، وكنت أسمع به: نار صاعقة يرسلها الله على من يشاء من عباده، ثم رأيت أن أبدأه بالتأنيس والإحسان، فاستدعيته بهذه الأبيات:

يا ثانياً للمَعَرِّي ... في حُسنِ نظْمٍ ونَثْرِ
وفَرْط ظَرْف ونُبْلٍ ... وغَوْصِ فهْمٍ وفِكْرِ
صِلْ ثم واصل حفياً ... بكل برٍ وشُكرِ
وليسَ إلاّ حديثٌ ... كما زَهَا عِقْدُ دُرّ
وشادِن يتغنى ... على ربابٍ وزمر
وما يسامحُ فيه الغفو ... رُ مِنْ كأس خَمْرِ
وبيننا عَهْدُ حِلْف ... لياسِر حِلْف كفر
نعم فجدّده عهدا ... بطيب سكر ويسر
والكأس مثلُ رَضاع ... ومَنْ كمثلك يَدْري؟

ووجه له الوزير أبو بكر بن سعيد عبداً صغيراً قاده. فلما استقرَّ به المجلس، وأفغمته روائح النَّد والعود والأزهار، وهزت عطفه الأوتار، قال:

دارُ السَّعيديّ ذي؟ أم دار رضوان؟ ... ما تَشْتهى النفسُ فيها حاضرٌ دان!
سَقَتْ أباريقها للندّ سُحب نَدى ... تحدي بِرَعْدٍ لأوتار وعِيدانِ
والبَرْقُ من كل دَنّ ساكب مَطَراً ... يُحْيى به مَيْتَ أفكارٍ وأشجانِ
هذا النعيمُ الذي كُنّا نحدَّثُه ... ولا سبيل له إلاّ بآذانِ

فقال أبو بكر بن سعيد: وإلى الآن لا سبيل له إلا بآذان؟ فقال: حتى يبعث الله ولد زنا كلما أنشدت هذه الأبيات قال إنها لأعمى. فقال: أما أنا فلا أنطق بحرف. فقال: من صمت نجا.

وكانت نزهون بنت القلاعي حاضرة فقالت: وتراك يا أستاذ، قديم النعمة بمجرد ندّ وغناء وشراب، فتعجَب من تأتّيه، وتشبهه بنعيم الجنة، ويقول ما كان يعلم إلا بالسماع، ولا يبلغ إليه بالعيان! ولكن من يجيء من حصن المدور، وينشأ بين تيوس وبقر، من أين له معرفة بمجالس النعيم؟! فلما استوفت كلامها تنحنح الأعمى، فقالت له: ذبحة! فقال: من هذه الفاضلة؟ فقالت: عجوز مقام أمك! فقال: كذبت! ما هذا صوت عجوز... إلخ. ثم قال:

على وجه نزهونَ من الحسن مَسْحةٌ ... وإن كان قد أمسى من الضوء عارياً
قواصد نزهونٍ توارِكُ غيرها ... ومن قَصَدَ البحْرَ استقل السواقيا

(وطوينا هنا بعض محاضرات لا صلة لها بموضوعنا من جغرافية البلاد إلى أن يقول):

والذي رأيته لبعض مؤرخي المغرب في سرقسطة أنها لا تدخلها عقرب ولا حية إلا ماتت من ساعتها، ويؤتى بالحيات والعقارب إليها حية، فبنفس ما تدخل إلى جوف البلد تموت. قال: ولا يتسوّس فيها شيء من الطعام، ولا يعفّن، ويوجد فيها القمح من مائة سنة، والعنب المعلق من ستة أعوام، والتين والخوخ وحب الملوك[1] والتفاح والأجاص اليابسة من أربعة أعوام، والفول والحمص من عشرين سنة، ولا يسوّس فيها خشب ولا ثوب، كان صوفاً أو حريراً أو كتّاناً. وليس في بلاد الأندلس أكثر فاكهة منها، ولا أطيب طعماً، ولا أكبر جرماً. والبساتين محدقة بها من كل ناحية ثمانية أميال، ولها أعمال كثيرة، مدن وحصون وقرى، مسافة أربعين ميلاً، وهي تضاهي مدن العراق في كثرة الأشجار والأنهار، وبالجملة فأمرها عظيم. وقد أسلفنا ذكرها.

واعلم أن بأرض الأندلس من الخصب والنضرة وعجائب الصنائع وغرائب الدنيا ما لا يوجد مجموعه غالباً في غيرها. فمن ذلك ما ذكره الحجاري في المسهب أن السمّور الذي يعمل من وبره الفراء الرفيعة، يوجد في البحر المحيط بالأندلس من جهة جزيرة برطانية، ويجلب إلى سرقسطة ويصنع بها. ولما ذكر ابن غالب وبر السمور الذي يصنع بقرطبة قال: هذا السمور المذكور هنا لم أتحقق ما هو، ولا ما عنى به، إن كان هو نباتاً عندهم، أو وبر

---

(١) هذا الذي يقال له الكرز في الشرق وبالأفرنسية Cerise.

الدابة المعروفة، فإن كانت الدابة المعروفة فهي دابة تكون في البحر وتخرج إلى البر، وعندها قوة ميز. وقال حامد بن سمحون الطبيب، صاحب كتاب الأدوية المفردة: هو حيوان يكون في بحر الروم، ولا يحتاج منه إلا خصاه، فيخرج الحيوان من البحر في البر، فيؤخذ وتقطع خصاه ويطلق، فربما عرض للقناصين مرة أخرى، فإذا أحس بهم وخشي أن لا يفوتهم، استلقى على ظهره وفرّج بين فخذيه، ليرى موضع خصيبه خالياً، فإذا رآه القناصون كذلك تركوه. قال ابن غالب: ويسمّى هذا الحيوان أيضاً «الجند بادستر» والدواء الذي يصنع من خصيبه من الأدوية الرفيعة، ومنافعه كثيرة، وخاصيته في العلل الباردة، وهو حارّ يابس في الدرجة الرابعة.

و «القنلية» حيوان أدق من الأرنب، وأطيب في الطعم، وأحسن وبراً، وكثيراً ما يلبس فراؤها، ويستعملها أهل الأندلس من المسلمين والنصارى، ولا يوجد في بر البربر، إلا ما جلب منها إلى سبتة، فنشأ في جوانبها. قال ابن سعيد: وقد جلبت في هذه المدة إلى تونس حضرة أفريقية.

ويكون بالأندلس من الغزال والأيّل وحمار الوحش وبقره وغير ذلك مما لا يوجد في غيرها كثيراً. وأما الأسد فلا يوجد فيها ألبتة، ولا الفيل، ولا الزرافة وغير ذلك، مما يكون في أقاليم الحرارة. ولها سبع يعرف بـ«اللب»[1] أكبر بقليل من الذئب، في نهاية من القحة، وقد يفترس الرجل، إذا كان جائعاً. وبغال الأندلس فارهة، وخيلها ضخمة الأجسام، حصون للقتال لحملها الدروع وثقال السلاح والعَدْوُ في خيل البرّ الجنوبيّ. ولها من الطيور الجوارح وغيرها ما يكثر ذكره ويطول، وكذلك حيوان البحر. ودوابّ بحرها المحيط في نهاية من الطول والعرض قال ابن سعيد: عاينت من ذلك العجب، والمسافرون في البحر يخافون منها، لئلا تقلب المراكب، فيقطعون الكلام، ولها نفخ بالماء من فيها يقوم في الجوّ، ذا ارتفاع مفرط.

وقال ابن سعيد: قال المسعودي في مروج الذهب: في الأندلس من أنواع الأفاوية خمسة وعشرون صنفاً: منها السنبل، والقرنفل، والصندل والقرفة، وقصب الذريرة، وغير ذلك. وذكر ابن غالب أن المسعودي قال: أصول الطيب خمسة أصناف: المسك، والكافور، والعود، والعنبر، والزعفران. وكلها من أرض الهند إلا الزعفران. وكلها من أرض الهند إلا الزعفران والعنبر، فإنهما موجودان في أرض الأندلس، ويوجد العنبر في أرض الشِّحر. قال ابن سعيد: وقد تكلموا في أصل العنبر: فذكر بعضهم أنه عيون تنبع في

---

(١) Loup.

قعر البحر، يصير منها ما تبلعه الدواب وتقذفه. قال الحجاوي: ومنهم من قال إنه نبات في قعر البحر، وقد تقدم قول الرازي: إن المحلب، وهو المقدم في الأفاوية، والمفضل في أنواع الأشنان، لا يوجد في شيء من الأرض إلا بالهند والأندلس. قال ابن سعيد: وفي الأندلس مواضع ذكروا أن النار إذا أطلقت فيها فاحت بروائح العود، وما أشبهه. وفي جبل شلير أفاوية هندية. قال: وأما الثمار وأصناف الفواكه فالأندلس أسعد بلاد الله بكثرتها، ويوجد في سواحلها قصب السكر، والموز، ويوجدان في الأقاليم الباردة، ولا يعدم منها إلا التمر. ولها من أنواع الفواكه ما يعدم في غيرها أو يقل كالتين القوطي والتين السفريّ باشبيلية. قال ابن سعيد: وهذان صنفان لم تر عيني، ولم أذق لهما، منذ خرجت من الأندلس، ما يفضلهما. وكذلك التين المالقي والزبيب المنكّبي[١] والزبيب العسلي والرمان السفري[٢] والخوخ والجوز واللوز وغير ذلك مما يطول ذكره.

وقد ذكر ابن سعيد أيضاً: أن الأرض الشمالية المغربية فيها المعادن السبعة، وأنها في الأندلس التي هي بعض تلك الأرض، وأعظم معدن للذهب بالأندلس، في جهة «شنت ياقو»[٣] قاعدة الجلالقة على البحر المحيط. وفي جهة قرطبة الفضة والزئبق والنحاس في شمال الأندلس كثير، والصُّفْر الذي يكاد يشبه الذهب، وغير ذلك من المعادن المتفرقة في

(١) قال لسان الدين بن الخطيب في «معيار الاختيار» عن المنكب: مرفأ السفن ومحطها، ومنزل عباد المسيح ومخطبها بلدة معقلها منيع وبردها صقيع، القصر مفتح الطيقان، والمسجد المشرف المكان، والأثر المنبيء عن كان وكان، كأنه مبرد واقف، أو عمود في يد مثاقف، قد أخذ من الدهر الأمان، وتشبه بصرح هامان، وأرهقت جوانبه بالصخر المنحوت، وكاد أن يصل ما بين الحوت والحوت، (يريد بأحد الحوتين برج الحوت الذي بالسماء وبالثاني سمك البحر، كناية عن الارتفاع، أو كما يقولون: من السماك إلى السمك) غصت بقصب السكر أرضها واستوعب به طولها وعرضها، زبيبها فائق، وجنابها رائق، وقد مت إليها جبل الشوار بنسب الجوار منشأ الاسطول، فوعده غير ممطول، وأمده لا يحتاج إلى الطول (إلى أن يقول) هواؤها فاسد، ووباؤها مستاسد، التهبت فيها السماء وتغيرت بالسمائم المسميات والاسماء فأهلها من أجداث بيوتهم يخرجون، إلى جبالها يعرجون، والودك إليها مجلوب، والقمح بين أهلها مقلوب، والحرباء بعرائها مصلوب.

(٢) قالوا: إنه لما اتسق الأمر لعبد الرحمن الداخل في الأندلس أرسل القاضي معاوية بن صالح إلى الشام ليأتيه بأخته أم الأصبغ فأبت عن الانتقال وقالت: كبرت سني وأشرفت على انقضاء أجلي ولا طاقة بي على شق القفار والبحار وحسبي أن أعلم ما صار إليه من نعمة الله. ولما صار معاوية بن صالح إلى عبد الرحمن أدخل إليه تحف أهل الشام وكان في تلك التحف من الرمان المعروف اليوم بالأندلس بالرمان السفري فجعل جلساء الأمير من أهل الشام يذكرون الشام ويتأسفون عليها وكان فيهم رجل يسمى سفر فأخذ من ذلك الرمان شيئاً لطف به وغرسه حتى علق وتم وأثمر، فهو اليوم الرمان السفري. نسب إليه

(٣) Santiago وهي شنت ياقب أقدس مكان عند نصارى الاندلس.

أماكنها، والعين التي يخرج منها الزاج في لبلة مشهورة، وهو كثير مفضل في البلاد، منسوب لجبل طليطلة جبل الطفل[1] الذي يجهز إلى البلاد، ويفضل على كل طفل بالمشرق والمغرب.

وبالأندلس عدة مقاطع للرخام وذكر الرازي: أن بجبل قرطبة مقاطع الرخام الأبيض الناصع اللون والخمري وفي «ناشرة» مقطع عجيب للعمد وبـ«باغة» من مملكة غرناطة مقاطع للرخام كثيرة غريبة، موشاة في حمرة وصفرة وغير ذلك من المقاطع التي بالأندلس من الرخام الحالك والمجزّع وحصى المرية يحمل إلى البلاد فإنه كالدر في رونقه، وله ألوان عجيبة. ومن عادتهم أن يضعوه في كيزان الماء وفي الأندلس من الأمنان التي تنزل من السماء القرمز الذي ينزل على شجرة البلوط فيجمعه الناس من الشعراء ويصبغون به فيخرج منه اللون الأحمر، الذي لا تفوقه حمرة.

قال ابن سعيد: وإلى مصنوعات الأندلس ينتهي التفضيل، وللمتعصبين لها في ذلك كلام كثير، فقد اختصت المرية ومالقة ومرسية وبالموشّى المذهب الذي يتعجب من صنعته أهل المشرق إذا رأوا منه شيئاً وفي «نيشتالة»[2] من عمل مرسية تعمل البسط التي يغالى في ثمنها بالمشرق، ويصنع في غرناطة وبسطة من ثياب اللباس المحرّرة، الصنف الذي يعرف بالملبد المختم، ذو الألوان العجيبة. ويصنع في مرسية من الأسرَّة المرصعة والحصر الفتانة الصنعة، وآلات الصُّفْر والحديد من السكاكين، والمقاصّ المذهبة، وغير ذلك من آلات العروس والجنديّ ما يبهر العقل، ومنها تجهز هذه الأصناف إلى بلاد أفريقية وغيرها، ويصنع بها وبالمرية ومالقة الزجاج الغريب العجيب، وفخّار مزجج مذهب، ويصنع بالأندلس نوع من المفضض المعروف بالمشرق بالفسيفساء، ونوع يبسط به في قاعات ديارهم، يعرف بالزليجي، يشبه المفضَّض. وهو ذو ألوان عجيبة، يقيمونه مقام الرخام الملون، الذي يصرفه أهل المشرق في زخرفة بيوتهم، كالشاذروان وما يجري مجراه.

وأما آلات الحرب من التراس والرماح والسروج والألجم والدروع والمغافر، فأكثر همم أهل الأندلس، فيما حكى ابن سعيد، كانت مصروفة إلى هذا الشان، ويصنع فيها في بلاد الكفر ما يبهر العقول. قال: والسيوف البردليات مشهورة بالجودة، وبرديل[3] آخر بلاد

(١) الفصيح هو الطفال بالضم وبالكسر وهو الطين اليابس.

(٢) Jenechtéla.

(٣) برديل هي التي يقال لها اليوم بوردو Bordeaux التابعة لفرنسة كان اسمها الأصلي أيام الرومان بورديغاله Burdigala وكان لها شأن عظيم في أيام الرومانيين وصارت الحاضرة العلمية لبلاد الغال. ثم عندما زحف البرابرة من الشمال مثل الألينيين Alains والسويفيين Suèves والفندال أخذ عمرانها =

الأندلس من جهة الشمال والمشرق والفولاذ الذي باشبيلية إليه النهاية. وفي اشبيلية من دقائق الصنائع ما يطول ذكره. وقد أفرد ابن غالب في «فرحة الأنس» للآثار الأولية التي بالأندلس من كتابه مكاناً فقال: منها ما كان من جلبهم الماء من البحر الملح إلى الأرحى(١) التي بـ «طركونة» على وزن لطيف، وتدبير محكم، حتى طحنت به، وذلك من أعجب ما صنع. ومن ذلك ما صنعه الأولون أيضاً من جلب الماء من البحر المحيط إلى جزيرة قادس، من العين التي في أقليم الأصنام، جلبوه في جوف البحر في الصخر المجوّف، ذكراً في انثى، وشقّوا به الجبال، فإذا وصلوا به إلى المواضع المنخفضة بنوا له قناطر على حنايا، فإذا جاوزها واتصل بالأرض المعتدلة رجعوا إلى البنيان المذكور، فإذا صادف مسبخة بني له رصيف وأُجري عليه هكذا إلى أن انتهى به إلى البحر، ثم دخل به في البحر وأُخرج في جزيرة قادس، والبنيان الذي دخل عليه الماء في البحر ظاهر بيّن. قال ابن سعيد: إلى وقتنا هذا.

ومنها الرصيف المشهور بالأندلس، قال في بعض أخبار رومية: إنه لما ولي يوليش المعروف بجاشر، وابتدأ بتذريع الأرض وتكسيرها، كان ابتداؤه بذلك من مدينة رومية، إلى المشرق منها وإلى المغرب، وإلى الشمال وإلى الجنوب، ثم بدأ بفرش المبطلة، وأقبل بها على وسط دائرة، إلى أن بلغ بها أرض الأندلس، وركزها شرقي قرطبة، ببابها المتطامن المعروف بباب عبد الجبار، ثم ابتدأها من باب القنطرة قبليّ قرطبة، إلى شقندة، إلى أستجة، إلى قرمونة، إلى البحر، وأقام عل كل ميل سارية قد نقش عليها اسمه، من مدينة رومية، وذكر انه أراد تسقيفها في بعض الأماكن، راحة للخاطرين(٢) من وهج الصيف، وهول الشتاء، ثم توقع أن يكون ذلك فساداً في الأرض، وتغييراً للطرق، عند انتشار اللصوص، وأهل الشر فيها في المواضع المنقطعة النائية عن العمران، فتركها على ما هي عليه.

وذكر في هذه الآثار صنم قادس الذي ليس له نظير إلا الصنم الذي بطرف جليقية. وذكر قنطرة طليطلة، وقنطرة السيف، وقطرة ماردة، وملعب مربيطر(٣).

= يرجع إلى الوراء وسنة ٤١٣ للمسيح استولى عليها القوط ثم أخذها منهم الفرنج لعهد كلوفيس وسنة ٧٢٩ شن العرب عليها الغارة وذهب دوق اكيتانية التي كانت برديل تابعة له مستصرخاً شارل مارتل إلى أن جرت واقعة بلاط الشهداء التي محص فيها العرب وانقطع أملهم من التوغل في أوروبة.

(١) تجمع الرحى على أرح ورُحيّ وارحاء ونادراً على أرحية.

(٢) لم يرد في فصيح اللغة «الخاطر» بمعنى المسافر وإنما هو من استعمال العوام وقد تابعهم فيه بعض المؤلفين.

(٣) كان يقول لبلدة مربيطر في الماضي ساقنتو Saginto وهي مدينة أيبيرية استولى عليها القرطاجنيون في=

قال ابن سعيد: وفي الأندلس عجائب. منها الشجرة التي لولا كثرة ذكر العامة لها بالأندلس ما ذكرتها، فإن خبرها عندهم شائع متواتر، وقد رأيت من يشهد بخبرها ورؤيتها، وهم جمّ غفير، وهي شجرة زيتون، تصنع الورق والنَّوْر والثمر من يوم واحد معلوم عندهم، من أيام السنة الشمسية(١).

ومن العجائب: السارية التي بغرب الأندلس، يزعم الجمهور أن أهل ذلك المكان إذا أحبوا المطر أقاموها، فمطر الله جهتهم. ومنها صنم قادس، طول ما كان قائماً، كان يمنع الريح أن تهب في البحر المحيط، فلا تستطيع المراكب الكبار على الجري فيه، فلما هدم في أول دولة بني عبد المؤمن، صارت السفن تجري فيه. وبكورة «قبرة» مغارة ذكرها الرازي، وحكى أنه يقال إنها باب من أبواب الريح، لا يدرك لها قعر. وذكر الرازي أن في جهة قلعة «ورد» جبلاً فيه شق في صخرة، داخل كهف، فيه فأس حديد متعلق من الشق الذي في الصخرة، تراه العيون وتلمسه اليد، ومن رام إخراجه لم يطق ذلك، وإذا رفعته اليد ارتفع وغاب في شق الصخرة، ثم يعود إلى حالته(٢). وأما ما أورده ابن بشكوال من الأحاديث والآثار في شأن فضل الأندلس والمغرب، فقد ذكرها ابن سعيد في كتابه المغرب، ولم أذكرها أنا. والله أعلم بحقيقة أمرها.

وكذلك ما ذكره ابن بشكوال من أن فتح القسطنطينية إنما يكون من قِبَل الأندلس قال: وذكره سيف عن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، والله أعلم بصحة ذلك. ولعل المراد بالقسطنطينية رومية والله أعلم. قال سيف: وذلك أن عثمان ندب جيشاً من القيروان إلى الأندلس، وكتب لهم: أما بعد، فإن فتح القسطنطينية إنما يكون من قِبَل الأندلس، فإنكم إن فتحتموها، كنتم الشركاء في الأجر والسلام اهـ. قلت: عهدة هذه الأمور على ناقلها، وأنا بريء من عهدتها(٣)، وإن ذكرها ابن بشكوال وصاحب المغرب وغير واحد،

= زمن انيبال الذي جاء بعد سدروبال ونازعهم عليها الرومانيون فجرت وقائع هائلة فاستولى القرطاجنيون على ساقنتو في أول الأمر إلا أنها سنة ٢١٤ قبل المسيح آلت إلى الرومانيين. والملعب العظيم الذي فيها هو من آثار هؤلاء.

(١) لم نسمع بذكر شجرة كهذه في عصرنا الحاضر.

(٢) وهذا الفأس أيضاً لم نسمع بخبره في هذا الزمن.

(٣) قلت: إن هذا الخبر أقرب جداً إلى العقل من خبر الزيتونة التي تورق وتثمر في يوم واحد، وكذلك من خبر الفأس الذي لا يقدر أحد أن يرفعه من المغارة... بل الخبر المروي عن الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه عدا قربه للعقل له آثار ترجع إليه. وفي آخر كتابي «غزوات العرب في أوروبة» الذي طبع سنة ١٣٥٢ فصل بقلم الأستاذ السيد عبد العزيز الثعالبي التونسي يتعلق بهذا الموضوع قال في أوله: إن أول واضع لخطة الفتوحات الإسلامية في أوروبة هو الخليفة الثالث سيدنا=

فإنها عندي لا أصل لها، وأي وقت بعث عثمان إلى الأندلس؟ مع أن فتحها بالاتفاق إنما كان زمان الوليد! وإنما ذكرت هذا للتنبيه عليه لا غير. والله أعلم.

= عثمان بن عفان رضي الله عنه فإنه حين ندب أخاه من الرضاع عبدالله بن سعد بن أبي سرح لفتح بلاد شمالي أفريقية ووافته البشائر بفوز جيوشه على جيوش جيجير وإلى جيطلة من قبل البيزنطيين ندب القائدين البحريين الجليلين عبدالله بن عبد القيس وعبدالله بن نافع بن الحصين الفهريين وكانا على الأسطول فأمرهما بالمسير إلى الأندلس وكتب لهما وصية سياسية في ذلك تلك الوصية الخالدة التي يقول فيها: إن القسطنطينية تفتح من قبل الأندلس وإنكم إن فتحتم ما أنتم بسبيله تكونون شركاء لمن يفتح القسطنطينية في الأجر. وقد اتخذ ولاة شمالي أفريقية وقواد أجنادها هذه الوصية نبراساً لسياستهم الإسلامية التي يسيرون عليها. وأول أمير شرع في إعداد الوسائل والمعدات لتنفيذ تلك الوصية الأمير حسان بن النعمان شيخ وزراء الدولة الأموية بعد أن دان له شمالي أفريقية بالطاعة فقد أنشأ بفناء قرطاجنة دار الصناعة لبناء السفن والأساطيل وصنع الأسلحة وجلب لها الصناع من قبط مصر وسار على منهاجه في ذلك مولاه طارق بن زياد بعد أن ولي المغرب فجاز بجيوشه أرض العدوة وناجز الأندلسيين سنة ٩٢ ثم تلاهما في ذلك إسماعيل بن أبي المهاجر الذي تقلد إمارة شمالي أفريقية في عهد عمر بن عبد العزيز فأغزى أساطيله جنوبي أوروبة سنة ١٠٥ وكانت قيادتها لعبد الرحمن بن عبدالله الغافقي ولم يعد إلا بعد أن أثخن في ايطالية. وهذه الغزوة تعتبر كبشير لانقاذ الايطاليين من حكم البيزنطيين الطغاة. وفي ولاية عبيدالله بن الحبحاب لأفريقية جهز أسطولاً كبيراً جعل إمارته لقائد جيوشه الموفق حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة الفهري فغزاها سنة ١٢٣ ونكل فيها بالبيزنطيين أشد تنكيل. ولو لم تحصل ثورة البربر ضد الحكم العربي بسبب تخميس أعشارهم لتملك شطوط إيطالية وطهرها من حكم البيزنطيين كما فعل ذلك من قبل حسان بن النعمان في شمالي أفريقية. وفي سنة ٢٠٧ بعد استقرار الدولة الأغلبية جهز زيادة الله الأكبر أسطولاً بامارة قائده محمد ابن عبدالله التميمي لمنازلة سردينية ثم أعاد عليها الكرة سنة ٢١٢ وكانت إمارة الجيوش في هذه المرة لقاضي القضاة الإمام أسد بن الفرات فملك «مازرة» وحاصر «سركوسة» وحول أسوارها وأدركت الإمام الشهادة رضي الله عنه سنة ٢١٣ فتولى القيادة العامة صاحب اسطول الأندلس القائد أصبغ المعروف بغرغلوسن: وبعد أن استقرت الأمور في البلاد المفتوحة قلد زيادة الله إمارة إيطالية لابن أخيه إبراهيم بن عبدالله بن الأغلب وما زال متوالياً للجهاد حتى فتح بليرم ونابولي. اهـ ومن شاء الاطلاع على تتمة البحث فليراجعه في كتابنا «غزوات العرب في أوروبة» ولقد قابلت روايات الشيخ الثعالبي بالكتب المعتمدة في التاريخ فلم أجد إلا ما يؤيدها قال أبو الفداء: في أيام عثمان فتحت أفريقية وكان المتولى لذلك عبدالله بن سعد بن أبي سرح ولما فتحت أفريقية أمر عثمان عبدالله بن نافع بن الحصين أن يسير إلى جهة الأندلس فغزا تلك الجهة وعاد عبدالله بن نافع إلى أفريقية، وسنة ثمان وعشرين استأذن معاوية عثمان في غزو البحر فسير معاوية إلى قبرص جيشاً وسار إليها أيضاً عبدالله بن سعد من مصر فاجتمعوا عليها وقاتلوا أهلها ثم صولحوا على جزية سبعة آلاف دينار في كل سنة. وجاء في تاريخ «البيان المغرب في أخبار المغرب» لابن عذاري المراكشي خبر غزو معاوية بن حديج لجزيرة صقلية في مائتي مركب. ولم أجد شيئاً فيه نظر من كلام الأستاذ الثعالبي إلا إهماله ذكر موسى بن نصير في فتح الأندلس، وجعله طارق بن زياد مولى لحسان بن النعمان، والحال أن طارق كان مولى موسى بن نصير وهو الذي أغزاه الأندلس وأما قول المقري في النفح: وأي وقت =

قال ابن سعيد: وميزان وصف الأندلس؛ أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار، فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة، فمتى سافرت من مدينة إلى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة، ما بين قرى ومياه ومزارع، والصحارى فيها معدومة(١). ومما اختصت به أن قراها في نهاية من الجمال، لتصنع أهلها في أصناعها وتبييضها، لئلا تنبو العيون عنها، فهي كما قال الوزير ابن الخمارة فيها:

لاحَت قُراها بَيْنَ خُضْرَةِ أَيْكِهَا كالدُّرِّ بينَ زَبَرْجَدٍ مَكنونِ

ولقد تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التي تكدر العين بسوادها، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها. وفي الأندلس جهات تقرب فيها المدينة العظيمة الممصرة من مثلها. والمثال في ذلك أنك إذا توجهت من أشبيلية فعلى مسيرة يوم وبعض آخر، مدينة شريش، وهي في نهاية من الحضارة والنضارة، ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك، ثم مالقة. وهذا كثير في الأندلس. ولهذا كثرت مدنها، وأكثرها مسوّر من أجل الاستعداد للعدوّ، فحصل لها بذلك التشييد والتزيين وفي حصونها ما يبقى في محاربة العدو ما ينيف على عشرين سنة، لامتناع معاقلها، ودربة أهلها على الحرب، واعتيادهم لمجاورة العدو بالطعن والضرب، وكثرة ما تتخزّن الغلة في مطاميرها، فمنها ما يطول صبره عليها نحواً من مائة سنة.

قال ابن سعيد: ولذلك أدامها الله تعالى من وقت الفتح إلى الآن، وإن كان العدو قد نقصها من أطرافها، وشارك في أوساطها، ففي البقيْة منعة عظيمة، فأرض بقي فيها مثل أشبيلية، وغرناطة، ومالقة، والمرّية، وما ينضاف إلى هذه الحواضر العظيمة الممصرة، الرجاء قوي فيها بحول الله وقوته. انتهى. قلت قد خاب ذلك الرجاء(٢)، وصارت تلك

= بعث عثمان إلى الأندلس مع أن فتحها بالاتفاق إنما كان زمان الوليد. فليس بشيء لأن عثمان بن عفان رضي الله عنه أمرهم بأن يغزوا الأندلس وكانوا في ذلك الوقت يحسبون جزائر غربي البحر المتوسط كلها من الأندلس فغزوها وأرادوا أن يعملوا بفكرة عثمان بغزو نفس الأندلس الكبيرة عند أول فرصة تلوح لهم فبقيت هذه الفكرة تتخمر في رؤوس عمال الخلافة على أفريقية إلى زمن موسى ابن نصير عامل الوليد الأموي فخرجت من القوة إلى الفعل.

(١) يريد بقوله إن الصحاري فيها معدومة، الأندلس القديمة، أي الولايات الجنوبية من أسبانية. فأما شمال أسبانية ففيه صحراء شاسعة واسعة جاء في دليل بديكر أن هذا البسيط المتوسط كان من جملة الصحاري لو لم يكن العرب أنشأوا له نظام ري جرّوا به المياه إليه لاحيائه ولا تزال بقايا آثارهم في ذلك مدهشة للناظرين.

(٢) نعم خاب ذلك الرجاء كما قال المقري وبعد أن كان في الأندلس خمسة عشر مليون مسلم لم يبق منهم فيها إلا خمسة عشر مغربياً في جبل طارق يتعاطون البيع والشراء وبعد أن كان فيها خمسة عشر =

الأرجاء للكفر مَعْرجا، ونسأل الله تعالى، الذي جعل للهم فرجا، وللضيق مخرجاً، أن يعيد إليها كلمة الإسلام، حتى يستنشق أهله منه فيها أرجا. آمين!

(ومن غرائب الأندلس) البيلتان[1] اللتان بطليطلة، صنعهما عبد الرحمن، لما سمع بخبر الطلسم الذي بمدينة أرين من أرض الهند. وقد ذكره المسعودي، وانه يدور بأصبعه من طلوع الفجر إلى غروب الشمس. فصنع هو هاتين البيلتين خارج طليطلة، في بيت مجوف، في جوف النهر الأعظم، في الموضع المعروف بباب الدباغين ومن عجبهما أنهما يمتلئان وينحسران مع زيادة القمر ونقصانه، وذلك أن أول انهلال الهلال يخرج فيهما يسير ماء، فإذا أصبح، كان فيهما سبعهما من الماء، فإذا كان آخر النهار كمل فيهما نصف سبع ولا يزال كذلك بين اليوم والليلة نصف سبع حتى يكمل في الشهر سبعة أيام وسبع ليال، فيكون فيهما نصفهما، ولا تزال كذلك الزيادة نصف سبع في اليوم والليلة، حتى يكمل امتلاؤهما بكمال القمر، فإذا كان في ليلة خمسة عشر، وأخذ القمر في النقصان، نقصتا بنقصان القمر كل يوم وليلة نصف سبع. فإذا كان تسعة وعشرون من الشهر لا يبقى فيهما شيء من الماء. وإذا تكلف أحد حين نقصان أن يملأهما، وجلب لهما الماء، ابتلعتا ذلك من حينهما حتى لا يبقى فيهما إلا ما كان فيهما في تلك الساعة. وكذا لو تكلف عند امتلائهما افراغهما، ولم يبق منهما شيئاً، ثم رفع يده عنهما، خرج فيهما من الماء ما يملأهما في الحين. وهما أعجب من طلسم الهند، لأن ذلك في نقطة الاعتدال، حيث لا يزيد الليل على النهار. وأما هاتان فليستا في مكان الاعتدال، ولم تزالا في بيت واحد، حتى ملك النصارى، دمرهم الله! طليطلة، فأراد الفنش[2] أن يعلم حركاتهما، فأمر أن تقلع الواحدة منهما لينظر من أين يأتي إليهما الماء، وكيف الحركة فيهما، فقلعت، فبطلت حركتهما، وذلك سنة ٥٢٨.

وقيل إن سبب فسادهما حنين اليهودي الذي جلب حمام الأندلس كلها إلى طليطلة في يوم واحد، وذلك سنة ٥٢٧، وهو الذي أعلم الفنش أن ولده سيدخل قرطبة ويملكها، فأراد أن يكشف حركة البيلتين، فقال له: أيها الملك، أنا أقلعهما وأردهما أحسن مما

= ألف مسجد أحدها مسجد قرطبة الذي يسع ثمانين ألف مصل لم يبق فيها إلا مسجد يسع ثلاثين مصلياً داخل دار بجبل طارق تخص حكومة المغرب صليت فيه يوم زرت الجبل المذكور (وتلك الأيام نداولها بين الناس).

(١) البيلة هي صهريج منحوت من رخام أو حجر وكثيراً ما يذكر في تواريخ المغرب أن فلاناً صنع في المسجد أو القصر بيلة أو بيلتين. وفي فاس بالمدرسة العنانية بدار الوضوء بيلة جلبها أبو عنان المريني.

(٢) Alphonse وقد يقول له العرب الأذفنش.

كانتا، وذلك اني أجعلهما تمتلئان بالنهار وتحسران في الليل. فلما قلعت لم يقدر على ردها، وقيل إنه قلع واحدة ليسرق منها الصنعة فبطلت، ولم تزل الأخرى تعطي حركتها. والله أعلم بحقيقة الحال.

وقال بعضهم في اشبيلية: إنها قاعدة بلاد الأندلس، وحاضرتها، ومدينة الأدب واللهو والطرب، وعلى ضفة النهر الكبير، عظيمة الشان، طيبة المكان، لها البر المديد والبحر الساكن، والوادي العظيم، وهي قريبة من البحر المحيط، إلى أن قال: ولو لم يكن لها من الشرق إلا موضع الشرق المقابل لها، المطل عليها، المشهور بالزيتون الكثير، الممتد فراسخ في فراسخ، لكفى، وبها منارة[1] في جامعها، بناها يعقوب المنصور، ليس في بلاد الإسلام أعظم بناء منها. وعسل الشرف يبقى حينا لا يترمل ولا يتبدل، وكذلك الزيت والتين. وقال ابن مفلح: إن اشبيلية عروس بلاد الأندلس لأن تاجها الشرف، وفي عنقها سمط النهر الأعظم، وليس في الأرض أتم حسناً من هذا النهر، يضاهي دجلة والفرات والنيل، تسير القوارب فيه للنزهة والسير والصيد تحت ظلال الثمار، وتغريد الأطيار، أربعة وعشرين ميلاً، ويتعاطى الناس السرح من جانبيه عشرة فراسخ، في عمارة

(١) يقال لهذه المنارة عند الأسبانيول الخيرالده La Giralda وهي أعجوبة أشبيلية جاء في دليل بديكر أن هذه المنارة كانت منارة الجامع الأعظم بناها المهندس العربي جابر ليعقوب بن يوسف سلطان الموحدين بين سنة ١١٨٤ للمسيح وسنة ١١٩٦ وقد وضع فيها بقايا أبنية قديمة لوجود كتابات رومانية لا تزال في حيطانها وهي مبنية من الطوب كلما ازداد ارتفاعها تزداد ضيقاً وهي في الغاية والنهاية من تناسب الخطوط وقاعدتها مربع يبلغ ١٣ متراً و ٥٥ من جهة إلى جهة وسمك الحائط من مترين وثمانية إلى مترين وثلاثين ومن جهتها الشمالية يوجد تجويفان فيهما تصاوير ممحوّة من رسم لويس بركاش Vargas. وعندما يبلغ العلو ٢٥ متراً يصير السطح الأعلى للجدران بجانب النوافذ مغطى بشبكات من الطوب ومزيناً بمحاريب. وقد أفسد المنظر البديع الذي كان لهذه المنارة ما توجوها به في أيام العهد المسيحي فإن قسيس الكنيسة العظمى قد أزال القمة المخرمة التي كانت تنتهي بها المنارة وجعل مكانها أبنية مربعة تنتهي بقبة عليها كتابة وصورة امرأة تمثل «الايمان» وكان هذا البناء الذي شوهوا به هذه المنارة سنة ١٥٦٨ وعلو «الخيرالدة» عن الأرض ٩٣ متراً. اهـ. هذا وقد صعدت إليها يوم زرت أشبيلية وهي من أبدع آثار العرب في أسبانية وإليها يقصد السياح من أقطار الأرض ويسرح النظر من أعلاها فيما لا نهاية له. ولكني لم أعلم من أين جاء اسمها هذا «الخيرالدة» إلا إن كان محرفاً عن «الخالده» ويعقوب المنصور سلطان الموحدين كان من أعظم ملوك الإسلام وأفخمهم آثاراً وله في الرباط من العدوة جامع حسان الشهير كان قائماً على ٤٠٠ سارية محيط كل منها ١٤ شبراً وطولها أزيد من ٢٠ شبراً ومساحة الجامع ٢٦٥٩ متراً مربعاً وكانت له منارة علوها يزيد على ٦٠ متراً ومحيطها ٢٤٠ شبراً وكانت هذه المنارة أعجوبة من الأعاجيب وكانت أشبه شيء بمنارة الأسكندرية ولا تزال ماثلة تشهد بعلو همة المنصور فليست منارة أشبيلية هي الفذة من آثاره الخالدة.

متصلة، ومنارات مرتفعة، وأبراج مشيدة، وفيه من أنواع السمك ما لا يحصى، وبالجملة فهي قد حازت البر والبحر، والزرع والضرع وكثرة الثمار من كل جنس، وقصب السكر. ويجمع منها القرمز الذي هو أجل من الملك الهندي وزيتونها يخزن تحت الأرض أكثر من ثلاثين سنة، ثم يعتصر فيخرج منه أكثر مما يخرج منه وهو طري. انتهى ملخصاً.

ولما ذكر ابن اليسع الأندلس قال: لا يتزود فيها أحد ما حيث سلك، لكثرة أنهارها وعيونها، وربما لقي المسافر فيها في اليوم الواحد أربع مدائن، ومن المعاقل والقرى ما لا يحصى، وهي بطاح خضر، وقصور بيض. قال ابن سعيد: وأنا أقول كلاماً فيه كفاية: منذ خرجت من جزيرة الأندلس، وطفت في بر العدوة، ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا وسبتة، ثم طفت في أفريقية، وما جاورها من المغرب الأوسط، فرأيت بجاية وتونس، ثم دخلت الديار المصرية، فرأيت الاسكندرية والقاهرة والفسطاط. ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلبا وما بينهما لم أر ما يشبه رونق الأندلس في مياهها وأشجارها، إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى ومدينة دمشق بالشام. وفي حماة مسحة أندلسية. ولم أر ما يشبهها من حسن المباني والتشييد والتصنيع إلا ما شيد بمراكش في دولة بني عبد المؤمن[1]، وبعض أماكن في تونس وإن كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالاسكندرية، ولكن الاسكندرية أفسح شوارع وأبسط وأبدع، ومباني حلب داخلة فيما يستحسن لأنها من حجارة صلبة، وفي وضعها وترتيبها اتقان، انتهى. ومن أحسن ما جاء من النظم في الأندلس قول ابن سفر المريني والاحسان له عادة:

فـي أرض انـدلـسٍ تلتـذ نعْمَـاءُ	ولا يفـارق فيهـا القلـبَ سَـرَّاءُ
وليس في غيرها بالعَيْش مُنْتَفَعٌ	ولا تقـوم بحـقِّ الأنـس صَهْبَـاء
وأين يُعْدَلُ عن أرضٍ تحُضُّ بها	علـى المـدامـة أمْـواه وأَفْيَـاء؟
وكيـفَ لا يُبْهِـجُ الأبصـارَ رؤيتُهـا	وكل رَوْض بها في الوَشْي صَنْعَاء؟
أنهارُهَا فِضَّةٌ، والمِسْكُ تُرْبَتُها	والخَـزُّ رَوْضَتُهـا والـدُرُّ حَصبْـاء

(١) من أحسن ما كتب عن مآثر البناء الباهرة في المغرب كتاب اسمه «مراكش» ومدن الصناعة الفنية التي منها طنجة وفاس ومكناس والرباط ومراكش فيه ٢٢٧ صورة لتلك الآثار الباهرة والمعالم الزاهرة مؤلفه ـ بيار شامبيون Peirre Champion Le Maroc et ses villes d'Art والقارىء يجد في هذا الكتاب من المنابر التي أنشأها يعقوب المنصور في المغرب ما لا يقل حسناً وبداعة وفخامة عن منارة أشبيلية ويرى من مآثر المرينيين والسعديين والعائلة المالكة اليوم ما لا تفي العبارات بأوصافه مهما ملك الكاتب من ناصية البيان. وقد قال الأخوان الكاتبان جيروم وجان تارو من مشاهير كتاب فرنسة: «إن من لم يشاهد في حياته مقبرة الملوك السعديين في مراكش لم يدرك إلى أية درجة من الارتقاء بلغت المدينة الإسلامية».

وللهـواء بهـا لطْـفٌ يَـرِقّ بـه   مَـنْ لا يـرقّ وتبْـدُو مِنْـهُ أهـواء
ليس النسيم الذي يَهْفو بها سَحَراً   ولا انتشـارَ لآلـى الطَّـلّ أنـداء
وإنمـا أَرَجُ النَّـدِّ استثـارَ بهـا   في ماء وَرْدٍ فطابت منه أَرجاءُ
وَأَيـن يبلُـغُ منهـا مـا أُصَنّفُـهُ؟   وَكَيفَ يحوي الذي حازَته إحصاءُ؟
قد مُيِّزت من جهات الأرض حين بدت   فـريـدةً وتـولّـى مَيـزَهـا المـاء
دارت عليها نطاقا أبحُرٌ خَفقَتْ   وَجْداً بها إذ تَبَدَّت وَهْيَ حَسناء
لذاك يَبسمُ فيها الزهرُ من طَرَبٍ   والطيرُ يَشدُو وللأغصان إصْغاء
فِيها خَلَعْتُ عِذَارِي ما بهَا عِوَضٌ   فهي الرّياضُ وكل الأرض صَحْراء

ولله در ابن خفاجة حيث يقول:

إن للجنـة بـالأنـدلُـس   مُجْتلـى مَـرْأى وريـا نَفْـس
فَسَنـى صُبْحَتهـا مِـنْ شَنَـب   ودُجَـى ظُلْمَتهـا مِـنْ لَعَـسٍ
فـإذا مـا هَبَّـت الـريـحُ صَبـاً   صِحْتُ: وَاشَوْقِي إلى الأندلس!

وقد تقدمت هذه الأبيات. قال ابن سعيد: قال ابن خفاجة هذه الأبيات وهو بالمغرب الأقصى، في بر العدوة، ومنزله في شرق الأندلس بجزيرة شقر. وقال ابن سعيد في المغرب ما نصه: قواعد من كتاب الشهب الثاقبة، في الانصاف بين المشارقة والمغاربة، أول ما نقدّم الكلام على قاعدة السلطنة بالأندلس فنقول: إنها مع ما بأيدي عبّاد الصليب منها، أعظم سلطنة، كثرت ممالكها، وتشعبت في وجوه الاستظهار للسلطان إعانتها، وندَع كلامَنا في هذا الشأن وننقل ما قاله ابن حوقل النصيبي في كتابه، لما دخلها في مدة خلافة بني مروان بها، في المائة الرابعة، وذلك أنه لما وصفها قال: وأما جزيرة الأندلس فجزيرة كبيرة، طولها دون الشهر، في عرض نيّف وعشرين مرحلة، تغلب عليها المياه الجارية، والشجر والثمر، والرخص والسعة في الأحوال، من الرقيق الفاخر، والخصب الظاهر، إلى أسباب التملك الفاشية فيها، ولما هي به من أسباب رغد العيش، وسعته وكثرته، يملك ذلك منهم مهّانهم، وأرباب صنائعهم، لقلة مؤنتهم، وصلاح معاشهم وبلادهم. ثم أخذ في عظم سلطانها، ووصف وفور جباياته، وعظم مرافقه، وقال في أثناء ذلك: ومما يدل بالقليل منه على كثيره، أن سكة دار ضربه على الدراهم والدنانير، دخلُها في كل سنة، مائتا ألف دينار، وصرف الدينار سبعة عشر درهماً، هذا إلى صدقات البلد وجباياته، وخراجاته وأعشاره، وضماناته، والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة، وغير ذلك[1].

(١) نقلنا فيما تقدم جميع ما ذكره ابن حوقل عن الأندلس.

وذكر ابن بشكوال أن جباية الأندلس بلغت في مدة عبد الرحمن الناصر خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألفاً من السوق، والمستخلص[١] سبعمائة ألف وخمسة وستون ألف دينار[٢] ثم قال ابن حوقل: ومن أعجب ما في هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده، مع صغر أحلام أهلها، وضعة نفوسهم، ونقص عقولهم، وبعدهم من البأس والشجاعة، والفروسية والبسالة، ولقاء الرجال، ومراس الأنجاد والأبطال، مع علم أمير المؤمنين بمحلها في نفسها، ومقدار جباياتها، ومواقع نعمها ولذاتها. قال علي بن سعيد مكمل هذا الكتاب: لم أر بدّاً من إثبات هذا الفصل، وإن كان على أهل بلدي فيه من الظلم والتعصب ما لا يخفى، ولسان الحال في الرد أنطق من لسان البلاغة، وليت شعري إذ سلب أهل هذه الجزيرة العقول والآراء، والهمم والشجاعة، فمن الذين دبروها بآرائهم وعقولهم، مع مراصدة أعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيف؟ ومن الذين حموها ببسالتهم من الأمم المتصلةَ بهـم، في داخلها وخارجها، نحو ثلاثة أشهر، على كلمة واحدة، في نصرة الصليب وإني لأعجب منه إذ كان في زمان قد دلفت فيه عبّاد الصليب إلى الشام والجزيرة وعاثوا كل العيث في بلاد الإسلام، حيث الجمهور والقبة العظمى، حتى إنهم دخلوا مدينة حلب، وما أدراك! وفعلوا فيها ما فعلوا، وبلاد الإسلام متصلة بها من كل جهة، إلى غير ذلك مما هو مسطور في كتب التواريخ.

ومن أعظم ذلك وأشده أنهم كانوا يتغلبون على الحصن من حصون الإسلام التي يتمكنـون بها من بسائط بلادهم، فيسبون ويأسرون، فلا تجتمع همم الملوك المجاورة على حسم الداء في ذلك، وقد يستعين به بعضهم على بعض، فيتمكن من ذلك الداء الذي لا يطـب.

وقد كانت جزيرة الأندلس في ذلك الزمان بالضد من البلاد التي ترك وراء ظهره، وذلك موجود في تاريخ ابن حيان وغيره. وإنما كانت الفتنة بعد ذلك. الإعلام بينة، والطريق واضح[٣]. فلنرجع إلى ما نحن بسبيله.

---

(١) هو ما يقال له اليوم «الخزينة الخاصة» وكان لسان الدين بن الخطيب يقول «مستخلص السلطان».

(٢) قال لاوي بروفنسال في كتابه «أسبانية المسلمة في القرن العاشر» ما يلي: «أما من جهة مجموع دخل الخزانة في أيام خلافة بني أمية بالأندلس لعهد الناصر فقد وردت بشأنه شهادة يزيد قيمتها صدورها عن رجل هو أميل إلى التنزيل من قدر الأمويين منه إلى التعظيم من أمرهم وهو ابن حوقل الذي أقام مدة بقرطبة وذلك في النصف الثاني من القرن العاشر فهو يقول إن دخل خزانة الخلافة من أول تولي الناصر إلى سنة ٣٤٠ (٩٥١) بلغ عشرين مليون دينار ذهب وثلثمائة وأربعين مليون درهم من الفضة وهو مبلغ عظيم جداً بالنسبة إلى ذلك العصر. ولقد كان هذا الدخل مضاعفاً في أيام الحكم المستنصر فبلغ إذ ذاك أربعين مليون دينار. اهـ وسنعود إلى هذا البحث عند الكلام على التاريخ.

(٣) هذا البحث قد تقدم عند نقلنا عن ابن حوقل وهو عبارة عن مناقشة بين مسلمي الشرق والغرب كل=

كانت سلطنة الأندلس في صدر الفتح على ما تقدم من اختلاف الولاة عليها من سلاطين أفريقية، واختلاف الولاة داع إلى الاضطراب، وعدم تأثل الأحوال وتربية الضخامة في الدولة[1]. ولما صارت الأندلس لبني أمية، وتوارثوا ممالكها، وانقاد إليهم كل أبي فيها، وأطاعهم كل عصيّ، عظمت الدولة بالأندلس، وكبرت الهمم، واستتبت الأحوال، وترتبت القواعد. وكانوا صدراً من دولتهم يخطبون لأنفسهم بأبناء الخلائف. ثم خطبوا لأنفسهم بالخلافة، وملكوا من بر العدوة ما ضخمت به دولتهم، وكانت قواعدهم إظهار الهيبة، وتمكن الناموس من قلوب العالم، ومراعاة أحوال الشرع في كل الأمور، وتعظيم العلماء، والعمل بأقوالهم، وإحضارهم في مجالسهم، واستشارتهم، ولهم حكايات في تاريخ ابن حيان، منها ما هو مذكور من توجه الحكم على خليفتهم، أو على ابنه أو أحد حاشيته المختصين وأنهم كانوا في نهاية من الانقياد إلى الحق، لهم أو عليهم، بذلك انضبط لهم أمر الجزيرة.

ولما خرقوا الناموس، كان أول ما تهتك أمرهم ثم اضمحل[2].

= فريق منهما يعيّر الآخر ويتهمه بخذلان قومه وقد أوردنا حكمنا في ذلك وقلنا إن الجميع في هذا المرض سواء وإنهم بعضهم ببعض أشبه من الماء بالماء ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) أصاب الكاتب هنا المحز، ومما لا جدال فيه أن تعاقب الولاة المستمر على القيروان وبالتالي تعاقب امراء الأندلس الذين كانوا يتولونها من قبلهم لا يكاد الواحد منهم يصل إلى قرطبة حتى يأتي الخبر بعزله قد كان الأصل الأصيل في اضطراب حبل الادارة وفي وقوف الفتوحات العربية في أوروبة لأن الثبات والاطراد هما من أهم شروط النجاح. فلما صار الحكم إلى بني أمية في قرطبة واستقر بها ملكهم وتوطد سلطانهم عظمت الدولة في الأندلس ورسخت العزائم وسمت الهمم واستتبت القواعد كما قال. غير أن هناك ملاحظة لا بد منها وهي أن الجهاد العربي في أوروبة أيام وحدة الخلافة كان وراءه الجيوش الجرارة تزحف من أقاصي خراسان إلى فارس إلى العراق إلى الشام إلى مصر إلى المغرب فلا ينقطع مددها ولا يكاد يحصى عددها. فلما انفصلت الأندلس عن الخلافة العباسية انفردت الأندلس بنفسها ولم يبق لها معول في الجهاد إلا على مسلمي الأندلس وحدهم وهؤلاء دائرتهم محدودة ومادتهم منحصرة وليسوا أكفاء بأنفسهم لأمم النصرانية التي هي أمامهم كلجج البحر الأخضر. فمن بعد افتراق الأندلس عن الخلافة العباسية انقطع ما بينها وبين سائر بلاد الإسلام وأصبحت يتيمة غريبة مقطوعة الظهر إلا ما كان يرد عليها في الأحايين من مجاهدين ومهاجرين من المغرب الأقصى دون سواه وشتان بين هذا المدد المحدود والمدد العام الذي كان ينظم ما بين الشرق والغرب.

(٢) أمراء بني أمية في قرطبة كانوا على وجه الإجمال على استقامة في أمورهم ولم يخرج منهم من يجاهر بالفسق كما خرج من أمراء بني أمية في دمشق. وكانوا في الأندلس مذعنين للحق مقيمين لشعائر الإسلام متحلين بحلى التقوى ومجاهدين في سبيل الله ولم يتهتك أمرهم بسبب فسق أو ظلم أو إهمال للحكم، ولكن أراد الله أن يكون هشام بن الحكم المستنصر فسلاً ضعيفاً لا يقدر على ادارة =

وكانت ألقاب الأول منهم الأمراء أبناء الخلائف، ثم الخلفاء أمراء المؤمنين. إلى أن وقعت الفتنة بحسد بعضهم لبعض، وابتغاء الخلافة من غير وجهها الذي رتبت عليه[1]. فاستبدت ملوك الممالك الأندلسية ببلادها، وسُمّوا بملوك الطوائف. وكان فيهم من خطب للخلفاء المروانيين، وإن لم يبق لهم خلافة. ومنهم من خطب للخلفاء العباسيين المجمع على إمامتهم[2]، وصار ملوك الطوائف يتباهون في أحوال الملك حتى في الألقاب، فآل أمرهم إلى أن تلقبوا بنعوت الخلفاء، وترفّعوا إلى طبقات السلطنة العظمى، وذلك بما في جزيرتهم من أسباب الترفه والضخامة، التي تتوزع على ملوك شتى فتكفيهم، وتنهض بهم للمباهاة.

ولأجل توثّبِهم على النعوت العباسية قال ابن رشيق القيرواني:

مما يُزهدني في أرضِ أَنْدَلُس　　تَلْقِيبُ مُعتَضِد فيها ومُعتَمِد
ألقابُ مَمْلكةٍ في غيرِ مَوضعِها　　كالهِرّ يَحْكى انتفاخاً صَوْلَةَ الأسَدِ

وكان عباد بن محمد بن عباد قد تلقب بالمعتضد، واقتفى سيرة المعتضد العباسي أمير المؤمنين. وتلقب ابنه محمد بن عباد بالمعتمد. وكانت لبني عباد مملكة اشبيلية، ثم انضاف إليها غيرها. وكان خلفاء بني أمية يظهرون للناس في الأحيان على أبهة الخلافة، ولهم قانون في ذلك معروف إلى أن كانت الفتنة، فازدرت العيون ذلك الناموس،

= أمور المملكة بنفسه فاستبد بالأمر الحاجب المنصور بن أبي عامر وحجر على الخليفة ولم يبق له شيئاً فاحفظ ذلك بني أمية وأعوانهم وكثيراً من ابناء البيوتات العربية الذين غصوا بمكان العامريين ولم تتحمل نفوسهم هذا الاستئثار من هؤلاء بالدولة فصاروا قاعدين لهم كل مرصد حتى يثبوا عليهم ويعيدوا الأمر كما بدأ. وكان المنصور وابنه المظفر يعلمان ما يجيش في صدور الأموية وبيوتات العرب من الحقد عليهم فأخذا باستعمال البربر وعولاً عليهم واوقعا العداوة والبغضاء بين العرب والبربر وكان كل منهما من الحزم والتدبير بحيث استوسق له الأمر فلما جاءت دولة شنجول بن المنصور وكان فسلاً فاسد التدبير تمكن الأمويون من اسقاطه واشتعلت الفتنة التي أسالت الدماء جداول في قرطبة ووقع بين العرب والبربر ما كان السبب في صدع وحدة الدولة وظهور ملوك الطوائف واستئساد طواغيت الاسبانيول واسترجاعهم كثيراً من الحصون والمدن وباختصار رجع النصارى في الأندلس فكرّوا على المسلمين وكانوا أوشكوا أن يقلعوهم من الأندلس تماماً لولا نصرة الدولة المغربية كالمرابطين ثم الموحدين ثم بني مرين الذين نسأوا في أجل إسلام الأندلس نحواً من ثلاثمائة سنة بالأقل.

(١) يشير إلى استئثار العامريين بالأمر وغلبتهم على الخلافة وما آل إليه ذلك من الفتنة التي بددت شمل الأمة وأظهرت ملوك الطوائف.

(٢) مثل ابن مردنيش وغيره.

واستخفّت به. وقد كان بنو حمّود من ولد ادريس العلوي، الذين توثبوا على الخلافة في أثناء الدولة المروانية بالأندلس، يتعاظمون، ويأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بني العباس، وكانوا إذا حضرهم منشد لمدح، أو من يحتاج إلى الكلام بين أيديهم، يتكلم من وراء حجاب، والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة. ولما حضر ابن مقانا الأشبوني أمام حاجب إدريس بن يحيى الحمودي، الذي خطب له بالخلافة في مالقة، وأنشده قصيدته المشهورة النونية التي منها قوله:

وكـأنّ الشمـسَ لَمّـا أشـرقَـت فانْثَنَتْ عنها عُيونُ النّاظِرينْ
وَجْهُ إدريسَ بنِ يَحْيى بنِ عليّ بـن حَمُّـودَ أميـرِ المـؤمنيـنْ

وبلغ فيها إلى قوله:

انظُـرونـا نقتَبِـسْ مِـنْ نـورِكُـمْ إنّـه مِـنْ نـورِ رَبٍّ العـالميـنْ

رفع الخليفة الستر بنفسه وقال: انظر كيف شئت. وانبسط مع الشاعر وأحسن إليه. ولما جاء ملوك الطوائف صاروا يتبسطون للخاصة، وكثير من العامة، ويظهرون مداراة الجند وعوام البلاد، وكان أكثرهم بحاضر العلماء والأدباء، ويحب أن يشهر عنه ذلك عند مباديه في الرياسة. ومذ وقعت الفتنة بالأندلس، اعتاد أهل الممالك المتفرقة الاستبداد على إمام الجماعة، وصار في كل جهة مملكة مستقلة يتوارث أعيانها الرياسة، كما يتوارث ملوكها الملك، ومرنوا على ذلك، فصعب ضبطهم إلى نظام واحد، وتمكن العدو منهم بالتفرق، وعداوة بعضهم لبعض، بقبيح المنافسة والطمع إلى أن انقادوا إلى عبد المؤمن وبنيه، وتلك القواعد في رؤوسهم كامنة، والثوار في المعاقل تثور، وتروم الكرّة، إلى أن ثار ابن هود، وتلقب بالمتوكل، ووجد القلوب منحرفة عن دولة بر العدوة[1]، مهيأة للاستبداد. فملكها بأيسر محاولة، مع الجهل المفرط، وضعف الرأي. وكان مع العامة كأنه صاحب شعوذة، يمشي في الأسواق، ويضحك في وجوههم، ويبادرهم بالسؤآل، وجاء للناس منه ما لم يعتادوه من سلطان، فأعجب ذلك سفهاء الناس وعامتهم العمياء، وكان كما قيل:

أمـورٌ يَضْحـك السفهـاءُ منهـا وَيبكـي مـنْ عـواقبهـا الحَليـمُ

(١) عندما ظهرت ملوك الطوائف وأخذ بعضهم يغزو بعضاً والعدو يستفيد من الغازي والمغزو ويهتبل كل غرة، خاف المرابطون ومن بعدهم الموحدون أن يسقط الإسلام كله في الأندلس، فخفوا لنجدته وأجازوا إلى الجزيرة بالجيوش الجرارة واستولوا على أكثر ما كان بأيدي ملوك الطوائف. ولكن بعض هؤلاء كانوا يجاذبؤنهم الحبل مثل ابن هود مثلاً وطالما استظهروا بالاسبانيول على دول بر العدوة.

فآل ذلك إلى تلف القواعد العظيمة، وتملك الأمصار الجليلة، وخروجها من يد الإسلام، والضابط فيما يقال في شأن أهل الأندلس في السلطان، أنهم إذا وجدوا فارساً يبرع الفرسان، أو جواداً يبرع الأجواد، تهافتوا في نصرته، ونصبوه ملكاً من غير تدبير في عاقبة الأمر، إلام يؤل. وبعد أن يكون الملك في مملكة قد توورثت وتدوولت، ويكون في تلك المملكة قائد من قوادها، قد شهرت عنه وقائع في العدو، وظهر منه كرم نفس للأجناد، ومراعاة، قدموه ملكاً في حصن من الحصون، ورفضوا عيالهم وأولادهم إن كان لهم ذلك بكرسي الملك، ولم يزالوا في جهاد وتلاف أنفس، حتى يظفر صاحبهم بطلبته. وأهل المشرق أصوب رأياً منهم في مراعاة نظام الملك، والمحافظة على نصابه، لئلا يدخل الخلل الذي يقضي باختلال القواعد، وفساد التربية، وحل الأوضاع، ونحن نمثل في ذلك بما شاهدناه.

لما كانت هذه الفتنة الأخيرة بالأندلس، تمخضت عن رجل من حصن يقال له أرجونة، ويعرف الرجل بابن الأحمر، كان يكثر مغاورة العدو من حصنه، وظهرت له مخايل وشواهد على الشجاعة، إلى أن طار اسمه في الأندلس، وآل ذلك إلى أن قدمه أهل حصنه على أنفسهم، ثم نهض فملك قرطبة العظمى، وملك أشبيلية، وقتل ملكها الباجي، وملك جيان، أحصن بلد بالأندلس، وأجلّه قدراً في الامتناع، وملك غرناطة ومالقة، وسموه بأمير المسلمين. فهو الآن المشار إليه بالأندلس والمعتمد عليه.

وأما قاعدة الوزارة بالأندلس فإنها كانت في مدة بني أمية مشتركة في جماعة يعينهم صاحب الدولة للإعانة والمشاورة ويخصهم بالمجالسة، ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير، فيسمّيه بالحاجب، وكانت هذه المراتب لضبطها عندهم كالمتوارثة في البيوت المعلومة[١] لذلك، إلى أن كانت ملوك الطوائف، فكان الملك منهم، لعظم اسم الحاجب في الدولة المروانية، وأنه كان نائباً عن خليفتهم يسمَّى بالحاجب[٢]. ويرى أن هذه السمة أعظم ما تنوفس فيه وظفر به، وهي موجودة في أمداح شعرائهم وتواريخهم، وصار اسم الوزارة عاماً لكل من يجالس الملوك، ويختص بهم، وصار الوزير الذي ينوب

---

(١) مثل بني أبي عبده وبني حدير وبني شُهيد وبني جَهْوَر وغيرهم مما سيأتي ذكره في محله.

(٢) الحاجب في زمن الحكم المستنصر كان في يده جميع أمور المملكة، ولذلك عند ما مات ووراءه ولد صغير هشام الثاني غلب الحاجب على الأمر، وحجب الخليفة وأدى ذلك فيما بعد إلى الفتنة وسقوط الخلافة، ولقد كان الناصر أبصر بالعواقب فأبقى المملكة بدون حجابة مدة ثلاثين سنة ووزع الأعمال بين وزرائه فراراً من حصر السلطة في الحاجب.

عن الملك، يعرف بذي الوزارتين[1]، وأكثر ما يكون فاضلاً في علم الأدب، وقد لا يكون كذلك، بل عالماً بأمور الملك خاصة.

وأما الكتابة فهي على ضربين، أعلاهما كاتب الرسائل، وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس، وأشرف أسمائه الكاتب. وبهذه السمة يخصه من يعظمه في رسالة. وأهل الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السمة، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة، فإن كان ناقصاً عن درجات الكمال، لم ينفعه جاهه، ولا مكانه من سلطانه، من تسلط الألسن، والطعن عليه وعلى صاحبه.

والكاتب الآخر كاتب الزمام[2]، هكذا يعرفون كاتب الجهبذة، ولا يكون بالأندلس وبرّ العدوة، لا نصرانياً ولا يهودياً ألبتة، إذ هذا الشغل نبيه، يحتاج إلى صاحبه عظماءُ الناس ووجوهُهم. وصاحب الأشغال الخراجية في الأندلس أعظم من الوزير، وأكثر اتباعاً وأصحاباً، وأجدى منفعة، فإليه تميل الأعناق، ونحوه تمدّ الأكفّ، والأعمال مضبوطة بالشهود والنظار.

ومع هذا إن تأثلت حالته، واغترّ بكثرة البناء والاكتساب، نكب وصودر. وهذا راجع إلى تقلب الأحوال، وكيفية السلطان.

وأما خطة القضاء بالأندلس فهي أعظم الخطط عند الخاصة والعامة، لتعلقها بأمور الدين، وكون السلطان لو توجّه عليه حكم حضر بين يدي القاضي، هذا وصفها في زمان بني أمية ومن سلك مسلكهم، ولا سبيل أن يتّسم بهذه السمة إلا من هو وال للحكم الشرعي في مدينة جليلة، وإن كانت صغيرة، فلا يطلق على حاكمها إلاّ مسدّد خاصة، وقاضي القضاة يقال له قاضي القضاة وقاضي الجماعة.

وأما خطة الشرطة بالأندلس فإنها مضبوطة إلى الآن، معروفة بهذه السمة، ويعرف صاحبها في ألسُن العامة بصاحب المدينة، وصاحب الليل، وإذا كان عظيم القدر عند السلطان، كان له القتل لمن وجب عليه دون استئذان السلطان، وذلك قليل، ولا يكون إلا في حضرة السلطان الأعظم. وهو الذي يحدّ على الزنا وشرب الخمر، وكثير من الأمور الشرعية راجع إليه، قد صارت تلك عادة تقرر عليها رضا القاضي، وكانت خطة القاضي أوقر وأتقى عندهم من ذلك.

---

(١) كان هذا اللقب من أوضاع بني العباس ومعناه وزارة القلم ووزارة السيف وأول من لقب به في الأندلس عبد الملك بن شهيد سنة ٣٢٧ في دولة عبد الرحمن الناصر.

(٢) ويقال له: صاحب الأشغال الخراجية، وكانوا يقولون أحياناً لديوان المالية «ديوان الأزمة».

وأما خطة الاحتساب فإنها عندهم موضوعة في أهل العلم والفِطَن، وكأن صاحبها قاض، والعادة فيه أن يمشي بنفسه راكباً على الأسواق، وأعوانه معه، وميزانه الذي يزن به الخبز في يد أحد الأعوان، لأن الخبز عندهم معلوم الأوزان، للربع من الدرهم رغيف، على وزن معلوم. وكذلك للثُّمْن، وفي ذلك من المصلحة أن يرسل المتاع الصبي الصغير، أو الجارية الرعناء، فيستويان فيما يأتيانه به من السوق مع الحاذق، في معرفة الأوزان.

وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره، ولا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حد له المحتسب في الورقة، ولا يكاد تخفى خيانته، فإن المحتسب يدس عليه صبياً أو جارية يبتاع أحدهما منه، ثم يختبر الوزن المحتسب، فإن وجد نقصاً قاس على ذلك حاله مع الناس، فلا تسأل عما يلقى! وإن كثر ذلك منه، ولم يتب بعد الضرب والتجريس في الأسواق نفي من البلد. ولهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه، لأنها عندهم تدخل في جميع المتاعات، وتتفرع إلى ما يطول ذكره.
وأما خطة الطواف بالليل وما يقابل من المغرب أصحاب أرباع في المشرق، فإنهم يعرفون في الأندلس بالدرابين، لأن بلاد الأندلس لها دروب بأغلاق تغلق بعد العتمة، ولكل زقاق بائت فيه له سراج معلق، وكلب يسهر، وسلاح معدّ وذلك لشطارة عامتها، وكثرة شرهم، واعيائهم في أمور التلصص، إلى أن يظهروا على المباني المشيدة، ويفتحوا الأغلاق الصعبة، ويقتلوا صاحب الدار، خوف ان يقرّ عليهم، أو يطالبهم بعد ذلك، ولا تكاد في الأندلس تخلو من سماع: دار فلان دُخِلت البارحة، وفلان ذبحه اللصوص على فراشه. وهذا يرجع التكثير منه والتقليل إلى شدة الوالي ولينه، ومع افراطه في الشدة، وكون سيفه يقطر دماً، فإن ذلك لا يعدم وقد آل الحال عندهم إلى أن قتلوا على عنقود سرقه شخص من كرم، وما أشبه ذلك ولم ينتِهِ اللصوص.

وأما قواعد أهل الأندلس في ديانتهم فإنها تختلف بحسب الأوقات والنظر إلى السلاطين، ولكن الأغلب عندهم إقامة الحدود، وإنكار التهاون بتعطيلها، وقيام العامة في ذلك وإنكاره، إن تهاون فيه أصحاب السلطان، وقد يلج السلطان في شيء من ذلك ولا ينكره، فيدخلون عليه قصره المشيد، ولا يعبئون بخيله ورجله، حتى يخرجوه من بلدهم. وهذا كثير في أخبارهم.

وأما الرجم بالحجر للقضاة والولاة للأعمال، إذا لم يعدلوا، فكل يوم. وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدورة التي تكسل عن الكدّ، وتخرج الوجوه للطلب في الأسواق فمستقبحة عندهم إلى النهاية. وإذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة

يطلب، سبّوه وأهانوه، فضلاً عن أن يتصدقوا عليه، فلا تجد بالأندلس سائلاً إلا أن يكون صاحب عذر.

وأما حال أهل الأندلس في فنون العلوم فتحقيق الانصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التميّز، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميّز بصنعة، ويربأ بنفسه أن يُرى فارغاً، عالة على الناس، لأن هذا عندهم في نهاية القبح. والعالم عندهم معظّم من الخاصة والعامة، يشار إليه، ويحال عليه، ويَنْبُه قدره وذكره عند الناس، ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة وما أشبه ذلك. ومع هذا فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرأون جميع العلوم في المساجد بأجرة، فهم يقرأون لأن يعلموا، لا لأن يأخذوا جارياً. فالعالم منهم بارع لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه، يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه، وينفق من عنده، حتى يعلم، وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء، إلا الفلسفة والتنجيم، فإن لهما حظاً عظيماً عند خواصهم، ولا يتظاهرون بها خوف العامة، فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة، أو يشتغل بالتنجيم، اطلعت عليه العامة اسم زنديق، وقيّدت عليه أنفاسه، فإن زلّ في شبهة رجموه بالحجارة، أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقرّباً لقلوب العامة. وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت، وبذلك تقرّب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن، على ما ذكره الحجاري، والله أعلم.

وقراءة القرآن[١] بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة، وللفقه رونق ووجاهة ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك[٢]، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به

---

(١) ما رأيت في التاريخ بلداً من بلدان الإسلام يعنى أهله بقراءة القرآن بوجوهها أكثر من الأندلس.

(٢) كان أهل الأندلس لأول الفتح على مذهب الإمام الأوزاعي إمام أهل الشام الذين كانت لهم اليد الطولى في فتح الأندلس، وكانت الدولة الأموية تعول عليهم قبل الجميع، وبقي الأندلسيون على مذهب الأوزاعي إلى زمن هشام بن عبد الرحمن الداخل ففي ذلك الوقت رحل زياد بن عبد الرحمن ابن زياد اللخمي المعروف بشبطون إلى الشرق، وسمع من مالك كتابه الموطأ ورحل جماعة غير شبطون كقرعوس بن العباس وعيسى بن دينار، وسعيد بن أبي هند، وغيرهم ممن رحل إلى الحج، فلما رجعوا إلى الأندلس وصفوا من فضل مالك، وسعة علمه وجلالة قدره، ما عظم به صيته بالأندلس وكان رائدهم في ذلك شبطون، وهو أول من أدخل موطأ مالك إلى الأندلس مكملاً متقناً.
وقيل إن الإمام مالكاً رضي الله عنه سأل بعض الحجاج الأندلسيين عن سيرة ملك الأندلس فوصفوا له سيرة الأمير هشام بن عبد الرحمن وأثنوا له عليه وكان مالك غير راض عن سيرة بني العباس ولا سيما بعد أن فعل أبو جعفر المنصور بعلوية المدينة الأفاعيل من الحبس والإهانة فقال الإمام مالك للأندلسيين: نسأل الله أن يزين حرمنا بمثل ملككم. فوصل الخبر إلى الأمير هشام مع ما علم من =

بمحاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم. وسمة الفقيه عندهم جليلة، حتى أن المسلمين كانوا يسمّون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه، وهي الآن بالمغرب بمنزلة القاضي بالمشرق، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه، لأنها عندهم أرفع السمات[1]. وعلم الأصول عندهم متوسط الحال. والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة، حتى إنهم في هذا العصر فيه منهم كأصحاب عصر الخليل وسيبويه، لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدة، وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه، كمذاهب الفقه. وكل عامل في أي علم لا يكون متمكناً من علم النحو، بحيث لا تخفى عليه الدقائق، فليس عندهم بمستحق للتمييز، ولا سالم من الازدراء، مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية، حتى لو أن شخصاً من العرب سمع كلام الشلوبيني أبي عليّ المشار إليه بعلم النحو في عصرنا الذي غرّبت تصانيفه وشرّقت، وهو يقرىء درسه، لضحك بملء فيه، من شدة التحريف الذي في لسانه. والخاص منهم إذا تكلم بالأعراب وأخذ يجري على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه[2]، ولكن ذلك مراعى عندهم في القراءات والمخاطبات في الرسائل. وعلم الأدب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر، ومستظرفات الحكايات، أنبل علم عندهم، وبه يتقرب من مجالس ملوكهم وأعلامهم ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل. والشعر عندهم له حظ عظيم وللشعراء من ملوكهم وجاهة، ولهم عليهم حظ ووظائف، والمجيدون منهم ينشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة، ويوقع لهم بالصلات على أقدارهم، إلاّ أن يختلّ الوقت، ويغلب الجهل في حين ما، ولكن هذا الغالب. وإذا كان الشخص بالأندلس نحوياً أو شاعراً فإنه يعظُم في نفسه لا محالة، ويستخف ويظهر العُجْب، عادة قد جبلوا عليها.

وأما زيّ أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم، لا سيما في شرق الأندلس، فإن أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاراً إليه إلاّ وهو بعمامة، وقد تسامحوا بشرقها في ذلك. ولقد رأيت عزيز بن خطاب وأكبر عالم بمرسية حضرة السلطان في ذلك الأوان، وإليه الإشارة، وقد خطب له بالملك في تلك الجهة؛ وهو حاسر الرأس وشيبه قد غلب على سواد شعره.

= جلالة مالك وورعه فحمل الناس على مذهبه، وقد ذكرنا هذه القصة برواياتها في حواشينا على كتاب محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي، الذي طبعناه من ثلاث سنوات فمن شاء فليراجعها في ذلك الكتاب.

(٢) لم يبرح هذا الاصطلاح في المغرب إلى اليوم.

(١) ولا أظن هذا الاستثقال خاصاً بأهل الأندلس.

وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمة، في شرق منها أو في غرب وابن هود الذي ملك الأندلس في عصرنا، رأيته في جميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عمامة، وكذلك ابن الأحمر الذي معظم الأندلس الآن في يده، وكثيراً ما يتزيا سلاطينهم وأجنادهم بزيّ النصارى المجاورين لهم[1]، فسلاحهم كسلاحهم، وأقبيتهم في الأشكرلاط وغيره كأقبيتهم، وكذلك أعلامهم وسروجهم. ومحاربتهم بالتراس والرماح الطويلة

(١) قال ابن خلدون رحمه الله في مقدمته تحت عنوان «إن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده»: إن النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها، حصل اعتقاداً، فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به، وذلك هو الاقتداء. أو لما تراه، والله أعلم، من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس، وإنما هو بما انتحله من العوائد والمذاهب، تغالط أيضاً بذلك عن الغلب، وهذا راجع للأول. ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله، وأظهر ذلك في الأبناء مع آبائهم، كيف تجدهم متشبهين بهم دائماً؛ وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم. وانظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زي الحامية وجند السلطان في الأكثر، لأنهم الغالبون لهم، حتى إنه إذا كانت أمة تجاور أخرى، ولها الغلب عليها، فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم، حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء والأمر لله اهـ. قلت: وقد نظرنا هذا بأعيننا في الأعصر الأخيرة عندما ظهر غلب الغرب على الشرق بأسباب كثيرة ليس هنا موضع ذكرها فتهافت ولاة الأمور في الشرق على تقليد الأوروبيين لا في اتقان العلوم والصناعات وتنظيم أحوال الاجتماع وتسديد أمور الملك فقط، مما هو واجب حتماً، بل تهافتوا على تقليدهم في أزيائهم وملابسهم ومآكلهم ومشاربهم وبدأ ذلك في أيام السلطان محمود العثماني. ولكن لم يبلغ في وقت من الأوقات حب هذا الاقتداء ما بلغه في هذا العصر، لا سيما بعد الحروب العامة، فما كادت تركية وإيران تسترجعان استقلالهما، حتى بدأنا بالتشبه بالأوروبيين في الدقيق والجليل والكلي والجزئي وأصدرت الحكومة التركية أوامرها بلبس القبعة حتماً. ودقت مئات من الأعناق على مجرد الاعتراض عليها. وجعلت الأحرف اللاتينية مكان الأحرف العربية برغم ان كتابة التركية بالأحرف اللاتينية قد انحرفت بهذه اللغة عن لهجتها الأصلية، واستبدلت بها لغة غير الأولى، ولم يكتفوا بهذا حتى أرادوا حمل الأتراك على طمس معالم كل قديم، وتحدثوا بالغاء التاريخ التركي من أصله، ومنعوا الألحان الشرقية وآلات الطرب الشرقي، وتبدلوا بها الموسيقى الأوروبية، وكادوا ينتقلون إلى منع المآكل الشرقية لو لم تكن الأذواق أصعب مراساً من غيرها، وكل هذا من باب اقتداء المغلوب بالغالب، مما أشار إليه إمام علم الاجتماع ابن خلدون رحمه الله، وليس في الحقيقة بضرورة من الضرورات، ولقد ترقى اليابانيون، وبلغوا مبالغ الأورربيين في كل شيء، وربما بزوهم، ولم يزالوا يابانيين في أذواقهم وعاداتهم، ومآخذهم ومتاركهم، وكل شيء توارثوه عن آبائهم.

للطعن، ولا يعرفون الدبابيس، ولا قسيّ العرب، بل يعدّون قسي الأفرنج للمحاصرات في البلاد، أو تكون للرجالة عند المصافقة للحرب، وكثير ما تصبر الخيل عليهم أو تمهلهم لأن يؤثروها.

ولا تجد في خواص الأندلس وأكثر عوامهم من يمشي دون طيلسان، إلاّ أنه لا يضعه على رأسه منهم إلاّ الأشياخ المعظمون. وغفائر الصوف كثيراً ما يلبسونها حمراً وخضراً، والصفر مخصوصة باليهود، ولا سبيل ليهودي أن يتعمم ألبتة. والذؤابة لا يرخيها إلاّ العالم، ولا يصرفونها بين الأكتاف، وإنما يسدلونها من تحت الأذن اليسرى، وهذه الأوضاع التي بالمشرق في العمائم لا يعرفها أهل الأندلس، وإن رأوا في رأس مشرقي داخل إلى بلادهم شكلاً منها أظهروا التعجب والاستظراف، ولا يأخذون أنفسهم بتعليمها، لأنهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا إلاّ أوضاعهم. وكذلك في تفصيل الثياب.

وأهل الأندلس أشدّ خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون، وغير ذلك مما يتعلق بهم، وفيهم من لا يكون عنده إلاّ ما يقوته يومه، فيطويه صائماً، ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها. وهم أهل احتياط وتدبير في المعاش، وحفظ لما في أيديهم، خوف ذل السؤال، فلذلك قد ينسبون للبخل. ولهم مروآت على عادة بلادهم، لو فطن لها حاتم لفضل دقائقها على عظائمه. ولقد اجتزت مع والدي على قرية من قراها، وقد نال منا البرد والمطر أشد النيل، فأوينا إليها وكنا على حال ترقّب من السلطان، وخلوّ من الرفاهية، فنزلنا في بيت شيخ من أهلها من غير معرفة متقدّمة فقال لنا: إن كان عندكم ما اشتري لكم فَحْماً تسخنون به، فإني أمضي في حوائجكم، وأجعل عيالي يقومون بشأنكم، فأعطيناه ما اشترى به فحماً. فأضرم ناراً، فجاء ابن له صغير ليصطلي، فضربه، فقال له والدي: لِمَ ضربته؟ فقال: يتعلم استغنام أموال الناس، والضجر للبرد من الصغر. ثم لما جاء النوم قال لابنه: اعط هذا الشاب كساءك الغليظة يزيدها على ثيابه. فدفع كساءه إليّ. ثم لما قمنا عند الصباح وجدت الصبي منتبهاً، ويده في الكساء، فقلت ذلك لوالدي فقال: هذه مروآت أهل الأندلس؛ وهذا احتياطهم أعطاك الكساء وفضلك على نفسه، ثم يفكر في أنك غريب، لا يعرف هل أنت ثقة أو لص، فلم يطب له منام حتى يأخذ كساءه، خوفاً من انفصالك بها وهو نائم. وعلى هذا الشيء الحقير فقس الشيء الجليل.

انتهى كلام ابن سعيد في المغرب باختصار يسير. ولله درّه، فإنه أبدع في هذا الكتاب ما شاء، وقسمه إلى أقسام، منها كتاب وشي الطرس، في حلي جزيرة الأندلس. وهو ينقسم إلى أربعة كتب: الكتاب الأول: كتاب حلي العرس، في حلي غرب الأندلس.

الكتاب الثاني كتاب الشفاه اللعس، في حلي موسطة الأندلس. الكتاب الثالث: كتاب الأنس، في حلي شرق الأندلس. الكتاب الرابع كتاب لحظات المريب، في ذكر ما حماه من الأندلس عبّاد الصليب.

والقسم الثاني كتاب الألحان المسلية في حلي جزيرة صقلية. وهو أيضاً ذو أنواع. والقسم الثالث: كتاب الغاية الأخيرة في حلي الأرض الكبيرة. وهو أيضاً ذو أقسام. وصوّر رحمه الله تعالى أجزاء الأندلس في كتاب وشي الطرس. وقال أيضاً: إن كلا من شرق الأندلس وغربها ووسطها يقرب في قدر المساحة بعضه من بعض، وليس فيها جزء يجاوز طوله عشرة أيام ليصدق التثليث في القسمة، وهذا دون ما بقي بأيدي النصارى. وقدّم رحمه الله كتاب حلي العرس، في حلي غرب الأندلس، لكون قرطبة قطب الخلافة المروانية، واشبيلية التي ما في الأندلس أجمل منها فيه. وقسمه إلى سبعة كتب، كل كتاب منها يحتوي على مملكة منحازة عن الأخرى. الكتاب الأول: كتاب الحلة المذهبة، في حلي مملكة قرطبة. الكتاب الثاني: كتاب الذهبية الأصيلية، في حلي المملكة الاشبيلية. الكتاب الثالث: كتاب خدع الممالقة، في حلي مملكة مالقة. الكتاب الرابع: كتاب الفردوس، في حلي مملكة بطليوس. الكتاب الخامس: كتاب الخلب، في حلي مملكة شلب. الكتاب السادس: كتاب الديباجة، في حلي مملكة باجة. الكتاب السابع: كتاب الرياض المصونة، في حلي مملكة أشبونة. وقد ذكر رحمه الله تعالى في كل قسم ما يليق به، وصوّر أجزاءه على ما ينبغي. فالله يجازيه خيراً، والكلام في الأندلس طويل عريض.

وقال بعض المؤرخين: طول الأندلس ثلاثون يوماً، وعرضها تسعة أيام، ويشقها أربعون نهراً كباراً، وبها من العيون والحمامات والمعادن ما لا يحصى، وبها ثمانون مدينة من القواعد الكبار، وأزيد من ثلثمائة من المتوسطة، وفيها من الحصون والقرى والبروج ما لا يحصى كثرة، حتى قيل إن عدد القرى التي على نهر اشبيلية اثنا عشر ألف قرية. وليس في معمور الأرض صقع يجد المسافر فيه ثلاث مدن وأربعاً من يومه إلا بالأندلس.

ومن بركتها أن المسافر لا يسافر فيها فرسخين دون ماء أصلاً. وحيثما سار في الأقطار يجد الحوانيت في الفلوات والصحارى والأودية ورؤوس الجبال لبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والحوت وغير ذلك من ضروب الأطعمة.

وذكر صاحب الجغرافيا أن جزيرة الأندلس مسيرة أربعين يوماً طولاً، في ثمانية عشر يوماً عرضاً، وهو مخالف لما سبق. وقال ابن سيده: أخذت الأندلس في عرض الاقليمين الخامس والسادس من البحر الشامي في الجنوب، إلى البحر المحيط في الشمال، وبها من

الجبال سبعة وثمانون جبلاً اهـ. ولبعضهم:

لله أنـدلـسٌ ومـا جَمعـت بهـا ... من كلِّ ما ضَمَّتْ لها الأهواءُ
فكـأنَّمـا تلـك الـدِّيـار كـواكِـبٌ ... وكـأنَّمـا تلـك البِقـاعُ سَمـاء
وبكـل قُطْـرٍ جَـدْوَلٌ فـي جَنَّـةٍ ... ولِعَـتْ بـه الأفيَـاء والأنـداء

وقال آخر:

حبَّـذَا أنـدلـسٌ مـن بَلَـدٍ ... لـم تـزلْ تنتِجُ لـي كـلَّ سـرور
طـائـرٌ شـادٍ، وظـلٌّ وارِفٌ ... ومِيـاهٌ سـابحـاتٌ فـي قُصُـور

وقال آخر:

يا حُسْنَ أندلسٍ وما جَمَعَتْ لنا ... فيهـا مـن الأوطـارِ والأوطـانِ
تلك الجزيرةُ لسْتُ أنسَى حُسنها ... بتعـاقُـب الأحيـانِ والأزمـان
نَسَجَ الربيعُ نَباتَها من سُنْدُسٍ ... مـوشيـةٍ ببـدائـع الألـوان
وغدا النسيمُ بها عليلا هائماً ... بـرُبـوعِهـا، وتـلاطـم البحـران
يـاحُسْنَهـا والطّـلُّ ينثـر فـوقَهـا ... دُرَراً خـلاَلَ الـورد والـريحـان
وسواعدُ الأنهار قد مُدّت إلى ... نُـدَمَـائهـا بشقـائـق النعمـان
وتجاوبَتْ فيها شوادِي طَيرها ... والتفّـت الأغصـانُ بـالأغصـان
مـا زُرتُهـا إلا وحيّـانـي بهـا ... حَدَقُ البهارِ وأنْمُلُ السَّوْسان
مـن بعْـدهـا مـا أعجَبَتْنِـيَ بلـدةٌ ... مع ما حَلَلْتُ به من البُلْدان

وحكى بعضهم أن بالجامع في مدينة أقليش بلاطاً فيه جوائز منشورة مربعة مستوية الأطراف، طول الجائزة منها مائة شبر وأحد عشر شبراً. وفي الأندلس جبل من شرب من مائه كثر عليه الاحتلام من غير ارادة ولا تفكر، وفيها غير ذلك مما يطول ذكره. والله أعلم. انتهى.

ما قاله المسعودي في مروج الذهب عن الأندلس

وصاحب الأندلس كان يدعى لذريق، هذا كان اسم ملوك الأندلس، وقد قيل إنهم من الأسبان، وهم أمة من ولد يافث بن نوح، واتصلت هنالك، والأشهر عند من سكن الأندلس من المسلمين أن لذريق كان من ملوك الأندلس الجلالقة، وهم نوع من الأفرنجة، وأخو لذريق الذي كان بالأندلس قتله(١) طارق مولى موسى بن نصير حين افتتح بلاد

(١) لا نعلم لماذا قال المسعودي إن أخا لذريق هو الذي قتله طارق بن زياد، على حين أن الرواية المشهورة هي أن لذريق نفسه هو الذي قتل في المعركة التي وقعت بين المسلمين والاسبانيول، وبها =

الأندلس، ودخل إلى مدينة طليطلة، وكانت قصبة الأندلس ودار مملكتهم، ويشقها نهر عظيم يدعى تاجُه، يخرج من بلاد الجلالقة و«الوسقيد»[1] وهي أمة عظيمة، لهم ملوك، وهم حرب لأهل الأندلس كالجلالقة والأفرنجة. ويصب هذا النهر في البحر الرومي[2] وهو موصوف بأنه من أنهار العالم، وعليه على بعد من طليطلة قنطرة عظيمة تدعى قنطرة السيف، بنتها الملوك السالفة، وهي من البنيان المذكور والموصوف، أعجب من قنطرة سنجة[3] من الثغر الجزري، مما يلي سميساط من بلاد سرحة.

ومدينة طليطلة ذات منعة، وعليها أسوار منيعة، وأهلها بعد أن فتحت وصارت لبني أمية قد كانوا عصوا على الأمويين، فأقامت مدة سنين ممتنعة، لا سبيل للأمويين إليها فلما كان بعد الخمس عشرة وثلثماية، فتحها عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، وعبد الرحمن هذا هو صاحب الأندلس في هذا الوقت[4]، وهو سنة اثنتين وثلاثين

= انهار ملك القوط بالأندلس،وقد جاء في كتاب «أخبار مجموعة» الذي هو أول تاريخ للأندلس: بعد أن انهزم لذريق ـ وفي أخبار مجموعة يقول رذريق، وهي أقرب إلى الأصل ـ لم يدر أين وقع، إلا أن المسلمين وجدوا فرسه الأبيض، وكان عليه سرج له من ذهب مكلل بالياقوت والزبرجد، ووجدوا حلة من ذهب مكللة بالدر والياقوت، وقد ساخ الفرس في الطين، وفي السواخ وقع فيه وغرق العلج، فلما أخرج رجله ثبت الخف في الطين، والله أعلم ما كان من أمره، لم يسمع له خبر، ولا وجد حياً ولا ميتاً. انتهى. وقد جاء في بعض تواريخ الأسبان أن لذريق لم يقتل في المعركة، وأنه فر إلى شمالي أسبانية، وبقي يقاتل المسلمين إلى أن مات، ولكن الرواية الغالبة هي أن لذريق قتل في المعركة.

(١) هذه اللفظة محرفة بالنسخ ولا شك بأن مراد المسعودي، بها أمة الباسك أو الباشكونس وكان يقال لهم قديماً Vascongados.

(٢) أخطأ المسعودي في قوله أن نهر تاجه ينصب في البحر الرومي، والحقيقة أن مصبه في المحيط الاطلانطيكي، ولعله وقع منه سهو فحسب نهر تاجه هو نهر إبره الذي يمر بسرقسطة، فإن هذا ينصب في البحر الرومي.

(٣) لعله أراد سنجار، لأننا لا نعلم بلداً اسمه سنجة في بلاد الجزيرة: وأما سنجار فهي منها وهي على نهر. ويوجد بلدة يقال لها سنجة، والعجم تقول لها سنكة ولكنها ليست في الثغر الجزري، بل في خراسان، ويقال لبلادها الغور. وقد كنا نقول لعل في جملة «الثغر الجزري» تصحيفاً، وحقها أن تكون «الثغر الخزري» نسبة إلى بحر الخزر ولكن ينفي ذلك قوله «مما يلي سميساط» والحال أن سميساط هي مدينة من الثغر الجزري بالعجم. فأما بلاد «سرحة» فلم نجد لها ذكراً في بلاد الجزيرة. وإنما يوجد سرحة في اليمن: فالصحيح أنها سرجة بنقطة وهي بقرب سميساط، على شاطىء الفرات كما ذكر ياقوت في معجم البلدان.

(٤) أهم شيء في التاريخ، وهو الذي يقرب الوقائع إلى الذهن، ويجعل القارىء كأنه يراها بعينه، هو أن =

وثلاثمائة، وقد كان غيّر كثيراً من بنيان هذه المدينة حين افتتحها. وصارت دار مملكة الأندلس قرطبة إلى هذا الوقت.

ومن قرطبة إلى مدينة طليطلة نحو من سبع مراحل، ومن قرطبة إلى البحر مسيرة نحو من ثلاثة أيام. ولهم على بحر تونس من الساحل مدينة يقال لها أشبيلية.

وبلاد الأندلس مسيرة عمائرها ومدنها نحو من شهرين، ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة. وتدعى بنو أمية الخلائف، ولا يخاطبون بالخلفاء، لأن الخلافة لا يستحقها عندهم إلا من كان مالكاً للحرمين، غير أنه يخاطب بأمير المؤمنين[1] وقد كان عبد الرحمن بن معاوية، أو هشام بن عبد الملك بن مروان سار إلى الأندلس في سنة تسع وثلاثين ومائة، فملكها ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر. ثم هلك فملكها ابنه هشام بن عبد الرحمن سبع سنين. ثم ملكها ابنه الحكم بن هشام نحواً من عشرين سنة، وولده ولاتها إلى اليوم، على ما ذكرنا أن صاحبها عبد الرحمن بن محمد. وولّى عبد الرحمن في هذا الوقت فتاه الحكم، وكان أحسن الناس سيرة وأجملهم عدلاً. وقد كان عبد الرحمن صاحب الأندلس في هذا الوقت المقدم ذكره غزا سنة سبع وعشرين وثلثمائة في أزيد من مائة ألف فارس من الناس، فنزل على دار مملكة الجلالقة، وهي مدينة يقال لها سمورة،

= يكون المؤرخ معاصراً للأشخاص الذين يصفهم، وللوقائع التي يرويها، لا سيما إذا كانوا من الرجال المشهورين في التاريخ، أو كانت الوقائع التي يتحدثون عنها من الحوادث التي اشتهر خبرها: فالمسعودي، كابن حوقل، كان معاصراً للخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر وهو يكتب تاريخه هذا سنة ٣٣٢، أي بعد أن خرج ابن حوقل في سياحته، وبدأ بكتابه، بسنة واحدة: والواقعة التي محص فيها المسلمون في زمان عبد الرحمن في بلاد الجلالقة عند مدينة سمورة، وذكر المسعودي وقوعها سنة سبع وعشرين وثلاثمائة وقتل فيها من المسلمين أربعون ألفاً، وقيل خمسون ألفاً هذه نفسها جاء خبرها في كتاب «أخبار مجموعة» ولكنه جعلها في عام ستة وعشرين وثلثمائة، ولم يذكر عدد شهداء المسلمين فيها، وإنما قال إنهم هزموا أقبح هزيمة واتبعهم العدو أياماً يأسرونهم ويقتلونهم في كل محلة فلم يكد ينجو منهم إلا قوم جمعوا أصحابهم على ألويتهم، وتخلصوا إلى بلدانهم. ثم إن المسعودي يذكر أن الثغر بين المسلمين والافرنج سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، كان طرطوشة، على ساحل البحر الرومي، ثم يذكر غارات المجوس على الأندلس. ثم هناك نقطة ذات بال وهي أن من ملك الحرمين الشريفين يحق له أن يدعي الخلافة. وهي من النظريات التي كانت تدور في ذلك العصر، ولا تزال إلى يوم الناس هذا.

(١) ستعلم أن عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر عاد فنادى بنفسه خليفة، وأطلق عليه مسلمو الأندلس هذا اللقب، وذلك بعد أن ضعف شأن الخلافة العباسية واستبد بهم الأعاجم، وتصدعت وحدة المملكة العربية. فرأى عبد الرحمن نفسه جديراً بالخلافة، ولم يكبر ذلك أحد، لأنه كان أعظم ملوك عصره في عالمي الإسلام والنصرانية وسار على خطته ابنه الحكم الملقب بالمستنصر، ولكن خلف من بعدهما خلف أضاعوا الخلافة، وكان ذلك مبدأ ضياع الأندلس.

عليها سبعة أسوار من عجيب البنيان، قد أحكمتها الملوك السالفة، بين الأسوار فصلان وخنادق، ومياه واسعة، فافتتح منها سورين، ثم ان أهلها ثاروا على المسلمين، فقتلوا منهم، ممن أدرك الإحصاء، وممن عرف، أربعين ألفاً، وقيل خمسين ألفاً. وكانت للجلالقة والوسكيد على المسلمين وآخر ما كان بأيدي المسلمين من مدن الأندلس وثغورها مما يلي الأفرنجة مدينة أربونة، خرجت عما بأيدي المسلمين من مدائن الاندلس وثغورها سنة ثلاثين وثلثمائة، مع غيرها مما كان في أيديهم من المدن والحصون. وبقي ثغر المسلمين في هذا الوقت، وهو سنة ست وثلاثين وثلثمائة من شرقي الأندلس، طرطوشة، وعلى ساحل بحر الروم مما يلي طرطوشة آخذاً في الشمال «افراغة»[1] على نهر عظيم، ثم لاردة. ثم بلغني عن هذه الثغور أنها تلاقي الأفرنجة وهي أضيق مواضع الأندلس. وقد كان قبل الثلثمائة ورد إلى الأندلس مراكب في البحر فيها ألوف من الناس أغارت على سواحلهم، زعم أهل الأندلس أنهم ناس من المجوس[2]، تطرأ إليهم في هذا البحر في كل مائتين من السنين، وأن وصولهم إلى بلادهم من خليج يعترض من بحر أوقيانوس، وليس بالخليج الذي عليه المنارة النحاس. وأرى، والله أعلم، أن هذا الخليج متصل ببحر مانطش[3] ونيطش، وأن هذه الأمة هم الروس الذين قدمنا ذكرهم في ما سلف من هذا الكتاب، إذ كان لا يقطع هذه البحار المتصلة ببحر أوقيانوس غيرهم.

قول القلقشندي في صبح الأعشى عن الأندلس

قال في الجزء الخامس تحت عنوان «المملكة السادسة من ممالك بلاد المغرب جزيرة الأندلس» قال في تقويم البلدان: وجزيرة الأندلس على شكل مثلّث: ركن جنوبي غربيّ، وهناك جزيرة قادس، وفم بحر الزقاق. وركن شرقيّ، بين طرّكونة، وبين برشلونة، وهي في جنوبيه، وبالقرب من بلنسية وطرطوشة وجزيرة ميورقة. وركن شماليّ بميلة إلى البحر المحيط، حيث الطول عشر درجات ودقائق، والعرض ثمان وأربعون. وهناك بالقرب من الركن المذكور مدينة شنتياقوه، وهي على البحر المحيط في شماليّ الأندلس وغربيها. قال: والضلع الأول من الركن الجنوبي الغربي ـ وهو عند جزيرة قادس ـ إلى الركن الشرقي الذي عند ميورقة، وهذا الضلع هو ساحل الأندلس الجنوبي الممتد على بحر

---

(١) Fraguas ومن عادة العرب أن يجعلوا ألفاً قبل الاسم حتى لا يبدأوا بالساكن وقد قيل في طرابلس اطرابلس وفي غرناطة اغرناطة وفي فراغه افراغه ولها نظائر.

(٢) هؤلاء هم النورمنديون وكانوا وقتئذ مجوساً.

(٣) La Manche.

الزقاق. والضلع الثاني من الركن الشرقي المذكور إلى الركن الشمالي الذي عند شنتياقوه. وهذا الضلع هو حد الأندلس الشمالي، ويمتد على الجبل المعروف بجبل البِرْت[1]. الحاجز بين الأندلس وبين أرض تعرف بالأرض الكبيرة. وعلى ساحل الأندلس الممتد على بحر بَرْديل. والضلع الثالث من الركن الشمالي المذكور إلى الركن الجنوبي المقدّم الذكر، وهذا الضلع هو ساحل الأندلس الغربي الممتد على البحر المحيط.

قال ابن سعيد: قال الحجاري: وطول الأندلس من جبل البرت الفاصل بين الأندلس والأرض الكبيرة، وهو نهاية الأندلس الشرقية إلى أشبونة، وهي في نهاية الأندلس الغربية، ألف ميل. وعرض وسطه، من بحر الزقاق إلى البحر المحيط، عند طليطلة وجبل البرت، ستة عشر يوماً. قال في تقويم البلدان: وقد قيل: إن طوله غرباً وشرقاً من أشبونة، وهي في غرب الأندلس إلى أربونة، وهي في شرق الأندلس، مسيرة ستين يوماً، وقيل: شهر ونصف. وقيل: شهر. قال: وهو الأصح.

واعلم أن جبل البرت المقدّم ذكره متصل من بحر الزقاق إلى البحر المحيط، وطوله أربعون ميلاً، وفيه أبواب فتحها الأوائل، حتى صار للأندلس طريق في البر من الأرض الكبيرة، وقبل فتحها لم يكن للأندلس من الأرض الكبيرة طريق. وفي وسط جبل ممتد من الشرق إلى الغرب، يقال له جبل الشارة، يقسمه بنصفين: نصف جنوبيٌّ ونصف شمالي اهـ. ثم ذكر القلقشندي أهم حواضر الأندلس وسنأثر عنه ما نجده جديراً بالنقل، وذلك عند وصولنا إليها.

ما قاله ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب

في سنة أربع وثمانين افتتح موسى بن نصير أوروبة من المغرب، وبلغ عدد السبي خمسين ألفاً. اهـ. سمى الأندلس أوروبة، من باب تسمية البعض باسم الكل.

وذكر في حوادث سنة ٨٧ فتح سردانية من المغرب. وفي حوادث ٨٩ فتح جزيرتي ميورقة ومنورقة. وقال عن حوادث ٩٢: فيها افتتح إقليم الأندلس على يد طارق مولى موسى بن نصير، وتمم موسى فتحه في ثلاث سنوات. وذكر في حوادث سنة ١٧٢ موت صاحب الأندلس أبي المطرف عبد الرحمن بن معاوية ابن الخليفة هشام بن عبد الملك الأموي الدمشقي المعروف بالداخل وقال إنه فرَّ إلى المغرب عند زوال دولتهم، فقامت معه

(١) وربما قال العرب «البرتات» وهي لفظة افرنجية معناها الأبواب وهذا الجبل هو البرانس أو البيرانة.

اليمانية، وحارب يوسف الفهري، متولي الأندلس، وهزمه، وملك قرطبة في يوم الأضحى سنة ثمان وثلاثين ومائة. وامتدت أيامه، وكان عالماً، حسن السيرة، وعاش اثنتين وستين سنة. وولي بعده ابنه هشام، وبقيت الأندلس لعقبه إلى حدود الأربعمائة إلخ.

قول المقدسي في جغرافيته الشهيرة المسماة
«أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»

ذكر المقدسي الأندلس في جملة إقليم المغرب، بدأ بأفريقية، أي مملكة تونس الحاضرة، وتقدَّم إلى المغرب الأوسط، وكان يسمّى في ذلك الوقت إقليم تاهرت ثم تقدم إلى سجلماسة، وفاس، والسوس الأقصى. ثم ذكر جزيرة صقلية، وبعد أن عدد مدنها بدأ بالأندلس فقال: وأما الأندلس فنظيرها هيطل من جانب المشرق، غير أنّا لم نقف على نواحيها فنكوِّرها، ولم ندخلها فنقسمها. ويقال إنها ألف ميل. وقال ابن خرداذبة: الأندلس أربعون مدينة، يعني المشهور منها، لأن أحداً لم يسبقنا إلى تفصيل الكور، ووضع القصبات، فبعض المدن التي ذكر هي قصبات، على قياس ما رتبنا.

وسألت بعض العقلاء منهم عن الرساتيق المحيطة بقرطبة، والمنسوبة إليها والمدن فقال: إنّا نسمي الرستاق إقليماً، فالأقاليم المحيطة بقرطبة ثلاثة عشر مع مدنها، فذكر «أرْجونة» «قَسْطلة» «شَوْذَر» «مارتُشْ» «قَنباشُ» «فجّ ابن لِقَيط» «بلاط مَرْوان» «حصنُ بُلْكونة» «الشنيدة» «وادي عبدالله» «قرسيس» «المائدة» «جيَّان» ـ وعلى ما دل أخر الاسم هي ناحية مدَّنها الجفر ـ «بَيْغُو» «مارتُش» «قانت» «غَرْناتة» «مَنْتِيشة» «بَيَّاسَة» وسائر مدن أندلس المذكورة «طُرْطُوشة» «بَلَنْسِيَة» «مُرْسِيَة» «بَجّانَة» «مَالِقَة» «جزيرة جبل طارق» «شَذُنة» «إشْبيلِيَة» «أُخشُنُبَة» «مريّة» «شَنْتَرين» «باحَة» «لَبْلَة» «قَرْمُونة» «مَوْرُور» «إسْتِجَة».

ثم عاد بعد قليل فذكر الأندلس بشيء من التفصيل فقال: قرطبة هي مصر الأندلس سمعت بعض العثمانية يقول: هي أجلُّ من بغداد. في صحراء يطل عليها جبل، ولها مدينة جوّانيّة، وربض الجامع في المدينة وأسواق. وأغلب الأسواق ودار السلطان في الربض. قدامها واد عظيم، سطوحهم قراميد. الجامع من حجر وجير. وسواريه رخام. حواليه مياض.

وللمدينة خمسة أبواب: باب الحديد، باب العطارين، باب القنطرة، باب اليهود، عامر. وقد دلت الدلائل، واتفقت الآراء على أنه مصر جليل، رفق طيب، وأن ثَمّ عدلاً،

ونظراً، وسياسة، وطيبة، ونعماً ظاهرة، وديناً، وأن ناحية الأندلس على سجية «هيطل»[١] ابداً ثَم غزاة، ابداً في جهاد ونفير[٢] مع علم كثير، وسلطان خطير، وخصائص، وتجارات، وفوائد.

وحدثني بعض الأندلسيين أنها ثلاثة عشر رستاقاً على خمسة عشر ميلاً «أرَجُونة» مسورة، ليس لها بساتين وأشجار، لكنها بلد الحبوب، ولهم عيون، ومزارعهم على المطر، و «قَسْطَلَّة» على ثلاثة عشر ميلاً من أرجونة، وهي في سهلة كثيرة الأشجار والزيتون والكرمات، ومشاربهم من آبار، ويسقون البساتين بالسواني و «شَوْذَر» على ثمانية عشر ميلاً من قرطبة، وهي في سهلة كثيرة الزيتون جداً، شربهم من أعين، «مارْتُش» على خمسة عشر ميلاً من قرطبة، وهي جبليّة، ليس لها غير الكرمات، ولهم أعين. و «قَنْبَانُش» على خمسة عشر ميلاً، وهي سهلية، ذات مزارع أكثرها بموضع يقال له «قَنْبَانِية» مشاربهم من آبار. و «فج ابن لقيط» على خمسة وعشرين ميلاً في سهلة كثيرة المزارع، شربهم من آبار. و «بلَاط مَرْوَان» على ثلاثين ميلاً، لها واد جرّار، سهلية، ذات مزارع. و «بُرْيَانَة» ذات مزارع سهلية، شربهم من آبار، وفيها حصن من حجارة، والربض حوله، والجامع في الحصن، والأسواق في الربض وحصن «بُلكُونَة» كثير الزيتون والأشجار، والعيون، مسوَّرة بحجارة، شربهم من عين واحدة وآبار، على أربعين ميلاً من قرطبة، و «الشنيدة» على جبل، كثيرة الكروم والمزارع والعنب، شربهم من أعين وآبار، على يومين من قرطبة، المنزل فج ابن لقيط. و «وادي عبدالله» من نحو القبلة، على أربعين ميلاً من قرطبة. المنزل «وادي الرُّمَّان» سهلية ذات مزارع وأنهار وأشجار و «قرسيس» على ستين ميلاً من قرطبة، سهلية كثيرة التين والأعناب والزيتون الكبير، شربهم من أعين. و «جيَّان» على خمسين ميلاً من قرطبة، اسم الرستاق «أَوْلَبَة» ومدينة جيّان على جبل، كثيرة الأعين، قد خرب حصنها، غير أنها منيعة بالجبل، بها اثنتا عشرة عيناً، ثلاث عليها أرحية، تقوم بالأندلس، ومن ثَم ميرة قرطبة وثمارها كثيرة، وصِفْ ما شئت من طيبها ورُحبها، فإنها جنة الأندلس على ما حكي لي. ودل آخر الاسم على أنها ناحية بنيانُهم بالحجارة، باردة كثيرة الرياح، وبكورتها حرّ، هي في عداد النواحي قياساً على ما رتبنا. ومدُنها الجفر[٣]، على الجبل، كثيرة الأودية والأرحية، على عشرة أميال من جيان، كلها أشجار وثمار، وزيتون وأعناب، على واد تجمع الفواكه. و «بَيْغُو» وهي جبلية لها أودية تخر منها عيون تدير الأرحية، كثيرة

---

(١) يقال هيطل لبلاد ما وراء النهر: بخاري وسمرقند وما جاورهما.

(٢) هذا خلاف ما زعمه ابن حوقل. والصحيح في هذا المقام هو كلام المقدسي.

(٣) كذا ولم يظهر لنا مراد المؤلف هنا إلا أن يكون ثمة تحريف.

التوت والزيتون والتين. و «مارتش» مسورة على جبل، شربهم من أعين، كثيرة التين والزيتون والكروم. «قانت» مسورة في قنبانية، لا بساتين لها زاكية. و «غرناطة» على واد به منية، طوله ثلاثة عشر ميلاً للسلطان، فيه من كل الثمار حسن عجيب، سهلية كثيرة المزارع. قلت: وما المنية؟ قال البستان[1]. «مَنْتِيشَة» مسورة على واد كثيرة الزيتون والتين سهلية. و «بيَّاسة» مسورة في جبل، بناؤهم طين، وشربهم من أعين، كثيرة التين والكرمات. قلت: هل بقي لقرطبة غير هذه الرساتيق والمدن؟ قال: لا. قلت: فأشبيلية وبجانة... وذكرت عدة من البلدان. قال: هذه نواح لها أقاليم، كما تقول: القيروان وتاهرت وسجلماسة وهم يسمون الرستاق إقليماً. فعلمت أنها كور على قياسنا، وأنها إن لم تكن أجل من كور هيطل فليست بأقل منها.

فيحصل القول، وتثبت الدلائل، على أن مثل المغرب كمثل المشرق، كل واحد منهما جانبان: فكما أن المشرق خراسان وهيطل يفصل بينهما جيحون، فكذلك المغرب والأندلس يفصل بينهما بحر الروم.

غير أنّا نعجز عن تكوير الأندلس، فتركناها على الجملة، ووصفنا كورة قرطبة لما كثر المخبرون عنها، واتضح عندنا أمرها. وعرضت كتابي على شيخ من مشايخهم فقال: على هذا القياس يجب أن تكون الأندلس ثماني عشرة كورة، فعدّ بجّانة، مالقة، بلنسية، تُدمير، سَرَقوسَة[2]، يابِسَة، وادي الحجارة، تُطيلَة، وَشْقَة، مدينة سالم، طُليطُلة، إشبيلية، بَطَلْيوس، باجة، قرطبة، شَذُونة، الجزيرة الخضراء وسألت آخر فقال: صدق، وزاد لِبيَرة خُشُنُبة. ويجوز أن يكون بعض هذه البلدان نواحي، قياساً على يلاق وكشّ والصغانيان. والله أعلم بالصواب.

ثم ذكر المقدسي جمل شؤون هذا الإقليم فقال: هو إقليم جليل كبير طويل يوجد فيه أكثر ما يوجد في سائر الأقاليم، مع الرخص، كثير النخيل والزيتون، به مواضع الحرّ، ومعادن البرد، كثير اليهود، جيد الهواء والماء.

فأما الحر فإنك تجده من مصر إلى السوس الأقصى، إلا في مواضع، فإن بها جبلاً وبلداناً باردة، والغالب على الأندلس البرد، كثير المجذّمين، والخصيان، والثقلاء،

---

(١) تقدم لنا ذكر لفظة المنية وماذا كانوا يعنون بها، وهذا نص يؤيد ما ذكرناه وهو أن المنية المتنزه أو البستان.

(٢) يعني سرقسطة وهو أقرب إلى لفظ الاسبانيول بها.

والبخلاء، قليل القصّاص، رُفَق، يحبون العلم وأهله، ويكثرون التجارات والتغرب.

وأما المذاهب فعلى ثلاثة أقسام: أما في الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع. وهم يقولون: لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك. فإن ظهروا على حنفيّ أو شافعيّ نفوه، وإن عثروا على معتزليّ أو شيعي ونحوهما ربما قتلوه. وبسائر المغرب إلى مصر لا يعرفون مذهب الشافعي (رحمه الله) إنما هو أبو حنيفة ومالك (رحمهماالله). وكنت يوماً أذاكر بعضهم في مسألة فذكرت قول الشافعي (رحمه الله) فقال: اسكت! من هو الشافعي؟ إنما كانا بحرين: أبو حنيفة لأهل المشرق، ومالك لأهل المغرب، افنتركهما ونشتغل بالساقية؟ ورأيت أصحاب مالك (رحمه الله) يبغضون الشافعي قالوا: أخذ العلم عن مالك ثم خالفه.

وما رأيت فريقين أحسن اتفاقاً وأقل تعصباً منهم، وسمعتهم يحكون عن قدمائهم في ذلك حكايات عجيبة، حتى قالوا إنه كان الحاكم سنة حنفيّ، وسنة مالكي. قلت: وكيف وقع مذهب أبي حنيفة (رحمه الله) إليكم ولم يكن على سابلتكم؟ قالوا: لما قدم وهب بن وهب من عند مالك (رحمه الله) وقد حاز من العلوم والفقه ما حاز استنكف أسد بن عبدالله أن يدرس عليه، لجلالته، وكبر نفسه، فرحل إلى المدينة ليدرس على مالك، فوجده عليلاً، فلما طال مقامه عنده قال له: ارجع إلى ابن وهب فقد أودعته علمي وكفيتكم به الرحلة، فصعب ذلك على أسد، وسأل: هل يعرف لمالك نظير؟ فقالوا: فتى بالكوفة يقال له محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة. قالوا: فرحل إليه وأقبل عليه محمد إقبالاً لم يقبله على أحد، ورأى فهماً وحرصاً، فزقّه الفقه زقاً، فلما علم أنه قد استقل وبلغ مراده فيه، سيّبه إلى المغرب، فلما دخلها اختلف إليه الفتيان، ورأوا فروعاً حيرتهم، ودقائق أعجبتهم، ومسائل ما طنت على أذن ابن وهب وتخرج به الخلق، وفشا مذهب أبي حنيفة (رحمه الله) بالمغرب قلت: فلم لم يفش بالأندلس؟قالوا: لم يكن بالأندلس أقل منه ههنا، ولكن تناظر الفريقان يوماً بين يدي السلطان فقال لهم: من أين كان أبو حنيفة؟ قالوا: من الكوفة. فقال: مالك؟ قالوا: من المدينة. قال: عالم دار الهجرة يكفينا فأمر بإخراج أصحاب أبي حنيفة. وقال: لا أحب أن يكون في عملي مذهبان. وسمعت هذه الحكايات من عدة من مشايخ الأندلس.

والقسم الثالث مذاهب الفاطميّ، وهي على ثلاثة أقسام: أحدها ما قد اختلف فيه الأئمة مثل القنوت في الفجر، والجهر بالبسملة، والوتر بركعة، وما أشبه ذلك. والثاني الرجوع إلى ما كان عليه السلف، مثل الإقامة مثنى التي ردّها بنو أميّة إلى واحدة، ومثل

لبس البياض الذي ردّه بنو العباس إلى السواد، والثالث ما تفرّد به مما لا يخالف الأئمة، وإن لم يعرف له قدمة، مثل الحيعلة في الأذان، وجعل أول الشهر يوماً يرى فيه الهلال، وصلاة الكسوف بخمس ركعات وسجدتين في كل ركعة وهذه مذاهب الشيعة، ولهم تصانيف يدرسونها.

ونظرت في كتاب «الدعائم» فإذا هم يوافقون المعتزلة في أكثر الأصول ويقولون بمذهب الإسماعيلية. ولهم فيه سر لا يعلّمونه ولا يأخذون بـه كل أحد، إلا من وثقوا به، بعد أن يحلّفوه ويعاهدوه. وإنما سموا باطنيّة لأنهم يصرفون ظاهر القرآن إلى بواطن، وتفاسير غريبة، ومعان دقيقة. وهذه الأصول مذاهب الإدريسية وغلبتهم بكورة السوس الأقصى، وهي قريبة من مذاهب القرامطة.

وأهل المغرب والمشرق في مذاهب الفاطمي على ثلاثة أقسام: منهم من أقرّ بها واعتقدها. ومنهم من كفر بها وأنكرها. ومنهم من جعلها في اختلاف الأمة. وأكثر أهل أصقلية حنفيّون. وقرأت في كتاب صنّفه بعض مشايخ الكرّاميّة بنيسابور أن بالمغرب سبعمائة خانقاه لهم، فقلت: لا والله ولا واحدة!

وأما القراءات في جميع الإقليم فقراءة نافع حسب الرسوم، لا يشهد في هذه الأقاليم الستة إلا معدّل، وحضرنا يوماً[1] ملاكاً فأمرني أبو الطيب حمدان أن أكتب شهادتي، فَهُنِّيت بذلك، ولا يأخذون الميت إلا من الرأس أو الرجلين، ويصلون كل ترويحة ويجلسون، ولا يسلخون الأغنام إذا شووها، ويدخلون الحمامات بلا مآزر إلا القليل، وبالمغرب رسومهم مصرية، إلا أنهم قل ما يتطلّسون وكثيراً ما يجعلون الرداء بطاقين ثم يطرحونه على ظهورهم مثل العباة، أصحاب قلانس مصبّغة، والبربر ببرانس سود، وأهل الرساتيق بأكسية، والسوقة بمناديل، والتجار يركبون أحمرة مصرية وبغالاً، وكل مصاحفهم ودفاترهم مكتوبة في رقوق، وأهل الأندلس أحذق الناس في الوراقة، خطوطهم مدورة، وبه تجارات تحمل من برقة ثياب الصوف والأكسية، ومن أصقلية الثياب المقصورة الجيدة، ومن أفريقية الزيت والفستق، والزعفران، واللوز، والبرقوق، والمزاود، والأنطاع والقُرَب، ومن فاس التمور، وجميع ما ذكرنا، ومن الأندلس بـزكثير، وخصائص وعجائب، ومن خصائص الإقليم المرجان، يخرج من جزيرة في البحر اسم مدينتها مرسى

(١) الملاك: الزواج.

الخرَز، يدخل إليها في طريق دقيق كالمهدية، من بحرها يرتفع القرن، وهو المرجان، لا معدن له غيرها. وهي جبال في البحر، يخرجون إلى جمعه في قوارب، ومعهم صلبان من خشب قد لفوا عليها شيئاً من الكتان المحلول، وربطوا في كل صليب حبلين، يأخذهما رجلان، فيرميان بالصليب. ويدير النواتي القارب، فيتعلق بالقرن ثم يجذبونه، فمنهم من يخرج عشرة آلاف إلى عشرة دراهم. ثم يجلى في أسواق لهم، ويباع جزافاً رخيصاً، ولا اشراق له قبل جليه ولا لون. وبتطيلة سمُّور كثير[1].

وبالأندلس السَفَن[2] الذي يتخذ منه مقابض السيوف. ويقع إليهم من البحر المحيط عنبر كثير في وقت من السنة، ويرتفع من أصقليّة نوشاذر كثير أبيض. وسمعت إنه قد انقطع معدنه، واستغنى عنه أهل مصر بدخان الحمامات.

وأما الأرطال فكانت بغدادية في الإقليم كله، إلا الذي يوزن به الفلفل، فإنه يشف على البغدادي بعشرة دراهم. والآن هو المستعمل في أعمال الفاطمي بالمغرب كله. والمكاييل قفيز القيروان اثنان وثلاثون ثمناً، والثمن ستة أمداد بمدّ النبيّ ﷺ. وقفيز الأندلس ستون رطلاً، والربع ثمانية عشر رطلاً. وفنيقة نصف القفيز. ومكاييل الفاطمي الدوّار، وهي التي تشفّ على ويبة مصر بشيء يسير قد ألجم رأسها بعارضة من حديد، وأقيم عمود من قاعها إلى العارضة فوقه حديد يدور على رأس الويبة، فإذا أترعها أدار الحديد، فمسحت فم الويبة، وصح الكيل. وأرطاله رصاص عل كل رطل اسم أمير المؤمنين، فإن اجتمعت أرطال بموضع واحد بسيط صبّها، وطبع على كل رطل، ولو كانت عشرة.

وأما نقوده في جميع أعماله إلى أقصى دمشق فالدينار، يزلّ عن المثقال بحبة، أعني شعيرة، والسكة مدوَّرة الكتابة. وله ربع صغير يؤخذان بالعدد. والدرهم أيضاً زالّ له نصف يسمونه القيراط، وربع، وثمن، ونصف ثمن، يسمونه الخرنوبة، يؤخذ الجميع بالعدد. ولا يرخصون في المعاملة بالقطع، وسنجهم[3] من زجاج مطبوع، كما ذكرنا من الأرطال ورطل مدينة تونس اثنتا عشرة أوقية، والوقية اثنا عشر درهماً.

والعجائب بهذا الإقليم كثيرة، منها أبو قلمون، وهي دابة تحتك بحجارة على شط

(١) المشهور أنه بسرقسطة ولكن تطيلة هي من عملها.

(٢) السفن محركة جلد أخشن كجلود التماسيح يجعل على قوائم السيوف.

(٣) جمع سنجة وهي ما يوزن به كالأوقية والرطل.

البحر فيقع منها وبرها، وهو في لين الخز، لونه لون الذهب، لا يغادر منه شيئاً، وهو عزيز الوجود، فيجمع وينسج منه ثياب تتلوّن في اليوم ألواناً، ويمنع السلطان من حمل ذلك إلى البلدان، إلا ما يخفى عنهم، ربما بلغ الثوب عشرة آلاف دينار.

بأصقليَّة جبل تفور منه النار أربعة أشهر، في كل عشر سنين مرة، وسائر الأوقات يدخن، وحوله ثلوج متلبدة، إلا موضع الدخان.

بمدينة «إيكِجَا» عيون تخرج أوقات الصلاة ثم تغور. فإن قصدها رجل كان قد قتل نفساً بغير حق لم يخرج له شيء.

فإن قال قائل: إنك تركت كثيراً من العجائب في هذا الإقليم لم تذكرها. قيل له: إنما تركنا ما ذكره من قبلنا في تصانيفهم. ومن مفاخر كتابنا الإعراض عما ذكره غيرنا. وأوحش شيء في كتبهم ضد ما ذكرنا. ألا ترى أنك إذا نظرت في كتاب الجبهاني وجدته قد احتوى على جميع أصل ابن خرداذبه، وبناه عليه، وإذا نظرت في كتاب ابن الفقيه، فكأنما أنت ناظر في كتاب الجاحظ والزيج الأعظم، وإذا نظرت في كتابنا وجدته يسبّح وحده يتيماً في نظمه. ولو وجدنا رخصة في ترك جمع هذا الأصل ما اشتغلنا به، ولكن لما بلّغنا الله تعالى أقاصي الإسلام، وأرانا أسبابه، وألهمنا قسمته، وجب أن ننهي ذلك إلى كافة المسلمين. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض﴾ ﴿أفلَم يسيروا في الأرض فينظروا﴾ وفيما نذكر عبرة لمن اعتبر وفوائد لمن سافر.

مما قاله عن الأندلس لسان الدين بن الخطيب

وقال لسان الدين بن الخطيب السلماني عن مملكة غرناطة، وقوله هذا في الأحوال الاجتماعية يصدق على جميع الأندلس: أحوال أهل هذا القطر في الدين، وصلاح العقائد أحوال سنة، والنحل فيهم معروفة، فمذاهبهم على مذهب مالك بن أنس إمام دار الهجرة جارية. وطاعتهم للأمراء محكمة. وأخلاقهم في احتمال المعاون الجبائية جميلة. وصورهم حسنة. وأنوفهم معتدلة غير حادة. وشعورهم سود مرسلة. وقدودهم متوسطة معتدلة، إلى القصر. وألوانهم زهر مشربة بحمرة. وألسنتهم فصيحة عربية يتخللها أعراب كثير، وتغلب عليهم الإمالة[1] وأخلاقهم أبيّة في معاني المنازعات. وأنسابهم عربية، وفيهم من البربر والمهاجرة كثير. ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاشي بينهم الملف

(١) عرب الأندلس كانوا يتكلمون بالإمالة، وسنأتي بأمثال من ذلك عند الوصول إلى هذا الموضوع.

المصبوغ شتاء، وتتفاضل أجناس البز بتفاضل الجدة والمقدار والكتان والحرير والقطن والموعر والاردية الأفريقية والمقاطع التونسية والمآزر المشقوقة صيفاً، فتبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتّحة في البطاح الكريمة، تحت الأهوية المعتدلة. أنسابهم حسبما يظهر من الاشتراءات والبياعات السلطانية والإجازات عربية يكثر فيها القرشي[(١)]. والفهري[(٢)]. والأموي[(٣)]. والأنصاري[(٤)]. والأوسى[(٥)]. والخزرجي[(٦)]. والقحطاني[(٧)]. والحميري[(٨)]. والمخزومي[(٩)]. والتنوخي[(١٠)]. والغسّاني[(١١)]. والأزدي[(١٢)].

---

(١) قرشه: جمعه من ههنا وههنا وضم بعضه إلى بعض. قال الفراء: ومنه قريش القبيلة وأبوهم النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي دون ولد كنانة ومن فوقه كذا في الصحاح. قال الزبيدي في تاج العروس: قلت: وعند أئمة النسب كل من لم يلده فهر فليس بقرشي، قاله ابن الكلبي، وهو المرجوع إليه في هذا الشان. وقيل: سميت قريش بهذا الاسم حين غلب عليها قصي بن كلاب، وكان يقال: تقرّش القوم إذا اجتمعوا، وكان قصي يسمي مجمعاً لجمعه قريش بالرحلتين، وقيل: لأنهم كانوا يتقرشون البياعات فيتشرونها، أو لأن النضر بن كنانة اجتمع في ثوبه يوماً فقالوا تقرش. أو لأنه جاء إلى قومه يوماً فقالوا كأنه جمل قريش أي شديد. أو سموا قريش بمصغر القرش، وهي دابة بحرية سيدة دواب البحر وكذلك قريش سادات الناس جاهلية وإسلاماً، وقيل سموا بذلك لأنهم كانوا أهل تجارة، لا أصحاب زرع وضرع، من قولهم فلان يتقرش المال، والنسبة إلى قريش قرشي ونادراً يقال قريشي.

(٢) هو فهر بن مالك النضر بن كنانة وقريش كلهم ينسبون إليه.

(٣) نسبة إلى بني أمية، وهما اميتان الأكبر والأصغر ابنا عبد شمس بن عبد مناف من قريش، والنسبة إليهم أموي بضم ففتح وأموي بالتحريك على التخفيف.

(٤) نسبة إلى أنصار الرسول عليه السلام.

(٥) نسبة إلى الأوس وهو أوس ابن قيلة أخو الخزرج.

(٦) نسبة إلى الخزرج وكان الخزرج والأوس أخوين، وهما ابنا قيلة، وهي أمهما، وأبوهما حارثة ابن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس ابن ثعلبة بن مازن بن الأزد من عرب اليمن.

(٧) نسبة إلى قحطان أبو عرب اليمن، وقالوا في نسبه قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام.

(٨) نسبة إلى حمير وهو ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

(٩) نسبة إلى مخزوم وهو ابن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب وأولاده حي من قريش ومخزوم أيضاً قبيلة من عبس وهو ابن مالك بن غالب بن قطيعة بن عبس.

(١٠) نسبة إلى تنوخ كصبور قبيلة من اليمن، قيل إنهم عدة قبائل اجتمعوا وتحالفوا وقيل: تنوخ ونمر وكلب ثلاثتهم إخوة.

(١١) نسبة إلى غسان كشداد وهو ماء نزل عليه قوم من الأزد بين رمع وزبيد من اليمن، فسموا به وهم بنو مازن بن الأزد بن الغوث من عرب اليمن.

(١٢) نسبة إلى الأزد وهو الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن كهلان بن سبأ، ويقال أزد شنوئة وأزد عمان=

والقيسي[١]. والمعافري[٢]. والكناني[٣]. والتميمي[٤]. والهذلي[٥]. والبكـري[٦]. والكلابي[٧]. والنمري[٨]. واليعمري[٩]. والمازني[١٠]. والثقفي[١١]. والسلمي[١٢]. والفـزاري[١٣]. والبـاهلـي[١٤]. والعبسـي[١٥]. . . . .

= وأزد السراة واستدرك الزبيدي على صاحب القاموس أزد بن عمران بن عمرو بن عامر، وقالوا إن الأزد افترقوا على سبع وعشرين قبيلة.

(١) نسبة إلى قيس عيلان وهو أخو الياس الذي هو خندف، وكلاهما ولد مضر وقد غلب هذا الاسم على العرب العدنانية، فالناس يقولون قيس ويمن.

(٢) نسبة إلى معافر حي من همدان من عرب اليمن.

(٣) نسبة إلى كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر وهم خمس قبائل بنو عبد مناة بن كنانة، وبنو عمرو بن كنانة، وبنو عامر بن كنانة، وبنو ملكان بن كنانة، وبنو مالك بن كنانة، ثم بنو كنانة قبيلة أخرى في تغلب بن وائل، وقبيلة من كلب منهم خلف بن حامد الكناني من قضاة الأندلس.

(٤) تميم كأمير ابن مرّ بن أد بن طابخة أبو قبيلة من مضر مشهورة.

(٥) هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر حي من مضر.

(٦) نسبة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه أو إلى بني بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة أو إلى بكر بن عوف بن النخع أو إلى بكر بن وائل بن قاسط بن هنب أو إلى بكر بطن من عذرة.

(٧) كلاب في قريش هو ابن مرة وفي هوازن ابن ربيعة بن صعصعة.

(٨) النمر ككتف بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة، والنسبة إليه نمري بفتح الميم، والحافظ أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبد البر المالكي الأندلسي هو نمري.

(٩) يعمر بطن من كنانة وربما كان هذا اللفظ هو اليعفري، لا اليعمري، وذلك لأننا نقلنا كلام لسان الدين ابن الخطيب عن الإحاطة طبعة مصر، وهي طبعة مشحونة غلطاً وتصحيفاً وتحريفاً. وقد رددنا كثيراً من ألفاظها إلى الأصل بالقرينة والاستدلال فإن كان هذا اللفظ هو اليعمري، فيوجد في العرب قبيلة اسمها يعمر جاء ذكرها في تاج العروس، إلا أنه لم ينسبها ولكن السويدي ذكر أنها من كنانة. وإن كان هو اليعفري فبنو يعفر هم بطن من حمير ويقال لهم الأوزاع.

(١٠) مازن بن مالك بن عمرو بن تميم وهم حي مشهور منهم أبو عثمان المازني النحوي وبنو مازن أيضاً من الخزرج، وبنو مازن بن منصور بن عكرمة بن قيس عيلان. وبلادهم الطائف وجبالها.

(١١) ثقيف كأمير أبو قبيلة من هوازن واسمه قسيّ بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان.

(١٢) نسبة إلى سليم كزبير وهو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة من قيس عيلان، وهم قبيلة كبيرة منتشرة في الشرق والغرب، ومنهم أكثر عرب برقة.

(١٣) فزارة بلالام ابن ذبيان بن غضيب بن ريث بن غطفان، أبو قبيلة من غطفان منهم بنو العشراء وبنو غراب وبنو شمخ.

(١٤) نسبة إلى باهلة قبيلة من قيس عيلان، وباهلة اسم امرأة من همدان كانت تحت معن بن أعصر بن سعد ابن قيس عيلان فنسب ولده إليها.

(١٥) نسبة إلى عبس اسم أصله الصفة وهو عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس. وهم=

. . . . والعنسي[1]. والعذري[2]. والحجي[3]

والضبي[4] والسكوني[5]. والتيمي[6] والعبشمي[7]. والمري[8]. والعقيلي[9] والفهمي[10].

= رهط الحطيئة الشاعر وعروة بن الورد وإليهم ينسب عنترة بن شداد، وفي بني هلال أحياء ينسبون إلى عبس.

(١) العنس بسكون النون بطن من كهلان وإليهم ينسب الأسود العنسي الذي كان في اليمامة وارتد هو ومسيلمة الكذاب.

(٢) عذرة بلالام قبيلة في اليمن وهم بنو عذرة بن سعد هذيم بن سعد بن ليث بن سود بن أسلم بن ألحاف ابن قضاعة وإخوته الحارث ومعاوية ووائل وصعب بنو سعد هذيم بطون كلهم عذرة وأمهم عائد بنت مر بن أد، وكذلك منهم سلامان بن سعد في عذرة أيضاً كذا قاله ابن عبيد وهم مشهورون في العشق والعفة حتى ضرب المثل بالهوى العذري ومنهم جميل بن عبدالله بن معمر صاحب بثينة، ومنهم عروة ابن حزام صاحب عفراء.

(٣) جاء في تاج العروس: والحجبيون محركة بنو شيبة لتوليهم حجابة البيت الشريف.

(٤) ضبة بن أد عم تميم بن مر بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر وأبناء ضبة ثلاثة سعد، وسعيد، مصغراً، وباسل. فسعيد وباسل لا عقب لهما فانحصر جماع ضبة في سعد بن ضبة وهم جمرة من جمرات العرب.

(٥) السكون كصبور حي من العرب، وهو ابن أشرس بن ثور بن كندة.

(٦) في قريش تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، ومن تيم هؤلاء اثنان من العشرة المبشرين بالجنة، أبو بكر الصديق، وأبو محمد طلحة بن عبيدالله، وهما يجتمعان في عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، ويجتمعان مع رسول الله ﷺ في مرة بن كعب وفي قريش أيضاً تيم بن غالب بن فهر أخو لؤي بن غالب وفي بني بكر بن وائل، تيم بن قيس بن ثعلبة بن عكابة وفيهم أيضاً تيم بن شيبان بن ثعلبة وقيل إن تيم بن شيبان هذا هو من بني شيبان بن ذهل ثم في بني ضبة تيم اللات بن ذهل بن مالك بن بكر ابن سعد، وفي الخزرج تيم اللات بن ثعلبة، قال في تاج العروس: والتيوم كثيرون.

(٧) نسبة إلى عبد شمس، وهم بطن من قريش، ويوجد في العرب عبشمس بن سعد بن زيد بن مناة بن تميم، والعب هنا قيل ضوء الشمس، وقيل لعاب الشمس وقيل هو العبىء بالهمز يفتح فيكسر والنسبة أيضاً عبشمي قال الشاعر:

وتضحك مني شيجة عبشمية كأن لم ترى قبلي أسيراً يمانياً

(٨) نسبة إلى مرو هو تميم بن مر بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر قبيلة مشهورة، وهناك مر بن عمرو ابن الغوث بن جلهمة من طيء وإخوته ستة عشر، ويقال أيضاً مري نسبة إلى مرة بالتاء. وفي قريش مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ثم إنه يوجد في قيس عيلان قبيلة اسمها بنو مرة، وهو مرة بن عوف بن سعد بن قيس عيلان.

(٩) نسبة إلى عقيل كزبير، وعقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر، وفي بني فزارة عقيل بن هلال، وفي أشجع أيضاً عقيل بن هلال.

(١٠) نسبة إلى فهم بن عمرو بن قيس بن عيلان، رهط تأبط شراً. وفهم أيضاً هم فهم الجمرات، بطن من لخم. وفي الأزد فهم بن غنم بن دوس، منهم جذيمة بن مالك بن فهم الملك الأبرش.

والصريحي[1] والجزلي[2]. والقشيري[3]. والكلبي[4]. والقضاعي[5]. والأصبحي[6]. والمرادي[7]. والرعيني[8]. والیحصبي[9]. والتجيبي[10]. . . . .

(١) لم نقف حتى الآن على اسم قبيلة يقال لها الصريح، وغاية ما رأينا أنه في تاج العروس يقول: (والصريحان قبيلة) ولم يزد على هذه الكلمة شيئاً ـ ونظراً لكثرة التحريف والتصحيف في طبعة الإحاطة التي أخذنا عنها فيغلب على ظننا أن (الصريحي) هنا إنما هو الصليحي باللام، فإذا كان كذلك فالصليح فخذ من همدان منهم القاضي محمد بن علي الهمداني الصليحي، وكانوا قائمين بدعوة العبيديين باليمن كما جاء في سبائك الذهب للسويدي وذكر السلطان ابن رسول صاحب أنساب العرب منهم أمراء.

(٢) نسبة إلى جزيلة كسفينة بطن من كندة.

(٣) نسبة إلى قشير كزبير وهو قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن، وإلى هذه القبيلة ينسب الإمام أبو القاسم القشيري صاحب الرسالة المشهورة.

(٤) نسبة إلى كلب بن وبرة وهو أخو نمر وتنوخ كما في معارف ابن قتيبة وقال العيني: في طيء كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن الحاف بن قضاعة.

(٥) قضاعة قبيلة من حمير من القحطانية. وعليه جرى ابن إسحاق والكلبي وغيرهما وذهب بعض النسابين إلى أن قضاعة من العدنانية وأنه ابن معد بن عدنان. قال ابن عبد البر وعليه الأكثر: قال السويدي: والأشهر هو الأول. قلنا: وهو المعتمد عليه. إلا أن النسابة جعفر بن حبيب قال: لم تزل قضاعة في الجاهلية والإسلام تعرف بمعد حتى كانت الفتنة بالشام بين كلب وقيس عيلان أيام مروان ابن الحكم فمالت قضاعة إلى اليمن وانتمت إلى حمير. وذكر ابن الأثير في الأنساب هذا الاختلاف ونقل عن محمد بن سلام المصري وقد سئل انزار أكثر أم اليمن؟ أنه قال: إن تمعددت قضاعة فنزار أكثر وإلا فاليمن. ومن الغريب أنه روي عن رسول الله ﷺ حديثان كل منهما له طريق أحدهما يفيد أن قضاعة من اليمن والآخر أنها من معد بن عدنان. وهذا برهان على كثرة الوضع في الأحاديث، وقد رأيت كلا منهما في كتاب أنساب العرب لابن رسول من سلاطين اليمن.

(٦) نسبة إلى ذي أصبح من حمير، قيل هو الحارث بن عوف بن مالك بن زيد بن سدد بن زرعة وقال ابن حزم، وهو ذو أصبح مالك بن زيد بن الغوث من ولد سبأ الأصغر. وإلى هذه القبيلة ينسب سيدنا مالك بن أنس أحد أصحاب المذاهب الأربعة. وجده الأقرب هو أبو عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان الأصبحي الحميري من التابعين.

(٧) نسبة إلى مراد كغراب وهو مراد بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ، وفي المصباح: مراد قبيلة من مذحج قال الزبيدي: ومذحج هو مالك بن زيد المتقدم ذكره.

(٨) نسبة إلى ذي رعين كزبير قال الجوهري: إنه من ولد الحارث بن عمرو بن حمير بن سبأ من عرب اليمن، ورعين حصن أو جبل فيه حصن، وفي اليمن مخلاف يقال له شعب ذي رعين.

(٩) نسبة إلى يحصب ذكر الحافظ ابن حزم في جمهرة الأنساب: أن يحصب هو أخو ذي أصبح جد الإمام مالك، وقلعة يحصب بالأندلس سميت بمن نزلها من اليحصبيين من حمير، منها سعيد بن مقرون بن عفان، والنابغة ابن إبراهيم المحدثان، والقاضي عياض بن موسى صاحب الشفاء، وعبدالله بن محمد بن معدان اليحصبي الأندلسي كتب عنه السلفي.

(١٠) تجيب بالضم كما جزم به أهل الحديث، وأكثر الأدباء. قال الزبيدي في تاج العروس: إن أهل =

والصدفي(١). والغافقي(٢). والحضرمي(٣). واللخمي(٤). . . . .

= الأنساب يميلون إلى فتحه وقال القاضي عياض: إنه بالفتح كما قيدناه عن شيوخنا، وذهب أبو محمد ابن السيد النحوي إلى صحة الوجهين، وسمعت الأستاذ السيد رشيد رضا رحمه الله يلفظ تجيب بالضم نقلاً عن أحد مشايخه في الحديث والتاء في تجيب أصلية عند الخليل، وتابعه في ذلك الفيروزأبادي مجد الدين، ولكن الجوهري وابن فارس وابن سيدة ذهبوا إلى أنها زائدة، والقبيلة بطن من كندة، قال ابن قتيبة، ينتسبون إلى جدتهم العليا، وهي تجيب بنت ثوبان بن سليم بن مذحج وقال ابن الجواني: هي تجيب بنت ثوبان بن سليم بن رها بن منبه بن حريث بن جلد بن مذحج وهي أم عدي وسعد ابني أشرس بن شبيب بن السكون، قال ابن حزم: كل تجيبي سكوني ولا عكس. ومن تجيب كنانة بن بشر التجيبي قاتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهناك قبيلة أخرى اسمها تجوب منها عبد الرحمن بن ملجم قاتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فهو تجيبي من مراد ثم من حمير.

(١) نسبة إلى صدف ككتف قيل هو صدف بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل ابن الغوث بن حيدان بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير بن سبأ، وينسب إلى صدف خلق من الصحابة وغيرهم، نزلوا بمصر واختطوا بها، ومنهم يونس بن عبد الأعلى الصدفي صاحب الإمام الشافعي رضي الله عنه، وقد نزل من الصدف قوم بالأندلس ولهم قرية بغربي الأندلس تقدم ذكرها والنسبة إلى الصدف صدفي بالتحريك كراهة الكسرة قبل ياء النسب.

(٢) بطن من عك قال أبو عبيد كان منهم في الإسلام أمراء ورؤساء، ويوجد الغافق بالألف واللام وهم بطن من أنمار بن أراش، وجاء في نفح الطيب أن أكثر أهالي شقورة من الأندلس ينتسبون إلى غافق، وإلى غافق ينسب عبد الرحمن الغافقي أمير الأندلس الذي استشهد في وقعة بلاط الشهداء.

(٣) نسبة إلى حضرموت وهو ابن سبأ الأصغر، وسميت به مدينة حضرموت ويقال للعرب الذين من حضرموت حضارمة. وقد انتسب إلى هذه البلدة أعيان كثيرون من كل قطر، وأورد في تاج العروس من أسماء الحضرميين من فقهاء ومحدثين ما ملأ صحيفة كبيرة وابن خلدون إذا انتسب يقول عن نفسه الحضرمي.

(٤) قبيلة من كهلان، جاء في أنساب العرب لابن رسول من ملوك اليمن أن اسم لخم مالك بن عدي. قال: واختلف في لخم وجذام، فقال قوم: هم ابنا عدي بن عمرو بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وقال ابن إسحاق: وأكثر أهل النسب على أن لخم وجذام ابنا عدي بن عمرو بن الحارث بن مرة بن أدد بن زبد بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وقال ابن الكلبي: لخم وجذام ابنا عدي بن عمرو بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن يعرب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. قال ابن رسول: وكل هؤلاء قد أجمعوا أن لخماً وجذاماً في قحطان. وقد روي عن النبي ﷺ من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة بإسناد ليس بالقوي: الايمان يمان آل لخم وجذام، صلوات الله على لخم وجذام، يقاتلون الكفار على رؤوس الشعف، ينصرون الله ورسوله. وقالت فرقة: إن قنص بن معد بن عدنان هو أبو لخم، واحتجوا بحديث روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أتى بسيف النعمان بن المنذر ابن ماء السماء ملك الحيرة وعنده جبير بن مطعم، فقال له عمرو: يا جبير ممن كان النعمان بن المنذر؟ فقال: كان من أشلاء قنص بن معد بن عدنان يعني من بقايا قنص، انتهى. قلنا: في هذه الرواية شك، وإن صحت عن جبير بن مطعم فيكون خطأ منه، =

والجذامي[1]. والسلولي[2]. والحكمي[3]. والهمذاني[4]. . . . .

= لأن لخم وجذام هم من عرب اليمن، والقول بخلاف ذلك هو خرق للإجماع قال في سبائك الذهب: وقد كان للخميين ملك بالحيرة من العراق وإنه كان لبقايا لخم ملك باشبيلية من الأندلس، وهي دولة بني عباد: وقال القضاعي في خطط مصر أنهم حضروا فتح مصر واختطوا بها، وفي صعيد مصر بنو سماك وبنو سهل وبنو شنوءة وبنو عدي وبنو راشد وأفخاذ كثيرة من لخم ومنهم بنو عمم الذين ينسب إليهم ملوك الحيرة رهط النعمان بن المنذر واسم عمم الأصلي هو عدي، ولما كانت عائلة محرر هذه السطور تنتسب إلى المناذرة فقد راجعت سلسلة نسبهم إلى لخم في سجل النسب الأرسلاني المبدوء به سنة ١٤٢ للهجرة المتسلسل خلفاً عن سلف من ذلك التاريخ إلى الآن تحت تصديق القضاة والحكام والعلماء الأعلام فوجدته يقول: إن الملك المنذر الذي لقبته العرب بالمغرور هو ابن الملك النعمان أبي قابوس ابن الملك المنذر ابن الملك المنذر، وهو ابن ماء السماء مارية ابنة ربيعة التغلبي أخت كليب والمهلهل ابن الملك امرىء القيس ابن الملك النعمان الأعور ابن الملك امرىء القيس بن الأمير النعمان ابن الملك عمرو بن الملك امرىء القيس ابن الملك عمرو، وهو ابن أخت جذيمة الأبرش الذي زوجها من ابنه عدي حتى يملك على لخم، وعدي هو ابن نصر بن ربيعة بن المنذر بن تميم بن عمرو بن سعد بن ذميل بن الحارث بن زيد بن الحارث بن إياد بن نصر بن فهم بن عامر بن زهير بن مالك بن جزيلة ابن مالك. وهو لخم بن عدي بن عمرو بن عبد شمس، وهو سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان جد العرب العرباء والله أعلم.

(١) نسبة إلى جذام، وهي بضم الجيم وبالذال المعجمة، بطن من كهلان، ويقال إن جذام كان أخاً لخم، وهذه هي الرواية المشهورة، وإنك لتجد هذين القبيلين دائماً متلازمين. قال الجوهري: ويزعم نسابة مضر أن جذام من مضر وأنهم انتقلوا إلى اليمن فحسبوا من اليمن، ثم إن جذام هم في مقدمة العرب الذين فتحوا مصر مع عمرو بن العاص، ذكر السويدي في سبائك الذهب نقلاً عن الحمداني قال: وبالأسكندرية من جذام ولخم أقوام ذوو عدد وعدد، وأهل شجاعة وإقدام وضرب بالسيف ورشق بالسهام، ولهم أيام معلومة، وأخبار معروفة، ووقائع في البر والبحر مشهورة. ومن جذام ملوك بني هود أصحاب سرقسطة.

(٢) سلول فخذ من قيس بن هوازن، وفي الصحاح والعباب قبيلة من هوازن هم بنو مرة بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن، وسلول اسم أمهم، وهي ابنة ذهل بن شيبان بن ثعلبة، وفي سلول هؤلاء قيل:

وإنا أناس لا نرى القتل سبة ... إذا ما رأته عامر وسلول

(٣) نسبة إلى الحكم وهو مخلاف في اليمن نسب إلى الحكم بن سعد العشيرة من مذحج. قال الزبيدي في تاج العروس: ولبني الحكم بقية كثيرة باليمن منهم بنو مطير، وقال ابن الكلبي: إن الحكم بن يتبع ابن الهون بن خزيمة دخل في مذحج منهم رهط الجراح بن عبدالله الحكمي عامل خراسان.

(٤) نسبة إلى همدان بفتح فسكون، بطن من كهلان، واسم همدان هو أوسلة بن مالك بن زيد بن أوسلة ابن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ قال الزبيدي: والعقب من همدان في جشم بن خيران بن نوف بن همدان، والعقب من جشم في فخذين لصلبه بكيل وحاشد فمن بكيل في رومان وسوران وخيران، ومن حاشد في سبيع بن سبع بن صعب بن معاوية بن كثير بن مالك بن جشم بن =

والمذحجي(١). والخشني(٢). والبلوي(٣). والجهني(٤). والمزني(٥). والطائي(٦).

= حاشد ولهم بطون متسعة باليمن انتهى. وهم الذين نصروا علياً في حرب صفين حتى قال رضي الله عنه:

فلو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وإلى همدان ينسب الهمداني صاحب الإكليل وصفة جزيرة العرب، وكان علامة فيلسوفاً، وقد سمي بهمدان أحد حصون مملكة غرناطة والاسبانيول يقولون «هندين Alhendin» قلبوا الميم نونا ولفظوا الاسم بالإمالة كما سمعوا من العرب الأندلسيين.

(١) مذحج كمجلس هو مالك بن زبد بن كهلان بن سبأ، وقيل بل مذحج هو ابن يحابر بن مالك بن زيد ابن كهلان بن سبأ. قال الزبيدي: وهم شعب عظيم منه بطون وأفخاذ.

(٢) نسبة إلى خشين كزبير وهو جابر بن خشين بن عاصم بن لؤي في نسب فزارة وأيضاً هناك خشين بن النمر بن وبره بن تغلب بن حلوان في قضاعة. ومن هؤلاء جرثوم بن ناشر الخشني رضي الله عنه، ومنهم بشر بن حيان التابعي، ومنهم محمد بن عبد السلام الخشني أبو عبدالله صاحب كتاب القضاة في قرطبة وولده محمد بن محمد وأبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود الخشني الأندلسي النحوي المعروف بابن أبي الركب أخذ عنه الشريشي صاحب المقامات.

(٣) نسبة إلى بلي كرضيّ قبيلة معروفة وبلي هو ابن العمرو بن الحافي بن قضاعة والنسبة إلى بلي بلوي مثل علوي.

(٤) نسبة إلى جهينة بضم الجيم وفتح الهاء وسكون الياء المثناة وفتح النون بعدها حي من قضاعة يسكنون اليوم في سواحل الحجاز وعددهم كبير.

(٥) نسبة إلى مزينة كجهنة قبيلة من مضر. وهو ابن أد بن طابخة وهم رهط ابن أبي سلمى الشاعر صاحب المعلقة. وهم يسكنون اليوم حول المدينة المنورة.

(٦) نسبة إلى طيء بفتح الطاء وتشديد الياء وهمزة في الآخر قبيلة من كهلان كانت منازلهم باليمن فخرجوا على أثر خروج الأزد منها، وانتهى أمرهم بالاستيلاء على جبلي أجأ وسلمى الذين يعرفان الآن بجبلي طيء، قال السويدي في سبائك الذهب: وافترقوا في أول الإسلام في الفتوحات قال ابن سعيد: هم الآن أمم كثيرة تملأ السهل والجبل حجازاً وشاماً وعراقاً قال: وهم أصحاب الرئاسة في العرب إلى الآن في العراق والشام ومن بني طيء بنو نبهان، وبنو ثعل المشهورون بالإجادة في الرمي، وبنو جرم الذين أعقابهم في بلاد غزة، وبنو بولان بفتح أوله وسكون الثاني، ومنهم الثلاثة الذين يقال إنهم وضعوا الخط العربي. وكان منهم بنو الجراح أيام الفاطميين، وكانت لهم رئاسة على طيء ثم صارت الآن لآل عيسى بن مهنا. ومنهم بنو سنبس طائفة ببطايح العراق، وطائفة بدمياط من الديار المصرية، ومنهم بنو لام في العراق ومنهم بنو تيم الذين كان يقال لهم مصابيح الظلام، وهم الذين مدحهم امرؤ القيس. ومنهم بنو صخر في بلاد البلقاء. ومنهم آل فضل من ربيعة طيء ولهم رئاسة وإمارة، ومنهم بطون وأفخاذ لا يحصيها إلا خالقها كما أن الأعيان والأعلام المنسوبين إلى بني طيء لا يحصى عددهم. ومنهم حاتم الطائي الذي ضرب به المثل في الكرم، وأبو تمام الطائي والبحتري كلاهما أشعر شعراء المولدين. ومنهم محيي الدين بن عربي المتصوف الشهير ومنهم ابن مالك النحوي الجياني الأندلسي.

الأسدي[(١)]. والأشجعي[(٢)]. والعاملي[(٣)]. والخولاني[(٤)]. والأيادي[(٥)]. والليثي[(٦)]. والخثعمي[(٧)]. والسكسكي[(٨)]. والزبيدي[(٩)].

(١) نسبة إلى أسد وهو أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر، وكذلك أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان وهي قبيلة أخرى.

(٢) نسبة إلى أشجع وهم حي من غطفان كانوا عرب المدينة، وكان سيدهم معقل بن سنان. قال في العبر: إن منهم بالمغرب الأقصى حياً عظيماً في جهات سجلماسة.

(٣) نسبة إلى عاملة وهم حي باليمن من ولد الحارث بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ نسبوا إلى أمهم عاملة بنت مالك بن وديعة بن قضاعة، أم الزاهر، ومعاوية بن الحارث بن عدي نفسه، ومنهم عدي بن الرقاع الشاعر قال الجوهري: ويزعم نساب مضر أنهم من ولد قاسط قال الأعشى:

أعامل حتى متى تذهبين … إلى غير والدك الأكرم
ووالدكم قاسط فارجعوا … إلى النسب الفاخر الأقدم

قال في تاج العروس: وشذ ابن الأثير حيث جعل عاملة من العمالقة اهـ. وجاء في سبائك الذهب نقلاً عن أبي عبيد أن بني عاملة هم بنو الحارث بن مالك يعني ابن الحارث بن مرة بن أدد وأنه كان تحته عاملة بنت مالك بن وديعة بن عُفير بن عدي قال الحمداني: وجبل عاملة من بلاد الشام وقيل إن هذه القبيلة من اليمن نزلت به فقيل له عاملة وقد يحذفون التاء فيقال جبل عامل وهو الواقع بين صيدا وصور من الشمال إلى الجنوب وبين البحر المتوسط وغور الحولة من الغرب إلى الشرق.

(٤) نسبة إلى خولان بطن من كهلان وبلاد خولان في اليمن من شرقيه وقد افترقوا في الفتوحات ومنهم بنو سعد وبنو بكر وبنو قيس وبنو الأصهب وبنو حبيب وبنو عمرو ومما أتذكره أنني رأيت في الجبل الأخضر من برقة مكاناً إلى الجنوب منه يقال له خولان.

(٥) نسبة إلى أياد وهم حي من معد إلا أنهم يسكنون اليمن قال ابن دريد: هما إيادان إياد بني نذار وإياد ابن سود بن الحجر بن عمار بن عمرو.

(٦) نسبة إلى ليث وهو ليث بن بكر بن عبد مناف بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر وفي التهذيب بنو ليث حي من كنانة.

(٧) بنو خثعم بطن من أنمار بن أراش قال في العبر: بلاد خثعم مع إخوتهم بجيلة بسروات اليمن والحجاز. وقال السلطان ابن رسول في كتابه أنساب العرب: واختلف في خثعم وبجيلة فأكثر أهل النسب يقولون إنهما أبناء أنمار بن نزار بن معد بن عدنان وأنهما لحقا باليمن وانتسبا عن جهل منهما إلى أنمار بن أراش بن العمرو بن غوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ.

(٨) نسبة إلى سكاسك حي باليمن وهما قبيلتان الأولى من كندة وهو كندة بن عفير بن عدي بن الحارث ابن مرة بن أدد بن زيد وولد لكندة أشرس وولد لاشرس سكسك ويقال له حميس وهو أخو السكون وحاشد ومالك بني أشرس. والقبيلة الثانية هم بنو زيد بن وائلة بن حمير وزيد هذا كان يلقب بالسكاسك.

(٩) نسبة إلى زبيد كزبير وهم بطن من مذحج وهو منبه الأكبر بن صعب بن سعد العشيرة بن مالك وهو جماع مذحج وزبيد الأصغر هو منبه بن ربيعة بن سلمة بن مازن بن ربيعة بن زبيد الأكبر قال ابن دريد: زبيد تصغير زبد وهو العطية. وينسب إلى زبيد عمرو بن معدي كرب الصحابي الفارس =

والثعلبي[١]. والكلاعي[٢]. والدوسي[٣]. والحواري[٤]. والسلماني[٥].

هذا ويرد كثير من شهادتهم، ويقل من ذلك السلمي نسباً والدوسي والحواري والزبيدي، ويكثر فيهم كالأنصاري والحميدي[٦] والجذامي والقيسي والغساني. وكفى بهذا شاهداً على الأصالة ودليلاً على العروبة.

وجندهم صنفان: اندلسي، وبربري. والأندلسي منهم يقودهم رئيس من القرابة وحصيّ[٧] من شيوخ الممالك، وزيّهم في القديم يشبه زيّ أقيالهم وأضدادهم من جيرانهم الفرنج: أسباغ الدروع، وتعليق الترسة، وجفاء البيضات، واتخاذ عراض الأسنة، وبشاعة قرابيس السروج، واستركاب حملة الرايات خلفه، كل منهم بصفة تختص بسلاحه، وشهرة

= المشهور أسلم سنة تسع وشهد الفتوح واستشهد بالقادسية وقيل بنهاوند رضي الله عنه والقاضي أبو الهذيل محمد بن الوليد بن عامر الزبيدي ومحمد بن الحسين الزبيدي الأندلسي صاحب القالي ومحمد بن عبيدالله بن مذحج بن محمد بن عبدالله بن بشر الزبيدي الأشبيلي اللغوي نزيل قرطبة.

(١) نسبة إلى ثعلب ويوجد في العرب قبائل شتى باسم ثعلبة. فثعلبة في أسد. وثعلبة في تميم. وثعلبة في ربيعة. وثعلبة في قيس، وثعلبتان في طيء وهما ثعلبة بن جذعاء بن ذهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن قطرة بن طي وثعلبة بن رومان بن جندب المذكور قال الزبيدي: وقرأت في أنساب أبي عبيد: الثعالب في طي يقال لهم مصابيح الظلام كالربائع في تميم. ويوجد بطن اسمه ثعلَبة في غطفان.

(٢) نسبة إلى ذي الكلاع وهما من اليمن أحدهما الأكبر. وهو يزيد بن النعمان الحميري من ولد شهال بن وحاضة بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن زرعة بن سبأ الأصغر وذو الكلاع الأصغر هو أبو شراحيل سميفع بن ناكور بن عمرو بن يعفر بن ذي الكلاع الأكبر.

(٣) الدوس بن عدثان بن عبدالله وأخطأ بعضهم فظن أنه عدنان بالنقطة الموحدة والحال أنه بالثاء المثلثة وهم قبيلة من الأزد قال ابن الجواني النسابة: هو دوس بن عدثان بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبدالله بن أزد منهم أبو هريرة الدوسي الصحابي المشهور، ودوس أيضاً قبيلة من قيس وهم بنو قيس بن عدوان بن عمرو بن قيس عيلان.

(٤) لم نجد في ما قرأناه إلى الآن قبيلة لها هذه النسبة وإنما ورد في تاج العروس: وحوار كغراب صقع بهجر، وكذلك بلد الحيرة بقرب الكوفة النسبة إليها حيرى وحارى وقد تكون هذه اللفظة من جملة الألفاظ التي حرفها النساخ فأصبح لا يعرف أصلها.

(٥) نسبة إلى سلمان بطن من مراد وهو سلمان بن يشكر بن ناجية بن مراد قال الرشاطي: وأهل الحديث يفتحون اللام. منهم عبيدة بن عمرو وقيل :ابن قيس الكوفي السلماني أسلم في حياة النبي عليه السلام ولم يره وروى عن علي وابن مسعود. وإلى هذه القبيلة ينسب الوزير العلامة لسان الدين بن الخطيب الذي ننقل كلامه الآن. ويوجد بطن من جذام اسمهم السلمان بالألف واللام.

(٦) لعله يريد الحميدات وهم من بني أسد بني عزي ينسبون إلى حميد بن زهير بن الحرث بن راشد كما في التوشيح قاله الزبيدي في تاج العروس.

(٧) الحصى بالحاء المهملة المعروف بالعقل.

يعرف بها. ثم عدلوا الآن عن هذا الذي ذكرنا إلى الجواشن المختصرة، والبيض المرهفة، والدرق العربية، والسهام اللَّمَطيّة[1]، والأسل العطفية.

والبـربري يرجع إلى قبائله المرينية، والزناتية، والنجانية، والمغراوية، والعجيسية والعرَب المغربية، إلى أقطاب ورؤوس يرجع أمرهم إلى رئيس على رؤوسائهم، وقطب لعرفائهم، من كبار القبائل المرينية، يمت إلى ملك المغرب بنسب. والعمائم تقل في زي هذه الحضرة، إلاّ ما شذَّ في شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم والجند العربي منهم. وسلاح جموعهم العصي الطويلة المثناة بعصي صغار ذوات عرى في أوساطها، ترفع بالأنامل عند قذفها، تسمى «بالأمداس» وقسي الأفرنجة يحملون على التدريب بها على الأيام. والمواسم متوسطة، وأعيادهم حسنة مائلة إلى الاقتصاد، والغنى بمدينتهم فاش، حتى في الدكاكين التي تجمع صنائعها كثيراً من الأحداث كالخفافين ومثلهم. وقوتهم الغالب البُرّ الطيّب عامة العام، وربما اقتات في فصل الشتاء الضعَفة والبوادي والفعَلة في الفلاحة الذرة العربية، ومثل أصناف القطاني الطيبة

وفواكههم اليابسة عامة العام متعددة، يدّخرون العنب سليماً من الفساد إلى شطر العام، إلى غير ذلك من التين، والزبيب، والتفاح، والرمان، والقسطل[2]، والبلوط، والجوز، واللوز، إلى غير ذلك مما لا ينفد ولا ينقطع، إلا مدة في الفصل الذي يزهد في استعماله.

وصرفهم فضة خالصة، وذهب ابريز طيب محفوظ، ودرهم مربع الشكل من وزن المهدي القائم بدولة الموحدين، في الأوقية منه سبعون درهماً، يختلف الكتب فيه: فعلى عهدنا في شِق: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وفي شِق آخر: «لا غالب إلا الله» غرناطة. ونصف، وهو القيراط، في شق: «الحمد لله رب العالمين» وفي شق: «وما النصر إلا من عندالله» ونصفه، وهو الربع، في شِق: «هدى الله هو الهدى» وفي شِق: «العاقبة للتقوى».

ودينارهم في الأوقية منه ستة دنانير وثلثا دينار، وفي الدينار الواحد ثُمن أوقية وخُمس ثُمن أوقية، وفي شِق منه: «قل اللّهُمّ مالكَ المُلك (إلى) بيدِك الخير» ويستدير به قوله تعالى: ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ وفي شِق: «الأمير عبدالله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن نصر أيّد الله

---

(١) نسبة إلى قبيلة من البربر اسمها اللمط معروفة بنوع من الدرق إلى النهاية في المتانة ولكن الموصوف هنا هو السهام.

(٢) هو ما يقال له الكستنا.

أمره» ويستدير به: «لا غالب إلا الله» ولتاريخ تمام هذا الكتاب في وجه: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصْبِروا وصابِروا ورابطوا واتّقُوا اللهَ لعلَّكم تفلحون﴾ ويستدير به: «لا غالب إلا الله» وفي وجه: «الأمير عبد الله الغني بالله محمد بن يوسف بن إسماعيل بن نصر أيّده الله وأعانه» ويستدير بربع: «بمدينة غرناطة حرسها الله».

وعادة أهل هذه المدينة الانتقال إلى حلل العصير، أوان إدراكه بما تشتمل عليه دورهم، والبروز إلى الفحوص بأولادهم وعيالهم، معوّلين في ذلك على شهامتهم. وأسلحتهم على أكتاد دوابهم، واتصال أمصارهم بحدود أرضهم، وحليهم في القلائد والدمالج والشنوف والخلاخل الذهب الخالص إلى هذا العهد في أولى الجدة، واللجين في كثير من آلة الراجلين فيمن عداهم، والأحجار النفيسة من الياقوت والزبرجد والزمرد، ونفيس الجوهر كثير ممن ترتفع طبقاتهم المستندة إلى ظل دولة، أو أصالة معروفة موفّرة.

وحريمهم حريم جميل موصوف بالحسن وتنعم الجسوم، واسترسال الشعور، ونقاء الثغور، وطيب النَّشر، وخفة الحركات، ونبل الكلام، وحسن المحاورة، إلا أن الطول يندر فيهن. وقد يبلغن من التفنن في الزينة لهذا العهد، والمظاهرة بين المصبّغات، والتنافس بالذهبيات والديباجيات، والتماجن في أشكال الحلي إلى غاية، نسأل الله أن يغض عنهن فيها عين الدهر، ويكف كف الخطب، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة، وأن يعامل جميع من بها بستره، ولا يسلبهم خفى لطفه بعزته وقدرته. انتهى. قلت: كيف لو عاش ابن الخطيب في عصرنا هذا! فماذا كان يقول يا ليت شعري!؟ ولله الأمر من قبل ومن بعد!.

ما ذكره المقري في النفح عن أنساب عرب الأندلس

قال: إنه لما استقر قدم أهل الإسلام في الأندلس، وتنامّ فتحها، صرف أهل الشام وغيرهم من العرب هممهم إلى الحلول بها، فنزل بها من جراثيم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم، إلى أن كان من أمرهم ما كان. فأما العدنانيون فمنهم خندف ومنهم قريش. وأما بنو هاشم من قريش فقال ابن غالب في فرحة الأنفس: بالأندلس منهم جماعة كلهم من ولد إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب. ومن هؤلاء بنو حمّود ملوك الأندلس بعد انتثار ملك بني أمية. وأما بنو أمية فمنهم خلفاء الأندلس. قال ابن سعيد: ويعرفون هنالك إلى الآن بالقرشيين، وربما عموا نسبهم إلى أمية في الآخر، لما انحرف الناس عنهم، وذكروا أفعالهم في الحسين رضي الله عنه. وأما بنو زهرة فمنهم باشبيلية أعيان متميّزون وأما المخزوميون فمنهم أبو بكر المخزومي الأعمى الشاعر

المشهور من أهل حصن المدور. ومنهم الوزير الفاضل في النظم والنثر أبو بكر بن زيدون، ووالده الذي هو أعظم منه، أبو الوليد بن زيدون وزير معتضد بني عباد.

قال ابن غالب: وفي الأندلس من ينسب إلى جمح، وإلى بني عبد الدار، وكثير من قريش المعروفين بالفهريين من بني محارب بن فهر، وهم من قريش الظواهر، ومنهم عبد الملك بن قطَنَ سلطان الأندلس. ومن ولده بنو القاسم الأمراء الفضلاء، وبنو الجد[1] الأعيان العلماء. ومن بني محارب بن فهر، يوسف بن عبد الرحمن الفهري، سلطان الأندلس، الذي غلبه عليها عبد الرحمن الأموي الداخل وجدّ يوسف عقبة بن نافع الفهري، صاحب الفتوح بأفريقية. قال ابن حزم: ولهم بالأندلس عدد وثروة.

وأما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير، وجلهم في طُلَيْطُلة وأعمالها، ولهم ينسب الوشقيون الكنانيون الأعيان الفضلاء، الذين منهم القاضي أبو الوليد، والوزير أبو جعفر، ومنهم أبو الحسين بن جبير العالم صاحب الرحلة، وقد ذكرناه في محله.

وأما هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر فذكر ابن غالب أن منزلهم بجهة أريولة من كورة تدمير. وأما تميم بن مرة بن أُدّ بن طابخة بن الياس بن مضر فذكر ابن غالب أيضاً أنهم خلق كثير بالأندلس، ومنهم أبو الطاهر صاحب المقامات اللزومية. وأما ضبة بن أُدّ ابن طابخة فذكر أنهم قليلون بالأندلس. فهؤلاء خندف من العدنانية.

وأما قيس عيلان بن الياس بن مضر من العدنانية ففي الأندلس كثير منهم ينتسبون إلى العموم، ومنهم من ينتسب إلى سليم بن عكرمة بن خصفة بن قيس، كعبد الملك بن حبيب السلمي الفقيه، صاحب الإمام مالك رضي الله عنه وكالقاضي أبي حفص بن عمر قاضي قرطبة. ومن قيس من ينتسب إلى هوازن بن منصور بن عكرمة. قال ابن غالب: وهم بأشبيلية خلق كثير، ومنهم من ينتسب إلى بكر بن هوازن قال ابن غالب: ولهم منزل بجوفي بلنسية، على ثلاثة أميال منها وبأشبيلية وغيرها منهم خلق كثير، ومنهم بنو حزم، وهم بيت غير البيت الذي منه أبو محمد بن حزم الحافظ الظاهري، وهو فارسي الأصل[2] ومنهم من ينتسب إلى سعد بن بكر بن هوازن. وذكر ابن غالب أن منهم بغرناطة كثيراً كبني جودي وقد رأس بعض بني جودى. ومنهم من ينتسب إلى سلول، امرأة نسب إليها بنوها وأبوهم مرة بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن. ومنهم من ينتسب إلى كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن. ومنهم من ينتسب إلى نمير بن

---

(١) لمولاي سليمان سلطان المغرب تأليف خاص في نسب بني الجد الذين يقال لهم اليوم بنو الفاسي.

(٢) الافرنج مجموعون على أنه من أصل اسبانيولي.

عامر بن صعصعة. قال ابن غالب: وهم بغرناطة كثير ومنهم من ينتسب إلى قشير بن كعب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة. ومنهم بلج بن بشر صاحب الأندلس وآله وبنو رشيق. ومنهم من ينتسب إلى فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان. ومنهم من ينتسب إلى أشجع بن ريث بن غطفان. ومن هؤلاء محمد بن عبد الله الأشجعي سلطان الأندلس.

وفي ثقيف اختلاف: فمنهم من قال إنها قيسية، وإن ثقيفاً هو قيس بن منبه بن بكر بن هوازن، ومنهم بالأندلس جماعة، وإليهم ينتسب الحر بن عبد الرحمن الثقفي صاحب الأندلس وقيل إنها من بقايا ثمود. انتهى قيس بن عيلان وجميع مضر.

وأما ربيعة بن نزار فمنهم من ينتسب إلى أسد بن ربيعة بن نزار. قال في فرحة الأنفس: إن اقليم هؤلاء مشهور باسمهم، بجوفيّ مدينة وادي آش. انتهى. والأشهر بالنسبة إلى أسد أبداً بنو أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر، ومنهم من ينتسب إلى محارب بن عمرو بن وديعة بن بكير بن افصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة. قال ابن غالب في فرحة الأنفس: ومنهم بنو عطية أعيان غرناطة. ومنهم من ينتسب إلى النمر ابن قاسط بن هنب بن افصى بن دعمي بن جديلة بن أسد كبني عبد البر الذين منهم الحافظ أبو عمر بن عبد البر، ومنهم من ينتسب إلى تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب، كبني حمديس أعيان قرطبة، ومنهم من ينتسب إلى بكر بن وائل كالبكريين أصحاب أونبة وشلطيش، الذين منهم أبو عبيد البكري صاحب التصانيف. انتهت ربيعة.

وأما إياد بن نزار، وقد يقال إنه ابن معدّ، والصحيح الأول، فينتسب إليهم بنو زهرة المشهورون بإشبيلية وغيرهم. انتهت العدنانية. وهم الصريح من ولد إسماعيل عليه السلام.

واختلف في القحطانية، هل هم من ولد إسماعيل؟ أو من ولد هود؟ على ما هو معروف، وظاهر صنيع البخاري الأول، والأكثر على خلافه. والقحطانية هم المعروفون باليمانية، وكثيراً ما يقع بينهم وبين المضرية وسائر العدنانية الحروب بالأندلس، كما كان يقع بالمشرق، وهم الأكثر بالأندلس، والملك فيهم أرسخ، إلا ما كان من خلفاء بني أمية، فإن القرشية قدمتهم على الفرقتين، واسم الخلافة لهم بالمشرق. وكان عرب الأندلس يتميزون بالعمائر والقبائل والبطون والأفخاذ، إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر الداهية الذي ملك سلطنة الأندلس، وقصد بذلك تشتيتهم، وقطع التحامهم وتعصبهم في الاعتزاء، وقدّم القواد على الأجناد، فيكون في جند القائد الواحد فِرق من كل قبيل، فانحسمت مادة الفتن والاعتزاء بالأندلس، إلا ما جاءت على غير هذه الجهة.

قال ابن حزم: جماع أنساب اليمن من جرم بن كهلان، وحِمير بن يشجُب بن يَعْرُب ابن قحطان بن عابر بن شالخ بن ارْفَخْشذ بن سام بن نوح، وقيل قحطان بن الهَيَمْسَع بن تيهان بن نابت بن إسماعيل، وقيل قحطان بن هود بن عبد الله بن رباح بن جارف بن عاد بن عَوْص بن إرَم بن سام. والخلف في ذلك مشهور، فمنهم كهلان بن سبا بن يشجُب بن يعرب بن قحطان، ومنهم الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان، واليهم ينتسب محمد بن هانىء الشاعر المشهور الالبيري، وهو من بني المهلّب. ومن الأزد من ينتسب إلى غسّان، وهم بنو مازن بن الأزد، وغسّان ماء شربوا منه. وذكر ابن غالب أن منهم بني القسيعي من أعيان غرناطة، وكثير منهم بصالحة، قرية على طريق مالقة، ومن الأزد من ينتسب إلى الأنصار على العموم، وهم الجم الغفير بالأندلس.

قال ابن سعيد: والعجب أنك تعدم هذا النسب بالمدينة، وتجد منه بالأندلس في أكثر بلدانها ما يشذ عن العدد كثرة. ولقد أخبرني من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد منه إلاّ شيخاً من الخزرج، وعجوزاً من الأوس. قال ابن غالب: وكان جزء الأنصار بناحية طليطلة، وهم أكثر القبائل في شرقها ومغربها انتهى. ومن الخزرج بالأندلس أبو بكر عبادة ابن عبد الله ابن ماء السماء، ومن ولد سعد بن عبادة، صاحب رسول الله ﷺ، وهو المشهور بالموشحات. وإلى قيس بن سعد بن عبادة ينتسب بنو الأحمر سلاطين غرناطة، الذين كان لسان الدين بن الخطيب أحد وزرائهم، وعليهم انقرض ملك الأندلس من المسلمين، واستولى العدو على الجزيرة جميعاً كما يذكر. ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى الأوس أخي الخزرج، ومنهم من ينتسب إلى غافق بن عك بن عديان بن أزان بن الأزد. وقد يقال عك بن عدنان بالنون. فيكون أخا معدّ بن عدنان وليس بصحيح.

قال ابن غالب: من غافق: أبو عبد الله بن أبي الخصال الكاتب، وأكثر جهات شقورة ينتسبون إلى غافق. ومن كهلان من ينتسب إلى همدان، وهو أوسلة بن مالك بن زيد بن أوسلة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان، ومنزل همدان[1] مشهور، على ستة أميال من غرناطة. ومنهم أصحاب غرناطة بنو أضحى. ومن كهلان من ينتسب إلى مَذْحِج. ومَذْحِج اسم أكمَة حمراء باليمن، وقيل اسم أم مالك وطىء بن أدَد بن زيد بن كهلان. قال ابن غالب: بنو سراج الأعيان من أهل قرطبة ينتسبون إلى مَذْحِج. ومنزل طىء بقبليّ مرسية. ومنهم من ينتسب إلى مراد بن مالك بن أُدَد. وحصن مراد بين أشبيلية وقرطبة مشهور. قال ابن غالب: وأعرف بمراد منهم خلقاً كثيراً. ومنهم من ينتسب إلى عنس بن مالك بن أدَد

(١) الاسبان يسمون هذا المكان «هندين» Hendin لأنهم قلبوا الميم نوناً ثم لفظوا الألف بالإمالة فصارت كالياء.

ومنهم بنو سعيد مصنفو كتاب المُغْرب. وقلعة بني سعيد مشهورة في مملكة غرناطة. ومن مَذْحِج من ينتسب إلى زُبَيْد قال ابن غالب: وهو منبه بن سعد العشيرة بن مالك بن أدد. ومن كهلان من ينتسب إلى مرة بن ادد بن زيد بن كهلان. قال ابن غالب: منهم بنو المنتصر العلماء من أهل غرناطة. ومنهم من ينتسب إلى عاملة. وهي امرأة من قضاعة، ولدت للحرث بن عَدِيّ بن الحرث مرة بن أدد فنسب ولدها منه إليها. قال ابن غالب: منهم بنو سماك القضاة من أهل غرناطة. وقوم زعموا أن عاملة هو ابن سبأ بن يشجُب بن يعرُب بن قحطان، وقيل هم من قضاعة.

ومن كهلان خولان بن عمرو بن الحرث بن مُرّة. وقلعة خولان مشهورة بين الجزيره الخضراء وأشبيلية. ومنهم بنو عبد السلام أعيان غرناطة. ومنهم من ينتسب إلي المعافرين يعفر بن مالك بن الحرث بن مرة، منهم المنصور بن أبي عامر صاحب الأندلس. ومنهم من ينتسب إلى لخم بن عدي بن الحرث بن مرّة. منهم بنو عباد أصحاب أشبيلية وغيرها. وهم من ولد النعمان بن المنذر صاحب الحيرة. ومنهم بنو الباجي أعيان أشبيلية، وبنو وافد الأعيان. ومنهم من ينتسب إلى جذام، مثل ثوابة بن سلامة صاحب الأندلس، وبني هود ملوك شرق الأندلس. ومنهم المتوكل بن هود الذي صحت له سلطنة الأندلس بعد الموحدين. ومنهم بنو مردنيش أصحاب شرق الأندلس. قال ابن غالب: وكان لجذام جزء من قلعة رباح، واسم جذام عامر، واسم لخم مالك، وهما ابنا عدي.

ومن كهلان من ينتسب إلى كندة، وهو ثور بن عفير بن عدي بن مرّة بن أُدَد، ومنهم يوسف بن هرون الرمادي الشاعر. ومنهم من ينتسب إلى تُجيب، وهي امرأة أشرس بن السّكون بن أشرس بن كندة. ومن كهلان من ينتسب إلى خَثْعَم بن أنمار بن أراش بن عمرو ابن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان ومنهم عثمان بن أبي نسعة[1] سلطان الأندلس. وقد قيل انمار بن نزار بن معد بن عدنان. انتهت كهلان.

وأما حمير بن سبا بن يشجُب بن يعرب بن قحطان فمنهم من ينتسب إلى ذي رُعَين. قال ابن غالب: وذو رُعَين هم ولد عمرو بن حِمْير في بعض الأقوال، وقيل هو من ولد سهل بن عمرو بن قيس بن معارية بن جُشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قَطَن بن عَريب بن زُهَير بن أيمَن بن الهَمَيْسَع بن حمير. قال: ومنهم أبو عبد الله الحناط الأعمى الشاعر. قال الحازمي في كتاب النسب: واسم ذي رُعين عَريم بن زيد بن سهل. ووَصَل

---

(١) أكثر الافرنج يجعلون عثمان بن أبي نسعة هذا الذي تزوج بابنة الكونت اود ملك غاليا بربرياً ولم نعلم سندهم في ذلك.

النسب. ومنهم من ينتسب إلى ذي أَصْبَح. قال ابن حزم: هو ذو أَصْبَح بن مالك بن زيد من ولد سبا الأصغر ابن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس، ووَصَل النسب. وذكر الحازمي أن ذا أصبح من كهلان. واخبر أن منهم مالكَ بنَ أنس الإمام، والمشهور أنهم من حمير. والأصبحيون من أعيان قرطبة. ومنهم من ينتسب إلى يحصب قال ابن حزم: إنه أخوذي أصبح، وهم كثير بقلعة بني سعيد، وقد تُعْرف من أجلهم في التواريخ الأندلسية بقلعة يحصب. ومنهم من ينتسب إلى هوازن بن عوف بن عبد شمس بن وائل بن الغوث. قال ابن غالب: ومنزلهم بشرق أشبيلية والهوازنيون من أعيان أشبيلية. ومنهم من ينتسب إلى قُضَاعة بن مالك بن حمير، وقد قيل إنه قضاعة بن معدّ بن عدنان، وليس بمُرض.

ومن قضاعة من ينتسب إلى مهرة، كالوزير أبي بكر بن عمار، الذي وثب على ملك مرسية[١]، وهو مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة. ومنهم من ينتسب إلى خشين بن تنوخ، قال ابن غالب: وهو ابن مالك بن فهم بن نمر بن وبرة بن تغلب. قال الحازمي: تنوخ هو مالك بن فهر بن فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة. ومنهم من ينتسب إلى بَلِيّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة. ومنهم البلويون الأشبيلية. ومنهم من ينتسب إلى جهينة بن أسود بن أسلم بن عمرو بن الحاف بن قضاعة. قال ابن غالب: وبقرطبة منهم جماعة. ومنهم من ينتسب إلى كلب بن وبرة بن تغلب بن جلوان، كبني أبي عبدة الذين منهم بنو جهور ملوك قرطبة ووزراؤها. ومنهم من ينتسب إلى عذرة بن سعد هذيم بن زيد ابن أسود بن أسلم بن عمرو بن الحاف بن قضاعة. ومنهم أعيان الجزيرة الخضراء بنو عذرة.

ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى حضرموت منهم الحضرميون بمرسية وغرناطة وأشبيلية[٢] وبطليوس وقرطبة. قال ابن غالب: وهم كثير بالأندلس، وفيه خلاف، قيل: إن حضرموت هو ابن قحطان، وقيل هو حضرموت بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس ابن وائل بن الغوث بن جيدان بالجيم بن قَطَن بن العريب بن الغرز بن نبت بن أيمن بن الهيسع بن حمير. كذا نسق النسب الحازمي ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى سلامان، ومنهم الوزير لسان الدين بن الخطيب حسبما ذكر في محله.

وقد رأيت أن أسرد هنا أسماء ملوك الأندلس من لدن الفتح إلى آخر ملوك بني أمية، وإن تقدم، ويأتي ذكر جملة منهم بما هو أتمّ مما هنا فنقول: طارق بن زياد مولى موسى

---

(١) وهو الذي قتله المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية لهجوه أياه هجواً مقذعاً.

(٢) ابن خلدون صاحب التاريخ هو من حضارمة اشبيلية ولا تزال في أسبانيا وثائق خطية تثبت أملاك بني خلدون في ذلك الصقع.

بن نصير، ثم الأمير موسى بن نصير، وكلاهما لم يتخذ سرير السلطنة ثم عبد العزيز بن موسى بن نصير، وسريره أشبيلية، ثم أيوب بن حبيب اللخمي وسريره قرطبة. وكل من يأتي بعده فسريره قرطبة، والزهراء والزاهرة بجانبيها، إلى أن انقضت دولة بني مروان، على ما ينبه عليه، ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفي، ثم السّمْح بن مالك الخولاني، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، ثم عنبسة بن سحيم الكلبي، ثم عذرة بن عبد الله الفهري، ثم يحيى بن سلمة الكلبي، ثم عثمان بن أبي نسعة الخثعمي، ثم حذيفة بن الأحوص القيسي، ثم الهيثم بن عبيد الكلابي ثم محمد بن عبد الله الأشجعي، ثم عبد الملك بن قَطَن الفهري، ثم بلج، ثم بشر بن عياض القشيري، ثم ثعلبة بن سلامة العامليّ، ثم أبو الخطار بن ضرار الكلبي، ثم ثوابة بن سلامة الجذامي، ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهري. وههنا انتهى الولاة الذين ملكوا الأندلس من غير موارثة، افراداً، عددهم عشرون، فيما ذكر ابن سعيد، ولم يتعدوا في السمة لفظ الأمير قال ابن حيان: مدتُهم، منذ تاريخ الفتح من لذريق سلطان الأندلس النصراني، وهو يوم الأحد لخمس خلون من شوال سنة اثنتين وتسعين إلى يوم الهزيمة على يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وتغلب عبد الرحمن بن معاوية المرواني على سرير الملك بقرطبة، وهو يوم الأضحى لعشر خلون من ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائة ـ ست وأربعون وخمسة أيام اهـ.

ثم كانت دولة بني أمية، أولهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ثم ابنه هشام الرضى. ثم ابنه الحكم بن هشام. ثم ابنه عبد الرحمن الأوسط. ثم ابنه محمد بن عبد الرحمن. ثم ابنه المنذر بن محمد. ثم أخوه عبد الله بن محمد. ثم ابن عمه عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله. ثم ابنه الحكم المستنصر، وكرسيهما الزهراء. ثم هشام بن الحكم. وفي أيامه بنى حاجبه المنصور بن أبي عامر الزاهرة. ثم المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر. وهو أول خلفاء الفتنة، وهدمت في أيامه الزهراء والزاهرة، وعاد السرير إلى قرطبة. ثم المستعين سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر، ثم تخللت دولة بني حمود العلويين، وأولهم الناصر علي بن حمود العلوي الادريسي. ثم أخوه المأمون القاسم بن حمود. ثم كانت دولة بني أمية الثانية وأولها المستظهر عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر. ثم المستكفي محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله. ثم المعتمد هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر، وهو آخر خلفاء الجماعة بالأندلس. وحين خلع أسقط ملوك الأندلس الدعوة للخلافة المروانية، واستبدت ملوك الطوائف كابن جهور في قرطبة، وابن عبّاد بأشبيلية، وغيرهما، ولم يعد نظام الأندلس إلى شخص واحد إلى أن ملكها يوسف بن تاشفين الملثم من بر العدوة،

وفتك بملوك الطوائف، وبعد ذلك ما خلصت له ولا لولده على ابن يوسف، لأن بني هود نازعوه في شرقها بالثغر، إلى أن جاءت دولة عبد المؤمن وبنيه. فما صفَت لعبد المؤمن بمحمد بن مردنيش الذي كان ينازعه في شرق الأندلس ثم صفت ليوسف بن عبد الرحمن بموت ابن مردنيش، ثم لمن بعده من بنيه، وحضرتهم مراكش. وكانت ولاتهم تتردد على الأندلس وممالكها، ولم يولّوا على جميعها شخصاً واحداً لعظم ممالكها، إلى أن انقرضت منها دولتهم بالمتوكل محمد بن هود من بني هود، ملوك سرقسطة، وجهاتها، فملك معظم الأندلس بحيث يطلق عليه اسم السلطان، ولم ينازعه فيها إلا زيان بن مردنيش في بلنسية من شرق الأندلس، وابن هلالة في طبيرة من غرب الأندلس. ثم كثرت عليه الخوارج قريب موته ولما قتله وزيره ابن الرميمي بالمرية زاد الأمر إلى أن ملك بنو الأحمر. وكان عرب أهل الأندلس في المائة السابعة يخطبون لصاحب أفريقية السلطان أبي زكريا يحيى بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص. ثم تقلصت تلك الظلال، ودخل الجزيرة الانحلال، إلى أن استولى عليها حزب الضلال. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

نظرة إجمالية

إن اسبانية والبرتغال ليستا على وجه الإجمال معروفتين حق المعرفة عند الناس ومهما اتسعت المعلومات عنهما فالناس تعلم عن أكثر البلدان الأوروبية ما لا تعلمه عنهما، لأن الممالك المعدودة كأنموذجات للمدنية الحاضرة، والعواصم التي يقصد إليها السياح لأجل الفرجة والاستشفاء أو البحث. ويؤمها الطلبة لأجل تحصيل العلوم، ليست في اسبانية ولا في البرتغال، وإذا رجعنا إلى طبيعة الأرض، وبداعة المناظر فليس في الجزيرة الايبيرية في الحقيقة من تنوع المناظر الساحرة ما في إيطالية مثلاً، كما أن السائح لا يرى فيها تلك المروج الزمردية، والبحيرات اللطيفة، والجبال الشامخة، المعممة بالثلج، ولا مسارح اللمحات التي يراها في سويسرة، ولكن مما لا جدال فيه أن مواقع معدودة من اسبانية والبرتغال تعد من أبدع مواقع العالم، وأنها المثل الأعلى من جهة الجنان والبساتين.

أما من جهة المدنية فهي في جنوبي اسبانية راجعة إلى أشد أدوار التاريخ توغلاً في القدم، وقد كان للفينيقيين في هذه البلاد دور طويل عريض، وقد أثّروا فيها آثاراً لا تزال بقاياها ماثلة إلى الآن، ثم جاء الرومانيون، وكانت لهم طبيعة عمرانية معروفة لهم شرقاً وغرباً، فوجدوا مجال العمل في اسبانية ذا سعة، فعملوا، وبنوا، وأثّروا، وأثّلوا، وتركوا آثاراً ناطقة بفضلهم، وجسوراً وأقنية معلقة منبئة عن شأوهم، وملاهي وهياكل، كالتي في ماردة، وطرّكونة، ومر بيطر، وغيرها مما لا يدرسه الزمان، ولا ينال منه الحدثان.

وجاء بعد ذلك العرب فأثلوا في الجزيرة الايبيرية، أو الجزيرة الأندلسية على رأيهم، حضارة عربية شرقية بلغت من الأبهة، والفراهة، وسلامة الذوق، سدرة المنتهى، فلا تكاد تمر بمكان إلا للعرب فيه آثار باهرة، وعنهم أخبار تتحدث بها السامرة، ولا يزال نظام سقيا الجنان، وتوزيع المياه على الأرضين، هو النظام الذي رتّبوه في أيامهم، ثم إنه لا ينكر أن الفن المسيحي، سواء في القرون الوسطى، أو من بعد عهد النهضة Renaissance قد ترك في اسبانية آثاراً فاخرة، ومباني فخمة، كقصر الاسكوريال مثلاً.

فالذين يقصدون إلى اسبانية من السياح لا تخيب آمالهم، ولا تذهب نفقاتهم سدى، وذلك لأن السائح الأوروبي يجد دائماً في اسبانية أشياء جديدة بالنسبة إليه.

فالبلاد كلها عبارة عن جزيرة يحيط بها البحر من جهاتها الثلاث، وتحيط بها جبال البرانس الشامخة من الجهة الرابعة، فهي معتزلة في مكانها، منتبذة من أوروبة زاوية خاصة بها، غير متأثرة بغيرها، محتفظة بجميع مميزاتها وخصائصها، لا هي شرقية تماماً، ولا هي غربية تماماً، بل هي متوسطة بين أوروبة وأفريقية، واصلة بين المشرق والمغرب، منطوية في أحناء وجودها هذ المستقل على أسرار لا يعرفها إلا من أكثر من التجوال فيها، وقرن السير بالنظر.

وهناك شعب شديد الخنزوانة قائم بذاته، لا يشبه غيره، ولا يريد أن يتشبه بغيره، وله مآخذ ومتارك لا ينزل عنها، وهو بفطرته لا يحب تقليد الشعوب الأخرى، بل هو من قديم الزمان مستمسك بأوضاعه، متعال عن السير وراء أقرانه، لا يرضى بما لديه بدلاً، ولا يبتغي عما ائتلفه حِوَلاً.

نعم من جهة الصناعة وفن الرسم والتصوير قد يقلّد الاسبانيول سواهم، بل يجد الناظر في كنائسهم وقصورهم آثاراً للفن الايطالي، الذي يدور على محاكاة الطبيعة. وكذلك يجد في رسومهم وتصاويرهم تأثر الفن الافرنسي، والفلمنكي، بل ليس في اسبانية فن تصوير خاص بها. ولا فن بناء خاص بها، وإنما هي محاكاة للأمم الغربية الأخرى مع جزء فيها من الطبع الاسباني. وإذا كان السائح الأوروبي لم يعرف بلاد الشرق، أو لم يقيض له أن يزور بلاد الإسلام، فإنه يجد في اسبانية آثاراً عربية، تكفيه لأخذ صورة حقيقية عن المدنية الإسلامية، التي منها في الأندلس أمثلة كافية، وقِطَع تعد من أنفس وأرقى ما تركه العرب من الآثار في الأرض.

وأما السائح الشرقي فإنه يقضي سياحته في اسبانية متأملاً، غائصاً في بحار العبر هائماً في أودية الفكر. كلما عثر على أثر عربي خفق له قلبه، واهتزت أعصابه، وتأمل في عظمة قومه الخالين، وما كانوا عليه من بعد نظر، وعلوهم، وسلامة ذوق، ورفق يد، ودقة

صنعة. وكيف سمت بهم هممهم إلى أن يقوموا بتلك الفتوحات في ما وراء البحر في بحبوحة النصرانية، وملتطم أمواج الأمم الأوروبية، وأن يبنوا فيها بناء الخالدين ويشيدوا فيها ألوفاً من الحصون، وأن يملأوها أساساً وغراساً، كأنهم فيها أبد الآبدين، فلا يزال قلب السائح المسلم في الأندلس مقسّماً بين الإعجاب بما صنعه آباؤه فيها، والابتهاج بما يعثر عليه من آثارهم، وبين الحزن على خروجهم من ذلك الفردوس الذي كانوا ملكوه، والوجد على ضياع ذلك الإرث الذي عادوا فتركوه، وأكثر ما يغلب عليه في سياحته هناك هو الشعور بالألم، فهو لا يزال يسير بين تأمّل وتألّم، وتفكر، وتحسّر، لكنه يريد مع ذلك أن يقتري هذه الآثار، وأن يمشي في مساكن أولئك الآباء، وأن يخاطب الأحجار، وذلك لأنه لهوى النفوس سرائر لا تُعلم، من جملتها أنها تنزع إلى البكاء عند دواعي الوجد، كما ترتاح إلى الطرب عند بواعث السرور، وأنها قد تهتف بالأمرين معاً، وتجمع الضدين شَرَعاً، وأن كل ما هو حنين وتذكار، وولوع بعد الأعيان بالآثار، هو من سرائر البشرية، ومما هو غالب على النفس الناطقة.

العمران والفن في اسبانية

هذا، وإذا حاولنا تحليل الإنشاء العمراني الذي يعول عليه في اسبانية وجدناه ينقسم إلى أربعة أدوار: روماني، وقوطي، وعربي، وأوروبي متجدد، فالروماني أعظم آثاره متجلية في مدينة ماردة، قاعدة «لوزيتانيا» التي بناها أغسطس، ففيها الجسر الذي كانت له ٨١ حنيّة، وفيها القناتان المعلقتان، وفيها الملهى التمثيلي، وفيها ملهى التمثيل البحري وفيها الملعب العام، وفيها هيكل المريخ الذي تحول فيما بعد كنيسة وفيها قوس النصر الشهيرة، وغير ذلك من المباني الخالدة. وطركونة فيها عدة هياكل وملهى تمثيلي، وملعب وحمامات، وجميعها من أفخم المباني الرومانية التي يقيدها التاريخ لتلك الأمة العظيمة. وسقوبية Ségopice هي ذات القناة المعلقة التي طولها ٨١٨ متراً، منها ٢٦٦ متراً راكبة على طاقين من الحنايا، الواحد فوق الآخر، عدد قناطرها ١١٩ قنطرة، وهو أكمل وأروع بناء روماني في اسبانيا.

وأما القوطي فأقدم آثاره في «أوبيط» Oviedo وهي كنيسة «سان ميكال دولينو» San Mikal de Lino من بناء رامير الأول (٨٤٢ ـ ٨٥٠) وكنيسة «سانتا مارية نارنكو» Naranco وغيرهما. وفي برشلونة اديار البندكتيين «سان بابلو دلكمبو» San Pablo delcampo و«سان بدرو دولاس بويلاّس» San Pedro de Las Puellsa من أبنية القرن العاشر.

وبعد ذلك لعهد بداية الكرّة الاسبانيولية على العرب ظهرت صنعة جديدة في البناء تدل عليها كنائس ذلك الوقت، يكثر في بنائها شكل الصليب، ويقل الزخرف، وتمتاز بالرصانة والمتانة. ومن هذا النوع كنيسة «سانت ياقو دو كومبوستيلا» De Compostela التي يرجع بناؤها إلى سنة ١٠٦٠، وقد امتد إلى سنة ١٠٩٦ وهي تقليد لكنيسة «سان سِرنين» في طلّوزة. وعلى نسق هذه الكنيسة بنيت كنيسة «سان ايزيدورو» في ليون بين سنتي ١٠٦٣ و ١١٤٩ و«سانتا مَرية» في «كورنية» وسان بدرو في وشقة وغيرها. ثم في القرن الثاني عشر بدأوا في اسبانية يقلدون نسق البناء المعروف في فرنسة، ويقال له هناك غوتيق Gothique وأصله نسبة إلى القوط، ولكنه ليس بالقوطي الاسبانيولي القديم، فبنيت كنائس في طلمنكة، وطرّكونة ولاردة، وتطيلة، وآبلة، وسقوبية، على هذا النسق. وقد فاقت في الضخامة جميع ما تقدمها.

وفي مدينة برغش Burgos كنيسة كبرى بناها المطران موريسيو سنة ١٢٢١ تحتوي مجموعة فنون البناء في الثلاثة الأعصر الأخيرة لذلك العهد. وكان يقال إنها أبدع كنيسة في اسبانية. بناها الأستاذ يوحنا الكولوني Jean Cologne وكان من بلدة كولونية بنّاؤون كثيرون يعملون في اسبانية، وكانوا يتوخون في ذلك العهد مناغاة الأبنية العربية، ويحاولون التفوّق عليها. فكنيسة برغش بنيت سنة ١٢٢١ وبعد ذلك بقليل، عندما حوّلوا المسجد الأعظم في طليطلة إلى كنيسة في سنة ١٢٢٧ اجتهدوا في أن يعطوه من السعة والاتقان والفخامة والضخامة ما لم يكن معهوداً إلى ذلك الوقت، وليس في اسبانية كنيسة أوسع رقعة من كنيسة طليطلة سوى كنيسة أشبيلية. ثم بعد بناء كنيسة طليطلة أنشأوا الكنيسة الكبرى في ليون، ذات الصور البديعة على البلور، وتبع ذلك كنيسة «آبلة» Avila ثم في القرن الرابع عشر والخامس عشر جدَّ طرز آخر للبناء يميل إلى توسيع الداخل، ومنه كنيسة سانت ياقو في طليطلة، وكنيسة «استورقة» Astorca وكنيسة سان بنيتو في «بلد الوليد» Valladolid ودير «البرّال» Parrel في سقوبية، وفي «نبارة» Navarre كنيسة بنبلونة Panpelonne وهي أشبه بكنائس فرنسة. وأبهى تلك الكنائس كلها الكنيسة العظمى في برشلونة، بناها فابر الميورقي. وفي القرن الخامس عشر بنيت كنيسة أشبيلية مكان الجامع الكبير الذي كان فيها، وهي أوسع بنيّة في ذلك العصر، بناها معلمون من هولاندة، وكانوا قد بدأوا يقلدون العرب في نقش الكتابات على أحجار المباني العامة، وتطريس الخطوط على الأبواب.

وأما في كتلونية فانتهى طرز إنشاء الكنائس بأن أصبح مطابقاً تمام المطابقة لطرز بنائها في فرنسة، ولما كشف الاسبانيول أميركة، وبلغت اسبانية ما بلغته من العظمة

والبسطة في القرن الخامس عشر، ازداد الاسبان تفنناً، وشادوا تحت تأثير العز، ونشوة السلطان، وكثرة الخيرات، مباني مدهشة، تستحق السياحة من البلاد النائية، وذلك من قبيل «سان بابلو» و«سان غريغوريو» في بلد الوليد، و«سنتا كروس» في سقوبية، وفي ذلك العصر نبغ «خيل دوسيلو» الذي يعد عبقري وقته في البناء. إلا أنه قد دخل إذ ذاك في هندسة الكنائس في اسبانية بدعة لم تكن لتزيدها بهاء ولا رونقاً، وهي جعل موضع خاص في وسط البيعة لأجل الأحبار والقسيسين، مما كان يخل بالهندسة، وينافي وحدة الخطوط.

وكذلك هناك بدعة أخرى، ليست بأقل هُجْنة، وهي الاجتهاد في منع النور عن الكنائس، وإبقاء داخلها مظلماً بقدر الإمكان. وهذه العادة فاشية في أكثر بيع أوروبة حتى يظن الغريب الجاهل بالأوضاع أن الظلمة هي مستحبة في قانون الكنيسة، وأن النور مكروه فيه. ولا نظن أحداً يكابر في هذه الحالة.

وأما طرز البناء العربي فهو على العكس من ذلك فهو يكره الظلام، ويحب النور، كما تشهد ذلك في جميع المساجد والمباني العمومية التي شادها المسلمون في الأندلس وغيرها، فأما مسجد قرطبة فهو أعظم مسجد في اسبانية، ومن أعظم المساجد في الإسلام، لا أظن مسجداً يفوقه في السعة سوى المسجد الحرام، وسوى المسجد الأقصى. وربما كان جامع ابن طولون في مصر بهذا المقدار. ولم يقع إنشاء المسجد الأعظم في قرطبة دفعة واحدة، بل وقع شيئاً فشيئاً، كما سيأتي تفصيل ذلك، فكان يزاد فيه كلما ازداد سكان قرطبة. وترى الافرنج الذين يدخلون إليه يؤوِّلون سعته هذه بأنه بناء قوم كانوا يحلمون بأن الإسلام لا بد أن يعم العالم، فإن المسقوف والصحن من هذا المسجد يسعان ثمانين ألف مصل يصلون وراء إمام واحد.

فأما النقش والفُسَيفِساء اللذان في هذا المسجد فلا شك في كونها من الصنعة البيزنطية، كما أنه لا شك في أن صنّاع المسلمين تعلموها وتفنّنوا فيها، وقد تفننوا في الخرط والنحت والنقش والزينة بما جعل لهم أسلوباً خاصاً معروفاً بهم منسوباً إليهم، تجده في مساجدهم، وقصورهم، وحماماتهم، وأبراجهم، وأبوابهم، وكل بناء يولونه شطراً من عنايتهم.

ومما تمتاز به المباني الإسلامية نقش آيات القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة والأمثال، والأشعار، في الحيطان والسقوف، وفوق الأبواب، وفي الأمكنة المعروضة للنظر، بما تزداد به الأبنية سناء، والابهاء بهاء، ويعد من نفائس الزينة التي تزهو بها هذه المعاهد. ولقد رأيت في رندة قاعة انكشفت جديداً، حيطانها كلها من المرمر، وقد حُفر

عليها سورة الفتح من أولها إلى آخرها. وكان الاسبانيول يوم أجلوا العرب عن الأندلس إذا رأوا بناء متقناً، وضنّوا به أن يجعلوه دكاً، أبقوه ماثلاً، لكنهم غطوا بالجص جميع ما على الحيطان من الكتابات العربية، حتى يمحوا أثر الإسلام من بلادهم بالمرة.

ولبث ذلك ديدنهم إلى هذا العصر الذي شعروا فيه بأن السياح إنما تقصد بلادهم لأجل مشاهدة الآثارة العربية، فرجعوا ينقبون عنها في كل سهل وجبل، وكلما انكشف لأحدهم منها شيء عدّ نفسه قد عثر على كنز، وصارت المجالس البلدية تمنع هدم أي أثر قديم للعرب، وإن كان متداعياً إلى الخراب اكتفوا بتقويم شعثه، وأبقوه على هيئته. وقد يكون الشارع ضيقاً ولا يسمحون بتوسيعه، إذا استلزم ذلك هدم الأبنية العربية.

ومما يُعجب به الافرنج من مساجد الأندلس جامع في طليطلة يقال له اليوم «سانتو كريستو دولالوز» Dela Luz تاريخ بنائه كما يفهم من الكتابة التي في مدخله سنة ٩٢٢ مسيحية. ولما استرجع الاسبانيول طليطلة في القرن الحادي عشر المسيحي حولوه كنيسة، ولم يغيروا فيه إلا الجهة الشرقية. وفي هذا المسجد بقايا نقوش عربية بديعة. ويقال إن الأذفونش السادس الذي احتال على ابن ذي النون حتى أخذ من يده طليطلة قد سمع أول قداس بعد استيلائه على هذه البلدة في هذا المسجد نفسه. وفي طليطلة من أمثلة الصنعة العربية كنيس لليهود يقصد إليه السياح لنفاسة بنائه. وقد بقي في الأندلس من المآثر العربية التي يشار إليها بالبنان قصر الجعفرية في سرقسطة، ومنارة أشبيلية الشهيرة، وباب ساحة النارنج في هذه البلدة، والقصر Alcazar الذي بناه الملك بترو الملقب بالغاشم ولكن على الطرز العربي بأيدي بنّائين من العرب.

فأما حمراء غرناطة فلا تزال إلى يوم الناس هذا زينة اسبانية وحليتها، ومقصد المتفرجين من جميع الأقطار يزورها في دور السنة من سبعين إلى مائة ألف متفرج، ومن أغرب ما سمعت أن بعضهم يقيم الشهر والشهرين والثلاثة في غرناطة، وقلما يمضي يوم إلا ويقصد فيه إلى الحمراء حتى يمتع نظره بما فيها من نفائس الصنعة، وبدائع الطبيعة، لأن موقع الحمراء الطبيعي هو أيضاً نادر في الدنيا. ومما يحمد الله عليه أن صناعة البناء الأندلسية هي محفوظة كلها في المغرب، لا تختلف في شيء عما كانت عليه في الأندلس، وان الزليج الذي تزين به الحيطان والساحات، والذي يشبه القاشاني في المشرق، لا يزال يصنع ويتنافس به.

هذا، وبعد أن استرد الاسبان بلاد الأندلس من أيدي العرب، وصار هؤلاء تبعة لهم تحت اسم المدجّنين، والاسبان يقولون مدجّر Mudéjar بقيت الصنعة العربية زاهرة، يبني بها الاسبان أنفسهم، ويدخلونها حتى في بعض كنائسهم، وقد يجمعون بينها وبين الصنعة

القوطية. ومن القصور المبنية على الطراز العربي قصر «الانفانتادو» في وادي الحجارة، وقصر اسمه «كازادل كردون» Casa del Cardon في برغش، من بناء مهندس عربي اسمه محمد، من سقوبية، تاريخ بنائه يرجع إلى القرن الخامس عشر.

ولا تخلو اسبانية من أبنية قلدوا فيها الصنعة الايطالية بعد عصر التجدد Renaissance ثم رغبوا في زيادة التزيين والتزويق والتخريم والترصيع، حتى سمي هذا الطرز من البناء بطرز الصياغة. وكان البناءون من الطليان يطوفون في اسبانية، ويبنون القصور لأمرائها بحسب الصنعة الايطالية، وربما أرسل بعض المترفين من اسبانية إلى جَنَوَة، فأوصوا على رسوم لقبور موتاهم، وبنوا بحسبها في بلادهم. ولم يكن الطليان وحدهم هم الذين يبنون بمقتضى الهندسة الجديدة في اسبانية بل كان هناك بناءون من فرنسة وهولاندة وبلجيكة وكان أشهر هؤلاء «أنريك دوايغاس» Enrique de Egas الذي هندس مدرسة «سنتا كروز» في بلد الوليد، وعدة مستشفيات في طليطلة وغرناطة وسانت ياقو.

واشتهر من النحاتين في ذلك العصر «فيليب ڤيكارني» Vigarni و«سيلو» Siloe الذي بنى كنائس غرناطة وكنيسة مالقة. واشتهر أيضاً دياغو دوريانو Diego Deriano الذي له أبنية شهيرة في أشبيلية. مثل دار البلدية، وكذلك في تلك الحقبة بنيت في بيّاسة دار بلدية فاخرة. وفي أُبذة كنيسة سانتا مارية المشهورة بناها المهندس المسمّى «بلد البيرة» وهو الذي بنى كنيسة جيّان. واشتهر أيضاً «ريبارا» باني دار البلدية في شريش. ومن المدن الشهيرة بالمباني المشيدة بحسب الطراز الجديد طلمنكة Salamanqua ذات الأديار والمدارس، ومدينة القلعة Alcala وقَوَنكة. ثم جاء عهد فيليب الثاني، وكان الميل فيه إلى الفخامة، مع عدم الاعتناء بالزخرف، وبحسب هذا الأسلوب بُني الاسكوريال الشهير كما لا يخفى.

ثم جاء مهندسون أحبوا الخروج عن قواعد الفن، ونزعوا منزع عدم التقيد مثل «جوفاره» Juvara الذي بنى قصر آل بربون الملوكي، ويقال إنه من أنفس آثار هذا الأسلوب الجديد الحر الذي يسميه الاسبان باسم «روكوكو» Rococo وكذلك يعدون مدخل كنيسة مرسية من طُرف هذا الأسلوب. وبالإجمال ففي اسبانية من جميع أساليب الفنون النفيسة، وكلها تستحق النظر. وفيها عدا الكنائس وقصور الملوك والمباني العمومية منازل للنبلاء والمترفين في كثير من المدن، يجدر بالسائحين أن يعوجوا عليها، مثل قصور «آل بينافنت» Benavente في بياسة، وآل مدينة سالم Medinaceli في «كوغولودو» Cogoludo وقصور «فالاسكو» Velasco و«ميراندة» Miranda في برغش وقصور «مندوزه» Mendoza في وادي الحجارة، وغيرها من قصور العائلات النبيلة.

فأما صناعة النحت فقد وجد منها آثار قديمة ترجع إلى زمن الرومانيين، لكنها شخوص معدودة. ثم وجدت تماثيل قليلة من أوائل عهد النصرانية، ولكن فن النحت، في اسبانية لم يبلغ درجة تستحق الذكر إلا في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، وإن وجد في اسبانية بعض تماثيل تعد من طرف الفن فيكون ذلك من صنع الطليان أو الفرنسيس، وفي كنيسة طركونة أمثلة من جميع أساليب النحت المعروفة حتى إن من جملتها محراباً باقياً من عهد المسلمين. وقد كان الغالب على بلاد «نبارة» الأسلوب الافرنسي في النحت، كما ترى ذلك في دير بنبلونة وأماكن أخرى وأجمل ما في اسبانية من التماثيل تماثيل السيدة مريم العذراء، تجد منها نفائس في أشبيلية وطرطوشة وميورقة وطليطلة وغيرها. وأكثر ما تنحت التماثيل هو للأموات من ملوك وأمراء وأحبار وأعيان. وأشهر هذه تمثال الملك فرديناند في برغش، وتمثال الأسقف «فرنندس دولونا» Deluna في كنيسة سرقسطة. وكذلك تمثال الأسقف «دوسارڤنتس» De Cervantes في أشبيلية وأرباب الفن يترنمون دائماً بذكر تماثيل برغش، التي هي من خرط خيل «سيلو» Siloe ويعجبون بقبور كارلس الثالث وامرأته في بنبلونة و«جوان كرادو» Grado في زمّورة. ثم إنه في كنيسة سرقسطة المسماة «بالسيو» وفي كنيسة طركونة تماثيل يقول أهل الصنعة إنها يتائم في بابها.

ولو جاء الكاتب يحصي ما في اسبانية من التماثيل الشهيرة، والتصاوير المستعذبة والتهاويل المعروفة ببداعة الصنعة، لطال به الأمر، فإن هذه البلاد ملأى بهذا النوع منه ما هو من عمل صنّاع طليان، ومنه ما هو من عمل صنّاع البلدان الشمالية، كفرنسة والمانية وبلجكة وهولاندة. ومن أشهر المتفننين في النحت من أمة الاسبانيول «الونزو برّوغيت» Berruguete الذي كانت له حظوة لدى الامبراطور شارلكان في بلد الوليد، فقد ترك هذا المِفَنُّ آثاراً كثيرة، أثيرة، يطول تعدادها. ومثله «بياترو توريّجياني» Torrigiani. ومما يجب ذكره أن مملكة أراغون كانت لها ملَكة قوية في صناعة النحت، امتازت بها على غيرها من الأقطار الاسبانية واشتهر من صناعها «داميان فورمان» Forment، كما أنه كان في قشتالة من الصناع المشهورين «كسبار بسرّة» Becerra أقام مدة طويلة في رومة، وقد رجع منها أستاذاً كبيراً في النحت والتصوير معاً، وكان يؤثر العمل في الخشب على العمل في الحجر، وأحسن آثاره المذبح الذي في استورقة. وممن اشتهر في أشبيلية «مارتينس مونتانس» Montanes المعدود من فحول هذا الفن، وكان أسلوبه وطنياً محضاً، غير متأثر بأي فن أجنبي. ونبغ في القرن الثامن عشر نحات أصله طلياني، مولود في مرسية اسمه «زار سيلو» Zarcillo وكان له مذهب خاص لا يقلد فيه غيره.

أما من جهة التصوير فلم يوجد في اسبانية بقايا تصوير من عهد القوط الأولين وإنما بقيت تصاوير راجعة إلى القرون التي كان فيها العرب مالكين لاسبانية. وإن السائح يجد في

الاسكوريال، وفي المكتبة الوطنية في مجريط، وفي أكاديمية التاريخ في هذه العاصمة، كتباً أثرية تشتمل تضاعيفها على صور يأخذ منها صورة ذهنية عن درجة هذا الفن في اسبانية لعهد العرب، ومنها صور لبعض القصور العربية، وكان يسمى هذا النوع من الرسم بالبيزنطي. ثم دخل في اسبانية التصوير الافرنسي، ومنه آثار تذكر في طلمنكة، وبنبلونة، وتطيلة، ودخل من جهة أخرى التصوير الايطالي واشتهرت له نفائس في بلنسية وكتلونية وجزيرة ميورقة، وامتاز بصناعة الألوان، ودقة التقاطيع، وغلب عليه الجمال. وقد وجد في اسبانية نوع من التصوير لا يخلو من الصنعة العربية منه مذبح دير «بيادره» Piedra.

وعلى كل حال فلا الفن الافرنسي، ولا الفن الايطالي، بلغ في اسبانية في التصوير ما بلغه الفن الفلمنكي، فلقد اشتهر من مصوري الفلمنك الذين كانت اسبانية معرضاً لبدائعهم «جان فان أيك» Van Eyck ونبغ مصورون اسبانيوليون في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، هم من مقلدي الطريقة الفلمنكية. وفي كل مقاطعة من اسبانية يجد العارف بهذا الفن مسحة منتقلة إليها من مملكة أجنبية. ففي الشمال مثل نبارة وأراغون تسود الريشة الافرنسية، وفي الشرق مثل بلنسية وميورقة تسود الريشة الايطالية، وأما في برشلونة فتوجد آثار الرسم الافرنسي والألماني والايطالي على السواء، وأبدع أمثلة التصوير الأراغوني والقشتالي يجدها الإنسان في سقوبية وآبلة، وفي المتحف الآثاري في مجريط، كما أنه يجد أنفس قطع الفن الكتلوني في كنيسة برشلونة، وكذلك يجد في متحفي بلنسية وميورقة نفائس كثيرة. وفي أشبيلية يتجلّى أيضاً الفن الفلمنكي عياناً، لأن أعظم مصور في هذه البلد وهو «كاسترو» Castro كان من أتباع الطريقة الفلمنكية، ثم طرأت على أشبيلية طريقة جديدة طليانية الأصل تميل إلى محاكاة بحذافيره، وعدم الاسترسال إلى التخيل، واشتهر بها مصور اسمه «زورباران» Zurbaran ولا تنس آثار مصوري البنادقة الذين من عملهم أماثيل أنيقة في الاسكوريال وقصر مجريط. وكان قد نبغ من رجال الفن البندقي مصور يقال له «تتوان» Tetuan ونبغ له تلميذ يوناني الأصل أطلق عليه الاسبان لقب «الكريكو» Greco وقد رأيت لهذا الكريكو صوراً كثيرة في طُليطلة.

وفي القرن السادس عشر نبغ في مصوري اسبانية رجل يقال له «هريره» Herrera يعدّه الاسبانيول المفن الوطني الأكبر، لأنه يمثل الرصانة والشدة والحمية والصفات التي تغلب عليهم. وكان أهل بلنسية معروفين بحسن الذوق في التصوير ونبغ فيهم نوابغ في هذا الفن، ولكن تأثير الفن الايطالي ظاهر في تصاويرهم، ومن أشهر هؤلاء «ريبالتا» Ribalta ثم «اسپينوزه» Espinosa تلميذه ثم «ريباره» Ribera. وليس في اسبانية مدرسة أحدث عهداً في التصوير من مدرسة غرناطة وممن نبغ فيها «الونزوكانو» Cano. وفي القرن السابع

عشر نبغ «مورلّو» Murullo الذي يحبه الاسبانيول أكثر من غيْره، وقد كان في فنّه من مقلدي الطبيعة، أميناً للحقيقة، لا يؤثر الخروج عنها، وكان له ميل إلى محاكاة أذواق العامة وله تلاميذ كثيرون مثل «اوزوريو» Osorio و«طوبار» Tobar وظهر في ذلك العصر أيضاً «فلاسكس» Velazquez وأصله من شلب وقد تبع في التصوير الطريقة الأشبيلية، وترك آثاراً يفتخر بها الاسبانيول، مثل صورة فيليب الرابع، وصورة الدون كارلوس، ولم يسن لنفسه طريقة يقال إنها طريقة مدرسية ليتابعه الناس فيها، بل لم يكن يتقيد بأسلوب خاص به. وفي مجريط نبغ «جوان كارينيو» Carreno في أوائل القرن السابع عشر، وكان مصوراً للبلاط الملوكي في أواخر عهد آل هبسبورغ، ثم اشتهر «سيريزو» Cerezo و«فرنسيسكو ريزي» Rizi الذي يحاكي في تصويره الألوان المستحبّة في الشرق. ومن مصوري القرن السابع عشر في مجريط «ليوناردو» Leonardo ثم «مينوز» Munoz. وفي أواخر القرن السابع عشر نبغ «كولّو» Coello وكان يحاكي الفلمنكيين بسطوع الألوان وإشعاع النور، وشثونة التقاطيع. وبه ختمت دولة التصوير القديمة في اسبانية، وقيل إنه مات كمداً، لأن البلاط الملوكي استدعى إليه «جيوردانو» Jiordano وفي زمن آل بوربون نبغ «بالومينو» Palomino ولكن البوربون في القرن الثامن عشر اعتمدوا على مصوري الفرنسيس، وروجوا بضائعهم. وفي أواخر القرن الثامن عشر، إلى أوائل التاسع عشر، اشتهر «فرنسيسكو غويا» Goya وكان هذا الرجل أعجوبة في طريقته، يرسل نفسه على سجيتها، ولا يعرف المحاباة، وقد تعرض غويا هذا لجميع المواضيع، وله تصاوير دينية معلقة في كنائس طليطلة وبلنسية ومجريط، إلا أنه لم يكن يحسن إلا هذا اللون، ولم يكن الناس يحبون تصاويره إلا لخشونتها، ولمذهبه في الصراحة، لا رئاء فيها. والصورة التي رسمها لعائلة كارلوس الرابع هي في الحقيقة مخزاة ناطقة بعظائم أمور. وله تصوير ملاعب الثيران، وديوان التفتيش، وتصاوير تمثل حرب الاستقلال، أجاد فيها إلى الغاية ويقال إنه أقدر مصور مثّل أعياد الاسبانيول. وجاء خلفاً له مصور يقال له «مدرازو» Madrazo.

ثم جاء العصر الأخير فنبغ «براديلاّ» Paradilla و«بنليور» Benlliure واضرابهما، فأتقنوا الصور التاريخية، وفق هوى الاسبانيول في الغرام بالماضي المجيد، والافتتان بالعظيم والمحزن والمناظر القاسية. ثم ظهر المصور «فورتوني» Fortuny وهو من كتلونية، اعتنى بالحياة العصرية، وكان له ملكة تامة في ايجاد تناسب الألوان، على نمط نسّاجي خراسان وكشمير. وبالجملة فالاسبانيول أصحاب دولة في التصوير والنحت، وربما كانوا أدرى بتمثيل أحوالهم الداخلية، والأشكال التي ترتاح إليه نفوسهم من سائر الأمم، ولو كان الآخرون أعلى منهم كعباً في الفنون النفيسة على وجه العموم.

كلام القاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي الطليطلي

المتوفى سنة ٤٦٢ وذلك عن الأندلس العربية في كتابه «طبقات الأمم».

قال تحت عنوان «العلوم في الأندلس»: وأما الأندلس فكان فيها أيضاً بعد تغلّب بني أمية عليها جماعة عُنيت بطلب الفلسفة، ونالت أجزاء كثيرة منها، وكانت الأندلس قبل ذلك في الزمان القديم خالية من العلم، لم يشتهر عند أهلها أحد بالاعتناء به إلاّ أنه يوجد فيها طِلّسمات قديمة في مواضع مختلفة، وقع الإجماع على أنها من عمل ملوك رومية، إذ كانت الأندلس منتظمة بمملكتهم.

ولم تزل على ذلك عاطلة من الحكمة إلى أن افتتحها المسلمون في شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين من الهجرة، فتمادت على ذلك أيضاً لا يُعنى أهلها بشيء من العلوم إلا بعلوم الشريعة، وعلم اللغة، إلى أن توطد الملك لبني أمية، بعد عهد أهلها بالفتنة، فتحرك ذوو الهمم منهم لطلب العلوم، وتنبهوا لإشارة الحقائق على حسب ما يأتي ذكره بعد إن شاء الله تعالى.

وأما دين أهل الأندلس فدين الروم من الصائبة أولاً ثم النصرانية إلى أن افتتحها المسلمون في التاريخ الذي ذكرناه، وأما ملكهم فكان لطوائف من الأمم مختلفة، تداولوها أمة بعد أمة، فمن تلك الأمم الروم وكان عمّالهم ينزلون مدينة طالقة العتيقة المجاورة لأشبيلية. واتصل ملكهم بها زمناً طويلاً إلى أن غلبتهم عليها القوط. فانتسخ الملك الرومي منها، واتخذ القوط مدينة طليطلة، من مدائنها العتيقة قاعدة لملكه، وملكوا الأندلس أفخم ملك قريباً من ثلاثمائة سنة، إلى أن غلبهم المسلمون عليها في التاريخ الذي قدمنا ذكره، واقتعد ملوكهم قرطبة وطناً، ولم تزل مركزاً لملك المسلمين بها إلى زمان الفتنة، وانتشار الأمر على بني أمية. فافترق عن ذلك شمل الملك بالأندلس، وصار إلى عدة من الرؤساء، حالهم كحال الطوائف من الفرس.

وأما حدود الأندلس، فإن حدها الجنوبي منها الخليج الرومي، الخارج مما يقابل طنجة في موضع يعرف بالزقاق، سعته اثنا عشر ميلاً، ثم ينتهي إلى مدينة صور من مدائن الشام. وحداها الشمالي والغربي، البحر الأعظم المسمى أوقيانوس المعروف عندنا ببحر الظلمة. وحدها الشرقي الجبل الذي فيه هيكل الزهرة الواصل ما بين البحرين: بحر الروم، والبحر الأعظم، ومسافة ما بين البحرين في هذا الجبل ثلاث مراحل، وهو الحد الأصغر من حدود الأندلس، وحداها الأكبران الجنوبي والشمالي، ومسافة كل واحد منهما نحو

ثلاثين مرحلة، ومسافة حدها الغربي نحو من عشرين مرحلة، ووسط الأندلس مدينة طليطلة العتيقة، التي كانت قاعدة القوط. وعرضها ٣٩ درجة و ٥٠ دقيقة، وطولها ٢٨ درجة بالتقريب، فصارت بذلك في التقريب من وسط الاقليم الخامس، وهي في وقتنا هذا الذي هو سنة ستين وأربعمائة قاعدة الأمير أبي الحسن يحيى بن إسماعيل بن عامر بن مطرف بن موسى بن ذي النون عظيم ملوك الأندلس. وأقل بلاد الأندلس عرضاً المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء، على البحر الجنوبي منها، وعرضها ٣٦ درجة، وأكثر مدنها عرضاً بعض المدائن التي على ساحلها الشمالي، وعرض ذلك الموضع ٤٣ درجة، فمعظم الأندلس في الإقليم الخامس، وطائفة منها في الإقليم الرابع، كأشبيلية، ومالقة، وقرطبة، وغرناطة، والمرية، ومرسية. وهذا الجبل الذي ذكرنا فيه هيكل الزهرة الذي هو الحد الشرقي من الأندلس، هو الحاجز ما بين الأندلس وبين بلاد افرنسة من الأرض الكبيرة، التي هي بلاد افرنجة العظمى والأندلس آخر المعمور في المغرب، لأنها كما ذكرنا منتهية إلى بحر الأوقيانوس الأعظم اهـ.

التقسيمات الجغرافية

القشتالتان وليون

لم تكن اسبانية في الماضي مملكة واحدة كما هي الآن، بل كانت أقساماً شتى، وممالك مستقلة بعضها عن بعض. وبعد أن غلب العرب على جميعها، ولم يبق موضع قدم منها لم يستولوا عليه، بقيت صخرة لاذ بها ملك يقال له «بلاي»، دخل في كهف منها بثلاثمائة رجل، فلم يزل العرب يقاتلونه حتى مات أصحابه جوعاً، وترامت طائفة منهم إلى الطاعة، فلم يزالوا ينقصون حتى بقي في ثلاثين رجلاً، معهم عشر نسوة أصرّوا على الامتناع في ذلك الكهف، الذي كان يصعب الوصول إليه، وجعلوا يقتاتون من العسل الذي كان النحل يمجه في خروق الصخرة، فاستخف بهم المسلمون وتركوهم وقالوا على ما في رواية «أخبار مجموعة»: ثلاثون علجاً ما عسى أن يكون أمرهم!؟ فهؤلاء بعد رجوع المسلمين عنهم عادوا فخرجوا من الصخرة غير خاضعين، واعصوصب حولهم كل من نزع به في تلك الأرض عرق الأنفة عن الخضوع للأجنبي، ورأس بلاي هذا تلك العصابة التي لم تزل تنمو وتغلظ، حتى صارت إمارة حقيقية، ثم مملكة يحسب حسابها. ثم تكونت منها سلطنة قشتالة التي هي أول حكومة اسبانيولية استقلت عن العرب بعد أن دانت لهم جميع الجزيرة الايبيرية.

ثم لما بدأ العرب يتراجعون إلى الجنوب، بسبب الفتن التي كانت تقع بينهم وبين

البربر، وتقع فيما بينهم بعضهم مع بعض، جعلت قشتالة تسترد شيئاً فشيئاً من البلدان التي كان المسلمون قد استعمروها، وصار المسلمون يجلون عن الشمال إلى الجنوب، فلذلك انقسمت قشتالة إلى ما يقال له «قشتالة القديمة» و«قشتالة الجديدة» وجميع قشتالة Royaume de deux Castilles واقعة بين جبال «استورياس» Asturies و«بسقاية» Biscaye من الشمال، ومملكتي «اراغون» و«بلنسية» من الشرق، ومملكة «مرسية» والأندلس من الجنوب، و«الاسترامادور» و«ليون» من الغرب. فأما «قشتالة القديمة» Castilla la Vieja فهي إلى الشمال وأما «قشتالة الجديدة» Castilla la Heuva فهي إلى الجنوب. والبسيط المرتفع الايبيري الذي يقول له الاسبانيول «ميزيتا» Meseta يشتمل على القشتالتين وليون والاسترامادور. وليس في هذا البسيط شيء ينطبق على ما يتخيله الناس، وما تسير به الأخبار عن خصب اسبانية، وكرم ترتبتها، وطيب نجعتها، واعتدال هوائها. والحقيقة أن اسبانية التي كسبت تلك الشهرة، وقيل إنها جنة الله في أرضه، هي مقاطعات اسبانية الجنوبية والشرقية، وقطعة من وادي إبرُه لا غير. ومتوسط ارتفاع هذا البسيط الذي نحن في صدده عن سطح البحر هو ٨٠٠ متر يحده من الشمال جبال اشتورياس Asturias وجبال قنتبريّه Cantabres ومن الشرق الجبال المسماة بالايبيرية ومن الجنوب شارات مورينا. وقولنا إنه ليس مطابقاً للصفة التي يتخيلها الناس عن اسبانية لا ينفي أن يكون فيه أودية عميقة، ذات زرع وضرع، وإن كان يوجد بجانبها بسائط، هي في الحقيقة غير قابلة للسكنى، من قسوة هوائها، وكزازة أرضها.

وأما تقسيمات قشتالة القديمة التي أوتادها جبال قنتبريّة في الشمال والتي ريّها بواسطة «الوادي[1] الجوفي» أي «دورو» Douro ووادي «إبرُه» ووادي «بَسيورقة» Pisuerga

(١) هذا النهر أول منابعه مكان يقال له أوربيون Urbion على علو ٢٢٥٥ متر عن سطح البحر بين شارات دومندا Demanda وشارات سان لورانزو Lorenzo وشارات سيبوليرا Cebollera وهي التي منها تنحدر مياه نهر إبره أيضاً. وأصل اسمه دورو Duero مشتق من لفظة «دور Dour» ومعناها الغزارة، واتصال هذا النهر بنهر إبره كان له تأثير في الوحدة الأسبانية، أي في توحيد قشتالة مع أراغون. والوادي الجوفي هذا يجري على ارتفاع سبعمائة متر فوق سطح البحر، فهو يسقي بسائط في غاية الاتساع، إلى أن يصل إلى بلد الوليد، التي هي على يمينه، وفي أول مجراه ينحدر انحداراً خفيفاً حتى يصل إلى الحدود بين أسبانيا والبرتغال، فهو ينصب هناك بحرية شديدة في مضايق تجعل منه نهراً هائلاً، ويصير مجراه في غاية العمق، وفي بعض الأماكن ترتفع ضفافه مائتي متر عن سطح المياه، وأحياناً تتقارب الضفتان تقارباً شديداً، وينحصر الماء انحصاراً عجيباً، وتتكون من هذا الوادي شلالات، لو استخدمت قوتها الكهربائية لجاءت بالخوارق، ولكنه عندما يدخل في بلاد البرتغال ينبسط في الأرضين، ويعود هادئاً. وللوادي الجوفي أنهر تمده من اليمين ومن الشمال، منها دوراتون Duraton وسيغه Cega وأداجه Adaja وزاباترتيال Zapartiel وطورماس Tormes ويقال إنهم يفكرون في شق =

فهي ست مقاطعات: الأولى «برغش» Burgos ومساحتها ١٤١٩٦ كيلومتراً مربعاً، وعدد سكانها نحو من ٣٥٠ ألف نسمة. والثانية «آبلة» Avila، ومساحتها ٨٠٤٧ كيلومتراً مربعاً. وعدد سكانها ٢١٠ آلاف نسمة، والثالثة «سقوبية» Ségovie ومساحتها ١٠٣١٨ كيلومتراً مربعاً، وعدد سكانها زهاء ١٧٠ ألف نسمة. والرابعة «شورية» Soria ومساحتها ١٠٣١٨ كليومتراً مربعاً وعدد سكانها ١٦٠ ألف نسمة. والخامسة «لوكروني» Logrono ومساحتها ٥٠٤١ كيلومتراً مربعاً، وعدد سكانها ١٩٠ ألف نسمة. والسادسة «شنت اردم» أو «شنت اندر» Santander ومساحتها ٥٤٦٠ كيلومتراً مربعاً، وعدد سكانها نحو من ٣٠٠ ألف نسمة.

أما قشتالة الجديدة فهي في قلب اسبانية تتوسطها شارات «وادي الرمل» Guadarrama وأعلى قمة فيها ترتفع عن سطح البحر ٢٣٨٥ متراً وهي إلى الشمال من قشتالة الجديدة، وأما شارات مورينا فهي منها إلى الجنوب الغربي، وفيها يمر «وادي تاجُه» Tago و«وادي شقر» Xucar و«مَنْزَانارس» Manzanares و«وادي يانة» Guadiana وهي تشتمل على المقاطعات الآتية:

مقاطعة «مجريط» Madrid ومساحتها نحو من ٨٠٠٠ كيلومتر مربع، وعدد سكانها ٨٨٠ ألف نسمة. و«طليطلة» ومساحتها ١٥٣٣٤ كيلومتراً مربعاً، وسكانها نحو من ٤١٥ ألف نسمة. و«سيودادريال» Ciudad - Real ومعناها البلدة الملكية، وهي محدثة بعد مجيء العرب، ومساحتها ١٩٧٤١ كيلومتراً مربعاً، وسكانها ٣٨٠ ألف نسمة. و«قونكة» ومساحتها ١٧١٩٣ كيلو متراً مربعاً، وأهلها ٢٧٠ ألفاً. و «وادي الحجارة» Guadalajara ومساحتها ١٢١٩٢ كيلو متراًمربعاً، وسكانها ٢١٠ آلاف.

وأما مملكة «ليون» Léon فكانت حدودها من الشمال الاشتورياس، ومن الشرق والجنوب الشرقي قشتالة القديمة، ومن الجنوب نحراً «الاسترامادور» L'Estrémadure ومن الغرب غاليسية ـ وبلاد البرتغال، وليون اليوم هي عبارة عن المقاطعات التالية:

نفس ليون ومساحتها ١٥٣٧٧ كيلومتراً مربعاً، وسكانها ٤٠٠ ألف نسمة. و«طلمنكه» Salamanqua ومساحتها ١٢٣٢١ كيلومتراً مربعاً، وسكانها ٣٣٥ ألفاً. و«زمّورة» Zamora ومساحتها ١٠٦١٥ كيلومتراً مربعاً، وسكانها ٢٨٠ ألفاً. و«بلد الوليد»

= جداول بين هذه الأنهار، حتى يمكن المجيء على الماء من طلمنكة، التي هي على نهر طورماس، إلى زمورة، التي هي على الوادي الجوفي. ونهر أداجة هو نهر آبلة، ولكن أراضيها لا تستفيد منه كما يجب، ونهر زابارتيال وهو نهر مدينة الكمبو. وأما نهر طورماس، فإنه يسقي بسيط طلمنكة ويتصبب إلى الوادي الجوفي على مقربة من البرتغال وأما أشقوبية فإن نهرها هو المسمى بآرسما Aresma.

Valladolid ومساحتها ٨١٤١ كيلومتراً مربعاً، وسكانها ٢٨٥ ألفاً و«بالنسية» Palencia ـ هي غير بلنسية Valencia التي على البحر المتوسط ـ ومساحتها ٨٤٣١ كيلومتراً مربعاً، وسكانها نحو من ٢٠٠ ألف نسمة.

ولقد كانت هذه المقاطعات التي في قلب اسبانية تعد من فيافي بني أسد، لولا ما ساق إليها العرب من مياه، وشقوا من جداول، واتخذوا من وسائل، حتى اهتزت وربَت وأنبتت من كل زوج بهيج، وكانوا إذا عدموا الينابيع المتفجرة، التي تلزم لأجل الري، يبادرون إلى إنشاء البرك، والمصانع الهائلة، يجمعون إليها المياه السائلة في الشتاء، على نمط ما كانوا يعملون في اليمن، وذلك مثل البركة التي في «منسا» Mansa وهي تحريف المصنع، وأما بعد رحيل العرب فقد تهدمت المصانع وطمست تلك القنّى، ورجعت هذه الأرضون إلى قسوتها الأولى، وتبدلت من خضرتها غَبَرَة وصارت تلك الغلات من حنطة وحبوب وزعفران سداداً من عوز، في أماكن معلومة، وبقي ذلك إلى العصر الحاضر الذي عمّت به المدنية، وامتدت السكك الحديدية، فعاد الأهالي يعتنون بهذه الأراضي، ويستدرون خيراتها، لأنهم أصبحوا قادرين على إخراجها إلى الخارج، بواسطة السكك الحديدية، وصاروا يميرون بحنطتهم بلاد البرتغال، وقويت رغبتهم في زراعة قصب السكر، والشمندر. وقد كان في اسبانية من عشرين سنة أكثر من ثمانين معملاً للسكر.

بلاد البشكنس

أما بلاد البشكونس فهي ثلاث مقاطعات: الأولى «غيبوسكوه» Guépuzco والثانية «بسقاية» Biscaye أو Vizcaya والثالثة «ألبَة» بالتحريك Alava ومساحة جميعها ٧٠٧٥ كيلومتراً وعدد سكانها نحو من سبعمائة ألف. وهم أمة مستقلة بنفسها، تسكن إلى الشرق من جبال قنتبرية، على أبواب فرنسة، وأصل اسم هذه الأمة هو «الباسقونغادوس» Vascongados ومنه اشتق اسمها الحالي «الباسك» أو «الباسكس» Les Basques. وكان العرب يقولون لهم الباشكونس، ومنهم من يقيم على حدود «نَبَاره» Navarre ومجموعهم يقارب مليوناً أو أكثر. ومنهم جمٌّ في أرض فرنسة، ولغة الجميع واحدة مختصة بهم. ومنهم من يتكلم بالاسباني أو الافرنسي، ولكن نحواً من نصف مليون لا يتكلمون بغير لغة الباشكونس. وهم من أشد أمم الأرض استمساكاً بقوميتهم، واحتفاظاً بخصوصيتهم، يزعمون أنهم أقدم أمة في أوروبة، ولا نزاع في أنهم هم بقايا الشعب الايبيري القديم، والشمالة الخالصة المحضة التي لم تدخل عليها شائبة من ذلك الشعب القديم. أشداء جبليون، موثّقو الخَلْق، تغلب عليهم السمرة، إلا من كان منهم في أعالي الجبال، فيغلب عليه اللون الأشقر، شُمّ الأنوف، محدّدو الأذقان، شعورهم مائلة إلى السواد، وكان لهم

زيّ خاص بهم لا يعرفون سواه، ولكن قد بدأ هذا الزي يضمحل، ولم يبق منه إلا طاقية من الصوف يقال لها البوانة Laboina لا يزالون يلبسونها على رؤوسهم، وهي زرقاء في مقاطعة غيبوسقوه، وحمراء في بسقاية وبيضاء في ألبَة. والبشكونس الذين في أرض فرنسة أيضاً يحافظون عليها. وأما من جهة عاداتهم القديمة فمنهم من تركها، ومنهم من لا يزال يعض عليها بالنواجذ، مثل أهل بسقاية. وتجدهم يستعملون محاريثهم القديمة، وعجلات تجرها البقر، وعليها نِيرٌ مزخرف مغطى بجلد ضان. وعندهم نوع من الرقص في أعيادهم ومواسمهم يسمونه «أوريسكو» Aurréscu يجرونه على صوت مزمار صغير يسمى «دولسينيه» Dulsinya مع قرع الطبول.

والبشكونس من أشد أمم الأرض حباً بالحرية وأَنَفَة عن قبول الضيم، وكما كانوا يردّون غارات العرب من الجنوب، كانوا يردّون غارات الفرنج من الشمال وكانت مواقع بلادهم الجبلية تساعدهم على رد غارات هذه الأمم العظيمة، فإن مساكنهم أكثرها في الجبال تحيط بها الأوعار، والأرض كما يقال تقاتل مع أهلها.

وهم الذين أوقعوا بجيش شارلمان وهو منصرف عن سرقسطة بعد أن عجز عن أخذها. وسيأتي في كتابنا هذا عند الوصول إلى التاريخ تفصيل جميع ما وقع بين البشكونس والعرب. ولم يخضع البشكونس لملوك ليون، وملوك نَبَارة، وملوك قشتالة في الآخر، إلا على شرط احترام هذه الدول لعاداتهم وقواعدهم. وكانت لهم امتيازات يقال لها «فُيُورس» Fueros ولم تزل امتيازاتهم هذه محفوظة، إلى أن جرت الحروب الداخلية المسماة بالكارلوسية، والتي آخرها كان سنة ١٨٧٦ فمن بعدها أزالت الحكومة الاسبانية امتيازاتهم وأخضعتهم للخدمة العسكرية، ولقانون احتكار الملح، واحتكار الدخان.

وهم يسمون أنفسهم بغير الاسم الذي يسميهم به الاسبان، أي الباسقونغادوس، الذي منه جاء اسم الباشكونس، الذي كان يسميهم به العرب. فاسمهم هم بلغتهم هو «أوسكالدوناك» Euscaldunac ولا يعرف معنى هذه الكلمة. وفي لغتهم لا يضعون أل التعريف قبل الاسم بل بعده. وهذا الاصطلاح ليس بنادر، بل اللغة السويدية واللغة الدانمركية واللغة البلغارية واللغة الرومانية فيها ذلك. وليس في هذه اللغة المثنى بل عندهم المفرد والجمع. وعلامة الجمع هي الكاف (K) وكذلك لا يوجد عندهم فرق بين المذكر والمؤنث في التعبير. وقد غلب ذلك على لسانهم حتى إذا تكلم البشكونسي بالافرنسية يقول: هذا المرأة Ce Femme بدلاً من هذه المرأة. وأما من جهة الأفعال فربما كان بينهم بعض المشابهة مع العرب، فإنه إذا أراد البشكونسي أن يقول مثلاً: «أنا أجيء» يقول «أنا عمال أجيء» وإذا أراد أن يقول لك «ستأكل» قال «عليك أن تأكل» وكذلك هم مثل العرب

في كثرة المترادفات في لغتهم، برغم أن لغتهم في أصلها فقيرة، وهي لم تكمل إلا بالألفاظ الكثيرة الأجنبية، من غشقوني، وافرنسي، واسبانيولي، وعربي. بحيث إذا تجرد هذا اللسان من هذه الألفاظ الداخلة عليه لا يبقى منه إلا ما يعبّر عن الأشياء المادية والمحسوسة، فهو في هذا أشبه بالتركي. وليس عند الباشكونس لفظة تعبر مثلاً عن «الروح» واسم الله عندهم «السيد الذي في العلى» وعندهم «الإرادة» يعبر عنها بلفظ تفيد «الفكر والشهوة والتمني» وقد اجتهد كثير من العلماء في درس لغة الباشكونس، ولكن صعوبة هذا الدرس جاءت من كثرة اختلاف لهجات هذه الأمة، فإن القرية الواحدة لا تتكلم بلهجة القرية التي تجاورها، فصارت اللهجات لا تحصى. وهذا شأن كل لغة الكتابة فيها نادرة، وشأن كل شعب تغلب عليه الأمّية. ومع هذا فقد أحصى الأمير لويس بونابرت ٢٥ لهجة باشكونسية، يمكن إعادتها إلى ثمانية أصول بالتحليل الدقيق. وهذه الأصول الثمانية تتلخص في ثلاثة عامة. أما الأصول الثمانية فهي: اللابوردي، والسولتي، والنباري الأدنى الشرقي، والنباري الأدنى الغربي، والنباري الأعلى الشمالي، والنباري الأعلى الجنوبي، والغيبوشقي، والبسقائي، ويمكننا أن نردّ أيضاً هذه اللهجات المختلفة إلى شرقي وغربي، فالسولتي والنباري الأدنى هما الشرقي، والبِسقائي هو الغربي. واللهجات الأخرى هي المتوسطة بينهما. وبلاد الباشكونس لا تخلو من أجناس غريبة عنها، وليس فيها مقاطعة خالية من الغرباء غير «غيبوسقوه» وبلاد نبارة نصفها أو أقل من الباشكونس. وأما بيُونة وبنبلونة وبلباو فلا يتكلمون فيها بلغة الباشكونس، وقد بدأت هذه اللغة تنحل وتضمحل بغلبة الاسبانيولي والافرنسي عليها. ولا عجب في ذلك، فإن مكتوباتها نادرة، ولم يعثر الباحثون على كتب بهذه اللغة ترجع إلى أعلى من القرن العاشر للمسيح، قيل إنهم وجدوا صحيفة قديمة من سنة ٩٨٠ فيها تحديد مقاطعة بيُونة Bayonne، وقيل إن هذه الصحيفة نفسها ليست بوثيقة لا يعترضها الشك.

وقد كشف أحد الرهبان اليسوعيين جدولاً فيه ثمانية عشر كلمة من لغة الباشكونس، وذلك في كتاب مخطوط لزائر افرنسي زار كنيسة سنت ياقو في القرن الثاني عشر، وأقدم كتاب عند الباشكونس طبع سنة ١٥٤٥، وهو ديوان شعر مشتمل على قصائد دينية، وأخرى غرامية. وقد طبعوا أيضاً ترجمة الانجيل إلى هذه اللغة سنة ١٥٧١، وذلك على نفقة مجلس نَبَارة وجميع ما هو مكتوب بلغة الباشكونس يبلغ ستمائة مجلد لا أكثر. وأكثر الذين كتبوا هذه الكتب هم مؤلفون تلقوا ثقافة افرنسية أو قشتالية ومعظمها في مواضيع دينية، وعن حياة القديسين. نعم يوجد من الباشكونس من تلقوا ثقافة اسبانيولية أو افرنسية، وأجادوا الكتابة، لكن باللُغة الافرنسية واللغة الاسبانية، وقد جمع بعض المؤلفين كثيراً من

قصص الباشكونس وتقاليدهم وأخبارهم. وأحسن المجاميع في هذا الموضوع هو ما كتبه يوليان فيسون Viuson الذي له على الباشكونس بحث في الانسيكلوبيدية الافرنسية الكبرى(١).

أما الباشكونس الذين في أرض فرنسة فهم يسكنون مقاطعات لابورد La bourd ونباره السفلى La basse Navarre وسول Soule ومساحة هذه المقاطعات الثلاث هي ستة آلاف كيلومتر مربع. فأما المقاطعات التي يسكنونها في اسبانية فقد تقدم ذكرها. وهي جزء من ثلاثين من مساحة الجزيرة الايبيرية بحسب تعريف اليزي «ركلوس» الجغرافي الشهير Lisée Reculs وبلادهم فيها قابلية زراعية، وفيها معادن كثيرة كالقصدير والرصاص

---

(١) في هذه الأيام الأخيرة انبرى الكاتب الأفرنسي المسمي فرنسوا دوهوركو Françgois Duhourcau فنشر في جريدة عطارد فرنسة Mercureae France بحثاً طويلاً عن البشكنس، لأنه من الكتاب المعجبين بهذه الأمة ومتانة أخلاقها وشدة استمساكها بأوضاعها القديمة. فالبشكنس يزعمون أنهم أقدم أمة على وجه الأرض وأنهم لم يطرأوا على أسبانية من مكان آخر، بل كأنهم نزلوا من السماء إلى أرضها، ولكن المؤرخين مع إقرارهم بشدة توغل هذه الأمة في القدم، يذهبون إلى أنها هي أيضاً طارئة على أسبانيا من مكان آخر، ومن جملتهم المسيو دوهوركو، يرى أن أصل أهالي الجزيرة الايبيرية هو الجنس الايبيري، وأن الفرق بين البشكنس وسائر الأسبانيول أن البشكنس هم أيبيريون اقحاح، وأن سائر الأسبانيين هم ايبيريون امشاج، وأن الايبيريين شعب قوقازي طرأ على أسبانية، عن طريق البحر المتوسط وجنوبي فرنسة، فنزل على المنحدرين الشمالي والجنوبي من البيرانس. وقد حاول الكاتب المذكور أن يستدل على أصل البشكنس وقرابتهم من الأمم الأخرى بأدلة من لغتهم، وهو منزع كنا في مقدمة من نبه عليه، ولنا رسالة في ذلك قرأناها في مؤتمر المستشرقين المنعقد في ليدن سنة ١٩٣١ ونشرناها في مجلة المقتطف، وعنوانها «علاقة اللهجات بالتاريخ» إذاً لا نرى هذا الباحث مخطئاً في تنقيبه عن أصل هذه الأمة من جهة تشابه لغتها مع لغات أمم أخرى. فهل وفق دوهوركو إلى بلوغ مراده؟ الجواب أنه من المعلوم أن اللغة البشكنسية هي أقدم من اليونانية واللاتينية، ولم يثبت كونها فرعاً من لغة السنسكريت الهندية، بل يظن البحاثون أن أصلها لغة منقرضة فرض العلماء وجودها فرضاً، وهي في هذا أشبه باللغة الاتروسكية Etrusque فإن هذه اللغة أيضاً ليست فرعاً من فروع السنسكريت، فيظهر للمسيو دوهوركو أن الاتروسكيين والبشكنس من أصل واحد، وقد وجد بعض الكلمات في لغة البشكنس تشبه كلمات أخرى في لغة الاتروسك. ومن ذلك كلمة «لار» فهي تفيد معنى «رئيس» في لغة البشكنس، وهي كذلك في لغة الأتروسك، فمن هنا استدل على كون هذين الشعبين من أصل واحد، ولما كان الرومانيون أصلهم من الأتروسك، وصل إلى الاستنتاج بأن البشكنس هم أولاد عم الرومان، وأصل الأصل هو من القوقاز، وليس هذا الرأي بكراً، فقد زعم اليزه ركلوز الجغرافي الشهير من خمسين سنة أنه يوجد بين لغتي البشكنس والكرج تشابه، وأن أصلهما لغة كانت شائعة في آسية الصغرى منذ الآف وآلاف من السنين، ولم تكن هذه اللغة لا من اللغات الآرية ولا السامية ولا الأورالية.

والحديد ولكنهم من جهة الزراعة لم يكونوا ممن بلغ شأواً عالياً. ومن الباشكونس مهاجرون كثيرون إلى أميركة كل سنة، فلهذا عددهم يقل في بلادهم الأصلية يوماً فيوماً.

وقد فحص الأطباء مثل الدكتور بروكا والدكتور فالسكو من مجريط جماجم الباشكونس من سبعين سنة، وأخذوا منها عدداً كبيراً من مقابر تلك البلاد، كما أنهم ميزوا جماجم الأحياء، فوجدوا أن هذه الأمة فيها نوعان من الجماجم، منها النوع الذي يزيد طوله على عرضه بنحو الربع، ومنها الذي يتساوى طوله بعرضه. ويقال عن أخلاق الباشكونس أنهم كثيرو الخيالات، سريعو الانفعالات، وأن عندهم خرافات قديمة لم يتخلصوا منها حتى الآن، ولكن فطرتهم الأصلية مبنية على الاستقامة، وعندهم حسن معاشرة ومخالقة، إلا أنهم بطّاشون عند الغضب، ومع أن الرصانة غالبة على طباعهم، فإنهم يحبون الألعاب، ويتلذذون بالمآكل والمشارب وحسن الوفادة، وإكرام الضيف عندهم مما لا يفوقهم فيه أحد. ونساؤهم حلائل أمينات، وأمهات مربيات، إلا أن التدين عندهن بالغ درجة الوسواس، لا سيما عند البنات اللواتي يئسن من المحيض، وكثيراً ما ينتهي أمر العانس من هؤلاء بالجنون. والباشكونسيّ بطبيعته ذكي الفؤاد، شهم، عزيز النفس، صعب المقادة، وإذا تعلم وتهذّب ففيه قابلية كبيرة للترقي، أما خرافاتهم القديمة فمنها أن الإنسان إذا رأى امرأة يوم الاثنين تحت نافذة بيته ففي ذلك الأسبوع يحصل له بلاء، وإذا صاح الديك في أول الليل فيكون هذا الصياح علامة على كون الديك أحس بمرور الساحرات وهو خطر يتلافونه بأخذ قبضة من الملح وذرها في أرض البيت، والمتزوج يوم عرسه يجتهد أن يمسك بذيل من ثوب زوجته ويضعه تحت ركبه حتى يكون فيما بعد هو السيد في البيت، وكان للباشكونس اعتقاد عظيم بالسحر، وكانت السحرة عندهم في كل مكان، وكانت لهم اجتماعات يتداعون إليها، ويعتقدون أن هؤلاء السحرة لهم علاقات مع الشيطان وأنهم يدفعون شره، ولكن هذه الخرافات قد بدأت تضمحل شيئاً فشيئاً.

وقد كان للباشكونس دور مهم في حروب استرداد الأندلس من أيدي المسلمين وبهذا السبب تميزت بينهم عائلات كثيرة، ورأست وعزّت وبزّت، وبتوالي الزمن صارت نبيلة. ففي قشتالة وليون الملك هو المالك لجميع الأرض، أما في نبارة، حيث مواطن الباشكونس، فالملك يشاركه في ملك الأراضي هؤلاء النبلاء الذين ساعدوه على طرد المسلمين، ولهذا عندهم هناك ثلاث طبقات: النبلاء، والعامة، والطبقة المتوسطة بينهما. وفي «ألبَه» الأهالي ينقسمون إلى نبلاء وإلى عامة، وذلك لأن منهم من حارب المسلمين، ومنهم من خضع لهم، فالذين خضعوا لهم هم المعدودون من صنف العامة.

ولهذا حصل التمايز بينهما، أما في «بسقاية» و«غويبوسقوه» و«لابورد» حيث لم يتمكن المسلمون، ولم تكن لهم ولاية، فجميع الأمة معدودة من النبلاء، لأنه ليس فيها من أسلم، ولا من خضع للإسلام. والنبالة في هذه المقاطعات يقال لها نبالة أرض، لا نبالة دم، والفرق بينهما أن الذين أخرجوا المسلمين بالحرب صارت لهم حقوق متأثلة، واستولوا على الأراضي التي كانت صارت إلى العرب، وأقاموا فيها أكّارين من عبيدهم وجنودهم، فصار هؤلاء بكرور الأيام عائلات نبيلة ذوات اقطاع، وأما نبلاء الأرض فهم الذين توارثوا أراضيهم من القديم، وحفظوها خلفاً عن سلف، لأنه لم يقع عليها فتح، وأما القوانين والأعراف التي يمشي الباشكونس عليها فهي عبارة عن عادات واصطلاحات قديمة مختلطة بقوانين جديدة ولكل ناحية عادات تختلف عن غيرها، وأكثرها يدور حول الامتيازات التي نالها بعض الأهالي، وتملكوا بها الأراضي في حروبهم مع العرب. وهذا هو خلاصة ما يقال عن الباشكنس، إحدى الأمم الايبيرية وأقدمها، ونزيد عليه أن باشكنس فرنسة وباشكنس اسبانية عقدوا سنة ١٩٠٢ مؤتمر في «فونتارابية» سموه مؤتمر اتحاد الباشكنس.

عود إلى ليون وقشتالة

ثم نعود إلى تفصيل ما أجملناه عن ليون والقشتالتين بقدر الإمكان فنقول:

الحدود بين فرنسة واسبانية من جهة الشمال الغربي هي وادي «بيداسوا» Bidassoa الذي يجري بين «هنداي» Hendaye و«فونترابية» Fontarabie وهناك جزيرة اسمها جزيرة الحجل، في وسط النهر اتفقت فرنسة واسبانية من قديم الزمان على جعلها منطقة متحايدة، وفيها تلاقى الكردينال مازارين مع الدون «دوهارو» لأجل عقد صلح البرانس، وتقرير زواج بنت فيليب الرابع ولويس الرابع عشر، وفي هذه الجزيرة نفسها انعقد سنة ١٤٦٤ مؤتمر بين لويس الحادي عشر ملك فرنسة، وهنري الرابع ملك قشتالة، وفيها أيضاً ودَّع فرنسوا الأول ملك فرنسة أولاده وعانقهم وهم ذاهبون رهائن إلى مجريط، بحسب معاهدة سنة ١٥٢٦ وفي هذه الجزيرة أيضاً تقررت بين فرنسة واسبانية مصاهرة مزدوجة، وذلك سنة ١٦١٥ بعقد نكاح ايزابلّة ابنة هنري الرابع ملك فرنسة على فيليب الرابع ملك اسبانية وعقد نكاح حنّة النمساوية أخت فيليب الرابع هذا على لويس الثالث عشر.

ويوجد على وادي بيداسوا جسر مشترك طوله ١٣٠ متراً، والنقطة المتوسطة منه هي الحد الفاصل بين المملكتين، فإذا تجاوزته إلى الغرب فأنت في مقاطعة «غينبوسكو» من بلاد الباشكونس. وأول مدينة تستقبلك هي مدينة «ايرون» Irun وعدد سكانها بضعة عشر

ألف نسمة، وهي بلدة عصرية ذات موقع جميل على الضفة اليسرى لوادي بيداسوا. ثم على مسافة عشرين كيلومتراً من هناك تصل إلى مدينة «سان سيباستيان» Saint - Sebastien والباشكونس يقولون لها «دونوستيا» Donostiya ويقولون لها أيضاً «أيروشولو» Eruchulo وهي قاعدة مقاطعة «غينبوسكوا» وموقعها من أبدع المواقع. وفيها كانت تصيف العائلة الملوكية في اسبانية، ونبلاء الاسبانيول يقصدونها للنزهة، وعدد سكانها يقرب من خمسين ألف نسمة. وهي قسمان، قديم وجديد، وحولها جبال يصعد إليها المتنزهون، وعليها حصون منها جبل «ايقلدو» Igueldo وجبل «العليا» Ilia وعلى خمسين كيلومتراً من هناك مدينة «طولوزه» Tolosa وهي بلدة صغيرة، سكانها ستة آلاف نسمة، وموقعها بهيج، وفيها معامل للورق، وهي على نهر «أورية»، وبالقرب منها على مسافة عشرين كيلومتراً بلدة «زومَرَّاقة» Zumarraga وهي بلدة على نهر أوروله Urola، ولها أيضاً منظر بديع. ومن هذه البلدة خرج «ميكال لوبِّس دوليكازبي» De Ligazpé فاتح جزر الفيليبين سنة ١٥٦٩، وله فيها تمثال، وبالقرب منها بلدة صغيرة يقال لها «فرغاره» Vergara والبلاد هناك كلها جبال وأودية، إلى أن يصل المسافر إلى بسيط «ألَبَة» Alava ولألبة ذكر كثير في كتب العرب. وهذا البسيط تنحدر إليه جداول أهمها نهير يقال له «زادوره» وقاعدة مقاطعة ألبة مدينة «فيتورية» وكانت معروفة عند العرب، ويقال إنهم كانوا يقولون لها سنت مرية وهي بلدة صناعية، سكانها ٣٥ ألفاً، يقال إن بانيها هو «ليوفيجلد» ملك البيزيقوت Leovigilde بناها سنة ٥٨١ بعد يوم كان له على الباشكونس، ثم إن الأذفونش الثامن ملك قشتالة انتزعها من يد النباريين سنة ١١٩٨ وفيها تمثال لرجل يقال له «ماتيومورازه» من زعماء الباشكونس، كان يدافع عن امتيازاتهم، والبلدة قسمان عتيق وجديد، والعتيق هو القسم الأعلى. وفي هذه البلدة، أي فيتورية، جرت معركة بين الانكليز والفرنسيس في ٢١ يونيو ١٨١٣ وكانت هذه المعركة ختام حرب اسبانية في زمان نابوليون الأول. ثم هناك بلدة يقال لها «كستيلو» وبلدة أخرى يقال لها «أرغانزون» وهما من البلاد الصغيرة القديمة. ثم بلدة «ميرانده» وهذه سكانها خمسة آلاف نسمة، وفيها حصن قديم وهي على نهر إبرُه.

ومن جهة البحر يوجد بلدة يقال لها «غوتارية» Guetaria وبلدة يقال لها «زوميا» Zumaya على مصب نهر أروله، وبلدة يقال لها «سيستونه» Cestona وفي تلك الناحية دير كبير منسوب إلى القديس أغناطيوس لويوله Ignacio de Loyola مؤسس رهبانية الجزويت، وهو مبني في مكان البيت الذي ولد فيه لويوله. وعلى البحر مرسى يقال له «ديفا» Deva سكانه ثلاثة آلاف، وبلدة أخرى اسمها «ليكتيو» Lequeitio سكانها أربعة آلاف، ولها مرسى بديع. ثم بلدة «موتريكو» Motrico وأهلها صيادو سمك، وفيها تمثال

من رخام للجنرال «داميان» المولود في موتريكو، والمقتول في واقعة طرف الأغر سنة ١٨٠٥ ثم بلدة «أونداروه» Ondarroa وهي مرسى سكانه صيادو سمك أيضاً، وبلدة «الزولة» Alzola وفيها حمامات معدنية تنفع لأجل مرض المثانة، وبلدة «الجويبار» Elgoibar وبلدة أخرى اسمها «ايبار» وفي كلتيهما معامل للسلاح. ثم بلدة دورنغو Durango ولها واد خصيب وفيها كنيسة «سان بطرودو طبيره» من أقدم كنائس الباشكونس، وبلدة يقال لها «آموريبيطه» Amorebieta وبلدة يقال لها «غرنيقه» Guernica وسكانها ٣٥٠٠، ولها موقع في غاية الجمال، وكانت في القديم قاعدة لمقاطعة «بسقاية» وهناك وادٍ بديع يقال له «ميناداكا» Mundaca وكان للامبراطوره أوجيني زوجة نابوليون الثالث قصر للنزهة في تلك البقعة. ثم بلده «برميو» Bermeo وسكانها عشرة آلاف، وفيها بيمارستان للمجانين يخص ثلاث مقاطعات الباشكونس. ثم بلدة «بيلباو» Bilbao وسكانها ٩٥ ألفاً، وهي على نهر «نرڤيون» Nervion وهي قاعدة مقاطعة بسقاية، تحيط بها جبال مغطاة بالحراج، وتبعد عن البحر ١٢ كيلومتراً ولها تجارة واسعة، وهي قسمان: المدينة الجديدة، والمدينة القديمة. فالقديمة هي على الضفة اليمنى للنهر، والجديدة هي على الضفة اليسرى. وعلى النهر خمسة جسور، وقد أصلحوا النهر حتى صارت البواخر التي محمولها أربعة آلاف طن تدخل فيه. ولهذه البلدة مرسى على البحر عند مصب النهر يقال له «العبره» El - Ebra وهذه المدينة معدودة من المدن الغنية، بسبب معادن الحديد التي بجانبها، وفيها مبانٍ جديرة بالذكر، ومعاهد خيرية، منها ملجأ للعميان وللخرس، وفيها معامل، ويقال إن باني هذه المدينة هو «لوبِس دوهارو» Haro أمير بسقاية، وذلك سنة ١٣٠٠.

وفي تلك الناحية بلدة «ارانغورِن» Arenguren وفيها معامل للورق، وبلدة «كارانزا» Carranza وفيها ينابيع معدنية والمهم هناك هو مدينة «سانت اندر» Santander وهي مدينة بحرية سكانها سبعون ألفاً. وهي قاعدة مقاطعة بهذا الاسم، وهي بلدة قديمة، كانت تنتهي إليها طريق رومانية، وكان العرب يقولون لها « شنت أدرم» وأحياناً «شنت اندر» وهي قسمان: القسم الأعلى، وهو المدينة القديمة، وأزقتها ضيقة، والقسم الأدنى، وهو المدينة الجديدة، ومرساها بديع، وتجارتها واسعة، وهي من أهم المرافىء البحرية في شمال اسبانية.

ثم مدينة «أوردونية» وهي على وادي «نرڤيون» وعدد سكانها ٣٥٠٠ وجميع مناظر تلك البلاد شائقة نظراً لكثرة الجبال والأودية والغابات فيها.

ثم نعود إلى الجهة الداخلية، وهي التي يمر بها نهر إبرُه، فمن مدن هذه الجهة

«بريفسكا» Briviesca وهي بلدة صغيرة سكانها ٣٥٠٠ اجتمع فيها نواب البلاد سنة ١٣٨٨ وقرروا أن ولي عهد قشتالة ينبغي أن يحمل لقب «برنس الاشتورياس» وبقربها بلدة «أونيه» One وفيها دير للبندكتيين اسمه سان سلفادور، مبني سنة ١٠١١ وفيه أربعة قبور من قبور الملوك وهناك قرية «كينتانا بالاّ» Quintanapalla التي فيها سنة ١٦٨٢ تزوج كارلوس الثاني ملك اسبانية بمارية لويز من آل بربون، في زمن لويس الرابع عشر. وقرية «توركمادة» التي ينسب إليها «تومادوتوركمادة» Torquemada رئيس ديوان التفتيش الشهير في اسبانية. وفي تلك البلاد مساكن كثيرة منحوتة في الجبال. ومن الأماكن المذكورة فيها قرية «دويناس» Duenas التي تلاقى فيها فرديناند ملك أراغون مع ايزابلا ملكة قشتالة قبل زواجهما.

وعلى وادي دورو Duero الذي يقول له العرب «الوادي الجوفي» بلدة «ارانده» Aranda وهي صغيرة بديعة المنظر، وهناك مدينة «صان استبان» San Estevan de Gormaz وكان العرب يقولون لها «شنت استابين» وفيها حصن قديم من أيام حروب العرب. ومدينة «اوسما» Osma وهي بلدة ايبيرية عتيقة، كان لها ذكر في الدور العربي، وبالقرب منها على شفير واد عميق دِمَن حصن عربي قديم. وقرية «المازان» Almazan، وفيها مسارح نظر بديعة، وآثار أسوار قديمة، وقنطرة على الوادي الجوفي طولها ١٦٣ متراً. ومدينة «الكامبو» Medina del Campo وهي صغيرة، وكان فيها قصر اسمه «قصر موتا» Castillo de la Mota مبني من سنة ١٤٤٠ كانت تؤثره الملكة ايزابلا ملكة قشتالة، زوجة الملك فرديناند، وتقيم به وماتت فيه سنة ١٥٠٤.

ومن مدينة «الكانبو» أو «الكامبو» إلى «زمورة» ٩٠ كيلومتراً بالسكة الحديدية، وبينهما بلدة «تورو» Toro مبنية على جبل شاهق فوق الوادي الجوفي.

برغش

وأما برغش، Burgos فهي مركز مقاطعة بهذا الاسم، وسكانها يزيدون على ثلاثين ألفاً، وهي مركز قيادة عسكرية، ومقر رئاسة أساقفة، وموقعها على يَفَاع من الأرض في القسم الشمالي من قشتالة، يسقيها نهر اسمه «ارلِنسون» Arleçon تراه أكثر السنة شحيحاً، لكن له فيضانات مدهشة. وفي برغش حصن على رابية مشرفة على البلد، لم يبق منه إلا رسوم طامسة. وفي أسفل هذه الرابية الكنيسة الكبرى وهي من أبدع بدائع الصنعة القوطية في اسبانية.

ولبرغش سهل مريع يسقيه جدول اسمه «بيكو» وأقنية من ارلنسون. وهذه البلدة هي

من أقرس مدن اسبانية بردا، يتسلط عليها ريح الشمال، وقد يقع فيها الثلج في شهر يونيو وفي الشتاء يصح أن يقال فيها:

لا ينبح الكلب فيها غيرَ واحدة من الصقيع ولا تسرى أفاعيها

وأما في القيظ فهي من أشدها حرارة، يهب عليها ريح الجنوب المحرق فيشوي الوجوه، وعليها يصدق المثل الذي يقال عن مجريط وهو: تسعة أشهر شتاء، وثلاثة أشهر جهنم الحمراء.

وفي برغش أبنية تعد من أجل ما يوجد في اسبانية، وأهمها الكنيسة الكبرى بدأ ببنائها الملك فرديناند الثالث الذي يقال له القديس فرديناند، وذلك سنة ١٢٢١ واستمروا يبنون فيها ويزخرفون ويزينون مدة ثلاثمائة سنة. فتأمل كم فيها من بدائع وتصاوير وتماثيل وتحاريم، تعد في الدرجة الأولى من درجات الفن. ويوجد غير الكنيسة الكبرى كنائس أخرى تقصدها السياح. مثل كنيسة سان نيقولا، وكنيسة سان اشتابين، وكلها على طرز البناء القوطي، وكذلك في هذه البلدة حصن قديم يقال له «كاستيليو» يصعدون إليه من باب عربي اسمه قوس سان اشتابين وكان يسكن فيه ملوك قشتالة. وفي هذا الحصن احتفل بزواج السيد لذريق دو بيفار المسمى بالقمبيدور الشهير في التاريخ الذي يجعله الاسبانيول بطلهم القومي، نظراً لشجاعته واقدامه. برغم أنه كان ظالماً غداراً، ناقص الذمام، عديم الوفاء. مما ثبت في التاريخ ثبوتاً لا ريب فيه، ولكن الشعب الاسباني تعامى عن ذلك وخلق لهذا الرجل محاسن لم تكن فيه، حتى يمكنه تمام الاعجاب به، وقد لد لذريق البيفاري De Buver هذا سنة ١٠٢٦ ومات سنة ١٠٩٩.

وسنأتي على ذكره في قسم التاريخ، ونروي كيفية استيلائه على بلنسية، وإحراقه القاضي ابن حجاف في ساحة تلك البلدة، بحجة أنه خبأ عنه بعض خزائنه والحقيقة انه إنما أراد إلقاء الرعب في قلوب أهل بلنسية. حتى لا يخفوا عنه شيئاً من الأموال التي كان يطمع فيها. وقد كانت ولادة هذا البطل الغشوم في برغش، ومكان البيت الذي ولد فيه لا يزال معروفاً. وفي دار البلدية مخدع فيه عظام السيد المذكور. وقد كانت من قبل مدفونة في دير «كاردينية» Cardena، وتقلبت هذه العظام على حالات شتى إلى أن جمعوها سنة ١٨٨٣ في دار البلدية في برغش. وبالقرب من دير كاردينية، كانت تسكن امرأة السيد، وهي المسماة «شيمانة» وكانت ابنة الكونت دياغو من «اوبيط» diego d'oviedo فإنها بعد أن مات زوجها وأخرجت من بلنسية سكنت في برغش إلى أن ماتت[1] سنة ١١٠٤.

---

(١) اختلف الناس في أمر هذا البطل الاسباني اختلافاً شديداً من كونه عبقري بسالة وأصالة متحلياً بجميع مزايا الأبطال، إلى كونه سيداً عملساً سفاكاً للدماء، غداراً نهاباً، ليس فيه شيء من مزايا الكرام، وقد =

ويقال إن باني برغش هو «رودريغس بورسالوس» Rodriguez Porcelos كونت قشتالة، بناها سنة ٨٨٤، وكانت من قبل تابعة للاشتورياس، ولكن الملك «أوردونيو» الثاني Ordono قتل ذرية بورسالوس، فاستقلت المدينة واتخذت لنفسها حكومة جمهورية، ثم في زمن «فرنان غونزاليز» Farnen Gonzales صارت قاعدة قشتالة(١) ثم عندما اتحدت قشتالة وليون مملكة واحدة كانت هي مركز قشتالة القديمة. وفي برغش هذه هزم الفرنسيس في زمن نابليون الجيوش الاسبانية.

ومن مباني برغش المشهورة القصر المسمَّى بـ «الكُردون» Caza del Cordon وهو قصر بناه أمير الجيوش «فاليسكو» في أواخر القرن الخامس عشر على يد البناء المشهور المسلم محمد السقوبي Mahomat de Segovia وفي برغش دير للراهبات شهير أصله مقصف لملوك قشتالة، ثم حوَّله الأذفونش الثامن سنة ١١٨٧ ديراً للراهبات، وكان فيه مائة من هؤلاء المتبتّلات. ولم يبق الآن سوى ثلاثين. ويقال للواحدة منهن «سنيوره» أي سيدة، ولا يقال «أخت» كما يقال لغيرهن.

= كتب المؤرخون سيرته بين قادح ومادح، وقد وجد في مكتبة ديرسان ابزيدور في ليون مخطوط نشر سنة ١٧٩٢ يتكلم عن هذا السيد. ولكن أحسن كتاب عن السيد باعتراف الافرنج أنفسهم هو المخطوط الذي عثر عليه دوزي في غوته Gotha سنة ١٨٤٤ وهو كتاب كتبه الكاتب العربي ابن بسام بعد موت السيد بعشر سنوات، لا زيادة. وكان ابن بسام يعرف السيد معرفة شخصية فوصفه عن معرفة تامة، ولم يكن يذكره إلا ويردف اسمه باللعنة، ولذلك إذا قال فيه خيراً فلا بد من تصديقه، لأنه كلام عدو بحق عدوه، فهو يقول عن السيد ما يأتي: برغم هذا كله لا بد من الاعتراف بأن هذا الرجل الذي كان نقمة إلهية في وقته، بحبه للمجد، ومتانة خلقه، ورباطة جأشه، وشجاعته الخارقة للعادة، كان أعجوبة وقته، وكان النصر لا يفارق رايته، وكانوا يقرأون سير أبطال العرب بحضوره، ولما وصلوا إلى سيرة المهلب أعجب بها اعجاباً شديداً، انتهى. هذا كلام ابن بسام بحق السيد، ترجمه دوزي من العربية، ونحن الآن نترجمه إلى العربية عوداً على بدء، والله أعلم بمكان الأصل. ومنه يعلم أن السيد كان بطلاً حقيقياً، لا بطلاً خيالياً، وإنما الناس نحلوه محاسن لم تكن فيه وربما أضافوا إليه مقابح تجاوزوا فيها الحدود ولكن مما لا مشاحة فيه أن الشر غالب عليه، وأنه أحرق القاضي ابن حجاف في ساحة بلنسية، لكونه خبأ عنه أمواله. أما شجاعته وإقدامه فمما لا يختلف فيه اثنان، وكان ملكا قشتالة واراغون فرديناند ورامير يتنازعان على مدينة كالاهوره Calahorra فلولا السيد لم يتغلب ملك قشتالة على ملك اراغون، وسنأتي بقصة السيد على وجهها في القسم التاريخي من هذا الكتاب، وإنما اكتفينا الآن بالإشارة إليها.

(١) وقرأت في كتاب «الصلة» لأبي القاسم خلف بن بشكوال ترجمة صادق بن خلف بن صادق بن كبيل الأنصاري من طليطلة فقال عنه إنه سكن برغش. فمن هنا يظهر أن العرب استولوا على برغش وسكنوا بها. هذا إلا إذا كان المقصود بالبلدة التي سكن بها صادق بن خلف الأنصاري هي قرية «برغش» بفتح الباء Bargos التي في وادي الرمل على مسافة ٦٣ كيلومتراً من مجريط. فأما برغش المدينة المشهورة فهي بضم الباء Burgos.

وفي هذا الدير كنيسة خزانة فيها راية عربية أخذها الاسبان من المسلمين في وقعة العقاب. وأما دير كوردينية فهو من أقدم الأديار، كان بناؤه سنة ٥٣٧ وبانيه سَنْشَه Sancha أم الملك تيودوريق. وهناك دير آخر تاريخ بنائه يرجع إلى سنة ٥٩٣ في قرية صغيرة بقرب برغش يقال له دير سيلوس Silos بانيه الملك «ريكاريد» Récarèd وهو اليوم للبندكتيين.

بلد وليد

ثم بلد الوليد Valladolid وهذه اللفظة عربية محرفة عن «بلد الوالي». هكذا سماها العرب، فأضاف إليها الاسبان حرف الدال، فصار الإنسان يتوهم أنها بلد بناها رجل يقال له الوليد، وهي الآن مركز مقاطعة بهذا الاسم. سكانها فوق السبعين ألفاً وموقعها في مرج أفْيَحْ، على الضفة اليمنى من وادي بسيورقة. وكانت هذه البلدة مقراً لملوك قشتالة[1] وفيها تأهل فرديناند بايزابلاّ سنة ١٤٦٩ وفيها مات كريستوف كولولمب في ٢١ مايو سنة ١٥٠٦ وفيها أقام فيليب الثاني وفيليب الثالث، وكذلك نابوليون الأول جعل فيها مركزه عندما فتح اسبانية، وفيها كنيسة كبرى بدأوا بها سنة ١٥٨٥ على يد «هرّيرة» من البنائين المشهورين، طول المسقوف من هذه الكنيسة ١٢٢ متراً، وعرضها ٦٢ متراً، وفيها مدرسة جامعة، عدد طلبتها يقارب خمسة آلاف، وأساتذتها خمسون، وفيها خزانة كتب تشتمل على ٣٥ ألف مجلد. منها ثلاثة مخطوط، وأمام المدرسة الجامعة تمثال للكاتب الاسبانيولي الشهير «ميشال دوسرفانتس» Cervantes صاحب كتاب «الدون كيشوط». وفي هذه البلدة متحف كان في أصله مدرسة يقال لها مدرسة «سانتا كروز» Santa Cruz وعلى باب هذه البناية القديمة صورة المطران «مندوزا» ساجداً أمام القديسة «تيريزه» وفي هذا المتحف مجموعة من تماثيل خشبية نادرة في بابها، لأشهر نحّاتي اسبانية، وفيه من نفائس التصاوير والتماثيل ما يدهش السائحين.

وفي هذه البلدة أيضاً كنيسة يقال لها كنيسة المجدلية، فيها قبر بانيها «الدون بدور دولاغاسكا» de Lagasca وفيها كنيسة يقال لها كنيسة «سانتا مارية لانطيقا» la Antigua هي من الكنائس الأثرية، ومدرسة يقال لها مدرسة «سان غريغوريو»، بناها البناء الشهير «ڤيغارني» في أواخر القرن الخامس عشر. على بابها شجرة نسب الملوك الكاثوليكيين أي

---

(١) قال في صبح الأعشى: مدينة وليد بفتح الواو وكسر اللام وسكون المثناة من تحت ودال مهملة في الآخر. وموقعها في أواخر الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد: حيث الطول إحدى عشرة درجة واثنتا عشرة دقيقة والعرض ثمان وثلاثون درجة وثلاث دقائق. قال في «تقويم البلدان»: وهي من أحسن المدن، وهي في الغرب من طليطلة في جنوبي جبل الشارة الذي يقسم الأندلس نصفين. قال: ويحلها الفونش ملك الافرنج في أكثر أوقاته.

فرديناند وايزابلاَ والمطران الونزو دو برغش. وفي بلد الوليد أيضاً كنيسة سان بابلو، بدأوا ببنائها سنة ١٢٧٦ ثم جددها سنة ١٤٦٣ الكردينال «توركمادا» وفيها ست أو سبع كنائس غير التي ذكرت. وكلها من الأبنية الموصوفة بحسن الصنعة. وبالقرب من بلد الوليد بلدة «شنت طانكش»، وأصل اسمها في زمن الرومانيين «سبتيمانكة» Septimanca ثم انقلب إلى سيمنكاس Simancas والعرب يقولون لها «شنت طانكش» وفيها حصن مودعة فيه أوراق دولة اسبانية من القديم، وهي ثمانون ألف اضبارة، تشتمل على ٣٣ مليون وثيقة.

وبالقرب من سيمنكاس مدينة قديمة صغيرة اسمها «طوردزلاّس» Tordsillas ومن مدن تلك الجهة «أريفالو» Arévalo وهي بلدة قديمة صغيرة، سكانها أربعة الآف نسمة، وكانت في الماضي معدودة من مفاتيح مملكة قشتالة. ثم مدينة «آبلة»[1] Avila وسكانها ١٢ ألف نسمة، وهي مركز مقاطعة بهذا الاسم، ومركز أسقف، وموقعها على سطح رابية منقطعة من الجهات الثلاث، وأمامها الجبال التي يقال لها شارات «مالاغون» من جهة الشرق، وشارات آبلة من جهة الشمال الغربي. وهواء هذه البلدة هو في غاية القسوة، وقد

---

(١) قد سكن المسلمون في آبلة لأول فتح العرب لأسبانيا، وانتسب إليها جماعة من أهل العلم، منهم أناس هاجروا منها إلى فاس، وقد ذكر لي الأديب المدقق السيد محمد الفاسي من بني الجد الفهريين أن أبا عبدالله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري الآبلي المتوفى في فاس سنة ٧٥٧ للهجرة، أصل أجداده من آبلة، نزحوا منها إلى تلمسان وبها ولد أبو عبدالله هذا، ثم انتقل إلى فاس ومات بها، وهو تلميذ العالم الرياضي الكبير ابن البناء المراكشي، والشيخ العلامة ابن خلدون. وقد وجدت في آبلة بلاطة تاريخ الكتابة التي عليها سنة ٨٠١ للهجرة، نقلها لاوي بروفنسال، وقال إن هذه البلاطة وجدت بقرب باب القصر Alcazar في آبلة، وهي هذه: «هذا قبر عبدالله بن يوسف السي (؟) المقتول على ظلم..... (؟)..... ظه وملكه عام ض ١ لهجرة نبينا محمد ﷺ.....(؟)... الله يجمعنا معه في الجنة النعيم لا حول ولا قوة إلا بالله» قال لاوي بروفنسال إن هذا التاريخ يوافق سنة ١٣٩٨ ـ ٩٩ مسيحية. قلنا إن آبلة هي من المدن التي أخلاها المسلمون من أوائل الفتح، مثل شقوبية، وسمينكاس، واستورقة، وليون، وزموره وغيرها، نعم إن المنصور بن أبي عامر كان قد غزا فيما بعد هذه البلاد كلها، واستولى عليها، بعد أن أوقع بجيوش جميع أمم الاسبانيول، وأعاد شمالي أسبانية إلى ملك الإسلام. ولكن لم يمض على ذلك إلا قليل، حتى كانت الفتنة في قرطبة، وسقطت الخلافة، وصار المسلمون يستعين بعضهم على بعض بالنصارى ونجمت ملوك الطوائف، وأصبحت الحالة أشبه بالفوضى، فاسترجع النصارى جميع تلك المدن، منها ما أخذوه بالقوة، ومنها ما اشترطوا التخلي عنه لأجل النصرة التي كان يرجوها منهم كل من الفريقين المتقاتلين في قرطبة، إذاً في سنة ٨٠٠ للهجرة لم يكن في آبلة مسلمون غير المدجنين، فإن آبلة كانت قبل تاريخ هذه الكتابة بثلاثمائة سنة رجعت إلى النصرانية، فإن كان قد بقي فيها مسلمون فيكونون ممن اختاروا «الدجن» أي الإقامة تحت حكم النصارى، من دجن دجنا ودجونا أي أقام بالمكان وألفه واستأنس به. وأصل استعماله للحمام والحيوانات، يقال الحيوانات الداجنة، ضد الحيوانات البرية.

تنازع الاسبانيول والعرب هذه البلدة مدة أربعة قرون متوالية، ولم تدخل في حوزة المسيحيين نهائياً إلا سنة ١٠٩٠ في زمن الأذفونش السادس، فحصنها الأذفونش، وجدد فيها أبنية كثيرة، وبقيت إلى القرن السابع عشر من أحفل مدن اسبانية وكان فيها جمٌّ غفير من الموريسك، أي العرب الذين نصّرهم الاسبانيول ظاهراً، ولبثوا مسلمين باطناً، وكانت هذه المدينة عامرة بهم، فلما طردوهم في سنة ١٦١٠، وهو الجلاء الأخير، سقطت هذه المدينة سقوطاً تاماً. وفي آبلة من الكنائس ما يعدّ في الطبقة الأولى بين كنائس اسبانية، على كثرة احتفال الاسبانيول بالكنائس، وبذلهم في بنائها ما عز وهان. ومن أشهرها كنيسة «سان سلفادور» San Salvador وهي مبنية من الحجر المحبّب، يخالها الناظر إليها حصناً من الحصون. وهي من القرون الوسطى، وبابها بديع الصنعة، وفي داخلها تصاوير لأشهر المصورين، وفيها قبر المطران «الفونسو دومادريغال» من عمل النحات الشهير «فاسكو زارزا» Zarza، وفيها كنيسة «سان بدرو» ودير «سانتو توماس» بناه الملوك الكاثوليكيون، أي فرديناند وايزابلاّ سنة ١٤٨٢، وفيه قبر البرنس جوان الذي مات سنة ١٤٩٧ وكان الولد الوحيد لفرديناند وايزابلا.

وسور آبلة القديم طوله ٢٤٠٠ متر، ولم يكملوه إلا سنة ١٠٩٩. وفي آبلة ماتت القديسة «تريزا» Teresa، ولها هناك دير مشيد في محل البيت الذي ولدت فيه سنة ١٥١٥، وهذه القديسة هي شفيعة آبلة. وفيها أيضاً كنائس أخرى متقنة مثل «سان سغوندو» Segundo و«سان فيسنت» Vicente نسبة إلى القديس فيسنت الذي يقال إنه في سنة ٣٠٣ للمسيح قتل من أجل عقيدته المسيحية. وهناك صخرة هي في داخل الدير، يقال إن القديس المذكور قتل عليها. وفي آبلة ساحة منسوبة إلى المنصور بن أبي عامر. وبالقرب من آبلة واد بهيج، يقال له «وادي البرش» Alberche، وفيه بلدة مشهورة بنوع من العنب يسمى البِيلو Albillo ويقال لهذه البلدة «سبريروس» Cebreros.

ومن مدن قشتالة «فيلاّلبة» Villalba واقعة على واد متسع تحيط به أهاضيب من شارات وادي الرمل، وهي على حدود قشتالة الجديدة. وفي تلك الجهة قرية يقال لها «شارمارتين» Charmartin وهي التي فيها كان نابليون الأول عندما استسلمت له مدينة مجريط.

ومن مدن قشتالة «أولميدو» Olmedo وهي صغيرة، ثلاثة آلاف نسمة، إلا أنها كانت ذات شأن في الماضي، وكانت مسكن نبلاء قشتالة، حتى ضرب المثل بها، فكانوا يقولون: من أراد أن يسود في قشتالة، فعليه أن يستند على أولميدون وأريفالو. ثم بلدة يقال لها «كوكو» Coco كان لها شأن عظيم في القديم، ولكنها اليوم قرية صغيرة، وبلدة

سقوبية Ségovia، وكل هذه البلاد قريبة من مجريط، والسكة الحديدية تمر على سقوبية ثم تدخل في نفق وادي الرمل، وطوله ٢٧٠٠ متر وإذا أفاض الإنسان من هذا النفق وقع نظره على سهل قشتالة الأفيح، فشاهد أجمل ما تقع عليه العين. وفي تلك الناحية دير الاسكوريال الشهير، ثم مجريط.

وهذه البلدة هي اليوم عاصمة اسبانية، وسكانها يزيدون على ثمانمائة ألف وفيها مدرسة جامعة، ومركز اسقفية، وموقعها على ٦، ١، ٣١ من الطول الغربي من خط نصف النهار الباريزي، وعلى ٤٠، ٢٤، ٣٠ من العرض الشمالي، وهي تعلو عن سطح البحر ٦٤٠ متر.

مجريط Madrid

قال ياقوت في معجم البلدان: مجريط بفتح أوله، وسكون ثانيه، وكسر الراء، وياء ساكنة، وطاء: بلدة بالأندلس ينسب إليها هارون بن موسى بن صالح بن جندل القيسي الأديب القرطبي، أصله من مجريط، يكنّى أبا نصر، سمع من أبي عيسى الليثي وأبي علي القالي، روى عنه الخولاني، وكان رجلاً صالحاً صحيح الأدب، وله قصة في القالي ذكرتها في أخباره من كتاب الأدباء ـ يعني كتابه معجم الأدباء ـ ومات المجريطي لأربع بقين من ذي القعدة سنة ٤٠١ قاله ابن بشكوال. اهـ.

ومن غريب الأمور أن ياقوت ذكر مجريط في مكانين من كتابه، ففي الأول ذكرها في صفحة ٣٨٨ من الجزء السابع من معجمه، الطبعة الأولى المصرية المصححة بقلم الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطي، ثم في صفحة ٣٩٤ من الجزء نفسه، عاد فذكر مجريط هي نفسها وترجمها غير الترجمة الأولى فقال: مجريط بالفتح ثم السكون وكسر الراء، وياء، وآخره طاء مهملة: مدينة بوادي الحجارة، اختطّها محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك. ينسب إليها سعيد بن سالم الثغري، ساكن مجريط، يكنّى أبا عثمان. سمع بطليطلة من وهب بن عيسى، وبوادي الحجارة من وهب بن مسرَّة وغيرهما، وكان فاضلاً، وقُصد السماع عليه، ومات لعشر خلون من شهر ربيع الآخر سنة ٣٧٦ قاله ابن الفرضي انتهى نقلاً عن بغية الملتمس.

والذي يلوح لنا أنه كتب عن مجريط أولاً، وانتهى منها، ثم تلقّى معلومات جديدة عنها فبدلاً من أن يلحقها بما تقدم له في شأن مجريط، عاد فترجمها مرة أخرى. وينسب إلى مجريط عدد من أهل العلم في الإسلام منهم أبو محمد عبد الله بن سعيد المجريطي(١)

(١) سمع من علماء طليطلة وعلماء قرطبة وتوفي بالمشرق سنة ٣٩٠ أو في السنة التي بعدها.

وعبد الرحمن[1] بن عبد الله بن حماد المجريطي. وهارون بن موسى بن صالح بن جندل القيسي القرطبي، أصله من مجريط، وأبو العباس يحيى بن محمد بن فرج بن فتح، المعروف بابن الحاج[2] المجريطي، توفي بقرطبة سنة ٥١٥ وأبو يعقوب يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حمّاد[3] المجريطي، توفي بمجريط نفسها سنة ٤٧٣ وعبد الرحمن بن عيسى بن عبد الرحمن بن الحاج المجريطي، سكن قرطبة، وكان يكنّى بأبي الحسن[4]. وأبو الحسن غريبب بن خلف بن قاسم الخطيب القيسي المجريطي نزيل مالقه، كان من أهل العلم، وله تصنيف.

وأعظم المنسوبين إلى مجريط أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي الفلكي الكيماوي الشهير. وممن ينسب إلى مجريط سعيد بن سالم المجريطي المعروف بأبي عثمان الثغري الذي ذكره ياقوت، وينسب إلى مجريط أبو العباس يحيى بن عبد الرحمن بن عيسى بن عبد الرحمن بن الحاج، كان ساكناً في قرطبة. وتولّى قضاء جيّان، وقضاء مرسية، وقضاء غرناطة، ثم تولّى قضاء قرطبة بعد أبي الوليد بن رشد، وكان قاضياً جليلاً، توفي[5] سنة ٥٩٨.

وأما أبو يعقوب يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حمّاد المجريطي الذي قلنا إنه توفي بمجريط سنة ٤٧٣، فإذا كان القشتاليون استولوا على مجريط سنة ١٠٨٣ فينبغي أن

---

(١) أخذ عن ابن مدراج وعبدوس بن محمد وأبي بكر الزبيدي وابن الهندي وابن العطار وابن أبي زمنين وكان فاضلاً ثقة متواضعاً قال ابنه يوسف بن عبد الرحمن: توفي أبي رحمه الله في صفر سنة ٤٠٧ وهو ابن ٧٧ سنة.

(٢) كان من علماء الأدب والعربية قال ابن بشكوال: وقد أخذ عنه أصحابنا وكان أحد العدول وتوفي رحمه الله يوم الاثنين لأربع بقين من ربيع الأول سنة ٥١٥ بقرطبة ودفن بمقبرة أم سلمة حضرت جنازته اهـ.

(٣) روى عن أبي عبدالله بن الفخار وأبي عرم الطلمنكي وأبي محمد الشنتجيالي ورحل إلى المشرق حاجاً ولقي أبا ذر الهروي ويحيى بن نجاح ولقي ببرقة ميمون بن طريف وباطرابلس أبا الحسن بن المنمر وقرأ عليه كتابه في الفرائض وكان أبو يعقوب ابن حماد هذا ثقة حسن الخط من بيت خير وفضل توفي بمجريط سنة ٤٧٣.

(٤) قال ابن الأبار في التكملة: يعرف بالمجريطي لأن أصله منها أخذ القراءات عن أبي القاسم بن النحاس وتولى القضاء برندة وحدث عنه ابنه القاضي أبو العباس يحيى بن عبد الرحمن وكان مولده سنة ٤٧٣ وتوفي سنة إحدى وعشرين وخمسمائة.

(٥) ترجمه ابن الأبار. فقال: إنه أخذ القراءات عن أبيه وقرأ على أبي بكر بن العربي وأبي زيد الخزرجي وأبي بكر بن سمجون وتولى قضاء جيان ومرسية وغرناطة ثم قضاء قرطبة بعد ابن رشد وكان معدوداً في رجالها مع الجزالة والعدالة والإيثار للحق.

تكون وفاته وقعت في مجريط بعد استرداد الاسبانيول لهذه البلدة. وأخبرني مهندس اسبانيولي مدقق متخصص بعلم الآثار اسمه فرناندس من أهل قرطبة أنه لما استولى الاسبان على مجريط كان فيها أربعة جوامع.

كان بناء مجريط في زمن العرب ضرورة عسكرية، لأنهم جعلوها قلعة في وجه القشتاليين، ولولا القلعة ما تكونت ثمة بلدة، إذ ليس إلا بلد مَحْل، وماء ضَحْل، وبقيت في أيدي العرب مدة طويلة إلى أن تمكن الاسبانيول من إرجاعها سنة ١٠٨٣ وذلك على يد الأذفونش السادس، وكانت القلعة العربية في مكان القصر الملوكي الحالي وهذا القصر هو أفخم بناء في هذه العاصمة الآن، وكان الشروع ببنائه سنة ١٧٦٤.

هذا، ولما دخلها الاسبانيول حوّلوا مسجدها الكبير إلى كنيسة باسم السيدة العذراء وأعطوا مجريط امتيازات كثيرة، وصارت لذلك العهد مدينة لا بأس بها، تمتد إلى باب «لاتينه» Latina وباب «سرَّاده» Cerrada، وباب «وادي الحجارة» وباب «سانتو دومينكو» Sato Domingo وباب «سان مارتين» San Martin وباب «الصول» Del Sol، ووقع بين أهل مجريط وأساقفة اسبانية دعوى على مشاعات البلدة، فصدر الحكم بأن تكون المراعي لرجال الكنيسة وأن تكون الغابات للمدينة.

وفي سنة ١٣٢٩ جمع فرديناند الرابع أول مجلس للأمة الاسبانية في مجريط وفي سنة ١٣٨٣ التجأ إلى اسبانية لاوون ملك أرمينية شريداً، فولّوه على مجريط، ولكن بعد وفاته رجعت البلدة إلى حكم قشتالة، وفي سنة ١٣٩٠ حصلت في مجريط فتن متتابعة أيام كان الملك هنري الثالث صغيراً فانتقلت العائلة المالكة إلى سقوبية. ثم تجددت هذه الفتن في زمن هنري الرابع بين سنتي ١٤٥٤ و ١٤٧٤، ولم تستقر أحوال مجريط إلا في زمن الملوك الكاثوليكيين، أي فرديناند وايزابلاّ سنة ١٤٧٧ وفي زمن شارلكان ثارت مجريط عليه، وانضمت إلى الحزب الذي كان يأبى الانقياد للحكم المركزي، إلا أن هذا الحزب انتهى أمره بالفشل، فدخل شارلكان مجريط سنة ١٥٢٤ وبعد ذلك بسنة، لما وقع فرنسوا الأول ملك فرنسة أسيراً في يد الامبراطور شارلكان، بعد معركة «بايڤه» Pavia جيء به إلى مجريط، واعتقلوه مدة في البرج المسمى «لوجانس» Lujanes ثم نقلوه إلى القصر Alcazar، وكان عدد أهالي مجريط في أوائل القرن السادس عشر لا يتجاوز ثلاثة آلاف نسمة.

والذي فكر في جعل مجريط عاصمة اسبانية هو فيليب الثاني، وذلك سنة ١٥٦٠ وقبلها كانت العاصمة طليطلة. وكان في طليطلة كرسي الأسقف الأكبر، فكانت هذه المدينة عاصمة اسبانية في الدين والدنيا، وكان الاحتكاك الدائم لا يخلو من حوادث تبعث

على الاختلاف، فأخذ فيليب الثاني يفكر في الانتقال إلى مركز آخر يتوسط المملكة من جميع الجهات، فلم يجد أفضل من مجريط، على علاّتها، وقحولة أرضها، وعطلها من أكثر المواهب الطبيعية التي تقوم بها عمارة البلدان، فإنه فكر في سرقسطة، فوجدها منحرفة إلى الشمال. وفي برغش وليون، فلم يجد فيهما التوسط اللازم الذي جعله نصب عينيه، وفي قرطبة وأشبيلية، فوجدهما ضاربتين في الجنوب، وكان مراده على كل حال أن يغادر طليطلة فراراً من مجاورة أحبار الكنيسة فاختار مجريط، برغم وقوعها في أرض قليلة الخيرات، لا تجري فيها أنهار ولا تمتاز بزرع ولا ضرع، كما أن هواءها جامع بين الأضداد، فمن نوافح البرد القارس، إلى لوافح الحر المحرق، ففي أيام الشتاء قد تنزل درجة الحرارة في الميزان إلى ١١ تحت الصفر ويتجمد الماء أكثر فصل الشتاء، وفي الصيف تصعد الحرارة إلى الدرجة ٤٣ في الظل، كأنه حر الساحل الجنوبي، ثم إن هواء مجريط، إما أن يكون شديداً عاصفاً، يصرع الرجل الماشي في الشارع، وإما أن ينقطع تماماً، حتى لا يطفىء المصباح، فتقلبات الأحوال الجوية في هذه العاصمة أعجوبة من الأعاجيب، ومن أمثالهم: لا تترك معطفك قبل ٢٠ مايو.

ولما انتقل فيليب الثاني إلى مجريط كان فيها ٢٥٠٠ بيت، و ٢٥ ألف نسمة، فضاقت على رجال الدولة والجند. وصدرت الأوامر بإنزال الأمراء والقواد وأصحاب المناصب في البيوت الكبيرة، فمن ذلك الوقت امتنع الناس عن بناء الدور الفيحاء، وصار الأغنياء منهم يعتمدون السكنى في المنازل الحقيرة، حتى لا ينزل رجال الدولة في دورهم. فلذلك بقيت مجريط لا تتقدم إلى مدة طويلة، مع أن الفن لذلك العهد كان بلغ أوج الترقي، واستمرت هذه الحالة على مجريط إلى أن جاء آل بوربون ملوكاً على اسبانية، فشرع كارلس الثالث، أفضل ملوك هذه العائلة، في عمارة مجريط والاعتناء بشأنها. ولما استعفى كارلس الرابع من عرش اسبانية سنة ١٨٠٨ جاء يوسف بونابرت، وأخذ يوسع شوارع مجريط، ويهدم حاراتها القديمة، والأديار التي كانت تضيق بها الأرض بما رَحُبت ثم ذهب حكم نابليون، وأعيد حكم آل بربون، وجاء فرديناند السابع، فأخذ يعتني بتوسيع مجريط وتزيينها، إلى أن كسبت شكل عاصمة حقيقية.

وأشهر ساحة في مجريط هي التي يقال لها «باب الشمس» Peurta del Sol ومن هذه الساحة يمتد شارعان، أحدهما المسمى شارع «القلعة» Alcala وهو أوسع شوارع المدينة وأبهاها، وبه تسير جميع المواكب في الاحتفالات، والثاني شارع «جيرونيمو» وفيه أعظم المخازن وأغناها.

وفي مجريط أكاديمية للفنون النفيسة، وفيها متحف المدفعية وفيه آثار ونفائس

كثيرة. وفيه قاعة تسمى القاعة العربية، جمعوا إليها كل ما قدروا عليه من مخلفات العرب، من رايات، وعمائم، وأثواب، وأحذية، وسيوف، ومن جملتها سيف أبي عبد الله بن الأحمر، آخر ملوك غرناطة. وقد اشتمل هذا المتحف أيضاً على غنائم كثيرة مما حازه الاسبانيول في فتح أميركة، وتلك المستعمرات الواسعة، وكذلك في هذا المتحف تذكارات كثيرة من أيام حروب الكرلوسيين.

وحروب الكرلوسيين تشغل من تاريخ اسبانية حيزاً كبيراً، بحيث لا يفهم القارىء حقيقة تاريخ اسبانية في القرن الماضي بدون أن يعرف قضية الكرلوسيين هذه. فلذلك رأينا تلخيصها فيما يلي:

الدون كارلوس البربوني المولود سنة ١٧٨٨ المتوفى ١٨٥٥ كان ابن كارلس الرابع، ملك اسبانية، وأخا فرديناند السابع. فلما حمل نابليون الأول فرديناند هذا على الاستعفاء واعتقله، كان الدون كارلس مع أخيه في الاعتقال، فلما عاد فرديناند إلى الملك، بعد سقوط نابليون سنة ١٨١٤ عاد الدون كارلس أيضاً مع أخيه ونظراً لكون فرديناند لم يعقب ولداً، كان كارلس هو وليّ العهد الشرعي، وحوله اجتمع رجال الكنيسة والرهبان والنبلاء الذين يكرهون مبادىء الثورة، وجميع من كان من أنصار الملكية المطلقة، وأصحاب الامتيازات والاقطاعات، فصار الدون كارلس يناوىء أخاه الملك، ولم يتمكن فرديناند من العرش في وسط هذه الهزاهز إلاّ بواسطة جيش أنجدته به فرنسة سنة ١٨٢٣، واشتدت العداوة بين الأخوين، فتزوج الملك فرديناند بمارية كرستينا من ملوك الصقلّيتين، وولد له منها الأميرة ايزابلاّ، فصارت هي في نظر أبيها وارثة الملك. والحال أن قانون اسبانية كان يحصر الارث في الذكور، فأدّى الأمر إلى الحرب بين حزب الملك وحزب الدون كارلس، ومزّقت هذه الحروب الأمة الاسبانية تمزيقاً، واتفقت فرنسة وانكلترة، فعضدتا الملك فرديناند في وجه أخيه ثم مات الملك سنة ١٨٣٣ فقامت مقامه زوجته الدونة مارية، وعضدتها فرنسة وانكلترة، فانهزم كارلس إلى البرتغال، لمصاهرة بينه وبين الدون ميكال ملك البرتغال. إلاّ أن حزب الدون كارلس كان كبيراً، وثارت معه المقاطعات التي كانت تكره النظام المركزي، فاشتعلت نار الفتنة في الاستورياش، وبلاد الباشكونس، ونَبَارَه، واراغون، وكتلونية. واشتدت الحرب الأهلية في اسبانية، إلى أن وقع الخلف أخيراً بين زعماء حزبه، ففشلوا، واضطر كارلوس إلى الفرار سنة ١٨٣٩، والتجأ إلى فرنسة في زمن الملك لويس فيليب، واعتقل فيها.

ثم نزل عن دعواه لشخصه وخلفه ابنه الدون المسمى كارلس أيضاً، فأخذ هذا يثير حزبه على ابنة عمه، وجرت وقائع وحروب في أيامه، كما جرت في أيام أبيه. وما زال

يقاتل ويثير الفتنة إلى أن مات. فخلفه أخوه الدون جوان. ثم خلف الدون جوان ولده الدون كارلس أيضاً، وذلك سنة ١٨٦٨، وسماه حزبه كارلس السابع، ودخل اسبانية، وأثار الفتنة، نظير عمه وجده. وتغلب على عساكر الدولة الاسبانية، وقام بتشكيل وزارة، وأوشك أن يستولي على العرش. واستمرت هذه الحالة مدة أربع سنوات، إلى أن تغلّبت الدولة الاسبانية في الآخر عليه، فانهزم إلى الخارج، فصار يجول في الأقطار إلى أن مات. وانتهت الشحناء الكارلوسية.

ثم نعود إلى ذكر مدينة مجريط فنقول: إنه فيها دار لمجلس النواب، يقال لها دار المؤتمر Palacio del Congreso وهي بناء فخم، أنشأه المهندس نرسيز و بشكوال Pascual. وأمام الرتاج اسدان من سكب الرمل ومدافع غنمهما الاسبان من المراكشيين في واقعة تطوان سنة ١٨٦٠. وفي مجريط متحف يقال له متحف البرادو Prado، بدأوا به سنة ١٧٨٥، وهو قسمان، أحدهما للتماثيل، والآخر للتصاوير، وفيه آثار أيدي مشاهير المصورين والنحاتين، ممن تقدم لنا ذكرهم في الفصل المتعلق بالفن، ومن غيرهم. فهو من أحفل متاحف أوروبة بلا نزاع، يختلف إليه عشاق الفن ما شاؤا أن يختلفوا، ولا يزالون يرون فيه أشياء جديدة. وفيها جنة النبات Gardin Botanique، وقد بدأوا بها سنة ١٧٧٤ إلا أن دليل بديكر يجعلها دون حديقة النباتات التي في بلنسية، ودون حدائق النباتات التي في البرتغال.

وفي مجريط ساحة يقال لها ساحة الشرق، في نهايتها ملهى التمثيل الملوكي. وأما قصر مجلس الشيوخ فإنه في طرف من المدينة، بينما مجلس النواب هو في الطرف الآخر.

وأما خزانة الكتب الوطنية ففيها عدا الكتب، وعدا الوثائق التاريخية، متحف يقال له متحف الفن الحديث، ومتحف آخر يقال له متحف الآثار القومية. وقد بدأوا ببناء دار الكتب هذه سنة ١٨٦٦، وانتهوا منها سنة ١٨٩٤، وأمام رتاجها تماثيل المشاهير من رجال اسبانية، وفي داخلها تماثيل ملوكهم وملكاتهم. وأول من جمع هذ الكتب في مجريط هو الملك فيليب الخامس، وذلك من مائتين وخمس وعشرين سنة. وسنة ١٨٦٦ اشترت الحكومة مجموعة كتب مخطوطة كانت تخص دوق اوشونة، واضافتها إلى هذه المكتبة. ومجموع ما تشتمل عليها من الكتب هو ستمائة وخمسون ألف مجلد، منها ثلاثون ألف مخطوط، وألفان وسبعة وخمسون كتاباً طبعت في بداية عهد الطباعة. وفيها عشرون ألف ورقة من الوثائق. وثلاثون ألف صورة يدوية. وفيها ثمانمائة طبعة من كتاب الدون كيشوط. والبناء هو سبع طبقات من الحجر والحديد، وفي قاعة القراءة ٣٢٠ كرسياً. ولما ذهبت إلى مجريط سنة ١٩٣٠ كنت أذهب كل يوم إلى هذه المكتبة، وفيها اطلعت على

كتب كثيرة تتعلق بالأندلس، ثم اقتنيت أكثرها فيما بعد ذلك، ونسخت بخط يدي يومئذ قسماً من كتاب أخبار مجموعة، وهو أول تاريخ عربي لمسلمي الأندلس، يصل إلى زمان الناصر، وقسماً من كتاب القضاة بقرطبة، لأبي عبد الله محمد الخشني.

وأما خزانة الآثار القومية ففيها مائتا ألف وثيقة، جمعت من كل الأطراف، ولا سيما من كنيسة آبلة. وتحت المكتبة أقباء ملأى بالآثار القديمة التي قبل التاريخ وعظام بشرية، وهناك مكان للعاديات الشرقية، ومنسوجات قبطية، وآنية أصلها من قبرص، وكثير من المصنوعات الايبيرية، والتماثيل العتيقة، مما يحار له العقل. ويقضي السائح الأيام والأشهر وهو يقضي منه العجب، ويوجد قاعات لآثار القرون الوسطى: من كتابات، وقطع فنّية، ونواويس. وهناك قاعة خاصة بآثار العرب والآثار المسيحية التي يطلق عليها اسم الطراز المدجَّن، والاسبانيول يقولون المدجَّر، وأكثر هذه الآثار العربية مأخوذة من أشبيلية وقرطبة وسرقسطة وغرناطة وفي القاعة العربية أسطرلابان عربيان، أحدهما تاريخ صنعه سنة ١٠٦٧ مسيحية، وهو أقدم أسطرلاب معروف اليوم. وفيها تحت الزجاج مجموعة عظيمة من الصحون والآنية العربية. وإلى الحائط الغربي من القاعة العربية قوسان من باب الجعفرية، في سرقسطة، وقطع من البهو الملوكي في الجعفرية المذكورة، وباب عربي جيء به من ليون، وحوض للوضوء جيء به من مدينة الزهراء في قرطبة، وآثار من جامع بناه محمد الثالث في غرناطة وإلى الحائط الجنوبي باب عربي من خشب وجدوه في «دروقه»، وإلى الحائط الشرقي مجموعة من الزّليج، وفي الوسط فوّارة أشبه بفوّارة قاعة الأسود في الحمراء، وفوّرتان من قرطبة، ويوجد سيوف عربية، وخواتم، وآنية من العاج، وغير ذلك من نفيس صناعات العرب. ومما يوجد في هذا المخزن مفاتيح مدينة وهران يوم دخلها الاسبانيول سنة ١٥٠٩.

وفي الطبقة الأولى من خزانة الآثار هذه توجد آثار مكسيكية قديمة، حازها الاسبانيول يوم فتحوا تلك البلاد، وآثار غريبة، وآنية خَزَفيّة، ومنسوجات من أميركا الجنوبية، وفُسَيفِساء من صنعة أميركا الشمالية القديمة وغير ذلك مما وجدوه في المكسيك وكولومبية وكوبا وغيرها.

ومكتبة مجريط هي من أغنى مكاتب أوروبة بلا نزاع، سواء في الكتب، أو في الآثار أو في التحف النفيسة، وفيها أيضاً نفائس من صنعة فارس وتركية والهند، وتماثيل صينية، ومصنوعات من العاج من عمل الصين، وفيها أيضاً من صناعة اليابانيين وبلاد الفيليبين، وفيها معرض للمسكوكات القديمة، من زمان قرطاجنة فما بعدها، وغير ذلك مما لا يكاد يحيط به العقل.

وفي مجريط تمثال لكريستوف كولومب منصوب في ساحة منسوبة إليه. وتمثال للملكة ايزابلاّ الكاثوليكية، وتماثيل أخرى لأعاظم الرجال. وفيها متحف للعلوم الطبيعية أنشأوه سنة ١٧٧١، يوجد فيه كثير من الحيوانات والطيور والحشرات والهوام والبقايا المتحجرة. ولما كانت مجريط خالية من الماء في وسطها فقد جرُّوا إليها قناة يقال لها «لوزويّا» Lozoya، وأنشأوا خزّاناً يفضي إليه الماء في أعلا نقطة من المدينة، وهذا الخزّان يسع ١٨٠ ألف متر مكعب من الماء، وهناك برج عال ارتفاعه ٣٧ متراً تتفرق منه المياه على الحاضرة. وأوسع ساحة في مجريط هي الساحة التي يقال لها «ساحة الشرق» Plaza d'Oriente أنشأها يوسف بونابرت لما كان ملكاً على اسبانية ولكثرة ما أنشأ من الساحات صاروا يقولون له «Rey Plazueles» ومعناه ملك الساحات. وقد هدم لأجل توسيع هذه الساحة عدة أديار وكنيسة وخمسمائة بيت. وفيها أربعون تمثالاً لملوك القوط والاسبان. وفي مجريط دار للسلاح مشهورة، وكان أصلها في بلد الوليد، فنقلها فيليب الثاني إلى مجريط، وفيها أسلحة من جميع الأنواع، منها ما جاء هدية من اليابان إلى فيليب الثاني، ومنها أسلحة مكسيكية. وفيها رايات باقية من زمن شارلكان وفيليب الثاني، وكذلك دروع ومغافر كانت لشارلكان وفيها أيضاً عمامة وأسلحة منسوبة لخير الدين بربروس، قيل إنهم أخذوها في واقعة تونس سنة ١٥٣٥، وفيها أسلحة علي باشا أمير البحر التركي، مع ثيابه وراية تركية، مما أخذه الاسبان في واقعة ليبنط الشهيرة سنة ١٥٧١، وفيها رايات لمشاهير قوّاد اسبانية. وخيمة من مصنوعات تركية، كانت لفرنسوا الأول ملك فرنسة وقد أخذها الاسبانيول في وقعة «بافيا» التي أُسر فيها، وفيها سيوف باركها البابوات لأن أصحابها جاهدوا في المسلمين، مثل الملك هنري الرابع صاحب قشتالة، والأمبراطور شارلكان وفيليب الثاني، وفيليب الثالث، وفيليب الرابع، وفيها أسلحة تركية من صنعة القرن السادس عشر والسابع عشر، وبقايا غنائم أخذوها يوم فتحوا وهران سنة ١٧٣٢، وفيها أسلحة شارلكان يوم نازل تونس، ويوم انكسر عن مدينة الجزائر. وفيها أسلحة كانت للملك فرديناند الكاثوليكي، وقلما وجد سلاح لملك من ملوك اسبانية إلا ومنه بقية في هذا المخزن.

وفي مجريط دار يقال لها أكاديمية التاريخ. بنيت سنة ١٧٣٨، وفيها متحف يحتوي على أسلحة ايبيرية قديمة، وعلى مجموعة مسكوكات، ومن جملة ما فيها راية عربية كانت من قبل في كنيسة سان اشتبان. وأما من جهة الكتب ففيها ٤٤ ألف مجلد، من أصلها ألفان من المجلدات المخطوطة، وأكثرها عائد لتاريخ اسبانية.

وأما الكنائس فحدّث عنها ولا حرج، ففي اسبانية تكون القصبة لا يتجاوز سكانها

عشرة آلاف نسمة، ولا تعدم فيها كنيسة متقنة تستحق أن يقصد السياح إليها، فكيف تكون يا ليت شعري! حاضرة المملكة التي جلس فيها ملوك اسبانية من ثلاثمائة سنة؟ وأشهرها الكنيسة الكاتدرائية التي يقال لها كنيسة سيدة المدينة Nuestra Senoira de la Almudena.

هذا وقد ترددت في أثناء مقامي بمجريط على مكتبة أكاديمية التاريخ، وعثرت فيها على كتب كثيرة. وقطفت من أزهارها. ونسخت بقدر ما أمكنني الوقت، وإني لذاكر الآن بعض الكتب التي استجلبت نظري، من أسفار تلك المكتبة وهي: «تاريخ علماء» الأندلس، لأبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي المعروف بابن الفرضي، وكتاب «الحلل الموشية في الأخبار المراكشية». و«الروضة الغنّاء في أصول الغناء»، و«تفريج الكرب عن كروب أهل الأرب في معرفة لامية العرب» لمحمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد بن زاكور، و«نظم الدر والعقيان، في شرف بيت بني زيّان، وذكر ملوكهم الأعيان، ومن ملك من أسلافهم في ما مضى من الزمان»، و«عمدة الطبيب في معرفة النبات»، لابن بطلان، و«نزهة المشتاق، في اختراق الآفاق» للشريف الادريسي، الذي نقلنا عنه كل ما قاله عن الأندلس في كتابنا هذا وكتاب «فتوح أفريقية»، وكتاب «القواعد المسطرة، في علم البيطرة» لعلي بن عبد الرحمن بن هذيل بن محمد الفزاري. وكتاب «فضالة الاخوان في طيّبات الألوان»، لأبي الحسن علي بن محمد بن القاسم بن محمد بن أبي بكر بن الوزير التجيبي الأندلسي. و«تقييد الرسائل» من إنشاء الفقيه القاضي الكاتب ابن المطرّف ابن عميرة. و«عقد الجمان، في تاريخ أهل الزمان» لبدر الدين أبي محمد محمود ابن أحمد بن موسى العيني. و«الروض الهتون، في أخبار مكناسة الزيتون»، لمحمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن غازي العثماني المكناسي. و«نتيجة الاجتهاد، في المهادنة والجهاد»، لأحمد بن المهدي الغزّال الفاسي. وكتاب «الاكتفا في أخبار الخلفا» لأبي مروان عبد الملك بن الكردبوس. وكتاب «الدرة المضية، في اللغة التركية»، لزين الدين عبد الرحمن بن أبي بكر العيني. و«القوانين الكلية، لضبط اللغة التركية»، لشمس الدين محمد بن نور الدين علي بن زين الدين. وكتاب «استخراج ملح المعادن». وكتاب «تأيُّد الملَّة». و«الذخيرة» لابن بسام، ورسالة بفضل الأندلس لأبي الوليد إسماعيل بن محمد الشقندي. و«حكاية الجارية تودور»، وما كان من حديثها. وكتاب الجغرافية في مساحة الأرض وعجائب الأسقاع والبلدان. وقصة الست زمرّد الستورية. و«التكملة» لابن الأبّار. ودفتر لرسم الكتب الموضوعة في خزائن يمنى المحراب من الجامع الأعظم (يريد جامع قرطبة). ودفتر لرسم الكتب الموضوعة في خزائن بسرى المحراب من الجامع الأعظم. وكتاب «فوائد الموائد» تأليف يحيى بن عدي، وقيل تأليف جمال الدين أبي الحسن

المعروف بالجزّار. وكل هذه الكتب نظرت فيها بقدر ما وسع الوقت وكتاب فوائد الموائد كثير النكات، يقرأه الإنسان للتسلية. أوله: «الحمد لله الذي جعل الطعام رزقاً للعباد، وقواماً للأجساد، وسبباً لذم البخلاء ومدح الأجواد، أحمده على ما منح من طيبات رزقه، ومعرفة الكرام من خلقه، رازق الأطعمة الشهية، ومسخر النفوس السخية، إلخ». وأجل كتاب رأيته في هذه المكتبة هو «الفلاحة في الأرضين» لأبي زكريا يحيى بن محمد بن أحمد ابن العوام الأشبيلي. وهو جزءان، وعدة صفحاته ٨٤١. ويندر أن يكون في هذا الفن كتاب أجل قدراً منه. وقد قرأت في مجلة المجمع العلمي العربي التي تصدر في دمشق أنه مترجم إلى الافرنسية وقد نسخت من هذا الكتاب عدة صفحات ورأيته ينقل كثيراً عن الفقيه الإمام أبي عمر أحمد بن محمد بن حجاج في كتابه «المقنع» وهو المؤلَّف سنة ست وستين وأربعمائة، نقل فيه صاحبه عن الرازي، واسحق بن سليمان، وثابت بن قرّة وغيرهم. وكذلك نقل أبو زكريا يحيى بن محمد بن العوّام الأشبيلي صاحب كتاب الفلاحة هذا عن كتاب الشيخ أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن الفصّال الأندلسي، الذي بنى كتابه على تجاربه الخاصة، ونقل عن كتاب الحكيم الشيخ أبي الخير الأشبيلي، وهذا مبني على تجارب المؤلف وعلى آراء جماعة من الحكماء والفلاحين. ونقل عن كتاب الحاج الغرناطي. وكتاب ابن أبي الجواد، وكتاب غريب بن سعد، ونقل عن حكماء اليونان، وأيضاً عن كتاب الفلاحة النبطية المشهور المبني على أقوال جلّة من الحكماء منهم آدم، وصغريت، وينبوشاد، وأخنوخا، وماسى، ودونا، وكانترى، وغيرهم. وأما تاريخ ابن الفرضي، ورسالة الشقندي في فضل الأندلس، فقد نقل عنهما صاحب النفح ما شاء.

الاسكوريال L'escurial

ومن ضواحي مجريط قرية الاسكوريال Escorial أو Escurial ومعناها معدن الحديد، والقرية قسمان: القرية القديمة تسمّى «أباجو»، والقرية الجديدة وتسمّى «الريبة» وعدد سكان هذه ثلاثة آلاف نسمة. وهي مصيف لأهل مجريط، وفيها الدير الشهير الذي يسميه الاسبانيون Rial Monasterio de San Lorenzo del Escorial وهو الذي بناه فيليب الثاني، وذلك أنه في حصار مدينة سان كنتين سنة ١٥٥٧ أصابت مدافعه كنيسة باسم القديس «لورنزو»، وهو جندي روماني من أصل اسبانيولي، توفي شهيداً فأراد فيليب أن يعوّض القديس من هدم تلك الكنيسة المبنية على اسمه ببناء دير عظيم، جعل فيه أيضاً مدفن والده شارلكان، الذي كان تخلى عن الملك من تلقاء نفسه، واختار العزلة والنسك، وصح فيه قول المتنبي:

ويمشِي به العُكَّازُ في الدَّيْرِ راهباً   ومَا كانَ يَرْضَى مَشْيَ أشقَرَ أجْرَدَا

وكان فيليب الثاني يريد أن يقتفي أثر أبيه في التنسك والاعتزال، فبعد أن بحث نحواً من سنتين عن مكان لهذا الغرض أصابه في جوار مجريط بقرية الاسكوريال، فاستدعى إليه المهندس الطليطلي الشهير «جوان بوتيستا» وبدأ بالعمل سنة ١٥٥٩، ولكن المهندس مات بعد أن بدأوا بالبناء، فخلفه عليه «جوان دوهرَّيره» الذي هو من تلاميذه، وكان الأول تعلم البناء في رومة، وأما الثاني فكان تحصيله في بروكسل. وكان فيليب الثاني يشترك بنفسه في الشغل، ويأخذ ويعطي مع الصنّاع، ولا يتركهم يعملون شيئاً بدون رأيه وقد بذل همة فوق تصور العقل لأجل إكمال هذه البنية التي قل أن يوجد مثلها في الدنيا. وقد انتهوا من العمل ووضع الصليب على القبة سنة ١٥٨١، وآخر حجر وضع في هذا الدير كان وضعه في ١٣ سبتمبر سنة ١٥٨٤، وأما المقبرة الملوكية فما تمت إلا في زمن فيليب الرابع، حفيد فيليب الثاني، وقد خمّنوا نفقات هذه البناية الكبرى بستة عشر مليوناً وخمسمائة ألف بسيطة. وطرز هندسة هذا الدير هو طرز عصر التجدد الثاني في ايطالية، وهو الذي يعتمد في جلاله على مجرد تناسب الأقسام، وليس في الاسكوريال شيء من الزينة ولا الزخرف، وجميع تلك الجدران لا يتخللها غير نوافذ صغيرة. وإذا نظرت إلى هذا البناء العظيم حسبت أنه قلعة أو سجن. ولما أراد فيليب الثاني أن يزين داخل الدير بالتصاوير التي لا بد منها نظراً للمذهب الكاثوليكي، استجاد بعض مصوري ايطالية المشاهير مثل «تيبالدي» و«كامبيازو» و«زوكارو» وأما من اسبانية فقد استدعى «جوان فرناندس» و«نافاريت اللكروني».

وقد انتقد الكثيرون من أساطين الفن بناء الاسكوريال، وقالوا إنه ليس له من مزيّة غير السعة والكثرة، وإنه ليس فيه ذوق ولا قوة توليد، ولا فضل اختراع، وكل ما هناك فهو خطوط هندسية مستقيمة، تسود عليها بساطة زائدة، يمجّها الطبع. وقد علّل بعضهم هذه البساطة الزائدة بكون فيليب الثاني كان هو الآمر الناهي في اختيار الأشكال التي لم يكن يستحسن منها إلاّ البسيط الساذج. وكان كلما جاءه المهندسون بشيء من الزخرف رفضه فجاءت بنايته هذه أشبه في يبوستها وجهامة منظرها بالبرية التي تحيط بها. أما طول البناية فهو ٢٠٦ أمتار والعرض هو ١٦١ متراً، ولها أربعة أبراج. وفي وسطها كنيسة ذات قبة عالية وبرجين عظيمين، في كل منهما جرس كُبّار وإلى الشرق وإلى الشمال من هذه الكنيسة المقر الملوكي، وإلى الغرب ساحة خارجية، وإلى الجنوب الدير الحقيقي وحواشيه وأماكن القسيسين.

وللاسكوريال رتاج عظيم، عليه تمثال القديس لورانزو، يعلو أربعة أمتار، ورأسه ويداه من المرمر، وفي يده اليمنى مشواة من النحاس المذهب، إشارة إلى كيفية استشهاد

القديس، الذي يقال إنه أُميت على آلة مثلها. وفي الكنيسة ست اسطوانات، عليها تماثيل ملوك العهد القديم، وجميع الرؤوس والأيدي من الرخام الأبيض، والتيجان والصوالجة من النحاس المذهب. وقبة الصليب ترتفع ٩٥ متراً، والكنيسة في غاية الاتساع، وفيها ٤٨ مذبحاً وعلى حيطانها تصاوير الوقائع الدينية الكبرى، مثل البشارة، والحمل، وولادة عيسى، وعبادة الملائكة له، وملوك المجوس، وبني إسرائيل في البادية، واليوم الآخر، وهزيمة بني إسرائيل للعمالقة، وغير ذلك.

وأما مقبرة الملوك فهي مجاورة للمذبح الأعظم، وذلك حتى تقام القداسات اليومية على عظام الملوك المدفونين. وفي هذه المقبرة زخرف كثير، مخالف لقاعدة البساطة التي كان فيليب الثاني قد جعلها إماماً له في بناء هذا الدير. والسبب في ذلك هو أن هذه المقبرة قد أكملها خلفاؤه من بعده، والمدافن واقعة ضمن محاريب في الحيطان، وكل مدفن فيه ناووس من الرخام الأسود، عليه كتابة باسم الدفين. وفي هذه المقبرة ستة وعشرون ناووساً، لم يبق منها غير قليل خالياً، وليس جميع الملوك مدفونين هنا، بل فيليب الخامس، وفرديناند السادس، ونساؤهما، ليسوا فيها. وهناك مقبرة أخرى فيها أجساد الأمراء والأميرات، ممن لم يصل إلى العرش.

وفي هذا الدير خزانة كتب عظيمة، واقعة في بهو طوله ٥٢ متراً، فوق الرتاج الذي منه الدخول إلى المقر الملوكي. وفي هذه الخزانة من نوادر الكتب والآثار ما يستحق كل اعتبار. من ذلك كتب الصلاة التي كان يصلي بها شارلكان وفيليب الثاني، ومخطوط اسبانيولي يتضمن قصيدة فيرجيل الشاعر الروماني التي تسمّى «اينايد» Eneide، والأناجيل الأربعة، في مجموعة كتبت لكوانراد الثاني، قيصر ألمانية، وأنجزت في زمن هنري الثالث، وتاريخها سنة ١٠٥٠، ومخطوط فيه رؤيا يوحنا، تاريخه القرن الخامس عشر. وفيها مصحف شريف بخط مغربي مذهب كبير الحجم، اتصل بالاسبانيول سنة ١٥٩٤، وقد سألت عنه بعد زيارتي للاسكوريال، السيد الشريف الأجل، مؤرخ المغرب في هذا العصر، مولاي عبد الرحمن بن زيدان، حفظه الله، لأني وجدت مكتوباً على الصوان البلوري، الذي فيه هذا المصحف أنه مأخوذ من السلطان زيدان، صاحب المغرب. فأجابني مولاي عبد الرحمن بأن السلطان الذي أخذ منه هذا المصحف ليس من العائلة الشريفة السجلماسية بل من الملوك السعديين، وذلك أن بعض قرصان الاسبانيول غنموا مركباً من البحر لهذا السلطان، وكان فيه أمتعة نفيسة، وكتب من جملتها هذا المصحف. وقد قرأت في تاريخ الاستقصاء للناصري السلاوي، في الجزء الثالث، في صفحة ١٢٨ ما يلي: وقال منويل: «إن قراصين الاسبانيول غنمت في بعض الأيام مركباً للسلطان زيدان فيه أثاث نفيسة، من جملتها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة وغير ذلك».

ومن جملة آثار خزانة الاسكوريال تآليف للملك الأذفونش الملقب بالحكيم، من القرن الثالث عشر، وكرة أرضية، كان فيليب الثاني يستعملها في مطالعاته الفلكية. وفي هذه الخزانة صورة لفيليب الثاني، يوم كان في الواحدة والسبعين من العمر، وصورة لشارلكان يوم كان في التاسعة والأربعين، وصورة لفيليب الثالث، وصورة أيضاً لكارلس الثاني، وهو ابن أربع عشرة سنة. ثم إنه يوجد في الخزانة قسم للكتب الخطية، لا يمكن الاطلاع عليه إلا بإذن خاص من إدارة الاسكوريال.

وأما القصر الملوكي الذي في الاسكوريال فإنه إن كان فيه شيء من الزخرف، فهذا قد حصل بعد موت فيليب الثاني. فأما هو فلم يكن بنى لنفسه إلاّ غرفة صغيرة يشاهد منها المذبح الأكبر في الكنيسة، وغرفتين بجانبها، ولا تزال فيها المفروشات التي كانت في أيام فيليب الثاني، ولا تزال في غرفته الخاصة المائدة التي كان يكتب عليها مع أدواتها، وهناك الكرسي التي كان يمد عليه رجله. وفي هذه الغرفة كان يستقبل سفراء الدول. وفيها مات، وذلك في اليوم السابع عشر من سبتمبر سنة ١٥٩٨، على أثر مرض برّح به، وكان وهو يجود بروحه ينظر إلى مذبح الكنيسة الكبير، كما أنه كان في يده نفس المصلوب الذي كان في يد والده شارلكان يوم فاضت روحه.

وللاسكوريال حديقة تنفتح أبوابها الساعة الثانية بعد الظهر. ولها منظر من أبدع المناظر، لا تبلغ العينان مَدّهُ على سهل قشتالة الجديدة، ومجريط، ووادي الرمل.

ولما زرت اسبانية سنة ١٩٣٠ أي من ست سنوات، ذهبت إلى الاسكوريال أنا واثنان من شبان المغرب النجباء، وسرواته الأدباء، وهما السيدان العالمان الفاضلان أحمد بلا فريج، ومحمد الفاسي الفهري، وكان معنا السنيور دوزميت يواكين، من شبان نبلاء الاسبانيول، فطوّفنا في الاسكوريال مدة ساعات، وجلسنا في خزانة الكتب، حيث رأيت من الكتب العربية ما لا يوجد في كثير من المكاتب. وهناك تعارفنا مع الأستاذ المستشرق العلامة القسيس آسين بلاسيوس المشهور، وتحادثنا معه في مختلف المواضيع، وسألناه عن سبب ذهابه إلى أن رواية دانتي، الشاعر الايطالي الأكبر، المسماة بالمهزلة الآلهية، هي فكرة مسروقة من رسالة الغفران لأبي العلاء المعرّي، فأدلى إلينا بآرائه في الموضوع، وبيّن لنا أن التشابه الواقع في عدة من النقط لا يمكن أن يكون من قبيل وقع الحافر على الحافر، وقال أيضاً إن رسالة الغفران كانت مترجمة إلى اللاتينية، ككثير من الكتب العربية، فيترجح أن يكون دانتي قد اطلع عليها. ثم سألناه عن رأيه في علماء عرب الأندلس، فرأينا له في حقهم رأياً عظيماً، وذكر منهم عددهم من جملتهم أبو محمد بن حزم، برغم كون ابن حزم طعن كثيراً في النصرانية، وأن آسين بلاسيوس ليس نصرانياً فحسب، بل هو قسيس

مستمسك بدينه. وأما لسان الدين بن الخطيب فقال لنا إنه لا يعجبه. وذكر لنا آسين بلاسيوس أنه تلميذ «قُدَيرهْ» المستشرق الاسبانيولي الذي أصله من العرب، والذي طبع في مجريط كتب ابن بشكوال، وابن الأبّار وغيرهما، وله تحقيقات كثيرة، وإليه يرجع الفضل في تجديد العناية بالعربية في اسبانية.

شقوبية[1] Ségovie

ومن مدن قشتالة المعدودة مدينة «شقوبية» Ségovia وهي مدينة عالية سكانها اليوم ١٥ ـ ١٦ ألف نسمة، وهي مركز مقاطعة منسوبة إليها، ومركز أسقف، وإنما أهميتها هي بكونها من أقدم المدن الايبيرية، وأنها تشتمل على آثار قديمة ذات عظمة، منها القناة الرومانية المعلقة، وفيها كنائس وقلاع باقية من القرون الوسطى، وموقعها أشبه بموقع طليطلة، وذلك أنها مبنية على قمة صخرية، علوها مائة متر، ولها شوارع ضيّقة، معوجّة، معرّجة، غريبة الشكل، والقصر Alcazar في أعلى القمة، وبالقرب منه الكنيسة. وللبلدة نهر يقال له «اريسمة» يجري في جانبيها، ولها أسوار قديمة من زمان الايبيريين، ثم جددها الرومانيون. ولها أرباض مثل «سان دورانزو» و«سان مرقس» و«سان ميلان» مبنية في سفوح الجبل الذي هي عليه.

أما القناة المعلقة، التي هي مع جدران طرّكونة، أعظم مآثر الرومان في اسبانية فالمظنون أنه كان بناؤها في أيام أغسطس قيصر، ثم تجددت في أيام فلافيانوس، أو تراجانوس، كما يظهر في الكتابات الباقية، والماء مجلوب من شارات «فنفريا» Fuenfria، وهو يجري في البداية مكشوفاً على مسافة ١٦ كيلومتراً، إلى أن يصل إلى شرقي شقوبية، حيث يُنِيَتْ له خزّانات، ومن هنا يكون مجراه على جسر طوله ٨١٨ متراً. منه على مسافة ٢٧٦ متراً قسم مبني طبقاً عن طبق، ولهذا القسم ١١٩ قوساً، وهو الواصل بين جانبي الوادي العميق، وارتفاع أركان الجسر هو من سبعة أمتار إلى ٢٨ متراً ونصف، وجميع البناء هو من الحجر المحبّب. ولما حاصر العرب شقوبية سنة ١٠٧١ انهدم في أثناء

---

(١) قد كان لهذه البلدة شأن عظيم في قشتالة القديمة، ولم تبق في أيدي المسلمين أكثر من نصف قرن، إذ ابتدر استرجاعها الأذفونش الأول، أو ابنه فرويله، ثم عاد فزحف إليها المنصور بن أبي عامر وفتحها، في جملة ما فتح من شمالي أسبانية، ولكن بعد موته، وبعد اشتعال الفتنة الكبرى في قرطبة، انتهز الأسبان الفرصة فاسترجعوها هي وسموره وطلمنكة وآبلة، وما يتبع هذه المدن من النواحي. وكان الفريقان اللذان يقتتلان في قرطبة، كلما استعان أحدهما على الآخر بالأسبانيول، اشترط هؤلاء عليه لمعاونته على الفريق الآخر، تسليم كذا وكذا من الحصون، فيبادر المسلمون بالتخلي للأسبان عنها، كما سيأتي مفصلاً.

الحصار خمس وثلاثون قوساً، وبقيت مهدومة إلى زمن الملكة ايزابلاّ، فأمرت بتجديدها. وهذه القناة المعلقة تمر فوق ساحة يقال لها إلى اليوم ساحة «السويقة» La Plaza Del Azoquejo هي في مدخل المدينة العليا وهذه الساحة هي أهم مركز للبيع والشراء واسمها عربي كما لا يخفى. وفي شقوبية ساحات أخرى، وفيها كنائس متعددة، منها كنيسة سان ميكال، بنيت سنة ١٥٥٨، والكنيسة الكاتدرائية، بدأوا بها سنة ١٥٢٢، وانتهوا منها سنة ١٥٧٧، بناها المعلم «جوان خيل اونتانون» باني كنيسة طلمنكة، وابنه «لذريق بن خيل» وطول هذه الكنيسة ١٠٥ أمتار، وعرضها ٤٨ متراً. أما القصر في شقوبية فهو من بناء الأذفونش السادس، وكان قد تهدم ثم تجدد.

وبالقرب من شقوبية بلدة يقال لها «سان ايلدفونسو» San Ildefonso سكانها أربعة آلاف نسمة، في موقع بديع، يقصدها الناس للاصطياف، يقال إن بانيها هنري الرابع، جعل فيها هناك مكاناً ينزل فيه عندما كان يذهب إلى الصيد، وذلك سنة ١٤٥٠، وبالقرب من هذه البلدة قرية يقال لها «لاغرنجة» La Granja وكانت مكاناً لفيليب الخامس أول ملوك البوربون في اسبانية، وقد بنى فيها قصراً وحدائق على نسق وطنه فرنسة. وكان يجلس فيها خلفاؤه. مثل فرديناند السابع. وبالقرب من هناك بلدة «ارانجويز» Aranjuez وهي بلدة سكانها ستة آلاف نسمة، يمر عليها جدول من نهر تاجُه، فيسقي البسائط التي حواليها. وهذه البلدة قديمة من زمن الرومانيين، وكانت تصطاف فيها الملكة ايزابلا الكاثوليكية. وقد بنى فيها الامبراطور شارلكان مكاناً ينزله عند الصيد، فصارت هذه البلدة مركزاً لاصطياف ملوك اسبانية إلى زمن كارلس الرابع، الذي تخلّى هناك عن الملك لابنه سنة ١٨٠٨ ومن ذلك الوقت أهملت الأبنية الملوكية هناك، ولم يبق للنزهة غير الجنان البديعة التي تحدق بها، ومن الغريب أنهم كانوا يقيّظون فيها، مع أن الحرارة ربما تصعد فيها إلى درجة ٤٧ من ميزان سنتيغراد. والحقيقة أن أحسن فصل في أرانجويز هو فصل الربيع. وهي بالنسبة إلى ملوك اسبانية أشبه بڤرساي بالنسبة إلى ملوك فرنسة، وبوتسدام بالنسبة إلى ملوك بروسية. والقصر الملوكي في أرانجويز هو من القصور الملوكية المعدودة، فيه كثير من التحف والتصاوير وبديع الصنعة[1].

---

(١) قد ذكر الوزير الغساني في رحلته إلى أسبانية في زمان السلطان مولاي إسماعيل أن ملك أسبانية دعاه للنزهة في أرانجويز هذه حيث رحب به كثيراً وأكرم نزله قال: فدخلنا بستاناً له هناك قد حفّ به واديان كبيران مجموعهما يسمى وادي طاجة وهو المار بمدينة طليطلة من هذا الموضع بعد مروره بمسيرة يوم وهذا البستان هو غاية في جداوله ونظم أشجاره وقد اشتمل على أزهار وأنوار ودواليب وصهاريج وبرك مياه ومقاعد في غاية الاتقان.

طليطلة Tolêdo

هذه البلدة هي من أعظم بلاد اسبانية قديماً وحديثاً، مركزها في وسط اسبانية، وإن كانت أميل إلى إلى الجنوب منها إلى الشمال، وأصل بنائها متوغل في القدم، يقال إنها كانت حاضرة الكاربيتانيين Carpetani، وقد ورد ذكرها في كتاب المؤرخ الروماني «تيتليف»، وهو يقول لها «طُليطُم» Toleteum، ويذكر أنها بلدة صغيرة، ولكنها منيعة بموقعها الطبيعي. استولى عليها الرومانيون سنة ١٩٢ قبل المسيح، وفي زمن القوط Visgoths جعلها الملك «أتانجلد» كرسياً لملكه وذلك سنة ٥٦٧ للمسيح، وصارت هي حاضرة المملكة.

ولما وقع الانشقاق الديني في النصرانية بين الكاثوليكيين الذين يقولون بألوهية عيسى، والاريوسيين الذين لم يكونوا يقولون بألوهية عيسى، جرت في طليطلة مجادلات دينية شديدة، وانعقدت مجامع متعددة لفصل الخلاف، وكان لكل من الحزبين قوة هي كفوء للأخرى، إلا أن الملك القوطي ريكاريد جحد المذهب الاريوسي سنة ٥٥٧ للمسيح، فسادت بعد ذلك الكثلكة في اسبانية كلها. ولم يلبث العرب بعدها أن فتحوا اسبانية، واستولوا على حاضرتها طليطلة، وغنموا فيها مغانم كثيرة، مما سيرد ذكره في القسم التاريخي من هذا الكتاب. ولكن العرب لم يتخذوها حاضرة لملكهم كالقوط لأنهم وإن كانوا وجدوها متوسطة بالنسبة إلى اسبانية، فلم يجدوها متوسطة بالنسبة إلى القوة العربية، وقد كانوا لا يقدرون أن يبعدوا كثيراً عن أفريقية، فلذلك جعلوا مركز الإمارة في أشبيلية، ثم في قرطبة، وصارت قرطبة هي العاصمة مدة قرون متطاولة.

على أن طليطلة كان لها شأن عظيم في زمن العرب، وكانت هي المعقل الأعظم لهم في وجه الاسبانيول، وكانت الثغر الأدنى، وكان فيها أمير من قبل الخليفة وطالما انتقضت طليطلة على قرطبة، وطالما ساق عليها بنو أمية من قرطبة الجحافل الجرارة. وكانت تمتنع عليهم، وربما تغلب عليها الخلفاء بالحيلة، كما سيأتي خبره. وأخيراً عندما جرت الثورة في قرطبة، وانتثر سلك الخلافة، استأثر بأمر طليطلة الأمراء بنو ذي النون، واستقلوا بها سنة ١٠٣٥ . وفي جميع أدوارها كانت مدينة علم وصناعة، وفيها أحسن معامل السلاح ومناسج الحرير والصوف. وفيها صنعة الحفر والتنزيل على المعادن، وهي الصنعة الباقية إلى الآن من أيام العرب. ونفائس هذه الصنعة تباع في كل أوروبة. ولها في طليطلة تسعة معامل في يومنا هذا، والمترفون يتنافسون باقتناء ما يصنع بها من ساعات، وأسفاط، وعلب، ومحاجن، وأقلام، وسكاكين، وغير ذلك، من عمل اليد، وقد ورث الطليطليون كل هذا من العرب.

وقد بقيت طليطلة في أيدي العرب من سنة ٧١٢ مسيحية إلى سنة ١٠٨٥، أي زهاء أربعة قرون، وكانت في أيامهم كلها زاهرة باهرة. وغلبت العروبة على نصارى طليطلة، فلبثوا نصارى، ولكن اتخذوا اللغة العربية، والثقافة العربية لأنفسهم وكانوا يقيمون صلواتهم، وما يسميه النصارى بالطقوس الكنيسيّة، وذلك باللغتين العربية والقوطية، وصار الاسبانيول يطلقون عليهم اسم «موزاراب» Mozarabes محرفة عن «نصف عرب» ومن الغريب أن رغبة أهل طليطلة في العربية، وصلت إلى أنهم بعد سقوط طليطلة في أيدي الاسبانيول الذين أرجعوها حاضرة لملكهم، لم يزالوا مستمسكين بعروتها، ولبث أخذهم، وعطاؤهم، وبيعهم، وشراؤهم، وجميع صكوك معاملاتهم، بالعربية[1] إلى سنة ١٥٨٠، أي أن آثار العربية لم تندرس من طليطلة إلا قبل عهدنا هذا بثلاثمائة سنة لا غير. وكان ذلك بتكرار الأوامر الصادرة من الحكومة بمعاقبة كل من يتكلم بالعربية، أو يكتب بها، ولولا ذلك لربما كانت بقيت العربية في طليطلة إلى يوم الناس هذا.

---

(١) ومن شدة رغبة مستعربي طليطلة في اللغة العربية كانوا ينقشون على قبورهم فضلاً عن دورهم الكلمات العربية التي يعبرون بها عن مرادهم فقد وجد من هذه القبور في طليطلة من جملتها قبر تاريخه سنة ١١٥٦ مسيحية وعليه بلاطة مكتوب عليها اسم الدفين بالعربي وباللاتيني متقارنين ذكر ذلك لاوي بروفنسال ونقل نص الكتابة وهو هذا: بسم الله الرحمن الرحيم كان من مضى الله برحمته مقاييل بن سمنة من دار الدنيا إلى دار الآخرة يوم الأحد ماضي من نوننبر أربعة أيام سنة أربعة وتسعين ومائة وألف لتاريخ الصفر نضر وجهه و . . . وقد نقل الكتابة اللاتينية التي بجانب الكتابة العربية وقال ما يفيد أن صاحب هذا القبر كان من الطائفة المستعربة في طليطلة وهي فئة من النصارى الأسبانيين اتخذت اللغة العربية لساناً لها حتى بعد رجوع طليطلة إلى الأسبان ثم ذكر قبراً آخر تاريخه ١١٦٠ مسيحية وعليه كتابة عربية بجانبها كتابة لاتينية أيضاً ونصها: لتاريخ الصفر هذا القبر لشمسي ابنة ابن الشيخ رحمها الله وجعل الجنة مأواها بيوم أربع وعشرين لشهرا اغشت ثمانية وتسعين ومائة ألف ولما كان لاوي بروفنسال يترجم كل هذه الكتابات للأفرنسية فقد ترجم لفظة «شمسي» بقوله بالأفرنسية Mon Soleil وقال إنه اسم متداول كثيراً بين مستعربة طليطلة. قلنا: نعم قد مر علينا هذا الاسم في الصكوك التي نقلناها كانموذجات لمعاملات نصارى طليطلة باللغة العربية ولكننا نميل إلى الظن بأن لفظة شمسي ليست من باب الإضافة إلى ضمير المتكلم بل هي شمسة بالتاء المربوطة ملفوظاً بها بالإمالة التي كانت غالبة على لفظ أهل الأندلس. فبدلاً من أن يقولوا «شمسة» بفتح السين كانوا يقولون «شمسة» بكسر السين كما يقول أهل سورية اليوم لأن الإمالة هي لهجة أهل سوزية أيضاً وأصل وجود الإمالة في لغة الأندلس آت من الشام. فأما كتابة شمسي هنا بالياء فلا عبرة به بل هو غلط إملاء كما هو في كتابات أخرى لهؤلاء المستعربين ورد فيها إملاء لفظة «مضا» بالألف و «أتا» مما نقله لاوي بروفنسال نفسه. ثم إن لفظة شمسة هي ذات أصل في اللغة وهي مستعملة في سورية كاسم مرة من طلوع الشمس أو انتشار نورها ولها في اللغة حتى معنى آخر وهي مشطة معلومة للنساء. وأنت إذا ذهبت إلى سورية الآن تجد أسماء لا تحصى من قبيل «نجمة» فلو ترجمت هذه اللفظة فلا ينبغي أن تترجم Mon étoile لأنها ليست لفظة نجم مضافة إلى ياء المتكلم بل هي مؤنث «نجم».

وقد جمع «أنجل غوانزاليز بالانسيه» أحد أساتيذ الأدب في مجريط Angel Conzalez Palencia تحت عنوان «نصف العرب، أو موزاراب طليطلة، في القرنين الثاني عشر والثالث وعشر» عدداً كبيراً من الصكوك والوثائق، التي كانت تكتب في طليطلة لذلك العهد، فبلغ ذلك ثلاثة مجلدات، فيها ما يناهز ألف صفحة بالقطع الكبير مع ترجمتها بالاسبانيولي. وإليك بعض أمثلة من هذه الوثائق.

«بجميع منافعه كله إلى آخرها، وعامة مرافقه على ضروب أنواعها، في قاعته، وفيما عليها، وبكل حق وملك، هو من هذا المبيع الموصوف وبه وله ومنسوب إليه، في داخله وخارجه، وبالدخول إليه والخروج عنه، لم يستبق البايع المذكور لنفسه، ولا لأحد بسببه، في شيء من جميع المبيع الموصوف كله، حقاً ولا ملكاً، قليلاً ولا كثيراً، ولا منتفعاً بوجه من الوجوه كلها، ولا بسبب من الاسباب، إلا وخرج عنه للمبتاع المذكور، بالبيع الصحيح التام البتّ البَتْل[1] الناجز الصريح الذي لم يتصل به شرط مفسد ولا ثُنياً ولا خيار» انتهى.

مثال آخر:

«دفع الأرسيدياقن[2] المذكور جميع الذهب الموصوف كله للبايع المذكور، وقبضه منه، وصار عنده وفي ملكه وذمته، وأنزله في جميع المبيع الموصوف كله منزلة ذي المال في ماله، وذي الملك في ملكه، بعد أن عرفا قدر هذا المبيع ومبلغه بمنتهى خطره، ولم يجهلا شيئاً منه، وعلى سنة النصارى في بيوعهم وأشريتهم، ومراجع إدراكهم» اهـ.

مثال ثالث:

«شهد على إشهادهما بالمذكور فيه عنهما، من إشهاده به على أنفسهما، حسب نصه وسمعه منهما، وعرفهما بحال الصحة والجواز والطواعة» اهـ.

وإليك هذا الصك:

«اشترى ربى بواسحق بن نحميش اليهودي من جميلة بنت فرج زوجة البليوشي البنّا جميع[3] خصّها وهو النصف من الكرم المعروف بالقوجال بحومة قرية جَلَنْكِشْ[4] من قرى

---

(١) البتل هو القطع مثل البت.

(٢) Archidiacre أو «أرشيد ياكر» بالأفرنسة وهو ذو رتبة كنسية له الحق في مراقبة القسيسين الذي يخدمون الرعية وتفقد أعمالهم والرتبة هي نفسها يقال لها «أرشيد ياكونة» Archidiaconat وأما في الأسبانية فصاحب هذه الرتبة يقال له «أرسيديانو» Arcidiano وقد قال له العرب «أسيدياقن».

(٣) الخص هو بيت من الشجر أو الورق وهو كثير الاستعمال في لغة سورية ولا نرى المبيع هنا بيتاً من الشجر أو الورق وإنما هو نصف كرم والفرق ظاهر ولعلهم توسعوا في هذه اللفظة أو هي «خاصها» وقد كتبت بحذف الألف ككثير من الألفاظ.

(٤) Chalencas.

مدينة طليطلة وعلى الإشاعة فيه مع من يشركها بسائره وحدُّه في القبلة الطريق وفي الجوف جبل لابن برطال، وفي الشرق كرم ابن فرنجيل[1] وفي الغرب الطريق وفيه بابه بثمن عدته ثلاثمائة مثقال من الصروف الجارية بطليطلة حين هذا التاريخ بما فيه عشر درهما[2] بمثقال على سنة المسلمين في بيوعهم ومرجع الدرك. في رمضان المعظم عام خمسة وتسعين وأربعمائة[3].

ومن أشهده علي بن البليوشي بإجازته له وإمضائه له وإقراره الاّ حق له في شيء من المبيع المذكور وبوجه من الوجوه ولا سبب من الأسباب، وإنه كان لوالدته جميلة إلى أن باعته حيث وصف.

إبراهيم علي بن سعيد بن الفتح اللدني. وإبراهيم بن وهب (هنا كلمة غير مقروءة). و(هنا كلمة أخرى لا تقرأ) بن يوسف بن الربابي. ومحمد بن أحمد بن سعيد وعبد الرحمن ابن أحمد بن عفيف الفهري وأحمد بن محمد (كلمة ممحوَّة). ومحمد بن عبد الله بن مظاهر الأنصاري. وأحمد بن يوسف الأنصاري. وإبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي... وسلمة بن يونس الأنصاري. ويحيى بن عبد الله... الغافقي».

وإليك هذا الصك:

«اشترى عبيد بن أسد من خلف بن عبد الله جميع الكرم الذي له في أول منزل رزين. حده في القبلة نهر تاجه، وفي الجوف كرم يشت الحريري[4]، وفي الشرق كرم لأبي خالد، وفي الغرب غروسات السلطان[5] أيده الله، بثمن عدته ستون ديناراً، من البريزات[6] الجارية بطليطلة حين هذا التاريخ، وفي شهر نونمبر الكاين في سنة ثلاثين ومائة وألف من تاريخ الصفر[7].

---

(١) Aben Franchil.

(٢) كذا.

(٣) هذا الصك تاريخه بعد خروج طليطلة من يد الإسلام بسبع عشرة سنة.

(٤) Justo el Hariri.

(٥) السلطان هنا هو الأذفنش لأن تاريخ الصك واقع في أيام دولة الأسبان بطليطلة فقد كان رجوع طليطلة إلى الأسبانيول يوم الثلاثاء مستهل صفر سنة ٤٧٨ وقيل في المحرم.

(٦) كذا. فهل هي محرفة عن «ابريزات»؟ بمعنى ذهبات. أو لها تأويل آخر؟

(٧) تاريخ الصفر هو تاريخ كان مصطلحاً عليه في أسبانية من قبل دخول الإسلام بل من قبل المسيح وكان مبدأه في أول يناير سنة ٣٨ قبل المسيح لعهد أغسطس قيصر وبقي هذا التاريخ معروفاً في أسبانية إلى القرن الخامس عشر للمسيح.

ومما وجب إلحاقه إلى المدخل للكرم الموصوف فوق هذا على باب الكروم[1] الذي لردريقة قسيس السلطان الذي هو من ليون والباب المذكور مشترك بينهما إذ كان الكرم في القرع واحد وعلى ذلك كله يقع الاشهاد.

عبد الرحمن بن زكريا: يوان بن خلف شاهد. سليم بن زكريا وكتب عنه. سليمان ابن عمر شاهد وكتب عنه. وعلي بن الحرير. عبد العزيز بن خير. وعبد الله ابتوال. وسليمان بن المدجالة. إليان بن سعيد. وعبد الملك بن عبد الملك وكتب عنه وعليه شهد عندي. وبخط عجمي جليانش بطريس تشتا. وبخط عجمي سيدا له ابن مشارك شاهد. وعلى كل اسم من العجمي معلم شهد عندي. وبالعربي أبو خالد بن أسطر اهـ.

مثال آخر:

«اشترى خير بن ركوى من يحيى بن عبد السلام جميع الدار التي له بحومة رحبة القشالي[2] حد الدار في الشرق دار خلف بن جواد[3]، وفي الغرب دار جلبارت الفرنجي[4]، وفي القبلة دار أبي الحسن بن زكرى وفي الجوف دار مفرِّج بن عثمان بثمن عدته أربعون ديناراً من الدينارات الجارية بطليطلة حين هذا التاريخ من شهر إبريل في سنة واحد وثلاثين ومائة وألف من تاريخ الصفر.

وشهود الأصل فيه: فرج بن عبد الله. ومسعود زرقون شهد وكتب. وعبد الرحمن بن يحيى شاهد على ذلك. وعيسى بن الحسن شاهد وكتب عنه بأمره. وعيشون بن يحيى شاهد. هذيل بن حكم شاهد وكتب. زكرى بن عثمان شاهد وكتب عنه. وبالأعجمي يُشتُش[5] بطرُه[6] يُشتش.

صحت هذه النسخة (الخ) في العشر الأوسط من شهر شبتمبر سنة ثلاثين ومائتين وألف للصفر. يوان بن يليان الصقلي شهد. ويوانش بن مقايل بن عبد العزيز المشناري. وباطرُه بن عمر بن غالب بن القلّاس».

---

(١) استعمل هنا الجمع استعمال المفرد بدليل قوله «الموصوف» وقوله عنه «الذي».

(٢) Plaza del Caxali.

(٣) Jàlaf ben Chuad.

(٤) Chelabert el franco من هنا يعرف أن طليطلة بقيت حتى بعد رجوعها إلى الأسبانيول بلدة عربية يشار فيها إلى الافرنجي بصفته هذه لأنه غريب فيها.

(٥) Justes félix.

(٦) Petro ومن هنا يعلم أنه كان في طليطلة نزر لا يعرفون الكتابة العربية فكانوا يوقعون بالاسبانيولية.

مثال آخر:

«ابتاع يحيى بن خلف ويحيى بن قريش من بيطر وأنفونش[١] وزوجه يشته[٢] جميع المنية[٣] التي لها بمنزل مُشكة[٤] المعروفة من قبل لابن سلمة، والمتصيرة إليهما بالابتياع، التي حدها في الغرب مضربة القرمادين، وفي القبلة المضربة المذكورة أيضاً وفي الشرق محجة سمرة إلى الكرمات، وفي الجوف المحجة السالكة من طليطلة إلى القرضيطة[٥]، وفيها بابها، تخرج بين ذلك حصة لاشتافن من بيت قوبه، وحدها من المحجة الداخلة إلى الثانية، بثمن مبلغه من الدنانير اثنان وثمانين[٦] ديناراً، من الدينارات الجارية بمدينة طليطلة، حرسها الله حين التاريخ كل دينار منه... عشره وإلى ذلك الكريم[٧] المعروف بالقوجول بمنزل مُشكة المبتاع منهما المذكورين بيطره أنفُنْش وزوجه بُشته، والمتصيّر إلى يحيى، ويحيى بالابتياع من البايعين للمنية بيطره وزوجه زيادة وعواناً إلى الدنانير المذكورة في عقب... ابريل التي من سنة ألف ومائة وثلاثة وثلاثين للصفر.

عبد الملك بن عامر. ولب... وعبد الله بن جلبرت. وخير بن يحيى. ومروان بن غالب. يحيى بن معبد وكتب عنه وبأمره. السرقسطي كتب عنه بأمره وعمر بن عامر بن الليث. وعبد الرحمن بن غلمير بن عريب. وعبد العزيز بن سعيد وكتب عنه بأمره. وعبد الله القوطي وكتب عنه بأمره».

مثال أيضاً:

«اشترى ديمنقوس الارجيقس وديمنقوس القس... كنيسة شنت لوقاديه[٨] خارج مدينة طليطلة حماها الله من ميقال... وزوجه بيليه... من الحصة التي له بدار الخازن، وبحوز المشاطر، وهو نصف خمسين ونصف القرية، بمبلغه من الثمن خمسة وأربعين

---

(١) يعرف من هنا أن اسم «الفونس» كما كان يقال له عند العرب «أذفنش» كان يقال له أيضاً «الفونش» و «انفونش» واللام والنون كثيراً ما تقوم إحداهما مقام الأخرى. وقد رجعنا إلى ترجمة هذا الصك بالاسبانيولي فوجدناه يكتب هذا الاسم هكذا Pedro Alfonso.

(٢) يشته هي في الترجمة الاسبانيولية Justa.

(٣) تقدم في هذا الكتاب كلام طويل عن معنى «المنية» وهو البستان.

(٤) في الترجمة الاسبانيولية Manzel Mosca.

(٥) في الترجمة الاسبانيولية Alcardete.

(٦) كذا ويظهر أن كاتب هذا الصك لم يكن يعرب كثيراً.

(٧) تصغير كرم.

(٨) في الترجمة الاسبانيولية Leocadia.

ديناراً من السكة الجارية حين عقده، اشترى ديمنقوس والارجيقوس وديمنقوس المذكوران جميع هذا النصف سهله ووعره عامره وغامره أنادره[١] وقرالاته[٢] وسدوده[٣] وقنانره[٤] وأرحاءه وبرجه، والمدخل إلى جميع الدار والمخرج منه وذلك كله في النصف من شهر مارس من سنة ألف ومائة وخمسة وأربعين.

شهد عندي... بن يوانش شاهد. شهد عندي... بن عبد... شهد عندي، وعبد الرحمن بن...».

مثال آخر:

«اشترى مرتين الأرجيدياقن من يوسف بن يعيش اليهودي جميع الثلاثة جبال الكروم المتصلة التي له بمرطيلة، حدها في الشرق كرم بيطر والجزار، وفي الغرب كرم شلوط، وفي القبلة كرم... الطريق بثمن عدته... اثنتان وثلاثون دنانير الجارية بطليطلة حين التاريخ في شهر مارس الكاين في عام ثمانية وأربعين بعد ألف لتاريخ الصفر.

ويوصف بن... شاهد. وسيف بن العزاد شاهد. إبراهيم بن إسحق ومرتين الخيَّاط. عمر بن عبد الله، وعبد الملك بن مرتين بن خير، وسعدان بن عبد الله، ويعقوب البرسلوني شاهد».

مثال آخر:

«اشترى ميقايل بن بقى من البيرة زوج فرننده منيوس، وبينهما منيوه وغانصالُبه، وأختهما وابنتهما شولي جميع نصف الجنان المعروف لهم بحومة الليتيق من نظر مدينة طليطلة، حماها الله، على الإشاعة، حده في الشرق نهر تاجُه، وفي الغرب حده أرض بيضة للشيخ ابن مُشقيق، وفي القبلة نهر تاجُه أيضاً، وفي الجوف[٥] المحجة السالكة،

---

(١) جمع اندر وهو الذي تدرس عليه الحبوب كالبيدر.

(٢) هو جمع قرال وهو حظيرة الحيوانات تكون وراء المنزل وهذا لفظ اسبانيولي استعمله عرب الأندلس.

(٣) وفي الترجمة الاسبانيولية Azud فيظهر أن الاسبانيول أخذوا لفظة «السد» إلى لغتهم.

(٤) في الترجمة الاسبانيولية Canales أي قناة فيظهر أن الأسبان أخذوا هذه اللفظة إلى لغتهم وضموا إليها اللام ثم رجعت العامة في طليطلة فجعلت اللام راء وجمعت الكلمة جمع تكسير على «قنانر» بدلاً من أن تقول «قنالات» أو تردها إلى العربي الفصيح فتقول «أقنية».

(٥) تقدم لنا بحث غير قصير عن قضية استعمال الأندلسيين والمغاربة لفظة الجوف بمعنى الشمال واختلاف آراء أدباء العصر وأهل اللغة في منشأ هذا الاصطلاح ولما كان بعضهم ذهب إلى كون الجوف إنما استعمل بمعنى الشمال لأن مدينة الجوف ونواحيها واقعة في شمالي الحجاز وذلك قياساً =

بثمن عدته مائتين ديناراً اثنتين من الفرود الجارية حين التاريخ، والمثقال الشرقية المأمونية، دينارين وسدس في عقب فبرير سنة تسع وأربعين ومائة وألف لتاريخ الصفر.

سهل بن خلف بن علي، حسان بن جهيد وسلمة بن سعد وكتب عنه بأمره، عبد الله بن حسَّان».

مثال آخر:

«اشترى ديمنقُه بن يحيى من سفيان بن أبي البقى ومفرّج بن خير، جميع حصتهما من المنية التي بمنزل مُشكة، من نظر مدينة طليطلة حماها الله، وذلك الثلث من جميع هذه المنية التي تعرف في عهد الإسلام... مع ثلث البير وثلث ثمار القباوب على البحيرة، وثلث الصهريج مع... والمدخل والمخرج إلى البير والصهريج، وحد هذا الثلث المذكور في الشرق كرم لأبي إسحاق القمراني مع القس ابن فرحون، وفي الغرب حصة لورثة يحيى ابن سرير رحمه الله، وفي القبلة فدان حُبس على شنت فليج[1] وفي الجوف الطريق الداخل إلى القرضيط، بعدد مبلغه من الذهب المرابطية[2] سبعة عشر مثقالاً، في أول شهر سبتمبر عام خمسين ومائة وألف تاريخ الصفر.

إن ثلث المنية المذكورة فوق هذا أن ثلثي أرضها أرض بيضا خاوية عن جميع الثمرات والكرم والغراسات، وجميع الثلث المذكور بغير تعليق[3] ولا اعتمار.

عمر بن سعيد شهد وخلف بن عمر كذلك، وسلامة بن مقيال شهد، وعبد الله بن عثمان نقطة، وعتبة بن وليد ورمَّان بن عامر، وخير بن مورن. وعبد العزيز بن أبي الحسن ابن أبي رجال، ويعيش بن فيليش، وعبد الملك بن بهلول، وبهلول بن... وكتب عنهم بأمرهم، وعبد الله بن فرسان وكتب عنه، وعبد الرحمن بن عبد الرحمن شاهد، وعثمان بن عثمان شاهد وكتب عنه.

= على أن أهل الشام يستعملون القبلة بمعنى الجنوب فقد سألت حضرة الوجيه المفضال الشيخ محمد نصيف المشهور من أعيان جدة هل لهذا الاصطلاح من أثر في الحجاز؟ فأجابني أنه سأل العلماء والقضاة وكتاب المحاكم والمحامين وغيرهم فأجابوه بأنهم لم يسمعوا بشيء كهذا ولا رأوا في الصكوك والوثائق القديمة تسمية الحد الشمالي بالجوف بل الحدود في الحجاز هي هكذا: شرقاً وغرباً وشمالاً ويميناً أي جنوباً وقد يقولون جنوباً. فثبت من هنا أن لاستعمال الجوف بمعنى الشمال وجهاً آخر خاصاً بالأندلس نفسها وقد يكون جاء إلى المغرب من الأندلس.

(١) Félix.

(٢) كانت المسكوكات المرابطية في ذلك العهد متداولة لأن المرابطين كانوا في الأندلس.

(٣) لا نعلم هل هي هكذا من الأصل أم هي محرفة عن «تعزيق» وهو مصدر عزق فعل المبالغة من عزق الأرض شقها وكربها.

شهدوا الشهود على. . . بعد إقرار الفريقين في التاريخ المؤرخ إن شاء الله».

مثال آخر:

«اشترى يوانش بن ملّوك بن استافن بن عبد الرحمن جميع الغرس مع الأرض البيضا المتصلة به المعهودين له بحومة بنال من عمل طليطلة حرسها الله، حدهما في الشرق الطريق الناهض إلى حصن مورة حرسها الله، وفي الغرب غرس بيطرُه شرّانُه الحداد، وفي الجوف غرس مرتين بلايس بثمن عدته أربعة مثاقيل ذهباً مرابطياً في شهر يولية من سنة إحدى وسبعين ومائة وألف لتاريخ الصفر.

يحيى بن علي بن يحيى شاهد، بيطرُه بن سهل، ومقيال بن يوانس شاهد، ومسعود بن يحيى بن عفان، فليس بن مروان شاهد وكتب عنه لورانس بن. . . يوانس شاهد».

مثال آخر:

«اشترى بلدوين قيليار وزوجه مونينه من بيطره الخياط، من أهل مدينة شقوبية جميع حصته الواجبة له بالقسمة مع شركة بيطره تعليقس[١] وذلك النصف الذي بجهة الشرق من الميشون[٢] والقرال[٣] المتصل به بحومة ربض الأفرنج، قرب القاعدة شنته مرية أم النور بمدينة طليطلة حرسها الله، حد هذا النصف المبيع من الميشون والقرال، في الشرق حوانت السلطان أيده الله، وحوانت الأحباس، وفي الغرب النصف الثاني الذي لبيطره تعليقس قسيمة المبيع المذكور، وفي القبلة المحجة السالكة، وإليها يشرع باب الميشون المبيع المذكور، وفي الجوف حوانت السلطان أيده الله التي للفخارين بثمن عدته خمسون مثقالاً ذهباً مرابطياً[٤] مالكية طيّبة وازنة، في شهر يوليو من عام اثنين وسبعين ومائة وألف للتاريخ الصفر.

هوبر الافرنجي وكتب عنه، وهربرت بلنك وكتب عنه، وبامين الافرنجي وكتب عنه وغطارد[٥] طليطلة وكتب عنه، وبيطُره بن يوسف بن مروان، ومرتين بن استافن وعثمان بن

---

(١) Talliques بالترجمة الاسبانيولية.

(٢) بالاسبانيولي Meson وهو بمعنى Maison بالأفرنسي أي بيت ولكن يغلب عليه بالاسبانيولي معنى الخان أو الفندق.

(٣) ذكرنا أن القرال حظيرة الحيوانات أو الدجاج عندهم.

(٤) كان هذا العهد عهد دولة المرابطين بالأندلس وربما كان متأخراً عن دورهم ولكن مسكوكاتهم بقيت متداولة. والأصح أن دولتهم انقضت سنة ١١٤٧ للمسيح.

(٥) علامة الشرف عند الأفرنج هي De كما لا يخفى وقد جاءت في هذه الصكوك أحياناً بوضع حرف الدال مع كسرة في آخرها هكذا وجاءت أحياناً بوضع حرف الدال ومعها الياء.

سليمان بن ملك وكتب عنه، ويوليان بن يحيى وكتب عنه، وغونصلبُه فرولس، وكتب عنه أبو علي بن روبين وكتب عنه. وبيطره قولونبيريانة، وكتب عنه وبياك مونس من سنت رمان وكتب عنه، ودون مينوه أدفونش قايد «مورة»[1] شاهد وكتب عنه بامرته».

مثال آخر:

«اشترى الوزير دون ميقايل ميطس، أعزه الله، من بهلول وأخيه بيطره أبي مرتين بن بهلول رحمه الله جميع الدار الكبيرة، والقرال المتصل بها، من جهة الغرب، والقبلاريسا المتصلة أيضاً بها من جهة القبلة، حدود جميع ذلك كله في الشرق الطريق السالك واليه يشرع الباب، وفي الغرب دار ابن طورنيو المسلم[2] أمين الفخّارين، وفي القبلة دار بيطره البنّا ابن بهلول، وفي الجوف دار تيقيت بين البائعين ودار سلمة بن حسان، بثمن عدته ثمانون مثقالاً ذهباً مرابطياً، في العشر الأول شهر اوغوشت من سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف لتاريخ الصفر.

وعبد الله بن داود شاهد. وباقي بن عمر بن باقي. وديمنقوه بن يحيى بن مرتين وبهلول بن عمر شاهد على النص. عبد الله بن البعص. ويوان بن عامر. وعامر بن تمام. وعبد الرحمن بن إبراهيم شاهد. ويحيى بن مفرّج وكتب. وعلي بن عيّاش وكتب عنه. وحكم بن شلمون وكتب عنه. ويوليان بن سلمة شاهد. وجنيد بن عبد الملك بن ليون وكتب عنه. وبيطره بن عبد العزيز بن عطّاف بن لنبطار».

مثال آخر:

«يشهد من تسمى أسفل هذا الكتاب من الشهداء أنهم حضروا وسمعوا من يوان الكراسي وزوجه اويانية، يقولا إنهما باعا من رودويقه اوردوناز الحصّار جميع الكرم الذي لهما بالوعد بحومة كنيسة شنت فليس، قبلي طليطلة، حرسها الله، وحدّه في الشرق كرم لبنت الشمنتاني، وفي الغرب كرم لولدين[3] سربي، وفي القبلة الجبل، وفي الجوف كرم القسكلي بثمن عدته ثلاثة مثاقيل ذهباً مرابطياً، ودفع البايع الثمن إلى البايعين، وأقرّا أنهما قد اتصفا منه وأنزلا في المبيع وحقوقه إلخ. وكتب الاستدعاء في شهر مايو من عام خمسة وسبعين ومائة وألف لتاريخ الصفر.

(١) لا يخفى أن مورة اسم حصن من حصون طليطلة.

(٢) لما قل عدد المسلمين في طليطلة بالهجرة والتنصر صاروا إذا ذكروا مسلماً في أحد الصكوك يذكرونه بقولهم فلان المسلم.

(٣) اسم علم.

يعيش بن قريش شهد عندي، ومرتين بن رمانش شاهد وكتب عنه شهد عندي. شهدوا عندي الشهود بأعيانهم، وفي التاريخ وأنا عبد الرحمن بن يحيى بن حارث وبالله التوفيق».

مثال آخر:

«اشترى مرتين بن أبي حجة من مرتين باطرس قرعتين اثنين من جملة اثنين وثمانين قرعة بقرية الكلبيين والبمار من عمل مدينة طليطلة من أراض بور ومعمور وأنادر، ومروج وأشواط[1] وبرادات وبكل حق، بثمن عدده أربعة مثاقيل مرابطية، ورباعي مثقال ضرب المرية، في شهر نونمبر الذي من عام سبعة وثمانين ومائة وألف للصفر.

شهود الأصل فيه... مجانت بن عثمان بن خلف. وعمر بن عبد الله شاهد. ويحيى بن سعيد شاهد كذلك. وبالعجمي سبربان بطرس تشتش. ديمنقُه شربطول تشتش.

هذه النسخة إلخ. في العشر الأخير من نونمبر سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف للصفر:

اشتابن بن لازُره. وشلبطور[2] بن سهل بن عبد الرحمن. ويحيى بن وليد بن قاسم. وباطره بن عمر بن غالب بن القلّاس».

ولا يمكننا أن نستقصي جميع الصكوك والحجج التي في هذه المجموعة التي تقع في ألف صفحة كبيرة، وإنما اقتبسنا منها بعض أمثلة لأجل تمثيل حالة طليطلة الاجتماعية، التي قيل فيها بحق إنها الحد الواصل بين الإسلام والنصرانية، والتخم الذي يجمع بين الشرق والغرب، ترى ذلك من اختلاط الأسماء فبينما الأب هو عمر إذ الابن هو بطره، وبينما الأب هو عبد العزيز إذ الابن هو ميقيال. وربما تجد بيطره بن يحيى بن أصبغ، واشتافن بن حسّان، ومرتين بن عثمان، وشلبطور بن عبد الرحمن وهلم جرا. والسبب في ذلك هو أنه لما فتح العرب الأندلس، وأسلم من أهلها أناس كثيرون استعربوا اسماً وفعلاً. ومنهم من لم يدخل في الإسلام، ولكنه استعرب وهو باق على نصرانيته. وأكثر ما تجلّى هذا الوضع في مدينة طليطلة التي كان النصارى فيها يشبهون نصارى المشرق باستعمال كثير من العربية في صلواتهم وطقوسهم الدينية.

وقد تبدلوا بأسمائهم الاسبانيولية القديمة أسماء عربية كأسماء المسلمين إلى أن كان القسوس ورجال الكنيسة منهم يتسمون بأسماء إسلامية. وحسبك أن أحد مطارين طليطلة

(١) جمع شوط والشوط بالعربية يأتي بمعنى الأرض بين شرفين يجري بها الماء.

(٢) Salvador.

كان اسمه عبيد الله بن قاسم وكان له مقام عند الخليفة الناصر رحمه الله، كما أنه بعد أن استرجع النصارى طليطلة تنصّر من مسلميها عدد كبير، نقل صاحب النفح عن ابن بسام في الباب الثامن من الجزء الثاني: أنه لما دخل الأذفونش طليطلة سار مع المسلمين سيرة حسنة في أول الأمر حتى استمالهم إليه. وعبارة ابن بسام هي هذه: «وبسط الكافر العدل على أهل المدينة وحبب التنصر إلى عامة طغامها، فوجد المسلمون من ذلك ما لا يطاق حمله، وشرع في تغيير الجامع كنيسة في ربيع الأول سنة ست وتسعين وأربعمائة» اهـ.

قلنا: إنه تمهل قليلاً حتى أجرى بالفعل ما كان يضمره من أول ساعة دخوله إلى طليطلة، فأما بحسب الروايات التي بين أيدينا، والتي معناها أن طليطلة خرجت من يد الإسلام سنة ١٠٨٥ مسيحية فإن الجامع الأعظم تحول إلى كنيسة[1] ثاني سنة وقد رأينا في

---

(١) قد جاء ذكر طليطلة في رحلة الكاتب الأرفع أبي عبدالله بن عبد الوهاب الوزير الغساني الأندلسي الفاسي، كاتب السلطان مولاي إسماعيل، الذي أرسله السلطان سفيراً في بعض المهمات إلى صاحب أسبانية، وكان قد جول في تلك المملكة واطلع على أحوالها فكتب رحلة شهيرة بديعة اتصلت بترجمتها إلى اللغة الأفرنسية قبل أن أطلع على أصلها العربي الذي أهدانيه العلامة الكبير المؤرخ الشهير مولاي عبد الرحمن بن زيدان، نقيب العائلة السلطانية العلوية بالمغرب، أدام الله عزهم، وقد نقلت كثيراً من هذه الرحلة إلى الفصل المتعلق بمسلمي الأندلسي في كتابي حاضر العالم الإسلامي. وكانت وفاة الوزير الغساني في فاس عام تسعة عشر ومائة وألف. قوله عن طليطلة: قد أمر الطاغية من أصحب معنا من خدامه بمرورنا على مدينة طليطلة لنشاهد مسجدها الجامع الذي هو من عجائب الدنيا في بنائه وذكره وبعد صيته فبتنا يوم خروجنا من مدريد بقرية يقال لها وشقة، وكانت من حواضر العدوة التي لها ذكر، دار علم ونباهة، وهي اليوم قرية متبدية، وبها من أثر البناء القديم الإسلامي بعض أثر مثل الباب الذي يدخل به إليها حين كانت مدينة. أما اليوم فالتبدي أقرب إليها من الحضر. وبينها وبين مدينة طليطلة أحد وعشرون ميلاً. وطليطلة مدينة كبيرة قاعدة من قواعد مدن العدوة، ودار ملك قديم، وهي على ربوة من الأرض، في حافة مطلة على الوادي المسمى طاجو، وهو الوادي المار بأرنجويس ـ كتب الوزير الغساني طاجو وأرنجويس بالخاء لا بالجيم وذلك بحسب تلفظ الاسبانيول بهما ـ وقد أحاط هذا الوادي بالحافة التي عليها المدينة من ثلاثة أرباعها والربع الموالي للبر هو الآتي من طريق مدريد. وأسوار هذه المدينة وحيطانها وأزقتها باقية على حالها من عهد عمارتها من المسلمين، وأثرها أثر الحضارة، إلا أن أزقتها ضيقة جداً، ودورها باقية على حالها من البناء الإسلامي وتفصيله، والنقش في السقوف والحيطان بالكتابة العربية، ومسجدها الجامع هو من عجائب الدنيا، إذ هو مسجد كبير مبني كله من الحجارة الصلبة الغريبة، القريبة الشبه من الرخام، وسقوفه مقبوة من الحجارة وهي في غاية ارتفاع السمك وعلوه، وسواريه في غاية الضخامة، والصناعة العجيبة والنقوش، وقد أحدث النصارى في هذا المسجد من جوانبه زيادة في الوسط بشباك من نحاس أصفر، وفيها من تصاويرهم وصلبانهم وآلة الموسيقى المسماة عندهم أوركان التي يضربون بها وقت صلواتهم، مع الكتب التي يقرأونها في الصلوات، شيء كثير وقد جعلوا أمام هذا الشباك صورة المصلوب، وهو من ذهب، يقابلونها في صلواتهم، =

دليل بديكر أن الأذفونش السادس فتح طليطلة سنة ١٠٨٥، وكان المسلمون اشترطوا

= وأمام المصلوب مصابيح كثيرة من ذهب وفضة، توقد ليلاً ونهاراً، مع شموع كثيرة كبيرة. وأبواب هذا المسجد في غاية الاتقان والصناعة. وقد زادوا فوقها من الصور ما هو من عوائدهم التي لا يمكنهم تركها، ومن الزيادات المحدثة في جوانب هذا المسجد بيوت كثيرة كبيرة مشتملة على خزائن من الأموال، فيها من الذخائر والأحجار الملونة، مثل الياقوت الأحمر والأبيض، والأصفر، والزمرد، والتيجان المرصعة بالدرِ الفاخر، والأحجار النفيسة التي لها بال، ولا تقوم بمال، ومع هذه الذخائر تاج كبير من ذهب، ومعه سواران من ذهب، زعموا أن ذلك من عهد المسلمين رحمهم الله. وعن يمين هذه الخزائن خزانة فيها كتاب كبير مكتوب بماء الذهب، زعموا بأنه كتاب التوراة، وهو عندهم في غاية التحفظ والصون والاعتناء به، لا يخرج عن موضعه الذي به، وذكروا أن والد هذا الطاغية أحب إخراجه من هناك، وأن يكون عنده بعد أن أعطاهم فيه مدينة كبيرة بخراجها وجميع منافعها، فلم يعطوا به كلاماً، لضنهم به. وعن يمين هذه الخزانة أيضاً خزانة أخرى، فيها صندوق كبير مرصع، مشحون بالموائد الفاخرة المرصعة بالذهب، مثل الهدايات والقلائد والسلاسل والخواتم الثمينة وعن يمينه صومعة من فضة، تزيد على قامة الإنسان، وداخلها وخارجها من الذهب المرصع بالأحجار النفيسة، وقد عمل هذا المنار على شكل منار مسجد طليطلة، وعلى هيئته ومثاله، وهو عندهم زينة، يخرجونه في أعيادهم مع الصلبان التي يطوفون بها في الأزقة، وهذا المنار الذي بهذا المسجد، أعاده الله للإسلام، وعمل هذا على شكله، هو من أعاجيب البناء صناعة وعلواً في الجو، فقد اشتمل على ثلاثمائة درجة. منها مئتان إلى موضع التأذين وفي موضع التأذين جعل أعداء الله تعالى تسعة نواقيس كبار جداً، دائرة، كل ناقوس منها ستة وثلاثون شبراً، مع غلظ ثلاثة أرباع الذراع وبناء هذا المنار كله من الحجارة الصلبة التي تشبه الرخام، من جنس الحجر الذي بني المسجد منه، نسأل الله أن يعيده لتوحيده وذكره، وحوالي هذه الخزائن من الخزائن المشحونة بالقناديل الذهبية والفضية والصلبان المرصعة، والثياب التي يلبسها الفرايلية، وأكابر القسوس والشمامس والرهبان، التي طرزت بالجوهر النفيس شيء كثير. وهؤلاء الرهبان الذين في هذه الكنيسة هم جميعاً إلى نظر الكردينال، الذي هو اليوم أكبر كردينال عند سائر المسيحية، وهو الذي تحت البابا كما تقدم التنبيه عليه، وإلى البابا دمرهما الله. وحيث كانت طليطلة هي من قواعد مدن أسبانية، كان الكردينال الذي يتولى أمر كنيستها أكبر من يتلقب بالكردينال عند عبدة الصليب. وهذا الكردينال الموجود اليوم هو رأس ديوان أسبانية، وإليه ينتهي جميع أمرهم في دينهم ودنياهم، وعن رأيه يصدر كتاب الديوان جميعاً، وفي طليطلة أثر القصبة التي كان يسكنها الملوك قبل هذا، وقاعدة طليطلة كانت دار ملك العجم الأولى، هي وأشبيلية، وإليها كان قصد طارق، رحمه الله، بوجهته حين دخل العدوة، بعد مروره بقرطبة، ولم يعرج على غيرها، حتى انتهى إليها، ووجد بها من الآثار التي تدل على مكانتها ما لا حصر له. ومن جملة ذلك المائدة المشهورة، إلا أن بعض أهل التاريخ يزعم أن المائدة لم تكن بطيطلة، بل كانت بموضع آخر قريب من طليطلة، يسمى وادي الحجارة وان طارقاً لما فتح طليطلة خرج إلى الموضع المعروف وادي الحجارة قرب الفج الذي كان ينسب إليه خلف الجبل حتى بلغ مدينة المائدة، وسميت بذلك لوجودها بها، وهي المنسوبة إلى سليمان بن داود عليهما السلام، وقيل إنها كانت من زبرجدة خضراء، وانها كان لها ثلاثمائة وخمس وستون رجلاً والله أعلم، انتهى.

لتسليمها أن يبقى المسجد الأعظم لهم، ورضي الأذفونش بهذا الشرط، ولكن في السنة التالية نقض الأذفونش، عهده، بناء على الحاح الملكة كونزتانزة وبرنار رئيس الأساقفة اهـ.

وكيف كان الأمر فقد تنصر كثير من مسلمي طليطلة، وبقي كثير من المسلمين على دينهم، لا سيما طبقة الخواص، ولكنهم لم يهجروا البلدة دفعة واحدة. وما خلت طليطلة من المسلمين تماماً إلا بعد قرون متطاولة. ومن الغريب أن طليطلة رجعت إلى النصارى في الثلث الثالث من القرن الحادي عشر للمسيح، وأنه في أوائل القرن السابع عشر كان لا يزال فيها مسلمون في زي نصارى. وقد نقلنا في بحث مسلمي الأندلس في حاضر العالم الإسلامي في الجزء الثاني عن كتاب الأنوار النبوية في أنباء خير البرية، للعالم النسابة سيدي محمد بن عبد الرفيع الأندلسي المتوفى في رجب عام اثنين وخمسين وألف، وصفه يوم كانوا بالأندلس لحالة المسلمين الذين كانوا مضطرين تحت خطر الحرق بالنار، أن يظهروا النصرانية وهم يبطنون الإسلام، وكيف كان والد المؤلف المذكور يعلم ولده الإسلام سراً، ويوصيه بأن يكتم ذلك حتى عن والدته وعمه وأخيه، وجميع أقاربه، وأن لا يخبر أحداً من الخلق بما يعلمه إيّاه في الخفاء. ثم كان يرسل والدته إليه فتسأله: ما الذي يعلمك والدك فيقول لها: لا شيء. فتقول له: أخبرني بذلك ولا تخف لأني عندي الخبر بما يعلمك. فيقول لها: أبداً ما هو يعلمني شيئاً. قال: وكذلك كان يفعل عمي، وأنا أنكر أشد الإنكار ثم أروح إلى مكتب النصارى. وآتي الدار فيعلمني والدي، إلى أن مضت مدة، فأرسل إلي من اخوانه في الله والأصدقاء. فلم أقرّ لأحد قط بشيء، مع أنه رحمه الله تعالى قد ألقى بنفسه للهلاك لإمكان أن أخبر بذلك عنه فيحرق لا محالة. لكن أيدنا الله سبحانه وتعالى بتأييده إلخ. إلى أن يقول: فلما تحقق والدي رحمه الله تعالى أني أكتم أمور دين الإسلام عن الأقارب، فضلاً عن الأجانب، أمرني أن أتكلم بإفشائه لوالدتي وعمي وبعض أصحابه الأصدقاء فقط، وكان يأتون إلى بيتنا فيتحدثون في أمر الدين وأنا أسمع، فلما رأى حزمي مع صغر سني فرح غاية الفرح، وعرفني بأصدقائه وأحبائه واخوانه في دين الإسلام فاجتمعت بهم واحداً واحداً» اهـ.

وقد علقت على هذه الجملة بقولي: إن الإسلام بالأندلس حسبما يظهر من هذا الوصف كان أصبح شبيهاً بجمعية سرية تكتم أمرها أشد الكتمان، ولا يقدر واحد من المسلمين أن يبوح بإسلامه إلا لمن يكون قد ابتلى أمانته، وامتحن صدقه فكانوا يجتمعون سراً إذا كان بعضهم واثقاً ببعض، ويتكلمون في أمر الدين في أشد الخفية. ثم نقلت عنه ما يلي:

«وسافرت الأسفار لأجتمع بالمسلمين الأخيار من جيان، مدينة ابن مالك إلى غرناطة، وإلى قرطبة، وأشبيلية، وطليطلة، وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء أعادها الله تعالى للإسلام فتلخص لي من معرفتهم أني ميزت سبعة رجال، كانوا كلهم يحدثونني بأمور غرناطة، وما كان بها في الإسلام حينئذ، وبما أقوله وقلته بعد، فسندي عال لكونه ما تم إلا بواسطة واحدة بيني وبين الإسلام بها» اهـ.

وعلقت على هذه الجملة الأخرى ما يلي: إنما من عرف كون ابن عبد الرفيع توفي عام ألف واثنين وخمسين للهجرة، لا يخفى عنه أنه كان شاباً في أول سني الألف للهجرة، أي منذ نيف وثلاثمائة سنة. ويظهر له أنه منذ نيف وثلاثمائة سنة، كان في جيان وغرناطة وأشبيلية وقرطبة أناس لا يزالون يدينون بالإسلام سراً، وهما في الظاهر نصارى. وأغرب من هذا وجود مثل هؤلاء في طليطلة المصاقبة لمجريط، والتي كان مضى على استرجاع الاسبانيول لها يوم زارها ابن عبد الرفيع أكثر من خمسمائة سنة. أي أنه بقي مسلمون في الباطن في طليطلة من بعد أن زال عنها حكم الإسلام بخمسمائة عام.

ثم ذكرت في محل آخر من هذا البحث: «وقيل لي إن أحد المغاربة وقع في هذه الأيام الأخيرة ببعض قرى طليطلة، فوجدهم يذبحون الأكباش يوم عيد النحر عندنا، ويقولون إنها عادة توارثوها عن آبائهم» اهـ.

ثم إني أذكر في المبحث نفسه فصلاً عثرت عليه في جريدة «العَمَلة» النمساوية الصادرة في فينة، عددها المؤرخ في ٣ يناير ١٩٣٢، جاء فيه بمناسبة الكلام عن ثورات أهل العمل، كلام عن موريسك الأندلس، وأعمال ديوان التفتيش الكاثوليكي ما يلي:

«فأخذ هذا الديوان ينقّب وينقّر عن الكلّية والجزئية من أعمال المسلمين، ومنع جميع شعائرهم الدينية، بل منع جميع عاداتهم ومذاهبهم في الحياة: ولو لم يكن لها تعلق بالدين، وعاقب على ذلك. وكان يعاقب أشد العقاب من علم عنه أنه لا يأكل لحم الخنزير أو الميتة، أو عرف عنه أنه لا يشرب الخمر، أو قيل إنه أدرج ميتة في كفن نظيف. وكانت النظافة في ذاتها يعاقب عليه، وفي سنة ١٥٩٧ وجد في طليطلة المسمى «موريسكوبار ثولوم شانجه» فلحظ عليه القوم أنه شديد التطهر، فعذبوه عذاباً شديداً، وما زالوا يعذبونه حتى أقر بأنه يتطهر عن عقيدة، فحكموا عليه بالسجن المؤبد، وبضبط جميع أملاكه. ووجدوا قرآناً عند عجوز اسمها «ايزابلا زاسن» فقالت إنها لا تقدر أن تقرأه فلم ينفعها هذا القول، وعذبوها، ولكن لما كان عمرها تسعين سنة اكتفوا من إهانتها بحملها على حمار، والطواف بها في الشوارع وعليها غطاء مكتوب عليه اسمها «وإثمها» ثم زجّوها في السجن بعد ذلك، وبقيت فيه إلى أن علّموها قواعد المسيحية» اهـ.

من هذا الفصل الوارد في جريدة «العَمَلة» النمساوية.

Arbeiterzeitung يتأيد ما رواه ابن عبد الرفيع الأندلسي، من أنه في أوائل القرن السابع عشر كان لا يزال في طليطلة بقايا مسلمين، وأن العروبة لم يكن طمس هناك أثرها بالكلية. وهذا بحث سنفرد له إن شاء الله، بعد أن أعددنا مواده، جزءاً خاصاً من كتابنا هذا.

ونعود إلى طليطلة واختلاط أسمائها، الاسبانيولي بالعربي، والعربي بالاسبانيولي مما يدل على امتزاج المجتمعين في هذه البلدة، بشكل غريب، لم يسبق له مثيل، وإليك أمثلة أخرى:

«باع القائد دون شبيب بن عبد الرحمن من دون دُمنقه مرزالّه الدليل، ومن زوجه يُشتَه بنت مرتين إلخ. والشهود يحيى بن خليل ورفاعة بن يحيى القنتري وإبراهيم بن خليل وعبد الله بن عمر وحسين بن جعفر بن حسين وميقائيل بن شبيب بن عبد الرحمن».

ومثال آخر:

«اشترى القس دون دمنقة بن مقيال بن الريم من بوان باطرس جميع الفدان الواحد الأرض البيضا الذي له بحومة أوليش الكبرى عمل طليطلة حرسها الله. إلى أن يقول: وسعة هذا الفدان المبيع المذكور كسعة كل قرعة هي بالحومة المذكورة بثمن عدته مثقال ونصف من الذهب البياسي الضرب(١). أما الشهود فهم: بيطُره بن يليان بن أبي الحسن، وشلمون بن علي بن وعيد إلخ».

وفي مكان آخر «صك المشتري فيه الارجبرشت(٢) دون نقلاوش القونونقي(٣) بقاعدة شنتة مرية عمّرها الله والبائعة مرية بنت تمام على حفيدها الصغير الذي من غير رشد المسمّى شربند بن باطُرة غرسية الذي في حضانتها. وفي هذا الصك ذكر الوزير القاضي دون يليان بن أبي الحسن بن الباصُه أدام الله عزّه».

وفي صك آخر يقول: «اشترى دون لازر بن علي من دون يوان بن عثمان ومن زوجه دمنقة بنت حنصون جميع الكرم الذي لهما بحايز شنت اشتاين خلف نهر تاجُه وبمقربة من قرال بني أبي مالك من احواز مدينة طليطلة حرسها الله. والتاريخ هو في العشر الأوسط من شهر ينير سنة إحدى ومائتين وألف للصفر والثمن ثلاثون مثقالاً من الذهب البياسي.

(١) البياسي نسبة إلى بياسة من عمل قرطبة ويظهر أنه كان بها دار ضرب لعهد الإسلام.

(٢) Archiprêst القس الأكبر.

(٣) Canonigos القانوني.

والشهود يليان بن فرجون وبيطرو بن اندراش بن عزيزي وميقايل بن سلمة بن سدرابه ولب ابن فرنندس. وفي آخر الصك يقول: وأنا يوان بن عثمان بن عثمان بعت وقبضت» اهـ.

وانظر إلى هذا الصك:

«اشترى الدياقن دون دمنقه نفرُه الذي من أئمة قاعدة شنتة مرية بطليطلة حرسها الله من الإمام دون بيطرو جلبرت منها أيضاً جميع الغرس المعلوم له بحومة برج الشياطين عدوة نهر تاجه في حومة شنت فليس من أعمال مدينة طليطلة المذكورة أنها يصل إليه وهو الغرس الذي كان اغترسه أبو الطيّب المغترس وحدّه في الشرق غرس لدون اشنابن القميراني وفي الغرب شنطير سالك من النهر المذكور إلى الطرق التي بالحومة المذكورة وإلى سواها وفي القبلة غرس الاندراش وفي الجوف غرس لبيطروه اشكردُه بثمن عدده ثلاثة عشر مثقالاً ونصف مثقال ذهباً بياسي الضرب طيباً وازناً في شهر مارس من عام اثنين ومائتين وألف».

وهذا المثال:

«اشترى ميقيال يوانش وأخيه دمنقر يوانش على السواء بينهما والاعتدال من دونة التي كانت زوجاً لاندراش دِحجاج ومن بينهما يوانش ويُليان واشتابن ورومان ومريه وقُلُنْبَه جميع الدار التي لهم بحومة شنت رومان داخل مدينة طليطلة حرسها الله التي حدها في الشرق دار لورثة دمنقه سبريان وفي الغرب الزقاق الغير نافذ والباب فيه شارع وفي القبلة غرفة على اسطوان هذه الدار وهي لدون فيليز شنجس».

وهذا صك آخر:

«اشترى الاردُه[1] الافرنجي وزوجه دونة مرشكيطه[2]، من اولاليه[3] بنت ديقُه، وهي التي كان أخاها بيطروه ديس[4] شيون الكنفرية[5] متاع[6] شنته مريه العظمى، جميع الدار المعلومة لها ولأخيها بيطروه ديس المذكور بحومة شنته مريه القاعدة داخل مدينة طليطلة حرسها الله التي حدها أجمع في الشرق الطريق السالك، والباب إليه شارع، ودار كانت لنقلاش دطوريش، وفي الغرب دار انتالين ولد غلتار لقواس، وفي القبلة دار الوزير القاضي دون رودريقه ديمنقس، ودارلاشتافن مشتابار، وفي الجوف قرال لانتلين المذكور، ولريموند بلدي[7] ولد جفري مرابطي[8]، ودار كانت لأرنلد فرانساشك إلخ».

---

(١) في الترجمة الاسبانيولية Alardo el Franceses. (٢) في الترجمة الاسبانيولية Dona Morisquita.

(٣) Eulalia في الترجمة. (٤) Diaz في الترجمة.

(٥) Sayon de la cofradia في الترجمة. (٦) متاع هنا يراد به المنسوب إلى المكان وهو اصطلاح العامة.

(٧) في الترجمة Raimundo boldi. (٨) في الترجمة Jofré Almoravide.

وتأمل في هذا الصك:

«اشترى دونة لوقاديه بنت ميقائيل شايس، وابنتها دونة مرية، التي كانت زوجاً لدون غرسية القميراني رحمه الله من دونة مرينة التي كانت زوجاً لدون قليام ومن بينهما دون فليز، ودون بيطروه، ودون يوانش، ودونة ديمنقه، جميع الميشون الذي هو حانوت الآن، والشوطار الذي تحته، والغرفة التي عليه، المعلوم لهم بحومة كنيسة شنته مرية القاعدة في ربض الافرنج(١)، داخل مدينة طليطلة، حرسها الله وحد هذا المبيع في الشرق والغرب والقبلة والجوف طريق آخذ على ما يشين الطعام إلى سوق الرقيق، وطريق آخر على اليليندين، إلى سوق الحصّارين، وميشون لقليان دديقرميلش وميشون لارنال ميقلُده، وهو قريب البائعين، وكان قسيم المبيع ومثله بثمن مبلغه أربعون مثقالاً ذهباً، بيّاسية الضرب، طيبة وازنة، بشهر ديجمبر الذي من عام ثلاثة ومائتين للصفر.

وشهود الأصل فيه بيطرو بن يليان بن أبي الحسن، وعمر بن أبي الفرج، وفيليس بن غليام، ويوانش بن غليام، وبيطروش بن غليام، واندراش فرتوم، وميقاييل ارتند. وفي آخره مذكور هكذا: صحة النسخة (إلخ) وذلك في العشر الأوسط من شهر فبرير سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف للصفر.

شلبطور بن عبد الملك بن العريب، ويحيى بن وليد بن قاسم».

وغيره:

«واشترى القس ديمنقُة بن الريم من دونة بنت الوزير القاضي عبد الرحمن بن يحيى ابن حارث، جميع الكرمين المعلومة لها بحومة منزل مُشْقة من مدينة طليطلة حرسها الله، وحد أحدها في الشرق كرم لورثة لب اشنابنس، وفي الغرب نهر تاجُه وفي القبلة كرم لمرتين قالبه وفي الجوف جبل كرم لمرتين قالبه، وقطعة كرم لصق نهر تاجه (إلى أن يقول): حضر لهذا المبيع دون يوليان بن البائعة، وقال أن لا اعتراض عنده فيه وسلَّمه.

---

(١) كان للافرنج أي للفرنسيس حارة خاصة بهم في طليطلة لسكناهم هناك بحسب رواية المسيو لافالي Lavallée وسبب ذلك هو أنه فتح الاسبانيول طليطلة سنة ١٠٨٥ كانت امرأة الأذفونش السادس يقال لها «كونستنزه» وكانت افرنسية الأصل وكان مع جيش الأذفونش الذي فتح طليطلة عدد كبير من الفرنسيس وكان معهم رهبان كثيرون من الفرنسيس أيضاً اشتهر بينهم راهب اسمه برنار من دير ساهاغون Sagahun فلما تم استيلاء الأسبان على طليطلة سكن هؤلاء الفرنسيس فيها. وكانت المملكة التي هي افرنسية الأصل تمدهم وتعززهم حتى أنها جعلت الراهب برنار المذكور مطراناً لطليطلة.

والشهود بيطرو بن مرتين بن بهلول، وبهلول بن غالب، ويوانش بن تمام وعمر بن أبي الفرج. وفي الآخر هكذا: كان ذلك بحضري وانايوانش بن عطاف بن لنبضار».

وغيره:

«اشترى الارجبرشت[1] الأجل دمنُه نقلاوش أدام الله عزه، من ديمنقُه بنت شلبطور[2] أبقاها الله، جميع النصف من المسجد الذي بحومة شنته مرية، بحضرة طليطلة حرسها الله، حد هذا النصف المذكور في الشرق النصف الثاني الذي هو لأختها شول، وفي الغرب حجرة لمريم المسلمة التي كانت زوجاً للأبدي الجزّار. وفي القبلة الدار التي كانت لابرسيوه، وفي الجوف الطريق وإليه يشرع الباب، بثمن مبلغه ثمانية عشر مثقالاً من الذهب الطيب الوازن، في العشر الآخر من شهر مايو سنة خمسة ومائتين وألف.

والشهود: عبد الرحمن بن عبد الملك، وديمنقة بيطروس الباسي، وعبد الله بن عمر بن يوانش بن سليمان، وعامر بن يحيى بن بلاي».

وغيره:

«اشهدت دونة شولي بنت عمر بن هشام، وبنتاها يوشتا وستى بنتى مقيال بن سليمان على أنفسهن شهدا آخر هذا الكتاب أنهن بعن من الوزير الأجل دون اشتافن يليانس، أكرمه الله الربع الواحد على الاشاعة من جميع السد المعروف بسد الفته الذي في نهر تاجُه تحت حصن قلانيه إلخ».

وغيره:

«اشترى يوان مستعرب[3] لدون مَلَندة الدليل، وبمال دون ملنده المذكور من دونه

---

(١) Archiprétre. (٢) Salvador.

(٣) Mozarabe أنه يظهر من هذه الكتابات التي إذا ذكرت الافرنجي تنص عليه بأنه افرنجي وإذا ذكرت الاسبانيولي المتكلم بالعربية تنص عليه بأنه مستعرب وإذا ذكرت المسلم أشارت أنه مسلم وإذا ذكرت اليهودي أشارت إليه بأنه إسرائيلي أنه كان في طليطلة أربع أو خمس فرق منها العرب المسلمون الذين بقوا حافظين للغتهم ودينهم حتى بعد استيلاء الاسبانيول ومنها الاسبانيول المستعربون الذين كانوا يتكلمون ويكتبون ويقيمون صلواتهم بالعربية حتى إنهم كانوا إذا كتبوا كتاباً يبدأونه ببسم الله الرحمن الرحيم وكانوا متعصبين جداً للعربية ولذلك بقيت اللغة العربية والثقافة العربية سائدين في طليطلة مدة ستمائة سنة بعد انقراض حكم الإسلام منها. ومنهم الاسبانيول الذين يتكلمون ويكتبون بلغتهم الاسبانية وكان المستعربون يسمونهم بالقشتاليين كما مر في أحد الصكوك التي نقلناها. وكان منهم أيضاً الافرنج الذين بدأت سكناهم في طليطلة من وقت استرداد الاسبانيول لها لأنهم كان منهم جنود كثيرون في جيش الأذفونش السادس. ومنهم اليهود الذين كانوا عنصراً كبيراً ولم يكن الاسبانيون المستعربون بالفئة التي ترضى بالسيادة للأسبانيين القشتاليين أو للافرنج حتى أنه

ستميوري، التي كانت زوجاً لدون ديمنقه البرنيتي، رحمه الله جميع الحوانيت والغُرَيْفة المتصلة بها، (إلى أن يقول) واعترف المتبايعان المذكوران أن البايعة المذكورة قبضت عن الستة عشر مثقالاً المذكورة أعلاه من المبتاع المذكور القلايب المعروفة لمَلَنْدة الدليل بقرية قنالِش، والنبر الذي كان له بها، والحمار والعجلة، هذه الأسباب المذكورة عن سبعة مثاقيل ونصف إلخ».

وغيره:

«اشترى الوزير المشرّف دون ديمنقُه بن سليمان بن غصن بن شربند، أكرمه الله من سبريان بن بِسَنْت، ومن زوجه لوقادية بنت يحيى البياسي، جميع الدار المعلومة لهما بحومة كنيسة شنت يوانش، بثمن عدده ومبلغه سبعون مثقالاً من الذهب الفنشي الطليطلي الضرب الطيب الوازن إلخ».

وغيره:

«اشترت الابطيسة[1] الجليلة دونة مطرى أكرمها الله، التي بدير شنت قلمنت عمّرها الله من القس دون ديمنقُه إلخ».

وغيره:

«اشترى أبو زكرى يحيى بن علي المالقي، من دونه لوقادية بنت بيطروسُلبيس ومن ابنها رودريقه بن بشكوال جميع الكرم المعلومة لها بحومة كنيسة شنته قَلمبه عمل مدينة طليطلة حرسها الله إلخ.

= وقع خلاف بين النصارى المستعربين والنصارى غير المستعربين من قشتاليين وافرنج في مسئلة الصلوات فإن المستعربين كانوا يقيمون القدّاس الذي يسمى بالاسبانية بالميشة أو الميسة وذلك باللغة القوطية بحسب قاعدة قديس عندهم يسمى سان ايزيدور وكانوا يخلطون ذلك بالعربية وكان الاسبانيول يقولون لهذا الطقس «نصف عربي» أو «موزاراب» فكان الافرنج والقشتاليون يريدون حمل الجميع على استعمال الطقس الروماني ولكن المستعربين أبوا إباء شديداً وكان أشدهم خصاماً في هذا الأمر جوان رويس ماتانزاس Juanriuz de los Matanzas ولما تعذر حل هذه العقدة قيل إنهم لجأوا إلى البراز وأنهم يخرجون من كل فئة فارساً فيتجاول الفارسان والذي يصرع الآخر تكون فئته هي الغالبة في الموضوع. فلما تبارز الفارسان كانت الغلبة للفارس المستعرب ولكن فئة الافرنج بقيت مصرة على عنادها. فلجأوا إلى امتحان آخر على عهدة الرواة ورموا كتاب الصلاة الروماني وكتاب الصلاة القوطي في النار وقالوا الكتاب الذي يخرج سالماً من النار يكون له الحكم. فخرج كتاب المستعربين سالماً وخرج الكتاب الروماني أقل سلامة منه فيقال إن الأذفونش السادس أبقى عند ذلك الطقسين معاً.

(١) أي الراهبة الرئيسة.

والشهود فرنانده يوانش وعبد الله بن عبد العزيز بن خطّاب، وبَسَنت بن عبد العزيز بن سعد، وباطره بن عمر بن غالب بن القلاّس».

وغيره:

«اشترى دون يوان البلجاني أكرمه الله من بيطرو بن يوليان بطيط جميع الجنينة[1] التي له بحومة باب المخاضة، على نهر تاجُه (إلى أن يقول) ودخل في هذا المبيع الموصوف جميع ما كان للبايع المذكور في السانية الكبيرة المشهورة إلخ».

وغيره:

«اشترى افراير[2] دون فرناندوه الذي من فرايرين قلعة رباح، للرواهب الذين بدير شنت قلمنت بمدينة طليطلة، أنماها الله من ميقاييل إلى آخره».

وغيره:

«اشترى دون يليان القس الميردوم، متاع شنت ديمنقة، إلى دير شنت قلمنت الذي هو بمدينة طليطلة حماها الله، ومن مال الدير المذكور إلخ».

وغيره:

«اشترى الفرايلي دون فرناندوه يوانش، متاع قلعة رباح إلى الابطشة دونة مطرى متاع شنت قلمنت إلخ».

ومن هذه الصكوك ما فيه:

«اشترى الوزير الأجل المشرف الأفضل الأكمل أبو عمر شوشان[3]، أدام الله عزه، من دون مرتين[4] دي القونط، ومن زوجه دونة قلمبة بنت فرنند واباط[5] الشطر الواحد على الاشاعة، من جميع الاندر الذي شطره الثاني للمبتاع المذكور، وقد بيّن فيه قرال، وهو بقرية أوليش الكبرى من عمل مدينة طليطلة حرسها الله، ولشهرته استغنى عن تحديده، بثمن مبلغه ستة مثاقيل من الذهب الفونشي الضرب، وذلك في شهر ديجمبر سنة ست وثلاثين ومائتين للصفر.

---

(١) في جميع البلاد العربية يستعملون «الجنينة» بمعنى البستان الصغير. (٢) الراهب.

(٣) مكتوب في الترجمة الاسبانيولية اسم هذا الرجل هكذا: Abuomar Susàn وقيل اسمه مكتوب Alguacil Almogarife ومن المعلوم أن الاسبانيول حرفوا لفظة «الوزير» حتى صارت «الغاسيل» ويظهر أن لفظة «المشرف» كانت دخلت أيضاً في لغتهم حتى صارت تستعمل فيها.

(٤) Martin de Alconte.

(٥) Fernando Abat.

وتحته مكتوب: غالب بن غلمون. ومرتين بن يحيى بن عبد العزيز. وديمنقه بن بيطروه القنتري. تكيف الأشهاد فيه بين يدي وأنا شلمون بن علي بن وعيد».

ثم هذا الصك الذي يتضمن بيع عقار موقوف، وبيان السبب الذي اضطر إلى هذا البيع فهو يقول:

«باعت الابطيشة[١] الجليلة دونة شنجه التي على دير شنت باترو بالحزام[٢] أكرمها الله مع كونباتها[٣] الكائن أسماهم في هذا الكتاب، من دون مرتين بن باطروه دِقشطَرَة[٤]، جميع الميشون الذي علم في أصله للدير المذكور بربض الافرنج التي على مقربة العشابين وبداخل مدينة طليطلة، حرسها الله، وهو الميشون الذي حده في الشرق طريق سالك للحصارين، وفي الغرب ميشون لدون بطال السبطير[٥]، ولدونة يوشتة[٦] زوج غليلم[٧] دبياسة، ولباطروه غليلم، ولبني دون جوان دلبدقدوه[٨]، وفي القبلة المحجة السالك، وبابها شارع إليها، وفي الجوف ميشون لدون باطروه جَسُولين[٩]، وحوانيت السلطان، بثمن مبلغه وعدده أربعون مثقالاً ذهباً من الذهب الفونشي، وصار عندهم وفي ملكهم لينفقوه على أنفسهم، وعلى جميع من هو في الدير المذكور، مما يجب له النفقة منه في الدير، لا غنى لهم عنه في المأكل في هذه الأعوام المحيلة، إذ لجّتهم الحاجة والفاقة لئلا يموتون جوعاً، إذ قد أحفلوا على ذلك في الدير المذكور، وخارج الدير، قد شاوروا فيه الأعيان القنونقين[١٠]بالقاعدة[١١]شنتة مرية أم النور، درّ لنا الله شفاعتها، فكلهم قد حطوه عليه، أجمعوا الرأي فيه، إذ الضغطة والحاجة والفاقة، قد صحت أنها حاطت بهم، ولذلك باعوا المبيع الموصوف، وجاز لهم بيعه، وصح للمبتاع ابتياعه عن ذلك أبداً، وللمبتاع المذكور براءة تامة، فبرىء في العشر الأول من شهر فبرير سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف لتاريخ الصفر.

واعترف المبتاع المذكور دون مرتين أن هذا الشري على حسبه ونسبته هو بينه وبين زوجه دونه يوشتة، على المناصفة، وعلى الجميع يقع الاشهاد.

(١) في النص الاسبانيولي Abbatissa Sanecıa.

(٢) في الترجمة Alhicem.

(٣) أي صواحباتها.

(٤) Pedro de Castro.

(٥) Don Vidal El- Zapatero.

(٦) Justa.

(٧) Guèllermo de Baeza.

(٨) في الترجمة الاسبانيولية وضعوا مكان هذه الكلمة نقطاً للدلالة على جهالتها.

(٩) Pedro Chasolin.

(١٠) Alos Canonigos يريد يها القانونيين وهي رتبة دينية عندهم.

(١١) في الترجمة الاسبانيولية هي الكنيسة الكبرى Catedrale.

مقيال بن علي بن عمر. ويواتش بن مقيال بن عبد العزيز الشناري.

Ego Abbatissa Sancia. Monasterii Sancti Petri consedo. Ego Fernandus Iohnnes Subdiaconus Sancti Nicolai Testis. Ego Dominica Priora Confirmo. Ego Lazarus Presbiter Sancti Sevasliani Eeclesie Testis. Ego Liocadia Confirmo. Ego Anastasia Confirmo. Ego Eugenia Confirmo etc».

فمن هذا الصك وأمثاله يعرف أنه في طليطلة لم يكن الجميع يكتبون بالعربية وكان لا يزال قسم كبير من الاسبانيول يضعون امضاءاتهم بالاسبانية ولكن العربية كانت هي السائدة.

ولنأخذ من بعض الصكوك بعض الجمل التي تدل على حالة طليطلة الاجتماعية في ذلك العصر، لكون استقصاء هذه الوثائق بأجمعها غير ضروري ويكفي من القلادة ما أحاط بالجيد.

فمن ذلك صك شراء للدون البيروه البرس[١] وزوجته الدونة مرية الجنان[٢] الذي علم لوالده دون مقيال بن الوزير سيد، بحومة السوميل، من عمل مدينة طليطلة (إلخ) وفي آخر هذا الصك يقول هكذا: وليعلم أن الجنان المذكور هو الآن مبور، ومقطوعة ثماره، كان قطعوها المسلمون دمرهم الله. وذكر ذلك ليعلم بعد أن ألزمت نفسها ومالها دونة ديمنقه المذكورة دفع ابنها الفونش المذكور متى قام أو قام أحد عنه وأراد طلب المبتاعين شيء منه يدفعه عنهما بمالهما.

وإليك هذا الصك يستدل منه القارىء على أحوال طليطلة في ذلك العصر فهو يقول:

«اشترى القبشقول[٣] دون جردان من دونة بنت عبد الله بن يحيى جميع الدار التي لها بحومة القاعدة شنته مريه، داخل الدرب المشهور بدرب الارسبرست[٤] دون نيقولاش، وبداخل مدينة طليطلة حرسها الله، ومنتهى حدودها في الشرق اسطبل كان

(١) في الترجمة الاسبانيولية «البيروه» هو Alvaro «والبرس» هو Alvarez.

(٢) الجنان جمع جنة ولكنه يستعملها استعمال المفرد بدليل قوله «الذي علم لوالده» وقد مر أيضاً أنه استعمل «الكروم» استعمال الكرم بالمفرد وعلى كل حال ليست جميع هذه الصكوك كتابة المدققين بالعربية وإن كان منها ما هو بغاية الضبط.

(٣) في الترجمة الاسبانيولية Capiscol Don Jordan.

(٤) في الترجمة الاسبانيولية Arcipreste.

مسجداً في القديم، هو للارسبرست[1] دون بيطرو من طلبيره[2] ودار لورثة شُقْرُه[3]، وفي الغرب دار كانت لورثة الايطي[4]، هي الآن للمبتاع المذكور، وفي القبلة دار لورثة البرنيطي[5]، وفي الجوف الدرب المذكور، والباب إليه شارع، وبعض دويرة المسلم على ولد القلبق[6] إلخ، والشهود: قرشتو بل بن يليان، ولورنس بن ديمنقه بن عمران. وبيطروه ابن مرتين مستعرب».

وقد رأينا هذه اللفظة «مستعرب» مراراً في هذه الصكوك، واستدللنا بها على أن نصارى طليطلة كانوا قسمين يقال لهم المستعربون، وهم الذين كانوا يتكلمون ويكتبون ويقيمون صلواتهم باللغة العربية، وقسم آخر كانوا يتكلمون ويكتبون بالاسبانيولية ويقيمون صلواتهم باللاتينية، وهذا هو السبب في أنهم عند كتابة الصكوك يميزون الاسبانيولي الذي لغته العربية بقولهم «مستعرب» وكذلك يذكرون عند وضع الشهادات لفظة بـ «العربي» ولفظة بـ «العجمي» لأن من الشهود من كان يكتب امضاءه بالعربي ومنهم من لم يعرف وضع امضائه بالعربي فيشيرون إلى أنه وضع بالعجمي.

ومما تعرف منه اصطلاحاتهم مثل هذا الصك:

«اشترى دون غونصالبُه المكرّج بالقاعدة شنته مريه كرياطور المطران الأجل دون غونصالبُه قدّس الله روحه». فلفظة «كرياطور» هي ترجمة Criado بالاسبانيولية وهي لفظة معناها أشبه بمعنى شماس المعروف في الشرق، وهو الذي يخدم المطران. وفي هذا الصك ذكر رجل يقال له الدون مرتين العدوى البنّاء. فأنت ترى في كل مكان اختلاط الأسماء العربية بالأسماء الاسبانية.

وانظر إلى صك آخر:

---

(١) هذه اللفظة أي «الارسبرست» بمعنى القسيس الأكبر تكتب أحياناً بالسين وأحياناً بالشين والغالب أن العرب كانوا يلفظون السين في الأعلام الاسبانيولية شيناً ولكن قد يراعون فيها الأصل أحياناً فيلفظونها سيناً.

(٢) Talavrra.

(٣) Suegro.

(٤) في الترجمة الاسبانيولية Laiti.

(٥) في الترجمة الاسبانيولية Berniti.

(٦) في الترجمة الاسبانيولية Galàpago ومن هنا يعلم أنه كان لا يزال مسلمون بطليطلة تحت النصارى من بعد ما استولى عليها الاسبانيول بقرن وقرنين وثلاثة وكانوا معروفين بأنهم مسلمون لأن إكراه المسلمين على التنصر لم يقع إلا من القرن السادس عشر فصاعداً بعد سقوط غرناطة آخر سلطنة إسلامية في ذلك القطر.

«باع كونبانت[1] القاعدة المعظمة شنته مريه أم النور. درّكنا الله شفاعتها، وأكرمهم. من دونة ديمنقه بنت أبي الربيع سليمان بن عثمان، التي كانت زوجاً لدون لب بن يحيى، جميع الدار إلخ».

وفي هذا الصك ذكر دار كانت للشقرشتان[2] ولأخته دونة اغطه.

وإليك هذا الصك:

«اشترى رومان بن[3] باطر زورير حفيد السمّاد، لنفسه ولزوجه دونة أوره بونه، ومن مالهما جميعاً، على اعترافه، من دونة ديمنقُه بن عبد الرحمن بن جابر (إلخ) بحومة بال ذي قبش[4] عمل طليطلة إلخ».

ويظهر أنه كان لليهود في طليطلة شأن عظيم، لأن الأسماء الاسرائيلية تدور كثيراً في هذه الصكوك، وفيها أسماء رجال لهم مقام اجتماعي نبيه، مثل ما ورد في بعض الصكوك قوله:

«اشترى الوزير أبو هارون موسى بن الشحات الاسرائيلي أعزه الله من دونه غاليانه إلخ».

وأما أهمية رجال الكنيسة فلا تخفى في كل حرف من حروف هذه الكتابات ومنها يظهر أن أكثر الأملاك كانت لهم، لأن أكثر البيع والشراء هو منهم وإليهم وإذا ورد ذكر أحدهم فبغاية التعظيم والإجلال، مثل قوله في كثير من الصكوك:

«اشترى المطران[5] الأجل المقدّس الأفضل دمنُه مرتين لبّوس[6] الذي لكرسي قاعدة طليطلة وبرماط أشبانية إلخ»[7].

---

(١) في الترجمة الاسبانيولية Convento.

(٢) في الترجمة الاسبانيولية Sacristàn.

(٣) في الترجمة الاسبانيولية Romàn Huigo de Pedro El Cebrero, Nieto de Assamad ولا نعلم هل هذا الاسم مأخوذ من السماد أو هو محرف عن الصمد فإنهم أحياناً يخطئون فيجعلون الصاد سيناً كما مر بقولهم حومة «السوميل» وحقها أن تكون بالصاد «الصوميل» والصميل اسم عربي شهير هذا مع كون السين والصاد تقوم احداهما مقام الأخرى في ألفاظ كثيرة.

(٤) في الترجمة الاسبانيولية Valdecubas.

(٥) في الاسبانيولي Arzobispo.

(٦) Martin Lopéz.

(٧) Primado de Espana وهو الأسقف الأعظم لأسبانية ومن هنا يعلم أن معاملات الأسقف الأعظم نفسه كانت بالعربية حتى بعد استرداد الأسبان لطليطلة بزمن طويل.

ولم تكن أسماء رجال الكنيسة كلها لاتينية بل من القسيسين من كانت أسماؤهم عربية ففي بعض الصكوك:

«اشترى القس دون لب بن تمام بن بحيط الذي من أئمة كنيسة شنت زوال[١] من دونة توطه بنت دون لب دقترال[٢] جميع الدويرة التي صارت لها بالعطية من الدياقن دون مقايال دالبه[٣] رحمه الله بحومة كنيسة سنت يناس[٤] وبداخل مدينة طليطلة إلخ». وفي بعض الصكوك مذكور «القس الدون عبد العزيز من أئمة كنيسة شنتة لوقاديه إلخ».

ومن الصكوك التي تستجلب النظر ما يلي:

«اشترى دون ديمنقة بشكوال، تربية المطران الأجل، القديس الأفضل، الحسيب الأكمل، دون ردريقه شمانس[٥] وصل الله بركته ومن مال المطران المذكور، وله ويده فيه عاريّة إلخ».

ومثله:

«اشترى القونوق دون جوان دي سَتْفِيله[٦]، أعزه الله، لمولانا المطران القديس الأفضل، البرماط الأعدل، دون رودريقُه شمانس، أدام الله نصره، ومن مال المطران، ويده فيه عاريّة بقوله، من دونة مرية بنت حسين بن فرّون، رحمه الله وأعزها، جميع الملك المشهور لأبيها المذكور، والحق لها بالارث عنه، وهو بحايز قرى شِشلة[٧] مدينة طليطلة، حرسها الله، والمبيع الموصوف هو تحت كدية قرية المونسير[٨]، ويقسم التخم مع القريه المونسير المذكورة، ومع قرية بيله انتقوه (إلى أن يقول) دخل في هذا المبيع كل الذي صح وصار لوالد البايعة المذكورة بالعطية عن الامبراطور الشريف[٩] مع ابنه السلطان المعظم دون شانجه، رحمهما الله، بالصك الكريم التي استظهرت البائعة المذكورة ودفعته للمبتاع المذكور» اهـ.

---

(١) San Zoel.

(٢) Toda Hija De Don Lope De Cotarel.

(٣) Mical De Alba.

(٤) San Gines.

(٥) Rodrigo Giménez.

(٦) De Setfila.

(٧) Sisla.

(٨) Almionasir.

(٩) Emperador وهو الأذفونش السادس الذي تولى سنة ١٠٧٢ إلى سنة ١١٠٩ ولقب نفسه بامبراطور أسبانية.

ومثله:

«اشترى دون ربرت[١] الافرنجي، الذي هو الآن من ربض الافرنج، لنفسه ولزوجه دونة رواش[٢] سوية بينهما، من دونة ديمنقه، ومن اختها دونه مرتينه، بنتي دون غليلن، جميع الدار التي لها بحومة حمام يعيش، من حومة البير المر، داخل مدينة طليطلة إلخ.

والشهود: بيطروه بن اشتافن الربالي. وديمنقه اندراش، ودون رجلد الافرنجي ودون غليلم طبلد، من ربض الافرنج، وبيطرو نقولا البنّا، وكتب عن كل واحد منهم اسمه عنه بأمرهم وحضرتهم وفيليز بن يحيى بن عبد الله».

وهذا تأييد لكون الافرنج لم يزالوا بعد رجوع طليطلة إلى الاسبان كأنهم غرباء فيها. وفي صك من الصكوك يذكر مشتريين ثم يقول: «بعد أن فسر عليهما معانيه بلفظ أعجمي فهماه واعترفا بفهمه، في العشر الآخر من شهر أوغوشت سنة ست وخمسين ومائتين وألف للصفر».

ومما يستجلب النظر صك فيه:

«باع دون جوان رويس[٣] بن دون روديقُه رويس، أخ الأسقوف[٤] المعظم دون غرسيه رويس، الذي على سقافة كرسي كونكة، أدام الله كرامته إلخ».

ومما يستجلب النظر صك فيه:

«اشترى المطران الأجل دون رودريقُه شيمانس بريماط أشبانية أطال الله مدة وأدام بقاءه، من دون فرنندوه لبّوس بن دون لب فرنندس رحمه الله وأكرمه إلخ».

ومثله:

«اشترى القَبلْتُه[٥] المكرم من شنانير[٦] القاعدة العظمى، شنته مريه، دركنا الله شفاعتها إلخ».

ومما يستجلب النظر هذا الصك:

«اشترى أبو حسن علي البشيري المسلم وزوجه عائشة بنت الدودري من الغيران

---

(١) في الترجمة الاسبانيولية Roberto El Francés.

(٢) في الترجمة الاسبانيولية Raues.

(٣) في الترجمة الاسبانيولية Guan Ruiz.

(٤) في الترجمة الاسبانيولية Obispo Deluenca وهي أي كونكة بلدة تقدم ذكرها في هذا الكتاب كان فيها العرب وكانوا يقولون لها فونكة وأحياناً كونكة.

(٥) في الترجمة الاسبانيولية Cabildo وهو ذي رتبة في الكنيسة.

(٦) في الترجمة الاسبانيولية Senares ومعناها السادات.

وفقهم الله، على المناصفة بينهما، من دونة أو رابونه، تربية القائد الأجل دون اشتابن إلخ والتاريخ العشر الآخر من ينير سنة أربع وثمانين ومائتين وألف للصفر». ومن هذا التاريخ أيضاً يعلم أنه كان يوجد جماعة من المسلمين بطليطلة في ذلك العصر.

وهذا الصك:

«اشترى دون بيطرو رويس فارس، من أتانس[١] قائد الغَرْديه[٢]، لمولانا الأليته[٣] دون شانجه ابن مولانا الأمير المعظم المرحوم فرننده عفا الله عنه إلخ».

وكان النصارى والمسلمون يبيعون الأسرى بالوثائق، كما يظهر لك من الصك الآتي: «باع مرتين غرسيه دي أَبْرَه[٤]، من أبو عمر ابن الشيخ أبو سليمان بن أبي عمر بن نحميش الإسرائيلي، أسير واحد اسمه محمد بن إبراهيم القصلوني من غرناطة، بيعاً تاماً ناجزاً، بثمن مبلغه وعدده مائة وخمسة وأربعون مثقالاً (إلى أن يقول) نقلاً عن كتاب عجمي بشأن الأسير، إن هذا الأسير محمد أخرجه جوان ديمنقوس بالمناداة[٥] بقرطبة، وتاريخه ألف وثملاثمائة وعشرة من تاريخ الصفر اهـ».

وفي صك آخر:

«باع غنصالُبه قاضي الحضرة أيده الله، وقاضي بمدينة قرطبة، وساكن بها، من غنصالُبة بن الفونش بن الفونش بيطروس بن سربتوش أكرمه الله أسير واحد، على الأسمر البنّا بن سعيد مملوك كان لقنصالبه رودريقُه بمدينة قرطبة المذكورة بيعاً تاماً صحيحاً بثمن عدده أربعمائة مثقال كل مثقال خمسة عشر فرد من البيض الجارية، الآن وهذا الأسير باعه البايع للمبتاع المذكور كما ذكر على يدي دلال الأساري أبي عمر ابن إسرائيل الإسرائيلي الذي هو دلال الأساري بطليطلة في حادي وعشرين نونمبر عام أربعة وعشرين وثلاثمائة وألف للصفر».

---

(١) في الترجمة الاسبانيولية Atenas.

(٢) في الترجمة الاسبانيولية Guardia ومعناه الحرس.

(٣) في الترجمة الاسبانيولية Eleito ومعناه المختار أو المنتخب.

(٤) Martin de Garcia de Abra.

(٥) المناداة هي في الاصطلاح أن ينادي الدلال على البضاعة المعروضة للبيع حتى يقبل السامعون للنداء على شرائها وقد كان استعمال هذه اللفظة لهذا المعنى في بغداد وجاءت بهذا المقام في المقامة المضيرية لبديع الزمان الهمذاني كما أنها كانت مستعملة في الأندلس وأخذها الاسبانيول في جملة ما أخذوه من العربي إلى لغتهم. وأما الأسير المسلم محمد الذي بيع في المناداة في قرطبة فقد بيع فيها بعد استيلاء النصارى عليها.

ومما يستوجب النظر الصك الآتي:

«اشترت دونة مركاشه لابنها المدرّج[1] شانجه مرتينوس، كاتب مولانا الملك المعظم، دون شانجه أطال الله بقاءهم، وخلّد ملكهم، بمال ابنها المذكور، الذي صار له بالعطية من مولانا الملك المذكور إلخ».

وفي صك آخر يقول:

«كاتب مولانا الملك المعظم الأعلى دون شانجُه أطال الله بقاهم، وخلّد ملكهم وأيدهم ونصرهم، ومن ماله المختص به الذي صار له من مولانا الملك المذكور إلخ».

وهذا الصك:

«اشترى مرتين شانجس قبدلَه[2] القاعدة شنته مريه لنفسه ولزوجه مانقه بنت مرتين غونس، سوية بينهما، من قاسم البنّا بن محمد مملوك مولانا الملك المعظم دون شانجه، أطال الله بقاهم، ومن زوجته فطومة الماشطة، جميع الدار التي لها بحومة بير المر الملاصقة بالفرن بها إلخ».

وهذا الصك الذي فيه:

اشترى دون جوان بيطروس بن دون بيطروه يليان ابن الوزير القاضي دون يليان أكرمه الله لنفسه ومن ماله، من مريه بنت جوان النجار، جميع الدار مع خمسة حوانت، بحومة كنيسة شنت يوشت، وقريب الكدية. بمدينة طليطلة حرسها الله ويلاصق ذلك كله من جوانبه وجهاته قاعة قرال، هي لجماعة مسلمين طليطلة، حيث تذبح الكباش، ودار لجوان مرتين العدّار، ودار لقنونقين شنته لوقادية لصق قصر مولانا الملك إلخ، والتاريخ سابع نونمبر عام تسعة وعشرين وثلاثمائة وألف للصفر اهـ».

قلنا: ثبت من هنا أنه كان في ذلك التاريخ جماعة من المسلمين في طليطلة وهذا بعد سقوط طليطلة في أيدي الاسبان بمائتين وخمسين سنة. وكانوا إلى ذلك الوقت يمارسون شعائر دينهم ويذبحون الكباش في عيد الأضحى.

وهذا الصك:

«قاطع القونتق الأجل دون غشطين، الذي من قونونقين القاعدة العظمى شنته مريه أم النور، دركّنا الله شفاعتها، أسيرته ومملوكته المتنصرة سيسليه المسماة به بالمعمودية، على

(١) لقب من القاب الكنيسة.

(٢) قبدله بمعنى خادم الكنيسة والقاعدة العظمى هي الكنيسة الكاتدرائية Catédrale.

حرية نفسها منه، بأربعون مثقالاً فونشياً صروفاً، لتخدم سيسليه المذكورة بداخل مدينة طليطلة، حرسها الله وباحوازها، دون رقيب عليها ولاثقاف وتأخذ لنفسها جميع ما يعود الله عليها من فايد وعايد، قلّ به أم كثر، وتؤدى له الفدية المذكورة، كما يذكر بعد هذا، في كل شهر، شهر بعد آخر، إلى أن تتم الفدية المذكورة وإذ ذلك تكون سيسليه المذكورة حرة كسائر حرائر النصرانيات أهل ملتها، وما ينقص لها من شهر تكمله في شهر ثان وثالث، وإن لم يتكمل لها في الشهر الثالث، كما ذكر، حاشى مرض بيِّن يمنعها عن الفدية، أو هربت وخالطت قوم سوا، أو وجدت في سرقة أو خيانة، فتخسر ما يكون منها مدفوعاً، وتعود للأسر كما كانت» إلخ. وتاريخ هذا الكتاب ديجمبر سنة تسع وسبعين ومائتين وألف اهـ ملخصاً.

ويوجد صكوك أخرى في موضوع شراء المسلمين لحريتهم[1] من ذلك ما يلي: «قاطعت الابطيشة الجليلة دونة أورابونة التي على راهبات ديرشنت قلمنت والبريورة[2] به، دونة لوقاديه ودونة امونيه، دام عزهن، لأسيريهن ومملوكيهن عزوز، ويعرف برودريقه بن معمّر العربي، وأحمد اللوقي، على حريتهما منهن بخدمتهما جميع الغرس المعلوم للدير المذكور بحومة برالس، في حيّز قرية أوليش، على أن يخدما الأرض المذكورة مدة خمسة أعوام متوالية، من تاريخ هذا الكتاب، في كل عام منها بالكشف والحفر والثنى والتثليث، ويطبعا المواضع بقضبان الزرجون[3]، وعليها القيام بالزبار[4] طول المدة. وإذا قام

(١) هذه الطريقة يقال لها في الإسلام المكاتبة وهي أن يكاتب الرجل عبده أو أمته على مال ينجمه عليه ويكتب عليه أنه إذا أدى نجومه في كل نجم كذا وكذا فهو حر فإذا أدى جميع ما كاتبه عليه فقد عتق وولاؤه لمولاه الذي كاتبه وذلك أن مولاه سوغه كسبه الذي هو في الأصل لمولاه فالسيد مكاتب بكسر التاء والعبد مكاتب بفتحها إذا عقد عليه ما فارقه عليه من أداء المال. سميت مكاتبة لما يكتب للعبد على السيد من العتق إذا أدى ما فورق عليه، ولما يكتب للسيد على العبد من النجوم التي يؤديها في محلها وأن له تعجيزه إذا عجز عن أداء نجم يحل عليه.

(٢) La Priora وهي وظيفة في الدير.

(٣) الزرجون جمع زرجونة وهو قضيب الكرم ويقال له الشكير وجاء في المخصص لابن سيده عن ابن قتيبة أن الزرجون آت من الفارسية وأنه فيها زركون بالكاف ومعناه الصفرة كلون الذهب وهذه اللفظة معروفة في سورية ومنها جاءت في الأندلس.

(٤) هو تقليم الكرم وهي لفظة معروفة في سورية بهذا المعنى يقال: زبر فلان كرمه وقد وصلت إلى الأندلس من أهل الشام والحال أنه ليس في كتب اللغة هذه اللفظة بهذا المعنى بل في اللغة زبر البئر زبراً طواها بالحجارة وكذلك زبرت الكتاب قرأته وزبرته كتبته وقيل إنه النقش في الحجارة. والزبور الكتاب المزبور. والمزبر هو القلم. ثم إن الزبر يأتي بمعنى الزجر ولم نجد في ما راجعناه من كتب اللغة فعل زبر بمعنى قطع وإنما فسروا قوله تعالى ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً﴾ بأن الزبر هي القطع جمع زبرة وهي مثل قوله تعالى ﴿آتوني زبر الحديد﴾ أي قطع الحديد وفي بلادنا لبنان يقولون =

المقاطعين المذكورين بالخدمة والعمارة حسبما وصف يصيران أحرار كسائر أحرار المسلمين أهل ملّتهما، في مالهم وعليهم، وإن تهربا أو أحدهما في طي المدة المذكورة، أو عجزا عن إكمال القطيع الموصوف يخسرا ما يتقدم لهما، ويردهما راهبات الدير للأسر كما كانا أولاً. وتاريخ هذا الصك عشر نونمبر عام خمسة وثمانين ومائتين وألف للصفر اهـ».

ومثله صك آخر للابطيشة المذكورة بحق أسرى مسلمين هم: محمد المناري ولد القنّان، وأحمد الذي كان لدون ميقائيل دي رنالش، وعمر بزارة، يعرف بابن أحمد ابن جامع الصنهاجي، وعلي الرمنقارة الغماري على حرية أنفسهم، وذلك بالخدمة مدة ثمانية أعوام متوالية في جميع الكرم المعلوم بحومة قرية أوليش، (إلى أن يقول) «وإن هربوا أجمع أو أحدهم، أو خالطوا قوم سوا، أو وجدوا في سرقة، يخسروا ما يكون لهم ويرجعون للأسر إلخ، وتاريخه ست وثمانون ومائتان وألف».

ومثل ذلك هذا الصك:

«قاطعت الجليلة دونة قلنبة ابنة الوزير الأجل دون غطار فرنندس أدام الله عزتها مع يعيش الخياط بن أحمد الغرناطي، على حرية أسيرتها أم الهدى الجلياقية، بمائتين مثقال فنشية وثمانية مثاقيل ونصف، صرف خمسة عشر ديناراً كل مثقال، ليبتني يعيش المذكور بأم الهدى المذكورة، ويتخدها زوجته، ويخدمان بطليطلة في الذي يليق بهما دون زقيب عليهما ولا ثقاف، ويأخذان لأنفسهما فائدهما وعائدهما قل أم كثر، ويؤديان الفدية المذكورة، وذلك مثقالين اثنين كل شهر، (إلى أن يقول) وإن لم يتكمل لها ذلك بتمام الشهر الثالث، حاشا مرض بيّن يمنعهما عن الخدمة، أو هربا جميعاً أو خالطا قوماً سوا، أو باتا بخارج طليطلة بغير أمرها، أو شرب يعيش المذكور خمراً[1]، يخسران ما يتقدم لهما مدفوعاً، وترجمع أم الهدى للأسر كما كانت أولاً، ويؤدي يعيش الفدية على التنجيم، وإن عجز عن التأدية فقد فُوِّض للجليلة دونة قلنبة التقبض على جسمه، ولا تسرحه إلا إذا أنصفها، وعليه أن يهدي لها في كل عيد من ثلاثة أعيادها هدية، دون عذر ولا تأخير، وأن يخيط لها[2] بدون أجرة لنفسها خاصة دون غيرها». وتاريخ هذا الصك ديجمبر عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف.

= للمنجل زوبر وليست في كتب اللغة بهذا المعنى وإنما هي في اللغة: الداهية فلعل هذا المعنى لهذه المادة دخل إلى العربية الشامية من إحدى اللغات السامية التي كانت في الشام قبل الفتح.

(١) من النكت اللذيذة أن هذه الدونة النصرانية تشترط على رقيقها يعيش المسلم أن لا يشرب خمراً وإن شرب يرد إلى الأسر.

(٢) لأنه خياط كما تقدم.

ثم ضمن يعيش المذكور «علي بن علي الفبري بخمسة مثاقيل، وإبراهيم بن يحيى خمسة مثاقيل، وزينب ابنة الحاج خمسة مثاقيل، وقاسم بن أحمد الحضرمي الاشبيلي خمسة مثاقيل، ولب بن نصر القزاز خمسة مثاقيل، وابنة سليمان التي كانت لابن يعيش خمسة مثاقيل، وميمونة ابنة يحيى اللمطي خمسة مثاقيل، وابنة عبد الحق الأنصاري من مجريط[١] خمسة مثاقيل، وفاطمة ابنة أحمد الأنصاري من وبذة[٢] خمسة مثاقيل وابن مفرّج من مرشانة[٣] مقاطع[٤] أبي يوسف يعقوب البرجلوني أربعة مثاقيل ومحمد بن أحمد ابن غرْغل الخيّاط مقاطع اسحق الشنتريني خمسة مثاقيل ومحمد عبد الرحمن الصفار مقاطع ربى بن قفاجة ثلاثة مثاقيل، ويوسف بن حسن الغماري القزاز مقاطع روبس بن دون روي ثلاثة مثاقيل، وعلي بن يوسف البهلي ثلاثة مثاقيل، وفاطمة ابنة محمد مقاطعة امثليجة الحكيم أربعة مثاقيل، وإبراهيم بن مالك الفران مقاطع ربى قسيم السوفر خمسة مثاقيل، وإبراهيم بن عمر الاشبيلي مقاطع أبي إسحق بن الصباغ مثقالين، وحسين الصباغ بن علي الاشبيلي مقاطع أبي الربيع بن صدوق مثقالين». فضمن المذكورون ما ذكر عنهم في يعيش المذكور لسيدته المذكورة، وذلك على شرط أنه إن يهرب يعيش في طي القطيع فوقه[٥] ولم يحضروه لها فعليهم غرم ما ضمنوه فيه لها.

وهناك صك مقاطعة لراهبة بدير شنت قلمنت لمملوكتها فطيمة بنت عمر على النحو المتقدم.

ومما يستجلب النظر، ويطلع به القارىء على اصطلاحات النصارى في ما يكتبونه بالعربية في ذلك الوقت هذا الصك:

«كتاب معاوضة صحيحة تكيفت باسم الله تعالى وحسن عونه بين الكمندتور[٦] دون جيل الذي هو الآن كمندتور دار شنت ياقب[٧] للاصبيطال[٨]، وعلى حبوسات الرتبة الافرايرية[٩] بها وبين الابطيشة الجليلة دون سيسيليه التي على دير شنت قلمنت أنماهم الله إلخ».

ولما كان اليهود في كل مكان وكل زمان يتعاملون بالدَّين، ففي المجموعة صور مئات من السندات المالية أكثرها لهم نذكر منها بعض أمثلة: «للأمين أبي الحسن زيزه بن

---

(١) Madrid.

(٢) Ubda ويقال لها ابذة أيضاً.

(٣) Marcina.

(٤) مقاطع أي مكاتب بالفتح.

(٥) أي أعلاه.

(٦) Comanador.

(٧) Santiago.

(٨) Hospital.

(٩) الرهبان وفي المغرب يقولون لهم أفرايريلية وهي محرفة عن أفرايرية وأصل معناها الإخوان.

ربى بن أبي يوسف أعزه الله، قِبَل دون بطرو البرقنطي، وقِبَل زوجه لبّه وفي مالهما وذمتهما، وعلى جميع أملاكهما وأحوالهما كلها حيث كانت وعلمت لهما دَيْناً لازماً وحقاً واجباً، سبعة مثاقيل ونصف ذهباً فنشياً إلخ».

ومثال آخر: «لأبي سرور فرج بن أبي عمران مرال الإسرائيلي، قِبَل دون غرسيه غليالم شبرين القُنق(١) دون غرسيه الذي كان من قاعدة شنته مريه وهو بعل مريه لنبرت(٢) من ربض الافرن ديناً لازماً اثني عشر مثقالاً وثمان فونشية لانصافه من ذلك شهرين اثنين تاريخ هذا الكتاب، وداخل ضامن غارم عنه في ذلك الدون ديمنقُه انطلين البلطير بن دون انطلين، من ربض الافرنج، وإن كانت قلمية في ذلك فيكون عليهما على مالهما، في تاسع يوم من شهر مارس سنة تسع وخمسين ومائتين للصفر اهـ». وتحته الشهود.

ومثال آخر: «لأبي عمر ابن الشيخ أبي سليمان بن أبي عمر بن نحميش الإسرائيلي قِبَل الوزير دون بيطروه يوانش، وقبل زوجه الجليلة دونة طريشة(٣) بنت الوزير القاضي دون جوان بونش أعزهما الله، واجب خمسون مثقالاً فونشياً لينصفاه دَينه يوم فصح شنت ميقائيل الآتي لتاريخه، وإن عجزوا عن إنصافه إذ ذلك يغرّما له قوط رباعي كل يوم يجوز بعد الأمد المذكور، وإن طلبا منه يميّز يغرّما له قوط خمسة مثاقيل، وبظهور هذا الكتاب وبعد فسره عليهما في رابع وعشرين ابريل عام ستة وثمانين ومائتين وألف للصفر اهـ». ثم الشهود.

وفي هذه المجموعة صكوك من أنواع متعددة، منها وصايا، ومنها رهون ومنها مصالحات، ومنها صكوك شركات، ومنها مزارعات، وما أشبه ذلك. لنذكر منها صك مزارعة على سبيل المثال، وهو هذا:

«أنزل القس ماير ديمنقُه المستعربي من كنيسة شنت مارتين ليوان فرنندس في الأرض المعلومة له بحومة جبل حمارة، عمل طليطلة حرسها الله، حدها في الشرق غرس بيطرو مرتينس، وفي الغرب أرض بيضا، وفي القبلة رأس جبل حمارة المذكور، وفي الجوف غرس غنصالُبه الجزَّار، في أرض القس المذكور بالمناصفة، وذلك بشرط يأتي ذكره بعد هذا، ليغترسها يوان المذكور بقضيب الزرجون، ويعتمر بالزبر والحفر والثنا في كل عام، مدة خمسة أعوام، أولها تاريخ هذا الكتاب... الأعوام المذكور ينقسم الغرس على ثلاثة أثلاث، يأخذ صاحب الأرض الثلث الواحد يأخذه الخيار في أحد الجانبين، والمغترس

---

(١) Canonigos في الترجمة الاسبانيولية.

(٢) Lonbert.

(٣) Théresa.

الثلثين متصلين عن اغتراسه واعتماره. في أول شهر مارس من سبعة وتسعين ومائة وألف من تاريخ الصفر اهـ».

وهذا الاصطلاح بقولهم «انزل» فلان لفلان في الأرض الفلانية على شرط كذا وكذا مستفيض في هذه الصكوك.

ومن غريب هذه الصكوك صك ما يتضمن استرهان الأسارى والتعامل بهم كأنهم من جملة الأموال: «أشهد دون مرتين فرنندس القرمادي بن دون فرنندو القرمادي وفقهما الله على نفسه شاهداً آخر هذا الكتاب أنه قبض الآن من أبي الحسن بن يامن بن أبي إسحاق البرجلوني الإسرائيلي أعزه الله الثلاثة أسارى الذين استرهنهم لدونة أورابونه زوج فيدلُقُه عن دَينه المترتب له قِبَلها، وهم الأسارى سليمان الذي كان لدون ميقاييل خريبش، وعبد الله اللوشي الكوسيج[1]، ويوسف الغازي الصغير، الذين قيمتهم خمسون مثقالاً فونشياً، صرفاً طيباً، وصارت عنده الأسارى المذكورين. وفي ملكه، وعلى شرط وربط أن يصرفهم لأبي الحسن بن يامن المذكور، متى ما يطالبه بهم. ويدوم أخذهم منه على كل حال من الأحوال، وإن عجز عن إحضارهم له عندما يطالبه بهم فيلغرّم له قيمتهم الخمسين مثقالاً. سادس عشر أوكطوبر عام ثمانية وسبعين ومائتين وألف للصفر». ثم الشهود اهـ.

ومن الصكوك المتعلقة بأسارى المسلمين ما يأتي:

ضمن للابداشة[2] الجليلة دونة لوقاديه فرنندس التي على راهبات دير شنت قلمنت، أدام الله كرامتها وجه أسيرها أحمد بن يوسف الرحوي الأسمر من يوسف والد المضمون أحمد المذكور ومريم ابنة محمد زوجة يوسف والدة أحمد المضمون ويوسف بن محمد المعروف الشقيق، ضمان وجه واحضار، على شرط أن يمشي أحمد المضمون المذكور مسرّحاً من الثقاف من الآن لتمام أربعة أعوام. فإن هرب في طيّ الأعوام المذكورة ولم يحضروه لسيدته المذكورة على الحلول من هروبه، فعلى الضُمّان المذكورين غرم مئة

---

(١) الكوسج بفتح السين الذي لحيته على ذقنه لا على عارضيه وهي لفظة فارسية وهو في العربي الأثط ولقد كتبوها بياء وهو خطأ ولكن الأندلسيين كانوا يتكلمون بالإمالة ويقولون للحكم مثلاً «الحكم» بالكسر وللإمام الأوزاعي الإمام «الأوزيعي» ويقولون «سنه» بكسر السين والنون بدلاً من «سنة» بفتحهما ولفظهم هذا أشبه بلفظنا نحن في بر الشام ويقولون «زمان» بكسر أوله ويقولون «فرقد» بكسر القاف ويقولون «كتيب» أي «كتاب» ويقولون «برى» بكسر الباء بدلاً من «برّي» بالفتح ويقولون «خمسمية» كما نقول نحن في سورية لا خمسماية وهلم جرا.

(٢) بالترجمة الأسبانيولية Abadasa ولعلها الأبطيشة التي مر ذكرها أو تقرب منها ومعناها ظاهر وهو الراهبة الكبرى.

مثقال فنشية، صرف كل مثقال منها خمسة عشر ديناراً، وعلى المضمون المذكور أن يعطي لسيدته الابطيشة المذكورة في كل شهر طول الأربعة الأعوام المذكورة مثقالاً واحداً، شهراً بعد آخر إلى تمام الأربعة أعوام، دون مطل ولا تسويف بوجه، وفي الشهر الذي يعجز المضمون المذكور عن آداء المشاهرة المذكورة فعلى الضُمّان المذكورين إحضاره لسيدته المذكورة أو يغرّموا لها المشاهرة المذكورة، وإن عجزوا عن غرم المائة مثقال المذكورة أو عن المشاهرة المذكورة، فقد فوضوا له وللمستظهر بهذا الرسم التقبض عليهم وتثقفهم في ثقافها، ولا تسرحهم منه إلا إذا أنصفوها من الضمّان المذكورين من الجائز عليهم من المشاهرة المذكورة، دون أمر حاكم بوجه من الوجوه. في العشر الأوسط من شهر ديجمبر سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف للصفر. والشهود: محمد بن عبد الرحمن بن محمد، وعلي بن يحيى بن محمد الأنصاري».

ومثله صك تضمن به «عائشة ابنة أحمد السكوني، زوج داود الأسمر بن سليمان، أسير دون غنصالبُه الفونش بن دون الفونش بيطروس سرباتش[1] وذلك زوجها المذكور داود، ضمان وجه واحضار، على شرط أن يمشي الأسير داود ويتصرف في أشغال سيده، حينما يأمره بالحاضرة والبادية، فإن هرب ولم تحضره زوجته فقد فوضت له التقبض عليها، وتثقيفها في ثقافة بدون أمر حاكم. وتاريخ هذا الصك الخامس والعشرون من شهر يونيو من عام خمسة وعشرين وثلاثمائة وألف للصفر، وشهوده أحمد بن محمد بن أحمد الأنصاري ومحمد بن عبد الرحمن بن محمد».

ومثله ضمان «نزهة بنت سعيد الأوريولي[2]، ووالدتها عايشة بنت سعيد الحداد من لورقة[3]. وجه زوجها أحمد الحداد بن علي، نحو سيده دون غنصالبُه الذي مر ذكره، ضمان وجه وإحضار. وإن هرب المضمون فتغرّم نزهة وعايشة خمسمائة مثقال من البيض. وتاريخ هذا الصك حادي عشر يونيو عام خمسة وثلاثين وثلاثمائة وألف، وشهوده: علي ابن أحمد بن حسن بن عبد الله الأنصاري وعلي بن قاسم بن علي بن الصيقل الأنصاري[4]».

---

(١) Servatus.

(٢) نسبة إلى أوريولة Orihoala.

(٣) Lorca.

(٤) يكثر ذكر «الأنصاري» في عرب طليطلة وهو يؤيد ما روي عن كون أكثر قبائل الأوس والخزرج لأول فتح الأندلس نزلت في طليطلة ونواحيها.

ومثله:

«اعترفت شمسى[١] بنت لب الفخار المعروف الغزيل[٢] وبنت عائشة المعروفة الروبية اعترافاً صادقاً أنها تضمنت وجه زوجها شعيب الرحوي بن محمد المعروف بالمطيرش وحفيد غالب السمار نحو المطران الأعز الأكرم دون غتار غومس»[٣] ضمان وجه وإحضار على النمط الذي تقدم، وتاريخ هذا الصك الخامس والعشرون من شهر إبريل عام ثلاثة وخمسين وثلاثمائة وألف، وشهوده: أحمد بن علي بن محمد، ويوسف بن قاسم بن يوسف الأنصاري وإبراهيم بن أحمد بن إبراهيم».

وهنا صك وقف يجدر بالنظر:

«وقف الدياقن مرتين من كنيسة شنت مرية أم النور بطليطلة حرسها الله، في مجلس القضاء أنماه الله بالدوام، بين يدي الوزير القائد عمران، وفقه الله، عن تقدم الوزير الجليل القاضي الأعلى، أبي الحسن حاتم بن حاتم، أدام الله توفيقه وتسديده وذكر أن الشنيور يوان رودميروس في أيام حكمه الحضرة المذكورة، أمر لشانجة قرلون بدار بحومة القاعدة المذكورة، وحازها وسكن فيها، إلى مدة وفاته، في خدمة السلطان واستظهر بعقد بذلك، فأعذر إلى الدياقن المذكور ليستظهر بكتاب من الشنيور المذكور، إذ لا مقنع في العقد، فرغب إلى الوزيرين الجليلين القاضي الأعلى أبي الحسن حاتم، وصاحب المدينة زيد بن حارث[٤]. أعزهما الله، ليتفضلا عليه بخطاب منهما ومن القونشلي[٥] أبقاهم الله، إلى الشنيور المذكور. فأدنى له بذلك، ثم بعد ذلك أحضر الدياقن عند من وقفه الله مرتين[٦] الناظر، وبيطره ناغروه[٧] وبرمندة بلاييس وبيطره بلاييس[٨]، وخلف بن رزق، وعبد الله بن ماضي وشهدوا عنده في مجلس نظره، وبمحضر من الحاكم مرتين غرسيس، أنهم أشهدهم الشنيور يوان رودميروس وبأيديهم خطاب لطينى[٩] إلى الوزير الجليل القاضي الأعلى أبي الحسن حاتم، والوزير الجليل صاحب المدينة أبي زيد بن حارث، أعزهما الله في الدارين،

(١) يلزم أن تكون «شمسه» ولكن الأندلسيين يتكلمون بالإمالة كما قلنا فالكاتب كتب الاسم بحسب ما كان يلفظ عندهم وقال «شمسي» والآن في سورية يلفظون «شمسه» كأنها «شمسي» إلا في أماكن معلومة لا يتكلم أهلها بالإمالة.

(٢) حقها أن تكون «الغزال» ولكن الإمالة الأندلسية جعلتها «الغزيل» وفي الترجمة الأسبانية Algazil.

(٣) Gitierre Gonez.

(٤) كان العرب يسمون والي البلدة من قبل السلطان بصاحب المدينة.

(٥) في النص الاسباني Concilio.

(٦) Martin.

(٧) Negro.

(٨) Pelayz.

(٩) أي لاتيني العبارة.

اللتين قلت لي أنا أعطيت الواحدة لشانجة، والأخرى لميقاييل، فثبت عندهما، وفقهما الله، ذلك وأمضياه، وأنزلا الدياقن المذكور في الدار». وتاريخ هذا الصك شهر مايو سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف لتاريخ الصفر. ومنه يعلم أنه في ذلك التاريخ أي بعد أخذ الاسبانيول لطليطلة بنحو من مائة وسبعين سنة كان يوجد فيها قُضاة من العرب أو المستعربين، وكان صاحب المدينة أيضاً منهم.

ومن الصكوك التي استرعت نظرنا حكم يتعلق بصدقات الامبراطور الأذفونش السادس جاء فيه:

«فلما وقف الوزير القاضي المذكور مع من ينزل اسمه أسفل هذا، من أهل الشورى مع اسمه أدام الله عز جميعهم، على جميع ما تقدم ذكرهم، من احتجاجها، وعلم ما استظهر به كل واحد منهما، من فوائد وأصول ما بيده ظهر لهم دام عزهم أن الامبراطور قدس الله روحه تصدق بما كان له في القرية المذكورة على الدير المذكور (إلى أن يقول) ولما يعلم علماً صحيحاً أن أغلب قرى مدينة طليطلة حرسها الله لم تصر لأربابها المالكين الآن لها إلا بعطية... أو بعطية من تقدّمه من سلفه الشريف الكريم رضي الله عنهم جميعهم دام عزهم، أن يحملوا القرية المذكورة محمل غيرها من القرى المعطاة من عندهم، رضي الله عنهم فأوجبوا حكماً منهم من السنّة للدير المذكور لتكون له مالاً وملكاً على مقتضى السك العزيز المؤرخ المذكور، وكل استدعاء استظهر به المتكلم عن ورثة عبد الملك بن هارون رحمه الله وأكرمهم أسقطوها لوجوه كثيرة اهـ». وفي الآخر يقول: «وفي الأصل الذي انتسخت هذه النسخة منه أسماء الحكام أهل الشورى الذين حضروا الحكم المذكور وأمضوه أعز الله جميعهم. بخط عجمي: اغوغنصالبة[1] أرسبيسبو طولاطانة برماط اسبانية[2] وبخط عجمي: اغوديمنقش ارجيديا قُنش مجريط. وبخط عجمي: اغوجرنانش برشبتر طولطانش كونفورم[3]. وبخط أعجمي: اغوبطروش ديس القائد كونفورم. وبخط عربي: سلمون بن علي بن وعيد. وخير بن شلمون بن علي بن وعيد. وخالد بن سليمان ابن غض بن شربند وبخط عربي: أنا فلحتش الأسقف لكورة لبلة[4] خيرها الله، ويوشاب الأرجقش بن منصور حضر ذلك. ويوشتبش القس بن عبد الملك. وباطره بن عمر بن غالب بن القلاس. اشتابن بن يليانس.

انتهت النسخة وذلك في شهر ابريل عام أربعة وعشرين ومائتين وألف للصفر.

(١) Ego أي أنا.

(٢) أسقف أسبانية الأعظم.

(٣) Conforme أي مطابق.

(٤) Niebla.

عمر بن عبد الرحمن، ويوسف بن عبد العزيز، ومرتين بن حسن ابن عبد العزيز إلخ».

ويوجد جم من الأحكام على هذا النسق ويظهر أن ملكتهم في العربية أخذت تضعف بمرور الأيام فتجد صكوكاً وأحكاماً كثيرة ملأى من الخطأ واللحن مثلاً:

«كانتْ قرية دار الخازن مَن قرى الحاضرة طليطلة حرسها الله من إمام المسلمين معطلة الناعورة ومشرعها واقفة، فوقع اتفاق أهل القرية المذكورة من المدرِّجين[1] ليعمروها، وإقامة ما وهي منها، وتجديد ما عهد لها، وكان بها حبسان أرض بيضا للكنيسى شنت لو قادية الخارجة عن الحاضرة المذكورة، وشنت مرتين بها عرض المدرّجون واللايقون على الخدام بالكنيستين المذكورتين، عرضهم في إقامة الناعورة وتجديد ما وهي منها، فادعوا عندهم بقلة ذات اليد من أنفسهم، ومن رسوم الكنيستين، فرأى المتقدمون بالذكر اعراض ذلك ثانية على المطران الفاضل دِمنُه برننُده، كفيل البيعة المقدسة أدام الله توفيقه وتسديده لما إليه تفويض الحبسان، والنظر من الديارات، وإنه رأس الإمامة بالقاعدة شنت مرية، أم النور بالحاضرة طليطلة أدام الله حماتها فظهر إليه ومن حضر قعدودته[2] من أئمة النظر في ذلك، وأمر العالي أمره أن يعطي هذين الحبسين لمن يعتمرها باسم المساقاة إلى مدة إلخ».

وهذا كتاب صلح:

«هذا كتاب وقع الاصطلاح عليه، وجرى الاقتصار إليه، ما بين هند بنت جبران وبنى أخيها الوزير ماير تمام رحمه الله غرسيه وأولياليه ومريه، على ما يأتي ذكره بعد هذا، وذلك أن يعطي غرسيه لهند عمته المذكورة جميع حصته في جنان أبيه المخلّف له ولأخته المذكورين المعروف بعهد المسلمين بجنة الحنشى، بربض طليطلة وبحومة مرج القاضي إلخ».

ومن الوثائق التي اطلعنا عليها عقود أنكحة كالذي يلي:

«كتاب ايجاب واختطاف، وعقد نكاح وارتباط، أمر بعقده والاشهاد على نفسه بجميع

---

(١) تتكرر كثيراً في هذه الصكوك لفظة «المدرج» و «المدرجين» وفي الترجمة الاسبانية التي بإزاء الأصل العربي تفسر بلفظة Racionero.

(٢) هكذا وجدنا هذه اللفظة والأشبه أن تكون محرفة وأن تكون «قعودته» فالقعودة هي المجلس وأما القعدودة فلم نجدها.

ما فيه دون ديمنقُه بيطريس حين مراهقة[١] الخاتمين، وبدل العربانين[٢] بعد تقديسهما بينه وبين دونة لوقادية التي كانت زوجاً لدون رودريقُه دِمرسيه عن بنتهما دونة يوشته البكر التي في حجرها، وتحت ولاية نطقها، لتكون دونة يوشته المذكورة لهذا دون ديمنقه بطريس المذكور زوجاً سنيّة، وصاحبة مرضية، كالذي توجبه الشريعة المنتوليقية، وتحط عليه الديانة الحوارية، وعلى أن هذا دون ديمنه بيطرس المذكور أوجب لخطيبته المذكور عن الازدواج بها بيمن الله مهراً لها عشر جميع ماله أثاثاً وعقاراً، حيث كان، واين علم، وعلى أن ينقدها أيضاً عند الابتناء بها هدية موهوبة لها. وذلك خلدى[٣]، وفنك[٤]، ورداء، وقناع، وخف، وجورب، تفعل في جميعه بحول الله عند ذلك ما وافقها كفعل ذي المال في ماله، وجميع ما يكتسباه الخطيبان المذكوران من وقت ازدواجهما فإنه يكون بينهما سوية بالمناصفة والاعتدال إن شاء الله، والتزم الخطيب المذكور إحضار الهدية المتقدمة الذكر، والانفاذ بها لخطيبته المذكورة، عند الابتناء بها بيمن الله وتوفيقه. والتزم المتماهران المذكوران أيضاً إكمال ذلك كله بحول الله بعد أن قبض كل واحد من الخطيبين خاتم ثابتة عرباناً لما وقع الاتفاق عليه، والارتباط إليه، بتأييد الله، مما ذكر فوق هذا، بعد المعرفة منهما بقدر ما ارتبط إليه المتماهرين المذكورين، على سنة النصارى في ازدواجهم الجياز عندهم، بعد أن أعلمت الدونة يوشتة المذكورة بذلك كله، ورضيت به، وأشهدته أيضاً به على نفسها، وذلك في اليوم الرابع والعشرين من شهر مارس سنة ثلاثة وعشرين ومائتين وألف للصفر، ووقع الاشهاد اليوم الخامس والعشرين من الشهر المذكور».

ومن الوثائق التي يستدل منها على رسوخ الثقافة العربية في طليطلة صك وصية للقس ماير[٥] عبد العزيز بن سهيل يقول فيه:

«لما مرض القس ماير عبد العزيز بن سهيل رحمه الله المرض الذي توفي منه أمر

---

(١) المراهقة المقاربة.

(٢) العربان والعربون بضم أولهما والعربون بفتح الأول والثاني هو ما عقد به المبايعة من الثمن أو هو أن يعطي المشتري شيئاً من الثمن أو المستأجر شيئاً من الايجار ثم يقول إن تم العقد احتسبنا وإن لم يتم فما أخذته هو لك. ونحن في الشام نقول العربون والعامة تقلبه فتقول الرعبون. ويظهر أن الأندلسيين استعملوا العربان وهو صحيح فصيح ومن العادة في الزواج عند النصارى أن يتعاطى العروسان الخواتم والعربون أو العربان وهذا قبل البناء.

(٣) في النص الاسبانيولي Unos Pendiantes.

(٤) في النص الاسبانيولي Una Alfanega colcha.

(٥) Mair.

بكتب وصيته وإنقاذ متضمنها على أيدي النايه[1] القس ومايز قرشتبول من شنت مرتين، ويحيى بن عبد الكريم ونسخة الوصية كذا:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أوصى به القس مايز عبد العزيز بن سهيل، وهو بحال الصحة والجواز والطواعية، مؤمن بالأب والابن والروح القدس إله واحد، وبالشنبلة[2] الذي هو وثيقة الايمان وبالأناجيل الأربعة، وبما أمر به الحواريون، والآباء المقدسون، فأوصى إن حدث به حدث الموت أن يعطي للوقادية الساكنة معه، والخادمة له، جبل الغرس الذي عند الطريق، بدار الخازن، وثلث الزرع، وسبعة مثاقيل مرابطية عن دويرة كذا (إلى أن يقول): ومّا يبقى يعطى عن روحه لقسيسين أو ثلاثة من أصحابه عن أربعين مسّة، وما بقي يعطى للمساكين، وعن لبان للكنائس، وكرم الغندري يكون باقياً في أيدي الأوصياء وما قام فيه يخرج منه بما يُخدم. وما فاض يكون منه خمسين ربعاً والغير يكون منه الثلث في زيت ولبان وحطب، والثلث الثاني للأسرى، والثالث للمساكين. وجعل هذه الوصية والعمل بها إلى يحيى قرمانُه، والقس دون قرشتوبل، والقس النايه. ليكملوا ذلك حسب ما وصفه. ومن مات منهم يترك من يقوم مقامه عن خدمة الكرم. وكتب في يوم الثلاثة الثامن من شهر ديجمبر من عام ثلاثة وستين ومئة وألف. فأنفذ الأوصياء جميع ما أمر به في هذه الوصية، وما أمر به في الكرم المعلوم له بدار الخازن. وقد يفسر فيها. فلما بقي الكرم بأيدي الأوصياء مدة ثلاثة أعوام، واعتمروه عمارة جيدة، لم يكن فيه فائد للشرائع والأسرى والمساكين، حسب ما كان ظنه الموصي رحمه الله واعتقده فيه، فلما صح عند الوزير القاضي أبي الأصبغ بن لنبطار[3] وفقه الله، قلة فائدته، وأنه على غير ما ظنه الموصي فاعتقده فيه، أخذ في ذلك مع من وجب الأخذ معه فيه، من كبار مدينة طليطلة من المدرّجين والمستعربين والقشتيليين، فرأى الوزير القاضي المذكور معهم أحباس الكرم المذكور على قاعدة شنته مرية، بحضرة طليطلة، أدخلنا الله في شفاعتها، لما ظهر إليهم من قلة الفائد العائد إليها، وكثرة مؤنها بعد رغبة جميعهم إلى الأوصياء، والتحامل عليهم في ذلك، فاسعفوا الرغبة، وصح احباس الكرم المذكور، على القاعدة المذكورة عن شرط على أهل القاعدة، أن يكون اسم القس مايز عبد العزيز بن منصور رحمه الله في جملة

---

(١) Annaye.

(٢) El- Simbolo.

(٣) L'Elgiacil Y Alcald Abulasbagg Ben Almpader.

أسماء القونقين المتوفين بالقاعدة المذكورة حسب رتبهم وسيرهم إلخ»، وتاريخ هذه الوصية مع حكم القاضي شهر يوليوه من سنة سبع وستين ومئة وألف. وبعد ذلك الشهود منهم من هو وضع شهادته بالعربي ومنهم من هو واضع شهادته بالاسباني.

وهذه وصية ثانية:

«هذاما أوصى به وعهد بتنفيذه، حسب ما يأتي الذكر فيه الوزير القاضي دومنقُه انطولين، أعزه الله وهو عليل في جسمه وثابت في عقله وذهنه مؤمن بالأب والابن والروح القدس الله واحد، ومعتقد بما بشر به الحواريون، ووصفه الأنبياء المختارون، خشية الموت، وحلول الفوت، الذي لا بد منه، ولا محيص لأحد خلق الله عنه، فأول ما أمر به شفاه الله أن يمتثل بعد عينه إن توفاه الله تعالى، أن يزين على أقباره حين دفنه، ومدة الثلاثة أيام بجميع أئمة البلد من أهل الكنائس بعد اندابهم بمن حف بهم من أساقفة ومدرجين، على حسب رتبهم، وإن كان المطران حاضراً فيندب، وله الأجر والثواب إن يحضر ويزين مع من حضر مدة الثلاثة أيام المذكورة، وبعد الثلاثة أيام فليستمر مدرجين كنيسة شنته لوقاضية، التي داخل المدينة بالتزيين إلى تمام تسعة أيام. وأمر أن يعطي للمطران الأجل أكرمه الله خمسة مثاقيل، وللأسقف دومنه يوانس المرشاني مثقال وللأسقف دومنه فلقيس مثقال فينا إلخ»، وبعد أن عدد جميع ما أراد الايصاء به بالتدقيق من عقار ولباس وطعام ومال صامت وناطق، ذكر بأن يخرج جميع ما ذكر من ثمن غنمه وبقره دوابه، ورماكه وخنازيره، ومن مانتاتى ومن الكاس الصغير الفضة، وأمر أن يعطي ليوان مستعرب الكاب، وما يبقى بعد هذا كله يكون لأخته دونة مريه وبنتيها.

وفي وصية أخرى للمسماة دونة لوقادية بنت يوانش، بعد ذكر الديباجة المصطلح عليها في أول الوصايا، وذكر جميع ما أرادت توزيعه على الكنائس والقسوس والصواحبات تقول: «وأمرت أن تكون الأسيرة عائشة التي لها فيه النصف تُرَد نصرانية إن هي شاءت وتنصف دون غرشيه عن نصفيته من ثمنها بما اشتريت، والنصفية خمسة مثاقيل من مالها، وتكون حرّة من أحرار النصارى فيما لهم وعليهم، تصير حيث تشاء وتهوى، بعد أن تخدم لدون غرسية عام واحد لا غير».

وقرأت في وصية أخرى من دونة قرشتينة بنت اندراش بعد الايصاء للكنائس وللقسيسين وللأصحاب ولذوي القرابة ما يلي:

«وعهدت الموصية المذكورة في أسيرتها مريم زوج عبد الله القزّاز، أن تكون حرة من أحرار المسلمين في مالهم وعليهم، عن عشرة مثاقيل ذهباً فنشياً، كانت الموصية المذكورة

قد قبضتها باعترافها من عبد الله القزاز زوجها المذكور. ولذلك انقطع عن مريم المذكورة حبل الرق، فتملك مريم المذكورة نفسها، تنهض حيث تشاء إلخ».

وفي أكثر هذه الوصايا يذكر شيء من المال لفكاك أسرى النصارى، فقد كانت الحالة عندهم كما عند المسلمين، فأصحاب الخير والإحسان، ولا سيما النساء من المسلمين، كانوا يوصون بجانب من أموالهم لفكاك أسرى المسلمين في بلاد النصارى وكذلك أهل الخير من النصارى، ولا سيما النساء، كانوا يوصون بشطر من أموالهم لفكاك أسرى النصارى في بلاد المسلمين. قرأت في وصية للمسمى دون رودريقُة شلبطورس بن دون شلبطور بن الوزير دون يوان ميقاليس ما يلي:

«أمر أن يزين عليه في كفنه، وأيام زيارة قبره، ودفنه، في جميع ما احتاج إليه بما يقوم في ذلك ويليق بمثله، ويكون دفنه في قبر والده دون شلبطور المذكور، بالقاعدة شنته مرية، وأمر للقانونقين بها عن دفنه بها، وعن أن يذكروه في صلواتهم، عشرين مثقالاً، وأمر عن ميشات[1] عن روحه مفرقة على أئمة كنانيس الحضرة مئة مثقال، وأمر عن فك أسارى النصارى العمال في أسر المسلمين خمسمائة مثقال، وأمر عن قبلانية[2] بالقاعدة شنته مرية ثلاثمائة مثقال، على شرط أن يقدس ميشة كل يوم عن روحه، لمدى الدهر، في هيكل من هياكل القاعدة المذكورة، ويضع انفشاريوه[3] كل عام عن روحه قانونقين القاعدة المذكورة، كما العوائد وبذلك يصح لهم القبلانية، يعني الثلاثمائة مثقال المذكورة، وأمر لمعلمه ومعرّفه القس دون شانجه، من كنيسة شنت يوانس، عشرة مثقالات، على أن يقدس مدى عام ميشات عن روحه». وفي آخر الوصية بعد ذكر الخيرات كلها يقول:

«وقيد فيه عن أمره على يدي والدته، دونة ستى المذكورة، ثقة منه بديانتها وحسن أمانتها، أنها تفعل في ذلك كله فعل من يعلم أن الله لا يخفى عليه خافية في سماواته وأرضه، والتاريخ شهر يونوه سنة تسع وأربعين ومائتين للصفر».

وفي وصية للدون ملندُه فرنندس ابن الوزير القاضي يقول: «فأول ما أمر به أن يعطي لمعلمه القس جوان مثقالاً واحداً، ويحل عن روحه الفين ميشه ويخرج أيضاً من بلاد الإسلام أسير بالغ ما بلغ بعشرين مثقالاً».

وفي وصية للدون غنصالبُه خل تاريخها شهر اوكتوبر سنة اثنين وسبعين ومائتين

(١) جمع ميشة وهي ما يقول له نصارى الشرق القدّاس.

(٢) خدمة كنسية.

(٣) هو ما نسميه بالحول وبالأفرنسية Anniversaire.

وألف. «أمر متى توفاه الله أن يعلم مـاله كله، أصله ومتحركه، أثاثاً وعقاراً، دقه وجلده، جامده ومتخلخله، ويخرج منه عن خمسمائة مثقال فونشية، وتبذل عن روحه»، إلى أن يقول: «ويعطى في استفكاك أسارى من بلاد الإسلام ستين مثقالاً إلخ».

وفي وصية للدون بطره شانجه من جماعة شنت رمان، وصهر دون جوان اشتا ابن دي البقال، يقول من جملة وصايا عدة: «وأمر لرتبة افرايرين قلعة رباح ماية مثقال فونشية على شرط أن يدفنوه الافريرين منها هنا بطليطلة بشنته فليج، ويزينوا عليه كما لو كان افرايري منهم، وأمر بأن يفك زوج نصارى أسيرين في بلاد الإسلام بما يقوم في ذلك».

ومن أطول الوصايا التي اطلعنا عليها في هذه المجموعة وصية للمسمى الدون الفونش[1] متاوش بن دون متاوش بن دون ميقال بن فرون، «أمر بانه متى توفي يعلم ماله كله، قليله وكثيره، ويبذل عن روحه في سبيل الله، وأن يزين منه عليه في دفنه وكفنه بما يليق لمثله، ويكون كفنه من الصوف أرخص ما يوجد للشراء، ويوقد عليه زوج قناديل، يكون زيتهما ربع واحد فقط، وزوج قناديل أخرى صغار. توقد حيث يكون جثمانه، ودفنه يكون بكنيسة شنتة لوقادية، بقبر جده، ويزين عليه لتمام الخمسين يوماً، ولتمام العام، وتكون القناديل لذلك مثل القناديل المذكورة، ويقدس عليه مشيتين في كل يوم من يوم دفنه إلى السابع يوم، ويفرق على المساكين في كل يوم طول السبعة أيام مثقال وأمر أن يبتاعوا أوصياؤه المذكورين بعد هذا ملكاً بمائتين أو ديار بمائة وثمانون مثقالاً، وتحبسها زوجه دونة ميوري طول حياتها ويعمل من فائدها قبلانية عن روح الموصي المذكور تقديس ميشة واحدة في كل يوم للأبد، وتعمل منه نفرشاريه[2] واحد عن روح الموصي في كل عام، ثم أخذ في توزيع تركته على وارثيه، وعلى من أراد أن يتصدق عليهم، وعلى الكنائس والرهابين، وحبس أملاكاً لوارثيه أن يستغلوها، بدون أن يكون لهم حق بالبيع، وجعل شطراً كبيراً من ثروته لزوجته دونة ميورى، وأيضاً الاماء الست اللاتي كن له» ثم قال: «والمسلمتين الباقيتين من مسلماتها تبقى لانصاف الوصية، ولا يعترض أحد خلق الله لدونة ميورى، والستة إماء المذكورات بوجه» قال في هذه الوصية: «وميز الموصى المذكور أن نبّون المسلم والجعفر بن الجعفرين، وإبراهيم الأحول والأسمر والأعرج المسمى دومنقه روبيّوه وبكر، إنهم لزوجه دونة ميورى صاروا لها باتراث عن أبويها ولها أيضاً في خاصتها أحمدوج السقا، ابتاعته من مالها المختص بها وقاسم وعلي هما للموصي ولزوجه دونة ميورى، الحظ الذي فيهما للموصي يباع ويبدل ثمنه في انصاف هذه الوصية، وقطيع مريم وفطّوش الباقي منه هو لدونة ميورى، ويكون لها في خاصتها اهـ». نقلنا ذلك لأجل

(١) Alfonso Mateos.

(٢) Anniversaire بالأفرنسية.

اطلاع القارىء على كيفية معاملة الاسبانيول لأسرى المسلمين، وتاريخ هذه الوصية سادس مايو عام ستة وثلاثمائة للصفر.

ثم اطلعنا على وصية للدونة متاية[١] زوج الدون غنصالبه البطلير ساكنة بربض الافرنج من طليطلة نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم وله الحمد وحده. هذا ما أوصت به دونة متايه إلخ» وتاريخ هذه الوصية سادس ديجمبر عام عشرين وثلاثمائة وألف للصفر. وفي تاريخ ١١٩١ صك يقول فيه:

«اشترى يحيى بن محمد الأنصاري، من دون غليان القس، لزوجه هند بنت عبد الرحمن بن محمد، جميع الحجرة التي بقرب كنيسة امنيوم شنتوروم، بمدينة طليطلة، حرسها الله، حد هذه الحجرة في الشرق قرال لورثة ديمنقه اياس، وفي الغرب طريق فيه خرج الحجرة المذكورة، وإليه يشرع بابها، وفي الجوف دار ولد الشقية المسلم، وفي القبلة قرال لورثة ديمنقه إياس، بثمن مبلغه عشرة مثاقيل من الذهب الطيب البياسي إلخ».

وفي آخر المجموعة صكوك ووثائق خاصة باليهود، تجد منها سطراً بالعربية، وسطراً آخر بالعبرية، ولا جرم أن يهود طليطلة كان لهم شأن عظيم يستدل عليه من كثرة الوثائق المتعلقة بهم، ومنها سندات لا تحصى لهم على نبلاء النصارى بأموال وافرة. فقد كانوا هم المرابين في تلك الحاضرة ونواحيها، وكان عددهم كبيراً، ومن شاهد كنيس اليهود[٢] الذي شاهدته أنا بنفسي في مدينة طليطلة، وهو الذي يعد من أنفس نفائس الصنعة العربية، ولا يذهب سائح إلى طليطلة إلا ويشاهده، علم مكانة اليهود المادية والمعنوية في تلك الحاضرة[٣]، وكانت لهم أيضاً بجانبهما مكانة علمية أدبية، إذ نبغ منهم العلماء والأدباء،

(١) Matia.

(٢) الكنيس المذكور بني في النصف الثاني من القرن الرابع عشر وقيل إن الوزير صموئيل لاوي هو الذي قام بنفقة بنائه، وكان في طليطلة عدة كنس لليهود لكثرة عددهم فيها وأحدها حوله الأسبان إلى كنيسة باسم «صان رومان»، أما ظن توما تامايو بركاش Toma Tamayo De Vargas أن كنيسة «صانتا مارية البيضا» أصلها كنيس لليهود، وأنه معبد قديم لهم وسابق لعهد النصرانية وأنه كان في طليطلة جالية يهودية لعهد المسيح انفرد أحبارها بعدم استحسان الحكم عليه إلى غير ذلك، فيترجح كونه تخرصاً وأحاديث ملفقة وربما كان بعض اليهود اخترعوا تلك الرواية من بعد، رامين بها إلى الزلفى لدى الاسبانيول بعد أن ملكوا البلد. وعلى كل حال فليس في كنيسة «صانتا مارية» المذكورة ادنى شبه مع هندسة معابد اليهود بل كلها طرز عربي بحت إن كان في أقواسها أو في نقش حيطانها أو في زليجها أو في تقسيمها وقد بنيت في القرن الثالث عشر مكان جامع كان تداعى إلى الخراب.

(٣) وكان منهم عند ملوك الاسبانيول وزراء وكتاب، وكان صموئيل لاوي ناظر الخزانة عند الطاغية بطرس الملقب بالصارم، ونفذت كلمته عنده كثيراً وإن كان قتله في الآخر.

وكانوا هم أكثر القائمين بترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية والاسبانية، بحيث أنه بواسطتهم انتشرت علوم العرب في أوروبة في القرون الوسطى. ولذلك قيل إن أوروبة لم تعرف علوم يونان رأساً، وإنما عرفتها بواسطة العرب.

فلم يخطىء الذين قالوا إن طليطلة كانت واسطة التعارف بين الشرق والغرب، وإن العالمين الإسلامي والمسيحي قد تلاقيا فيها. وقال المسيو جوسه P. Jousset صاحب جغرافية اسبانية والبرتغال المصورة:

إن الرسوبات البشرية التي ثبتت في طليطلة، قد جعلت من هذه المدينة متحفاً حقيقياً، لا متحفاً كالمتاحف المعتادة، التي يجمع أصحابها فيها الآثار النادرة، جمعاً مصطنعاً حتى يأتي الناس ويطلعوا عليها، ولكنه متحف حقيقي أوجدته أعصر تبلغ عشرين قرناً، وكل منها ترك أثراً في طليطلة ومن زار اسبانية ولم يزر طليطلة فيعود كأنه لم يعرف اسبانية. فهي مدينة أصيلة ثابتة بارزة، ليس فيها شيء من المعتاد المألوف الذي ملّته الأنفس، بل كل ما فيها أصل جليل يهم الآثاري والمتفنن. وهي وحدها تستحق سياحة السائح إلى اسبانية. ومدخلها قنطرة ذات قوس واحد على نهر تاجُه. وعلى هذه القنطرة برج مكتوب عليه أن النهر طغى، فهدم الجسر، فرمّمه الأذفونش، الملقب بالحكيم سنة ١٢٥٢. ثم أكمل تجديده بريماط اسبانية المطران تينوريو Tenorio سنة ١٣٨٠.

وكان هذا الجسر من زمان العرب، بل يظن أنه كان من قبلهم. وقد نقل «سلازار دو مندوسه» Salazar de Mendoza الكتابة العربية التي كانت مزبورة على الحجر في هذا الجسر: «الله أكبر والصلاة والسلام على جميع من آمن بالله ورسوله محمد»[١] ونقل الكونت دوموراه de Mora كتابة أخرى مدفونة في باطن الجسر هي هذه: «بنى هذا الجسر بأمر ملك طليطلة العظيم محمد سويد المجاشعي بطليطلة حرسها الله وانتهى سنة ٢٠٤ للهجرة»[٢].

وجاء في نفح الطيب: «وطليطلة قاعدة ملك القوطيين، وهي مطلة على نهر تاجُه، وعليه كانت القنطرة التي يعجز الواصفون عن وصفها، وكانت على قوس واحدة، تكنفه فُرجتان من كل جانب، وطول القنطرة ثلاثمائة باع، وعرضها ثمانون باعاً. وخربت أيام الأمير محمد، لما عصى عليه أهلها، فغزاهم، واحتال في هدمها».

(١) نقلنا هذا عن جغرافية أسبانية والبرتغال المصورة تأليف جوسه Jousset ولم نطلع على الأصل العربي لهذه العبارة.

(٢) لم نعثر على أصل هذه الكتابة بالعربي وإنما نقول إنها غير ممكنة بهذا الشكل. ونحن نرويها عن جغرافية أسبانية والبرتغال لجوسه Jousset.

قلنا: أما هذه القنطرة التي يعجز الواصفون عن وصفها فلا يمكن أن تكون القنطرة الحالية، لأن هذه ليست بهذه العظمة التي ذكروها، وإن كانت جليلة في ذاتها. وهذه ذات قوس كبيرة واحدة، مع أخرى صغيرة. وقد كانت القنطرة العربية في مكانها، ولكن الوادي عندما طغى ذهب بها، فرممها الأذفنش الملقب بالحكيم[١] ثم إن تنوريو الأسقف الأعظم برماط اسبانية، أكمل تجديد البناء كما مر.

وعلى هذه القنطرة برج مبني من سنة ١٤٨٤، وتمثال للقديس «سان[٢] ايلدفونس» وكتابة من زمن فيليب الثاني. وعلى الضفة اليسرى من نهر تاجه بقايا حصن سان «سرفنده» أو شربند، كما يقول العرب والفئة المستعربة من الاسبانيول. وهو حصن كان بناه على ذلك الجبل الأذفونش السادس، فاتح طليطلة، الذي في أيامه بدأ انهيار دولة الإسلام في الأندلس، ومن جسر طليطلة إلى محطة السكة الحديدية مسافة يشرف منها السائح على منظر بديع، وإلى الشمال الشرقي من المحطة يوجد بقايا حصن عربي قديم يقال له اليوم قصر «غاليانه»[٣].

فأما أسوار طليطلة فهي موصوفة بالمنعة ومن رأى طليطلة يقول إنها لا تحتاج إلى أسوار، لمنعة موقعها الطبيعي، ولكثرة ما فيها من غور ونجد، فهي في هذا المعنى أشبه بمدينة لوزان في سويسرة، لا يكاد يجد فيها الإنسان مساحة مسطحة. تزيد على ٢٠٠ متر بل ترى الماشي فيها يصعد وينزل أبداً، وربما كانت طليطلة تفوق لوزان في قلة الاستواء، فإن أكثر شوارعها لا تسير فيها العربات، ولهذا تقل المركبات في طليطلة، والناس تنقل أشياءها على الدواب، فكيفما توجهت في طليطلة تجد جر الأثقال ضرباً من المحال.

وبرغم هذا فإن الملوك الغابرين قد أحكموا أسوارها، وجعلوها طبقاً عن طبق، فجمعت بين المنعتين الطبيعية والصناعية.

ومما لا نزاع فيه أنه مع كل ما بنى فيها الاسبانيول على أيدي مهندسين من الفرنسيس والألمان والطليان، وما بنوا فيها من الكنائس والأديار والمستشفيات والمدارس وما عنوا بتغيير شكلها العربي، لا تزال المسحة العربية غالبة على هذه البلدة، في ضيق الشوارع، وقلة نوافذ البيوت، وسعة الدور الداخلية، وحصانة الأبواب، وغير ذلك من أساليب العرب في البناء، ولا تجد الرهبان والراهبات مقيمين في أديار هي على الطراز العربي إلا في طليطلة. وقد نقل دليل بديكر كلمة في حق طليطلة عن الكاتب الافرنسي المشهور «تيوفيل غوتيه»[٤] هي هذه، وقد أبدع وصفها: «طليطلة فيها من الدير، ومن السجن، ومن

(١) Alphonse le Sage.

(٢) Ildefonse.

(٣) Palacio de Galiana.

(٤) Theophile Gautier.

القلعة، ومن الحرم الإسلامي، وذلك لأن العرب مروا بها». نعم فيها من الدير لكثرة ما شاد الاسبانيول فيها من المعاهد الدينية تغطية لآثار العرب. وفيها من السجن لما يشاهد من الوثاقة والمتانة في مبانيها. وفيها من القلعة لكثرة أسوارها ولمنعة مكانها الطبيعي وفيها من الحرم لأن بيوتها الأصلية هي بيوت عربية كسائر بيوت العرب في الدنيا.

وأعظم بنية في طليطلة هي الكنيسة الكبرى التي يقول لها المستعربون «القاعدة» وهي على اسم مريم العذراء عليها السلام، وفيها مذابح رومانية، ومذابح نصف عربية وهي في الحقيقة بيعة عظيمة بمنتهى الفخامة، تعد من الدرجة الأولى في كنائس العالم وموقعها بحذاء الأكمة التي عليها القصر Alcazar.

ويقول المؤرخون عن تاريخ هذه الكنيسة إنه في زمن ريكاريد القوطي تشيدت سنة ٥٨٧ كنيسة باسم العذراء، لا تزال هناك كتابة تدل عليها وكان بجانبها دار أسقفية أقام بها القديسون أوجين، وإيلاد، وإيلديفونس، ويليان. وفي سنة ٧١٢ ب.م. عندما فتح العرب طليطلة حولوا هذه الكنيسة إلى مسجد، وكانت لهم المسجد الجامع[(١)]، وبقي الأمر كذلك إلى سنة ١٠٨٥ التي فيها استولى الأذفونش السادس على طليطلة صلحاً بعد حصار طويل[(٢)].

---

(١) كان في هذا المسجد الجامع حوض أمر ببنائه الظافر بن ذي النون سنة ٤٢٣ وقد وجدت كتابة على بلاطة رخام بالخط الكوفي البارز هذا نصها بعد البسملة: أمر الظافر ذو الرئاستين أبو محمد إسماعيل ابن عبد الرحمن بن ذي النون أطال الله أيامه ببنيان هذا الجب بجامع طليطلة حرسها الله فتم بعون الله في جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة. وقد ظهر من هذه الكتابة التي نقلها لاوي بروفنسال أن الظافر المذكور تولى طليطلة بطلب من أهلها قبل التاريخ الذي ذكره المؤرخون فقد قالوا إنه جاء خلفاً ليعيش بن محمد بن يعيش سنة ٤٢٧ والحال أن هذه الكتابة مؤرخة سنة ٤٢٣ فهي تصرح بكون الظافر بن ذي النون هو الذي أمر ببناء هذا الحوض إذ اصطلح الأندلسيون على تسمية الحوض بالجب. وأما لقب ذي الرئاستين فقد لقب الظافر نفسه به حتى يعلو عن لقب ذي الوزارتين الذي كان لقبه به الخليفة الأموي. وقد وجدت كتابة ثانية في طليطلة نصها: مما أمر بعمله الظافر ذو الرئاستين إسماعيل بن ذي النون في سنة تسع وعشرين وأربعمائة.

(٢) نحب أن نذكر هنا ما قاله دوزي R. Dozy المستشرق الهولاندي الشهير في كتابه: تاريخ مسلمي أسبانية Histoire Des Musulmans En Espagne وهو ملخصاً: «إن القادر بن ذي النون كان فرض على أهل طليطلة مبالغ وافرة من المال فأدوها إليه وقدمها للأذفنش. فقال له الأمبراطور: (لأن الأذفنش السادس كان سمى نفسه بذلك) هذا لا يكفي. فقدم له القادر ذخائر أبيه وجده. فقال له: وهذا أيضاً لا يكفي. فقال له القادر: إني حاضر لاعطائك فوق هذا لكن على أن تعطيني مهلة. فقال له الأذفنش: إني ممهلك على شرط أن تسلمني أيضاً حصوناً تكون رهناً عندي. فرضي القادر بهذا الشرط إذ لم يكن له قدرة على الامتناع فكان مضطراً أن يرضى بكل شيء وكان يرى سيف الأذفونش =

وكان المسلمون قد اشترطوا لأجل تسليم البلدة بقاء المسجد الجامع لهم ورضي

= معلقاً فوق رأسه لا يستطيع أن يخالفه فكان يدفع المال بعد المال ويخلي الحصون بعد الحصون ولأجل ارضاء الأمبراطور يفرض المغارم الثقيلة على رعيته التي بدأت تهاجر إلى مملكة سرقسطة. وكان الأذفونش كلما ازداد القادر طاعة له يزداد عتواً فانتهى الأمر بأن فرغت يد القادر فجاء الأذفونش واكتسح أرباض طليطلة فحاول القادر أن يدافع عن عرشه لكنه رأى نفسه عاجزاً فعرض على الأذفونش تسليمه طليطلة تحت شروط وهي أن الأذفونش يتعهد بتأمين أهالي طليطلة على أموالهم ودمائهم ومن شاء منهم الهجرة هاجر ومن شاء الإقامة أقام وانه لا يفرض عليهم إلا غرامة واحدة مقررة من قبل وأن المسجد الأعظم يبقى للمسلمين وأن الأذفونش يساعد على ملك بلنسية. فرضي الأمبراطور بهذه الشروط وفي ٢٥ مايو سنة ١٠٨٥ دخل الأذفونش طليطلة وقد بلغ من العظمة ما ليس له حد وما لا يساويه إلا ما بلغه أمراء المسلمين وقتئذ من الدناءة فاقبلوا عليه من كل فج يقدمون له الهدايا ويعرضون طاعتهم ويعلنونه أنهم ليسوا أكثر من جباة عنده فتسمى الأذفونش بملك الملتين وكان يكتب ذلك في مناشيره ولم يكن يخفي احتقاره لأمراء الإسلام. ولما جاء حسام الدولة ابن رزين يهنيء الأذفونش بفتح طليطلة مقدماً له نفائس الهدايا كان عند الأذفونش قرد يلعب أمامه فأنعم عليه به ورجع حسام الدولة مفتخراً بأن الأمبراطور أنعم عليه بقرد وعد ذلك من أعظم النعم. وكان في بلنسية ولدا عبد العزيز يتنازعان ملكها وكان فيها حزب ثالث يريد تمليك صاحب سرقسطة وحزب رابع يميل إلى القادر بن ذي النون وقد كان هذا يظاهره جيش قشتالة تحت قيادة (القارفانيس) Alvar Fanez وكان البلنسيون مضطرين أن يقدموا ميرة هذا الجيش وكانت تكلفهم ستمائة ذهب في النهار فقالوا للقادر إنهم في غير حاجة إلى هذا الجيش حتى يطيعوه فلم يسمع القادر كلامهم لأنه كان يعلم أنهم لا يحبونه فاستبقى القشتاليين في بلنسية استظهاراً بهم وفرض على أهلها وأهالي ملحقاتها غرامات منقضة للظهور وبلص الأعيان من أموالهم ومع هذا فلم يقدر أن يقوم بكل ما يتطلبه القشتاليون فعرض عليهم أن يقطعهم أراضي في مملكة بلنسية فرضوا بذلك وتملكوا القرى ولكنهم لم يقوموا على حرثها بأنفسهم بل جعلوا فيها زراعاً يحرثونها لهم واستمروا يشنون الغارات على الأطراف وانضم إلى الجيش القشتالي جماعة من غوغاء العرب ومن العبيد ومن الأشقياء أصحاب السوابق في الاعتداء وقطع السابلة وارتد هؤلاء عن الإسلام وأخذوا يفعلون الأفاعيل التي لم يسمع بمثلها فكانوا يسفكون الدماء ويهتكون أعراض النساء وربما باعوا الأسير المسلم بزق خمر أو برغيف من خبز أو بقطعة من حوت وكانوا يمثلون بمن يمتنع عن إعطائهم ما يريدون فيقطعون لسانه أو يفقأون أعينه أو يلقون به للكلاب المفترسة لتأكله. فكانت بلنسية وقتئذ في الحقيقة ملكاً للأذفونش ولو كان القادر بن ذي النون ملكاً عليها في الظاهر، وكان سرقسطة أيضاً تحت حصار الأمبراطور وقد أقسم أن يفتحها، وكان هناك القائد القشتالي غرسية شيميناس بجماعة من فرسانه يشن الغارات على المرية وكان صاحب غرناطة في المقيم المقعد أيضاً مع القشتاليين. وفي ربيع سنة ١٠٨٥ نازل القشتاليون أهل غرناطة في عقر دارهم ووقع الرعب في قلوب المسلمين حتى صار الخمسة منهم لا يقومون لواحد من النصارى ووجد في إحدى المرار أربعمائة جندي من المرية وكانوا من نخبة الجند فهربوا من وجه ثمانين قشتالياً فعم اليأس جميع المسلمين ورأوه أنه لم يبق أمامهم إلا إحدى خطتين، إما الرحيل عن أوطانهم، وإما الدخول في طاعة النصارى، وبقيت خطة ثالثة وهي استصراخ المرابطين من أفريقية. ثم ذكر دوزي كيف دعا المعتمد بن عباد يوسف بن تاشفين لانقاذ الأندلس =

الأذفونش بذلك. قال ابن بسام: لما توالت على أهل طليطلة الفتن المظلمة والحوادث المصطلمة وترادف عليهم البلاء والجلاء، واستباح الفرنج لعنهم الله تعالى، أموالهم وأرواحهم، كان من أعجب النوادر الدالة على الخذلان أن الحنطة كانت تقيم عندهم مخزونة خمسين سنة لا تتغير، ولا يؤثر فيها طول المدة بما يمنع من أكلها فلما كانت السنة التي استولى عليها العدو فيها، لم ترفع الغلة من الأندر حتى أسرع فيها الفساد. فعلم الناس أن ذلك بمشيئة الله تعالى، لأمر أراده، من شمول البلوى، وعموم الضراء، فاستولى العدو على طليطلة، وأنزل من بها على حكمه. وخرج ابن ذي النون منها على أقبح صورة وأفظع سيرة، ورآه الناس وبيده أسطرلاب، يأخذ به وقتاً يرحل فيه. فتعجب منه المسلمون، وضحك عليه الكافرون.

وبسط الكافر العدل على أهل المدينة، وحبب التنصر إلى عامة طغامها، فوجد المسلمون بذلك ما لا يطاق حمله، وشرع في تغيير الجامع كنيسة في ربيع الأول سنة ست وسبعين وأربعمائة.

ومما جرى في ذلك اليوم أن الشيخ الأستاذ المغامي رحمه الله تعالى صار إلى الجامع وصلى فيه، وأمر مريداً له بالقراءة، ووافاه الفرنج، لعنهم الله تعالى، وتكاثروا لتغيير القبلة، فما جسر أحد منهم على إزعاج الشيخ ولا معارضته، وعصمه الله تعالى منهم، إلى أن أكمل القراءة، وسجد سجدة، ورفع رأسه وبكى على الجامع بكاء شديداً، وخرج ولم يعرض له أحد بمكروه اهـ.

قلنا: إن الاسبان كانوا يعلمون أن تلك الساعة هي الساعة الأخيرة للجامع فصبروا على هذا الشيخ الجليل حتى أتمها بآخر عبادة إسلامية فيها.

وفي ١١ أغسطس ١٢٢٧ جعل ملك اسبانية، الذي يقولون له القديس فرديناند هذه البنيّة دكاً، حتى يبني مكانها بيعة على الطراز القوطي، الذي منه كنائس شمالي فرنسة، وجنوبي ألمانية، وانتدب المهندس الافرنسي بطرس بترى، الذي بقي متولياً إدارة تشييدها مدة تزيد على خمسين سنة، وبعد وفاته عمل فيها مهندسون آخرون، أشهرهم رودريقُه الفونسُه، وجوان غواس، والبير غومس، ومرتين شانجس وغيرهم، فالعمل فيها لم ينقطع مدة طويلة، وهي قائمة على خمسة صفوف من الأساطين وطولها ١٢٠ متراً وأربعون سنتيمتراً، وعرضها ٥٩ متراً و ١٣ سنتيمتراً وبناؤها من الحجر المحبب، إلا أن نقوشها

= ولما ذكر له ولده الرشيد ما في ذلك من الخطر عليهم أجابه أنه لم يبق أمامنا إلا إحدى هاتين الخطتين إما أن نخضع لحكم النصارى وإما أن نرضى بولاية المرابطين وإني أفضل أن أرعى الجمال في أفريقية على أن أرعى الخنازير في قشتالة وسيأتي ذكر ذلك تفصيلاً في باب التاريخ.

الخارجية والداخلية هي في الحجر الكلسي، ولا يضارعها في اسبانية إلا كنيسة أشبيلية من بعض الوجوه وكنيسة طليطلة أطول من كنيسة أشبيلية بعشرة أمتار إلا أن كنيسة أشبيلية أعلى بعشرة أمتار. ومزايا كنيسة طليطلة على كنيسة أشبيلية هي في تناسب الأقسام وبداعة الزخرف وتخريم المذبح الأعظم، حتى كأنه قطعة من العاج المخرّم المرصع.

ولا عجب، فقد بقي العمل في القاعدة العظمى، بحسب قولهم، مدة ثلاثة قرون ولها ثمانية أبواب، أكثرها من الأعاجيب. وهي أبواب الغرب التي لا يفتحونها، مقتصرين على الباب الجنوبي المسمى بباب الأسود، والباب الجوفي المسمى بباب الساعة، الذي يشرع من جهة المدينة العليا. وفيها عدة مذابح، منها مذبح نصف عربي. ولكن جميع بدائع الصنعة والنقش والتصوير مستوفاة في المذبح الأعظم. وعقود الأقواس كلها من المرمر، تحيط بأعناقها قلائد مذهبة من الصنعة العربية Arabesque.

وفي هذه الكنيسة من صنوف الخرط والنّجْر وفنون التنزيل والحفر ما يعجز القلم عن وصفه، فليس له إلا النظر بالعين! وماذا تقول في بناء لبثوا يعملون فيه ثلاثمائة سنة، وبذلوا عليه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، واستجادوا له أشهر الصنَّاع في أعصرهم، وأمهر النحاتين والمصورين في أوقاتهم؟! وفي خزائن هذه البيعة كنوز هي فوق التخمين من كل نوع، قد تراكمت من قرون. ولكن الذي يريد الفرجة لا يقدر أن يتبين محاسنها، من ضعف النور الذي يدخل إلى الكنيسة، لأنهم، كما لا يخفى، يستحب عندهم في الكنائس أن يكون نهارها ليلاً، لما في ذلك من الهيبة بزعمهم، وهذا ما رأينا الكثيرين من الافرنج ينتقدونه، ويقابلون بينه وبين مساجد الإسلام التي تفيض نوراً.

وأما المذبح نصف العربي فقد جعلوه بقرب الباب، وقد كان بناؤه على يد المهندس هنري دوايغاس، بأمر الكردينال شيمانيس الشهير Jiménes وذلك سنة ١٥٠٤، وهم يقدسون على هذا المذبح بحسب الطقس القوطي الذي وضعه سان ايزيدور. وكانت في طليطلة قد بقيت ست كنائس محافظة على الطقس القوطي إلى سنة ١٨٥١، فمن ذلك الوقت توحّد الطقس، وصار رومانياً محضاً.

ومن كنائس طليطلة المعدودة كنيسة سان جوان[١] الملوك، وهي كنيسة بناها فرديناند وإيزابلاّ على الأسلوب القوطي، والأسلوب المعروف بالريناسنس[٢] مجموعين فيها وقد بذل فرديناند وإيزابلاَّ في بنائها قناطير مقنطرة من الذهب فجاءت من أبدع الكنائس زخرفاً وكانا أعدَّاها لدفنهما فيها، إلاَّ أنهما عدلا عن ذلك الرأي بعد استيلائهما على غرناطة سنة

(١) San Guan de les Reyes.

(٢) Renaissance.

١٤٩٢ ومحوهما كل أثر لملك الإسلام في الأندلس فقررا عند ذلك أن يكون دفنهما في كنيسة غرناطة، وتوقف العمل في كنيسة سان جوان هذه، ولم تتم إلا في القرن السابع عشر. فلذلك اختلف طرز بنائها في ذاته بحيث جمعت بين أسلوبين متغايرين. وعلى جدران هذه الكنيسة الخارجية سلاسل حديد يقولون إنها كانت قيوداً لأسارى المسيحيين الذين أنقذهم فرديناند وايزابلا يوم دخلا غرناطة، وفي هذه الكنيسة صور للقديس سان جوان. وصورة شعار الملكين فرديناند وإيزابلاً وأسلحتهما، والمذبح الأعظم من هذه الكنيسة منقول من كنيسة شنت افرج[(١)] القديمة، قال في دليل بديكر: إن زينة حمراء غرناطة ونقوشها قد تمثلت هنا بصور مسيحية. وقد كانت هذه الكنيسة في يد الفرنسيسكانيين، ثم تحولت من زهاء مائة سنة كنيسة لأهالي المحلة المجاورة. وكان بجانبها دير تحول متحفاً ومدرسة صناعية.

وموقع هذه البيعة هو على أكمة مشرفة، تسرح منها الأنظار على وادي تاجه، وعلى البقعة[(٢)]، وعلى شارات سان برناردو وغريدوس. وإلى الشمال الغربي من دير سان جوان الملوك يقع الباب المسمى عند العرب بباب المكاره[(٣)]، وعلى مقربة من هناك في بقعة

(١) Santa Cruz.

(٢) La Vega.

(٣) Al-Makara وحق هذه اللفظة أن تكون «المكاراة» بألفين اثنتين وهي مصدر كاراه الدابة، والفاعل مكار، ويقال مكاري الدواب وكري الدواب أيضاً. وهذا ويقال إن هذا الباب كان موجوداً في زمن القوط ثم جاء العرب فبنوه على ذوقهم ثم لما استرجع الأسبان طليطلة هدموه وبنوه من جديد على طرز أبنيتهم ولكنه بقي منه قوس عربي واحد يعتمد على أعمدة مكتوب على أحدها: الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. وقد نقل «جوسه» في جغرافية أسبانية والبرتغال عن «سلازار مندوزه» كتابة يقولون إنها كانت باقية في الحجر إلى زمن فيليب الثاني ومعناها على عهدتهم هو هذا: لا إله إلا الله محمد رسول الله جميع المؤمنين الذين يعتقدون بنبينا محمد ويقبلون أيدي المرابط مولاي عبد القادر يغفر الله لهم ذنوبهم ولا يكونون في يوم من الأيام صماً ولا عمياً ولا مقطوعي الأعضاء ويتلقون منه البركة في ساعة الموت ولا يعتلون قبل موتهم إلا ثلاثة أيام ويذهبون إلى الجنة وعيونهم مفتوحة وذنوبهم مغفورة انتهى قلت: هذه القصة مستغربة جداً فإنه لا يذكر أي عبد القادر هو المقصود هنا. فإن كان عبد القادر الجيلاني الولي الشهير الذي تقال فيه مثل هذه الأقاويل فالشيخ عبد القادر الجيلاني مات سنة ٥٦١ أي بعد فتح الأسبان لطليطلة بثلاث وثمانين سنة ويستبعد جداً أن يكتب المسلمون في طليطلة على باب من أبواب المدينة كتابة منقوشة على الأحجار إن لم تكن البلدة في أيديهم ولم تكن الولاية عليها للإسلام. وأما إن كان المراد بالمرابط عبد القادر شخصاً آخر من الأولياء الذين عاشوا قبل خروج طليطلة من يد الإسلام فمن العجب أن يذكر اسم هذا المرابط غفلاً بدون نسبة ومن العجب أيضاً أن تقال جمل كهذه في كتابة مزبورة على الحجر لمخالفتها للسنة ولذلك لنا شبهة قوية في صحة وجود كتابة كهذه.

يقال لها باجَه كنيسة سانتا لوقادية. وهي قديمة، بنيت في القرن الرابع، في المكان الذي يقال إن القديسة لوقادية نالت فيه اكليل الشهادة، وكان العرب قد هدموها، فلما رجع الاسبانيول جددوها.

وعلى ضفة نهر تاجه قريباً من هناك معمل السيوف، وتاريخ إنشائه سنة ٧٨٨ ولكن لم تبق لسيوف طليطلة تلك الأهمية، بعد أن بقيت قروناً مشهورة بهذه الصناعة من زمن الرومان إلى زمن القوط، إلى زمن العرب، إلى زمن الاسبان، لا سيما القرن السادس عشر، ومن النصال الطليطلية انموذجات بديعة في متحف مجريط، وإلى الجنوب من باب المكاره، قطعة من السور تنتهي بباب سان مرتين، وإلى الشمال من هذا الباب المسلخ الذي يقال إنه كان في مكانه قصر الملك لذريق، الذي منها انتزع العرب جزيرة الأندلس، وهو الذي افتض كريمة الكونت يليان المسماة فلورندة[١]، ولأجل ذلك حنق هذا الكونت حنقاً بلغ به أن دعا العرب لاجتياح الأندلس، ففتحوها ويقال من جملة الأساطير إنه كان يوجد هناك كهف يقال له كهف هرقل، نظر فيه لذريق مرة فعثر على كتابة تؤذن بانتهاء ملك الأندلس.

وعلى الوادي يوجد جسر سان مرتين، معقود فوقه إلى الغرب من البلدة. وكان بناؤه سنة ١٢١٢، ثم تجدد سنة ١٣٩٠. وله خمسة أقواس، الأوسط منها يرتفع ثلاثين متراً، وعليه برجان. وإلى اليمين منه تحت السور حمّام يقال له حمّام الكهف[٢] حيث الملك لذريق شاهد فلورنده كريمة الكونت يوليان تستحم، وكان بعد ذلك ما كان.

وإلى الجنوب من بيعة سان جوان الملوك كانت في القديم حارة اليهود، التي كان يقال لها «الجديرة»، وكان هؤلاء اليهود بنوا هناك حصناً حصيناً يضعون فيه أموالهم وأما كنيسة مارية البيضاء فكانت في الأصل كنيساً لليهود، بني في القرن الثاني عشر، ثم تحول كنيسة للنصارى في بداية القرن الخامس عشر، ثم صارت محل خلوة للمتنسكين، ثم ثكنة عسكرية، ثم مخزناً. وهي ذات بناء فخم على ثمان وعشرين قوساً، وقواعد أساطينها مزيّنة بالزلّيج، والصنعة العربية. وأما الكنيس الشهير الذي نقدم الكلام عليه فيقال له كنيس[٣] الانتقال، فقد بناه الحاخام «ماير عبدلي» على نفقة صموئيل لاوي، كما تقدم الكلام عليه. واتقن بناؤه إلى النهاية، فلما طرد الملوك الكاثوليك يهود اسبانية حولوا هذا الكنيس إلى كنيسة باسم سان بنيتو، وسلّموه إلى فرسان قلعة رباح، ثم تحول كنيسة باسم العذراء.

(١) Florinda.

(٢) Bain de la Cave.

(٣) أي انتقال مريم العذراء إلى السماء Sinagogoa del Transito.

وإلى الشرق من هذا الكنيس يوجد بيت المصور الشهير غريقو[١] الذي له آثار كثيرة في كنائس طليطلة وأصله يوناني من جزيرة كريت وقد ساقته الأقدار من البندقية إلى طليطلة سنة ١٥٨٥ فسكن في طليطلة في قصر المركيز «فيلنه»[٢] والآن يوجد هناك متحف لآثار غريقو.

ومن كنائس طليطلة كنيسة يقال لها سان جوان الندامة[٣] بناها الكردينال شيميناس سنة ١٥١٤، وجعل معها ديراً، وهي في شرقي البلدة. ومن الكنائس المعدودة كنيسة سانتو طومي[٤] وكانت جامعاً فحولوه كنيسة، وجددوا بناءه في القرن الرابع عشر، ولكن منارته لا تزال على أصلها. وفي هذه الكنيسة قبر الكونت أورغاز الذي جددها على نفقته. وإلى الجنوب من هذه الكنيسة قصر كان يقيم به الأمبراطور شارلكان، وفيه ماتت امرأته إيزابلاّ البرتغالية، وفي هذا القصر صناعات عربية وقوطية مختلطة.

ومن كنائس طليطلة المعدودة كنيسة سانت ياقو الربض بنيت لعهد الأذفونش السادس، وهي على الهندسة العربية ومنارتها لا تزال منارة مسجد إسلامي. وأما الدار الأسقفية التي يقيم بها برماط اسبانية، وكان له ذلك الشأن العظيم حتى كان يجاذب الملك الحبل فهي قبالة الكنيسة الكبرى من الجهة.

قال المسيو جوسّه صاحب جغرافية اسبانية والبرتغال المصورة: لو أردنا أن نتكلم عمّا في طليطلة من قصور كانت لنبلاء العرب والاشبيليين في تلك الشوارع الضيقة وعلى مفارق الطرق، وذلك مثل قصر آل بركاش[٥] وآل ماكِدة[٦] ومونارِس[٧] وغيرهم وقصر البقعة[٨]، وقصر الميزة[٩] بقاعته العربية المدهشة لاستلزم ذلك كتاباً مستقلاً. وقاعة الميزة هذه ذات سقف نادر النظير في صنعته العربية. وطولها ٢٠ متراً، وعرضها سبعة أمتار وعلوها ١٢ متر.

ومن قنطرة طليطلة يسير الإنسان صُعُداً إلى الشمال الغربي فيمر بالسور العربي الذي

---

(١) Greco.

(٢) Villena.

(٣) Penitencia.

(٤) Santo Tomé.

(٥) Vargas وهي عائلة معروفة مشهورة ربما كان منها بركاش المغرب الذين منهم وإلى رباط الفتح الحالي السيد عبد الرحمن بركاش ومن أراد أن يطلع على تاريخ هذه العائلة فعليه بكتاب «مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح» للشيخ محمد أبي جندار.

(٦) Maqueda حتى الآن لم يظهر لنا حقيقة هذا الاسم.

(٧) Munarriz.

(٨) Vega.

(٩) Mesa.

كان للمدينة وبسور أحدث منه بُني لأجل حماية الحارة المسماة بالربض[1]. وبعد مسيرة خمس دقائق يصل إلى باب عربي البناء يقال له باب «السول» Puerta de Sol قيل إنه بني سنة ألف ومائة مسيحية، أي بعد استرداد الاسبانيول لطليطلة، ولكنه بُني على الطرز العربي، وكان هذا الباب في القديم هو باب طليطلة الحقيقي. ولم يتفق المؤرخون في تاريخ هذا الباب: فقال بعضهم: إنه بُني لعهد الأذفونش السادس، وقال بعضهم: إنه بُني في آخر زمان العرب، وعلى مقربة من هذا الباب باب آخر يقال له باب «بيزَغرة» Visagra وأصله باب شقره بناه الاسبانيول، وعليه تمثال النسر، شعار الامبراطور شارلكان، ويوجد باب آخر يقال له «بيزاغرة انتيكة»[2] Visagra Antigia أي العتيقة لأنه من زمان العرب وهو بناء يستحق النظر ومنه يسير الإنسان على طريق عريض على جانبيه الأشجار إلى باب يقال له باب «قمرون» Cambron وهناك بقايا قصر آل بركاش. ولا يجوز أن ننسى من آثار طليطلة التاريخية الكنيسة التي بقرب باب السول، والتي يقال لها «سانتو كريستو دولالوز» Santo Cristo de la Luz أي النور وأصل هذه الكنيسة الصغيرة مسجد صغير بني سنة ٩٢٢

(١) Arrabal الاسبانيول يقولون للربض «الربال» بقلب الضاد لاماً وهو بدون شك تحريف إلا أنه وجد لذلك أصل في اللغة العربية وقد نص على ذلك علماء اللغة ولما كنت في جبال الحجاز سمعت هذه اللغة من ثقيف وهذيل في ناحية يقال لها الشفا فسمعتهم يقولون «الليف» وباللام المفخمة يريدون بها «الضيف» وصلاة «اللهر» في صلاة «الظهر» وقرية «الليق» في قرية «الضيق» وهلم جرا. وقد ذكرت ذلك في كتاب «الارتسامات اللطاف في خـاطر الحاج إلى أقدس مطاف» وعقبت عليه بقولي: ولما كنت في الأندلس سمعتهم يقولون في كل بلدة «الرَّبال» يعنون به ضاحية البلدة فاردت أن أعرف مأخذها فقرأت في كتبهم أنها لفظة عربية محرفة عن «الربض» ففكرت حينئذ في قلب الضاد لاماً عند هذيل ومن جاورهم من ثقيف وقلت من يدري؟ فلعل أول من تلفظ بالربض هناك تلفظ بها باللام، فقد كان في غزاة الأندلس كثير من هذيل وثقيف. انتهى. ولما كان كتابي هذا قد طبع بمطبعة المنار في القاهرة وتولى تصحيح مسوداته الأستاذ الأكبر فقيد الإسلام السيد رشيد رضا رحمه الله فقد علق على عبارتي هذه في الحاشية ما يأتي: مخرج الضاد العربية الفصحى قريب من اللام المفخمة، فهو بينها وبين مخرج الضاد، فلهذا تشتبه الضاد تارة بالظاء في نطق أكثر العرب إلى عهدنا هذا وتارة باللام المفخمة في نطق هؤلاء الهذليين والثقفيين. ومثل هذا الاشتباه يكثر في النطق، ولا سيما نطق الذي يعجل بالكلام فيتلقاه بعض السامعين محرفاً فيصير التحريف أصلاً متبعاً. وذكر علماء اللغة أنه سمع ابدال اللام من الضاد فقالوا «الطجع» أي اضطجع كعكسه في قولهم رجل «جضد» أي «جلد». وبعد كتابة ما تقدم راجعت مادة ضجع في التاج فإذا هو يقول: قال المازني: إن بعض العرب يكره الجمع بين حرفين مطبقين فيقول «الطجع» ويبدل مكان الضاد أقرب الحروف إليها وهي اللام. زاد في اللسان: وهو شاذ. وقال الأزهري: وربما أبدلوا اللام ضاداً كما أبدلوا الضاد لاماً قال بعضهم «الطراد» و «اضطراد» لطراد الخيل. انتهى. نقلنا كلام السيد الإمام هنا لفائدته.

(١) هذه اللفظة محرفة عن بيب شقرة إذ لا يخفي كون الإمالة الأندلسية جعلت الباب بيباً.

مسيحية، كما يستنتج من الكتابة العربية التي على بابه[1]، وهو على ستة صفوف من الأعمدة ويقال إن أعمدته مأخوذة من كنيسة قوطية قديمة والله أعلم، وتتعلق خرافة بهذا المسجد المقلوب كنيسة والذي له ولأمثاله قال الشاعر العربي راثي طليطلة يوم استولى عليها النصارى:

مَسَاجِدُهَا كَنَائسُ! أيُّ قَلْبٍ عَلَى هَذَا يَقَرُّ وَلاَ يَطِيرُ؟!

وهذه الخرافة معناها أنه لما دخل الأذفونش السادس إلى طليطلة، وكان معه القمبيدور الملقب بالسيد سجد حصان السيد بزعمهم أمام حائط هناك، فهالهم سجود الحصان من نفسه فبحثوا في الحائط، فوجدوا فيه مصلوباً، وبجانبه سراج يضيء زيته من زمن القوط.

وأشهر قصر في الأندلس هو قصر طليطلة المبني على أعلى قمة من تلك البلدة، فقد كان فيما يظهر مقر الإمارة من قديم الدهر، ففيه أقام الايبيريون، ثم القوط، ثم العرب، ثم الاسبان، وفيه نزل أذفونش السادس يوم دخل طليطلة. ولقد تبدلت هيئته كثيراً بكثرة ما توالى عليه من الحريق. وكان كلما احترق جددت الملوك بناءه ولكن الذي لا يتغير فيه هو مسرح النظر الذي له، والذي لا يضارعه منظر لقصر من قصور اسبانية كلها. وقد كان هذا القصر تارة حصناً وطوراً قصراً، وتعاقبت عليها أدوار مختلفة.

وأشهر ساحة في طليطلة، وهي التي فيها أكثر حركة البلدة، الساحة التي يقال لها ساحة البُر[2] أي ساحة القمح، ومنها يصعد الصاعد إلى القصر، وبالإجمال لا يوجد بلدة أكثر من طليطلة قد حفظت الهيئة والبيئة العربيتين، وكيف ما توجه السائح فيها يعثر على نقوش عربية، وزلّيج، وخشب محفور من آثار العرب، وقد ذكر جوسّه أنه وجدت تيجان

---

(١) يقال لهذه الكنيسة الصغيرة كنيسة بيب مردوم أي الباب المردوم والبيب كما لا يخفى هو الباب بلفظ أهل الأندلس الذين كانوا يتكلمون بالإمالة وكان على باب الجامع الذي تحول كنيسة كتابة تاريخها ٣٧٠ للهجرة كشفوها سنة ١٨٩٩ وتكلم عنها مارسه Marçais في كتابه عن الفن الإسلامي. وكذلك ذكرها لامبار Lambert في كتابه عن طليطلة وفي كتابة أخرى «فن البناء الإسلامي بقرطبة وطليطلة في القرن العاشر». وكان العالم الاسبانيولي أمـادور دولوس ريوس Amador de los Rios قد حل هذه الكتابة بما يفيد أن الجامع بني بمعرفة مهندس اسمه موسى بن علي وشخص آخر اسمه سعادة وذلك في المحرم سنة ٣٧٠ وفق ٩٨٠ قال لاوي بروفنسال الذي نقلنا عنه هذه الرواية من كتابه «الكتابات العربية في أسبانية» إنه هو في سنة ١٩٢٥ لم يستطع قراءة هذه الكتابة ما عدا البسملة. فلعلها سنة ١٨٩٩ كانت لا تزال محفوظة وكانت قرائتها لا تزال ممكنة.

(٢) Zocodover.

ذهب مخرمة في ضواحي طليطلة، وتحقق أنها من كنوز العرب المدفونة، ومن قديم الدهر كان في طليطلة أبنية فخمة، وللارشيبرست يوليان بيريز Julian Pérez تاريخ أحصى فيه عدد الكنائس القوطية التي هدمها العرب أو حولوها إلى جوامع، مثل شان قرشتوبل Cristobal، وسان لورنزوه، وسان يشته Justo وسانتا مرية المجدلية، وسان ايزيدور، وسان انطولين والمقبرة التي كانت في كنيسة شنت ليقودية، فقد زعم هذا القسيس أن العرب خربوا جميع هذه الكنائس، وجعلوا عاليها سافلها، وقال إنه كانت في طليطلة أديار كثيرة من قبل ما أعلن الملك القوطي ريكاريد إلغاء المذهب الأريوسي، وأمر بأن تكون الكثلكة هي المذهب السائد بدون منازع، وذكر أن العرب تركوا بعض هذه الأديار للمسيحيين مثل سان سيلفانو Silvano.

وأما تاريخ طليطلة فخلاصته أنها كانت العاصمة الدينية والمدنية لاسبانية في زمن القوط، وأنه انعقد فيها ستة عشر مجمعاً، آخرها كان انعقاده سنة ٦٣٣، تحت رئاسة يزيدور مطران اشبيلية، الذي كان عندهم قديساً، وأكثر أسباب هذه المجامع الدينية كانت ناشئة عن الجدال بين الأريوسية والكثلكة. وكان مبدأ الأريوسية آراء قسيس شهير اسمه آريوس Arius، ولد في برقة أو الاسكندرية سنة ٢٨٠ للمسيح، ومات سنة ٣٣٦. واشتهر بتجديد عقيدة سابلّيوس وبولس المريساتي، وهي التي تقول بأن المسيح لم يكن هو ابن الله فعلاً، وإنما كان ابنه اسماً، والله هو الآب فقط، واتبع عقيدة آريوس جم غفير فحكم مجمع الاسكندرية بكفره سنة ٣١٩ ولكن بقي له تبع كثير بحيث أن الأمبراطور قسطنطين اضطر إلى عقد مجمع عام هو المجمع المسمى بالمجمع النيقي، لأنه انعقد في نيقية بقرب القسطنطينية سنة ٣٢٥، فقرر المجمع المذكور بالأكثرية لا بالاتفاق أن الابن والآب طبيعة واحدة، وأن المسيح هو الله مثل الآب، وأنه هو الابن، وحرر دستوراً للايمان على هذه القاعدة ولم يزل هذا الدستور هو قانون الدين المسيحي إلى يومنا هذا. وقد صدر أمر الأمبراطور قسطنطين بنفي اريوس مدة من الزمن، إلى أن سكنت الخواطر، ثم أذن له في العودة إلى الاسكندرية، وربما كان قسطنطين في الباطن مائلاً إلى عقيدة آريوس، لكنه كان مضطراً إلى مجاراة العامة، ثم مات آريوس ولم تمت عقيدته وانقسم بها الرومانيون إلى قسمين، فتمسك بها بعض قياصرتهم كقسطنس، وحمل عليها الآخرون كتيودوسيوس. وأخيراً تلاشت في المملكة الرومانية، إلا أنها عادت فظهرت بين البرابرة الذين جاءوا من الشمال مثل القوط، والواندال، والبرجونيين، واللونبرديين، ثم تغلبت عليها الكثلكة في القرن السابع، ثم عادت فظهرت مرة ثالثة بعد الإصلاح البروتسطانتي، وعرف بها فئة يقال لهم السوسينيون، نسبة إلى رجل لاهوتي من ايطالية انتصر لهذه العقيدة، بل أنكر أكثر قواعد النصرانية وقد كان في طليطلة هذه عقد المجمع الذي حكم بتحريم مذهب آريوس.

ولما افتتحها العرب لم يجعلوها عاصمتهم، كما كانت في زمن القوط، وآثروا عليها قرطبة لكونها أقرب إلى أفريقية، فصارت طليطلة تعصي أمر قرطبة، وتثور على بني أمية، ولكن عمرانها لم يتقلص بالثورات، لكثرة ما كان بها من الصنائع، مثل صناعة السيوف(١) وصناعة نسج(٢) الحرير والصوف، ولأن بقعتها من أخصب بقاع الأندلس فكانت تبقى السنين الطوال والخلفاء يحاولون إخضاعها، ويغادونها ويراوحونها بالجيوش، وهي مع ذلك عزيزة منيعة، ثابتة راسخة، أمنع من عقاب الجو. وقد كان استرداد الاسبانيول لطليطلة مبدأ تأخر العرب بدون نزاع، وفي ذلك يقول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسّال:

حُثُّوا رَوَاحِلَكُمْ يَا أَهْلَ أَنْدُلسٍ ... فَمَا الْمُقَامُ بهَا إلاَّ مِنَ الْغَلَطِ
الثَّوْبُ يُنْسلُ مِنْ أَطْرَافِهِ وَأَرَى ... ثَوْبَ الْجَزيرَةِ مَنْسُولاً مِنَ الْوسَط
مَنْ جَاوَرَ الشَّرَّ لاَ يَأْمَنْ عَوَاقِبَهُ ... كَيفَ الْحَيَاةُ مَعَ الْجَيَّاتِ فِي سَفَطِ؟

---

(١) يقال إن الرومانيين عندما ملكوا طليطلة وجدوا فيها صناعة السيوف زاهرة ثم لما جاء العرب إليها وجدوها أيضاً كما وجدها الرومانيون وإنما زادوها إتقاناً بما كان لأهل دمشق من رسوخ القدم في هذه الصنعة. وبقيت طليطلة تصنع السيوف طول مدة العرب فيها ثم بعد أن رحلوا عنها مدة ستة قرون والناس تتنافس بالسيوف الطليطلية. ولكن عندما جدت الأسلحة الحديثة في أواخر القرن الثامن عشر قضت على سيوف طليطلة. وكان الطليطليون غير مقتصرين على صنعة السيوف بل كانوا يصنعون أيضاً أبر الفولاذ وكانوا يصنعون السروج وعدد الخيل والمهاميز وزرد الدروع. وكانت عندهم صناعة الخزف والصناعة المسماة في دمشق بالقاشاني.

(٢) كانت طليطلة مركزاً لصناعة نسج الحرير والصوف والمخمل والأطلس بجميع أنواعها ولم تكن أشبيلية ولا قرطبة تفوقانها في هذا وكان النساجون في طليطلة وأرباضها خمسين ألف عامل. وفي القرن السادس عشر كانت فيها صنعة الطربوش فكان يعمل بها بضعة الآف عامل وكانوا يشحنون في ذلك الوقت إلى نحو من خمسة ملايين طربوش في السنة إلى أفريقية وإلى البلاد الشرقية. وكانوا يصنعون القلانس والكمم والطاقات المزركشة بأنواعها. ومما اشتهرت به طليطلة لذلك العهد صنعة الخبز التي كانت فيها المثل الأعلى وكانوا يصنعون نوعاً من الأقراص بالسمن والسكر واللوز لم يكن أحد يباريهم فيه وكانت للخبازين في طليطلة مكانة لا يستخف بها وأول كتاب في الطبخ طبع في أسبانية وكان طبعه سنة ١٥٢٥ في طليطلة. ولا يزال إلى هذا اليوم مع تقلص عمران طليطلة محفوظاً بها بعض الشيء من ذلك الاتقان في الخبز وهم يصنعون مربيات كثيرة من الفواكه أما الصناعات الباقية إلى الآن في طليطلة بعد أن سقطت عن معاليها القديمة فهي نسج الحرير والقطن ونقش المعادن على طرز دمشق مما يسمى في أوروبة بالأراباسك والأدوات الكنسية والحفر والتنزيل في الخشب وما أشبه ذلك. فطليطلة بعد أن نزل عدد سكانها من مائتي ألف نسمة إلى عشرين ألفاً لا تزال تعد من المدن الصناعية.

وقد أصاب هذا الشاعر في قوله هذا، لأنه لما استولى النصارى على طليطلة كانوا كأنهم دخلوا في وسط بلاد الإسلام، وجاءت الإسلام الضربة في حاقة رأسه لأنه كان المسلمون في ذلك الوقت لا يزالون في سرقسطة ونواحيها. وكان لا يزال لهم قواعد وحواضر هي إلى الشمال من طليطلة. ثم إن موقع طليطلة بمنعته الخارقة للعادة جعلت الاسبانيول منها في حصن حصين لا يؤتى وعصمتهم في حرز حريز لا يؤخذ، وهم أنفسهم لم يقدروا على طليطلة في حقيقة الأمر إلا بفساد أحوال المسلمين، والفتن التي كانت بينهم. وخلاصة الأمر أنه بعد أن نشبت الفتنة الكبرى في قرطبة بين العرب والبربر، وانتثر السلك، ونجمت الملوك الذين يقال لهم ملوك الطوائف، استبد بأمر طليطلة بنو ذي النون، كما سيأتي الكلام عليه. فوقعت العداوة بينهم وبين بني هود الذين استقلوا بسرقسطة، وتوالت الوقائع بين الفريقين، وكل منهما يستظهر بالاسبانيول على الآخر.

ولنأتك بمثال ننقله لـك عن ابن عذاري المراكشي في كتابه «المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» وهو خير كتاب عرّف بأخبار الأندلس. قال عند ذكره سقوط طليطلة: «وخرج فرديلند الطاغية أيضاً المظاهر لسليمان بن هود، وهو فردلند بن شانجة، أمير جليقية إلى ثغر طليطلة في خلق كثير. وجاءه ابن عم ابن ذي النون ليدله على عورات البلاد، وتهارب الناس أمامه من كل جهة إلى طليطلة حتى غصت بهم، واضطربت أحوال أهلها. كل ذلك وأميرهم يحيى بن ذي النون غائب عنهم بجيشه في مدينة سالم، مقيم بها لئلا يدخلها ابن هود فلما تيقن بخروج هذا اللعين إلى عمله، وضجت رعيته إليه، جاء في جموعه، فلم يصنع شيئاً ولا قدر على لقائه (أي على لقاء الطاغية) واضطربت أحوال الناس بطليطلة خلال ذلك، فلما رأى ذلك أهل طليطلة أرسلوا إلى الطاغية فردلند المظاهر لابن هود ليعقدوا معه صلحاً على بلدهم طليطلة وما حولها على مال يؤدونه إليه ويرحل عنهم. فقال لهم: ما أجيبكم إلى سلم، ولا أعفيكم من حرب، حتى تفعلوا كذا وكذا. واشترط عليهم شروطاً لا يقدرون عليها. فقالوا: لو كنا نقدر على هذه الأشياء وهذه الأموال لأنفقناها على البرابرة، واستدعيناهم لكشف هذه المعضلة. فقال لهم فرلند: «أما قولكم لا تقدرون على هذه الأموال فذلك محال، فلو كسفت سقوف بيوتكم لبرقت ذهباً لكثرته، وأما استدعاؤكم البرابرة فأمر تكثرون به علينا، وتهددوننا به، ولا تقدرون عليه مع عداوتهم لكم، ونحن قد صمدنا إليكم، ما نبالي من أتانا منكم، فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديماً في أول أمركم، فقد سكنتموها ما قضى لكم، وقد نصرنا الآن عليكم برداثتكم، فارحلوا إلى عدوتكم، واتركوا لنا بلادنا، فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم، ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم» اهـ.

فلم يجد رسل أهل طليطلة عند فردلند وأصحابه النصارى قبولاً لما عرضوه عليهم من الصلح.

وكان أخو هذا العلج صاحب يحيى بن ذي النون مظاهراً له فخرج في هذه السنة إلى بلاد ابن هود فوطئها، وأغلظ في إهلاكها، وأخل بالثغر الأعلى، فعل أخيه فردلند في نظر ابن ذي النون، ودامت الفتنة بين هذين الأميرين، ابن هود وابن ذي النون، على هذه الحال من سنة خمس وثلاثين إلى آخر سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة وانقطعت بموت سليمان بن هود في السنة المذكورة. ولما تنفس مخنق بن ذي النون بموت سليمان المذكور جعل يطلب جاره ابن الأفطس صاحب بطليوس فجرت له معه حروب كثيرة إلخ.

قلنا إن بيت القصيد في هذا التاريخ هو قول الطاغية: «وقد نُصِرنا عليكم بردائتكم». جاء في نفخ الطيب: ومن أول ما استرد الافرنج من مدن الأندلس العظيمة مدينة طليطلة من يد ابن ذي النون سنة ٤٧٥. وقال بعض المؤرخين: أخذ الأذفونش طليطلة من صاحبها القادر بالله ابن المأمون يحيى بن ذي النون بعد أن حاصرها سبع سنين، وكان أخذه لها في منتصف محرم سنة ٤٧٨ اهـ. وفيه بعض مخالفة لما قبله، وسيأتي قريباً بعض ما يؤيده. قال: وهي مدينة حصينة قديمة أزليّة، من بناء العمالقة، على ضفة النهر الكبير[١]. ولها قصبة حصينة في غاية المنعة ولها قنطرة واحدة عجيبة البنيان، على قوس واحد، والماء يدخل تحته بعنف وشدة جري. ومع آخر النهر ناعورة ارتفاعها في الجو تسعون ذراعاً، وهي تصعد الماء إلى أعلى القنطرة، ويجري الماء على ظهرها فيدخل المدينة.

وطليطلة هذه دار مملكة الروم، وبها كان البيت المغلق الذي كانوا يتحامون فتحه، حتى فتحه لذريق فوجد فيه صورة العرب اهـ.

وقد حكى ابن بدرون في شرح العبدونية أن المأمون يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة بنى بها قصراً تأنق في بنائه، وأنفق فيه مالاً كثيراً، وصنع فيه بحيرة، وبنى في وسطها قبة، وسبق الماء إلى رأس القبة، على تدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليها، محيطاً بها، متصلاً بعضه ببعض، فكانت القبة في غلالة من ماء سكب[٢] لا يفترّ، والمأمون ابن ذي النون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء، ولو شاء أن

(١) العمالقة المعروفون في التاريخ لم يكونوا البانين لطليطلة ولكن العرب يطلقون لفظة عمالقة على جميع الأقدمين الذين اشتهروا بالقوة والعظمة وأما قولهم النهر الكبير فإن كان يريد به نهر تاجة فهو صحيح لأنه من أكبر أنهار الأندلس ولكن جرت العادة بأن يسمى بالوادي الكبير نهر قرطبة النازل إلى أشبيلية وهو غير تاجة كما لا يخفى.

(٢) إن طليطلة هي من الأقاليم المعتدلة في أسبانية ولكن الحر يشتد فيها جداً أيام الصيف بما يلفحها من =

يوقد فيها الشمع لفعل، فبينما هو فيها إذ سمع منشداً ينشد:

أَتَبْنِي بِنَاءَ الخالدين وَإِنَّمَا ... بقاؤُكَ فيها لو عَلِمْتَ قَلِيلُ
لَقَدْ كانَ في ظِلِّ الأَرَاكِ كِفَايَةٌ ... لِمَنْ كُلَّ يَوْمٍ يَعْتَرِيهِ رَحِيلُ

فلم يلبث بعد هذا إلاَّ يسيراً حتى قضى نحبه. اهـ.

وقال ابن خلكان: إن طليطلة أخذت يوم الثلاثة مستهل صفر سنة ٤٧٨ بعد حصار شديد. وقال ابن علقمة: إن طليطلة أخذت يوم الأربعا لعشر خلون من المحرم سنة ٤٧٨، وكانت وقعة الزلاَّقة التي نشأت في السنة بعدها اهـ.

وجاء في دليل بديكر أن الأذفونش السادس ملك قشتالة دخل طليطلة ومعه السيد[١] في ٢٥ مايو ١٠٨٥ ونقل كرسي الملك من برغش إلى طليطلة عام ١٠٨٧ وجعل مطران طليطلة هو أسقف اسبانية الأعظم، وبدأوا ببناء الكنائس والأديار فأكثروا منها. ولكن المدينة العربية بقيت حافظة سيادتها في وجه الحملة المسيحية، وبقي الناس في طليطلة يبنون مدة قرون متطاولة على الطرز العربي (إلى أن قال) وكان أساقفة طليطلة مثل لوذريقة وفونسيقة وتنووريو ومندوسة. وشيمينيس وطلبيرة ولورنسانة هم أصحاب الأمر والنهي في البلدة، وكان دخل الأسقفية السنوي ثلاثمائة ألف دوكة، وكان في دار الأسقفية ١٥٠ قسيساً هم حاشية برماط اسبانية، وكانت لهم عناية بالعلوم والآداب[٢] وكانوا أيضاً يسوقون الجيوش إلى القتال فأسماؤهم داخلة في جميع الحوادث الكبيرة في عصرهم. ولقد كان الكردينال بطروه غونزاليس مندوزه هو الذي أغرى أكثر من الجميع بقتال مملكة غرناطة اهـ.

ولنذكر الآن ما جاء في معجم البلدان عن طليطلة قال: طليطلة، هكذا ضبطه

= رياح أفريقية حتى تبلغ درجة الحرارة فيها أربعين بميزان سنتيغراد وهي تجمع الأضداد ففي الشتاء تنزل درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر ولكن لا يطول فصل البرد الشديد أكثر من شهر واحد وفصل الربيع فيها لا يطول أيضاً بل يبدأ الحر فيها من شهر مايو. وأحسن فصولها هو الخريف.

(١) Le Cid وهو القمبيذور الذي سبق ذكره عند ذكر مدينة برغش.

(٢) في دار الأسقفية خزانة كتب مفتوحة للزائرين ثلاث ساعات قبل الظهر ولكن خزانة كتب الكنيسة الكبرى هي أهم بكثير وفيها مخطوطات نفيسة وأسفار من الطبع القديم. وليس اليوم في طليطلة معاهد علمية تستحق الذكر كما كان في الماضي فقد كان أمرها في زمن العرب معلوماً وسيرى القارىء من كثرة عدد من خرج منها من العلماء والأدباء درجة رقيها العلمي في الدور العربي. ولما عاد الاسبانيول إليها وردوها عاصمة لهم لم تبلغ الدرجة التي كانت عليها لعهد العرب لأن مدنية العرب كانت بلا جدال أرقى جداً من مدنية الاسبانيول. إلا أنه في القرن الخامس عشر بنى الاسبانيول فيها مدرسة جامعة وظهرت فيها نهضة علمية وتحولت قصور عبدالله بن موسى أحد أمراء طليطلة لعهد العرب معاهد للتدريس ولكن انتقال الحكومة إلى مجريط رد طليطلة إلى الدرجة الثانية بل الثالثة من جهة العلم والتعليم.

الحمدي. بضم الطائين، وفتح اللام، وأكثر ما سمعناه من المغاربة بضم الأولى وفتح الثانية مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس، يتصل عملها بعمل وادي الحجارة، وهي غربي ثغر الروم، وبين الجوف[1] والشرق من قرطبة. وكانت قاعدة ملوك القوطيين، وموضع قرارهم، وهي على شاطىء نهر تاجه، وعليه القنطرة التي يعجز الواصف عن وصفها. وقد ذكر قوم أنها مدينة دقيانوس صاحب أهل الكهف. قال: وبالقرب منها موضع يقال له جنان الورد، فيه أجساد أهل الكهف لا تبلى إلى الآن، والله أعلم. وقد قيل فيهم غير ذلك، كما ذكر في الرقيم، وهي من أجل المدن قدراً، وأعظمها خطراً. ومن خاصيتها أن الغلال تبقى في مطاميرها سبعين سنة لا تتغير، وزعفرانها هو الغاية في الجودة. وبينها وبين قرطبة سبعة أيام للفارس وما زالت في أيدي المسلمين منذ أيام الفتوح إلى أن ملكها الافرنج في سنة ٤٧٧[2] وكان الذي سلمها إليهم يحيى بن يحيى بن ذي النون، الملقب بالقادر بالله، وهي الآن في أيديهم (إلى أن قال): ينسب إليها جماعة من العلماء، منهم أبو عبد الله الطليطلي روى كتاب مسلم بن الحجَّاج، توفي يوم الأربعاء الثاني عشر من صفر سنة ٤٥٨ وعيسى بن دينار بن واقد الغافقي الطليطلي، سكن قرطبة، ورحل، وسمع من أبي القاسم، وصحبه، وعوّل عليه، وانصرف إلى الأندلس، فكانت الفتيا تدور عليه، لا يتقدمه في وقته أحد. قال ابن الفرضي: قال يحيى بن مالك بن عائذ: سمعت محمد بن عبد الملك بن أيمن يقول: كان عيسى بن دينار عالماً متفنناً، وهو الذي علّم المسائل أهل عصرنا.

وكان أفقه من يحيى بن يحيى، على جلالة قدر يحيى. وكان محمد بن عمر بن لبابة يقول: فقيه الأندلس عيسى بن دينار، وعالمها عبد الملك بن حبيب، وعاقلها يحيى بن يحيى. وتوفي سنة ٢١٢ بطليطلة، وقبره بها معروف. ومحمد بن عبد الله بن عيشون الطليطلي أبو عبد الله، كان فقيهاً، وله مختصر في الفقه، وكتاب في توجيه حديث الموطأ، وسمع كثيراً من الحديث، ورواه. وله إلى المشرق رحلة، سمع فيها من جماعة، وتوفي بطليطلة لتسع ليال خلون من صفر سنة ٣٤١ اهـ كلام ياقوت.

ولما تغلب الاسبانيول على طليطلة اهتز لذلك الإسلام، وأدرك العقلاء سوء المصير، لأن ذهاب هذه القاعدة من أيدي المسلمين، وهي في وسط اسبانية، كان مقدمة حوادث كبار توقعوها، ولم يخطئوا في حسبانهم لها. وقد كانت وقعة الزلاقة في السنة

---

(١) يستعمل ياقوت الحموي هنا لفظة الجوف بمعنى الشمال على نسق المغاربة.

(٢) روى بعضهم أن استيلاء الفرنج على طليطلة وقع في سنة ٤٧٥ وروى آخرون أنه وقع سنة ٤٧٧ وروى آخرون أنه في سنة ٤٧٨ وهي أصح الروايات وأما بالتاريخ المسيحي فدخول الأذفونش السادس إلى طليطلة فاتحاً كان في ٢٥ مايو عام ١٠٨٥.

التالية، وهي التي أجاز فيها يوسف بن تاشفين إلى الأندلس اصراخاً لمسلميها هي نتيجة سقوط طليطلة في أيدي النصارى. وبالرغم من كون ابن تاشفين أحرز في وقعة الزلاقة نصراً عزيزاً، وفتحاً مبيناً، وخضد شوكة الاسبانيول في ذلك اليوم، فإنه لم يتمكن من استرداد طليطلة، وبقيت العلة في محلها، وإنما تأخر انحلال دولة الإسلام في الأندلس بواسطة المرابطين، ثم بواسطة الموحدين نحواً من ثلاثمائة سنة ولنذكر هنا مرثية قيلت لدى سقوط طليطلة، وحتى الآن لم نعرف اسم قائلها، ونحن ننقلها عن نفح الطيب كما هي. وهي هذه:

لِثُكْلِك كَيْفَ تَبْتَسِمُ الثُّغُورُ سُرُوراً بَعْدَمَا بَئِسَتْ ثُغُورُ؟!
أَمَا وَأَبِى مُصَابٌ هُدَّ مِنْهُ ثَبيرُ الدِّينِ، فَاتّصَلَ الثُّبُورُ
لَقَدْ قُصِمَتْ ظُهُورٌ حِينَ قَالُوا: أَمِيرُ الْكافِرِينَ لَهُ ظُهُورُ
تُرَى في الدَّهْرِ مَسْرُوراً بِعَيْشٍ؟ مَضَى عَنَّا لِطِيَّتِهِ السُّرُورُ!
أَلَيْسَ بِنَا أَبِيُّ النَّفْسِ شَهْمٌ يُدِيرُ عَلَى الدَّوَائِرِ إِذْ تَدُورُ؟!
لَقَدْ خَضَعَتْ رِقَابٌ كُنَّ غُلْباً وَزَالَ عُتُوُّهَا وَمَضَى النُّفُورُ
وهَانَ عَلَى عَزِيزِ الْقَوْمِ ذُلٌّ وَسَامَحَ فِي الْحَرِيمِ فَتىً غَيُورُ
طُلَيْطُلَةٌ أَبَاحَ الْكُفْرُ منها حِمَاهَا! إِنّ ذَا نَبَأٌ كَبِيرُ!
فَلَيْسَ مِثَالَهَا إِيوَانُ كِسْرَى وَلاَ مِنْهَا الْخَوَرْنَقُ وَالسَّدِيرُ
محصَّنة محسَّنةٌ بَعِيدٌ تناوَلُها، وَمَطْلَبُهَا عَسِيرُ
أَلَمْ تَكُ مَعْقِلاً لِلدِّينِ صَعْباً فَذَلّلَهُ كَمَا شَاءَ الْقَدِيرُ
وَأَخْرَجَ أَهْلَهَا مِنْهَا جَمِيعاً فصَارُوا حَيْثُ شَاءَ بِهِمْ مَصِيرُ
وَكَانَتْ دَارَ إيمانٍ وَعِلْمٍ مَعَالِمُهَا التي طُمِسَتْ تُنِيرُ
فَعَادَتْ دَارَ كُفْرٍ مُصْطَفَاة قَدْ اضطَرَبَتْ بِأَهْلِيهَا الأُمُورُ
مَسَاجِدُهَا كَنَائِسُ! أَيُّ قَلْبٍ على هذا يَقَرُّ ولاَ يَطِيرُ؟!
فَيَا أَسَفَاهُ! أَسَفَاهُ! حُزناً يُكَرَّرُ مَا تَكَرَّرَتِ الدُّهورُ
ويُنشرُ كلُّ حُسنٍ لَيْسَ يُطْوَى إِلى يَوْمٍ يكونُ بِهِ النشُورُ
أُدِيلتْ قاصرات الطرفِ كانتْ مَصوناتٍ مَساكنُهَا القصورُ
وَأَدْرَكَهَا فُتورٌ في انْتِظَارٍ لِسرْبٍ في لَوَاحِظِهِ فُتورُ
وكانَ بِنَا وَبِالْقَيْنَاتِ أَوْلَى لَوْ انْضَمَّتْ عَلَى الكلِّ الْقُبورُ
لَقَدْ سَخُنَتْ بِحالَتِهِنّ عَيْنٌ وكَيفَ يَصحُّ مَغْلُوبٌ قَرِيرُ؟
لَئِنْ غِبْنا عَنِ الإِخْوَانِ إِنَّا بأحزانٍ وَأَشْجَانٍ حُضورُ

نذُورٌ كانَ لِلأيّامِ فيهمْ بملكهم فقد وفَتْ النذورُ
فإن قُلْنَا العقوبَةُ أدْرَكَتْهُمْ وجَاءَهُمُ مِنَ اللهِ النَّكِيرُ
فإنَّا مِثْلُهم وَأشدُّ مِنهمْ نَجُورُ، وَكَيفَ يَسْلَمُ مَنْ يَجُورُ؟
أَنأمَنُ أَنْ يَحُلَّ بِنَا انْتِقَامٌ وفينا الفسقُ أَجْمَعُ وَالْفُجُورُ؟
وَأكْلٌ لِلْحَرَامِ ولاَ اضطرارٌ إليهِ، فَيَسْهلُ الأمرُ العسيرُ
ولكن جُرْأَةٌ في عُقْرِ دَارٍ كذلك يَفْعَلُ الكلْبُ الْعَقورُ
يزولُ السَّتر عَنْ قَوْمٍ إذا ما على العِصْيانِ أُرْخِيَتْ السُّتورُ
يطولُ عليَّ لِيلِي، رُبَّ خطبٍ يطولُ لِهوْلِهِ اللَّيْلُ القصيرُ
خُذوا ثار الدِّيَانَةِ وانصرُوها فَقَدْ حَامَتْ علَى الْقَتْلَى النُّسورُ!
ولا تَهِنُوا وسُلُّوا كل عَضْبٍ تهابُ مضاربا عنهُ النحورُ
وَمُوتوا كلُّكُمْ فالمَوْتُ أولى بكم، منْ أَنْ تُجَارُوا أَوْ تَجُورُوا
أَصَبْراً بَعْدَ سَبْيٍ وامْتِحَانٍ يُلامُ عَلَيْهما القَلْبُ الصَّبُورُ!؟
فأمُّ الصَّبْرِ مِذكارٌ وَلُودٌ وأمُّ الصقْرِ مِقلاتٌ نَزُورُ
نَخورُ إِذَا دُهِينَا بالرَّزَايَا وليس بمعجبٍ بَقَرٌ تَخُورُ
وَنَجْبُنُ ليس نَزْأَرُ، لو شَجعُنا ولم نَجْبُنْ لَكانَ لَنا زَئيرُ
لَقَدْ سَاءَتْ بنَا الأخْبَارُ حَتّى أَماتَ المخبِرِينَ بهَا الخَبِيرُ
أَتتنَا الْكُتْبُ فيهَا كُلُّ شَرٍّ وَبشَّرَنا بأَنحُسِنا البَشِيرُ
وقيل تَجَمَّعُوا لِفراق شَمْلٍ طُليطلةٌ تملَّكَها الكَفور
فقُل في خُطة فيها صَغارٌ يَشيب لكَرْبِها الطفلُ الصَّغِيرُ
لَقد صَمَّ السَّميعُ فلم يُعَوِّل على نبَاءٍ كما عَمِيَ الْبَصِيرُ
تُجَاذِبُنَا الأعَادِي باصْطِنَاعٍ فينجذبُ الْمُمَوَّلُ وَالْفَقِيرُ
فباقٍ في الديانة تحت خِزْيٍ تثبِّطُه الشُّوَيْهَةُ والبَعيرُ
وَآخَرُ مَارِق هَانَتْ علَيْهِ مصائبُ دينهِ فلهُ السَّعِيرُ
كَفَى حزناً بأَنّ النَّاسَ قَالُوا إلى أَيْنَ التَّحَوُّل وَالمَسِيرُ؟
أَنَترُكُ دُوْرَنَا وَنَفِرُّ عَنْهَا؟ وَلَيْسَ لَنَا وَرَاءَ البحْر دُورُ
ولا ثَمَّ الضيَاعُ ترُوقخ حُسناً نُبَاكِرُها فيُعجبنَا البُكُورُ
وظِلٌّ وَارِفٌ وَخَرِيرُ مَاءٍ فلا قُرٌّ هناكَ وَلا حَرُورُ
وَيُؤْكَلُ مِنْ فَوَاكِهِهَا طريٌّ وَيُشْرَبُ من جَدَاوِلِها نَمِيرُ
يؤدَّى مُغْرَمٌ في كُلِّ شَهْرٍ ويؤخَذُ كلَّ صائفةٍ عُشُورُ

فهُمْ أَحْمَى لِحَوْزَتِنَا وَأَوْلى بنا، وَهُمُ الموالى وَالعَشيرُ
لقد ذَهَبَ اليقينُ فلاَ يَقينٌ وغَرَّ القَوْم باللهِ الغرُورُ
فلاَ دِينٌ ولا دُنيَا وَلَكِنْ غُرورٌ بالمَعيشَةِ مَا غُرُورُ
رَضُوا بالرِّق، يالله! ماذا رآه وَمَا أَشَارَ به مُشيرُ؟
مضى الاسلامُ فابكِ دَماً عَلَيْهِ! فما يَنفِي الجَوى الدمعُ الغزيرُ
وَنُحْ وَاندُبْ رفاقاً في فَلاةٍ حَيارَى لا تحطُّ ولا تَسِيرُ
ولا تجْنَحْ إلى سَلْمٍ وحارِبْ عَسى أَنْ يُجْبَرَ العظْمُ الكَسِيرُ
أَنَعْمَى عن مراشِدِنَا جميعاً وما إنْ منهمُ إلاّ بَصِيرُ؟!
وَنَلْقَى واحداً وَيفرُّ جَمْعٌ كما عَنْ قَانِصٍ فرّتْ حَميرُ!
ولو أنَّا ثَبَتْنَا كان خيراً ولكن مالَنَا كَرَمٌ وَخِيرُ
إذا ما لم يكن صَبْرٌ جَمِيلٌ فليْسَ بنافع عدَدٌ كَثِيرُ
أَلا رَجُلٌ له رَأْيٌ أَصِيلٌ به مِمَّا نُحَاذِرُ نَسْتَجيرُ!
يكُرّ إذَا السيوفُ تَنَاوَلْتهُ وَأين بنَا إذَا وَلَّتْ كُرُورُ؟
وطَعْنٌ بالْقَنَا الخطَّارِ حَتَّى يقولُ الرمْحُ: ما هَذا الخطيرُ؟
عظيمٌ أَن يكونَ الناسُ طُرّاً بأنْدُلُس: قتيلٌ، أَو أَسِيرُ
أُذَكِّرُ بالقِرَاع اللَّيثَ حِرْصاً على أنْ يَقْرَعَ البِيضَ الذّكورُ
يبادرُ خَرْقَهَا قبلَ اتساع لِخَطْبٍ مِنْهُ تَنْخَسِفُ البُدورُ
يُوَسِّعُ لِلَّذِي يَلْقَاهُ صَدْراً فقد ضاقَتْ بِمَا تَلْقَى صُدُورُ
تَنَغَّصَتِ الْحَيَاةُ فلا حَيَاةٌ وودّعَ جيرةٌ إذ لا مُجيرُ
قليل فيهِ هَمٌّ مُسْتكِنٌّ وَيَوْمٌ فيهِ شَرٌّ مُسْتَطِيرُ
ونرجو أن يُتيحَ اللهُ نَصْراً عليهم، إنهُ نِعْمَ النّصِيرُ!

ويقال في قضية أخذ الاسبانيول لطليطلة النكتة الآتية: كان الأذفونش السادس قد فرّ من وجه أخيه شانجه، فالتجأ إلى ابن ذي النون ملك طليطلة، فسمح له بالإقامة عنده، ولم يكن من عادة العرب أن يستنكفوا في وقت من الأوقات من إيواء الدخيل. وكان المسلمون أنفسهم إذا حزب الواحد منهم أمر يذهب نزيلاً عند أحد ملوك النصارى، وكم التجأ فيما بعد مسلمون من غرناطة إلى أشبيلية، ونصارى من أشبيلية إلى غرناطة فالمأمون ابن ذي النون تلقى الأذفونش أوانئذ براً وترحيباً، وائتلف الضيف والمضيف وكانا يذهبان معاً إلى الصيد، وكانت أرض طليطلة شجراء، أكثر جداً مما هي اليوم فبينما ذات يوم المأمون والأذفونش في إحدى الجنان بجوار طليطلة، أدركت القائلة الأذفونش، فاضطجع في ظل

شجرة، وجلس المأمون يتحدث إلى أصحابه على مقربة منه، فبينما هم في الحديث، عنّ لهم موضوع طليطلة وما هي عليه من المَنْعة الطبيعية، على شفير ذلك الوادي العميق. فأجمع من حضر من أهل النظر على أن طليطلة لا تؤخذ ولا ينال منها مرام. فانبرى أحد الذين كانوا في ذلك المجلس، وخالف رأي الجماعة، وقال إنه يكفي لتذليل طليطلة، أن يعمد العدو إلى ضواحيها فيجتاحها، ويقطع الميرة عن أهلها، فيضطروا إلى التسليم. فإن لم يمكن أخذ طليطلة بالسيف فيمكن جداً أخذها بالجوع.

وكان الأذفونش بين النائم والواعي. فلما سمع الحديث عن أخذ طليطلة، أصغى إليه، وتنبه له، ووعى كل ما سمعه. ولكنه أسرّها في نفسه، ولم يشعر القوم بأنه سمع مما قيل شيئاً. ثم إنه لما جلس على عرش قشتالة تذكر ذلك المجلس، وعمل برأي من قال إن طليطلة قد تؤخذ بالحصر والجوع.

ويظهر من هنا أن الأذفونش لم يكن يجهل العربية، لأن ابن ذي النون وجماعته إنما تكلموا في تلك القائلة بالعربية، لا بالاسبانيولية. فلو لم يكن الأذفونش عارفاً بالعربية لما فهم الحديث.

والخلاصة أنه حاصر طليطلة عدة سنوات وعاث في نواحيها، وقطع الميرة التي كانت تأتيها من ضواحيها، وما زال يجوّع أهلها حتى أخذها في ٢٥ مايو سنة ١٠٨٥ كما تقدم.

وقيل، وهو الأرجح، إنه استولى على تلك البلدة بدون عناء كبير، بل بإقناعه القادر ابن المأمون بن ذي النون بأنه يكون خيراً له لو ذهب إلى بلنسية، وملك فيها وهي في بحبوحة من الإسلام، وترك له طليطلة الواقعة دائماً في حلق العدو.

وقد أجمع المؤرخون على سوء تدبير القادر بن ذي النون، وأنه لم يكن كفؤاً لعروس مثل طليطلة، فكان وجوده فيها السبب في ذهابها من يد الإسلام. وكان ذلك نبأ كبيراً، كما جاء في مرثية طليطلة، لأن القشتاليين أخذوا بعدها بمخنق الإسلام وبركوا على قلبه في جزيرة الأندلس، وصار بعدها ثغرُه مُعْوِراً وأمرُه مدبراً.

وأصل بني ذي النون من البربر الذين كانوا في خدمة الدولة العامرية. وروى ابن عذاري أن اسم جدّهم لم يكن «ذا النون»، وإنما كان «زنون»، وهو اسم من أسماء البربر فتصحف بطول المدة، وصار «ذا النون» بالذال.

قال: ولم يكن لهؤلاء القوم نباهة قديمة، ولا ذكر إلا في دولة ابن أبي عامر، فإنهم تقدموا في دولته واشتهروا، فكان منهم من يقود الجيوش، ويلي الأعمال والبلاد. وكان منهم في آخر أمد الجماعة وال بكورة «شنت بِريه»، فلما وقعت الفتنة بالأندلس كان الوالي

بمدينة طليطلة وذواتها عبد الرحمن بن منيوه، وأدركته منيته في خلال ذلك، فورث نظره عبد الملك بن عبد الرحمن بن منيوه، فأساء السيرة بالرعية. وكان أهل طليطلة على قديم الدهر أهل فتنة وقيام على الملوك، فلم يرضوا سيرة هذا الفتى فخلعوه، وولوا على أنفسهم من ينظر في أمرهم. ثم إنهم نقموا عليه شيئاً فعزلوه وولوا غيره، ثم خلعوه. ثم رأوا أن يرسلوا إلى ابن ذي النون بشنت بِريه، فوجه إليهم ابنه إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذي النون. فاستولى هذا الفتى على ملك طليطلة وبلادها، فساس أهل مملكته السياسة الحسنة.

وكان أكبر أهل طليطلة رجلاً يسمى أبا بكر بن الحديدي، وكان شيخها، والمنظور إليه بها من أهل العلم، والعقل والدهاء، وحسن النظر في صلاح البلد. وكانت العامة كعضده، وتقوم دونه، فكان هذا الفتى إسماعيل بن ذي النون لا يقطع أمراً دونه، ويشاوره في مهمات أموره، فحسده قوم من أهل طليطلة على منزلته عند أميرهم، فناقشوه وعادوه، وحضرت منية إسماعيل بن ذي النون، فولى بعده ابنه يحيى بن إسماعيل الملقب المأمون، ولما ملك يحيى بن ذي النون طليطلة جرى عل سيرة أبيه في استعمال قانون العدل، وجرى مع ابن الحديدي على سنن أبيه، فاستقامت طاعته، وضخم ملكه. انتهى.
قلنا: ولم يكن القادر بن المأمون على شيء مما كان عليه أبوه فلذلك أضاع تلك البلدة العذراء، والخطة الغراء، وأي ملك أضاع! وأي ثغر مكن منه عدو الإسلام، فتمكن بقدر ما استطاع؟!

ولنذكر هنا ملخصاً ما قاله المستشرق لاوى بروفنسال في الانسيكلوبيدية الإسلامية قال: توليدو، وبالعربي طليطلة، مدينة في اسبانية، موقعها في وسط الجزيرة الإيبيرية على مسافة ٩١ كيلومتراً إلى الجنوب، والجنوب الغربي من مجريط وارتفاعها عن سطح البحر ٥٦٨ متراً، وهي على أكمة من الصخر، يحيط بها نهر تاجُه من الجهات الثلاث، جارياً في واد عميق، يسقي حفافيه إلى الشمال الشرقي، والشمال الغربي، بقعة بديعة مريعة، ومن بعدها ترى بسائط قشتالة الجرداء. وليس في طليطلة اليوم أكثر من ٢٥ ألف نسمة من السكان، إلا أنها لا تزال مركز ولاية، ولا يزال فيها كرسي الأسقف الأعظم برماط اسبانية. وأما موقعها فلا يضاهيه موقع في العظمة.

وقد ذكرها جغرافيو العرب فأطالوا، وقصروا، وجعلها الشريف الادريسي من إقليم الشارات، وفي زمانه كانت طليطلة انتقلت إلى أيدي الاسبانيول، وإنما نوه الإدريسي بمنعة موقعها، وبحصانة أسوارها، وبالتفاف جنانها التي تجري فيها قيّ الماء المرفوع بالنواعير.

وممن أطرى طليطلة أبو الفداء الذي ذكر بساتينها، وقال إنه يوجد فيها رمان ذو

حجم غير معهود. وقال ياقوت الحموي: إن الحنطة التي تنبتها بقعة طليطلة تبقى سبعين سنة ولا تتعفن، وإن زعفرانها هو بغاية الجودة. وقد ذكر طليطلة المؤرخ الروماني تيتليَف وسماها «توليته» وقال: إن الرومانيين استولوا عليها بصعوبة سنة ١٩٣ ق.م. وذلك في زمن فولفيوس Fulvues، وكانت مدينة زاهرة لعهد الرومان وصار لها شأن عظيم بعد انتشار النصرانية. وفي سنة أربعمائة للمسيح انعقد فيها مجمع أساقفة حضره ١٩ أسقفاً، وفي سنة ٤١٨ استولى عليها القوط، وجعلوها حاضرة ملكهم. وفي سنة ٥٦٧ استقر بها «أتاناجلد» ملك القوط، ولما تنصر ريكاريد سنة ٥٨٧ عظم شأنها، وصارت عاصمة الكثلكة في اسبانية. وفي طليطلة كان لذريق ملك اسبانية، ويتحدثون أنه فيها شاهد فلورندة ابنة الكونت يوليان صاحب سبتة تغتسل في الحمام، الذي يقال له حمام الكهف، فهام بها، ولما فتح طليطلة طارق بن زياد سنة ٩٢ للهجرة، أو ٧١٤ للميلاد، كانت تقريباً خاوية على عروشها، ولم يكن فيها غير نزر من اليهود، ضمهم طارق إلى جيشه. ثم وافاه الجيش الذي كان سرحه لأخذ غرناطة ومرسية. وفي طليطلة جعل مؤرخو العرب ملتقى طارق مع موسى بن نصير سيده، ولكن موسى لم يتريث في طليطلة، بل ساق منها إلى الشمال قاصداً سرقسطة. وجميع من كتبوا من العرب عن الأندلس ينقلون الأخبار التي كانت شائعة، والتي هي أشبه بالأساطير منها بالحقائق عن الكنوز والأموال التي وجدها العرب في طليطلة عندما فتحوها، وأشهر هذه الأخبار قصة «البيت المغلق في طليطلة» وقد بحث في هذا الموضوع بحثاً دقيقاً المسيو «ريني باسه» René Basset في رسالة ألّفها سنة ١٨٩٨.

ويدور ذكر طليطلة كثيراً في كتب العرب، ولا سيما من بعد استقرار دولة بني أمية في قرطبة، فإن طليطلة لم تكن تطيع قرطبة، وأصبحت مركز عصيان دائم على الدولة، ومما لا شك فيه أن السواد الأعظم من أهلها بعد استيلاء الإسلام عليها لم يتركوا الديانة الكاثوليكية برغم استعرابهم، وأنهم كانوا لا يطيقون حكم المسلمين برغم شدة تسامح هؤلاء، فكانوا لا يدعون فرصة تمر، ولا غِرة تلوح، حتى يطغوا ويتمردوا.

وفي طليطلة وجدت الثورة البربرية التي وقعت سنة ١٢٢ للهجرة أعظم أنصارها وبجانب طليطلة كانت واقعة وادي السليط التي استأصل فيها جيش قرطبة دابر ثوار طليطلة.

ثم إلى طليطلة هذه انهزم يوسف الفهري من وجه عبد الرحمن الداخل، وبقي ممتنعاً بها حتى قتل[1] سنة ١٤٢، ومن زمن عبد الرحمن الداخل إلى زمن عبد الرحمن الناصر لم

---

(١) بعد أن تمت الغلبة لعبد الرحمن الداخل على يوسف الفهري في خبر سنأتي على تفصيله في قسم =

تفترّ طليطلة يوماً واحداً عن المقاومة، وفي سنة ١٤٧ ثار فيها هشام بن عذره فرماه عبد الرحمن باثنين من قواده: بدر وتمام بن علقمة اللذين حصرا المدينة(١)، ولما تولى هشام الأول ونازعه أخوه سليمان، ذهب هذا إلى طليطلة، والتزم الأمير هشام أن يذهب ويحاصر طليطلة، وبعد حصار شهرين رجع عنها خائباً. وسنة ١٨١ تولى الحكم بن هشام فثارت عليه أيضاً طليطلة بقيادة رجل اسمه عبيدة بن حُميد، وكان أكثر من يغري أهل طليطلة بالثورة شاعرهم غِربيب، الذي كانوا يحبونه(٢) حباً جماً، فولي الأمير الحكم على طليطلة مولّداً أصله من وشقه، اسمه عمروس، وكان اتفق مع الأمير أن يأخذ أهل طليطلة في شَرَك يوقعهم فيه، وذلك أنه دعاهم وقتلهم جميعاً، في الواقعة المسماة بواقعة

= التاريخ إن شاء الله، فر يوسف إلى «فريش» ثم إلى «فحص البلوط» كما جاء في كتاب «أخبار مجموعة» أقدم تاريخ عربي للأندلس، ثم واقع محجة طليطلة يريد ابن عروة، ليأمن عنده، وهو إلى طليطلة على عشرة أميال، فمر بعبد الله بن عمر الأنصاري. وهو بقرية من قرى طليطلة، فقيل له: هذا يوسف منهزماً. فقال لأصحابه: ويحكم! أخرجوا بنا نقتله، ونريح الدنيا منه، ونريحه من الدنيا، ونريح الناس من شره، فقد صار رجلاً ناجشا للحرب. فخرج حتى لحقه، وليس بينه وبين مدينة طليطلة إلا أربعة أميال، وليس معه إلا سابق الفارسي، مولى لبني تميم، ومن يجهله يقول مولى يوسف. وبقيته بسرقسطة، ووصيف واحد فقط، وقد ماتوا من شدة الركض. وليس معهم منعة ولا مدفع، فقتل عبدالله يوسف الفهري، وقتل سابق، وهرب الغلام حتى دخل طليطلة. ثم أقبل عبدالله بن عمر برأس يوسف، فلما بلغ ابن معاوية (أي عبد الرحمن الداخل) إقبال عبدالله بن عمر برأس يوسف أمر بضرب عنق عبد الرحمن بن يوسف المكنى بأبي زيد، وكان عليه حرداً لما صنع بعياله، ثم أخرج رأسه إلى رأس أبيه. اهـ قلنا: ظاهر من هذا النص، وصاحبه أدرى بالحقيقة لأنه أقرب عهداً بالحوادث المذكورة، أن يوسف الفهري لم يكن دخل طليطلة، وإنما كان قاصداً دخولها يوم عبدالله بن عمر الأنصاري.

(١) الذي في «أخبار مجموعة» هو هشام بن عروة الفهري، لا هشام بن عذره. ولا نعلم هل التصحيف في كلام أخبار مجموعة أو في كلام لاوي بروفنسال؟ وقال في «أخبار مجموعة» إنه كان مع هشام في الثورة حياة بن الوليد التجيبي والعمري من ولد عمر بن الخطاب رحمه الله فخرج إليه الأمير عبد الرحمن إلى طليطلة فحاصره فيها فلما عضته الحرب، وناله الحصار، دعا إلى الصلح وأعطى ولده رهينة، ورجع عنه الأمير. فلما انصرف عنه خلع أيضاً، وعاد إلى نفاقه، فغزاه الأمير السنة الثانية، فنزل به وحاربه ودعاه إلى الرجوع فصبر، فلما يئس منه أمر بابنه الرهينة فضربت عنقه، ثم جعل الرأس في المنجنيق ورمى به إليه فسقط في المدينة، ورجع عنه ذلك العام (إلى أن يقول) ثم رجع الأمير، وبعث بعد ذلك بدراً مولاه، وتمام بن علقمة إلى طليطلة فحاصر هشام بن عروة، وقطع الأمير البعوث على الأجناد، وجعلها بينهم دولاً في كل ستة أشهر، فإذا انقضت دولة ندب أخرى، حتى مل أهل المدينة الحصار، واستثقلوا الحرب، وكاتبهم مع ذلك تمام وبدر، فاسلموا هشاماً والعمري وحياة (إلى أن يقول) ثم أمر بهم الأمير فقتلوا وصلبوا.

(٢) قال في النفح: وكانت في أيام الحكم حروب وفتن مع الثوار من أهل طليطلة.

الحفرة[1] (سنة ١٩١) ولكن لم يمض أكثر من عشر سنوات على هذه الواقعة حتى ثارت

(١) يقول دوزي المستشرق العظيم، أشهر أوروبي كتب على الأندلس، إن طليطلة كان فيها من الاسبانيول المستعربة أكثر مما فيها من العرب والبربر الذين كانوا منتشرين في قراها. فبسبب ذلك، وبسبب نفوذ كلمة القسيسين والأساقفة، كانت طليطلة مستعدة دائماً للانتقاض. وكان الاسبانيول لا يزالون ينظرون إليها نظرهم إلى عاصمة لهم في الدين والدنيا، وأهل طليطلة بفطرتهم مترعون إلى الثورة لا يضاهيهم في ذلك قبيل، وكان عندهم شاعر اسمه غربيب من عائلة اسبانيولية مسلمة يغريهم بالانتقاض أبداً. وكان أمير الأندلس يحسب الحساب لغربيب، ولم يقدم على شيء بحق طليطلة ما دام غربيب حياً، ولكن بعد موت غربيب استدعى الأمير أسبانوليا مسلماً من وشقة اسمه عمروس وقال له: إنه لا يوجد غيرك من يقدر أن يريحني من أهل طليطلة الذين لا يرضون عليهم والياً عربياً، فلذلك أنا اخترتك والياً عليهم لأنهم من جنسك. ثم أسرّ إليه رأيه في الاقتصاص منهم فوافقه عمروس عليه لما كان من شدة طمعه ورغبته في إرضاء الأمير، ثم كتب الأمير إلى أهل طليطلة كتاباً يقول لهم فيه إنه نزولاً عند رغبتهم اختار لهم والياً من جنسهم. وما وصل عمروس إلى طليطلة حتى بدأ بإعمال الحيلة حتى ينال ثقة الطليطليين التامة وأخذ يتظاهر بالعصبية للجنس الاسبانيولي، ويبدي في الأحايين بغضاءه لبنى أمية وللعرب على الاطلاق، ثم قال للطليطليين إن سبب العداوة بينكم وبين السلطان هو وضع الجنود في بيوتكم، وتثقيلهم عليكم بأصناف المغارم فمن هناك كانت تنشأ أسباب الخصام فإذا ساعدتموني في بناء حصن لايواء هذه الجنود في طرف البلدة تكونون كفيتم أنفسكم مؤونة هذه المشاجرات. ولما كان الطليطليون قد أولوا عمروس مزيد ثقتهم رضوا باقتراحه هذا بل آثروا أن يكون هذا الحصن في وسط البلدة بدلاً من أن يكون على طرف منها. ولما انتهى بناء الحصن أعلم عمروس السلطان بأنه قد أتم بناء الحصن وانتقل إليه بجنوده. فاسرع السلطان باعلام أحد القواد الذين يرابطون في الثغور بأن يكتب إليه عن حركة بدت من جهة العدو، وذلك حيلة منه حتى يتمكن من ارسال الجنود إلى طليطلة. فلما وصل كتاب القائد أمر السلطان بزحف الجيوش على رأسها ثلاثة من وزرائه بمعية ابنه الأمير عبد الرحمن، ولم يكن بلغ من العمر أكثر من ١٤ سنة، فوصلت الجيوش إلى ضواحي طليطلة فاشار عمروس إلى أعيان الطليطليين بالسلام على الأمير ففعلوا وقابلهم الأمير بالحفاوة الزائدة ورجعوا مسرورين فقال لهم عمروس: تقتضي المصلحة أن ندعو الأمير ليقيم بين أظهرنا عدة أيام، فان هذا الأمير سيكون هو الملك في المستقبل، وأنه يحسن أن تكون علاقات الطليطليين به وثيقة فاستحسن القوم رأي عمروس، وأقبلوا على الأمير يدعونه ليقيم عندهم أياماً فأجاب دعوتهم بعد أن اعتذر ثم لما حصل المقصود أمر الأمير بدعوة أهالي طليطلة وضواحيها إلى طعام فكتبوا إلى جميع الأعيان والوجوه وأقبلوا زرافات في الميعاد المعين، فلم يأذنوا لهم في الدخول إلا واحداً واحداً فكان الواحد يدخل من باب ويرسل فرسه مع تابعه لانتظاره أمام الباب الآخر. وكان عمروس أمر بحفر حفرة في دار الحصن أقام بجانبها عدداً من الجلادين فعندما يصل الواحد من أعيان طليطلة إلى جانب الحفرة يتلقونه بالسيوف ويلقونه فيها. ولم يعلم على التمام عدد الذين قتلوا في ذلك اليوم: فابن عذاري يقول سبعمائة والنويري وابن القوطية يجعلونهم خمسة الآف. ولما صار الوقت ضحى قال أحد أطباء طليطلة لجماعة كانوا أمام باب القصر: ماذا تراه حصل بهؤلاء المدعوين؟ فقيل له: لعلهم خرجوا من الباب الآخر. فقال لهم: كنت عند الباب الآخر فلم أجد أحداً خرج. ثم نظر فرأى دخاناً يتصاعد فقال لهم: ليس هذا دخان الوليمة وإنما هو دخان أجساد قتلاكم. وبعد ذلك هدأت طليطلة مدة طويلة. اهـ وأما غربيب=

طليطلة مرة أخرى، وذلك سنة ٩١٩ فزحف إليها الأمير الحكم بنفسه، ودخل البلدة، وأحرق الجانب الأعلى منها، ثم في سنة ٢١٤ وفق ٨٢٩، ثارت طليطلة أيضاً بتحريض مولد اسمه هاشم الغرّاب، فاستمرت الفتنة سنتين إلى أن سكنت. وفي زمن عبد الرحمن الثاني ثارت أيضاً فأرسل إليها جيشاً بقيادة الأمير أميّة، وكان ذلك بعد الفتنة السابقة بخمس سنوات لا غير.

ثم في السنة التي بعدها حصر الأمير طليطلة حصاراً استمر عدة أشهر، ثم أخذها عنوة في عام ٢٢٢ ولم يرجع عنها حتى أخذ منها رهائن بقيت في قرطبة إلى سنة ٢٣٨ ولكن في هذه السنة نفسها عند ولاية الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم رفعت طليطلة لواء العصيان، وعزل أهلها الوالي العربي الذي عندهم وزحفوا بجيش هزم جيش الأمير محمد في اندوجر سنة ٢٣٩، ولما كانوا يتوقعون زحف الجيوش إليهم من قرطبة تحالفوا مع «أوردونوه» الأول ملك ليون الذي أمدهم بجيش من عنده، ولكن الجيش الأموي تغلب عليهم وقتل منهم عشرين ألفاً.

وسنة ٢٤٤ قوّب الأمير محمد تحت جسر طليطلة بينما كتائب الجند فوق القنطرة، فوقعت وهلكوا جميعاً، فاضطر الطليطليون إلى الخضوع، ولكن على صورة دفع جزية سنوية، وتمتعهم باستقلالهم الداخلي.

وبقيت الحال على هذا المنوال إلى زمن الخليفة الناصر، فلما انتهى من إخضاع جميع الثائرين أرسل إلى طليطلة جماعة من الفقهاء، ليبلغ أهلها بأن استقلالهم الداخلي غير مقبول. فنصح الفقهاء لهم، فذهب نصحهم بدون فائدة فزحف الخليفة إلى طليطلة

= الشاعر الطليطلي فقد قال عنه في «بغية الملتمس» ما يلي: غربيب (بكسر أوله) الطليطلي شاعر قديم مشهور الطريقة في الفضل والخير ومما يتداول الناس من شعره:

يهـــددنـــي بمخلـــوق ضعيـــف ... يهـــاب مـــن المنيـــة مـــا أهـــاب
وليـــس إليـــه محيـــا ذي حيـــاة ... وليـــس إليـــه مهلـــك مـــن يصـــاب
لـــه أجـــل، ولـــي أجـــل، وكـــل ... سيبلـــغ حيـــث يبلغـــه الكتـــاب
ومـــا يـــدري، لعـــل المـــوت منـــه ... قـــريـــب أينـــا قبـــل المصـــاب
لعمـــرك مـــا يـــرد المـــوت حصـــن ... إذا اكتـــاب الملـــوك ولا حجـــاب
لعمـــرك إن محيـــاي ومـــوتـــي ... إلـــى ملـــك تـــذل لـــه الصعـــاب
إلـــى ملـــك يـــدوّخ كـــل ملـــك ... وتخضـــع مـــن مهـــابتـــه الـــرقـــاب

فظاهر من شعر غربيب أنه شاعر ثائر صعب المقادة لا يرهب الملوك ولا يعرف فرقاً بين الملك والصعلوك وهو يذكر ما يذكر من استواء الجميع أمام الموت تهويناً للموت على الناس صنع كل داع إلى ثورة.

بنفسه بجيش جرّار، وخيّم على الجبل المقابل لطليطلة، وأصرّ وصمّم على أن لا يبرح مكانه حتى يفتحها.

ثم جعل يبني في المخيّم بالحجر، وأقام سوقاً، وسمّى المخيّم مدينة الفتح. ودام الحصار إلى سنة ٣٢٠، وفق ٩٣٢، فاضطر الطليطليون إلى الاستسلام. وجعل فيها الناصر حامية أموية، وصارت مركزاً للثغر الأوسط.

وكان والي طليطلة معدوداً من أكابر رجال الديوان، فتولاها محمد بن عبد الله بن حُدير، ثم القائد أحمد بن يعلى.

وفي زمن الحكم المستنصر بن الناصر تولاها غالب بن عبد الرحمن الناصري، حمو الحاجب المنصور بن أبي عامر.

ولما نشبت في قرطبة الفتن التي أفضت إلى سقوط دولة بني أمية، لم تستفد طليطلة من تلك الحوادث، كما كانت تفعل قبل ذلك، وكانت على مدة سنين مقراً للقائد واضح، وملجأ لمحمد بن هشام بن عبد الجبّار، ولكن لما انقسمت الأندلس إلى ممالك صغيرة صارت طليطلة مملكة مستقلة يليها بنو ذي النون.

وكان بنو ذي النون من زعماء البربر خدموا المنصور بن أبي عامر، وكانوا في شنته بَريّه[1]. فلما سقطت الخلافة في قرطبة أرسل أهل طليطلة إلى عبد الرحمن بن ذي النون يعرضون عليه ولاية بلدهم، فأرسل إليهم ابنه إسماعيل، فتولّى طليطلة وملحقاتها، واعتمد على أحد أعيانها أبي بكر بن الحديدي. وذهب بعض مؤرخي العرب إلى أنه بعد سقوط الخلافة لم يكن ابن ذي النون أول أمير لطليطلة، بل سبقه ابن مسرّة، ومحمد بن يعيش الأسدي، وولده أبو بكر يعيش. وذكروا أيضاً سعيد بن شنطير، وولده أحمد وعبد الرحمن ابن منيوه وولده عبد الملك. على أن بداية حكم ابن ذي النون كانت سنة ٤٢٧ وفق ١٠٣٥ إلى ١٠٣٦، فتلقّب ابن ذي النون بالظافر. وكانت وفاته سنة ٤٣٥، وخلفه ابنه يحيى، وتلقّب بالمأمون. ولما مات يحيى سنة ٤٦٧ كانت المملكة الطليطلية قد عظمت واتسعت، فخلفه حفيده يحيى بن إسماعيل بن يحيى، الذي تلقّب بالقادر، ولم يكن في هذا شيء من حسن تدبير جده ولا من دهائه. فأخذت مملكة طليطلة بالانحطاط، وفارقه جميع حلفاء جده من أمراء الإسلام، فانفرد وأحسّ بالضعف، والتزم أن يلجأ إلى الأذفونش السادس صاحب قشتالة وليون، فرضي الأذفونش بأن يحميه لكن على شرط أن يؤدي إليه إتاوة سنوية كان الأذفونش يزيدها سنة عن سنة. فاضطر القادر إلى أن يزيد الضرائب على أهل

(١) Santaver وهي من مقاطعة قونكة.

مملكته، فثاروا به فتقبض على كثير من أعيانهم، وأوقع بهم، ومن جملتهم وزيره ابن الحديدي، فازداد بذلك غضب الطليطليين، حتى فرّ القادر من طليطلة، وبايع أهلها المتوكل ابن الأفطس صاحب بطليوس الذي تولاها سنة ٤٧٢.

فلما زحف إليها الأذفونش السادس بحجة أنه يريد حفظها لابن ذي النون كان ذلك خداعاً منه، ودخلها في ٢٧ محرم سنة ٤٧٨، وفق ٢٥ مايو سنة ١٠٨٥ وكان قد أجبر القادر على عقد معاهدة معه يتخلى له بها عن المملكة، فكانت مرحلة شاسعة من مراحل استرداد المسيحيين للأندلس.

وحصل لأخذ طليطلة وقع عظيم في النصرانية وعند المسلمين أيضاً. وكانت هذه الواقعة سبب غارة المرابطين في السنة التالية. إلا أنه مع ظفر يوسف بن تاشفين، والأيام التي أدالها الله للموحدين بعد المرابطين في جزيرة الأندلس، لم يتمكن المسلمون من استرجاع طليطلة، ولبثوا يحاصرونها حيناً بعد حين، فقد حصروها مرة في زمن الأذفونش السادس نفسه، ومرة أخرى في زمن سلطان الموحدين أبي يوسف يعقوب المنصور، وذلك سنة ٥٩٢، وفق ١١٩٥، وكان المنصور يعقوب استرجع في هذه الغزاة قلعة رباح، ووادي الحجارة، ومجريط، على أثر واقعة الأرَك[1]، التي كانت للمسلمين على النصارى[2]، إلا

(١) يسميها أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة صاحب بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، واقعة الأركة فهو يقول ما يلي: وكان جواز عسكر الموحدين أعزهم الله - يقول أعزهم الله لأنه هو كان في ذلك العصر - إلى الجزيرة الخضراء في عام تسعة وثلاثين وخمسمائة وكان النصارى وقمهم الله قد استجاش بهم ابن غانية ودخل بهم قرطبة وغلبوا عليها وأدخلوا دوابهم في جامعها المعظم ومزقت أيدي الكفار به مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وجمع بعد جهد. ولما سمع النصارى وزعيمهم الأمبراطور بأن عسكر الموحدين قد جاز إلى الجزيرة خاف وخار وجمع الأعوان والأنصار واستشار فاشاروا عليه بأن يرجع إلى بلاده وينظر في حمايتها فخذله الله وتوافق مع ابن غانية على أن يتركه بقرطبة وينصرف فتركه بها ثم خدعه وطلب منه بياسه فدفعها إليه مخافة أن يستقر بقرطبة. واستولى الأمر العالي أدامه الله بعد ذلك على جميع ما كان بأيدي المسلمين بالأندلس وارتفعت المحن والفتن والجور والجزية واجتمعت الكلمة وجرت على الروم دمرهم الله هزايم جمة آخرها هزيمة أذفونش بن شانجه قصمه الله عند الأركة على مقربة من قلعة رباح في التاسع لشعبان المكرم عام إحدى وتسعين وخمسمائة. وكان عسكره الذميم ينيف على خمسة وعشرين ألف فارس ومائتي ألف راجل. وكان معه جماعات من تجار اليهود قد وصلوا لاشتراء أسرى المسلمين وأسلابهم وأعدوا لذلك أموالاً فهزمهم الله تعالى واستوعب القتل أكثرهم وحاز الموحدون جميع ما احتوت عليه محلتهم الذميمة وعاين اللعين الحمام ونجا برأس طمّرة ولجام وكانت هزيمة شنيعة على الشرك وأهله لم يسمع بمثلها والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين.

(٢) الذين يعرفون تاريخ دولة الموحدين يجزمون بأنه لو طالت حياة يعقوب المنصور لاسترجع طليطله وجميع ما كان خلا من الإسلام من بلاد الأندلس.

أنه بعد واقعة نافاس طولوزه (المسماة عند العرب بالعقاب) في ١٦ يوليو سنة ١٢١٢، لم يبق أدنى أمل للإسلام في استرجاع طليطلة.

ولما رجعت طليطلة مسيحية، وصارت عاصمة قشتالة، بقيت حافظة مسحة إسلامية راسخة، فإن قسماً من أهلها لبثوا مسلمين، فكما أنها كانت مدينة الموزاراب أي الاسبان المستعربين في دولة الإسلام، كانت أيضاً مدينة المورسك أي المسلمين المدجّنين في دولة النصارى. ومن الغريب أنه لم يبق آثار كثيرة في هذه البلدة للمسلمين عن إقامتهم الطويلة بها، وكل ما بقي هو آثار جامع صغير في بيب[١] مردوم هو الذي تحول إلى كنيسة باسم كنيسة مسيح النور، وكذلك وجد في طليطلة من بقايا الإسلام بعض أقسام من قصر «تورنيرياس»[٢]، ومن الباب القديم المسمى بباب شقره[٣]. ولكنه وجد كثير في الأرباض من قبور المسلمين التي عليها كتابات عربية[٤].

(١) ذكرنا من قبل أنهم في الأندلس كانوا يلفظون بالإمالة ويقولون للباب بيب ولا يزال في قرطبة وفي أشبيلية وفي غرناطة أبواب كثيرة يقال للواحد منها بيب كذا وبيب كذا وهي إمالة يرجح عندي أنهم أخذوها من الشام فقد سمعت بأذني بعض أهالي بعلبك يقولون للباب بيب وإن كان الأكثرون في الشام اليوم لا يلفظون الباب بالإمالة. ولقد حررت رسالة في علاقة اللهجات العربية بالتاريخ ألقيتها في مؤتمر المستشرقين بليدن سنة ١٩٣١ ونشرتها في مجلة المقتطف وربما أطبعها على حدة إن شاء الله.

(٢) Tornerias.

(٣) Visagra.

(٤) وجدت سنة ١٨٧٨ في ديرسان برتلمي في بقعة طليطلة كتابة هي الآن محفوظة في المتحف الأثري الوطني في مجريط هذا نصها بعد البسملة: «يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور. هذا قبر محمد بن أحمد بن محمد بن مغيث كان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون توفي رحمه الله ليلة الأحد لثمان بقين من ربيع الآخر سنة سبع وأربعين وأربعمائة». ذكر لاوي بروفنسال: أن الغزال سفير المغرب زار سنة ١٧٦٦ طليطلة واطلع على هذه الكتابة وروى ذلك في رحلته فقال: «وركبت في الحال مع الحاكم للمواضع التي أرشدنا إليها فإذا بمقبرة المسلمين رحمهم الله سارية من الرخام مكتوب عليها بخط كوفي: يا أيها الناس الآية، وهذا قبر الإمام أحمد بن أحمد بن مغيث كان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون توفي رحمه الله عليه ليلة الأحد لثمان بقين من ربيع الثاني سنة تسع وأربعين وأربعمائة. ثم سارية أخرى مكتوب في أولها ما في الأول من الآية الشريفة غير أن صاحب القبر لم يعرف من هو لمحو المحل الذي هو مكتوب ولم يبق من الحروف إلا لفظ أربع وأربعين في محل التاريخ لا يقرأ ما قبله ولا ما بعده قال لاوي بروفنسال: إن صاحب هذا القبر فيما يترجح هو ابن عمر أحمد بن محمد بن مغيث الصدفي المحدث الطليطلي الذي مات سنة ٤٥٩ وترجمه ابن بشكوال في الصلة وقال إن السفير المغربي لم يكن فيما يظهر ماهراً بقراءة الخط الكوفي. وقد وجدت أيضاً في تلك البقعة كتابة أخرى هي هذه: البسملة... =

وختم لاوى بروفنسال هذا الفصل في الانسيكلوبيدية الإسلامية بقوله: برغم أن طليطلة كانت ثغراً، وكان فيها عناصر عظيمة من النصرانية، فقد كانت لآخر عهد بني أمية، وفي أيام المأمون بن ذي النون، من القواعد للثقافة الإسلامية في الأندلس، وان كثيراً من التراجم والسير لتتعلق بعلماء وحكماء وفقهاء من مسلمي طليطلة. انتهى.

وجاء في الانسيكلوبيدية الإسلامية تحت لفظة «أندلس» بقلم المستشرق سيبولد كلام قال فيه: إلى الآن لم يتيسر القيام بتحقيق علمي تام عن كيفية تأثير المدنية الاسبانية العربية بأوروبا في القرون الوسطى، وإلى أية درجة بلغ هذا التأثير. فهذا الأمر يتعلق بالبحث عن دار الترجمة التي كانت بطليطلة، وهي الواسطة التي قام بها أدباء اليهود بين الشرق والغرب، وكان هؤلاء اليهود بأجمعهم منسوبين إلى الثقافة العربية. انتهى.

وجاء في صبح الأعشى للقلقشندي: أن موقع طليطلة في آخر الاقليم الخامس قال ابن سعيد: حيث الطول خمس عشرة درجة وثلاثون دقيقة، والعرض ثلاث وأربعون درجة وثمان عشرة دقيقة، قال في تقويم البلدان: وهي من أمنع البلاد وأحصنها، مبنية على جبل عال، والأشجار محدقة بها من كل جهة، ويصير بها الجُلَّنار بقدر الرمانة من غيرها، ويكون بها شجر الرمان عدة أنواع، ولها نهر يمر بأكثرها، ينحدر من جبل الشارة، من عند حصن هناك يقال له تاجُه، وبه يعرف نهر طليطلة. ومنها إلى نهاية الأندلس الشرقية، عند الحاجز الذي هو جبل البُرت، نحو نصف شهر. وكذلك إلى البحر المحيط بجهة شلب. ثم ذكر القلقشندي من مضافات طليطلة مدينة وليد(١)، ومدينة الفرج(٢)، ومدينة سالم(٣)

= «هذا قبر أحمد بن فرج مولى محمد بن جهور توفي رحمه الله يوم الأحد يوم خمس عشرة من شهر رمضان سنة اثنتين وستين وأربعمائة رحمة الله عليه» وكتابة أخرى على قبر مجهول نصها: «البسملة. . . هذا قبر محمد بن يوسف بن العاسل توفي رحمه الله يوم الخميس لستة عشر خلون من المحرم سنة أربع وستين وأربعمائة فرحم الله من ترحم عليه» ووجدت كتابة بخط نسخي تاريخها سنة ٦٦٠ للهجرة هذا نصها بعد البسملة والتصلية: «يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور هذا قبر زهرة بنت محمد بن محمد رحمها الله توفيت وهي تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله في عام ستين وستمائة». فهذه الكتابة هي بعد رجوع طليطلة للاسبانيول بنحو من مايتي سنة فقد بقي فيها عدد غير قليل من المسلمين المحافظين على جميع شعائرهم وقد بقي فيها مسلمون إلى ما بعد ذلك العهد بكثير ولكن بعد صدور الأوامر من ملوك الأسبان بتنصير جميع المسلمين قسراً أصبحوا لا يقدرون أن يعلنوا إسلامهم وبقي في تلك البلدة مسلمون مكرهون على النصرانية وقلوبهم مطمئنة بالإيمان إلى ما بعد سنة ألف للهجرة.

(١) Valladolid.

(٢) ويقال لها وادي الحجارة وبالاسبانيولي Guadalajara.

(٣) والاسبانيول يقولون لها مدينة سالي بالترخيم Medinaceli.

التي فيها قبر المنصور بن أبي عامر.

بقي علينا أن نذكر قضية المائدة التي يقال إن طارق بن زياد وجدها في طليطلة عند فتحها، وأطال مؤرخو العرب في وصفها، وهاموا في أودية الخيال، وقالوا ما ليس وراءه مقال، وسمّوها مائدة سليمان، وزعموا أنها كانت من دخائر أشبان، ملك الروم لذي بني أشبيلية، وأنه أخذها من بيت المقدس. وقالوا إن هذه المائدة قُوِّمت عند الوليد بن عبد الملك بمائة ألف دينار، وقيل إنها كانت من زمرد أخضر. وقالوا إن طارقاً وجد بطليطلة ذخائر عظيمة، منها مائة وسبعون تاجاً من الدر والياقوت والأحجار النفسية، وإيوان ممتلىء من أواني الذهب والفضة، وهو كبير، حتى قيل إن الخيل تلعب فيه فرسانها برماحهم لوسعه. وذكروا أن أواني المائدة من الذهب، وصحافها من اليشَم والجَزَع، قال المقرّي في نفح الطيب بعد سرده هذه الأشياء: وذكروا فيها غير هذا مما لا يكاد يصدقه الناظر فيه.

قلنا: هذه أخبار أشبه بالأساطير، وحكايات العجائز منها بالتواريخ، وقد كان مؤرخونا رحمهم الله في غنى عن نقل كل ما تلوكه ألسن العوام الذين يتكلمون بقدر عقولهم، وكلما بعد الزمان أو المكان ازدادت المبالغة في الخبر. ورحم الله ابن خلدون الذي عاب على المؤرخين تسوقهم من الأخبار كيفما اتفقت، بدون تمحيص ولا تفكير وبدون عرض الأشياء على أصولها، ولا قياسها بأشباهها، وأطال في هذا الموضوع. وكان حجة للعرب في أمر التحقيق.

والحقيقة التي لا مفر منها أن من عادة مؤرخي العرب، إلا من رحم ربك، نقْلَ الغث والسمين بدون أن يأذنوا لأنفسهم في الاعتراض على ما يكونون هم أنفسهم مرتابين في صحته، وذلك تورّعاً عن تكذيب من قبلهم، وبحجة أن هذه المرويات قد تكون صحيحة، وإن هذا العالم هو عالم الإمكان، فليس ثمة شيء مستحيل، وإن قدرة الله تعالى لا يعجزها شيء، وما أشبه ذلك من التعليلات.

والجواب: نعم إن قدرة الله تعالى لا يعجزها شيء، وإن هذه المرويات وأغرب منها بكثير غير خارج عن حيز الإمكان، ولكن هذا شيء والذي نحن فيه شيء آخر، فعدم خروج الغرائب عن حيز الإمكان لا يوجب أن يكون كل ما يروى منها صحيحاً، إذا لم توجد له آسانيد لا يتطرق إليها الشك، وحجج لا يمكن فيها النزاع. والحال أنه في ما يروى عن هذه المائدة التي قيل إن العرب وجدوها في طليطلة، لا توجد إثبات تحمل على الجزم بصحتها، وقد يكون طارق وجد في عاصمة القوط هذه بعض ذخائر ونفائس، مما لا تخلو منه عواصم الملوك، وربما وجد مائدة مرصعة بالدرر واليواقيت، وهذا عند الملوك

شيء معتاد، وقد قيل: عن الملوك ولا تسل، ولكن العوام جعلوا الواحد مئة، وواصلوا المسألة إلى الحد الذي يتخيل فيه الإنسان قصص ألف ليلة وليلة.

وأما الافرنج فقد تكلموا عن هذه الروايات فحملوها على الخيالات، وعدوها من المحالات، وهذا أيضاً مردود لأن عاصمة كعاصمة اسبانية يجوز أن يجد فيها الفاتح من ذخائر ملك القوط حجارة كريمة، وتيجاناً مرصعة، ومائدة من الذهب والفضة ويجوز أيضاً أن يطأ إيواناً واسعاً، مموهمة أطرافه بالذهب، وإن كانت الفرسان لا تلعب فيه بأرماحها.

وأما طول قنطرة طليطلة وعرضها، وأن الطول ثلاثمائة باع، وأن العرض ثمانون باعاً، فهو من المبالغات التي تتناقلها العوام بدون روية، ولعلها من خطأ النساخ الذين نقلوا نفح الطيب.

أما ابن حوقل في المسالك والممالك فيقول عن طليطلة: وهي مدينة كبيرة جليلة مشهورة ذات سور منيع، وهي على وادي تاجُه، وعليه قنطرة عظيمة، ويقال إن طولها خمسون باعاً، إلخ، فظهر من هنا اختلاف الرواية من ثلاثمائة إلى خمسين، على أن المقرّي في النفح يروي أن هذه القنطرة قد خربت أيام الأمير محمد الأموي، لما عصاه أهل طليطلة، وقال فيها الحكيم عباس بن فرناس أول من اخترع آلة للطيران:

ما كان يُبقِي اللهُ قنطرة نُصبت لحمل كتائب الكفر

والأمير محمد قد توفي سنة ٢٧٣، وابن حوقل كتب كتابه هذا في الثلث الأول من القرن الرابع للهجرة، أي بعد وفاة الأمير محمد الأموي بستين أو سبعين سنة، فتكون القنطرة الشهيرة الموصوفة قد خربت، وقام مقامها القنطرة الحديثة، التي يقول ابن حوقل إن طولها خمسون باعاً فهل بين القنطرتين كل هذا الفرق؟ وعلى كل حال لا نجد القنطرة الحاضرة على تلك العظمة التي حدثوا عنها، فهي قنطرة كبيرة بجانبها أخرى صغيرة أصلها من بناء العرب، ثم تشعثت في زمن الأذفونش الملقب بالحكيم فأصلحها. ثم جددها تينوريوه رئيس الأساقفة.

وجاء في مروج الذهب للمسعودي عن طليطلة قوله: قصبة الأندلس يشقها نهر عظيم يدعى تاجُه: يخرج من بلاد الجلالقة والوسقيد (Basque) وهي أمة عظيمة لهم ملوك وهم حرب لأهل الأندلس كالجلالقة والافرنجة، ويصب هذا النهر في البحر الرومي.

هذا تحريف من النساخ أو هو سهو من المسعودي نفسه، لأن نهر تاجه مصبه في البحر الاطلانتيكي وهو موصوف بأنه من أنهار العالم، وعليه على بعد من طليطلة قنطرة عظيمة تدعى قنطرة السيف، بنتها الملوك السالفة.

ومدينة طليطلة ذات منعة، وعليها أسوار منيعة، وأهلها بعد أن فتحت وصارت لبني أمية قد كانوا عصوا على الأمويين، فأقامت مدة سنين ممتنعة، لا سبيل للأمويين إليها. فلما كان بعد الخمس عشرة وثلاثمائة فتحها عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، وعبد الرحمن هذا هو صاحب الأندلس في هذا الوقت، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، وقد كان غيّر كثيراً من بنيان هذه المدينة حين افتتحها وصارت دار مملكة الأندلس قرطبة إلى هذا الوقت... (إلى أن يقول): ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة، وتدعى بنو أمية الخلائف، ولا يخاطبون بالخلفاء، لأن الخلافة لا يستحقها عندهم إلا من كان مالكاً للحرمين، غير أنه يخاطب بأمير المؤمنين اهـ.

قلت: ذكر هذا المسعودي في زمن عبد الرحمن الناصر، ويظهر أنه كتبه قبل أن علم أن الناصر رحمه الله تلقب في آخر الأمر بالخليفة، وبأمير المؤمنين معاً. وذلك بعد أن توحدت الجزيرة الأندلسية تحت حكمه، وامتد سلطانه إلى بر العدوة، وكان قد بدأ الضعف في دولة بني العباس في بغداد.

وربما يكون الناصر لم يكن اشتهر تلقبه بالخلافة في سنة ٣٣٢ التي كتب المسعودي فيها كتابته هذه فإن وفد قسطنطين بن ليون ملك القسطنطينية إلى الناصر، كان في سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، على رواية ابن خلدون، أو سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، على رواية غيره، وقد خاطب فيه صاحب القسطينطينية المذكور عبد الرحمن الثالث الأموي الناصر لدين الله بقوله: «العظيم الاستحقاق للفخر، الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة، الحاكم على العرب بالأندلس، أطال الله بقاءه» وفي الاحتفال الذي جرى عند وصول سفراء ملك الروم وتكلم فيه القاضي المفوّه المشهور، منذر بن سعيد البلّوطي، كان من جملة كلامه في ذلك الجمع: فأصبحتم بنعمة الله إخواناً وبلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً، حتى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات. (إلى أن يقول): فقد أصبحتم بين خلافة أمير المؤمنين، أيده الله بالعصمة والسداد، وألهمه خالص التوفيق إلى سبيل الرشاد، أحسن الناس حالاً، وأنعمهم بالاً، وأعزهم قراراً، وأمنعهم داراً إلخ.

فمن هنا يظهر أن لقبي الخليفة، وأمير المؤمنين كانا في ذلك الوقت مستعملين بحق عبد الرحمن الناصر، وإذا رجعنا إلى رواية النفح نجد أن الناصر تلقب بهما من قبل ذلك، فإنه يقول في صفحة ١٦٥ من الجزء الأول، الطبعة المصرية الأولى، ما يلي: وهو أول من تسمى من بني أمية بالأندلس بأمير المؤمنين، عندما التاث أمر الخلافة بالمشرق، واستبد

موالي الترك على بني العباس، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع عشرة وثلاثمائة، فتلقّب بألقاب الخلافة. انتهى.

وفي بغية الملتمس لابن عميرة: ان موسى بن نصير لما افتتح الأندلس، مضى على وجهه يفتتح المداين، حتى انتهى إلى مدينة طليطلة. وهي مدينة الملوك، فوجد فيها بيتاً يقال له بيت الملوك، وجد فيه خمسة وعشرين تاجاً مكللة بالدر والياقوت، وهي على عدد الملوك الذين ملكوها، كلما مات ملك جعل تاجه في ذلك البيت، وكتب على التاج اسم صاحبه، وكم أتى عليه من الدهر إلى يوم مات. انتهى. فهنا خمسة وعشرون تاجاً لا غير.

وأما في نفح الطيب فقد ذكر في الجزء الأول في الصفحة ١٣٥ أنه وجد في طليطلة مائة وسبعون تاجاً من الذهب الأحمر، مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة، ووجد ألف سيف ملوكي، ووجد فيها من الدر والياقوت أكيال، ومن الذهب والفضة ما لا يحيط به وصف. ومائدة سليمان، وكانت فيما يذكر، من زمردة خضراء وزعم بعض العجم أنها لم تكن لسليمان[1]، وإنما أصلها أن العجم أيام ملكهم كان أهل الحسنة في دينهم، إذا مات أحد منهم، أوصى بمال للكنائس، فإذا اجتمع عندهم مال له قدر، صاغوا منه الآلة من الموائد العجيبة، والكراسي من الذهب والفضة، تحمل الشمامسة والقسوس، فوقها الأناجيل في أيام المناسك، ويضعونها في الأعياد للمباهاة. فكانت تلك المائدة في طليطلة مما صنع في هذا السبيل، وتأنق الملوك في تحسينها، يزيد الآخر منهم فيها على الأول، حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات، وطار الذكر بها كل مطار. وكانت مصوغة من الذهب الخالص، مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزبرجد. وقيل إنها من زبرجدة خضراء، حافاتها وأرجلها منها، وكان لها ثلاثمائة وخمس وستون رجلاً، وكانت توضع في كنيسة طليطلة، فأصابها طارق، اهـ.

قال المقرّي: وقد ذكرنا فيما مر عن ابن حيان ما فيه نظير هذا، وذكرنا فيما مضى من أمر المائدة وغيرها ما فيه بعض تخالف. وما ذلك إلا لأنا ننقل كلام المؤرخين، وإن خالف بعضهم بعضاً، ومرادنا تكثير الفائدة.

وبالجملة فالمائدة جليلة المقدار، وإن حصل الخلاف في صفتها، وجنسها، وعدد أرجلها، وهي من أجل ما غنم بالأندلس، على كثرة ما حصل فيها من الغنائم.

(تم الجزء الأول والحمد لله)

---

(١) ونظنه أصاب.

الفهـــرس